د. رمسيس عوض

الإلحاد في الغرب



سينا للنشر
القاهرة

الانتشار العربي
بيروت

الالحاد في الغرب

د. رمسيس عوض

الإلحاد في الغرب

سينا للنشر

القاهرة

الانتشار العربي

بيروت

الغلاف : محمد شمس الدين

سينا للنشر
١٨ ش ضريح سعد القصر العيني ،
القاهرة ، جمهورية مصر العربية

مؤسسة الانتشار العربي
ص.ب : ١١٣/٥٧٥٢
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٧

المحتويات

المقدمة

الزندقة والإلحاد ظاهرة قديمة

حتى قبل ظهور المسيحية اتهم الإغريق عدداً من فلاسفتهم وأدبائهم ومفكريهم بالهرطقة ، نذكر منهم الفليسوف سقراط الذى حكم عليه بالموت بشرب السم عام ٣٩٩ ق . م . وكانت إحدى التهم الموجهة ضده الزراية بآلهة الأثينيين وعقائدهم الدينية . فضلاً عن أن الأثينيين ألصقوا تهمة الهرطقة بعدد من الأدباء والفنانين مثل النحات فيدياس (المولود نحو ٥٠٠ ق . م .) والكاتب التراجيدى المعروف يوربيديس (المولود نحو عام ٤٠٧ ق . م .) بالإضافة إلى أسباسيا خليلة بركليس حاكم أثينا الذى عاش فى الفترة بين ٤٩٠ و٤٢٩ ق . م . ولكن أسباسيا برئت من هذه التهمة . ويمثل أفلاطون ذروة التشدد فى المطالبة بمعاقبة المروق الدينى ، فنحن نراه فى جمهوريته يدعو إلى ضرورة إعدام كل من يتجرأ أو يتطاول على الآلهة . ولكن هذه السياسة القمعية المتشددة التى اتبعها الإغريق إزاء الهراطقة لم تخل من التناقض أو المفارقة . ففى حين اتهم الإغريق المؤلف المسرحى يوربيديس بالهرطقة وعاقبوه عليها نرى أنهم تغاضوا عن هرطقة كاتبهم المسرحى الكوميدى المعروف أرسطفان (٤٤٨ - ٣٨٠ ق . م .) وقام أهل أثينا بمكافأته وتكريمه .

ونورد فيما يلى نبذة عن أشهر الهراطقة والملاحدة بين فلاسفة الإغريق .

الذريّون Atomists

تعتبر النظرية الذرية من أقدم المذاهب المادية وأبرزها عند الإغريق ، استحدثها الفيلسوف الإغريقى ليوكيبوس **Leucippus** الذى يقال إنه ترعرع نحو عام ٤٤٠ ق . م . ويشك مؤرخو الفلسفة فى وجوده كما أن أفلاطون تجاهل وجوده تجاهلاً تاماً . غير أن أرسطو أشار إليه عدة مرات فى كتاباته . وإذا كان التاريخ قد طوى ليوكيبوس فى طيات النسيان فقد اقترن بالنظرية الذرية اسم تلميذه ديموقريطس الذى عاصر سقراط والسفسطائيين وعاش تقريباً فى الفترة بين ٤٦٠ و٣٦١ ق . م . وساعد على انتشار هذه النظرية أن الفيلسوف أبيقور اتخذها أساساً بنى عليه نظريته فى الأخلاق . فضلاً عن أن الشاعر الرومانى الكبير لوكريشيوس **Lucretius** الذى عاش فى الفترة من ٩٩ إلى ٥٥ ق . م . قام بشرحها فى قصيدته العظيمة «عن الطبيعة» .

ديموقريطس Democritus (حوالى ٤٦٠ - ٣٦١ ق . م .)

إذا كان الغموض يحيط بشخصية ليوكيبوس فإن حياة ديموقريطس واضحة للعيان ولا لبس فيها . ولد ديموقريطس فى مدينة أبديرا فى تراقيا وكان شديد النهم للعلم يطلبه حيثما استطاع ولهذا كثرت أسفاره . ويعتقد أنه أمضى وقتاً طويلاً فى مصر طلباً للعلم والحكمة معاً . ومن المؤكد أنه زار بلاد فارس للسبب نفسه . وكان معاصراً لسقراط والسفسطائيين . والجدير بالذكر أنه سطر جانباً من كتاباته للرد على بروتاغوراس الفيلسوف السفسطانى المعروف . وعندما قدم بروتاغوراس إلى أثينا استقبله الأثينيون بالترحاب الشديد فى حين أنهم أشاحوا بوجوهم عن ديموقريطس وتجاهلوا وجوده بينهم تجاهلاً تاماً .

كان هدف ديموقريطس من وراء استحداث المذهب الذرى ، التوفيق بين مذهبين فلسفيين متعارضين هما الواحدية Monism كما تتمثل فى فلسفة بارمنيدس ، والتعددية Pluralism كما تتمثل فى فلسفة امبيدويكليس Empedocles وسوف نتناول التعددية فيما بعد . انتهج ديموقريطس منهجاً أقرب ما يكون إلى المنهج العلمى الحديث فقد استطاع هذا الفيلسوف الذرى أن يتجنب التورط فى معظم الأخطاء التى وقعت فيها الفلسفات التأملية الإغريقية من قبل . آمن ديمقريطس أن كل شىء يتكون من ذرات لا تقبل التجزئة من ناحية التركيب الفيزيقى وأن هذه الذرات لا تفنى ولا تستحدث وأن هناك فراغاً يتيح لهذه الذرات أن تتحرك حركة دائمة فيه . وإذا كان بارمنيدس قد أنكر إنكاراً مطلقاً وجود الفراغ فقد أكد الذريون وجوده تأكيداً مطلقاً إذ ذهبوا إلى استحالة حركة الذرات دون فراغ تتحرك فيه . وآمن الذريون كذلك أن الذرات لا نهائية فى عددها وأن الفراغ الذى تتحرك فيه لا نهائى أيضاً . يقول ديموقريطس إن الفراغ اللا نهائى ليس فيه فوق أو تحت . ويقارن حركة الذرات فى روح الإنسان بذرات الغبار التى نراها سابحة فى شعاع الشمس عندما لا تكون هناك رياح . ويبدو أن هذه الصورة بوجه عام تمثل حركة الذرات كما يراها ديموقريطس . ويبدو أيضاً أن هذا الفيلسوف لم يقل إن للذرة وزناً مثلما فعل فيما بعد الفيلسوف أبيقور الذى بنى مذهبه الأخلاقى على أساس نظرية ديموقريطس الذرية . لقد ذهب الفلاسفة فيما مضى إلى أن خصائص الأشياء تكمن فى طبيعتها بمعنى أن الحلاوة خاصية تكمن فى التفاح ، والبياض خاصية تكمن فى زهرة الليلاك . ومعنى هذا أن خصائص الأشياء تكمن فى الأشياء نفسها ولها وجودها المستقل عنها بغض النظر عن احساسنا بها . فلما جاء الذريون قلبوا هذه النظرية رأساً على عقب فذهبوا إلى أن الذرات لا تملك بطبيعتها أياً من الخصائص التى تؤثر فى الحواس ، فالذى يميز هذه الخصائص عن بعضها البعض هو اختلاف الذرات المكونة للشىء فى الشكل والعدد . حتى الروح تتكون من ذرات بالغة الدقة والنعومة والاستدارة . وذرات الروح أشبه ما تكون بالنار . ولعملية التنفس فى احتفاظ الروح بالحياة أهمية قصوى لأن ذرات هذه الروح تبلغ حداً من الدقة البالغة يعرّضها لخطر الضياع لو توقف التنفس أو كان هناك ما يمنع استمراره . وللتنفس فائدتان بالنسبة لذرات الروح فهو من ناحية يساعد هذه الذرات على التماسك وعدم الانفراط بسبب ما له من ضغط خارجى . كما أنه من ناحية أخرى يعيد ملء هذه الذرات بالمادة النارية الموجودة فى الهواء . ويفسر ديموقريطس عمل الحواس المختلفة بطريقة مماثلة ، فهى جميعاً تعمل بفعل دخول الذرات الموجودة فى الخارج إلى أعضاء الجسم المختلفة . وخلاصة القول إن نظرة ديموقريطس المتشككة تكمن فى إيمانه - كما أسلفنا - بعدم وجود خصائص للأشياء داخل الأشياء نفسها . فهى خصائص تبدو فقط للناظر إليها . وهذه نظرية فى المعرفة تقترب كثيراً من نظرية الفيلسوف الإنجليزى المعروف جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) .

ويستتبع هذه النظرية أن الإدراك الحسى لأى شىء لا يمثل هذا الشىء تماماً . فلا غرو إذا رأينا ديموقريطس

يجأر بالشكوى من انتفاء اليقين فى المعرفة الإنسانية . ولعل الشىء اليقينى الوحيد الذى آمن به ديموقريطس هو وجود الذرات التى تتحرك فى الفراغ . ويفرق ديموقريطس بين نوعين من المعرفة : أحدهما - وهو الأدنى - يتمثل فى معرفة الحواس التى يسميها هذا الفيلسوف معرفة «اللقطاء» والآخر - وهو الأرقى - يبدأ عندما تعجز الحواس عن أن تكون ذا نفع أو فائدة ويسميه ديموقريطس معرفة «الأصلاء» وفيها يضطلع الفكر بأداء دوره . والرأى عنده أن الفكر لا يعدو أن يكون عملية مادية أو فيزيقية بحتة . فذرات الروح التى تنتشر فى كل أرجاء جسم الإنسان ما تلبث أن تتصل اتصالاً مباشراً بالذرات فى الخارج . وعلى الفور تتعرف ذرات الروح داخل الجسد بذرات المادة خارجها . وليس الفكر والمعرفة سوى تغير يحدث فى مادة الروح نتيجة دخول الانطباعات من الخارج ، فى حين أن الإحساس هو تغير يحدث فى العضو الخاص به نتيجة دخول الجزئيات الخارجية المنبعثة من الأشياء . وما من شك أن هذه النظرية الذرية ليست نظرية مادية صرف فحسب ، بل إنها أيضاً نظرية ميكانيكية . ويبدو أن الأقدمين أساءوا فهم الذريين ومذهبهم ، فقد أنحو عليهم باللائمة لأنهم ينسبون كل شىء إلى المصادفة فى حين أن فحوى النظرية الذرية يخالف هذا الاعتقاد . فهذه النظرية تقوم على الإيمان بالجبر وترى أن كل شىء يحدث وفقاً لقوانين الطبيعة ونواميسها . والذى لا يرقى إليه الشك أن ديموقريطس أنكر حدوث أى شىء بمحض الصدفة . كما أنه ينسب إلى ليوكيبوس قوله : «لا شىء يحدث بالمصادفة فكل شىء له سبب ويحدث بالضرورة .» صحيح أن الصدفة قد تكون السبب الأول فى وجود العالم . ولكنه بعد وجوده أصبح يسير وفقاً لقوانين طبيعية ميكانيكية تعمل إلى الأبد دون أن تتدخل الصدفة أو حتى العناية الإلهية فيها .

لقد درج الفلاسفة الذريون (بعكس سقراط وأفلاطون وأرسطو) على السؤال عن الغرض أو الغاية من وجود الأشياء واكتفوا بتفسير وجودها على نحو ميكانيكى ، الأمر الذى ساعد فى النهاية على ازدهار العلم ، فى حين أن تورط الفلاسفة فى طرح الأسئلة الغائية قد انتهى بالعلم إلى طريق مسدود حتى مجىء عصر النهضة . وبعد مرور ما يقرب من ألفى عام على استحداث ديموقريطس للنظرية الذرية جاء علماء الكيمياء المحدثون لينفضوا الغبار عنها ويحيوها من جديد وينادوا بنظرية مشابهة .

قد يظن المرء أن فلسفة ديموقريطس الموغلة فى المادية والمنادية بأن العالم تحكمه وتسيره القوانين الطبيعية تستبعد الألوهية تماماً من مجالها . ولكن هذا يجانب الحقيقة ، فديموقريطس يؤمن بوجود الآلهة وبأن البشر يسيئون فهم طبيعتها وقدرتها . والآلهة فى نظره لها وجود مادى وتشبه البشر فى هيئتها ولكنها أعظم وأقوى منهم وتعيش لفترات أطول من حياة الإنسان . ومن ثم فهى ليست سرمدية أو خالدة . وينكر ديموقريطس قدرة الآلهة على كل شىء . ولكنه يعترف أن لها على البشر أثراً حميداً أحياناً وسيئاً أحياناً أخرى . والآلهة فى نظره مصدر البشائر والنذائر والنبوءات . فضلاً عن أنها تمتلك من العلم ما يفوق علم البشر لأنها تتمتع بحرية أكبر فى الحركة . والآلهة ليست مقدسة كما درجنا على فهم القداسة فهى بدورها قد جاءت إلى الوجود نتيجة العمليات الميكانيكية الناجمة عن اختلاط الذرات بعضها ببعض . ومن الواضح أن مثل هذه النظرية مادية بحتة .

والجدير بالذكر أن لديموقريطس نظرية فى علم النفس . فقد ترك وراءه شذرات فى الأخلاق مفادها أن الإنسان يسعى إلى تحقيق السعادة عن طريق اجتناء اللذة واجتناب الألم قدر ما يستطيع . ويحبذ هذا الفيلسوف الاعتدال والقصد فى طلب اللذة وضرورة ضبط النفس وتحكم الإنسان فى عواطفه .

جماعة التعدديين :

تتكون جماعة التعدديين من ثلاثة فلاسفة هم ليوكيبوس مؤسس مذهب الذريين الذى سبق الإشارة إليه وأبيدوكليس وأنكساجوراس . ويرجع السبب فى هذه التسمية إلى أنهم جميعاً يتفقون فى انكار وجود مادة أولية واحدة لا تتغير أو تتبدل هى الأصل فى وجود كل الأشياء ، كما أنهم يتفقون فى استبدالها بحشد من الأجسام أو العناصر الأولية التى لا تفنى ولا تستحدث ولا يطرأ عليها أدنى تغير . وبهذا استطاع التعدديون أن يجدوا تفسيراً لمشكلة الواحد والمتعدد ومشكلة الثابت والمتغير وأن يوفقوا بين نظرية بارمنيدس المنادية بالثبات الدائم ونظرية هيراقليطس المنادية بالتغير الدائم ، أى التوفيق بين ديمومة الحقيقة ومظاهر التنوع اللانهائى الذى يزخر بها العالم . وهناك فرق بين التنوع النابع من عنصر أولى واحد والتنوع النابع من ائتلاف مجموعة لا نهائية من العناصر الأولية . ففى الحالة الأولى يأتى التنوع نتيجة تحولات ديناميكية من داخل العنصر الأولي نفسه دون الحاجة إلى ما يقوم بتغييره من الخارج ، فى حين أن التغيرات التى نادى بها التعدديون تأتى نتيجة اختلاط العناصر الأولية التى لا تفنى ولا تستحدث بكميات ومقادير متفاوتة هى السبب فى كل ما نراه حولنا من تغير . ومعنى هذا أنهم يرون أن التغير الذى يطرأ على الأشياء مجرد تغير ميكانيكى . ولأن التعدديين افترضوا أن العناصر الأولية المختلطة مواد غير حية ، فقد وجدوا لزاماً عليهم إضافة عامل جديد هو الحركة فسروا به التغير الذى يطرأ على العناصر الأولية عند اختلاطها ببعضها البعض .

اكسنوفانيس Xenophanes

من الخطأ أن نظن أن النظرية الذرية أو المذهب المادى نشأ من فراغ . فقد سبق ديموقريطس إلى المذهب المادى فيلسوف عقلانى غير معروف هو اكسنوفانيس الذى عارض تصوف فيثاغورث وعبر عن طائفة من الأفكار الجريئة المتحررة فذهب إلى أن كل شيء فى الوجود يتكون من التراب والماء . ويضيف اكسوفانيس أن البشر يتصورون الآلهة على هيئتهم فهو يقول فى هذا الشأن : «إن الشاعرين هوميروس وهزيود نسبا إلى الآلهة أنها تولد كما يولدون وترتدى الملابس مثلهم . فضلاً عن أن لهذه الآلهة أصوات البشر وهيئتهم نفسها . ولو أن الآلهة والخيل والأسود كان لها أيد يمكن أن تستخدمها فى الرسم والطلاء وإنتاج الأعمال الفنية مثلما يفعل الرجال فلسوف تقوم الخيل برسم الآلهة على هيئتها كما تقوم الثيران برسم الالهة على شاكلتها ولرسمت أجسام هذه الآلهة على هيئة أجسامها . فأهل الحبشة يصورون آلهتهم على أنها سوداء البشرة فطساء الأنف . ويقول أهل تراقيا إن آلهتهم لهم عيون زرقاء وشعر أحمر .

ولكن هذه الآراء المتحررة لا تعنى أن الفيلسوف اكسنوفانيس كان ينكر وجود الآلهة . بالعكس كان هذا الفيلسوف من أوائل المؤمنين بوجود إله واحد لا شريك له .

أمبيدوكليس Empedocles

يعتبر أمبيدوكليس واحداً من أبرز الفلاسفة العقلانيين الإغريق الذين اتخذوا من التفكير العلمى نبراساً لهم . وقد عبر عن فلسفته بلغة الشعر شأنه فى ذلك شأن سلفه بارمنيدس الذى كان يكبره فى السن . توصل امبيدوكليس إلى بعض الحقائق العلمية الهامة . ومنها قوله إن الأنوثة والذكورة موجودتان فى عالم النبات وإن سطح القمر مضيء لأنه يعكس الأشعة كما أنه توصل إلى نظرية التطور وفكرة البقاء للأصلح . ويرجع الفضل إليه فى تأسيس المدرسة الإيطالية فى الطب .

ذهب امبيدوكليس إلى أن العناصر الأولية التى يتكون منها العالم أربعة : هى التراب والهواء والنار والماء . وعزا هذا الفيلسوف ما نراه من أوجه الخلاف بين الأشياء إلى اختلاط هذه العناصر الأولية الأربعة بمقادير متفاوتة . غير أنه لم يكتف بهذه النظرة الميكانيكية المحضة فأضاف عنصر الحركة إليها وقال إن جزئيات العناصر الأولية تتحرك تحت تأثير الحب والبغض . فالحب يجمع بينها والبغض يعمل على الفرقة بينها . وهو تفسير يعتبره الدارسون أقرب إلى الشعر منه إلى الفلسفة . والرأى عنده أن الحب يسود العالم أحياناً فى حين يسوده البغض أحياناً أخرى . وفى الفترات التى ينتصر فيها الحب على البغض يتجه الناس إلى عبادة أفروديت إلهة الحب . وفى اعتقاده أن التغيرات التى تطرأ على الأشياء هى وليدة الصدفة البحتة ، وأنه ليس من ورائها أى غرض أو حكمة . وبوجه عام يمكن القول إن نظرة امبيدوكليس علمية وعقلانية معاً وأن هذا الفيلسوف المؤمن بالتعددية يرفض الإيمان بوحدة الوجود .

انكساجوراس Anaxagoras

يعتبر انكساجوراس المولود نحو ٥٠٠ ق . م . أول من علم الفلسفة لأهل أثينا ، كما أنه أول من نادى بأن العقل له وجود مادى يدخل فى تكوين الأشياء الحية . فضلاً عن أنه مصدر كل حركة والسبب فى كل ما يحدث فى العالم من تغيرات فيزيقية . ويبدو أن صداقته للحاكم الأثينى المعروف بريكليس كانت وبالا عليه . ففى أواخر أيام حكم بريكليس تمكن أعداء هذا الحاكم من سن قانون ينص على إدانة كل من لا يؤمن بالدين أو لا يمارس عباداته . ثم استغل المناوئون لبريكليس هذا القانون فقدموا انكساجوراس بمقتضاه إلى المحاكمة بتهمة أنه يعلّم الأثينيين أن الشمس مجرد حجر مشتعل فى حمرة الجمر وأن القمر ليس سوى أرض كالتى يعيش عليها . ومن المعتقد أن أعداء هذا الفيلسوف نجحوا فى الزج به فى غياهب السجن . غير أن بيركليس تمكن من إخراجه منه .

ومن الواضح أن انكساجوراس كان يميل إلى تفسير الظواهر الطبيعية على نحو ميكانيكى . فضلاً عن أنه يرد أصل الأشياء إلى الصدفة أو الضرورة . غير أن ذلك لم ينته به إلى الإيمان بالعناية الإلهية . وأغلب الظن أنه كان ملحداً لا يقيم وزناً للدين أو يحتفل بالأخلاق .

وفى مجال العلم توصل انكساجوراس إلى حقائق علمية منها أن القمر يضىء لأن سطحه يعكس الأشعة . وهى فكرة لم تغب فيما يبدو عن بال سلفه بارمنيدس من قبل . وأيضاً توصل انكساجوراس إلى نظرية الخسوف وأدرك أن القمر أقرب إلينا من الشمس وأن الشمس والنجوم ليست سوى صخور مشتعلة لا نحسّ بحرارتها بسبب شدة بعدها عنا .

بروتاجوراس Protagoras

ولد بروتاجوراس الفيلسوف السفسطائى المعروف فى مدينة ابديرا نحو عام ٥٠٠ ق . م . وهى المدينة ا نفسها لتى ولد فيها ديموقريطس . ألف بروتاجوراس كتاباً بعنوان «حول الآلهة» بدأه بالكلمات المتشككة التالية : «بالنسبة للآلهة لا يمكننى الجزم بأنها موجودة أو غير موجودة أو الجزم بهيئتها أو شكلها لأن هناك أشياء كثيرة تقف فى سبيل المعرفة اليقينية وهى غموض الموضوع وقصر الحياة الإنسانية» . وفى إحدى محاوراته بعنوان «بروتاجوراس» يصف أفلاطون زيارة هذا السفسطائى إلى أثينا ساخراً من فلسفته باعتبارها لغواً لا طائل من ورائه . والحقيقة أن كلمة سفسطائى بريئة من سوء السمعة التى لحق بها . فكلمة سفسطائى هى المقابل لكلمة مدرس أو أستاذ فى العصر الحديث . وهو المعلم الذى يكسب قوته عن طريق تعليم أبناء

الطبقات الموسرة ، فلا غرو إذا رأينا بروتاجوراس يجوب بلاد اليونان ليعلم التلاميذ ويتقاضى أجراً عن تعليمهم وهو الأمر الذى أثار ملامة أفلاطون . فقد كان أفلاطون ينتمى إلى عائلة ثرية ويرى أن العيب كل العيب أن يتقاضى معلم أجراً عن دروسه . ورغم زراية أفلاطون ببروتاجوراس فإنه ناقش فلسفته على نحو جاد فى محاورة له بعنوان «تياتيتوس .» وبروتاجوراس هو صاحب المقولة المشهورة «الإنسان مقياس كل شىء» . ويعنى بها أنه ليست هناك أية حقيقة موضوعية . ومن ثم لا يمكن القول بأن رأياً ما أكثر صدقاً من غيره من الآراء . فجميع الآراء نسبية تختلف باختلاف الناظر إليها وهو موقف قد يدعو من الناحية النظرية على أقل تقدير إلى الانحلال والإباحية والإطاحة ابالقيم الأخلاقية كافة . فضلاً عن أنه موقف شبيه بموقف الفلسفة البراجماتية فى العصر الحديث . فطالما أنه يستحيل الوصول إلى أية حقيقة موضوعية ، فمن المفيد التسليم برأى الأغلبية فى أى موضوع . ورغم أن فلسفة بروتاجوراس قمينة بأن تجعل منه ثائراً على الأخلاق والآلهة والأعراف والتقاليد ، فإننا نرى أن هذا الفيلسوف يجنح إلى المحافظة . فبالرغم من شكه فى وجود الآلهة فإنه يدعو إلى عبادتها . فضلاً عن أنه يدافع عن القانون والمواضعات الأخلاقية التقليدية . ولم يهتم السفسطائيون بأن يعلموا تلاميذهم الفضيلة بل اهتموا بتعليمهم فن الجدال والدفاع عن آرائهم ضد من يعارضونهم ، أى تعليمهم فن المرافعة بلغة المحاماة .

ويعتبر جورجياس واحداً من أبرز السفسطائيين الذين تشككوا فى كل ما يحيط بهم ، وقد بلغ التشكك بجورجياس مبلغاً جعله ينكر وجود ما حوله من أشياء كما ينكر القدرة على معرفة أى منها . ويستطرد جورجياس قائلاً إنه بفرض وجود الأشياء وبفرض أننا نستطيع فهمها فليس هناك سبيل لنقل معرفتنا بها إلى الآخرين .

والجدير بالذكر أن المؤلف المسرحى الإغريقى المعروف يوربيدس تأثر بفلسفة بروتاجوراس المتشككة وبجو السماحة الفكرية السائدة فى عصره .

الفصل الأول

الإلحاد والتمهيد له في القرنين السادس عشر والسابع عشر

١

إعدام الملحد جيوفروى ڤاليه *Valee* وأثره فى الفكر الإنسانى

من العسير للغاية أن يحدد الباحثون تاريخاً للإلحاد لعدة أسباب ، منها أن معنى الإلحاد لا يتسم بالوضوح الكافى . فضلاً عن أن معناه فى الماضى يختلف عن معناه فى الوقت الحاضر .

فى عام ١٥٧٤ تم تنفيذ حكم الإعدام فى أحد نبلاء أورليانز بفرنسا اسمه جيوفروى ڤاليه الذى مضى على حضوره من الأقاليم إلى باريس عشرة أعوام . وكان إعدامه نتيجة نبذة ألفها وأنكر فيها وجود الله . وتم إحراق جسده مع النبذة التى نشرها والتى بادت واندثرت باستثناء نسخة واحدة منها وباستثناء السجل الذى يحوى التحقيقات التى أجريت معه . وقبل تنفيذ حكم الإعدام فيه بعامين صرحت عائلته بأنه مختل عقلياً بسبب نشوب بعض الخلافات المالية معه نتيجة اقتراضه المال منها . غير أن اختلاله العقلى ليس بالأمر المؤكد وإن كانت غرابة أطواره فى حكم المؤكد ، فقد كان مهووساً بالحرص على بكارته وطهارة جسده الأمر الذى حدا ه إلى أن يلبس كمية هائلة من القمصان الناصعة البياض بعدد أيام السنة حتى يضمن أن كل قميص يرتديه ناصع البياض . ومن المعتقد أنه كان مريضاً تنتابه النوبات وأنه سجن ذات مرة فحاول الانتحار من نافذة السجن .

وفى مايو ١٥٧٣ أى قبل إعدامه بعام واحد ، وجد جيوفروى ناشراً قبل أن ينشر له نبذته الملحدة التى تحمل عنوان «ذروة الصفاء الروحى عند المسيحيين» التى كانت السبب المباشر فى الحكم عليه بالإعدام . والغريب أن جيوفروى فى هذه النبذة هاجم مجموعة من المذاهب هى الإلحاد والكاثوليكية والبروتستانية والمذهب المناهض للمعمودية والمذهب الليبرتانى ولكنه عبر عن تفضيله للمذهب الليبرتانى (الداعى إلى التحرر الدينى) على بقية المذاهب . والمذهب الليبرتانى ينكر الدين المنزل دون أن ينكر وجود الله . ولهذا كان ڤاليه يشعر بالغضب نحو الذين يتهمونه بإنكار وجود الله . كان ڤاليه يناصب العداء كل الأديان التى تبث الهلع والفزع فى النفس البشرية ويضيق ذرعا بالمعجزات وما يعتبر حقائق سماويه منزلة . كما أنه رفض أن يعتبر المسيح نموذجاً ينبغى على

البشرية احتذاؤه ، وآمن فقط بالأشياء التى تدخل فى نطاق التجربة الحسية عند الإنسان . وعلى أية حال لم يكن فاليه فقيهاً فى اللاهوت إذ يبدو أن قراءاته المحدودة فى الكتاب المقدس اقتصرت على سفر الجامعة والمزمور الأول لداود . ويبدو أيضاً أنه استمد من هذا السفر إيمانه بأنه ينبغى على المرء أن يرتدى الملابس البيضاء النقية ويتجنب معاشرة النساء .

ويتسم الكتيب الذى وضعه فاليه بالتماسك فى عرض أفكاره ، الأمر الذى يشير إلى أن عقله لم يكن مختلاً كما زعمت أسرته ؛ ولعله فى رغبته فى الاستشهاد تقمص شخصية المسيح المصلوب . وحين مثل أمام محققيه أنكر التهمة ثم عاد واعترف بها شارحاً للمحققين وجهة نظره ثم انتهى بالاعتراف بأنه مشوش الفكر لا يعرف ما يقول . والغريب أن فاليه كان يفسر الكتاب المقدس بطريقة تخدم دعوته إلى التشكك . فقد قرأ بين سطور سفر الجامعة هجوماً على فكرة الحياة بعد الموت . فضلاً عن أنه تأثر بقراءة بعض الكتابات المناهضة للدين . وهو يذكر أنه قرأ فى أحد المراجع (دون تحديد اسم هذا المرجع) أن موسى كان ساحراً .

ويذكر أن فاليه كان يتمتع بجسد هو آية فى الحسن والجمال . ورغم تجاهل المؤرخين للدور الذى لعبه فاليه فى الدعوة إلى الإلحاد فقد أولاه الناقد والأديب المعروف بيير بايل فى قاموسه الفلسفى الاهتمام (وهذا القاموس عبارة عن مرجع يؤرخ للإلحاد فى القرن الثامن عشر) . وتحدث عنه باعتباره خير شاهد على أن استخدام العقل على نحو مفرط ينتهى بالكفر والإلحاد . وفى عام ١٩٢٠ قام الباحث فردريك لاشيفر بنشر كل الأوراق والوثائق الخاصة بمحاكمته . ثم جاء من بعده الكاتب هنرى بيسون وأفرد له عام ١٩٢٢ عدداً من الصفحات . غير أن المؤرخين عادوا إلى سابق إهمالهم له . والجدير بالذكر أن الباحثين درجوا على رد جذور الإلحاد إلى عصر النهضة الأوروبية الذى شجع على انتشار التقليد العلمانى ثم الإلحاد الدينى الذى أكد حق الإنسان فى التعبير عما يمليه عليه ضميره .

ويمكن القول إنه باستثناء إيطاليا التى درج الكثير من الناس فيها على معاداة رجال الأكليروس ، نلاحظ قصوراً واضحاً فى رصد ظاهرة الإلحاد وتسجيلها . وإحدى الحاجات الأساسية التى تستخدم للدلالة على وجود الله هى الحاجة التى تقول إنه طالما أن البشرية كلها تجمع على وجود الله فإن العقل يقضى بالإيمان بوجوده . ومن الغفلة إنكار هذا الوجود . ولكن هذه الحاجة انهارت فى القرن السابع عشر بسبب الرحلات الكثيرة التى قام بها الأوروبيون إلى بلاد العالم المختلفة ، فقد اتضح من هذه الرحلات أن بعض الشعوب لا يعلم شيئاً عن الله . فضلا عن أنه اتضح من دراسة الفلاسفة الإغريق والرومان أن الكثيرين منهم ملاحدة . أما الحاجة الثانية التى استند إليها الإيمان بوجود الله فتتصل بطبيعة الكون الذى نعيش فيه . وتذهب هذه الحاجة إلى أن النظام الذى يحكم الكون يدل على وجود خالق له . وهى الحاجة نفسها التى ذهب إليها أرسطو عندما نادى بفكرة المحرك الأول . ولكن هذه الحاجة الأرسططاليسية قيض لها أن تتقوض على أيدى دعاة الفلسفة الديكارتية التى تقول إن معرفتنا بالعالم المادى لا تساعدنا بحال من الأحوال على معرفة العالم الروحى . ولهذا لجأ ديكارت وأتباعه إلى استنتاج فكرة وجود الله من وجود غير مادى يتمثل فى صورته وصورة كماله

اللانهائى فى عقل الإنسان . وطبقاً للمنطق الديكارتى لابد أن يكون الله هو الأصل فى وجود هذه الصورة . ولكن الفكر الأرسططاليسى تصدى للمحاجة الديكارتية مبينا أن ديكارت وأتباعه يسعون إلى اثبات وجود الله عن طريق الافتراض بأن فكرتهم عن وجوده مبنية على أساس راسخ ومتين ، ومن ثم فتفكيرهم يسير فى شبه الحلقة المفرغة ،لأن هذا الأساس الراسخ والمتين هو الشيء الذى يتعين عليهم إثباته . ويرسم الباحث كورس صورة دقيقة لهذا الصراع الفكرى المحتدم فى فرنسا بين اتباع المنطق الأرسططاليسى واتباع المنطق الديكارتى . وهو صراع تابعه جمهور المثقفين باهتمام بالغ وأدى فى النهاية إلى نسف أسس الفكر الدينى فى أوروبا المسيحية . ولو أننا صدقنا الباحث فايفر لاقتنعنا بحقيقة هي آية فى الغرابة مفادها أن علماء اللاهوت المسيحى هم المسئولون عن وجود الإلحاد والملاحدة . يقول فايفر إن رغبة هؤلاء اللاهوتيين المحمومة فى اثبات وجود الله جعلتهم يفترضون ثم يطرحون المحاجات التى قد يستخدمها بعض الناس فى إنكار وجوده حتى يعطوا أنفسهم فرصة لدحض وجهة نظرهم واثبات بطلانها وافحام المنكرين لوجود الله . ولكن هذه التساؤلات النظرية التى افترضها علماء اللاهوت من أجل الحوار والجدل ما لبثت أن تحولت فى نهاية الأمر إلى خطر يهدد الإيمان المسيحى ، إذ دأب بعض الناس على أخذ هذه الاعتراضات والتساؤلات المفترضة مأخذ الجد ويشهرونها كسلاح فى وجه العقيدة المسيحية . وبمرور الوقت تبلورت هذه الاعتراضات حتى ظهرت بالصورة الملحدة التى نجدها عند كل من الفيلسوفين هولباخ وفايجبون . إلى جانب أعمال الفيلسوفين سبينوزا وهوبز التى عرفت طريقها إلى الأراضى الفرنسية .

ويبدو أن كلمة الإلحاد لم تستحدث فى أوروبا إلا فى القرن السادس عشر . ولكن هذا لا يعنى بطبيعة الحال عدم وجود ملحدين قبل هذا التاريخ . والغريب أن فاليه الفرنسى الذى أعدم بتهمة الإلحاد لم يكن ملحداً حقيقياً . فهو رغم إنكاره للدين يعتقد أنه لا يمكن لأى إنسان عاقل أن يشك فى وجود الله . ويبدو أيضاً أن القرون الوسطى عرفت بعض حالات الإلحاد ، ولكن الكنيسة إبان تلك الفترة شاءت ألا تسميه إلحاداً بل خروجاً على الفضيلة والدين مثل حالة قسيسين عاشا فى أورليانز عام ١٠٢٠ وذهبا إلى أن الكون ليس حادثاً بل قديم منذ الأزل ، وإلى أنه لا وجود للسماء أو الجحيم ، وأكدا أن عقيدة التثليث مليئة بالمتناقضات . وقد استحدثت أوروبا فى عصر الإصلاح مجموعة من الألفاظ التى تعبر عن الشك فى الدين ووجود الله مثل الإلحاد والمذهب التأليهى . ورغم وجود كلمات أخرى تشير إلى الإلحاد مثل الأبيقورية واللوسيانية والمذهب الليبرتانى (Libertinism) فقد توقف هذا العصر عن استخدامها . وفى نهاية القرن السابع عشر بدأت أوروبا تستخدم مجموعة أخرى من الألفاظ البديلة من الإلحاد مثل المادية والفكر الحر والإيمان بوحدانية الوجود . ثم جاء القرن التاسع عشر ليشهد استخدام كلمتين أخريين هما اللا أدرية والفاديزم . (*) ولكن الجدير بالذكر أن هذه الألفاظ لم تكن تستخدم بالمعنى نفسه الذى تستخدم به الآن . ففى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر اعتبر الإنسان ملحداً فى حالة عدم إيمانه بالله أو آمن ببعض المعتقدات التى تجعل الإيمان بوجود الله شيئاً لا معنى له مثل إنكار خلود الروح . فابن رشد مثلاً كان مقتنعاً بفكرة وجود الله أى بفكرة وجود محرك أول للكون . غير أنه أنكر خلود الروح . وعلى أية

حال ظل المتشككون فى الدين وفى وجود الله يرون أن للإيمان بوجوده فائدة اجتماعية لأن مثل هذا الإيمان قمين بأن يحافظ على المجتمعات من الانهيار ولعل بيير بايل هو أول من عبر عن شكه فى سلامة المحاجة التى تربط بين الخوف من الله وبين أمان المجتمع وسلامته . وكان هذا فى عام ١٦٨٢ .

كان القانون فيما مضى ينص على إعدام الملحدين ومن ثم كان التصريح بالإلحاد أمراً نادراً الأمر الذى جعل من المستحيل معرفة أعداد الملحدين . ورغم أن علماء اللاهوت درجوا على الحديث عن الحوار الذى لم ينقطع بينهم وبين الملحدين فليست هناك أية وثائق تشير إلى حدوث مثل هذا الحوار علنا وأمام جمهور من الناس . غير أن التاريخ يحفظ لنا وثيقة نشرها كاسمير فريشوت عام ١٧٠٩ يدعم فيها التهم التى تقول إن الإلحاد يشيع بين عدد هائل من سكان البندقية . ويحدثنا فريشوت عن كثير من الحوارات التى اشترك أهل البندقية فيها ، أبرزها ذلك الحوار الذى جرى بين يهودى يجاهر بإلحاده وراهب يدافع عن المسيحية . وكان المتحاوران يتجادلان علناً وقد وضع كل منهما على وجهه قناعاً حتى لا يعرف الجمهور هوية الملحد . واعترف الراهب بأن الملحد كان مقنعاً فى عرض وجهة نظره لدرجة أنه أحس أن الشيطان نفسه تقمصه وأنه كان يتحدث بلسانه . ويرى الباحثون أن أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ابتداء من مبحث مونتانى «الاعتذار عن سيبوند» حتى «تأملات» باسكال ومقال لوك «مقال عن المعجزات» و«الطب الدينى» لبراون ، شاهد على أن الحوار بين الملحدين والمؤمنين لم ينقطع . والذى لا شك فيه أن مونتانى وباسكال وبراون كانوا يوجهون حديثهم إلى ملحدين من شحم ولحم يعيشون فى مجتمعهم وبين ظهرانيهم .

ويدل الخطاب الذى ألقاه الطالب الاسكتلندى أيكنهد فى أواخر القرن السابع عشر (وهو على حبل المشنقة بتهمة الكفر والإلحاد) أنه كان يحمل العداوة الأكيدة والمتصلة للدين المسيحى . فإذا كانت فرنسا أعدمت فاليه بتهمة الإلحاد فقد نفذت بريطانيا حكم الإعدام فى أيكنهد للسبب عينه . وهناك أيضاً نويل جورنيت الذى تم حرقه فى مدينة ميتز بفرنسا وحرق أصول مخطوطيه الالحاديين اللذين تحدثا عما فى العهد القديم وخاصة سفر التثنية من متناقضات . وقد ذهب هذا الرجل إلى أن الله كما تصوره المسيحية لابد وأن يكون إلهاً شريراً . كما أنه نادى بإقامة دين جديد يحل محل الدين المسيحى ، ولا غرو فقد كان يعتبر المسيح دعيا ودجالاً . ولا ننسى فى هذا الصدد يوريل داكوستا الذى نشر فى هولندا فى أوائل القرن السابع عشر مبحثاً هاجم فيه فكرة خلود الروح . ورغم أن هذا المبحث اندثر تماماً فقد وصلت إلينا آراء داكوستا عن طريق سيرة حياته الذاتية وأيضاً عن طريق تفنيد أحد معاصريه لأفكاره . ويجدر أن نضيف أنه تم حرق رجل اسمه جال جرويت ومخطوطاته فى چنيف بسويسرا بسبب إنكاره لخلق الله للعالم .

والجدير بالذكر أن الفكر الدينى المسيحى ظل حتى أواخر القرن السابع عشر يربط بين الإيمان وحسن السير والسلوك كما يربط بين الإلحاد وسوء السير والسلوك . وهو رأي لا يرى المحدثون والمعاصرون أنه أمر صائب لأنه يعنى اعتبار كل من لا يؤمن بالله إنساناً سيىء السير والسلوك . ويذكر فى هذا الصدد أنه حدث فى أكتوبر ١٧٦٥ أن رجلاً اسمه ليتش بولاية ماساشوستس بأمريكا

سلك مسلكاً بذيئاً أثناء مثوله أمام هيئة من المحلفين وذلك على مرأى ومسمع من جميع الحاضرين فى المحكمة . فقد قام بفك زراير بنطلونه وأخرج قضيبه للموجودين وهو يقول إنه لا يهتم على الإطلاق بالله فى السماوات والأرض . والحقيقة أن ليتش لم يكن ملحداً بل كان مجرد إنسان سكير وفاسق . وقد عاقبته المحكمة بدفع غرامة قدرها عشرة شلنات بسبب البذاءة وأربعين شلناً بسبب زرايته بالدين . وتدل هذه الحادثة على أنه لا ينبغى علينا الخلط بين الإلحاد والبذاءة .

وتشير ملفات محاكم التفتيش وسجلاتها إلى محاكمة بعض المتهمين بتهمة الإلحاد وخاصة فى نابولى فى الفترة بين الثمانينات والتسعينات من القرن السابع عشر . وبعد أن قام الباحث لوسيانو أوزبات بدراسة هذه المحاكمات انتهى إلى القول إن هناك ثمة صلة بين تهمة الإلحاد ومكانة الملحد الاجتماعية واشتغاله بالسياسة أو مدى قربه من المشتغلين بها . فقد لاحظ أن الكثيرين من الذين وجهت إليهم تهمة الإلحاد لهم صلة ببعض رجال السياسة البارزين ، الأمر الذى قد يشكك فى صحة هذه التهمة . فضلاً عن أن العقاب الموقع على الفقراء والضعفاء المتهمين بالإلحاد كان أشد وطأة من عقاب ذوى النفوذ والسلطان المتهمين بالتهمة نفسها مثل دى كريستوفار القريب من رجال السياسة والذى صدر ضده حكم مخفف يتلخص فى الزج به فى السجن لمدة ستة أعوام بدلاً من الموت حرقاً .

والجدير بالذكر أن الفيلسوف البريطانى دافيد هيوم والفيلسوف الفرنسى ديكارت مهدا الطريق إلى تقويض دعائم الدين دون أن يقصدا إلى ذلك . فرغم أن هيوم سلم بصحة الأفتراض الدينى وسلامته على أساس ما يلاحظه فى الكون والطبيعة من نظام ، فإنه أنكر خلود الروح كما أنكر المعجزات الواردة فى الدين المنزل . ولم يكن إنكار خلود الروح بالشىء الجديد فى القرن السادس عشر .

والجدير بالذكر أن الفكر الأوروبى عرف إنكار خلود الروح قبل أن يعرف إنكار صحة المعجزات الذى يرجع فيما يرجع إلى ظهور تلك النظرية العلمية المعروفة باسم نظرية الاحتمال الحديثة بعد عام ١٦٦٠ . وعن الدور الهدام للدين الذى لعبه الفيلسوف ديكارت نقول إن فلاسفة الكنيسة المدرسيين (السكولاستيين) يتهمونه بتقديم أدلة ضعيفة وواهية على وجود الله الأمر الذى يشجع على الإلحاد . ولكن أتباع ديكارت يردون بالقول بأن أدلتهم على وجود الله أفضل من المحاجات الأرسطاليسية الدالة على وجوده . ويضيف أتباع ديكارت بشىء من الفخر أنهم قدموا للفكر الإنسانى محاجات قوية وحاسمة للتدليل على خلود الروح وعدم ماديتها .

ويرجع الشك فى وجود إله قادر على كل شىء ورحيم بالعباد إلى وجود الشر فى العالم . وفى أواخر القرن السابع عشر قام بايل باستخدام هذه المحاجة إلى أقصى حد ممكن قائلاً إن العقل الطبيعى ينتهى بالإنسان إلى الإيمان بالمذهب المانى الذى ينهض على فكرة وجود صراع أبدى بين الخير والشر . كان النصف الثانى من القرن السابع عشر يشهد بانهيار المحاجة القائلة بأن إجماع العالم على الإيمان بالله هو خير دليل على وجوده ؛ فكثرة الرحلات والأسفار الأوروبية فى هذا القرن أثبتت أن مثل هذا الإجماع غير صحيح وأن بعض المجتمعات لا تعلم بوجوده . فضلاً عن أن الكثيرين من

الأوروبيين فى عصر النهضة اقتنعوا ببعض القيم غير المسيحية . وساد الاعتقاد بين هؤلاء الأوروبيين أن ميكافيلىَ نادى بأن الأديان الوثنية أفضل من الدين المسيحيى . ثم إن كثيرين من الناس فى أوروبا فى القرن الخامس عشر اعتبروا أن عدم اكتراث الرومان بالموت وبما يحدث للإنسان بعد الموت أول خطوة مشجعة على الإلحاد .

يحدثنا مؤرخو الإلحاد عن انتشار عادة فى العصور الباكرة يمكن تسميتها بعادة قراءة الإلحاد بين السطور . وهى عادة ينظر إليها الآن بكثير من الريبة والحذر . يقول الباحث البارز كورس مؤلف الكتاب الثقة «الإلحاد فى فرنسا» إن الإلحاد لم يظهر إلا فى أوائل القرن الثامن عشر . ومع ذلك فهو يرى أن هناك بعض الاستثناءات مثل ذلك المخطوط المجهول المؤلف والذى لاشك فى إلحاده ويحمل عنوان «ثيوفراستوس رديفيفيوس» . ولكن واحداً من ثقات المؤرخين للإلحاد واسمه توليو جربجورى يخالف كورس فى الرأى ويتناول جريجورى بالتحليل المخطوط المشار إليه فيقول إن مؤلف هذا المخطوط لم يعتمد فقط على قراءاته فى الكتب الكلاسيكية بل أيضاً على كثير من مؤلفات القرن السابع عشر المتهمة بالكفر والإلحاد أمثال ميكافيلى وفانينى الذى أعدم عام ١٦١٩ ومؤلفات المتشككين أمثال مونتانى وشارون وبوديه ، بالإضافة إلى الفلاسفة الذين قالوا إنه يستحيل على الإنسان إثبات خلود الروح . ولا يجد مؤرخ الإلحاد ليوستراوس أية غضاضة فى القراءة بين السطور . وهيرام كاتون واحد من أبرز المؤرخين الذين يقرأون بين السطور . فقد ألف كاتون كتاباً عن ديكارت سعى فيه عن طريق القراءة بين السطور إلى إثبات أن ديكارت فيلسوف ملحد وأنه لا يعنى ما يقول فى كتابه عن «الميتافيزيقا» وإن كان يعنى ما يقول فيما كتب عن الفيزيقا . فضلاً عن أنه يؤكد أنه فيلسوف مادى ملحد بعكس ما يشاع عنه . ويدعم كاتون وجهة نظره هذه بالقول إن أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر دأبا على اعتبار ديكارت ملحداً فديكارت نفسه لم يكن يقرأ بين السطور فحسب بل يكتب بين السطور أيضاً .

وتعتبر قراءة جينو بيدانى لأعمال المفكر ڤيكو مثالاً آخر على قراءة الأفكار غير التقليدية بين سطور قد تبدو تقليدية . فقد ذهب بيدانى إلى أن القراء لم يمض عليهم وقت طويل حتى بدأوا يطالعون كتابات فيكو على أنها هجوم على المسيحية . فالخروج على الدين كان ظاهرة منتشرة على أيام فيكو ، ولكن الخوف من محاكم التفتيش حال دون التصريح به . ويقول بيدانى إن فيكو فى كتابه «العلم الجديد» اتبع أسلوباً فى عرض الأفكار يثير الريبة فهو يذكر أنه يدين بالفضل لبعض المصادر التقليدية ذات القيمة المحدودة للغاية ، فى حين أنه يغفل تماماً اعتماده الكبير على مؤلفين مشكوك فى دينهم مثل لوكر يشيوس وهوبز وسبينوزا . ويجنح فيكو فى أغلب الأحيان إلى إخفاء أفكاره غير التقليدية مثل فكرته عن العناية الإلهية التى يتضح بعد فحصها وتمحيصها أنها لا يمكن تمييزها عن الحتم أو الضرورة الطبيعية . وقد نجح بيدانى فى إثبات عداوة ڤيكو للدين . فلا غرابة أن نرى فيكو يقول فى آخر جملة يختتم بها سيرة حياته إنه استمتع بحياته وحريته وكرامته وهو يكمل كتابه «العلم الجديد» معتبراً نفسه أوفر حظاً من سقراط . ويوحى هذا بأنه أسعد حظاً من سقراط لأن أهل أثينا أدانوا سقراط بتهمة إفساد الشباب وتدمير المعتقدات الدينية السائدة فى حين أنه نجا من مثل هذا الاتهام .

وتشير ملفات محاكم التفتيش وسجلاتها إلى محاكمة بعض المتهمين بتهمة الإلحاد وخاصة فى نابولى فى الفترة بين الثمانينات والتسعينات من القرن السابع عشر ، وقد قام الباحث لوسيانو أوزبات بدراسة هذه المحاكمات وإثبات أن هناك ثمة صلة بين المتهمين بالإلحاد والاشتغال بالسياسة وإلى أن العقاب الواقع على الفقراء والضعفاء المتهمين بالإلحاد كان أشد وطأة من عقاب ذوى النفوذ والسلطان ، إذ كان القصاص من المستضعفين سريعاً وقاسياً فى حين أن الحكم الصادر على دى كريستوفارو المتهم بالإلحاد كان مخففاً لا يزيد على الزج به فى السجن لمدة ستة أعوام . والجدير بالذكر أن الفليسوف الإنجليزى دافيد هيوم الذى لم يبد اعتراضاً على تفسير الطبيعة والكون على أساس دينى أنكر بعض الأساسيات الدينية مثل خلود الروح والتنزيل والمعجزات . ولم يكن إنكار خلود الروح بالشىء الجديد فى القرن السادس عشر ، فقد أحصى كاردانو أكثر من خمسين منكراً للروح فى هذا القرن . أما التشكيك فى صدق التقارير المؤيدة لحدوث المعجزات فهى أحدث من ذلك بكثير .

وهناك أيضاً حالة مماثلة لحالة فيكو هى حالة المؤرخ والعالم باولو ساربى الذى عاش فى أوائل القرن السابع عشر والذى تشير الدلائل إلى لاأدريته وشكه فى الدين . تعمد باولو ساربى إخفاء شكه ودافع عن فكرة التمويه وإظهار الكافر غير ما يبطن درءا لشر الناس . والجدير بالذكر أن علمانية باولو ساربى وشكه فى الدين هما أحد الأسباب القوية التى انتزعت إعجاب كثير من المؤرخين به وعلى رأسهم المؤرخ المعروف جيبون . والجدير بالذكر أن كلا ساربى وفيكو كليهما يعملان بالتقية ويتعمدان أن يكون لكل منهما وجهان : وجه يبدو تقليدياً ومسايراً لأفكار المجتمع ووجهٌ آخر ثوريٌّ ومناهض للمعتقدات السائدة فى المجتمع . وهو أمر لم يكن خافياً على معاصريهم .

وبيير شارون نموذج للمؤلف الذى يصيب قارئه بالحيرة والبلبلة . ويوضح لنا المؤرخ توليو جريجورى ما يتضمنه كتاب شارون «عن الحكمة» من آراء مناهضة للتقاليد . غير أن شارون فى كتابه يتبع أسلوب التقية ، فهو أحياناً يفسرها على نحو تقليدى وأحياناً أخرى يعلن بكل جرأة وصراحة تعارض أفكاره مع الدين . ويبدو أن شارون فى قرارة نفسه يريد منا أن نطالع كتاباته على أنها تتعارض مع الأفكار التقليدية . لكن معظم الملحدين كانوا بطبيعة الحال يسعون ما وسعهم السعى إلى إخفاء إلحادهم ، ويدفعون عن أنفسهم تهمة الإلحاد إذا حاول أحدهم إلصاقها بهم . وقد تناول التأليهى المعروف جون تولاند هذه الازدواجية فى مواقف الكثيرين من المفكرين والفلاسفة فى مقال نشره عام ١٧٢٠ بعنوان «كليدوفوروس» . ويتلخص هذا المقال فى القول إن عدداً كبيراً من الفلاسفة يشرحون بصراحة آراءهم المنافية للتقاليد فقط لأتباعهم ومريديهم أى أنهم يصارحون بها لخاصتهم . ولكنهم يغلفون أفكارهم غير التقليدية عند مخاطبة عامة الناس . ويذهب تولاند إلى ما يذهب إليه ديكارت من أن الآراء التقليدية لا تعدو فى كثير من الأحيان أن تكون ستاراً يخفى وراءه آراء غير تقليدية . ومن ثم فإن تعبير الفيلسوف عن آراء تتفق مع التقاليد لا ينبغى أن يؤخذ على عواهنه . ويعتبر مقال جون تولاند «كليدوفودوس» فى طليعة المقالات الرائدة التى نذرها أصحابها للدفاع عن حرية الرأى والتعبير بعيداً عن العقاب والتخويف . ويعتقد الباحثون أن جون تولاند نفسه

عند تعبيره عن فلسفته المنادية بمذهب أحادية الوجود Pantheism انتهج التقية نفسها التى يدعو إليها وضرورة الحرص والحذر عند مخاطبة العامة .

ومن أهم المراجع التى تعالج الكفر والإلحاد ، ذلك الكتاب المميز الذى ألفه كارلو جنزبرج بعنوان «قطعة الجبن والديدان» . ويقدم لنا هذا الكتاب دراسة وافية ورائعة عن طحان اسمه مينو شيو عاش فى شمال إيطاليا فى القرن السادس عشر وقامت محاكم التفتيش بإدانته . يخبرنا مينوشيو فى كتابه أن أحد الفلاحين رفض المسيحية وسلطة الكنيسة والدولة رفضاً قاطعاً ودافع عن الكفر والإلحاد وشرح لنا أصل الآلهة والعالم بقوله : إن الآلهة أو الملائكة ظهرت من تلقاء ذاتها وخرجت من رحم الفوضى تماماً كما تخرج الديدان من قطعة جبن أصابها العفن . وتساءل جنزبرج فى مبحثه عن مصدر الأفكار الملحدة الجريئة التى عبر عنها الفلاح مينوشيو . وذهب جنزبرج أن مينوشيو استقى أفكاره من جانب خبيىء فى الثقافة الشعبية التى تمتد جذورها إلى روما القديمة وإلى بلاد الهند البعيدة والنائية . ويرى الباحثون أن مثل هذا الزعم أبعد من أن يصدقه عقل ويميلون إلى الاعتقاد أن أفكار مينوشو الكافرة مستقاه من تقليد نشأ وترعرع فى أحضان الطبقة الأرستقراطية الإيطالية . ويفترض مؤرخو الإلحاد أن الأفكار الملحدة لابد وأنها انتشرت فى بعض شرائح المجتمع وأن انتشارها لابد أن يكون شفوياً بسبب خضوع الكلمة المكتوبة للرقابة . فضلاً عن أن الخطابات والرسائل نفسها تعرضت للرقابة . ولهذا لا نجد فى خطابات القرنين السادس عشر والسابع عشر أية تعبيرات واضحة الكفر والإلحاد . ولكن هذا لم يمنع الملحدين من الالتقاء والحديث بحرية عن آرائهم . فمن المعروف أن ساربى كان يلتقى بصديقه الملحد هوبز وأن كراهيتهما للدين جمعت بينهما . فضلاً عن أن ساربى كانت تربطه علاقة شخصية بفانين الذى وصفه الأديب بايل بأنه أول شهيد للإلحاد عرفته أوروبا الغربية . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على وجود علاقة بين الملحدين . غير أنها علاقة من العسير للغاية تتبعها . ولكن هذا لم يمنع بعض الباحثين من محاولة استقصائها ، فقد سعت المؤلفة مارجريت جاكوب فى كتابها «التنوير الراديكالى» إلى كشف النقاب عن الاتصالات السرية التى كانت تجرى فى الخفاء بين الملحدين مثل اتصال التأليهى تولاند بمجموعة من المشاركين له فى الرأى فى هولندا وتبادل الأفكار معهم . ومعنى هذا أن جماعات شبه ماسونية نشأت يؤلف بين أعضائها اشتراكهم فى الكفر والإلحاد . ويرى بعض الباحثين أن مثل هذه الجماعات السرية هى التى أثمرت مبحث تولاند الهام والمناهض للمسيحية المعروف بعنوان «الأدعياء الثلاثة» . ولكن بعض الباحثين يردون راديكالية تولاند ومبحثه عن الأدعياء الثلاثة إلى الضعف الذى اعترى الرقابة الإنجليزية فى فترة الحرب الأهلية . والذى لاشك فيه على أية حال أن الحركة المناهضة للمسيحية واكبت على الصعيد السياسى ظهور الديموقراطية والأفكار السياسية الراديكالية . ولهذا يرى الباحثون أن الدعوة إلى وحدانية الوجود هى المقابل فى دنيا الدين للديموقراطية فى دنيا السياسة . بدليل أن تولاند الذى رفع لواء المذهب التأليهى بذل قصارى جهده لإحياء السياسة الراديكالية التى تمخضت عنها الحرب الأهلية فى انجلترا . ولكن بعض الباحثين يرى عدم وجود علاقة حتمية بين الكفر والإلحاد من ناحية والراديكالية السياسية من ناحية أخرى . هذا بالرغم من أن الكثيرين من الملاحدة أمثال مينوشيو وجرويت وتولاند ومسلييه تبنوا الأفكار السياسية الراديكالية وهم يستندون فى ذلك إلى أن بعض

كبار الملاحدة أمثال نوديه وهوبز وساربى وبايل لم يكونوا محافظين فحسب بل مدافعين عن الحكم المطلق أيضاً . والجدير بالذكر أنه انتشرت فى فرنسا بعض المخطوطات الإلحادية فى منتصف القرن الثامن عشر . واحتوت هذه المخطوطات على ترجمة لكفرة وملاحدة وتأليهيين أمثال تولاند وكولنز وولستون وماندفيل ؛ كما أن الملحد هو لباخ نشر ترجمات لهوبز وتولاند وكولنز وولستون وانيت .

وعلى كل حال لابد من التنويه بالدور البارز الذى لعبه الفيلسوف جون لوك فى نشر الشك الدينى . ومن المحتمل أن يكون لوك مؤمناً بالمذهب الصوصيانى أى مؤمناً بصحة روايات الأناجيل والبعث ولكنه لم يؤمن بفكرة الخطيئة الأولى ومذهب التثليث . ومهما كانت معتقداته الخاصة فإنه رفع من شأن العقل على حساب التنزيل أو الوحى . فضلاً عن أنه رفض محاجة ديكارت المدافعة عن عدم مادية الروح ، وبذلك مهد جون لوك السبيل إلى ترسيخ المذهب المادى . وأيضاً رفض لوك الاقتناع بأن هناك فكراً مطلقاً مؤسساً على إجماع العالم بأسره على معتقدات بعينها ، الأمر الذى أضعف من سطوة الدين على العقول وسطوة الأخلاق على السلوك . والذى يقرأ كتابات لوك عن التقاليد يجد أنها صدى لأفكار شارون . ومن المؤكد أن لوك أظهر اهتماماً واضحاً بقضية الملحد الاسكتلندى ايكنهد الذى أعدمته السلطات بسبب إعلانه الصريح عن شكه فى صحة الأفكار الدينية السائدة . وعلى أية حال توخى هذا الفيلسوف الحرص فى التعبير عن شكه فى الدين .

ويشير المؤرخون إلى تطور خطير طرأ على الفكر الأوروبى نحو عام ١٦٦٠ نتيجة ظهور حركة دينية تعرف فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية باسم الجانسنية نسبة إلى مؤسسها كورنيلوس أوتوجانسين (١٥٩٥ - ١٦٣٨) . قرأ جانسين أعمال القديس أوغسطين وتأثر بها فألف عام ١٦٤٠ كتاباً بعنوان «الأوغسطينوس» . آمن جانسين وأتباعه بعجز الإنسان عن تنفيذ أوامر الله ونواهيه دون الاستعانة بالنعمة الإلهية . ويدعو جانسين إلى مذهب متشائم مفاده أن الإنسان ضحية لما يسميه الحتمية الطبيعية أو الحتم فوق الطبيعة . واعتبر البابا انسونت العاشر هذا المذهب نوعاً من الهرطقة . ومن المعروف أن الفيلسوف باسكال تأثر بهذا المذهب وأن كتابه «تأملات» يتضمن نوعاً من الفايديزم (أى الإيمان كما أسلفنا بأن المحاجات المدافعة عن المسيحية لا يمكن أن تستند إلى العقل بل فقط إلى العاطفة) . والجدير بالذكر أن باسكال كان يميل إلى التفكير فى إطار نظرية الاحتمال ، فهو لم يقطع بوجود العالم الآخر بل طرحه كاحتمال قائلاً إن الإيمان بوجود عالم آخر غنم لا غرم ومكسب وليس خسارة لأنه فى حالة إنكار المرء للعالم الآخر ثم يتضح أن مثل هذا العالم موجود فإنه سوف يخسر كل شىء . ويؤكد الباحثون أن نظرية الاحتمالات أسهمت بنصيب وافر فى التشجيع على نبذ الدين أكثر من أى شىء آخر ، وأن الدور الذى لعبه قانون الاحتمال فى تقويض الدين يفوق بكثير الدور الذى لعبته فلسفة ديكارت فى هذا السبيل . ونظرية الاحتمالات (وهى نظرية علمية ورياضية) تبحث فى العلاقة بين السبب والنتيجة . هل السبب المعين يؤدى بالضرورة إلى نتيجة معينة ؟ هل حرق الفحم مثلاً يؤدي بالحتم والضرورة إلى إنتاج ثانى أوكسيد الكربون ؟ تقول نظرية الاحتمالات فى هذا الشأن إن الاحتمال الأغلب أنه يفعل هذا دون أى حتم أو ضرورة . ويرجع الفضل إلى الفيلسوف جون لوك فى الترويج لهذه النظرية وإضفاء الطابع العلمانى عليها .

لقد طالب جيوفروى ڤاليه الذى أعدمته فرنسا بالاعتداد فقط بمدركات الحواس وأنكر كل ما عداها . وتساءل الفلاسفة من بعده : وماذا عن التجارب التى لاتدخل فى نطاق هذه المدركات مثل المعجزات . فتساءل جون لوك إذا كان أمير هندى لم ير الثلج طيلة حياته فهل من المعقول أن يؤمن به . . أى يؤمن بوجود شىء لم يره فى حياته ؟ !ثم جاء دافيد هيوم الفيلسوف الإنجليزى التجريبى ليطرح سؤالاً مماثلاً . هل يحق لإنسان أن يؤمن بحدوث معجزة لم يشهدها بعينى رأسه ؟ مثل هذه التساؤلات تدخل فى نطاق نظرية الاحتمالات التى عرضنا لها وهى تساؤلات أدت فى نهاية الأمر إلى تشكيك الإنسان فى الدين .

الإلحاد فى إيطاليا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر

كتب ليليو سوزينى فى خطاب أرسله إلى جون كالفين بتاريخ ١٤ مايو ١٥٤٩ يقول : «معظم أصدقائى بلغوا قدراً عالياً من التعليم لدرجة أنهم جميعاً يكادون ألا يؤمنوا بوجود الله .» وسوزينى من مواليد بلدة سينيا الإيطالية عام ١٥٢٥ . وبحلول عام ١٥٤٩ أصبح يعيش فى منفاه بزيورخ فى سويسرا بسبب خروجه على الدين ، إذ أن إعماله العقل فى المسيحية جعله ينكر ألوهية المسيح وبعث الأجساد . ورغم ذلك فإنه لم يكن ملحداً بالمعنى الحديث . وفى عام ١٥٥١ كتب روجر اسكام أن الناس فى إيطاليا يتحدثون بحرية تامة عن أى شىء . وفى القرن السابع عشر كتب جوى باتن يصف إيطاليا بأنها أرض «الجدرى والسموم والإلحاد» . وذهبت الكونتيسة بومفريه فى القرن الثامن عشر إلى القول إن معظم المتعلمين الإيطاليين ضربوا بالتقاليد عرض الحائط وأخذوا يقوضونها مؤكدين خلود العالم المادى منكرين وجود العناية الآلهية وفاقدين لفكرة وجود إله يسير دفة الطبيعة . وشجع انتشار الإلحاد فى إيطاليا الأجانب على إعداد قوائم تضم أسماء مشاهير الملحدين أمثال ارتينو وأوتشينو وبوجيو وكلمنت السابع واسكندر السادس وبومبوناتزى وكريمونينى وفانينى وجاليليو ، إلى جانب ارمولاو باربارو وسينو وبوليزيانو وبورزيو وبيريجاردو وكاردانو . ويعزو الباحثون انتشار الإلحاد فى إيطاليا إلى عدة أسباب منها ظهور العلوم والمعارف الجديدة فى عصر النهضة ونشأة حركة الإصلاح الدينى المرتبطة باسم مارتن لوثر وظهور المذهب الكالفينى والمذهب المناهض للتعميد ، إلى جانب الأثر الذى تركه كل من ميكيافيلى وابيقور فى أتباعهما ومريديهما .

غير أن بعض الباحثين يأخذون بحذر الاعتقاد بانتشار الإلحاد فى إيطاليا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . وهم يبنون حذرهم على أن مفهوم الإلحاد تغير بمرور الزمن ففى هذين القرنين كان المرء يتهم أحياناً بالإلحاد إذا كان فاسقاً وعربيدا أو منكراً للأناجيل والمعجزات وخلود الروح والسحر . وفى عام ١٥٨٦ وصمت محكمة التفتيش فى البندقية رجلاً إيطالياً يدعى جيرولامو جارزونى بالإلحاد بسبب إنكاره وجود الله وقوله إن العالم وليد الصدفة . ويذهب بعض الباحثين إلى أن الهجوم الضارى الذى شنه المدافعون المتحمسون للمسيحية على الملاحدة لا يعنى بالضرورة انتشار الإلحاد ، فمثل هذا الهجوم يرجع إلى شطط المتدينين وغلوائهم أكثر مما يدل على انتشار ظاهرة الإلحاد لأنه يحلو للعقل الدينى المتطرف أن يخلق أعداء من صنع الخيال . ورغم هذا فإن غالبية الباحثين ترى أن النقاش كثر فى إيطاليا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر حول وجود الله .

وفى قديم الزمان عالج ابيقور الطبيعة الإلهية وعرف عن هذا الفيلسوف انكاره القاطع لوجود الله . ووجه البعض تهمة الإلحاد إلى أرسطو نفسه . ومما ساعد على زيادة شبهة إلحاد أرسطو أن الفيلسوف العربي ابن رشد الذى عاش فى القرن الثانى عشر ألقى بظلال من الشك على قدرة المحرك الأول الذى آمن به أرسطو على التأثير فيما يقع فى هذا العالم من أحداث . وهى محاجة اقتنع بها الكثيرون من عصر النهضة أمثال السندرو اشيلين . ثم جاء بيترو بومبونازى من بعده ليدخل مزيداً من التطور على هذه الفكرة . فطرح عام ١٥٢٠ التساؤل التالى : إذا كان الله قد أخضع كل شىء فى العالم للقوانين الكونية فهل يستطيع الآن تغيير هذه القوانين أو تجاهلها دون أن يغير هذا من طبيعته ؟ وإذا غير نفسه فهل يؤدى هذا إلى نزع صفة الألوهية عنه ؟ وإذا كان الله لا يغير قوانينه أو نفسه فما جدوى الصلاة إذن ؟ والجدير بالذكر أن كامبانيلا انزعج بسبب إنكار أرسطو لعملية الخلق . ويخبرنا ديودوروس سيكولوس أن عدداً من الأقدمين رفضوا الإيمان بأن الله خالق العالم وذهبوا إلى أن العالم أزلى لا يطرأ عليه أدنى فساد أو تغيير . وقد أدان البابا عام ١٥١٣ مثل هذه الأفكار . ولكن هذه الأفكار وجدت من يدافع عنها مثل سليو سيكوندو كوريون وجيرولامو كاردانو . ويذكر فى هذا الصدد أن تهمة جيوردانو برونو ترجع إلى قوله إن الله ليس خالق العالم لأن العالم قديم قدم الله . ورغم أن برونو أثناء محاكمته أنكر التهمة الموجهة ضده فقد نشر عام ١٥٩١ مبحثاً بعنوان «اللانهائية» امتدح فيه إيمان الفيلسوفين ديموقريطس وابيقور بمادية العالم وتكوينه من ذرات أو جزيئات فى حالة صيرورة دائمة وأيضاً فى حالة تحول دائم . مثل هذا المذهب الذرى كان موجوداً فى إيطاليا منذ عام ١٤١٧ عندما اكتشف بوجيو براشيولين ذلك المخطوط الذى كتبه الشاعر لوكريشيوس عن الطبيعة . فضلاً عن وجوده فى الفقرات التى كتبها عن الطبيعة أيضاً برناردينو تيلسيو عام ١٥٦٥ . واستخدم جاليليو عام ١٦٢٣ هذه الأفكار فى بعض مباحثه ، وكذلك استفاد منها كلوديو بريجاردو فى منتصف القرن السابع عشر فى الدفاع عن خلود المادة . ورغم أن المذهب الذرى لا يتعارض بالضرورة مع المذهب المسيحى فقد أصاب هذا المذهب الذرى رجال الكنيسة بالفزع . ونحو عام ١٥٧٠ قام رجل الدين الجيزويتى بنيتو بريرا بالهجوم على المفهوم الذرى للمادة ، كما أن أورازيو جراسى تصدى عام ١٦٢٦ للهجوم على المذهب الذرى الذى اعتنقه جاليليو باعتبار أنه يتعارض مع المذهب الكاثوليكى الخاص بتحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . وفى عام ١٦٣٢ قامت دور العلم الجيزويتية بتحذير هيئات التدريس فيها من تعلم مذهب الفيزياء الذرية . ولكن بعض العلماء أمثال جيوفانى الفونسو استمر فى تدريسها . كما أن مقاطعة توسكانى شاهدت بعد عام ١٦٦٠ نشر كتب علمية تشرح النظرية الذرية مثل الكتاب الذى ألفه جاسندى . وهناك إلى جانب الفلسفة المادية المؤمنة بخلود المادة والفلسفة المادية المؤمنة بالنظرية الذرية تفسير ثالث لنشأة الكون استحدثه ديودورس سيكوليوس . فقد روى سيكوليوس قصة انفصال السماء عن الأرض فى مبدأ الخليقة وكيف أدى انفصالها إلى تأثير الحرارة على طبقات الطين المتبقى الذى أصابه أسن وعفن شبيه بأسن المستنقعات وعفنها . ويضيف سيكولوس أن الحرارة التى أثرت على سطح مستنقعات الطين كونت فقاعات تولد عنها فى نهاية الأمر الحيوان والطير والسمك . وتعرف هذه النظرية بالخلق التلقائى أو الخلق الذاتى وهى نظرية تقلل كثيراً من الدور

الذى لعبه الله فى خلق العالم . ولاقت هذه النظرية قبولاً واستحساناً فى عيون عدد من الإيطاليين أمثال اندريا سيسالينو الذى ذهب إلى حد القول إن خلق الإنسان نفسه تم ذاتياً نتيجة العفن الذى أصاب المادة . ورأى كثيرون من الإيطاليين أن نظرية الخلق الذاتى تنطبق على الحيوانات الدنيا على أقل تقدير مثل الذباب والناموس والثعابين والفئران .

ويبدو أن عدداً كبيراً من العلمانيين لم يتمكنوا من استيعاب فكرة التناول وتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . فيذكر عن جيوسيب كاريتا قوله : إذا كان القربان يحتوى بالفعل على جسد المسيح فلابد أن نسمع طقطقة عظامه فى كل مرة يقوم القسيس بكسر القربان . ويقول الباحثون إن مثل هذا القول قد لا يكون دليلاً على الإلحاد بل مجرد تعبير بروتستانتى عن عدم الإيمان بمذهب تحول الخبز إلى جسد المسيح الذى يعتبره الكاثوليك ركيزة أساسية فى المسيحية . ويفرض أن هذا بالفعل تعبير عن اتجاه نحو البروتستانتية فإنه يدل على مدى ما أصاب الأفكار الكاثوليكية التقليدية من انهيار . وحاول البعض أمثال الطبيب جايريل دى سالو الذى قدم للمحاكمة فى بولونيا عام ١٤٩٧ التوفيق بين الإيمان بالدين المسيحى والإيمان بصحة المعجزات ، فقالوا إن المعجزات ليست فى واقع الأمر سوى أحداث طبيعية نادرة الوقوع . ولكن الكنيسة أدانت مثل هذه الآراء واعتبرتها خروجاً على صحيح الدين مؤكدة أن المعجزات خوارق للطبيعة .

وحدث فى القرنين السادس عشر والسابع عشر نقاش واسع النطاق حول آراء أرسطو حول فناء الروح . فقد ذهب أرسطو إلى ارتباط الروح ارتباطاً لا فكاك منه بالجسد لدرجة حدت أرسطو إلى إنكار وجود عقاب أو ثواب خارج نطاق الحياة التى يحياها البشر . وفى ١٥١٣ حفز هذا البابا ليو العاشر إلى إدانة أية تعاليم تنادى بفناء الروح . ومما يدل على مدى انتشار المناقشات المتصلة بالروح أن عدداً من الفلاسفة أمثال بومبونازى وسيسالينو وتيلسيد ناقشوا هذه المشكلة فى كتاباتهم . واكتشفت محاكم التفتيش عدداً من الأشخاص العاديين ممن ينكرون خلود الروح بعد الموت . ففى عام ١٥٧٤ قدمت محكمة تفتيش مدنية البندقية رجلاً عادياً اسمه كومودو كانوف وهو يتفوه بالألفاظ التالية : «نحن لم نر أبداً رجلاً ميتاً يعود من العالم الآخر إلى الحياة ليخبرنا عن وجود الجنة أو المطهر أو الجحيم . كل هذه الأمور من خلق الرهبان والقساوسة الذين يريدون العيش بدون بذل جهد فى العمل وأن يتمتعوا بالأطايب التى توفرها الكنيسة لهم .» ومن الجائز أن بعض هؤلاء الناس الذين أشرنا إليهم تأثروا بالطائفة المعادية للتعميد التى ظهرت فى إيطاليا . ففى سبتمبر عام ١٥٥٠ قرر السنودس الذى عقده المناهضون للتعميد أن أرواح الأشرار سوف تفنى بفناء أجسادهم فى حين يرقد الصالحون نياماً حتى يستيقظوا من سباتهم يوم النشور . وهناك أوجه شبه بين المناهضين للمعمودية وبين أفكار المتشكك بومبونازى ، فهم يتشككون فى وجود كائنات غير مادية مثل الملائكة والشياطين كما يشكون أن روح الإنسان من خلق الله . فضلاً عن أنهم ينكرون ألوهية المسيح . ومنذ عام ١٥٣٩ انتشرت أيضاً الأفكار المنكرة للتثليث . وكذلك ذهب المناهضون للمعمودية إلى القول بأن المسيح مولود من مشيئة جسد مريم وجسد يوسف النجار . وعلى أية حال لم يقتصر إنكار ألوهية المسيح على المناهضين للمعمودية .

ونحن نجد أيضاً تعريضاً وزراية سافرة بالدين المسيحى ؛ ففى عام ١٥٨٧ تم إعدام بومبونيو راستيكو فى روما لأنه ذهب فيما ذهب إلى أن الحكايات الواردة فى الكتاب المقدس لا تستحق غير الاستخفاف والاستهزاء . وفى عام ١٥٧٥ أدين طبيب فى البندقية يدعى بيترو سيجوس لقوله : إن الصور والتماثيل لا تستطيع أن تصنع المعجزات . يقول بيترو سيجوس عن المعجزات : «هذا بكل بساطة غير ممكن فهو من اختراع الكهنة للحصول على مزيد من المال .»

إن اتهام القساوسة والكهنة بأنهم حفنة من الكذابيين واللصوص ليس بالأمر الجديد فى تاريخ الفكر الإنسانى . ولكن الجديد فى القرنين السادس عشر والسابع عشر هو مدى ما تعرضت له مبادىء المسيحية الجوهرية من هجوم . ويعتبر نيكولو وميكيافيلى وجيرولامو كاردانو من أبرز الذين اعتبروا الدين والإيمان باليوم الآخر مجرد خزعبلات لا تنهض على دليل . وهناك آخرون ذهبوا إلى أن الناس لا يتمسكون بأهداب الفضيلة بسبب إيمانهم الدينى بل نتيجة الخوف من العقاب الذى سوف يلحق بهم . زد على ذلك أننا نقابل فى الماضى من يجادل أن الأنبياء اخترعوا الأديان لإحكام قبضتهم على معاصريهم .

ورغم توخى كثير من الإيطاليين الحذر فى التعبير عن آرائهم التى تتعارض مع الفكر المسيحى فإن جوليو سيزار فانيني عبر عن إلحاده بصراحة ودون مواربة . ولد فانيني عام ١٥٨٥ وتلقى تعليمه على أيدى الجيزويت فى جامعة نابولى . وفى عام ١٦٠٣ انضم إلى الطائفة الدينية المسيحية المعروفة باسم الكارميلايت . وفى عام ١٦٠٦ حصل على إجازة الدكتوراه فى القانون ثم انتقل إلى بادوا بعد عام ١٦٠٨ . ثم مارس عام ١٦١١ التدريس فى مدينة البندقية . وفى العام التالى (١٦١٢) شاع أمر كفره وإلحاده فخشى على نفسه وقرر الهجرة إلى انجلترا . وأمضى حياته متنقلاً بين فلاندز وباريس وليون وتولوز . وترك لنا بعد وفاته كتابيين نشر أحدهما فى ليون عام ١٦١٥ والآخر فى باريس عام ١٦١٦ . ونحن نراه فى الكتاب الأول يحاول التدليل من داخل التقاليد المسيحية على أن الله لا يمكن أن يكون له وجود شخصى فضلاً عن أنه ينسب إليه وجود الشر . أما فى الكتاب الثانى فيدور حوار بين شخصيتى الاسكندر ويوليوس قيصر حول هذا التساؤل : كيف يمكن لإله غير مادى أن يخلق عالماً مادياً !؟ وهل تستطيع الكائنات الروحية الاتصال بالكائنات المادية؟ !

وينتهى فانينى إلى القول إن العبادة الحقة ليست عبادة الله بل عبادة الطبيعة . وهو يؤمن بخلود المادة ويستهزىء بفكرة خلق العالم فهو يرى أن الخليقة خرجت من الحرارة والعفن على نحو ما أسلفنا . وهو يدحض وجود فكرة وجود مخلوقات غير مادية مثل الأشباح والأرواح والشياطين . وأضاف أن الحكام والكهنة استحدثوا الدين لاستذلال العباد . وهو يذهب إلى أن المعجزات لا تحدث بسبب الصلاة بل لأسباب طبيعية . حتى الفساد الخلقى يعزوه إلى نوع الغذاء الذى يتناوله الإنسان . وقد أعدم فانينى عام ١٦١٩ فى مدينة تولوز بتهمة الإلحاد وهو لا يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

وهناك ملحد آخر اسمه الفيز كابواتو الذى ولد فى ليسينا وكثرت أسفاره فى ربوع إيطاليا وزار كلا من سويسرا وفرنسا . وفى عام ١٥٧٧ استنكرت محكمة تفتيش مدينة البندقية إلحاده وأدانته عام ١٥٨٠ . وتلقي اعترافات هذا الرجل الضوء على طبيعة إلحاده ، فقد ذهب إلى أن العالم وليد

الصدفة وأن روح الإنسان تموت بموت جسده وأن المسيح ليس سوى بشر كسائر البشر تبنته العذراء مريم ابناً لها . كما ذهب إلى عدم وجود الله والملائكة والشياطين والسحرة وإلى أن الله ليس له بداية أو نهاية . ونفى الرجل وجود أية كائنات فوق الطبيعة وقال عن المعجزات إنها أحداث طبيعية وإن قانون الطبيعة هو القانون الوحيد الذى ينبغى الانصياع له .

وفى أوائل القرن السابع عشر وجهت تهم مماثلة إلى إيطالى من أهل روما اسمه جماسبار فاريلا الذى يقال إنه تأثر بأرسطو واثنين من أتباع أرسطو الملاحدة هما فرانسيسكو فيمركاتى وسيزار كريمونينى . ولد فيمركاتى فى ميلانو نحو عام ١٥١٢ واشتغل بالتدريس نحو عام ١٥٣٠ فى جامعة باريس . وفى عام ١٥٤٢ تم تعينه أستاذاً للفلسفة اللاتينية والفلسفة الإغريقية . وعند وفاته ترك مخطوطاً يدعو فيه إلى عدم التفرقة بين الله والطبيعة ويرفض فكرة الخلق ويؤكد أن المادة أبدية ليس لها بداية أو نهاية . كل ما فى الأمر أن هذه المادة تتغير دوماً فى شكلها ومظهرها . وهو يرد سائر الموجودات إلى أسباب طبيعية كما يرد الدين إلى الخوف ويصفه بأنه من اختراع الحكام . وقد توخى هذا الرجل الحذر فامتنع عن التعبير عن آرائه الملحدة فى مؤلفاته المنشورة . وكذلك توخى كريمونينى حذراً مماثلاً فى أعماله المنشورة . كان كريمونينى أستاذاً للفلسفة فى بادوا فى الفترة من ١٥٩٠ إلى ١٦٢٩ وذهب مثلماً ذهب فيمركاتى من قبل إلى أن الدين مجرد وهم وخيال . ورغم ما مارسته محاكم التفتيش من ضغط عليه فإنه أصر على إنكار المسيحية . فضلاً عن أنه فعل كما فعل فانينى من قبل فأنكر وجود الله الشخصى وأن له دوراً فى خلق الكون والعالم . وفى مخطوط تركه عند وفاته نراه يعزو كل ما يحدث فى الأرض إلى السماء التى اعتبرها أبدية وخالدة . تبنى كريمونينى موقفاً فلسفياً مادياً . وتولت محاكم التفتيش التحقيق معه بتهمة إنكار خلود الروح فى الفترة بين ١٦٠٤ و١٦٢٦ ؛ وتدل مخطوطاته على اقتناعه بأنه لا يمكن للروح أن تبقى بدون وجود جسد . واستطاع كريمونينى بفضل تظاهره بمراعاة شعائر الدين من ناحية وحظوته عند نفر من أصحاب النفوذ من ناحية أخرى أن يتحاشى القبض عليه .

أضف إلى ذلك أن تهمة الإلحاد وجهت إلى إيطالى آخر اسمه سيمون سيمونى الذى أنكر وجود إله شخصى . وكان مصيره الطرد من وظيفته كأستاذ فى جامعة هيدلبرج عام ١٥٦٧ بسبب ما عرف عنه من إنكار للخلق وخلود الروح فى دروسه ووصفه للمعجزات بأنها أشياء تدعو إلى الضحك والاستهزاء .

نعود إلى حالة باولوساربى الذى عينته حكومة البندقية عام ١٦٠٦ مستشاراً للشئون اللاهوتية . ورغم صدور قرار بحرمانه من الكنيسة عام ١٦٠٧ فقد ظل يتبع شعائر الدين أمام عامة الناس دون أن يكف عن تلاوة القداس بانتظام حتى وفاته عام ١٦٢٣ . وقد ألف هذا الرجل مخطوطاً بعنوان «تأملات حول الدين» استبعد فيه فكرة الله كخالق للكون قائلاً أن حياة الإنسان ليست أرفع شأناً من حياة بقية كائنات الأرض وداعياً إلى استبعاد الغيبيات فى تفسير ما يحدث على الأرض . وعرف أيضاً عن باولو ساربى إنكاره للخلود وقوله : إننا نؤمن بالله بسبب جهلنا وعجزنا وإن العاقل أو الحكيم فينا هو الذى يحيا حياة أخلاقية دون الحاجة إلى الإيمان بالله أو الآخرة . ومن

المعتقد أن ساربى كان على رأس جماعة من الملحدين فى البندقية . وقد ذكر ساربى نفسه لكريستوف فون دوهنا أن البندقية كانت تغص بالملحدين وأن عدداً كبيراً من علية القوم فى زمنه كانوا ملحدين أيضاً مثل انتونيو فوسكارينى الذى عمل سفيراً للبندقية فى باريس فى الفترة من ١٦٠٧ إلى ١٦١١ ولندن من ١٦١١ حتى ١٦١٥ والذى عرف عنه شكه فى وجود الجنة وسخريته من مذهب التثليث والزراية بالمسيح والدين المسيحى ومقدساته .

وبعد مضى سنوات قليلة نشأت جماعة تعرف باسم «الأكاديمية المتنكرة» برئاسة جيوفانى فرانسيسكو لوريدان . وقد رفعت هذه الجماعة شعار «الإله المجهول» نسبة إلى استبعاد الله من فكرها . وكان من بين أعضائها قسيس سيىء السمعة اسمه فيرانت بالافيسينو تأثر بالهرطقة والإلحاد المنتشرين فى ألمانيا وجلبهما معه إلى إيطاليا . يقول بالافيسينو فى كتاباته إن الكنيسة تعمل على تجهيل الناس حتى لا يدركوا الحقيقة وإن الإباحية الجنسية شيء طبيعى للغاية . فلا غرو أن تنفذ فرنسا فيه حكم الإعدام عام ١٦٤٤ .

وهناك أيضاً بيتروستروزى ابن عم كاترين دى مدسيس الذى إلتحق بخدمة القوات الفرنسية عام ١٥٣٦ وتمتع بحظوة لدى ملك فرنسا . أصيب هذا الرجل فى حصار ثيونفيل عام ١٥٥٨ بجرح قاتل . ورغم أنه كان على فراش الموت فإنه أنكر الله والخلود معاً . فضلاً عن أنه في الليلة السابقة على وفاته وصف الكتاب المقدس بأنه خرافة .

وإذا كان ستروزى ينتمى إلى الطبقة المتعلمة فى المجتمع الإيطالى فهناك ملاحدة بين الناس العاديين مثل المرتد الفرنسيسكانى فرانسيسكو كاليجيو الذى قدم إلى محكمة التفتيش فى بريشيا وانتقلت قضيته بناء على أوامر حكومية إلى مدينة البندقية حيث صدر ضده حكم بالإعدام لقوله بعدم وجود الله والروح . أضف إلى ذلك قوله : إن الروح تموت بموت الجسد . وإن المسيح بشر والكتاب المقدس مجرد اختراع لا يستحق الاحترام لتخويف الناس . والثابت أن تهمة إنكار وجود الله شاعت إلى حد كبير فى البندقية ، فالسجلات تشير إلى توجيه هذه التهمة إلى بيترو فيامنجو وإلى جيوفانى فرانسيسكو كورفيوت المراقب الفرنسيسكانى كما وجهت بعد ١٥٩٩ إلى نفر من أتباع كامبانيلا . وأيضاً وجهت إلى دونيزيو بونزو لقوله إن الله لا ينفصل عن الطبيعة . وكذلك اعترف سيزار بيزانو بإلحاده . ووجهت تهمة الإلحاد إلى كوستانتينو ساكاردينو فى بولونيا عام ١٦٢٢ لأنه أنكر عملية الخلق ونادى بأن خلق الكون تم من تلقاء نفسه ، وأنكر وجود الملائكة والشياطين وخلود الروح والجحيم الذى اعتبره اختراعاً اخترعه الحكام لتخويف محكوميهم ومنعهم من ممارسة الشر . فضلاً عن أنه قال عن الكتاب المقدس الذى يحظى باحتقاره إنه كتاب عديم القيمة يحتوى على الأكاذيب .

وفى أواخر القرن السادس عشر وجهت اتهامات مماثلة إلى كل من دومينيكو سكاندلا المعروف باسم مينوشيو الطحان من بلدة فريولى . صحيح أن مينوشيو لا ينكر وجود الله ولكنه يراه متمثلاً فى الطبيعة وليس خالقاً لها . كما يرى أن الخلق الذاتى هو الأصل فى وجود الله والطبيعة معاً . وقد أنكر هذا الرجل خلود الروح وألوهية المسيح . والرأى عنده أن سائر الأديان تتساوى من حيث أنها جميعاً

تسعى إلى غرس السلوك الحميد فى المجتمع . وهو الرأى نفسه الذى انتهى إليه طحان آخر اسمه بيلجرينو باروتى الذى قدم إلى محاكم التفتيش فى بلدتى مودينا وفيرارا عام ١٥٦١ وأيضاً الشاعر سكوليو عام ١٥٧٠ .

والخلاصة أن الإلحاد فى إيطاليا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر لم يقتصر على الأكاديميين والمتعلمين بل امتد إلى عامة الناس أمثال بارونى كما يقول مؤرخ الإلحاد جنزبريج . وتدل شواهد الأمور على أن الملحدين من بسطاء الناس كانوا بشكل أو آخر على صلة بالطبقات المتعلمة فى المجتمع . ومن المحتمل أن الملحد بارونى كان على صلة ببعض الهراطقة فى بولونيا . وعلى أية حال فهناك شواهد تدل على أنه يمكن للإلحاد أن ينشأ بعيداً عن الدوائر الأكاديمية والدراسية ، فحالة الملحد ايفانجلتا دى فتيورا تدل على أنه يمكن للإلحاد أن ينشأ نتيجة تجارب شخصية مريرة وقاسية يخوضها الإنسان العادى فى حياته . وفى عام ١٥٨١ أدلى هذا الرجل باعتراف إلى محكمة التفتيش فى البندقية مفاده أنه عاش لمدة خمسة وعشرين عاماً بعيداً كل البعد عن الحياة المسيحية الحقة . وعزا الرجل بعده عن الدين إلى الطاعون الذى انتشر عام ١٥٥٥ - ١٥٥٦ وأهلك أمه وأخوته وأخواته وأدى إلى ضياع كل ممتلكاته . وهكذا تسببت هذه النكبة الشخصية فى فقدانه الثقة فى العناية الآلهية .

ويمجىء القرنين السادس عشر والسابع عشر تزايد انزعاج السلطات الدينية بسبب كثرة حالات الكفر والإلحاد التى اعترضت طريقها . ومن ثم كثرت تحقيقات محاكم التفتيش مع المتهمين والمشتبه فيهم . وبسبب انتشار ظاهرة الإلحاد قررت السلطات فى أواخر القرن السابع عشر أن تشن حملة شعواء على الإلحاد بالتنسيق مع الكرسى البابوى فى روما . وفى عام ١٦٧٠ نبه الكاردينال ليوبولدو دى مدسيس الملاحدة أن زمن التسامح معهم ولى وانقضى . وفى العام التالى (١٦٧١) حذر أحد كرادلة محاكم التفتيش رئيس أساقفة نابولى من مغبة الإيمان بفلسفة ديكارت . فلا غرو إذا رأينا عام ١٦٧٦ نشاطاً متزايداً فى محاكمة الملاحدة . وفى ديسمبر من هذا العام نفسه اضطر أندريا من مدينة بيزا إلى التراجع عن إيمانه بالمذهب المادى المعروف بالمذهب الذرى . وفى عام ١٦٨٨ توالت فى نابولى التحقيقات ضد مجموعتين من الملحدين قوامهما أحد عشر ملحداً لاتهامهم بإنكار وجود الله وخلقه للكون والحياة الأخرى وألوهية المسيح ، فضلاً عن إيمانهم بالمذهب المادى المعروف بالمذهب الذرى الذى ينادى بأبدية العالم وخلوده . ولكن التحقيقات التى أجريت معهم فشلت فى إدانتهم أو إثبات تهمة الإلحاد ضدهم . وفى الوقت نفسه تم التحقيق مع رجل من البندقية اسمه مايكلا نجلو فارديلا بتهمة الإيمان بفلسفة ديكارت ومذهب الذريين . وفى عام ١٦٩٠ تم التحقيق أيضاً مع أكاديمية بيانشى بتهمة تشجيع الإلحاد والترويج له . وفى العام نفسه قام الدوق الأكبر كوريمو الثالث بتحريم تدريس المذهب الذرى المادى فى جامعة بيزا . وفى عام ١٦٩٣ جاء على لسان كاهن جيزويتى أن روما بأسرها اعترضت على علم الفيزياء الحديثة واعتبرته دعوة إلى الكفر والإلحاد .

وظلت السلطات الإيطالية تشدد النكير على الإلحاد والملاحدة حتى نحو نهاية العقد الثانى من

القرن الثامن عشر . وهكذا يتضح لنا أن الإلحاد الذى ظهر فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر أخذ ينتشر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بين الطبقات المتعلمة وغير المتعلمة على حد سواء . وقد تنوعت مصادر هذا الإلحاد . وبعض مصادره يرجع إلى اكتشاف إيطاليا فى عصر النهضة قبل عام ١٥٠٠ لمجموعة هامة من مخطوطات الأقدمين من الرومان والاغريق تتسم بإنكار الغيبيات وترفض الاعتقاد بأن للقوى فوق الطبيعية تأثيراً على الطبيعة وحياة الإنسان . وبعض التيارات الإلحادية ظهرت بعد عام ١٥٠٠ نتيجة فشل الكنيسة الكاثوليكية والرغبة فى إيجاد بديل لها . ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أن حالة ايفانجلتا التى سبق الإشارة إليها تؤكد أن مرارة الحياة ومواجعها قد تدفع البعض على الصعيد الشخصى إلى الشك فى وجود الله والعناية الآلهية . ولكن من الجهل أن نظن أن انتشار الإلحاد فى إيطاليا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر أصبح الطابع العام للعقلية الإيطالية إذ لا مناص من الاعتراف بأن السواد الأعظم من الإيطاليين بقى داخل حظيرة الكنيسة الكاثوليكية رغم أن عدداً لا يستهان به نبذ الدين والله والمسيح .

اليهود ينشرون الكفر والإلحاد بهجومهم على المسيحية

منذ منتصف القرن الأول الميلادى واليهود يطرحون محاجات تهدف إلى تفنيد الدين المسيحى ودحضه لإثبات أنه ليس مكملاً للدين اليهودى . وتسعى الأناجيل الأربعة إلى إثبات أن النبوءات الواردة فى العهد القديم تحققت بمجىء السيد المسيح ، فى حين يهدف التلمود إلى دحض هذا دحضاً تاماً . وبرسوخ أقدام الكنيسة المسيحية فى الشرق والغرب أصبحت هجمات اليهود عليها تتسم بالحيطة والحذر . فقد أصبح موقف اليهود ضعيفاً وشائكاً . فإذا جاء تفنيدهم للمسيحية قوياً أوغر هذا صدر المسيحيين عليهم فقاموا بسجنهم أو قتلهم . أما إذا جاءت محاجات اليهود ضعيفة واهية فإن ذلك كان سبباً فى الضغط عليهم كى يتحولوا إلى الدين المسيحى . ومن جانبهم حاول المسيحيون أن يبينوا أن اليهود سبق فى بعض المراحل الباكرة أن اعترفوا بمجىء المسيح ولكنهم عادوا فأنكروا هذا عن طريق تزييف نصوص التلمود وغيرها من الوثائق .

وفى العصور الوسطى خفت صوت الجدال الدينى بين اليهود والمسيحيين ليحل محله أسلوب العنف والقصر الذى استخدمه المسيحيون فى إجبار اليهود على التحول إلى الدين المسيحى . ففى عام ١٣٩١ قاد القديس فنسنت فيرار مجزرة ضد اليهود أرغمت عدداً كبيراً منهم إلى اعتناق المسيحية كارهين صاغرين ، وأصبح أمام اليهود أن يختاروا بين الموت واعتناق النصرانية . ولأن هذا التحول إلى المسيحية كان وليد القمع كتم هؤلاء النصارى الجدد غيظهم فى صدورهم وخاصة لأن محاكم التفتيش فى كل من أسبانيا والبرتغال هددتهم بالويل والثبور وعظائم الأمور . وخشى النصارى الجدد من اتهامهم بأنهم تهويديون يشجعون فى السر على اعتناق الأفكار واتباع الممارسات اليهودية . وقد تكونت فى أسبانيا والبرتغال جماعات سرية عبرت عن كفرها بالمسيحية بطريقة ملتوية . فهى تتآمر على المسيحية بالتظاهر بالانتصار لها والكتابة المدافعة عنها حتى تتمكن من نفث سمومها وبث شكوكها فى الدين المسيحى . وبطبيعة الحال بذل المسيحيون قصارى جهدهم للتنكيل بهذه الجماعات التى تظهر غير ما تبطن ، الأمر الذى اضطر الكثير من اليهود إلى الفرار إلى امستردام

بهولندا وبعض البلدان الأوروبية الأخرى . وسوف نتتبع فى هذا الموضع قصة هؤلاء الفارين فى القرن السابع عشر .

وجد الأوروبيون المؤمنون بقرب نهاية العالم وبتحول اليهود إلى المسيحية كعلامة تشير إلى هذه النهاية أنه ليس من المفيد ارغام اليهود على اعتناق المسيحية . ومن ثم حبذوا اقناعهم بها ورأوا أن هذا أجدى بكثير من ارغامهم عليها . ولهذا فكروا فى إقامة حوار عقلى جاد معهم يساعدهم فى ذلك أن اليهود المتنصرين الذين فروا إلى أوروبا نبذوا النصرانية بعد أن استوعبوها مفضلين العودة إلى دينهم الأصلى وهو الدين اليهودى . ولاشك أن الحماية التي وفرتها مارى دى مدسيس فى بلاطها فى باريس لنفر من اليهود وإقامة ملاذات آمنة لهم فى امستردام جعل نقاشهم مع المسيحيين مثمراً .

ولا مناص من أن نذكر فى هذا الصدد صلة مارى دى مدسيس الوثيقة باليهود فقد اصطفت منهم خلصاءها وأقرب المقربين إليها . فعندما تزوجت من ملك فرنسا هنرى الرابع أحضرت معها إلى باريس أعز صديقاتها اليهودية لينورا جاليجاى وزوجها اليهودى كونسينو كونسينى . وبعد مقتل زوجها هنرى الرابع استدعت مارى دى مدسيس طبيبها المفضل اليجيا مونتالتو وهو يهودى برتغالى استطاع الهرب من البرتغال إلى إيطاليا . وقد لعب هذا الطبيب الهارب دوراً هاماً فى تحريض اليهود الذين اضطرهم المسيحيون إلى اعتناق المسيحية على الهرب والعودة إلى الدين اليهودى . جاء الطبيب اليهودى مونتالتو إلى باريس عام ١٦١٠ يرافقه سكرتيره الإيطالى اليهودى شاوول ليفى مورتيرا الذى صار فيما بعد الحبر الأكبر لمدينة امستردام . واستطاع مونتالتو أن يحصل من الملكة على ضمان حريته فى ممارسة دينه اليهودى وأن ينعم بحماية البوليس إذا احتدم الجدال بينه وبين معارضيه من القساوسة الكاثوليك . وعندما قتل الملك لويس الثالث عشر اليهودى كونسنينى عام ١٦١٧ اكتشفت السلطات وجود خلية سرية فى اللوفر يرأسها الطبيب مونتالتو . فاغتاظ بعض الكاثوليك الفرنسيين وأخرجوا جثة اليهودى مورتيرا من القبر وقاموا بطحنها وأكلها على جسر نيف . ثم قاموا بطحن عظامه وحولوها إلى تراب قذفوا به فى نهر السين ، أما زوجة مورتيرا فأحرقت . ولا يزال التاريخ يحفظ هجوم الطبيب مونتالتو على المسيحية . وقد ضمن هجومه فى مخطوطات باللغتين الأسبانية والبرتغالية قيض لها أن تنشر فى القرن الثامن عشر . وركز مونتالتو هجومه على أن المسيحيين يفسرون تفسيراً خاطئاً نبوءة أشعيا فى الإصحاح ٥٣ ويزعمون أن الإشارة فيه إلى الخادم المتألم تنطبق على السيد المسيح .

إن التحدى الواضح الذى قدمه مونتالتو للمسيحيين جعل منه بطلاً فى عيون اليهود المنتمين إلى الخلايا السرية والمجتمعات اليهودية التى نبذت الدين المسيحى وهربت من أسبانيا والبرتغال إلى هولندا . وعندما مات الدكتور مونتالتو عام ١٦١٦ وهو فى طريقه إلى حضور حفل زفاف ملكى مقام فى تورز بفرنسا ، قام سكرتيره شاءول ليفى مورتيرا بحمل جثمانه إلى امستردام لعدم وجود مقبرة لليهود فى فرنسا . واستقر رأى مورتيرا على البقاء فى هولندا حيث أصبح زعيم إحدى الجماعات اليهودية اللاجئة من أسبانيا والبرتغال . ورغم تحول الهولنديين إلى الملة البروتستانتية فإنهم وفروا لهذه الجماعة من اليهود اللاجئين الحماية والأمان بحيث أصبحت امستردام أورشليم

الجديدة التى يفد إليها اليهود من كل أنحاء أوروبا . وقد نشأت فى امستردام مدارس لتدريس الدين اليهودى . وهناك ضم المجتمع اليهودى عدداً من أبرز اليهود أمثال أبراهام كوهين هريرا ومناسيح ابن إسرائيل الذى أقام مطبعة عبرية فى هولندا وليفى مورتيرا وأسحق . أوربيو دى كاسترو . والجدير بالذكر أن معظمهم نشأ فى جو مسيحى صرف ودرس فى معاهد مسيحية خالصة . ولهذا نجد أن الكثيرين منهم كانوا عند وصولهم إلى هولندا يجهلون اللغة العبرية فضلاً عن أنه لم يكن لديهم أية تقاليد يهودية يمكنهم الاستناد إليها فى دحض الدين المسيحى على عكس أجيال اليهود المهاجرين السابقين عليهم . فقد كانت هذه الأجيال على علم كامل بالتلمود وردود أحبار اليهود على المسيحية .

وعلى أية حال لم يشأ اليهود المهاجرون إلى هولندا أن يظهروا الغلظة فى معارضة المسيحية احتراماً منهم للمشاعر الدينية للدولة المضيفة وهى هولندا التى تحولت إلى المذهب البروتستانتى . ونجم عن ذلك ظهور نوع من الأدب الدينى فى المجتمعات اليهودية التى تعيش فى امستردام ورواجه عن طريق التدوين والكتابة وليس عن طريق الطباعة والنشر . وقبل نهاية القرن السابع عشر ظهر البعض من غير اليهود الذين كانوا على علم بهذا الأدب . وأدى إطلاع غير اليهود على هذا الأدب المكتوب الساعى إلى الرد على المسيحية وتفنيد حججها إلى إثارة الشك فى عقولهم فى صحة العقيدة المسيحية الأمر الذى أفضى فى النهاية إلى إنكارها على يد التأليهيين والملاحدة فيما بعد . والغريب أن هذا الأدب الدينى اليهودى المكتوب لم ير طريقه إلى النشر حتى وقتنا الراهن إذ تم نشر جزء منه لأول مرة عام ١٩٨٨ . ومن بين هذه الكتابات اليهودية الباكرة أطروحة كتبها الدكتور اليجا مونتالتو وأخرى خطها يراع اسحق بن ابراهام تروكى وقام بنشرها عام ١٦٨١ مستشرق ألمانى معاد للسامية اسمه جوها كريستوف فاجنسيل باعتبارها نموذجاً لبشاعة الفكر اليهودى عن الدين المسيحى . وعنوان الأطروحة الثانية «تشيزويك ايموناه» أو «تدعيم الإيمان» وتوجد هذه الأطروحة فى ترجمات باللغات الأسبانية والبرتغالية والهولندية والفرنسية فى أرشيف اليهود فى امستردام . وحظيت هذه الأطروحة بالاحترام الفائق من قبل اليهود السفارديين فى امستردام وطائفة الكرايتيين فى ليتوانيا وبولندا . وهى طائفة لا يعترف بها الأحبار كأعضاء فى المجتمع اليهودى . وعلى أية حال تدل هذه الأطروحة على أن طائفة الكرايتيين فى كل من ليتوانيا وبولندا كانت تلقى المعاملة نفسها التى يلقاها المسيحيون ، لدرجة أنهم درجوا على الانخراط فى مناقشات حامية الوطيس معهم بهدف إثبات خطأهم دون خوف أو وجل . ولا يناقش تروكى فى مخطوطه ما ورد فى التلمود بل من منطلق ما جاء فى الأناجيل ، كما أنه يستند إلى حقائق التاريخ القديم والحديث . ولهذا استطاع اليهود الذين ارتدوا عن مسيحيتهم فى امستردام فهمها وهضمها . سعى تروكى إلى دحض العقيدة المسيحية . فضلاً عن أنه دحض المحاجة المسيحية التى تقول إن سلسلة النكبات التى حلت باليهود دليل على إفلاس الدين اليهودى . يقول تروكى فى دحضه لهذه المحاجة أن هذا غير صحيح بدليل أن الله رعى شعب إسرائيل وحماه حتى الآن من الهلاك . ثم إن تاريخ المسيحية شائه وملىء بالمثالب . ولو أننا استخدمنا المنطق نفسه مع المسيحية لحكمنا عليها بالقصور والإفلاس والفشل نظراً

لأن الإسلام استطاع أن يزدهر لمدة ألف عام وأن يستولى من المسيحية على أراض وبلاد بالغة الأهمية . أضف إلى ذلك أن الأتراك غزوا بعض الأجزاء الهامة فى أوروبا . فهل انتصار المسلمين على النصارى يعنى خطل المسيحية وبطلانها ! ؟

ومن الكتابات الشائعة التى سطرها يهود امستردام ضد المسيحية تلك التى كتبها الطبيب اليجا مونتالتو الذى سبق لنا ذكره . وقد تولى التأليهى فيلو ميرتياس نشر أحد مؤلفاته فى انجلترا عام ١٧٩٠ كدليل على تعصب المسيحية وعدم سماحتها . والجدير بالذكر أن أمستردام فى القرن السابع عشر شاهدت كثيراً من المخطوطات غير المنشورة التى تناهض المسيحية . وكثير من هذه المخطوطات يهاجم المؤلفات المسيحية من منظور تاريخى ولاهوتى وسياسى ونصى . وأبرز المؤلفين اليهود لهذه المخطوطات مؤلفان يهوديان هما شاءول ليفى مورتيرا واسحق أوربيو دى كاسترو . والأول كما أسلفنا هو سكرتير الدكتور مونتالتو فى باريس الذى صار الحبر الأكبر فى هيكل اليهود الذى أقامه البرتغاليون اليهود فى أمستردام . أما الثانى فكان طبيب العائلة المالكة فى أسبانيا وأستاذ الفلسفة والطب فيها ثم فى تولوز بفرنسا قبل فراره إلى أمستردام . ومورتيرا اسم معروف فى تاريخ الفكر الغربى بسبب الدور البارز الذى لعبه فى طرد الفيلسوف الكبير سبينوزا من المجمع اليهودى ؛ فقد كان رئيس المحكمة التى أمرت بطرده منه بتهمة الكفر والإلحاد . كتب مورتيرا باللغة البرتغالية عدداً من الأبحاث التى تدافع عن الدين اليهودى ضد الدين المسيحى والتى لا يزال معظمها باقياً فى أمستردام حتى يومنا الراهن . وفى العام الأخير من حياته ألف مبحثاً هاماً بعنوان «مبحث عن حقيقة ناموس موسى» لايزال باقياً حتى الآن . وقد وصف البعض هذا المبحث بأنه أوسع وأشمل كتاب قيض ليهودى أن يؤلفه حول المعتقدات المسيحية الجامدة والمتزمتة وأول دراسة نقدية للعهد القديم مكتوبة بلغة العوام وهى البرتغالية . يقول مورتيرا إنه يهدف من كتابه اقناع غير المتزمتين والجامدين من طائفة البروتستانت فى الجماعات المثيلة لها فى هولندا أن العهد الجديد ليس كتاباً منزلاً من لدن الله يتبنى وجهة نظر مطعمة بالدين اليهودى ومستوحاة من العهد القديم . والجدير بالذكر أنه كان يعيش فى أمستردام آنذاك عدد من المسيحيين التهويديين والمؤمنين بمبادىء الدين اليهودى مثل بيتر سيراريوس وآدم بورستيل وجون درورى . يقول مورتيرا فى بداية مبحثه إن اليهود يعتبرون العهد القديم رسالة سماوية ولكنهم يرفضون اعتبار العهد الجديد كذلك . ويخصص مورتيرا الثلاثين فصلاً الأول من كتابه لإثبات قداسة العهد القديم وألوهيته . ثم ينهى مورتيرا مبحثه بتعزيز وجهة نظره بالاستناد إلى آراء بعض المؤلفين المسيحيين الذين يذهبون إلى قداسة الناموس الموسوى من أمثال جون كالفين . ثم قارن مورتيرا بين ألوهية العهد القديم وبشرية العهد الجديد مجادلاً بأن كلمة الله التى تجسدت فى العهد القديم قد أساء العهد الجديد تفسيرها . ويستند مورتيرا إلى إيمان كالفين بقداسة الناموس الموسوى فيراه مكتفياً بذاته وليس بحاجة إلى أية نواميس مكملة له . ويدل مبحث مورتيرا على مدى إلمامه الواسع والعميق بالنصوص الدينية اليهودية والمسيحية . وبلغ علمه الغزير حداً جعله يفند فكرة ألوهية المسيح من واقع المجادلات المسيحية اللاهوتية المتخصصة التى وردت على لسان بعض أئمة الدين المسيحى فيما يعقدونه من

مجامع دينية . فضلاً عن أنه استخدم آراء المفكر البروتستانتى المعروف جون كالفين لتأكيد توغل الجذور اليهودية فى الدين المسيحى . ونحن نراه فى الفصل الواحد والأربعين من مبحثه يهاجم الكاثوليك ويتهمهم بالممارسة الوثنية وتفسير المسيحية على نحو وثنى .

وأيضاً شن اسحق أوربيو دى كاسترو فى كتابه هجوماً من نوع آخر على المسيحية . ولد أوربيو عام ١٦٢٠ فى البرتغال وتلقى هناك تدريبه كفيلسوف متفقه فى العلوم الكنسية المدرسية (أو السكولاستية) . ودرس الفلسفة والطب فى أسبانيا ثم صار أستاذاً جامعياً فى الميتافيزيقا وطبيباً ومستشار الملك هناك . وينهض هجومه النظرى ضد المسيحية على الجوانب الميتافيزيقية فيها . وألقت محاكم التفتيش القبض عليه بتهمة ممارسة شعائر الدين اليهودى وعذبته حتى اضطرته إلى الاعتراف . ثم فر إلى فرنسا حيث أصبح أستاذ الصيدلة فى جامعة تولوز . وأخيراً قرر أوربيو أن يتخلى عن أية جوانب قد تربطه بالمسيحية وأن يتحول تحولاً كاملاً إلى الدين اليهودى فسافر إلى أمستردام حيث أجريت له عملية ختان وأصبح منتمياً انتماء كاملاً إلى المجتمع اليهودى بحلول عام ١٦٦٢ الذى سرعان ما أصبح عضواً بارزاً فيه . كتب الشعر وألف محاجات فلسفية ترمى إلى الدفاع عن الدين اليهودى . والجدير بالذكر أن أوربيو هاجم طبيباً فى أسبانيا يدعى خوان دى برادو الذى ارتحل فيما بعد إلى هولندا حيث أصبح صديقاً حميماً للفيلسوف سبينوزا . ذهب برادو إلى رأى اعترض عليه أوربيو مفاده أن قانون الطبيعة أهم من قانون موسى . وتصدى أوربيو لهذا الرأى وقام بتفنيده كما أنه كتب دفاعاً ميتافيزيقياً عن الدين اليهودى للرد على ألفونسو دى كييدا .

ومن المعروف أن أوربيو كتب مبحثين يتمتعان بشهرة عريضة أولهما رده على الفيلسوف سبينوزا المنشور فى قالب هندسى عام ١٦٨٤ . وثانيهما مبحث ظل على هيئة مخطوطة تهاجم المسيحية وتتوفر نسخ منها حالياً فى مكتبات أوروبا وأمريكا . يقول أوربيو عن هذه المخطوطة إنه امتنع عن نشرها تفادياً للمشاكل ودرءا للفضائح . ولكنه أرسل نسخاً منها إلى طائفة الجيزويت التى تعيش فى بروكسل ، ويقول أوربيو إن الجيزويت أبدوا إعجاباً بها . وتتضمن المخطوطة أهم رد فلسفى من قبل اليهود على المسيحية كما أنها تتحدى مشكلة التثليث فى الدين المسيحى وما تنطوى عليه من مشكلات ميتافيزيقية شائكة . فضلاً عن أن المخطوطة طورت المحاجات التاريخية والنصية التى استخدمها اليهود آنذاك لدحض الإنجيل .

وعندما بلغ التنوير الأوروبى أوجه قام البعض باختصار المخطوطة الآنفة الذكر فى موجز بعنوان «انتقام إسرائيل» (١٧٧٠) ونسبوه خطأ إلى الفيلسوف الألمانى الهام البارون هو لباخ . وقد ظهرت لهذه المخطوطة ترجمتان بالإنجليزية من الفرنسية فى القرن التاسع عشر إحداهما تحت عنوان «الدفاع عن إسرائيل أو عرض اليهود للنبوءات اليهودية كما يطبقها المسيحيون على مسيحهم تأليف اسحق أوربيو (مترجم من الفرنسية ومطبوع خصيصاً يستعمله شباب العقيدة اليهودية . . . مخطوطة منشورة فى لندن عام ١٨٣٨ .» ويبدو أن هذا النص المنشور أخف وطأة فى هجومه على المسيحية من النص الأصلى . وقد ذكر مترجم النص الملطف أو المخفف واسمه جريس أجويلار أن المبحث لا يهدف إلى إثارة الجدل أو إلى تهويد المسيحيين بل إلى توعية اليهود بحقيقة

دينهم ، ونبه المترجم أنه ينبغى على من يصادف هذا الكتاب من غير اليهود أن يتذكروا الهدف الأصلى من تأليفه . ولكن قسيساً اسمه الكسندر ماكول يعمل أستاذاً بكلية ترينتى فى دبلن أظهر تحمساً لتنفيد ما جاء فى هذه المخطوطة المنشورة والرد على مزاعمها سطراً بسطر ثم نشر المخطوطة والرد عليها بعنوان «إسرائيل تثأر» .

وإذا كانت كتابات أروبيو مهمة فالأهم منها مجادلته التى أجراها عام ١٦٨٦ مع مسيحى هولندى يدعى فيليب ڤان ليمجورش الذى قام بنشر نص هذه المجادلة عام ١٦٨٧ وهو العام الذى توفى فيه أروبيو . ويبدو أن الفيلسوف الإنجليزى الكبير جون لوك حضر هذه الملاحاة ، كما يبدو من عرض لوك لهذه الملاحاة أن الفوز فيها كان من نصيب المسيحى ليمجورش . وحتى إذا كان هذا صحيحاً فقد تمكن غريمه اليهودى من عرض انتقاداته للمسيحية على نحو يتسم بالمهارة والحذق . وقد انزعج المجمع اليهودى من عواقب هذه الملاحاة فأمر اليهود أن يمتنعوا عن الخوض فى آية مجادلات أخرى مع المسيحيين . ويبدو أن المسيحيين أنفسهم رأوا أنه من الحكمة عدم الانخراط فى مثل هذه الملاحاة حسبما يقول جاك باسناج .

والجدير بالذكر أن اليهود الذين اضطرهم المسيحيون لاعتناق المسيحية كانوا بحكم دراستهم للمعارف السكولاستية والمذهب الإنسانى المعروف بالهيومانيزم ، يملكون أسلحة ماضية وحججاً قوية لدحض وجهة النظر المسيحية . ويشهد جاك باسناج فى كتابه «تاريخ اليهود» بأن المحاجات التى استخدمها اليهود فى معارضتهم للمسيحية كانت فى مجموعها أقوى بكثير من المحاجات التى استخدمها المسيحيون فى تفنيد وجهة النظر اليهودية . وبعد هذه الملاحاة التى جرت عام ١٦٨٧ توخى الجانبان اليهودى والمسيحى عدم الخوض فى أية ملاحاة عقائدية . ويذكر كذلك أن الفيلسوف والأديب المعروف جان جاك روسو قال فيما بعد إن محاجات اليهود أقوى بكثير من محاجات المسيحيين ولكن المسيحيين لم يعطوا اليهود الفرصة لإظهار قوة حججهم .

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر رأى المسيحيون الكاثوليك والبروتستانت ممن يظهرون عطفاً على اليهود أن السماح لليهود بتعميق معرفتهم بعقائدهم الدينية وعدم التعرض لهم بالأذى من شأنه أن يشجع اليهود على اعتناق الدين المسيحى . ولهذا نرى تعاوناً ملحوظاً بين علماء اليهود والمسيحيين فى شرح وتحرير وكتابة حواشى بعض النصوص اليهودية غير العهد القديم . وقد نشرت ثمار هذا التعاون باللغات العبرية واللاتينية والأسبانية .

ولكن زيادة المعارف المتصلة بالدين اليهودى لم تفض إلى زيادة عدد اليهود الذين تحولوا إلى الدين المسيحى مثلما توقع المسيحيون . بالعكس فقد أدى هذا إلى اشتداد معارضة اليهود للدين المسيحى . فضلاً عن أنه أدى إلى بذر بذور الشك فى عقول بعض المسيحيين فى صحة عقيدتهم . ومما زاد من هذا الشك أن المجادلات بين اليهود والمسيحيين لم تنقطع بالرغم من دعوة البعض إلى الكف عنها . ويعتبر الدارسون والمؤرخون ردود مورتيرا وأروبيو دى كاسترو من أقوى الحجج التى ساقها اليهود لتفنيد العقيدة المسيحية .

ويشكل هذا الجو جانباً مهماً من خلفية عصر التنوير فى أوروبا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . والجدير بالذكر أن التأليهى الإنجليزى انتونى كولينز استخدم جانباً من هذه المحاجات اليهودية فى تفنيد المسيحية ، وفيما بعد انتقلت نسخ من مجموعة المخطوطات اليهودية الموجودة فى امستردام إلى بقية أرجاء أوروبا المسيحية الأمر الذى زاد من الهجوم على الدين المسيحى وتفاقمه . وفى عام ١٧١٦ أعلن جاك باسناج مؤلف «تاريخ اليهود» اكتشافه لعدة مؤلفات يهودية لمونتالتو وآروبيو ومورتيرا وجودا ليون يجهلها العالم المسيحى تماماً . وحتى ندرك الدور البارز الذى لعبته هذه المؤلفات اليهودية فى التشكيك فى العقيدة المسيحية يكفى أن نذكر أن الفيلسوف هولباخ استخدم جانباً من محاجات أوربيو للنيل من الدين المسيحى والتشكيك فى صحته ، وأن فولتير استعان ببعض كتابات مورتيرا فى هجومه على المسيحية . ولم يترك عصر التنوير فى أوروبا هذه الفرصة تفوته فاستغلها فى الانقضاض على الدين . وفى عام ١٧٢٤ أصبح التأليهى انتونى كولينز على معرفة وثيقة بهذه المحاجات اليهودية المناهضة للمسيحية واستغل انتونى كولينز تلك المحاجة التى سبق لليهوديّين مورتيرا وأروبيو أن ساقاها ومفادها أنه طالما أن يسوع المسيح لم يحقق حرفياً النبوءات الواردة فى العهد القديم فليس هناك ثمة علاقة بين العهدين القديم والجديد وبالتالى فإن المسيحية دين لا أساس له . ومما يذكر فى هذا الصدد أن فيلسوفاً مسيحياً اسمه بيرينى أرسل إلى بعض رجال الدين خطاباً بتاريخ ٢ مارس ١٧٨٠ اعترف فيه بعجز المسيحيين عن الرد على محاجات أروبيو . وازداد خطر المحاجة اليهودية على الدين المسيحى عندما بدأت المخطوطات اليهودية تنتقل إلى أيدى كثيرين من الفلاسفة . وقد عثر قسيس يدعى جورج بيثون انجليس المولود عام ١٧٨٧ والمتوفى عام ١٨٢٨ على مخطوط يهودى فى مكتبة هارفارد استخدمه فى تأليف كتاب عام ١٨١٣ بعنوان «فحص أسس المسيحية بمقارنة العهد الجديد بالعهد القديم» . يذهب هذا القسيس فى كتابه إلى أن الحجج التى يستند إليها اليهود فى رفض الدين المسيحى قوية ودامغة ولا سبيل إلى الرد عليها . وغضبت الكنيسة من تصريحه هذا فقامت بطرده من وظيفته الكهنوتية فرحل إلى الشرق الأوسط حيث اعتنق الإسلام فى مصر وانخرط فى صفوف الأتراك .

والذى لا شك فيه أن هذه المخطوطات المشار إليها وغيرها مهدت الطريق فى عصر التنوير الأوروبى إلى نبذ المسيحية وفتحت الباب ليتسلل منه المذهب التأليهى والإلحاد . وإلى جانب هذه المخطوطات انتشرت مؤلفات أخرى سرية مثل مؤلفات بودين استند إليها التأليهيون والملحدون فى أواخر القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن عشر وأدت إلى الشك فى وجود أية صلة بين العهدين الجديد والقديم . فلا غرو إذا رأينا كثيرين من الناس يشكون فى الأساس التاريخى واللاهوتى الذى تنهض عليه المسيحية . وشك البعض مثل نابليون بونابرت فى وجود شخص المسيح أصلاً كما شكوا بطبيعة الحال فى ألوهيته . وطرح كل من الفيلسوفين دافيد هيوم وتوم بين تساؤلات تشكك فى أن الدينين اليهودى والمسيحى مجرد خزعبلات .

***

عندما يتحدث الأوروبيون عن العصر الحديث فهم فى العادة يقصدون تلك الفترة التى بدأت فى أوروبا منذ مطلع القرن السابع عشر حتى مطلع القرن العشرين أو بعد ذلك بقليل . ولا ريب أن القرن السابع عشر الذى اتسم بازدهار الفكر الليبرالى لم يظهر من فراغ ، فهو وليد عصر النهضة الأوروبية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وليس من شك أيضاً أن هذا الفكر الليبرالى الزاهر فى القرن السابع عشر جاء ليحل محل الفكر الكنسى المدرسى المعروف باسم الفكر السكولاستى الذى استقر مع استقرار النظام البابوى فى روما فى الفترة بين عام ٦٠٠ م حتى بزوغ عصر النهضة فى أوروبا فى القرن الثالث عشر تقريباً . وهو فكر تأثر بالغ التأثر بفلسفة أرسطو التى افترضت وجود خالق للكون أطلق عليه المحرك الأول ، مشيحة بذلك وجهها عن فلسفة أفلاطون رغم أنها فلسفة دينية فى جوهرها تذهب إلى أننا نعيش فى عالم من الظلال أى عالم من الوهم والأحلام وأن عالم المثل أى العالم الآخر هو العالم الحقيقى . ومن الواضح أن القرن السابع عشر جاء فى أعقاب الانهيار الكامل الذى أصاب النظام الإقطاعى السائد فى أوروبا فى القرون الوسطى حين سيطرت الكنيسة الكاثوليكية فى كثير من الأوقات على زمام الحكم ومقاليد الأمور . ويصف الباحثون القرن السابع عشر بأنه البداية الحقيقية لعصر العلم بالمفهوم الحديث . ولا غرو فقد سطع فيه علماء عمالقة أمثال العالم الكيمائى البارز روبرت بويل (١٦٢٧ - ١٦٩١) واسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) الذى أدت نظرياته فى الرياضيات والفيزياء إلى إشاعة ما يعرف بالنظرة الحتمية الميكانيكية للكون فى القرن السابع عشر ، ومفادها أن الإنسان يعيش فى كون تحكمه قوانين تشبه فى شدة إحكامها وانتظامها دقة عقارب الساعة ، الأمر الذى يشير إلى وجود خالق للكون مثلما تشير الساعة إلى وجود صانع لها .

وسطعت كذلك فى القرن السابع عشر كوكبة من ألمع الفلاسفة أمثال ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) وتوماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٠) وسبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) وباسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) وليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) وچون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) والفيلسوف والناقد الأدبى بيير بال (١٦٤٧ - ١٧٠٦) الذى أوقف عن العمل عام (١٦٩٣) بسبب آرائه العقلانية التى تركت فيما بعد أعمق الأثر فى الأنسكلوبيديين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر أمثال ديديرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) وكوندورسيه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) . والجدير بالذكر أن عدداً كبيراً من مفكرى وفلاسفة القرنين السادس عشر والسابع عشر أمثال فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) وچيوردانو برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠) وديكارت وهوبز وتوماس براون (١٦٠٥ - ١٦٨٢) وجوزيف جلانفيل (١٦٣٦ - ١٦٨٠) وعالم الكيمياء روبرت بويل والشاعر چون ميلتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤) لعبوا دوراً نشيطاً فى تقويض الفكر الكنسى المدرسى . وقد سبقهم إلى ذلك المفكر السياسى المعروف بكتابه «الأمير» ماكيافيلى (١٤٦٩ - ١٥٢٧) وإيرازموس (١٤٦٦ - ١٥٣٦) وتوماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) والفنان العالمى ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) . ناهيك بالدور الواضح الذى لعبه الشكاك الكبير مونتانى (١٥٣٢ - ١٥٩٢) فى نسف أفكار السلف التقليدية .

وقد مهد أيضاً نفر من العقلانيين غير المشهورين الطريق إلى تقويض الأفكار السلفية أمثال

بنبوناتزى (١٤٦٢ - ١٥٢٥) وچيرو لامو كردان (١٥٠١ - ١٥٧٦) وتشيزارى كريمونينى (١٥٥٠ - ١٦٣١) ولويس فيفيس (١٤٩٢ - ١٥٤٠) وبيير دى لارمى (١٥١٥ - ١٥٧٢) وبرنردينو تليزيو (١٥٠٨ - ١٥٨٨) وتوماز وكمبانيلا (١٥٦٨ - ١٦٣٩) وچاكوب بوهمى (١٥٧٥ - ١٦٢٤) ومن الخطل أن نظن أن تقويض الفكر الكنسى المدرسى قاصر على التأليهيين والمتشككين وحدهم ؛ فقد أسهم البروتستانت وعلى رأسهم مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) بإنشقاقهم على الكنيسة الكاثوليكية بنصيب وافر فى هذا الصدد .

وسوف نعنى فيما يلى بتتبع الأثر - سواء صغر أم كبر - الذى تركه معظم هذا الحشد الهائل من الأسماء فى نشر الكفر والإلحاد فى الغرب عن قصد أو فى التمهيد له عن غير قصد . فهناك مفكرون يؤمنون بالله والمسيحية ممن جعلوا بآرائهم الجريئة المتحررة من الكفر والإلحاد أمراً ممكناً .

وسوف نعرض بشكل مبتسر لدعاة التحرر الفكرى الأوائل فى عصر النهضة الذين مهدوا لازدهار الفكر الليبرالى بوجه عام ؛ ولكننا سوف نسلط قدراً أكبر من الضوء بوجه خاص على الشخصيات التى تركت أثرها الواضح فى تقدم مسيرة الكفر والإلحاد فى الغرب .

١ - بومبوناتزى (١٤٦٢ - ١٥٢٥) :

يعتبر بومبوناتزى واحداً من أشهر أساتذة بادوا بإيطاليا فى عصره .

وقد ألف كتاباً بعنوان «خلود النفس» (١٥١٦) أنكر فيه خلودها . وذهب إلى أن أرسطو لم يقل بخلودها . ويرى بومبوناتزى أن خلود النفس ليس خلوداً شخصياً ولكنه خلود جماعى يتمثل فى مشاركة الإنسان فى المعارف العقلية . ويدحض هذا المفكر فكرة العقاب والثواب فى الآخرة قائلاً : «إن ربط الفضيلة بالثواب والرذيلة بالعقاب فى الآخرة ينتقص من قيمة العمل الفاضل . فالإنسان الناضج يجب أن يسعى إلى فعل الخير كغاية فى حد ذاتها وأن ينبذ الرذيلة لأنها مقيتة فى حد ذاتها بغض النظر عما قد ينتظر الإنسان من عقاب أو ثواب» . والقول بغير هذا دليل على أن الإنسانية لم تتجاوز بعد مرحلة الطفولة فى معتقداتها الأخلاقية . والرأى عنده أن المشرعين هم الذين اخترعوا فكرة خلود النفس وعقابها أو ثوابها فى الآخرة لزجر عامة الناس عن فعل الشر . ومن الواضح أن مثل هذه النظرة تحطم الأساس الدينى والميتافيزيقى الذى تستند إليه قواعد الأخلاق . كما أنها محاولة لبناء الأخلاق الطبيعية المستقلة عن كل من الدين والفلسفة . وفضلاً عن ذلك ألقى بومبوناتزى ظلالاً من الشك على سلامة المعجزات فى كتابه «علل الظواهر الطبيعية العجيبة أو كتاب التعازيم» (١٥٥٦) الذى يقول فيه : «إن المعجزات لا تعدو أن تكون أحداثاً استثنائية تصاحب نشوء الأديان وتدل على قصور المعرفة الإنسانية التى عجزت عن فك طلاسم الكون وسبر غور الطبيعة» . بل إنه ذهب فى كتابه «فى القدر والحرية وانتخاب الله للمخلوقات» (١٥٢٥) إلى أنه لا يمكن التوفيق بين الإيمان بوجود الله والعناية الإلهية وبين الإيمان فى الوقت نفسه بالحرية الإنسانية .

٢ - جيرو لامو كردانو (١٥٠١ - ١٥٧٦) :

درس هذا المفكر الطب والرياضيات فى بادوا بإيطاليا ومزج مزجاً غريباً بين الأفكار المتحررة والإيمان بالسحر والتنجيم والخزعبلات ذاهباً إلى أن نشأة الأديان وقوتها وضعفها وانتشارها فى أماكن معينة من العالم دون الأخرى ترجع إلى تأثير النجوم عليها . ويربط كردانو بين ولادة المسيح ومجرة المشترى والشمس ، كما أنه يشير إلى تأثير زحل فى الشريعة اليهودية . فضلاً عن أنه ذهب إلى وجود حياة غير مرئية فى جميع موجودات الطبيعة بما فى ذلك الجماد .

٣ - تشيزارى كريمونينى (١٥٥٠ - ١٦٣١) :

اشتغل أستاذاً فى بادوا ونادى بقدم العالم مما يعنى إنكاره للخلق ، كما أنه أنكر الخلود ووجود عناية إلهية .

٤ - بيير دى لارمى (١٥١٥ - ١٥٧٢) :

هو فيلسوف فرنسى يعرف أحياناً باسم بتروس داموس لعب دوراً بارزاً فى القضاء على التفكير الكنسى المدرسى الذى اتخذ من منطق أرسطو الدعامة التى يستند إليها فى إثبات وجود الله . زعزع دى لارمى نفوذ الكنسية الكاثوليكية عن طريق هجومه الشديد على أرسطو فى كتابين أحدهما بعنوان «أقوال أرسطو الواهمة» (١٥٣٦) الذى أتبعه بعد مرور سبعة أعوام بكتاب آخر عنوانه «الأخطاء الأرسطاطاليسية» وأثار كلا الكتابين ثائرة المجلس النيابى الفرنسى ، فطلب من الجامعة التى يشتغل فيها دى لارمى إعدامهما بتهمة الزراية بالدين وتعريض الأمن العام للخطر وإفساد الشباب . وبعد عرض الأمر على الملك فرانسوا الأول أصدر مرسوماً بتحريم الكتابين ، ومنع مؤلفها من ممارسة التدريس بالجامعة . غير أن خلفه هنرى الثانى ألغى هذا المرسوم عام ١٥٥١ وسمح له بالتدريس فى الكوليج دى فرانس . وفى عام ١٥٦٢ اعتنق المذهب البروتستانتى وأصبح واحداً من أتباع كالفين المعروف بشدة تشدده الدينى .

وكما ذكرنا أسهم دى لارمى فى زعزعة الفكر الكنسى المدرسى عن طريق هجومه على منطق أرسطو الصورى القائم على القياس .

٥ - برنر دينو تليزيو (١٥٠٨ - ١٥٨٨) :

درس تليزيو الفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية فى كل من بادوا وروما فى إيطاليا وحظى بتقدير عظيم من جانب البابا بولس الرابع رغم أنه كان من ألد أعداء الفلسفة الأرسطاليسية . وفى عام ١٥٦٦ أسس تليزيو جمعية علمية باسم أكاديمية تيليسيانا . تأثر هذا الرجل بالفلسفة الإغريقية وبفلسفة بارمينيدس بوجه خاص وآمن إيماناً مطلقاً بالعلم الطبيعى القائم على المشاهدة والتجربة كما هو الحال عند الفيلسوف الإنجليزى المعروف فرانسيس بيكون وعدد كبير من العلماء فى عصر النهضة الأوروبية . وقد تتلمذ على يديه المفكر النابغة چيوردانو برونو ، وت . كمبانيلا . والجدير بالذكر أن الكنيسة الكاثوليكية قامت بحظر معظم مؤلفاته فى عام ١٦٠٦ .

٦ - تومازو كمبانيلا (١٥٦٨ - ١٦٣٩) :

أصبح الفيلسوف الشاعر كمبانيلا أحد الرهبان الدومينيكان عام ١٥٨٢ ، وفى عام ١٥٩٠ أصدر أول عمل مهم له دافع فيه عن فلسفة تليزيو القائمة على العلم التجريبى . ذهب كمبانيلا إلى استحالة التوفيق بين فلسفة أرسطو والدين المسيحى . وكان هجومه على الفلسفة الأرسطاليسية سبباً فى شك الكنيسة الكاثوليكية فيه واستدعته محاكم التفتيش للمثول أمامها . وفى عام ١٦٠٣ حكم عليه بالسجن المؤبد بتهمة التآمر على الدولة والمروق على الدين . ولكن أطلق سراحه فى عام ١٦٢٩ أى بعد فترة طويلة من السجن تجاوزت ستاً وعشرين سنة . ورغم ما لقيه فى السجن من تعذيب فقد ظل فى سجنه يداوم على القراءة والكتابة وقرض الشعر . وفى عام ١٦٣٤ يسر له البابا سبيل الهرب إلى فرنسا ، فقد كان إيمانه بوجود الله شيئاً لا يرقى إليه الشك . وفى عام ١٦٢٢ أصدر كتاباً بعنوان «دفاع عن جاليليو» دعا فيه الكنيسة إلى السماح بحرية البحث العلمى القائم على التجربة لأن مثل هذه الحرية لا تتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس .

تنتمى فلسفة كمبانيلا إلى التقليدين الأفلاطونى والطوبوى . وأدت هذه الفلسفة التى تذهب إلى أن إدراك الفرد لوجوده هو أساس التجربة الإنسانية إلى ظهور مذهب ديكارت . والرأى عنده أن أحسن دليل على وجود الله هو وعى الإنسان به ، وتنهض فلسفة كمبانيلا على المزج بين يوتوبيا توماس مور وفلسفتى أفلاطون والقديس أوجسطين ، فقد دافع عن فكرة إنشاء يوتوبيا أو نظام اجتماعى على نسق جمهورية أفلاطون يتربع على قمته ويتقلد زمام الأمور فيه طبقة من الكهنة - الفلاسفة الذين يعملون لخضوع هذا المجتمع لسلطة البابا . وهكذا سعى كمبانيلا إلى إخضاع السياسة للأخلاق والدين .

٧ - جاكوب بوهمى (١٥٧٥ - ١٦٢٤) :

كان جاكوب بوهمى إسكافياً لم يتلق العلم فى المدارس ورجلاً ورعاً ومتصوفاً يدعو إلى التصوف والاتحاد بالله . وتمكن بوهمى بجهده أن يتوفر على تعلم الفلسفة والطبيعة والفلك بجانب اهتمامه الشديد بدراسة الكتب المقدسة . وانشغل انشغالاً كبيراً بمسألة وجود الشر فى العالم وصعوبة التوفيق بين هذا الشر والإيمان بوجود الله : وهداه تفكيره إلى أن الشر أزلى وأصيل فى الكون وآمن بنوع من ألمانية يتصارع فيها الخير والشر والنور والظلام والنعيم والجحيم . ولكن قلب الله ينجح فى محق الشر الذى يسعى عن طريق الكثرة إلى تفتيت الوحدة والإنسجام الذى يجمع بين مختلف الموجودات .

***

وقبل أن نعرض لكوكبة العلماء والفلاسفة والمفكرين الأكثر نفوذاً وأهمية فى عصر النهضة الذين مهدوا السبيل لترسيخ الفكر الليبرالى فى القرن السابع عشر ، يجدر بنا أن نؤكد أن الليبرالية الأوروبية نشأت على يد الطبقة المتوسطة فى بلدين هما إنجلترا وهولندا وأنها كانت أرسخ قدماً فى هولندا منها فى إنجلترا ، ثم ما لبثت أن امتدت إلى جميع أرجاء القارة الأوروبية . وإليها يرجع السبب

فى اندلاع الثورة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر . ولم يكن من الممكن لليبرالية أن تنشأ لولا دعوة البروتستانتية التى اعتنقتها الطبقة الوسطى إلى التسامح ونبذ التعصب الدينى ، فقد اعتبروا الحروب الدينية سخفاً ما بعده سخف وحجر عثرة فى سبيل الرواج التجارى والصناعى الذى يعد ركيزة التقدم الاجتماعى والاقتصادى . فقد أعلى البروتستانت من شأن الثروات التى يحققها أفرادهم بجهودهم وكفاحهم . ولكن هذا لا يعنى أن البروتستانتية احتفظت بروح التسامح على طول الخط . فبعد أن نجحت فى إسقاط النظام الكنسى القديم وأحست بنشوة الظفر والنصر تحولت بعض الشيع البروتستانتية المتطرفة إلى فئات متناحرة ومنغلقة الفكر مثلما حدث فى حالة أتباع مذهب كالفين وكذلك فى حالة الرافضين لمعمودية الأطفال . أى أن بعض الملل البروتستانتية أظهرت ضيقاً شديداً فى الأفق يتعارض مع رحابة صدر رواد الليبرالية الأوائل وسماحتهم . ومع هذا فإن الاتجاه العام اتسم بغلبة التيار الليبرالى الذى اشتد ساعده وظل يسود الحياة الأوروبية حتى مطلع القرن العشرين حين ظهرت فى العقود الأولى منه حركات فاشية ونازية وشيوعية اعتبرت الديموقراطية وحرية الفرد ألد أعدائها .

والفردية هى السمة التى تميزت بها الليبرالية عن النظام الإقطاعى القديم . هذه الفردية شىء جديد لم يكن لها وجود فى ظل المذهب الكاثوليكى الذى وحد بين جميع الأقطار الأوروبية فى كيان واحد دأب على النظر إلى الفرد باعتباره عضواً فى الأمة المسيحية . ومعنى ذلك أنه قدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد . وبمجىء عصر النهضة وانتشار الفكر الليبرالى اختفت هذه النظرة الجماعية وبدأت الطبقة البورجوازية الصاعدة ترى فى مصلحة الفرد تحقيقاً لمصلحة الجماعة . وبسبب انتشار التعليم بين أبناء الطبقة البورجوازية ذاعت الصحف كما ذاعت كلمة هذه الطبقة المطالبة بالمشاركة بالرأى فى قضايا المجتمع . وللفردية البورجوازية التى ظهرت فى عصر النهضة الأوروبية عدة أشكال ، فهناك الفردية الاقتصادية والسياسية التى سوف نعرض لهما عند الحديث عن الفلاسفة الراديكاليين الإنجليز . ويربط برتراند راسل بين التقدم العلمى الذى ظهر فى عصر النهضة الأوروبية وبين ازدهار الفردية فيقول : «إن هذه الفردية تسللت إلى الفلسفة والعلم نفسه» . فالفيلسوف ديكارت مثلا يقيم اليقين فى مجال المعرفة على أساس إدراك الفرد لوجوده كما يتمثل فى مقولة ديكارت الشهيرة : «أنا أفكر إذن أنا موجود» ويضيف راسل إلى ذلك قوله إن العلم فى عصر النهضة لم يكن ليحرز أى تقدم لولا رفض العلماء والمكتشفين آنذاك الخضوع لأفكار السلف السائدة ولولا إصرارهم على اتخاذ مواقف مستقلة عنهم . وتتمثل هذه النزعة إلى التفكير المستقل فى رفض المفكرين فى عصر النهضة لفلسفة أرسطو التى تبنتها الكنيسة الكاثوليكية ، لأن هذه الفلسفة تدلل على وجود الله الذى تصفه بالمحرك الأول . ولو أن جاليليو لم يخالف موقف الفلكيين السابقين عليه لما تقدم العلم فى عصر النهضة .

والجدير بالذكر أن الأحزاب السياسية فى أوروبا لم تظهر إلا مع ظهور الديموقراطية والليبرالية فى القرن السابع عشر . ومن الثابت أن ازدهار الحرية فى ذلك القرن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بازدهار طبقة من غلاة المتشددين والمتزمتين تعرف باسم الطائفة البيوريتانية التى تعرضت لتنكيل الدولة بها ، ولهذا درجت هذه الطائفة البيوريتانية إلى الشك فى نوايا الدولة وارتابت فى تدخلها فى

شئون الأفراد . ومن ثم وقفت بكل قوتها فى وجه تدخلها ودافعت بشدة عن ضرورة التسامح وإطلاق حرية العقيدة والرأى . ونذكر فى هذا الصدد أن شاعر إنجلترا البيوريتانى الكبير ميلتون تصدى عام ١٦٤٤ للدفاع المجيد عن حرية الصحافة فى كتيب نشره بعنوان «الأريوباچيتكا» وأدى إفراط طبقة البيوريتانيين فى التأكيد على حرية الفرد إلى تشجيع الفكر البورجوازى بطريقة سافرة . فقد آمنت هذه الطائفة بضرورة اعتماد الإنسان على جهده الفردى اعتماداً كاملاً لتحقيق الثراء فى الحياة الدنيا ، إلى حد أنها - وهى الجماعة الدينية المتحمسة - اعتبرت النجاح المادى معياراً لرضاء الله على الفرد . ودفعهم هذا الاعتقاد إلى انصراف طائفة البيوريتارنيين إلى الاشتغال بالتجارة والصناعة . والجدير بالذكر أن هذه الروح الفردية شاعت فى هولندا وبدرجة أقل فى إنجلترا لتنتقل بعد ذلك إلى معظم أرجاء القارة الأوروبية بدرجات متفاوتة . وقد حفزت هذه الروح الفردية أصحابها إلى بناء الإمبراطوريات الاستعمارية فى الخارج . فلا غرو إذا رأينا تنامى الاستعمار الأوروبى فى تلك الفترة . ورغم أن فرنسا وإنجلترا مَرتا بالتطور نفسه فإن هناك اختلافاً فى ظروفهما التاريخية أدى إلى سرعة انهيار النظام الإقطاعى فى إنجلترا أمام معاول النظام البورجوازى الجديد ، فى حين أن فرنسا كانت أبطأ فى تحولها من النظام الإقطاعى إلى النظام الرأسمالى . وفى ظل هذا النظام الرأسمالى سعت الطبقة البورجوازية إلى تقييد سلطة الملوك عن طريق استنان المجالس النيابية لقوانين تمنعهم من التحكم فى ميزانية الدولة أو السيطرة على قواتها المسلحة مثلما حدث فى إنجلترا حيث طالبت الطبقة البورجوازية أيضاً بعدم جواز محاكمة أى متهم دون وجود جسم الجريمة التى ارتكبها وإعادة تشكيل البرلمان بصفة دورية كل ثلاث سنوات .

وفى القرن السابع عشر ظهرت الأحزاب السياسية التى تعبر عن مصالح الطبقة البورجوازية الجديدة داعية إلى توفير الحرية الدينية وإقامة نظام قضائى مستقل عن السلطة التنفيذية وسيطرة المجالس التشريعية المنتخبة على ميزانية الجيش . وتم تنفيذ هذه الإصلاحات فى إنجلترا بالفعل وبذلك أصبحت البورجوازية الإنجليزية آمنة على نفسها من اضطهاد الدولة أو الكنيسة لها . وهكذا صارت الطبقة البورجوازية الإنجليزية سيدة مصيرها وتمسك بزمام المبادرة . وعندما تأكدت طبقة الأرستقراط أو أصحاب الأراضى فى إنجلترا من انتصار طبقة التجار والصناع لم تجد بداً من التحالف معها . ورغم أن الحريات الدستورية التى حققتها الطبقة البورجوازية تمثل خطوة مهمة على طريق التقدم الإنسانى فإنها عجزت عن صيانة مصالح الطبقة العاملة أو البروليتاريا ، الأمر الذى أدى فيما بعد إلى ظهور الفلسفة الماركسية ؛ والغريب أن الطبقة البيوريتانية - وهى طبقة تؤمن بالتشدد فى الدين - ذهبت إلى أن فقر الطبقة العاملة يرجع إلى مشيئة الله ، ومن ناحية أخرى حمَّل البيوريتانيون الفقراء مسؤولية فقرهم متهمين إياهم بالتكاسل والتسيب والانحلال . وآمنوا بأن الله يريد من الفقراء عدم التذمر والخضوع للمشيئة الإلهية .

قلنا إن طائفة البيوريتانيين لم تر فى الدولة إلا أداة للقسر والاضطهاد ومن ثم سعت إلى تقويض سلطة الملوك وتدعيم سلطة البرلمان . وكانت الكنيسة الإنجليزية التقليدية تؤازر الملكية لمنع انتشار الروح البيوريتانية المتذمرة ؛ وانتهى الصراع بين الملكيين والبيوريتانيين بزعامة أوليڤر كرومويل إلى اندلاع حرب أهلية ضروس انتهت بالإطاحة بالملك تشارلس الأول وإعدامه عام ١٦٤٩ ؛ ولكن هذا

النصر لم يدم طويلاً فقد استجمعت القطاعات الموالية للملكية قوتها وتمكنت من إعادة النظام الملكى إلى إنجلترا عام ١٦٦٦ وساعد على هذا بطبيعة الحال أن عدداً كبيراً من البيوريتانيين لم يكونوا ثوريين بمعنى الكلمة بل كان شاغلهم الشاغل تقييد سلطة الملك تشارلس الأول وتقليم أظافره دون أن يرغبوا فى استئصال النظام الملكى أو القضاء عليه .

ويلقي هارولد لاسكى فى كتابه «ظهور الليبرالية الأوروبية» (١٩٣٦) ضوءاً على الاتجاهات المختلفة التى احتوتها الحركة البيوريتانية الإنجليزية التى أطاحت بالملك تشارلس الأول عن طريق البرلمان فيقول : «إنه من الخطل أن نظن أن جميع المعارضين للنظام الملكى من الطائفة البيوريتانية كانوا يدينون بمعتقدات سياسية واجتماعية واحدة» . فـ «كرومويل» أراد أن تتولى الطبقات الثرية تسيير دفة الدولة . وعلى العكس من ذلك كان «ليلبرن» يمثل مصالح البورجوازية الصغيرة من سكان المدن التى اعتبرت الرأسمالى الكبير عقبة لا تقل فى خطرها عن الملك ورجال الأكليروس ، فى حين دعا «ونيستانلى» إلى أفكار تفوح منها رائحة الاشتراكية . وبعد أن تضافر جميع البيوريتانيين بمختلف أجنحتهم فى القضاء على السلطان المطلق الذى تمتع به الملك والكنيسة بدأت النزاعات والانشقاقات تدب بينهم ،الأمر الذى أدى فى نهاية الأمر إلى زوال حكمهم . وكان أحد أسباب النزاع الرئيسية أن الأثرياء من البيوريتانيين أحسوا بالخطر يتهددهم من جراء دعوة البيوريتانيين الراديكاليين إلى القضاء على فكرة الملكية الفردية وتحبيذهم الملكية العامة للأرض والإنتاج الزراعى . فضلاً عن تخوف هؤلاء الأثرياء من تحمس طائفة الكويكرز المفرط وتعاطفهم الشديد مع الفقراء والمحتاجين . ومما أفزعهم أن شعوراً غامضاً اجتاح البيوريتانيين الأثرياء بأن إنجلترا تقف على أعتاب ثورة اجتماعية ، فقد قام البرلمان الإنجليزى لدرئها باستدعاء الملك تشارلس الثانى من منفاه ليتولى حكم البلاد . واستوعب تشارلس الثانى الدرس وعرف أن أيام الملكية المطلقة قد ولت وانقضت . ومن ثم انتهج سياسة معتدلة تقوم على الحلول الوسطى والتوفيق بين الطبقات كافة التى تستأثر بمصادر الثروة سواء كانت هذه المصادر مستمدة من التجارة أو الصناعة أو ملكية الأرض ، وحدث تغير ملموس فى موقف البيوريتانيين الأثرياء من الدور الذى يلعبه البرلمان البريطانى فى الحياة العامة . ففى بداية القرن السابع عشر وضع البيوريتانيون كل أملهم فى تسخير البرلمان للمطالبة بحق الأفراد فى الثراء دون فرض قيود تكبل نشاطهم أو تحد من ثرائهم . ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا أنهم يمنحون البرلمان سلطاناً يعجزون فى كثير من الحالات عن توجيهه على نحو ما يرغبون ، كما أدركوا أن هناك داخل الحركة البيوريتانية نفسها اتجاهات ثورية تسعى إلى تغيير البناء الاجتماعى من أساسه وإلى تحجيم سلطة الطبقة البورجوازية الثرية . ويذكر لنا هارولد لاسكى فى هذا الشأن أن إنجلترا فى القرن السابع عشر شاهدت ثورتين وليس ثورة واحدة . ثورة كرومويل التى نجحت فى تقليم أظافر الملك والكنيسة وفى تحقيق الحرية الدينية التى وضعت حداً للصراعات الدينية الدامية . وثورة أخرى اجتماعية فاشلة أخفقت فى التخلص من الفقر الذى تعانى منه الطبقة الكادحة ، ويرجع السبب فى إخفاق هذه الثورة الثانية إلى قلة أعداد أصحابها وضعف تنظيماتهم وعدم بلوغ هذه التنظيمات النضج الكافى وتبين لخيبة أمل هذا الجناح البيوريتانى الثائر أن ثورة زعيمهم كرومويل استنت قانونين لا قانوناً واحداً : قانون للأغنياء وآخر

للفقراء وأنها استأصلت بعض المظالم الاجتماعية لتستحدث مظالم اجتماعية أسوأ وأضل سبيلاً . ويشرح لنا برتراندراسل الصراع الذى حدث فى صفوف البيوريتانيين داخل البرلمان المتمرد على سلطة الملك فيقول : «إن البرلمان ، الذى يسيطر عليه البيوريتانيون ، انقسم على ذاته إلى فريقين دينيين هما فريق البرسبتيريين وفريق المستقلين» . ودعا الفريق الأول إلى أن تكون للدولة كنيسة بدون رئاسة دينية تتمثل فى الأساقفة . ورغم أن المستقلين راق لهم طلب البرسبتيريين بإلغاء نظام الأساقفة فإنهم رأوا أنه يحق لكل جماعة مسيحية أن تختار النظام اللاهوتى الذى يعجبها . وكانت طائفة البرسبتيريين أكثر اعتدالاً فى آرائهم السياسية ، وفى معارضة الملك من طائفة المستقلين بسبب انتماء الطائفة الأولى إلى طبقة اجتماعية أرقى . ومن ثم كانوا أميل إلى الاتفاق مع الملك المخلوع بعد أن استشعروا استعداده للمهادنة . ولكن فريق المستقلين الذين يمثلون الجناح العسكرى فى البرلمان البيوريتانى المناوىء للملك ، نجح فى إلحاق الهزيمة العسكرية بالملك على يدى كرومويل وإملاء الشروط عليه . ورغم أن الجناح العسكرى المستقل كان يمثل الأقلية فى البرلمان فإنه نجح فى تركيز السلطة فى يديه وإخضاع الملك لمشيئته وإخراس معارضيهم من الطائفة البرسبتيرية المعتدلة . وهكذا تحول المطالب بالحرية كرومويل معتمداً على القوة العسكرية إلى طاغية يحكم البلاد بالحديد والنار ضارباً عرض الحائط بآمال أعضاء البرلمان فى حياة دستورية كريمة .

قلنا إن تشارلس الثانى استوعب الدرس الذى تلقاه سلفه المطاح به تشارلس الأول وأنه استجاب لمطالب البرلمان من أجل السيطرة على الميزانية والجيش إلى جانب عدد من التنازلات الأخرى مثل إلغاء حقه الملكى فى فرض الضرائب والأمر بالقبض التعسفى على المواطنين . ولكن الملك جيمس الثانى الذى تولى الحكم بعد تشارلس الثانى تصرف بنفس صلف وحماقة الملك تشارلس الأول الأمر الذى حدا البرلمان إلى التخلص منه ، فقد تحالفت الطبقة الأرستقراطية مع رجال الأعمال من الطبقة البورجوازية فى الإطاحة به بمنتهى اليسر ودون إطلاق رصاصة واحدة . وخلفه ملك آخر من أصل هولندى هو جيمس الثالث لم يساعد على انتعاش التجارة فحسب بل أصدر مرسوماً بالغ الأهمية ينص على التسامح الدينى بشكل حاسم ونهائى . ويعتبر القانون أو المرسوم الصادر فى عهد جميس الثالث علامة بارزة فى طريق الحرية والديموقراطية والليبرالية بالرغم مما يعيبه من شوائب مثل فرض بعض القيود على الكاثوليك وملل مسيحية أخرى . وفيما يلى نبذات عن أبرز رواد عصر النهضة الأوروبية الذين مهدوا لمجيء مثل هذه الليبرالية وجعلوا هذا التسامح الدينى أمراً ممكناً . والجدير بالذكر أن نفراً منهم أساء إلى المسيحية عن قصد أو غير قصد .وفيما يلى نبذات عن مشاهير رواد العلم والتنوير فى القرن السادس عشر الذين تمرد بعضهم على المفاهيم المسيحية السائدة فى وقتهم .

١ - نيقولاس كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) :

كان كوبرنيكوس - وهو رجل بولندى - رجل دين لا يرقى الشك فى إيمانه بالمسيحية ويعتبر كوبرنيكوس مؤسس علم الفلك الحديث رغم ما شاب نظرياته الفلكية من مثالب . فضلاً عن أنه درس الطب والفلسفة والقانون ، توصل كوبرنيكوس فى مطلع حياته إلى نظرية مفادها أن الشمس

هى مركز الكون ، وأن الأرض تدور حولها على عكس ما سبق أن ذهب إليه الفلك البطلمى من أن الأرض مركز الكون وأن الشمس تدور حولها . وقد راقت هذه النظرية البطلمية الخاطئة للكنيسة الكاثوليكية وساقتها كدليل على تكريم الله للإنسان بأن جعله وجعل الأرض التى يعيش عليها مركز الكون . واقتنع كوبرنيكوس أن الأرض ليست ثابتة ، وأن لها دورتين دورة يومية وأخرى سنوية حول الشمس . ويبدو أن كوبرنيكوس احتفظ بهذه الآراء الثورية من الناحية الفلكية لنفسه خوفاً من أن يثير عليه حنق الكنيسة . ولكنه ختم حياته بأن ضمنها فى أهم أعماله وهو كتاب بعنوان . «دوران الأجرام السماوية» . الذى تعمد أن يؤجل نشره حتى عام وفاته فى ١٥٤٣ وقد كتب صديقه أوسياندر مقدمة للكتاب ذهب فيها إلى أن نظرية كوبرنيكوس مجرد افتراض . وقد أهدى كوبرنيكوس كتابه إلى البابا . والغريب أن الكنيسة لم تجد فيه علة حتى جاء خلفه جاليليو فتنبهت إلى ما تضمنته أفكار كوبرنيكوس من أخطار ، الأمر الذى يدل على أن الكنيسة الكاثوليكية كانت أكثر تسامحاً وقت كوبرنيكوس عن وقت جاليليو . وفكرة وجود الشمس فى مركز الكون ليست جديدة فقد نادى بها أريستاركوس فى عهد الإغريق . ورغم إيمان كوبرنيكوس المخلص والأكيد بالمذهب الكاثوليكى فقد كان لنظريته فيما بعد أثر مدمر على اللاهوت المسيحى الذى ذهب إلى أن الله اختص الإنسان باهتمامه ورعايته دون سائر المخلوقات فوضعه فى مركز الكون .

٢ - كبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) :

درس كبلر الذى ينحدر من أصل ألمانى الفلسفة واللاهوت والرياضيات فى المدرسة الأكليريكية بتوبخن بألمانيا . وكان من أوائل المؤمنين بنظرية كوبرنيكوس . ذهب كبلر إلى أنه من الخطأ أن نعتقد أن الكواكب السيارة تدور فى حركة دائرية كما كان الفلكيون السابقون يعتقدون منذ عهد الإغريق استناداً إلى أن الأجرام السماوية كاملة فلابد أنها تتحرك فى شكل كامل . وبما أن الدائرة من الناحية الجمالية والهندسية هى أكمل شكل فلابد أن تكون حركة الكواكب دائرية . ولكن كبلر الذى توصل إلى بعض القوانين التى تحكم حركة الأجرام السماوية رفض الاعتقاد بصحة هذا الرأى ورأى أن الأجرام السماوية تتحرك فى مدارات بيضوية وأن الكواكب لا تسير بالسرعة نفسها أثناء دورانها حول الشمس فهى تسير بسرعة أكبر عند اقترابها منها وتخفّض من سرعتها عند ابتعادها عنها . سعى كبلر ، فى أحد مؤلفاته إلى التوفيق بين نظرية كوبرنيكوس والكتاب المقدس . ولأنه كان بروتستانتياً فإنه عرض كتابه على أساتذة اللاهوت بجامعة توبجن البروتستانتية فلم يسمحوا له بنشر هذا الرأى التوفيقى وقاموا بحذفه من الكتاب الذى ظهر عام ١٥٩٦ فضلاً عن أن البروتستانت منعوه أيضاً من نشر تقرير مفصل عن مذنّب سبق ظهوره فى العام السابق .

٣ - جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) :

جاليليو عالم إيطالى درس الطب والفلسفة والرياضيات والفلك إلى جانب شغفه باليونانية واللاتينية والشعر والموسيقى والرسم . درس جاليليو فى دير فالومبروزا بالقرب من فلورنسا ولكنه عجز عن استكمال دراسته الجامعية بسبب فقره . وله الفضل فى ترسيخ المنهج العلمى وبناء النظرية

الآلية التى تذهب إلى أن حركة الطبيعة والكون تحكمها مجموعة من القوانين ؛ ورغم أهمية مكتشفاته الفلكية فإن إنجازه العلمى الرائع يكمن فى أنه أول من اكتشف قوانين الديناميكا عن طريق دراسته لحركة سقوط الأجسام . هاجم جاليليو المنطق الصورى الأرسطاليسى ورأى أن العلم ينبغى أن يكون تجريبياً . وفى عام ١٦٠٩ تمكن من صنع التلسكوب وشاهد من خلاله جبال القمر ووديانه . وأقمار المشترى الأربعة . ومن منجزات جاليليو الفلكية أنه اكتشف كلف الشمس فاستنتج من حركة الكلف على قرص الشمس أن الشمس ليست ثابتة بل إنها تدور حول نفسها ؛ وعندما ذهب جاليليو إلى روما رحب به البابا بولس الخامس وأكرم وفادته كما احتفى به فلكيو المعهد الرومانى . غير أن الكنيسة الكاثوليكية ما لبثت أن أشاحت بوجهها عنه عندما نشر أحد علماء فلورنسا كتاباً يتهم فيه جاليليو (الذى جاهر بإيمانه بآراء كوبرنيكوس) بالمروق على الدين . فقام جاليليو بالرد عليه فى ٢١ ديسمبر ١٦١٢ برسالة وجهها إلى راهب وعالم فلك بندكتى اسمه كاستيل كان يدرس الرياضيات بجامعة بيزا ويؤمن بدوران الأرض . وسعى جاليليو فى رسالته إلى التدليل على عدم وجود أى تعارض بين نظرياته وبين النصوص الدينية مستشهداً فى ذلك بآيات من الكتاب المقدس . وعبثاً نصحه أصدقاؤه من رجال الدين أن يمتنع عن الزج بنفسه فى أمور اللاهوت والتفسير وأن يقتصر على التدليل على صحة نظرياته الفلكية . ولكنه لم يكترث بهذه النصيحة ونشر تفسيراً جديداً لبعض آيات الكتاب المقدس . فأصدر إليه ديوان التفتيش فى ٢٥ فبراير ١٦١٦ أمراً بالكف عن الجهر برأيه . ووعد جاليليو بالامتثال لهذا الأمر . ويبدو أن خوفه من تنكيل محاكم التفتيش به جعله يقطع على نفسه العهود بامتناعه عن الجهر بآرائه ولكن حبه للحقيقة كان يغلبه ويدفعه إلى الحنث بوعده .

وفى عام ١٦٣٢ نشر جاليليو كتابه المشهور «حوار» ناقش فيه خلال أربعة أيام متتالية أهم نظريتين فى العالم .» فكلف البابا لجنة تتولى فحص هذا الكتاب ، واستدعاه ديوان التفتيش للمثول أمامه فاعتذر باعتلال صحته . وعندما مثل جاليليو أمام المحققين فى روما بعد انقضاء بضعة أشهر - سأله هؤلاء المحققون إذا كان يؤمن بالفلك البطليموسى الذى تتبعه الكنيسة الكاثوليكية قرر كذباً أنه يؤمن به . ويبدو أن المحققين استشعروا كذبه فطلبوا إليه أن يوقع على وثيقة ينكر فيها قوله بدوران الأرض . ولم يتردد جاليليو فى الإنكار ووقع على صيغتها وهو جاث على ركبتيه . ويقال وهو ليس بالأمر المؤكد أنه بعد اضطراره إلى الإنكار خرج من محكمة التفتيش وهو يتمتم قائلاً : «ولكنها تدور» ، هاجم جاليليو أهمية العلوم التجريبية ، وعندما رأت محكمة التفتيش أنه لا يكف عن الترويج لآراء كوبرنيكوس الفلكية رغم أنها فرضت الحظر عليها زجت به فى السجن لمدة بضعة أشهر ، ولكنها ما لبثت أن أفرجت عنه ، وسمحت له بالسفر إلى فلورنسا . وعند وفاته دفن فى كنيسة سانتا كروتشى .

٤ - چيوردانو برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠) :

ولد چيوردانو برونو فى بلدة نولا بالقرب من نابولى فى جنوب إيطاليا وفى الخامسة عشرة التحق بأحد الأديرة حيث توفر على دراسة الفلسفة ونظرية كوبرنيكوس الفلكية التى آمن بجانب

منها واعترض على جانبها الآخر . ولم تمض بضع سنوات على دخوله الدير حتى ظهرت عليه بوادر الشك فى صحة الدين وهو فى نحو الثامنة عشرة من عمره . ولما ارتابت الكنيسة فى أمره اضطر إلى الفرار من الدير والانتقال بين المدن الإيطالية ليكسب قوته من التدريس . ثم سافر إلى فرنسا حيث ضاق ذرعاً بالتعصب الدينى فيها . فشد رحاله إلى جنيف بسويسرا ثم إنجلترا وألمانيا حيث كان يطمح إلى التدريس بإحدى الجامعات الألمانية ، وكان إيمان برونو بآراء كوبرنيكوس الفلكية واحداً من أهم أسباب نفور الناس منه . وشاء حظ برونو العاثر أن يتلقى دعوة من شاب أرستقراطى إيطالى اسمه مورسينيجو ليتولى تدريسه ويقيم معه فى قصره بالبندقية . ولكن هذا الشاب الغادر وشى به إلى محاكم التفتيش متهماً إياه بالكفر والزندقة . ويمكننا أن نتبين طبيعة هذه الاتهامات فى خطاب الوشاية الذى أرسله مورسينيجو بتاريخ ٢٣ مايو ١٥٩٢ إلى الكاهن المسئول عن محكمة التفتيش فى البندقية وفيما يلى نص هذا الخطاب :

الأب الجليل والسيد المبجل :

فإنى جيوانى مورسينيجو ابن كلاريسيمو أجد نفسى مضطراً بوازع من ضميرى وإيعاز من أب اعترافى إلى تبليغ أبوتكم الجليلة عن چيور دانو برونو من بلدة نولا الذى سمعته يقول فى عدة مناسبات أثناء أحاديثه معى فى بيتى أن الكاثوليك يجدفون عندما يقولون بتحويل الخبز فى المناولة إلى جسد المسيح ، وأنه يعترض على القداس ويرى أن جميع الأديان عاجزة عن إقناعه وأن يسوع المسيح دجال لجأ إلى الحيل لخداع الناس وأغلب الظن أنه توقع لنفسه ميتة تشبه ميتة المجرمين فضلاً عن أنه ينكر وجود الأقانيم الثلاثة فى الذات الإلهية . . ويذهب إلى أن العالم أبدى وأن هناك عدداً لا نهائياً من العوالم . وأن الله لا يكف عن خلق أعداد لا نهائية من هذه العوالم لأنه يريد المزيد منها . وأن المسيح أتى بمعجزات تبدو فى مظهرها طيبة وأنه ساحر «مثل بقية الرسل» .

وأيضاً ذهب برونو إلى أن العالم أبدى وأن الروح تنتقل من جسد إلى جسد وأن السحر شىء جيد ولا غبار عليه ، وأن الروح القدس هى روح العالم ، وأن هذا ما قصد إليه موسى عندما قال : إن روح الله تحركت فوق وجه الماء . ورغم اقتناع برونو بنظرية كوبرنيكوس الفلكية فإنه أدخل عليها تغييرات جوهرية مفادها أن أرسطو وكوبرنيكوس يخطئان عندما يظنان أن الكون محدود . واستطاع برونو بخياله المتأجج الوقاد أن يصل إلى حقيقة مذهلة رغم بساطتها تتلخص فى أن عدداً لا يحصى ولا يعد من الأجرام يتحرك فى الكون وأن عدداً لا يحصى ولا يعد من الكواكب يدور حول عدد لا نهائى من الشموس كما أن الكواكب تتكون من المادة نفسها التى تتكون منها الأرض . ومن ثم نحن نخطىء إذا تصورنا أننا الوحيدون الذين نسكن هذا الكون . والإنسان فى نظر برونو لا يعدو أن يكون نملة أو ذرة رمل فى هذا الكون اللا نهائى . وهو يرى أن هناك كائنات حية تسكن الكواكب الأخرى . هذه الكائنات قد تكون أفضل منا وقد تكون أسوأ منا . وكذلك ذهب برونو إلى أن الكون وحدة واحدة وكل لا يتجزأ لا فرق فيه بين الخالق والمخلوق وبين الله والموجودات . فالله هو مجموع ما فى الكون وهو حال بانسجام واتساق فى كل أجزائه . والكون يتسم بالكمال لأنه حياة الله . ويعرف هذا المذهب بـ Pantheism ومن ثم فغاية الفلسفة الكشف عما فى الكون من

انسجام وأفضل طريق لعبادة الله هو إمعان النظر فى الطبيعة والكون . وهذه نظرة تصوفية واضحة .

نعود إلى حكاية وشاية مورسينيجو ببرونو فنقول إن مورسينيجو قام بحبس أستاذه فى إحدى غرف القصر كى يمنعه من الهرب حتى يتصرف رجال الكنيسة فى البندقية على النحو الذى يريدون . وألقت السلطات الكنسية فى البندقية القبض عليه عام ١٥٩٢ للتحقيق معه فلم يجد برونو غضاضة فى التراجع وإنكار تهمة الهرطقة الموجهة ضده . وفى إنكاره جثا على ركبتيه مخاطباً المحققين معه : «إننى بكل اتضاع أطلب من الله ومن قداساتكم مغفرة الأخطاء التى ارتكبتها والتى أقف بسببها أمامكم للتكفير عنها حسبما تحكمون به وترونه نافعاً لى من الناحية الروحية . بل إننى أتوسل إليكم أن توقعوا أقصى عقوبة على حتى لا أدنس رداء الكهنوت المقدس الذى أرتديه . وإذا شاء الله وشاءت قداساتكم إظهار الرحمة نحوى والسماح لى بأن أعيش فإنى أقطع على نفسى عهداً بإصلاح حياتى إصلاحاً كبيراً أكفر به بالمزيد من التألم عن الفضيحة التى تسببت فيها» .

غير أن هذا الندم تبدد بعد مرور ثمانية أعوام عندما استدعته محكمة التفتيش فى روما للمثول أمامها . ورغم أن فطاحل رجال الدين فى روما حكموا بإدانته فقد أعطوه مهلة ثمانين يوماً لعله يتوب ويرعوى . ولكنه ضيع هذه الفرصة وهو يتلاعب بهم وبرئيسهم فهو تارة يعد بالرجوع إلى حظيرة العقيدة الكاثوليكية وتارة أخرى يحنث بوعده . وبدا من الواضح أنه يهزأ بهم . وضاق الكرادلة المحققون به ذرعاً فاجتمعوا مع المسئولين المدنيين فى روما وأرغموه على الركوع ليستمع إلى الحكم الصادر ضده . ونزعوا عنه رداء الكهنوت وطردوه بحرمانه من الانتماء إلى الكنيسة وسلموه إلى السلطة المدنية لتتولى إنزال العقاب به على أن تراعى الرحمة وتتجنب سفك الدماء . وكان هذا قراراً بإعدامه حرقاً . ورغم انقضاء المهلة المقررة فقد شاءت محكمة التفتيش أن تعطيه فرصة أخرى كى ينجو بجلده فمنحته أسبوعين للتراجع والإنكار . غير أنه تشبث فى عناد بآرائه فصدر أمر باقتياده إلى المحرقة . وعندما قدموا إليه قبيل حرقه مباشرة صورة المسيح على الصليب رفضها فى وجوم وأشاح بوجهه عنها .

٥ - ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) :

من النادر أن نجد رجلاً متعدد المواهب مثل ليوناردو دافنشى الذى يعتبر علماً من أعلام عصر النهضة الإيطالية فهو رسام يشار إليه بالبنان وصاحب صورة الموناليزا الشهيرة إلى جانب إتقانه للنحت والموسيقى . وقد طغت شهرته كفنان على شهرته كعالم ، فنسى العامة تبحره فى علوم التشريح والمعمار والميكانيكا وأنه استحدث نظاماً جديداً للرى استخدم فى سهول لومباردى . وكان دافنشى الذى استخلص فى أبحاثه أصول المنهج العلمى مقتنعاً بأهمية العلم التجريبى ، وبأن النظريات التى لا تلقى تأييداً من التجربة نظريات باطلة . والتجربة فى نظره ليست مجرد إدراك حسى ، بل هى البحث عن العلاقات فى صيغ رياضية من شأنها أن تجعل نتائج التجربة يقينية ، وتسمح باستنتاج الظواهر المستقبلة من الظواهر الراهنة . وليوناردو دافنشى ابن زنا كان

والده محامياً . ورغم إيمانه بالدين فإن إصراره على العلم التجريبى فتح الباب أمام تسلل الأفكار المتحررة .

٦ - نيقولا ماكيافيلى (١٤٦٩ - ١٥٢٧) :

هو واحد من أبرز رجال الدولة فى إيطاليا فى الفترة من ١٤٩٨ حتى ١٥١٢ . ألقى القبض عليه بتهمة التآمر على عائلة المدسيس وزج به فى السجن عندما استولت هذه العائلة على الحكم عام ١٥١٢ . ولكن ما لبث أن أفرج عنه عام ١٥١٣ ليعيش فى المنفى . وفى هذا العام نفسه انتهى من تأليف كتابه المشهور «الأمير» الذى ذهب فيه إلى أن السياسة لا تعرف مبادىء الأخلاق وأن الغاية تبرر الوسيلة ، واستشاط الناس غضباً من صراحته وهاجوا وماجوا ضده رغم أنه لم يصف غير الواقع . وفى كتابه دعا ماكيافيلى إلى توحيد إيطاليا التى كانت آنذاك مقسمة إلى دوقيات ومقاطعات تحت حاكم أو أمير قوى يتجاهل فى سبيل تحقيق غايته السامية قواعد السلوك ومبادىء الأخلاق . وقد ألف ماكيافيلى عدداً من الكتب الأخرى منها «فن الحرب» (١٥٢٠) و«تاريخ فلورنسا» (١٤٩٢) فضلاً عن مسرحيتين كوميديتين . كان ماكيافيلى يفضل الوثنية على الدين المسيحى . والرأى عنده أن الأديان الوثنية القديمة كانت تحبذ الجاه والصحة والقوة البدنية ، وتضفى هيبة إلهية على القادة والأبطال والمشرعين فى حين أن المسيحية تحض على الضعف والإعراض عن الجاه وتمجد التواضع . وينتقد ماكيافيلى الكنيسة فى زمانه لسببين أولهما أن الشر الذى يمارسه رجال الكنيسة يدمر إيمان الناس بالدين . وثانيهما أن السلطة الزمنية التى يحظى بها البابوات تحول دون توحيد إيطاليا . يقول ماكيافيلى فى هذا الشأن : «كلما اقترب الناس من كنيسة روما التى تمثل قمة الدين عندنا قل تدينهم . إن التدمير الذى سوف يلحق بالكنيسة والثأر منها وشيك الحدوث . ويَرْجع السبب فى تدهور الإيطاليين الدينى والأخلاقى إلى سوء ممارسات كنيسة روما وقساوستها والأسوأ من هذا كله أن السياسة التى تتبعها الكنيسة الرومانية والمتمثلة فى تقسيم البلاد سوف تكون وبالا علينا وسبباً فى خرابنا» .

قد يظن المرء أن ماكيافيلى سعى بآرائه هذه إلى القضاء على الدين . ولكن العكس هو الصحيح . فقد أكد على ضرورة احتفاظ الدولة بالدين وبأهمية الدور الذى يلعبه فيها حتى إذا كان هذا الدين باطلاً . فالدين - بغض النظر عن سلامته أو إيمان رجال الدولة به - هو الوسيلة البراجماتية والعملية لإقامة نظام اجتماعى متماسك ومحكم البناء .

٧ - إيرازموس (١٤٦٦ - ١٥٣٦) :

لم يكن فيلسوفاً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ولكنه ترك أعمق الأثر فى الفكر الأوروبى فى زمانه . ورغم إيمانه بالدين بدا كما لو كان كافراً بسبب فرط ضراوة هجومه على الكنيسة الكاثوليكية . ولد إيرازموس فى مدينة روتردام بهولندا ، وهو ابن غير شرعى أنجبه قسيس على قدر من العلم ويعرف اللغة اليونانية القديمة التى توفر إيرازموس نفسه على تعلمها فى قابل أيامه . وعندما توفى والده تولى مدرس وآخرون الوصاية على الصبى . ولكنهم لم يكونوا أمناء على الأموال التى

تركها له والده . ورغبة منهم فى التخلص من الصبى زينوا له الالتحاق كراهب بدير فى بلدة ستير الهولندية . ولكن إيرازموس فيما بعد لم يندم قط على شىء فى حياته قدر ندمه على دخول الدير . ارتبط إيرازموس بصداقة حميمة مع السير توماس مور واجتهدا معاً ما وسعهما الجهد فى ترسيخ المذهب الإنسانى الذى يدعو إلى عدم اكتفاء الإنسان بالحياة الأخرى وضرورة الارتقاء بنفسه وأحواله فى أمور الدنيا . أتقن إيرازموس اللغة اللاتينية إتقاناً قل أن نجد له نظيراً بين جميع دارسى الكلاسيكيات ، ترك إيرازموس بصماته الواضحة على عصر النهضة وامتد به العمر ليشهد عصر الإصلاح الدينى ودعوة مارتن لوثر إلى هذا الإصلاح وكان أمله لا أن يحطم الكنيسة الكاثوليكية بل إن ينقيها من الشوائب العالقة بها والتى تشوه صورتها . ومن الناحية العلمية ساءه الجهل السائد بالكلاسيكيات فتوفر على تحقيق كتابات القديس جيرونى كما أنه أصدر عام ١٤٥٦ ترجمة لاتينية جديدة للعهد القديم قام فيها بتصحيح كثير من الأخطاء الواردة فى النسخة الشعبية السائدة . ورغم خلاف إيرازموس مع البروتستانت فقد رحبوا بهذه التصويبات ورأوا فيها فرصتهم السانحة للانقضاض على الترجمات اللاتينية السابقة التى تداولتها الكنيسة الكاثوليكية واعتبروا أخطاء هذه الترجمات سبباً فى شيوع كثير من المفاهيم الدينية الخاطئة بين الكاثوليك .

اشتهر إيرازموس بتأليف كتاب بعنوان «فى مدح الحماقة» بدأ فى كتابته عام ١٥٠٩ واستخدم فيه أسلوب الفكاهة والسخرية للزراية بحماقات البشر مثل الاستعلاء القومى وزهو الإنسان بمهنته . ولكن سخريته ما لبثت أن تحولت إلى هجوم لاذع على مباذل الكنيسة الكاثوليكية بهدف إصلاحها من الداخل . هاجم إيرازموس بشدة صكوك الغفران وتضييع اللاهوتيين وقتهم فى حساب الوقت التى تقضيه كل روح فى المطهر ، كما هاجم عبادة القديسين وعبادة العذراء مريم التى رفعها المتحمسون إلى مكانة أعلى من مكانة ابنها يسوع المسيح . فضلاً عن أنه انتقد المناقشات اللاهوتية العقيمة حول الثالوث والتجسيد وتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . وأيضاً هاجم مباذل البابوات والكرادلة والأساقفة ونظام الرهبنة الذى يظهر اهتماماً مبالغاً فيه بالمظهريات التافهة مثل عدد العقد الواجب عملها فى الصندل الذى يلبسه الراهب ولون ردائه ونوع القماش الذى يصنع منه هذا الرداء . وسخر إيرازموس سخرية لاذعة من أحاديث الرهبان التافهة مثل زهو أحد الرهبان بأنه تمكن من القضاء المبرم على رغباته الجسدية عن طريق أكل الأسماك فقط وباستمرار . وزهو راهب آخر بأن يده لم تلمس قطعة نقود طوال ستين عاماً وأنه لبس قفازاً سميكاً فى المرات القليلة التى اضطر فيها إلى لمسها . ناهيك بسخريته من الرهبان الذين يعترف لهم الناس بأدق الأسرار فإذ بهم يفشونها عندما يسكرون وتلعب الخمر برؤوسهم . وحظى البابوات بنصيب وافر من سخريته بسبب إصدارهم قرارات بالحرمان الكنسى وبيع صكوك الغفران . وقد يتبادر إلى الأذهان أن إيرازموس بهجومه القاسى على الفكر الكنسى المدرسى ومباذل الكنيسة الكاثوليكية يرحب بمقدم حركة الإصلاح الدينى التى اضطلع بها مارتن لوثر وأتباعه من البروتستانت . ولكن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة . فقد تنافس كل من البروتستانت والكاثوليك إلى ضمه إلى صفوفهم . ولكن طبيعة إيرازموس الوجلة والمعتدلة استبشعت العنف الذى صاحب الدعوة اللوثرية إلى البروتستانتية رغم وجود بعض نقاط الالتقاء بينه وبين أتباع هذه الملة مثل الاستمساك ببساطة

الإيمان بعيداً عن أية تعقيدات فكرية ولاهوتية ومثل ضرورة إقامة الإيمان على أساس من العاطفة وليس على أساس من العقل . وفى نهاية الأمر قرر إيرازموس الانضمام إلى صفوف الكاثوليك بالرغم من أن البروتستانت رأوا فى هجومه على الكنيسة الكاثوليكية دعماً وتأييداً لهم . وفى عام ١٥٢٤ قرب نهاية حياته ألف إيرازموس كتاباً دافع فيه عن حرية الإرادة التى كان مارتن لوثر رافضاً لها .

وانبرى مارتن لوثر للهجوم الضارى عليه . واستشعر إيرازموس أن حرباً دينية ضروساً وشيكة الحدوث بين البروتستانت والكاثوليك فدفعته طبيعته المعتدلة الوجلة إلى أن ينأى بنفسه عنها . فانحسر دوره أمام الزحف البروتستانتى الكاسح .

٨ - توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) :

بالرغم من أن السير توماس مور ترك أثراً يقل كثيراً عن الأثر الذى تركه صديقه إيرازموس فإن اسمه باق على مر الزمن بسبب الشهرة التى حظيت بها مدينته الفاضلة أو اليوتوبيا التى سطرها عام ١٥١٦ . وسطر مؤلفات أخرى غير مشهورة هى «حوار» (١٥٢٨) «تاريخ ريتشارد الثالث» . ولد مور فى لندن وتلقى العلم بجامعة أكسفورد حيث تعلم اللغة اليونانية القديمة التى لم تكن شائعة هناك . ولاحظت الجامعة أن الطالب توماس مور يتعاطف مع الكفرة وأتباع الوثنية من الإيطاليين ، الأمر الذى أثار سخطها وسخط والده عليه ، فتم استبعاده من الجامعة . وبعد ذلك فكر مور فى الالتحاق بنظام رهبنة يعرف بالرهبنة الكارثوسية . ولكن صديقه إيرازموس اعترض وحال بينه وبين ذلك . فاضطر مور إلى أن يحذو حذو والده ، وامتهن المحاماة . والمدهش أن مور الذى بدأ حياته ميالاً إلى الكفر حظى بتقديس الكنيسة الكاثوليكية له فى القرن العشرين . ففى عام ١٩٣٥ نصبته هذه الكنيسة واحداً من قديسيها . وعلى أية حال اشتهر مور منذ مطلع حياته بالتقوى والورع والنزاهة . وفى عام ١٥٢٣ انخرط فى الحياة السياسية الإنجليزية وأصبح عضواً فى مجلس العموم البريطانى . ورغم أنه كان ربيب الملك هنرى الثامن ، وأن هذا الملك قلده أرفع مناصب الدولة ، فإنه مات دون أن يخلف وراءه أية ثروة بسبب شدة أمانته وكبريائه وتعففه . بل إن أمانته كانت سبباً فى تنكيل الملك هنرى الثامن به . ورغم أن هذا الملك ما انفك يسعى إلى التقرب إليه والعمل على إرضائه ، فإن مور لم يكن يطمئن إليه ، ويتعمد الابتعاد عنه : فكثيراً ما كان يأبى الاستجابة لدعوة الملك له لحضور بعض الاحتفالات والمناسبات الملكية . كان مور يتوجس من الملك شراً . وصدق سوء ظنه به فعندما حمل الملك هنرى الثامن البرلمان البريطانى على تعيينه رئيساً لكنيسة إنجلترا كتكريس لانفصال بلاده التام عن بابا روما بسبب رغبته فى تطليق كاثرين أرجوان من أجل الزواج من آن بولين اعترض مور على هذا الطلاق لأنه يتنافى مع مبادىء الكنيسة الكاثوليكية الأساسية . وتعبيراً عن احتجاجه على انتهاك الملك لهذه المبادىء استقال مور من عضوية مجلس العموم عام ١٥٣٢ الأمر الذى أوغر صدر الملك ضده فادعى عليه قوله إنه ليس من سلطة البرلمان الإنجليزى تعيين الملك رئيساً لكنيسة إنجلترا . وقدمه إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى وقطع رأسه .

يتخيل توماس مور فى اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة الحياة فى جزيرة نائية فى نصف الكرة الجنوبى فيقول : «إن سكانها القلائل يعيشون عيشة هانئة ويستمتعون بأطايب الحياة ويعزفون عن الزهد والتقشف و يسمح نظام الحكم فى الجزيرة بتعدد الأديان . ويكاد كل سكان اليوتوبيا أن يؤمنوا بالله والآخرة . أما القلة الضئيلة التى لاتؤمن به فتحرم من المواطنة وحق الاشتراك فى الحياة السياسية . ولكن لاأحد يتعرّض لهم بالأذى . ورغم أن معظم السكان يرفضون حياة الزهد فإن عدداً قليلاً منهم يؤثرون حياة الطهر والقداسة فيمتنعون عن أكل اللحوم والزواج ، ويمكن لنساء الجزيرة أن يصبحن قسيسات إذا كن أرامل عجائز ، ورجال الكهنوت فى الجزيرة ينعمون باحترام الناس دون أن يتمتعوا بأى سلطان ، ويسود الجزيرة مناخ ليبرالى واضح . فضلاً عن أن الحياة فيها جماعية ولا تعرف الملكية الفردية . كما أن نظام حكمها يقوم على التسامح الدينى وتعدد العقائد الدينية . أضف إلى ذلك أن نظام الجزيرة يحرم صيد الحيوانات بسبب الوحشية التى ينطوى عليها هذا الصيد وأنها تطبق قانون عقوبات يتسم بالاعتدال والرحمة .

٩ - بيير شارون (١٥٤١ - ١٦٠٣) :

ولد الفيلسوف الفرنسى بيير شارون فى باريس وكان أبوه بائع كتب أنجب خمسة وعشرين طفلاً . انخرط شارون فى سلك المحاماة غير أنه لم يصادف نجاحاً فيه فاتجه إلى الكنيسة وأصبح واعظاً ورجل دين يشار إليه بالبنان . ذهب شارون إلى مقاطعة بوردو فرنسا حيث توثقت عرى الصداقة بينه وبين الفيلسوف المتشكك المعروف مونتانى .

نشر شارون عام ١٥٩٤ كتاباً بعنوان «الحقائق الثلاث» كان السبب فى رضاء رجال الدين المسيحى عنه لأنه دافع فيه عن وجود الله والكنيسة الكاثوليكية . ومما زاد من حفاوة رجال الدين به أنه نشر كتاباً آخر عام ١٦٠٠ يدافع فيه عن المسيحية بعنوان «الخطاب المسيحى» ثم نشر عام ١٦٠١ فى بوردو كتابه الفاضح المشهور «عن الحكمة» دعا فيه إلى إقامة نظام فلسفى أخلاقى وفيه فاجأ المجتمع الفرنسى باتباع موقف متشكك فى الدين على عكس ما سبق أن ذهب إليه . واستقبل المتدينون هذا الكتاب بالهجوم . وكان على رأس من هاجموه قسيس جيزويتى اسمه فرانسوا جاراس (١٥٨٥ - ١٦٣١) الذى اتهم المؤلف بما أسماه الإلحاد الوحشى . غير أن ملك فرنسا هنرى الرابع لم يخف تحمسه للكتاب وتأييده له . وقد مات شارون بالسكتة وهو يسير فى الشارع فاعتبر شانئوه أن هذه الميتة خير عقاب له على فجور آرائه .

ذهب شارون إلى أن النفس البشرية تستقى كل معارفها من المدركات الحسية وهى نظرية أثرت فى الفيلسوف الإنجليزى التجريبى المعروف فرانسيس بيكون . تشكك شارون فى خلود الروح ودعا إلى اعتناق فلسفة الشك فى الدين والأخلاق وفى كل شىء فأثبت بذلك شدة تأثره بفلسفة صديقه مونتانى . ووصف البعض هذا الكتاب بأنه خطير وفاضح مفعم بالسم الزعاف الذى يتخفى تحت معسول الكلمات ، كما أن مير سين قال عنه «لاأحد يستطيع أن يقرأ كتاب بيير شارون (عن الحكمة) دون أن تتعرض عقيدته الكاثوليكية للاهتزاز . إن البعض يرون أنهم لم يقرأوا فى حياتهم كتاباً أفضل

ويعبرون عن إعجابهم بأسلوبه الجاف المشدود وحكمه الكثيرة الناقدة ، ولكن معظم هؤلاء المعجبين من الفاسقين الذين يستهزئون بشعائر الكنيسة .» ووصف بافالو مندوب البابا فى فرنسا الكتاب بأنه فاضح ويتبنى أفكار ميكيافيلى ويمثل خطراً شديداً على الدين . وقد جاء هذا الوصف على لسان بافالو أثناء سعيه إلى اقناع السلطات بضرورة سحبه من المكتبات .

قلنا إن كتاب شارون الفاضح ظهر لأول مرة عام ١٦٠١ ثم ظهرت طبعة منقحة منه عام ١٦٠٤ اعترضت عليها جامعة السوربون وفى عام ١٦٠٥ قام البابا بتحريم هذا الكتاب ولكن هذا الإجراء لم يقلل من انتشار الكتاب بل زاد من توزيعه . ففى الفترة من ١٦٠١ حتى ١٦٧٢ ظهر الكتاب فى إثنتي عشرة طبعة . ثم شاع موجز أو مختصر لهذا الكتاب تكرر طبعه إثنتي عشرة مرة فى الفترة من ١٦٠٦ و١٦٤٥ ورغم أن جاراس اعتبره كتاباً فاسقاً وفاضحاً فإن المفكر نوديه رفعه إلى مرتبة تقرب من مرتبة الكتاب المقدس . وينم كتاب «عن الحكمة» عن الأثر البالغ الذى تركه الفيلسوف الشكاك مونتانى فيه . فهو يحتوى على تلخيص لآراء مونتانى المتشككة وإعادة صياغتها بهدف تأكيدها وتوضيحها . ولم يتأثر شارون بمونتانى وميكيافيلى فحسب بل بكلاسيكيات الأقدمين التى تتناول الأخلاق وتقاليد المذهب الإنسانى . وكتاب «عن الحكمة «بكل بساطة عبارة عن تأكيد للشك والقول إن انتفاء اليقين هو الشيء الوحيد اليقينى فى العالم .

ويرد شارون فى موجزه «عن الحكمة» على المعترضين على دفاعه عن الشك بأننا نخطىء عندما نظن أن الشك يسبب تعاسة الإنسان وشقاءه . هذا فى رأيه مفهوم الحمقى والمغفلين . أما الحكماء فيسعدون بالشك ويجدون فيه درجات من الراحة والطمأنينة النفسية والأمان الروحى . ويذهب شارون إلى أن الشك هو استجابة الإنسان الواعى عندما يكتشف تعدد العوالم الفكرية والأخلاقية التى يعيش فيها . فقد أدت الأسفار فى عصر النهضة إلى اكتشاف حضارات وأديان فى الشرق الأوسط والعالم الجديد مغايرة تماماً لحضارة الرجل الغربى ومعتقداته الدينية . وعند الاصطدام بالأديان والأخلاق المختلفة عن المألوف يخلص الإنسان العاقل والحكيم إلى نسبية الأحكام الأخلاقية والدينية والاجتماعية . والإنسان العاقل لايفزع من إدراكه لهذه النسبية ولكنه يتعلم منها التنوع الفكرى والحضارى . وهى أفكار تعكس مدى تأثر شارون بصديقه مونتانى . والحكيم هو من يدرك خطأه إذا عَنَّ له أن يصم بعض المجتمعات البدائية بالتوحش والهمجية بسبب انتهاجها مسلكاً مغايراً للمسلك الذى اعتاده . والذى لا شك فيه أن هذه الخلفية الفكرية المتحررة التى جاءت نتيجة كثرة الرحلات والأسفار مسؤولة عن خلق تيار من الفكر المتحرر من القيود كالعادات والدين المستمد من التقاليد . يقول شارون عن منشأ العادات والتقاليد إنها بدأت بداية صغيرة ومتواضعة ثم ترسخت فى المجتمعات البشرية بمرور الوقت . وساعد على تأصلها أن عدد الحمقى من البشر يفوق بكثير عدد العقلاء والحكماء فيهم . وينفى شارون وجود أخلاق طبيعية أو لاهوت طبيعى أو قانون طبيعى كما آمن كثيرون من التأليهيين فى القرن االثامن عشر وأواخر القرن السابع عشر . فالأخلاق تختلف من مجتمع إلى مجتمع وكذلك اللاهوت والقانون . ويبين شارون أن انتشار العادات وتأصلها يجيئان نتيجة عدوى التقليد فيكفى لإنسان واحد يتصف بالزعامة أن يبدأ تقليداً حتى يتبعه

عدد كبير من الناس كقطعان الماشية . ودحض شارون فكرة إجماع كل البشر على معتقدات واحدة . فلا يوجد رأى أو عقيدة أو تقليد أو عادة تحظى بإجماع العالم عليها . فالمجتمعات البشرية تختلف اختلافاً جذرياً فى كل شىء لا يستثنى من ذلك فكرة وجود الله . والجدير بالذكر أن الرأى الذى انتهى إليه شارون بشأن نسبية أفكار البشر يتعارض تماماً مع سعيه إلى الاعتذار عن الدين أو تبريره بأنه نابع من الإيمان والعاطفة اللذين يتنافيان مع العقل . فنحن لا نجد بين أقرانه ومعاصريه من المعتذرين عن الدين من يشكك فيه بمثل هذه الضراوة . فهو يقول بتعارض الإيمان مع العقل وينكر وجود أية قيم عامة تسود جميع البشر . كما أنه يعلى من شأن الحيوان على الإنسان ويصف الدين بأنه مجرد خزعبلات وينبذ الوعظ والتبشير ومحاولة انقاذ الخطاة من الهلاك .

غير أنه من الخطأ أن نظن أن شارون أراد إبادة الدين أو اندثاره من المجتمع . ولن نجد بين المفكرين من يفوقه فى تحبيذه للتقية . ورغم اعترافه بزيف الدين فإنه طالب الحاكم باحترامه وعدم محاولة تغييره بالقوة . لأن هذا معناه ممارسة الحاكم للبطش والاستبداد . وطالب شارون بالاحتفاظ بالدين باعتباره أساساً للتماسك الاجتماعى فبدونه ينفرط عقد المجتمع . ولم يكن شارون رغم تحرره العقائدى متحمساً لعصر الإصلاح الدينى أو مقتنعاً بالقائمين به . فالمصلحون فى عهد الإصلاح الدينى لا يقلون فى سوءهم عن المستبدين والطغاة . فالمصلح الدينى فى رأيه يتبنى وجهة نظر عقائدية معينة يدعو بنى جلدته إلى اعتناقها بالطرق كافة ويسخر كل ملكاته العقلية لإقناعهم بسلامتها . فإذا فشل فى ذلك لا يتورع عن الالتجاء إلى العنف لفرض وجهة نظره على الآخرين . ومعنى ذلك أن زعماء عصر الإصطلاح الدينى لا يقلون فى بطشهم عن الحكام المستبدين . ماذا يفعل الإنسان العاقل فى مثل هذه الظروف؟ هل ينبذ تقاليد مجتمعه فيتعرض للأذى أم يقبلها ظاهرياً فيتوفر له الأمن ؟ هنا ينصح شارون العقلاء بعدم الإصطدام بتقاليد المجتمعات التى ينتمون إليها ، أى أن يظهروا غير ما يبطنون ويحتفظون لأنفسهم بآرائهم الخاصة القائمة على العقل .

٢

أبرز الفلاسفة المتحررين في القرن السابع عشر

١ - فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) :

ولد فرانسيس بيكون فى عائلة أرستقراطية كريمة النسب فى عصر شهدت فيه أوروبا اكتشاف القارة الأمريكية . وقد أدى هذا الاكتشاف إلى انتقال التجارة من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسى واستتبع هذا الاكتشاف انتقال النهضة من إيطاليا إلى مدريد ولندن وباريس وأمستردام . ألتحق فرانسيس بيكون وهو فى الثانية عشرة من عمره بجامعة كامبردج حيث أمضى ثلاثة أعوام ترك بعدها هذه الجامعة ساخطاً كل السخط للوقت الذى أضاعه فى تعلم اللغو الفارغ والمناهج التافهة . ومن ثم قرر منذ حداثته أن يخلص الفكر الأوروبى من اللغو الذى شابه والذى استفاضت فيه الفلسفة الكنسية المدرسية . وقد سيطرت هذه الفلسفة على العقل الأوروبى طوال فترة القرون الوسطى .

تقلد فرانسيس بيكون بفضل صلاته ونفوذه العائلى أرفع المناصب وكان ذلق اللسان ساحر البيان ينافس شكسبير بروعة مقالاته التى يدرسها طلاب الأدب الإنجليزى كنماذج فريدة للنثر الرائع . اشترك بيكون فى الحياة العامة وتم انتخابه فى مجلس العموم البريطانى عدة مرات كان أولها عام ١٥٨٣ كما أنه اشتغل بالقضاء . وأعجب به الإيرل إسكس ربيب الملكة إليزابيث فأقطعه ضيعة . ولكن الإيرل إسكس اختلف مع الملكة فدبر مؤامرة للإطاحة بها . ووثق إسكس بفرانسيس بيكون فاعترف له بسره الرهيب طالباً منه التأييد والمؤازرة ولكن بيكون غدر به وقلب له ظهر المجن واستغل خبرته كقاض فى إثبات تهمة الخيانة العظمى على صديقه الأمر الذى أدى إلى إعدامه . ولهذا اتهمه بعضهم بالنذّالة والخسة . وعلى أية حال لم يكن بيكون من الناحية الأخلاقية فوق مستوى الشبهات . فقد عرف عنه تقاضى الرشاوى من المتخاصمين دون أن يؤثر هذا فى نزاهة حكمه فى القضايا المعروضة أمامه . وعندما عرف الملك جيمس عنه ذلك غضب منه وأمر بحبسه فى سجن

برج لندن وإبعاده إبعاداً كاملاً عن البلاط الملكى ودفع غرامة مالية كبيرة . غير أنه لم يدفع هذه الغرامة ولم يمكث فى السجن أكثر من أربعة أيام . ولكنه اضطر بسبب هذه الفضيحة أن ينسحب من الحياة العامة وينصرف إلى الفلسفة وتأليف الكتب . فنشر كتاباً باللغة الإنجليزية عام ١٦٠٥ بعنوان «فى تقدم العلم» يعتبره براتراندرسل أهم أعماله . ثم نشر عام ١٦٢٠ كتاباً أسماه «الأورجانون الجديد أو العلامات الصادقة لتأويل الطبيعة» ثم وضع كتاباً طوبوياً فى السياسة بعنوان «أتلنتيس الجديدة» .

اشتهر فرانسيس بيكون كما سوف نرى بأنه مؤسس المذهب التجريبى فى الفلسفة الحديثة . ولعله من سخرية القدر أن نرى أن حرصه على التجريب كان السبب فى وفاته وهو فى الخامسة والستين من عمره . فأثناء مروره فى سفره على إحدى القرى ألحت عليه فكرة تتلخص فى حفظ اللحوم من العفن عن طريق تغطيتها بالثلج . فاشترى دجاجة وذبحها وحشاها بالثلج ليعرف الوقت الذى يمكن للثلج أن يحفظها من العفن ولكنه لسوء حظه أصابته هذه التجربة بنزلة برد حادة أدت إلى وفاته . وكانت آخر جملة سطرها قبل وفاته : «إننى أضع روحى بين يدى الله» . ورغم إيمان بيكون بالله وبالدين فقد كان أحد الأسباب القوية وراء نبذ الفكر الكنسى المسيحى السائد فى القرون الوسطى نبذاً لا رجعة فيه مستبدلاً إياه بالمنهج العلمى التجريبى ، وأنه بذلك فتح الطريق أمام الشك فى الدين . ويشك برتراند رسل أن بيكون تظاهر بالإيمان بالدين نظراً لاشتغاله بالسياسة وانخراطه فى الحياة العامة ، وعدم رغبته فى إثارة حنق الناس ضده . كان بيكون دائب الشك فى جدوى المعرفة النظرية التى لا طائل منها ، والتى لا تخضع للتطبيق العلمى . فهو الأب الحقيقى لمذهب البراجماتية الحديثة . وبيكون مسؤول أكثر من أى فيلسوف إنجليزى آخر عن إعلاء الفلاسفة الإنجليز من شأن الجانب العملى للمعارف العلمية بإصراره الذى لا يلين على سيطرة الإنسان على الطبيعة وتسخيرها لصالحه . ورغم أن بيكون لم يكن ملحداً فقد اتهمه معاصروه بالإلحاد بسبب قوله إن الدين لا يستند إلى العقل . ويقول براتراند رسل : «إنه أول من نادى بوجود حقيقتين : حقيقة علمية تنهض على إعمال العقل ، وحقيقة دينية تنهض على الوحى والإلهام» . وقد تصدى بيكون لدحض هذا الاتهام له بالكفر والإلحاد بقوله : «إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد . ولكن التعمق فيها ينتهى بالعقول إلى الإيمان» . ويضيف بيكون إلى ذلك قوله : إذا أمعن (العقل) النظر وشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها فإنه لا يجد بدأً من التسليم بالله» . ويميل بيكون فى مجال السياسة إلى المحافظة ونبذ الحرب والثورات عن طريق التوزيع العادل للثروة بين عامة الناس دون الإيمان بالمساواة بينهم . والجدير بالذكر أنه كان شديد الازدراء للدهماء .

يرتبط اسم فرانسيس بيكون بالعلم التجريبى واستخدام الاستقراء الذى يعتمد على استخلاص النتائج من دراسة الجزئيات وتمحيصها كما هو الحال فى دراسة البيولوجيا ، كما يرتبط بنبذ الاستنباط الذى يبدأ بالكليات وينتهى بتطبيق أحكامها على الجزئيات كما هو الحال فى الرياضيات ، فلا غرو إذا رأينا بيكون يقلل من شأن الرياضيات لأنها لا تخضع بشكل كاف للتجربة . ناصب بيكون العداء لأرسطو لأنه ازور عن التجربة ولكنه أعلى من شأن الفيلسوف المادى ديموقريطس صاحب النظرية

الذرية . ورغم تسليم بيكون بأن مسار الطبيعة ينم عن وجود غاية إلهية أصر على استبعاد أية تفسيرات لاهوتية أو غيبية عند دراسة الظواهر وتمحيصها ، ويشرح براتراند رسل عن طريق النكتة منهج بيكون فى البحث والاستقصاء ، فيقول : «هبْ أن موظفاً كلف بالذهاب إلى قرية كى يحصر سكانها الذكور . فسأل الأول والثانى والثالث والرابع والخامس إلخ عن أسمائهم فأجاب كل منهم بأن اسمه وليام وليامز . وأراد الموظف أن يريح نفسه وأن يأخذ إجازة فأغلق دفاتره بعد أن سجل فيها أن جميع سكان القرية اسمهم وليام وليامز . ولكن الموظف أخطأ عندما فعل هذا فقد كان هناك رجل فى القرية يحمل اسم جون جونز» . وهذا هو منهج فرانسيس بيكون فى الإحصاء والاستقصاء . ويعيب بيكون على الفلاسفة الذين سبقوه أنهم يتعجلون الوصول إلى النتائج الكلية من عدد ضئيل من الملاحظات الجزئية . إذ يجب على الباحث أن يتوخى الدقة والبطء والحذر الشديد كما أنه يجب أن يتحلى بالصبر حتى يتجمع لديه أكبر عدد من الملاحظات الجزئية قبل تصنيفها وتحليلها واستخلاص النتائج منها . وحتى يصل الباحث إلى أسلم النتائج فلابد فى رأى بيكون من تنقية فكره من أية تحيزات أو تعصب أو جمود قد يكون سبباً فى تضليله . فلا غرو إذا رأيناه يسعى ما وسعه السعى إلى تبديد الأوهام التى يرزح تحت وطأتها عقل الإنسان . ويقسم بيكون الأوهام البشرية إلى أربعة أقسام :

١ - أوهام القبيلة (أو الجنس) .

٢ - أوهام الكهف .

٣ - أوهام السوق .

٤ - أوهام المسرح .

وتتمثل أوهام الجنس فى استعداد الجنس البشرى بأسره للتركيز على الشواهد الدالة على صحة وجهة النظر التى يؤمن بها الإنسان واستبعاد الشواهد الدالة على خطئها أو التهوين منها والتقليل من شأنها على أى تقدير ، ولهذا يُزجى بيكون هذه النصيحة لباحث : «إن كل شىء يتمسك به العقل ويصر عليه ويطمئن إليه ينبغى وضعه موضع الشك . ولا يجوز أن نسمح للعقل أن يثب أو يطير من الحقائق الجزئية إلى القضايا العامة الشاملة . وأما أوهام الكهف فهى تلك الأوهام التى تختلف باختلاف مشارب الأفراد وظروفهم وبيئاتهم وتفاوت عقلياتهم» . ويعنى بيكون بأوهام السوق أن اللغة تكبل عقل الإنسان بقوالبها التى درج الناس على استخدامها ؛ وأخيراً يعنى بيكون بأوهام المسرح أن كل جيل لا ينبغى أن يكون أسيراً للمذهب الفكرى أو الفلسفى السائد فى الجيل السابق عليه .

٢ - رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) :

يعتبر الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت مؤسس الفلسفة الحديثة . تلقى تعليمه على أيدى الجيزويت فى الفترة من (١٦٠٤ - ١٦١٢) ونبغ فى دراسة الرياضيات وخاصة علم الهندسة . وتدل الشواهد أنه كان كاثوليكياً أصيلاً . ومن أهم أعماله «مبحث فى المنهج» (١٦٣٧) و«تأملات فى

الفلسفة» (١٦٤٢) ، آمن ديكارت بصحة آراء جاليليو الفلكية وألف كتاباً بعنوان «العالم» ضمنه آراء جاليليو الخاصة بدوران الأرض ولا نهائية الكون . ولكنه خشى على نفسه من اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا له فشد رحاله إلى هولندا التى كانت منار الحرية الفكرية فى كل أوروبا وتفوق إنجلترا فى ليبراليتها وسماحتها . عاب ديكارت على الكنيسة الكاثوليكية اضطهادها لجاليليو وحاول أن يقنعها أن مصلحتها تقتضى منها ألا تناصب العلم الحديث العداء .

لعبت هولندا دوراً بالغ الأهمية فى القرن السابع عشر فى توفير حرية البحث العلمى للفلاسفة والمفكرين . وقد عاش ديكارت فيها ما يقرب من عشرين عاماً متواصلة من ١٦٢٩ حتى ١٦٤٩ . وحتى نبين أهمية هولندا فى حماية الفكر الحر يكفى أن نقول إن الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز نشر مؤلفاته فيها ، وأن الفيلسوف الإنجليزى جون لوك هرب إليها ليعيش فيها عندما أحس بالخطر من اشتداد وطأة الرجعية فى بلاده . فضلاً عن أن الناقد الفيلسوف بايل احتمى بها . ولم يكن باستطاعة سبينوزا أن يؤلف أعماله الفلسفية إلا تحت مظلتها . ورغم هذه الصورة المشرقة والمطمئنة فى مجموعها فلا مناص من الاعتراف بوجود بعض الشوائب فيها . فقد تعرض ديكارت لبعض المضايقات من المتعصبين من البروتستانت فى هولندا بدعوى أن آراءه تؤدى إلى الإلحاد . وكاد يتعرض للمحاكمة ، لولا تدخل السفير الفرنسى فى هولندا ، وكذلك تدخل حاكم هولندا الأمير أورانج . غير أن هذه المكيدة البروتستانتية ضده باءت بالفشل . ولهذا بدأ المسؤولون فى جامعة ليدن الهولندية بعد بضع سنوات فى مضايقته بأسلوب غير مباشر عن طريق تجاهلهم التام له وعدم الإشارة إلى اسمه لا بالخير ولا بالشر . ومرة أخرى تدخل الأمير أورانج لدى السلطات الجامعية وطلب إليها أن تكف عن سخافاتها ، ولولا خضوع الكنيسة البروتستانتية فى هولندا لسلطان الدولة لما أمكن رد الأذى عنه .

كان ديكارت رقيق البنية لا يتحمل البرد القارص . وشاء حظه العاثر أن تعجب به كريستينا ملكة السويد التى أبلغت تشانوت السفير الفرنسى فى ستوكهولهم برغبتها فى رؤية هذا الفيلسوف . وفى سبتمبر عام ١٦٤٩ أرسلت إليه بارجة حربية أقلته من هولندا إلى السويد . وما إن وطأت قدماه الأراضى السويدية حتى اكتشف أن الملكة كرستينا تريد منه إعطاءها دروساً خاصة . وحيث إن وقتها كان مزدحماً ومشحوناً فإنها لم يكن لديها فسحة من الوقت لهذه الدروس إلا فى زمهرير الساعة الخامسة صباحاً . ولم يكن ديكارت معتاداً الاستيقاظ فى هذا الوقت الباكر كما أنه لم يتحمل الشتاء الإسكندنافى القارص ، الأمر الذى أضر بصحته ضرراً بالغاً أودى بحياته . ورغم أن ديكارت لم يتزوج فإنه أنجب ابنة غير شرعية ماتت فى الخامسة من عمرها فتحسر عليها طيلة حياته .

تدور فلسفة ديكارت حول الشك فى كل شىء على الأرض وفى السماء فشك هذا الفيلسوف فى معطيات الحواس ووجود العالم الخارجى وفى صحة الدين وفى وجود الله . باختصار شك ديكارت فى كل معطيات الحواس والعقل معاً ووصل إلى نتيجة مفادها أنه لا يوجد شىء لا يمكن الشك فيه ، سوى وجود الذات التى تشك . وبذلك أثبت وجود هذه الذات الشكاكة . ورأى ديكارت أنه من البديهى أنه موجود لأنه يشك . ومن ثم وضع ديكارت مقولته الشهيرة : «أنا أفكر

فأنا إذن موجود» ومن خلال وجوده نفسه أثبت وجود الله . ومن وجود الله أثبت وجود العالم الخارجى . ولكن هذا لم يمنع البعض من الشك فى صحة إيمانه بالدين والله وأنه فتح الطريق بفلسفته أمام الشك فيهما وأمام الأخذ بذاتية المعرفة ونسبيتها .

٣ - توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) :

يعتبر توماس هوبز من أوائل الماديين المحدثين ، آمن بالجبر ورفض حرية الاختيار . التحق هوبز بجامعة أكسفورد وهو فى الخامسة عشرة من عمره . وهناك درس المنطق المدرسى وفلسفة أرسطو اللذين ظل طوال حياته يحمل لهما الزراية والاحتقار . ثم سافر إلى باريس حيث درس الرياضيات والعلوم الطبيعية ، وراقت له الهندسة بوجه خاص لدرجة أنه ظن أنه يمكنه إعادة التنظيم الاجتماعى على أساس عقلانى يماثل علم الهندسة فى انتظامه . بل إنه أراد أن يطبق قوانين الميكانيكا والحركة والمادة على السلوك الإنسانى . فلا غرو إذا رأيناه من أشد الناس إعجاباً بأفكار كوبر نيكوس وكبلر وجاليليو الفلكية وبفلسفتهم الآلية أو الميكانيكية التى تذهب إلى أن الكون محكوم بمجموعة قوانين .

ومن مظاهر مادية هوبز أنه اعتبر الحواس وسيلة الإنسان فى اكتساب المعرفة . ومن ثم استبعد اللاهوت والروحانيات من أية دراسة فلسفية مكتفياً بدراسة الظواهر والأجسام المادية . والرأى عنده أن الدين لا يستند إلى العقل بل يستند إلى التنزيل أو الوحى . وقد أثرت هذه النظرية المادية فى نظرياته السياسية كما عبر عنها فى عدد من مؤلفاته وعلى رأسها «التنين» (١٦٥١) أى الدولة التى تبتلع فى جوفها كل شىء ويقصد بالتنين الحكم المطلق . وكذلك «مبادىء القانون الطبيعى والسياسى .» (١٦٤٠) فالدولة فى نظره - مثل الطبيعة - عبارة عن آلة تحكمها قوانين الحركة والمادة . كان هوبز مغالياً فى محافظته منذ بداياته : فقد نشر عام ١٦٢٨ ترجمة «ثيوسيليدس» كى يحذر بنى جلدته من مخاطر الديموقراطية . وقد دافع عن النظام الملكى المستبد ليس على أساس حق الملوك الإلهى (وهو الشىء المرفوض لديه) بل على أساس أن الإنسان أنانى بطبعه وعلى استعداد للفتك بأخيه الإنسان . ومن ثم فقد ذهب إلى ما ذهب إليه روسو وجون لوك فيما بعد - إلى أن الإنسان توصل إلى إبرام عقد اجتماعى يلزم كل أفراد المجتمع بالخضوع الكامل للحاكم حتى يتمكنوا من أن يحيوا حياة مستقرة . ولم يجد هوبز أدنى غضاضة فى طغيان الحاكم واستبداده بالمحكومين لأنه كان لا يخشى شيئاً قدر خشيته من الفوضى . وما من شك أن السبب فى هذا يرجع إلى ما رآه فى بلاده من تمزق نتيجة الحروب الأهلية بين الملك تشارلس الأول والبرلمان المتمرد عليه بزعامة كرومويل . وبلغ إيمانه بالطغيان مبلغاً جعله يرى أن من حق الدولة أن تمحق حرية الأفراد وتسحق أية عقيدة دينية تتعارض مع ما تراه الدولة حقاً وخيراً . ولهذا نفر المسيحيون على اختلاف مللهم ونحلهم من آرائه فالبروتستانت استبشعوا معالجته العقلانية للدين والألوهية ، والكاثوليك ساءهم هجومه الشديد الوطأة عليهم . والجدير بالذكر أنه دخل فى ملاحاة شديدة مع الأسقف برامهولت حول موضوع حرية الإرادة التى كان هوبز ينكرها إنكاراً تاماً . وأوحت إليه هذه الملاحاة بتأليف كتاب بعنوان «فيما يتعلق بالحرية والضرورة والصدفة» (١٦٥٦) . وبعد عودة الملكية إلى إنجلترا عام ١٦٦٠ أصبح هوبز واحداً من المقربين لدى الملك تشارلس الثانى الذى تعلم الرياضيات على يديه

فى فترة نفيه فى باريس . ويبلغ من إيثار الملك له أنه أمر بتعليق صورته على جدران القصر ، كما تعهد بإعطائه مائة جنيه فى العام غير أن جلالته نسى وعده . ورغم أن هذه الهبة لم تمنح بالفعل فإنها صدمت مشاعر أعضاء البرلمان البريطانى الذى استاء من أن يجد شخصاً يشتبه فى إلحاده حظوة عند الملك . وبعد الطاعون الذى اجتاح لندن والحريق الهائل الذى شب فيها تزايد إيمان الناس بالخزعبلات ، وتملكهم الرعب فشكل البرلمان الإنجليزى لجنة لفحص الكتابات الملحدة وعلى رأسها كتابات هوبز . ومنذ ذلك الحين لم تسمح له السلطات الإنجليزية بطبع أى شىء يدور حول قضايا خلافية مثيرة للجدل لدرجة أنه اضطر إلى نشر كتابه فى تاريخ البرلمان الإنجليزى والمعروف باسم «بيهيموث» خارج البلاد عام ١٦٦٨ . وبعد عامين ظهرت أعماله الكاملة فى أمستردام بهولندا عام ١٦٦٨ . وفى أخريات أيامه سطر سيرة حياته بالشعر اللاتينى كما ترجم هوميروس وهو فى الرابعة والثمانين من عمره . وعلى أية حال فإن اللجنة التى شكلها البرلمان بفحص كتاباته كفت عن مضايقته بناء على أمر من الملك .

لقد أشرنا إلى إيمان هوبز بحق الدولة فى أن تفرض الدين الذى تريده على الناس وبحقها أيضاً فى سحق الدين الذى يتعارض مع أهدافها . والغريب أن هوبز استند إلى آيات الكتاب المقدس ليدافع بها عن فكره السياسى وعن الحكم الملكى المطلق . فهو يدلل بهذه الآيات كى يثبت أن الملك هو أحسن شارح للمشيئة الإلهية . وحتى يفعل هذا قام هوبز بالتمييز بين المعرفة والإيمان قائلاً : «إنه ليس فى إمكاننا أن نعرف صفات الله» . . وهو يرى أن الصفات التى نطلقها عليه نابعة من إعجابنا به وليست نتيجة إعمال العقل . وإلى جانب ذلك دافع هوبز بقوة عما أسماه «الدين الحق» ليواجه به أخطار كل من الكاثوليكية والمذهب البروتستانتى المتزمت المعروف بالبيوريتانية . وفى هذه المواجهة هاجم هوبز دون هوادة أو رحمة الكثيرمن المفاهيم الدينية مثل الروح والوحى والمعجزات وملكوت الله كما رأى أن حل مشكلة الشر يتمثل فى تأكيده لجبروت الله وسلطانه المطلق .

٤ - جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) :

قلنا إن بعض المفكرين والفلاسفة من المؤمنين بالدين أو بالله أو بالدين والله معاً مهدوا دون أن يدروا إلى انتشار الكفر والإلحاد . ولعل جون لوك خير شاهد على ذلك . فإيمانه أمر لا يرقى إليه الشك . فقد ذهب فى مبحثيه عن الحكومة (١٦٩٠) إلى ضرورة توفير الحرية الدينية للعقائد باستثناء العقيدة الكاثوليكية والإلحاد بسبب خطرهما الداهم على استقرار المجتمع . ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه نذر حياته لهدم التقاليد والموروثات العتيقة ودعوته إلى ضرورة تحرير العقل الإنسانى من أية مسلمات أو أفكار سلفية قد تعطل مسيرته .

يعتبر جون لوك واحداً من أبرز الفلاسفة التجريبيين فى العصر الحديث . ورغم أنه لم يذهب مذهب هوبز فى التشاؤم المطبق بأنانية الطبيعة البشرية وفى الإيمان المدرسى بقداسة النظام الملكى ، كما أنه رأى على خلاف هوبز أن للشعب الحق فى تولية من يشاء عليه وفى الإطاحة بالحكم الظالم ، فإن لوك وافق هوبز فى اعتقاده أن الدولة تنهض على أساس تعاقد اجتماعى بين أفراده . وهى الفكرة نفسها التى تبناها روسو فيما بعد .

ولد لوك فى السنة نفسها التى ولد فيها الفيلسوف سبينوزا ودرس الفلسفة والعلوم والطب فى جامعة أكسفورد . وأظهر منذ مطلع حياته اهتماماً كبيراً بالتجارب العلمية . وساعدت على ذلك صداقته لعالم الفيزياء المعروف روبرت بويل الذى كان يعيش فى أكسفورد فى الفترة بين عامى ١٦٤٥ و١٦٦٨ . وكان لوك على معرفة وثيقة بالتجارب التى يجريها هذا العالم فى مجالى الطبيعة والكيمياء . وفى عام ١٦٧٤ استطاع لوك بشىء من الصعوبة أن يستكمل دراسته فى الطب وأن يحصل على تصريح بمزاولته . والجدير بالذكر أن دراسته لأعمال الفيلسوف الفرنسى ديكارت هى التى فتحت شهيته لدراسة الفلسفة . انخرط لوك فى مضمار السياسة الحزبية فى إنجلترا واشترك فى الصراع الدائر رحاه بين حكومة المحافظين الحاكمة وبين معارضيها من حزب الويجز أو الأحرار الذى كان يؤيده . فانكوى بنار الحزبية بعد أن توفى أحد زعماء حزب الأحرار آنذاك اللورد شافتسبرى الذى تعرف إليه فى أكسفورد وأصبح سكرتيراً له عام ١٦٦٦ . ولما مات حاميه شافتسبرى اضطر لوك إلى الهرب إلى هولندا حتى ينجو من تنكيل الحكومة المحافظة به . ولكن الدهر قلّب ولا شىء يبقى على حاله ، فقد ذهبت حكومة المحافظين وحلت محلها حكومة الأحرار فعينته الحكومة الجديدة فى بعض الوظائف الدبلوماسية . ومن أشهر مؤلفاته «خطابات عن التسامح» (١٦٨٩ - ١٦٩٢) و«مقال عن العقل البشرى» (١٦٩٠) «بعض الأفكار حول التربية» (١٦٩٣) .

كان لدعوة لوك إلى التسامح أثرها العميق فى الحياة السياسية فى إنجلترا وأمريكا بل إن أثرها امتد إلى فرنسا بسبب إعجاب فولتير الشديد بها وتحمسه لها . فضلاً عن منهجه التجريبى فى المعرفة الإنسانية كان النهج الذى اتبعه الفيلسوف دافيد هيوم وأترابه من التجريبيين . وليس من الخطأ فى شىء إذا وصفناه بأنه أبو الفلسفة الليبرالية والعلم التجريبى فى العصر الحديث . ولا غرو فقد اتسمت أفكاره السياسية والدينية بالقصد والاعتدال والتسامح والبعد عن التطرف والغلواء والتعصب الذميم . ولم يمنعه إيمانه الراسخ بالمسيحية والتنزيل من القول بضرورة الاحتكام إلى العقل على الدوام . وسوف نرجىء تفصيل موقفه من الدين والله إلى وقت لاحق .

ولوك ليس مؤسس الفلسفة الليبرالية الحديثة فحسب بل هو مؤسس علم النفس الحديث أيضاً . ففى مقاله عن العقل البشرى نراه يستجلى عملية التعلم وكيف تحدث فى العقل . والرأى عنده أن العقل البشرى عند الولادة صفحة بيضاء تنطبع عليها إحساساتنا بالأشياء والعالم الخارجى وأن كل ما يستطيع العقل إدراكه قائم على الحواس الخمس . هاجم لوك أية محاولة للحجر على الفكر الإنسانى وفرض القيود عليه . ولهذا نادى بضرورة امتناع الدولة والكنيسة والمؤسسات عن تلقين النشء . بل تترك هذه المهمة للمربين الخصوصيين ذلك لأن تدخلها فى العملية التربوية معناه بث ما تشاء من معتقدات فى عقول الناشئة فى حين أن واجب الدولة يحتم عليها صيانة حرية العقيدة الدينية وعدم التحيز لمذهب دينى دون الآخر . فضلاً عن السماح للأفراد بحرية الفكر فى مختلف المجالات .

آمن لوك إيماناً يقينياً بوجود الله وقدرة العقل البشرى على اكتشاف وجوده بجلاء وعلى نحو يرقى إلى مرتبة اليقين الرياضى . فذهب إلى أن عقل الإنسان يكفيه ما يراه فى الكون والطبيعة من

نظام وانسجام وجمال حتى يؤمن بوجود الله . وهذا ما اصطلح الفلاسفة على تسميته بالدين الطبيعي . وهكذا استطاع لوك التوفيق بين الدين والعلم مثلما فعل بويل وجوزيف جلانفيل . وأكد لوك أن الله يخضع وجوده للإثبات العقلي مثلما تخضع له نظريات إقليدس فى الهندسة . وهى الحاجة نفسها التى ساقها العالم الرياضى المعروف إسحق نيوتن الذى وصف الكون بأنه آلة رائعة دقيقة النظام الأمر الذى يقتضى وجود صانع لها . غير أن مثل هذه الحاجات انتهت فى آخر الأمر بنبذ الإيمان بالدين المنزل وظهور المذهب التأليهى فى القرن الثامن عشر ، وهو مذهب يؤمن بالله دون الدين كما أسلفنا . وأيضاً ذهب لوك إلى مبدأ مفاده أنه سوف يمكن فى قابل الأيام إثبات صحة الأخلاق عن طريق الاستدلال الرياضى . ويركز لوك على دور العقل والبرهان العقلى فى إثبات صحة الإيمان الأمر الذى يوحى بأنه يتشكك فى صحة التنزيل وهو الأمر الذى ينفيه هذا الفيلسوف . يقول لوك فى هذا الشأن إنه لا يهدف باعتماده على البرهان العقلى إلى التشكيك فى أن الكتاب المقدس موحى به من لدن الله ولكنه يهدف بذلك إلى القضاء على الخزعبلات وعلى رأسها النظام البابوى فى الكنيسة الكاثوليكية . ويذهب لوك فى مبحثه «معقولية الدين المسيحى» إلى أن المسيحية لا تتنافى مع العقل . ولكنه اعترف أن الدهماء لا تحتاج فى إيمانها بالدين إلى البراهين العقلية بل إلى التنزيل .

وليس أدل على أن الحاجة القائلة بإقامة الإيمان على أساس الدين الطبيعى لها مخاطرها فقد فتحت الباب كما أسلفنا أمام ظهور المذهب التأليهى .

٥ - سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) :

ولد بيندكت اسبينوزا فى عائلة يهودية استقرت فى أمستردام بهولندا بعد قدومها من أسبانيا أو البرتغال هرباً من اضطهاد محاكم التفتيش لها . وكان والده تاجراً ناجحاً أراد أن يحذو ابنه حذوه . ولكن الابن رفض ذلك رفضاً قاطعاً وانكب على دراسة الديانة اليهودية وتاريخ اليهود . ورغم أنه أتقن اللغات الأسبانية والبرتغالية والعبرية فإن معرفته باللغة الهولندية كانت محدودة . وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره توفر على دراسة اللغة اللاتينية وقرأ أعمال كوبرنيكوس وجاليليو وكبلر وهارفى وديكارت كما درس سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وأعجب بفلسفة برونو الداعية إلى وحدة الوجود ، وإلى أن العقل والمادة شيء واحد . فالوجود واحد رغم تعدد مظاهره . وأيضاً تأثر سبنيوزا بدراسته لفلسفات الكثيرين من فلاسفة اليهود بالأندلس مثل فلسفة ابن جبريل الصوفية وفلسفة موسى القرطبى الذى اعتبر الله والكون حقيقة واحدة . وقرأ فى كتابات ابن ميمون مبحثاً حول نظرية ابن رشد مفادها أن الخلود لا يتعلق بالأشخاص أو الأفراد بل بالخليقة جمعاء . وبذرت هذه القراءات فيه بذور الشك منذ حداثته . كما أنه تأثر بالتفسير الرياضى للكون واعتباره آلة تسير وفق قوانين محددة .

ألف سبينوزا فى مطلع حياته بحثه القصير عن الله والإنسان وسعادته . وفى عام ١٦٧٠ ألف مبحثاً فى اللاهوت والفلسفة ذهب فيه إلى أن استخدام العنف والتعصب أمران غريبان عن

الكتاب المقدس . وبمجرد صدور هذا المبحث استقبله اللاهوتيون بالملامة والتقريع . وفى عام ١٦٧٣ عرضت عليه جامعة هيدلبرج شغل وظيفة أستاذ كرسى الفلسفة بها . ولكنه رفض هذا العرض وآثر أن يواصل أبحاثه بكامل حريته واستقلاله . ويعتبر كتاب «الأخلاق» الذى فرغ منه عام ١٦٦٥ من أهم كتبه على الإطلاق ، حاول فيه إثبات الأخلاق بالدليل الهندسي فجاء كتابه مستغلقاً على الإفهام . وخشى على نفسه من الاضطهاد فامتنع عن نشره لمدة عشرة أعوام . وظن سبينوزا أن فرصته سانحة لنشره فى أمستردام باعتبارها معقلاً للحرية فى جميع أرجاء أوروبا ، ولكن شانئيه تعمدوا الكيد له فأشاعوا أنه بصدد إصدار كتاب يحاول فيه إقامة الدليل على عدم وجود الله . وشعر سبينوزا بالخطر وأن رجال الدين يتربصون به الدوائر فامتنع عن نشر الكتاب فى حياته . وكذلك فرضت السلطات حظراً على كتابيه «أصول الفلسفة الديكارتية» و«رسالة فى الدين والدولة» وقد وصفه أعداؤه بأنه «أفجر ملحد شهدته الأرض» . والجدير بالذكر أنه اضطر أمام الاضطهاد أن يغادر أمستردام ليعيش نهائياً فى هولندا ويستقر فيها . ورغم كل ما لقيه سبينوزا من تنكيل واستفزاز فقد انبرى للدفاع عنه عدد كبير من المفكرين والمثقفين المعجبين به وأوصى له بعض الأثرياء بثرواتهم كما أن ملك فرنسا لويس الرابع عشر أجرى له معاشاً . والغريب أنه رغم عزلته فقد استقبل عامة الشعب وفاته بمرض السل فى سن الرابعة والأربعين بحزن عميق فقد أحبوا فيه وداعته ودماثته وطيبة قلبه ولطف معشره وازوراره عن عرض الدنيا الزائل .

ولعله من المفيد أن نذكر بشيء من التفصيل الظروف التى طرد فيها أحبار اليهود سبينوزا من مجامعهم .

فى عام ١٦٥٦ قام مجمع اليهود فى أمستردام باستدعاء سبينوزا للتحقيق معه بتهمة الهرطقة وسأله أحبار المجمع هل صحيح أنه قال لأصدقائه ، إن الله قد يكون من جسد مادى وأن الاعتقاد بوجود الآلهة ضرب من الهلوسة وأن الروح ليس سوى تلك الحياة التى تدب فى جسم الإنسان وأن العهد القديم لم يذكر أى شيء بشأن خلود الروح» .

ومن المؤسف أن التاريخ لا يسجل لنا ردوده على هذه الاتهامات فكل ما نعرفه أنه رفض فى كبرياء التخلى عن أفكاره وأن المجمع قام فى ٢٧ يولية ١٦٥٦ بطرده ، وأن هذا الطرد تم فى احتفال مهيب سمع فيه صوت النفير المنذر بالشؤم وانطفأت فيه الأنوار حتى ساد المكان ظلام دامس ، وذلك للتعبير عن المصير البائس الذى ينتظر المهرطق المطرود . وقرر المجمع أن سبينوزا ملعون مثل أبناء ليشع من كل شعب إسرائيل ، وأن اللعنة سوف تلاحقه بالليل والنهار وفى كل مكان ينزل فيه وفى غدواته وروحاته وفى جلوسه وقيامه . وحذر المجتمع اليهودى من التحدث إلى هذا المارق أو الكتابة إليه ومن التعامل معه أو تقديم أية خدمة له أو العيش معه تحت سقف واحد فضلاً عن الامتناع عن قراءة كل كتبه . ورغم أن سبينوزا أعلى من شأن المسيح فإن هرطقته كانت موجهة إلى الدين المسيحى بقدر ما كانت موجهة إلى الدين اليهودى . ويبدو أن اليهود فى هولندا أرادوا عن طريق التنكيل بسبينوزا تقديم نوع من الاعتذار للسلطات الهولندية البروتستانتية عن انتقاده للدين المسيحى . ولعلهم رأوا فى هرطقة سبينوزا انتهاكاً يهدد تماسك الأقلية اليهودية .

ويذهب سبينوزا فى مقاله عن الدين والدولة إلى أن لغة الكتاب المقدس الاستعارية والرمزية سمة تميز جنوح الشرقيين إلى استخدام الأساليب الأدبية المبالغ فيها والمليئة بالزخارف . كما أنها تعبر عن رغبة الأنبياء والرسل فى التأثير فى عقول الدهماء والعامة عن طريق استثارة خيالهم . ويستطرد سبينوزا فى شرح هذه النقطة قائلاً : «إن الجهلة والدهماء لا يشعرون بوجود الله إلا إذا اقترن وجوده بالإتيان بالمعجزات والخوارق . فالجاهل لا يعير حركة الطبيعة اليومية والمألوفة لديه أدنى التفات ولا يرى فيها دليلاً على عظمة الله وسلطانه ولكنه يبدأ فى الاهتمام بها عند اختلالها بسبب تدخل المعجزات فى سيرها دون أن يخطر بباله أن مسيرة الطبيعة المألوفة أبلغ دليل على قدرة الخالق من الخوارق والمعجزات» . ولهذا آمن سبينوزا بوحدة الوجود والتحام الطبيعة والله فى كيان واحد . والرأى عنده أن الناس يحسون بالرضا لأن الله يخرق قوانين الطبيعة من أجلهم لأنهم بذلك يحسون بحظوتهم لديه . كما أن اللغة الشاعرية والمجازية التى يستخدمها الأنبياء تروق لهم وتثير خيالهم أكثر من لغة العلم والفلسفة . ومن ثم تعاظم الأثر الذى يتركه الأنبياء والرسل فى نفوس الناس بالمقارنة بأثر العلماء والفلاسفة المحدود فيهم . ويقول سبينوزا : «إننا إذا فهمنا الكتاب المقدس على هذا النحو الرمزى فلن نجد تعارضاً بينه وبين العلم ، أما إذا نحن فهمناه فهماً حرفياً فسوف نجده مليئاً بالأخطاء والمتناقضات والثغرات مثل القول إن سيدنا موسى هو مؤلف الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم» . ولا يفرق سبينوزا بين العهدين القديم والجديد ويعتبرهما كتاباً واحداً يدعو إلى دين واحد . ويعجب سبينوزا من مشاعر العداء المتبادل بين المسيحيين واليهود . ويذهب إلى أن قمع المسيحيين لليهود كان السبب الحقيقى فى وحدة الأقلية اليهودية وتماسكها وأنه لولا هذا الاضطهاد لاندثر العنصر اليهودى وامتزج بغيره من الشعوب الأوروبية . ولو أن المسيحيين واليهود عاشوا فى سلام ووئام وتبادلوا الحب والمودة لتخلوا عن تحيزاتهم وأفكارهم المتزمتة الجامدة ولأدرك اليهود أن المسيح هو أعظم الأنبياء وأنبلهم طراً . ورغم أن سبينوزا ينكر ألوهية المسيح فإنه يعتبره سيد الآنام لأن الله كشف له عن حكمته الخالدة . والرأى عنده أن تبجيل المسيح هو الطريق إلى محبة الله الذهنية . ولو أن الناس نبذوا تناحرهم العقائدى لاجتمع شملهم وتآلفت قلوب العالمين أجمعين على حب المسيح .

٣

مذهب الصوصيان فى إنجلترا

تمهيد

تناولنا فى البداية الخارجين على الدين والذين مهدوا عن عمد أو غير عمد للمروق عليه . ولكننا نتناول هنا وقائع الهرطقة فى الحياة اليومية خلال القرن السابع عشر . والملاحظ أن التقليد الذى انتهجته الكنيسة فى القرون الوسطى بإحراق الهراطقة كاد يختفى بحلول هذا القرن باستثناء حوادث قليلة ومتفرقة استخدمت فيها المحرقة بدلاً من المشانق وقطع الرأس بالفأس التى حلت حديثاً محل المحارق . ورغم هذا فقد شهد حكم الملك الإنجليزى جيمس الأول (١٥٦٦ - ١٦٢٥) حادثتى حرق اثنين من البروتستانت المارقين على الكنيسة الكاثوليكية . ويدعى هذان المهرطقان بارثولوميو ليجات الذى حكم عليه بالحرق فى محرقة سمثفيلد وإدوارد وايتمان الذى أحرق فى ليتشفيلد .

كان ليجات تاجر أقمشة استدعت تجارته السفر إلى هولاندا حيث تأثر بالأفكار اليونيتارية التى اقتنع بها وآل على نفسه التبشير بها عند عودته إلى لندن . آمن ليجات أن يسوع المسيح مجرد إنسان ، وليس ابن الله بالمعنى الحرفى ، ولكنه إنسان طاهر نقى وخال من الذنوب لأن الله مسحه بالزيت المقدس وكرّسه وجعله مسيحاً . ورفض ليجات الإيمان بألوهيته غير أنه آمن بقداسة مهمته ، لأن هذه المهمة تمثل فضل الله وصلاحه كما أنها توفر الخلاص للبشر . ورأى ليجات أن المرء يجب أن يتجه بصلاته إلى الله الواحد الأحد ، وليس إلى الله الذى يتكون من أقانيم ثلاثة هى الآب والابن والروح القدس . وحذا ليجات حذو أريوس فى رفض التضرع إلى المسيح وطلب شفاعته . ورغم ضيق كنيسة إنجلترا ذرعاً بهرطقاته فإنها كانت على استعداد للتغاضى عنها لولا أنه نذر نفسه للتبشير بها وجاهر بإنكار سلطة هذه الكنيسة . وسمع الملك جيمس الأول بالأمر فآل على نفسه أن يجادله ويقارعه الحجة بالحجة اعتقاداً منه أنه يستطيع إفحامه من الناحية اللاهوتية . ومن

السخرية بمكان أن نجد أن الملك جيمس الأول يفوق ليجات فى هرطقته فقد قال هـذا الملك للبرلمان : «إن الملوك ليسوا قـواد الله على الأرض فحسب بل إنهم أيضاً يجلسون على عرشه» . ثم أضاف «إن أعضاء البرلمان إذا تفكروا فى أوصاف الله فسوف يجدون أنها تتفق مع أوصاف الملوك . بل إن الله نفسه شاء أن يسمى الملوك آلهة» . ومن الواضح أن هذه الآراء تفوق آراء ليجات فى تجديفها على الذات الإلهية . والغريب أن الأساقفة الإنجليز لم يحتجوا على تجديف الملك جيمس الأول الذى أراد أن يقنع بنفسه المهرطق ليجات أن يتخلى عن ضلالته فقام عام ١٦١١ باستدعائه عدة مرات وأخذ يجادله بهدف هدايته إلى الدين القويم . ولكن ليجات كان مجادلاً عنيداً طلق اللسان وشديد الثقة بنفسه ويعرف الكتاب المقدس معرفة جيدة ، وكانت النتيجة أن الملك فشل فى إقناعه . وظن الملك أن بمقدوره أن يستدرجه إلى الاعتراف بألوهية المسيح فسأله إذا كان يصلى إليه كل يوم . ففوجىء بليجات يرد عليه بقوله إنه كان يصلى له أيام الجهالة ولكنه كف عن الصلاة له منذ سبع سنوات . وهكذا استشاط الملك غضباً وركله برجله وسلمه إلى أسقف لندن كى يقدمه للمحاكمة . وحاول الأسقف كذلك إقناع ليجات بخطئه ولكنه فشل فاقتيد إلى السجن تمهيداً لمحاكمته عام ١٦١٢ فى كنيسة سانت بول أمام عدد كبير من الأساقفة وكبار رجال الدين وأمهر المحامين . ولكن ليجات لم يتزعزع قيد أنملة بل استمر فى الاستمساك بآرائه وهو يؤكد لرجال الأكليروس أنه ليس للكنيسة سلطان أو ولاية عليه . ووجهت المحكمة إليه ثلاث عشرة تهمة من بينها إنكاره للثالوث وألوهية المسيح وعدم جواز الصلاة له . ثم حكمت عليه المحكمة بأنه مذنب ورمته بالهرطقة والتجديف . وأراد الملك أن تتولى السلطات حرق ليجات فأصدر أمره إلى المأمور كى ينفذ ذلك . ولكن نفراً من القضاة المدنيين من غير رجال الدين عبّروا عن شكهم فى أن يكون للكنيسة الحق فى محاكمة ليجات . وحتى يظهر الملك بمظهر الحاكم العادل أمر بتشكيل لجنة تتكون من بضعة قضاة للفصل فى هذا الأمر . وبالفعل تم تشكيل اللجنة المطلوبة على نحو يضمن تحقيق رغبة الملك . وأوقدت نار عظيمة فى محرقة سميثفيلد واجتمع جمع غفير من الناس ليروا جسد ليجات يتحول إلى رماد حتى يكون عبرة للمسيحيين الآخرين فلا يترددون فى الخطأ نفسه .

ولم يمض شهر واحد على هذه الحادثة حتى صدر حكم بإحراق مهرطق إنجليزى آخر اسمه إدوارد وايتمان من بلدة بيرتون أون ترنت بتهمة أبشع من التهم الموجهة ضد ليجات . والغريب أن التحول الذى طرأ على وايتمان كان مفاجئاً فقد ظل يعتنق الآراء الدينية التقليدية حتى وقت محاكمته بسنتين . وفجأة راودته الشكوك فى التثليث وقدسية العشاء الأخير ، مؤكداً أن الله أقنوم واحد وليس ثلاثة أقانيم ، وأنه لا يجوز تعميد الأطفال وضرورة قصر المعمودية على الراشدين . والأدهى والأضل سبيلا أنه اعتقد أنه رسول موحى به من لدن الله بل إنه الروح القدس الذى قال عنه المسيح ، إن جميع الخطايا مغفورة فيما عدا التجديف على الروح القدس . كما ذهب وايتمان إلى أن بعض معجزات المسيح من صنع الشيطان بل إن المسيح هو الشيطان بعينه . فأفزعت هرطقته المؤمنين . ولم ينتبه الملك جيمس الأول ورجال الكنيسة إلى أن الرجل يتناقض مع نفسه ويدعى أنه الروح القدس فى حين أنه لم يكن يؤمن بألوهيته أصلاً . ودفعته لوثته إلى القول بأنه الوحيد الذى

يمثل المسيحية الحقة . وكانت النتيجة الحتمية أن الملك جيمس الأول أصدر أمراً بسجنه وطلب من الأسقف ريتشارد نيل أن يحقق معه . فاستعان هذا الأسقف بعدد كبير من زملائه من رجال الكنيسة وعقدوا معه عدة اجتماعات لإقناعه بخطئه وبالعدول عن هرطقته . ولكن وايتمان مضى فى غيه وازداد عناده يوماً بعد الآخر . فلما أدرك الملك جيمس الأول أنه لا رجاء من إصلاحه أمر الأسقف نيل أن يقتاد سجينه إلى بلدة ليتشفيلد كى يمثل أمام محكمة من كبار القساوسة (مثلما فعل ليجات من قبل) لتصدر عليه حكماً صحيحاً من الناحية الرسمية . وكانت التهم الموجهة ضد وايتمان مماثلة للتهم الموجهة ضد ليجات وتتلخص فى أن وايتمان أنكر الثالوث وذهب إلى أن يسوع المسيح مجرد إنسان لا يمكن أن يكون مساوياً لله فى ألوهيته وخلوده وجلاله . إلى جانب إنكاره لإلوهية الروح القدس وإيمانه أن الروح القدس غير مساو لله وبأن قرارات مجمع نيقية لا تمت إلى المسيحية بصلة وبأن العشاء الربانى الأخير يخلو من القدأسة وأنه لا يجوز تعميد الأطفال . ناهيك باتهام وايتمان بأنه يزعم أنه هو نفسه الروح القدس الذى تحدث عنه القديس يوحنا فى الإصحاح السادس عشر (آية ٧ – ٨) . ورغم ثبوت التهم على وايتمان فقد آثر الأسقف نيل أن يعطيه فرصة أخيرة للتراجع . ولهذا ألقى نيل ونفر من رجال الدين ست عشرة موعظة تفند كل موعظة منها واحدة من التهم الست عشرة الموجهة ضده . غير أن المتهم تشبث بهرطقته الأمر الذى جعل الأسقف والملك يتأكدان من تجديفه . فأصدر الملك حكماً بإحراقه فى محرقة ليتشفيلد ، واقتيد وايتمان إلى النار المستعرة التى ما كادت تلسع جسده حتى صرخ فى ألم عظيم بأنه على استعداد للتراجع عن تجديفه وسمع الحاضرون رغبته فى الاستغفار فبادروا بإنقاذ حياته بشق الأنفس وفى آخر لحظة . وسطرت السلطات الكنسية على عجل صيغة تراجع قبل المتهم أن يوقع عليها . ثم اقتيد وهو مكبل بالأغلال إلى السجن حيث ظل لمدة أسبوعين لحين إعداد إقرار بالتراجع عن آرائه أكثر انضباطاً وسلامة . ولكن الأسقف نيل بهت عندما باغته وايتمان برفض التراجع رفضاً قاطعاً . ولما بلغ ذلك مسامع الملك أصدر يوم ١١ أبريل ١٦١٢ أمراً بحرقه . والجدير بالذكر أن وايتمان كان آخر رجل فى إنجلترا يتم إعدامه بسبب معتقداته الدينية . ولكننا نخطىء إذا ظننا أن القرن السابع عشر كان قرن التسامح الدينى . ففى هذا القرن اشتعلت حروب دينية ضروس بين الكاثوليك والبروتستانت كما أن البرلمان الإنجليزى أصدر عام ١٦٩٨ قانوناً بتحريم التجديف .

ولكن الحق يقال إن هذا القرن شهد ظهور كوكبة من ألمع الفلاسفة الليبراليين الذين أرسوا بفلسفاتهم الليبرالية أسس التسامح الأوروبى فى أمور الدين والعقيدة ، والذين أثمرت دعوتهم إلى الحرية الدينية فيما بعد . وعلى أية حال كان السبب فى عدول السلطة الحاكمة فى إنجلترا عن إحراق المهرطقين أنها بدأت تشعر باشمئزاز الرأى العام من بشاعة استخدام المحارق وخاصة لأن الكثيرين من الناس كانوا يحملون الإعجاب بهؤلاء المهرطقين الذين ضحوا بحياتهم فى سبيل معتقداتهم الدينية المخالفة . ولهذا كفت السلطة عن إحراق المهرطقين واكتفت بالزج بهم فى السجن مدى الحياة حتى يلفظوا أنفاسهم الأخيرة فى صمت ودون ضجيج . واتبع جيمس الأول هذه السياسة فامتنع عن إحراق رجل أسبانى يدين بالهرطقة الأريوسية .

طائفة الصوصيان المعادية للتثليث :

الصوصينية ضرب من الهرطقة استحدثه فاوستو باجلو صوزينى (١٥٣٩ - ١٦٠٤) الذى استقر فى بولندا بعد عام ١٥٦٣ .

وتؤمن الصوصينية أن الله أقنوم واحد وليس ثلاثة أقانيم كما أنها تنكر إلوهية المسيح . والجدير بالذكر أن صوزينى (أوصوصنيوس) ألف مع بعض أقرانه البولنديين كتاباً باللاتينية عام ١٦٠٩ يتضمن شرحاً للعقيدة الصوصينية وأهدوه إلى جيمس الأول ملك إنجلترا . فلما وقع الكتاب فى يد الملك عام ١٦١٤ هاج وماج واعتبره عملاً شيطانياً كما أن البرلمان الإنجليزى أصدر أمراً إلى عشماوى (أى الجلاد) بحرقه . الصوصينية فرقة من الفرق البروتستانتية المتطرفة ، يؤكد الباحثون فى تاريخ الكنيسة الإنجليزية أن تقديم المهرطقين والمجدفين إلى المحرقة انتهى بحلول عام ١٦١٢ وأن الملك جيمس الأول كان فى معظم الوقت من أكثر ملوك إنجلترا تسامحاً وأنه أصدر الأمر بإحراق ليجات ووايتمان فى تلك الفترة من حياته التى تحول فيها إلى مذهب كالفين المتشدد . فلما انقشعت عنه حمى الكالفينية أظهر سماحة دينية منقطعة النظير . ولكن الاضطهاد الدينى فى إنجلترا بدأ يطل برأسه من جديد فى الأربعينيات من القرن السابع عشر عندما قوى المذهب البرسبتيرى (وهو فى جملته مذهب كالفيني متشدد) وأخذ ينتشر فى هذا القرن . وقد عاد الملك جيمس الأول إلى سابق تشدده عندما اكتشف انتشار أتباع يعقوب أرمينيوس (١٥٦٠ - ١٦٠٩) الذين ينكرون الثالوث والذين تربطهم بالصوصينية أوثق الوشائج فهى أيضاً ترفض التثليث وتؤمن بأن الله أقنوم واحد .

لقد كان التحالف بين إنجلترا وهولندا وثيقاً لدرجة أن المضطهدين لأسباب دينية من أى من البلدين كانوا يلوذون بالبلد الآخر طلباً للأمان . وكانت هولندا تفوق إنجلترا فى سماحتها الدينية الأمر الذى جعلها ملاذاً لكل من تعرض للاضطهاد الدينى فى أوروبا . وعندما تمكن أتباع أرمينيوس من السيطرة على قسم اللاهوت بجامعة ليدن الهولندية التجأ معارضوهم من أتباع كالفين إلى كنيسة إنجلترا يطلبون منها التأييد والمؤازرة ومساعدتهم فى التخلص من أتباع أرمينيوس إذ كانت الكاليفينية تؤمن بالجبر فى حين آمنت الأرمنيوسية بالاختيار . ولما نما أمر هذه الملاحاة إلى علم الملك جيمس الأول توفر على قراءة كتابات أرمينيوس التى ما كاد ينتهى من مطالعتها حتى انفجر غاضباً رامياً إياه بالتجديف ووصفه بأنه عدو الله والمعمودية . وأمر الملك بإحراق كتب أرمينيوس وكتب خلفه كونراد فورست الذى تولى من بعده رئاسة قسم اللاهوت بجامعة ليدين ووصفها بالإلحاد . وأرسل الملك إلى سفيره فى هولندا قائمة بمجموعة التجاديف الأرمنيوسية التى حذا حذوها أتباع صوصنيوس . وترفق الملك جيمس الأول بفورست فلم يأمر بإحراقه كما سبق أن أمر بإحراق ليجات ووايتمان ولكنه طلب إليه التراجع عن تجديفه كما طلب إلى السلطات الهولندية طرده من وظيفته . ولكن السلطات الهولندية تسامحت معه فاحتفظت به واكتفت بنقله إلى جامعة أخرى . وقد حدثت هذه الملاحاة عام ١٦١١ - ١٦١٢ وإذا كان جيمس الأول نجح فى التصدى للهرطقة الأرمنيوسية فإن هذه الهرطقة انتقلت بانتهاء فترة حكمه عام ١٦٢٥ إلى الكنيسة الإنجليزية لتصطدم بتلك الطائفة البروتستانتية المتزمتة المعروفة باسم الطائفة البيوريتانية .

كان المسيحيون فى إنجلترا فى القرن السادس عشر يصبون لعناتهم على فئة مهرطقة تعرف بالمناهضين للمعمودية . ولكن غضبهم فى القرن السابع عشر انصب على طائفة الصوصيان التى سبق الإشارة إليها . ويقول الباحثون إن هاتين الطائفتين تتشابهان فى بعض الوجوه مثل الإيمان بالأهمية القصوى للكتاب المقدس ولكنهما يختلفان فى عدة أمور جوهرية . فبينما يميل الصوصيان إلى تفسير الإنجيل فى ضوء العقل نرى أن الطائفة المعمدانية (التى نشأت كرد فعل ضد المناهضين للمعمودية) تدعو إلى التأكيد على إيمان الفرد وما يمليه ضميره عليه بغض النظر عن معتقدات المؤسسة الدينية . ورغم إيمان الصوصيان الأوائل بأهمية العقل فى أمور الإيمان فإن هذا لم يمنعهم من الإيمان بالخوارق للطبيعة التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس . مثل الولادة العذرية للمسيح . ولكن الأمر انتهى بطائفة الصوصيان إلى اعتناق العقلانية الكاملة الأمر الذى أدى إلى نبذها للأشكال التقليدية للدين . بل إنهم ابتعدوا عن فكرهم اليونيتارى المؤمن بأن الله أقنوم واحد وعدلوا بعض الشيء عن قولهم إن المسيح بشر ليقعوا فى تناقض الاعتقاد بأنه بشر ذو مهمة قدسية . ورغم إنكار الصوصيان لتجسد الله فى المسيح فإنهم لم يجدوا غضاضة فى الصلاة للمسيح والابتهال إليه ، تماماً كما كانت الطائفة المعمدانية تفعل . وأيضاً رفض الصوصيان القول بأن المسيح مات للتكفير عن خطايا البشر وبأن الإنسان مولود بالخطيئة وهذا عكس ما آمنت الطائفة المعمدانية ،فقد آمنت هذه الطائفة أن الكنيسة عبارة عن جماعة تطوعية من المؤمنين ترفض الإرغام والقسر فى المسائل الإيمانية كما تؤمن بخلاص البشر على يدى المسيح بشرط التزامهم بطقس المعمودية . ورغم أن الصوصيان شاركوهم الإيمان بأن الانتماء إلى الكنيسة مسألة تطوعية محضة لا قسر فيها ولا إرغام فإنهم اختلفوا معهم فى جدوى المعمودية فرفضوا معمودية الأطفال والراشدين على حد سواء . ويشترك الصوصيان والمعمدانيون فى الاعتقاد بأن معظم الطقوس الدينية ثانوية ولا أهمية لها وأن العشاء الربانى ليس فيه قداسة بل هو للذكرى . ويؤمن الصوصيان ومعظم المعمدانيين بتجربة الاختيار . ولعل أهم ما يميز هاتين الطائفتين اشتراكهما فى الإيمان بأن الدين علاقة خاصة بين العبد وخالقه . ومن ثم رفضهما لأية سلطة كنسية خارجية . فالحرية فى نظرهما تعنى فى المقام الأول والأخير حرية العبادة . فضلاً عن أن الصوصيان - شأنهم فى ذلك شأن المعمدانيين - نبذوا الحروب ودعوا إلى السلام إلى جانب رفضهم لعقوبة الإعدام وضرورة إقامة التنظيمات الكنسية على أساس ديموقراطى ورفضهم القاطع لأى تدخل من جانب الدولة فى أمور الدين . . ولكن المعمدانيين آمنوا بألوهية المسيح فى حين أنكر الصوصيان هذه الألوهية . والجدير بالذكر أن الملك جيمس الأول كان يحمل البغضاء للطائفتين كلتيهما رغم أنه كان يشاركهما الاقتناع بعدم جدوى فرض المعتقدات الدينية على الناس عنوة واقتداراً . ونظرا لشدة حرصه على الحفاظ على التماسك القومى للكنيسة الإنجليزية باعتبار المساس به خطراً داهماً وشراً وبيلاً على تماسك الأمة ، فإنه كان فى العادة يغض الطرف عن البدع والهرطقات اللهم إلا إذا تحرش أصحابها بالمجتمع وأصروا على الاصطدام بمشاعره . ولكن الملك جيمس الأول أخطأ عندما هون من شأن الاختلافات الدينية المحتدمة فى شعبه فقد كانت هذه الخلافات أكبر من أن ينفع معها مثل هذا التجاهل .

وأمام هذه الانقسامات بين طائفة البيوريتانيين التى أرادت أن تكون لها السيادة الدينية على بقية الملل فى إنجلترا وبين المعموديين الذين أرادوا الاستقلال عن كنيسة إنجلترا فضلاً عن الانقسامات بين أتباع أرمنيوس وأتباع كالفين داخل الكنيسة البروتستانتية رأى الملك جيمس الأول فى هذه الانقسامات تهديداً لسلطته الدينية باعتباره رئيس كنيسة إنجلترا ، الأمر الذى اضطره إلى ممارسة الاضطهاد الدينى من آن إلى آخر دون أن يتحول هذا الاضطهاد إلى سياسة قمعية منظمة ؛ وآثر الملك أن يظهر نحو الهراطقة من التسامح قدر ما يستطيع فاتفق فى عام ١٦١٥ مع جورج أبوت أسقف «كانتربرى» على عدم اعتبار دعاة الانفصال عن الكنيسة الإنجليزية مهرطقين طالما أنهم يؤمنون بالمسيح مخلصاً لهم . بل إن أسقف «كانتربرى» المذكور رفض الطلب الذى تقدم به جون جيجون من «نورفولك» بإحراق مهرطق من دعاة الانفصال عن الكنيسة القومية اسمه وليام ساير لإنكاره المسيح والروح القدس . ورد عليه أسقف كانتربرى بقوله إن ساير ليس أريوسيا أو ملحداً حتى يستحق الحرق فهو مجرد معمدانى وقع تحت تأثير أفكار البيوريتانى الانفصالى روبرت براون . ويبين لنا هذا أن معظم الطوائف الدينية المتصارعة فى إنجلترا باتت فى نهاية حكم الملك جيمس الأول بمأمن من القمع والاضطهاد الدينى باستثناء طائفتى الأريوسيين والصوصيان وباستثناء بعض الحالات المتطرفة . ففى عام ١٦١١ عاد المعمدانى توماس هلويز من منفاه فى هولندا إلى إنجلترا كى ينشر دعوته إلى المذهب المعمدانى ويؤسس أول كنيسة معمدانية دائمة فى إنجلترا . وتعمد توماس هلويز التحرش بالملك جيمس الأول واستفزازه فأرسل إليه نسخة من كتاب من تأليفه سطر عليه بخط يده العبارة التالية : «إن الملك بشر فان وليس إلهاً . ولهذا فليس له سلطان على أرواح رعاياه الخالدة وعلى سن القوانين وإصدار المراسيم بتعيين رؤساء روحانيين عليهم .» وبالطبع غضب الملك منه فحكم عليه هو وتابعه جون ميرتون بالحبس فى سجن «نيوجيت» . ولكن هذا لم يحل دون انتشار الحركة المعمدانية التى تمكنت فى نهاية حكم الملك جيمس الأول من إنشاء كنيسة معمدانية بلغ عددها ١٥٠ عضواً . فضلاً عن إنشاء عدد آخر من الكنائس المعمدانية فى جنوب إنجلترا .

ولاشك أنه من المفيد أن نعرض لآراء هلويز التى عرضها فى كتابه المنشور عام ١٦١٢ بعنوان «تصريح قصير لأسرار الشرور» نظراً لأنه أول كتاب يصدر فى إنجلترا للمطالبة بالحرية الدينية لكل المواطنين . صحيح أن هناك بعض الكتابات الأخرى المدافعة عن الحرية الدينية السابقة عليه مثل كتاب «فيما يتعلق بالهرطقة» (١٥٥٤) تأليف كاستليور و«خطط الشيطان» (١٥٦٥) تأليف كلونتيوس . ولكن هذين الكتابين كانا مكتوبين باللغة اللاتينية التى لا يقرؤها إلا الصفوة ولم تظهر ترجمتهما إلى اللغات الأوروبية مثل الإنجليزية والهولندية التى تفهمها عامة الشعب إلا فى وقت لاحق . وتكمن أهمية كتاب هلويز المشار إليه فى القول بأنه ليس من حق أى دولة أن ترغم ضمائر مواطنيها على اعتناق دين بعينه أو تشجع ديناً بالذات بل يجب الفصل الكامل بين الدين والدولة فكل فرد مسؤول عن نفسه أمام الله . وليس للدولة أو الكنيسة أن تتدخل فى شؤون الأفراد حتى إذا هرطقوا أو اعتنقوا آراء دينية خاطئة لأن الدين علاقة خاصة بين العبد وخالقه . والملك لا شأن له بهذه العلاقة وليس من حقه أن يتدخل فيها حتى إذا ضل المواطن سبيله وهرطق على نحو واضح .

وقد بلغ إيمان هلويز بالحرية الدينية حداً جعله يؤمن بحق الكاثوليك الذين يحمل لهم شديد المقت والكراهية أن يتمتعوا بحرية العبادة . وفيما بعد ردد معمدانى من غير رجال الكهنوت اسمه ليونارد بوشر هذه الأفكار نفسها فى كتاب ألفه عام ١٦١٤ بعنوان «سلام الدين أو الدفاع عن حرية الضمير» شارحاً الفوائد التى سوف تعود على المؤمنين وغير المؤمنين وأيضاً على الحكومة والمجتمع والأفراد من جراء الحرية الدينية .

ويعتبر الكتاب الذى ألفه جون ميرتون بعنوان «الرد على الاعتراضات» (١٦١٥) خطوة كبيرة إلى الأمام فى طريق الدفاع عن الحرية الدينية لأن كلا من هلويز وبوشر لم يجدا غضاضة فى أن يطرد رجال الكهنوت المهرطقين من حظيرة الدين إذا استنفدوا معهم دون جدوى كل وسائل الاقناع . والأهم من هذا أن الكاتبين لم يجرؤا على التطرق إلى موضوع تسامح الدولة أو الكنيسة مع التجديف ، وهو الأمر الأكثر سوءاً من الإلحاد لأن الملحد ينكر وجود الله فى حين أن المجدف يستهزىء به مما حدا العهد القديم إلى القول بأن المجدف مستوجب الموت . والرأى عند ميرتون نسخ هذا الحكم الموسوى القاسى . ويضيف ميرتون فى هذا الصدد إن طرد المهرطق أو المجدف من حظيرة الكنيسة يتنافى مع الروح المسيحية السمحة التى لا تبيح للسلطة الزمنية أو السلطة الدينية توقيع هذا العقاب . ويرى ميرتون أن المسيح احتفظ لنفسه بحق الحكم على المجدفين . فضلاً عن أنه يوجد فى كل إنسان عنصر طيب يرجى منه إلى الخير . ومن ثم فإن طرده من الكنيسة يغلق باب الخلاص فى وجهه نهائياً . ويدلل ميرتون على ذلك بقصة القديس بولس الذى جدف على المسيح قبل أن يرى نور الحق . ولو أنه طرد من حظيرة الإيمان لضاعت كل فرصة فى هدايته ولما تحققت مشيئة الله فى صلاحه . حتى اليهود أنفسهم استهزؤوا بالمسيح وجدفوا عليه حين جاءهم مبشراً ، ورغم هذا فإنه سعى إلى إقناعهم بالحسنى ويقوة الروح . ونحن نرى دعاة الحرية الدينية فى القرن السابع عشر أمثال روجر وليامز (١٦٠٤ - ١٦٨٣) ووليام بن (١٦٤٤ - ١٧١٨) يستخدمان هذه المحاجة نفسها .

يقول المؤرخون إن التعصب والاضطهاد الدينى فى إنجلترا زادا بشكل ملحوظ بعد وفاة الملك جيمس الأول ورئيس أساقفته المتحرر چورج أبوت (١٥٦٢ - ١٦٣٣) وإنهما اشتدا فى عهد الملك تشارلس الأول (١٦٠٠ - ١٦٤٩) الذى نجحت طائفة البيوريتانيين فى الإطاحة به وإعدامه . وظهر التشدد بجلاء عندما أصبح وليام لود (١٥٧٣ - ١٦٤٥) رئيساً لأسقفية «كانتربرى» ؛ فقد منحه تشارلس الأول سلطاناً مطلقاً فى ملاحقة كل من تسول له نفسه الخروج على كنيسة الدولة وهى الكنيسة الأنجليكانية . توهم لود أن بوسعه صد الزحف البيوريتانى الكاسح على كنيسة الدولة عن طريق استخدام القسر فى فرض الوحدة الدينية على الشعب الإنجليزى . وخيل إليه أن بمقدوره أن يقضى على انقساماته الدينية عن طريق إلزامه بالصلاة على نهج الكنيسة القومية الأنجليكانية الموالية لكنيسة روما . ولم تفلح هذه السياسة فى استئصال شأفة الانشقاق الدينى بل زادته ضراوة فهاجر آلاف المنشقين البيوريتانيين إلى أمريكا هربا من الاضطهاد الدينى وتشبث زملاؤهم باقتناعهم بالمذهب البيوريتانى وطالبوا بضرورة الاستقلال عن كنيسة الدولة الأنجليكانية وبالتالى عن الكنيسة الرومانية . وأدرك لود أن الرأى العام سوف يستهجن اضطهاده لهم لو أن وجه إليهم

(وهم المؤمنون بألوهية المسيح) تهمة المروق أو الهرطقة أو التجديف . ولهذا برر اضطهاده لهم بسبب خروجهم على الإجماع العام وعمل شرخ فى جدار وحدة الأمة الدينية والقومية وليس بسبب أى خطأ فى عقيدتهم ، ويتضح لنا هذا من موقفه من قضية چون تندال التى أثيرت عام ١٦٣٩ . فقد دعا تندال إلى الاستقلال عن الكنيسة القومية أى الكنيسة الإنجليكانية فغضب منه نيل أسقف يورك آنذاك وأراد معاقبته بإرساله إلى المحرقة . غير أن لود رئيس الأساقفة اعترض على هذا العقاب قائلاً إن جريرة تندال لا تكمن فى هرطقته أو تجديفه بل تكمن فى خروجه على الإجماع القومى وقوانين المجتمع وهو أمر لا يستوجب الحرق بل مجرد الغرامة والحبس ، ورغم أن لود أخطأ عندما تصور أن أسلوبه العنيف سوف يكون ناجحاً فى معاملة البيوريتانيين المنشقين فإنه كان على حق تماماً عندما أدرك أن الملل والنحل البروستانتية المختلفة من معمدانيين وأتباع براون وبرسبتيريين وأتباع عائلة المحبة لم تكن لتتورع عن الإطاحة بكل من الكنيسة الأنجليكانية والنظام الملكى لو أمكنها ذلك .

كانت يد رئيس الأساقفة الجديد لودْ طائلة بسبب سيطرته على محكمتين هما محكمة مجلس النجمة ومحكمة اللجنة العليا للقضايا الدينية . ورغم أن المحكمة الأولى كانت تتمتع بسلطات واسعة ونفوذ كبير فإنها درجت على الامتناع عن النظر فى القضايا الدينية وإحالتها إلى المحكمة الثانية وهى محكمة اللجنة العليا للقضايا الدينية . ففى عام ١٥٩٦ عرضت على محكمة مجلس النجمة قضية مهرطق قال : «إن المسيح ليس المخلص وإن الإنجيل حكاية من نسج الخيال» . ولكن هذه المحكمة امتنعت عن النظر فى هذه القضية وقامت بإحالتها إلى محكمة اللجنة العليا للقضايا الدينية للبت فيها . وأيضاً فى عام ١٦٠٦ عرضت على محكمة مجلس النجمة قضية أخرى لرجل قال أمام شهود بأنه إذا نزل الله بنفسه من السماء وجاء ليهدد فإنه لن يرضخ لتهديده أو يقبل طاعته . ورغم أن محكمة مجلس النجمة حكمت على هذا المجدف بالسجن لمدة ثلاث سنوات لارتكابه جنحة سوء السلوك فإنها اعترفت بعدم اختصاصها بالنظر فى القضايا الدينية ، وعلى أية حال فإن محكمة مجلس النجمة لم تكن كذلك مختصة بالنظر فى جرائم الخيانة والجنايات كما أنه لم يكن من صلاحيتها الحكم بالإعدام ؛ فقد كانت محاكم القانون العام هى التى تتولى محاكمة المتهمين بارتكاب جرائم الخيانة والجنايات . وكان من سلطة محكمة مجلس النجمة أن تعاقب بالسجن والغرامة وتشويه أجساد من تثبت إدانتهم دون أن يكون لها الحق فى بتر أطرافهم أو إصدار أحكام الإعدام عليهم . فقد كانت عقوبة الإعدام من اختصاص المحاكم التى تطبق القانون العام وقاصرة فقط على الجنايات وجرائم الخيانة . والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن المحاكم المختصة بتطبيق القانون العام كانت بدورها تحيل القضايا الدينية المعروضة عليها إلى محكمة اللجنة العليا للقضايا الدينية . ومع هذا فقد كانت هناك بعض الاستثناءات ومنها أن محكمة الملك وهى أعلى محكمة فى إنجلترا تختص بتطبيق القانون العام أصدرت عام ١٦١٧ حكماً بإدانة مهرطق اسمه أتوود قال إن الدين بدعة جديدة ومستحدثة وإن الوعظ والتبشير لا يخرجان عن كونهما نوعاً من اللغو . واعتبرت هذه المحكمة التى نظرت قضية دينية لأول مرة أن هذه الكلمات المجدفة قذف فى حق الكنيسة الإنجليزية . وحيث إن الملك هو رأس الكنيسة فإن أى هجوم عليها يعتبر هجوماً على شخص الملك . ولكن

جرت العادة فى إنجلترا على أن تختص محكمة اللجنة العليا للقضايا الدينية الخاضعة للنفوذ المباشر لرجال الأكليروس بالنظر فى أمور الهرطقة والتجديف .

وفى الفترة التى كان وليام لود فيها رئيساً لأساقفة «كانتربرى» امتنعت محكمة اللجنة العليا للقضايا الدينية بتوجيه منه عن تقديم أى خارج على الدين إلى المحاكمة بتهمة التجديف فقد رأى أنه من الأجدى إقامة الدعوى على أسس غير دينية .

وفى عهد سلفه الراحل چورج أبوت الذى اشتهر بتسامحه لم يقدم إلى هذه المحكمة سوى متهم واحد يدعى ريتشارد لين وذلك فى عام ١٦٣١ . كان لين ترزيا وجهت إليه تهمة التجديف لأنه نسب إلى نفسه صفات الألوهية فى الوقت الذى كان فيه لود يعمل أسقفاً لمدينة لندن تحت رئاسة چورج أبوت رئيس الأساقفة . ووجه لود إلى المتهم كلمات تنذر بالشر المستطير وتهدده بالويل والثبور إذ خاطبه قائلاً : «لقد سمعت أنك عضو فى جماعة عائلة المحبة المهرطقة ، وأنك تؤمن بأن الالتواء فى الكلام شىء مشروع . فهل قلت إنك مثل المسيح تجمع بين اللاهوت والناسوت» . فرد عليه المتهم قائلاً إنه يعتقد أن المسيح يسكن فى حنايا كل مؤمن . ولهذا فإن الله بفضل المسيح يعتبره كاملاً . وسمع أبوت رئيس الأساقفة رد المتهم فحذره قائلاً إنه إذا لم يركع على ركبتيه ويطلب المغفرة بسبب تجديفه فلسوف يجعل منه أمثولة للعالمين . ولكن لودْ لم يرق له هذا الوعيد الذى اعتبره رخواً وطرياً ويعطى المتهم فرصة للندم والتراجع فى حين أنه كان يود إنزال أقصى عقوبة بالمتهم واحتجازه فى سجن برايدويل لحين نهاية الدورة القضائية اعتقاداً منه أن هذه أنجح وسيلة لإرغامه على الخضوع والاستسلام . واستطاع لود بنفوذه حتى وهو أسقف أن يحصل على موافقه اللجنة العليا للقضايا الدينية على ذلك . وعندما خلف لود سلفه أبوت فى رئاسة أسقفية كانتربرى انتهج على طول الخط سياسة تتسم بالتشدد والقسوة الأمر الذى كان له أوخم العواقب وأوغر صدور عامة الناس ضده رغم أنه توخى الحيطة والمكر فتجنب أن يقدم الخارجين على الدين إلى المحاكمة بتهمة الهرطقة أو التجديف واكتفى بأن يوجه إليهم تهم القذف والتشهير والخروج على إجماع الأمة . وتتجلى بشاعة قسوته من معاملته الوحشية عام ١٦٣٧ لثلاثة من المتهمين البيوريتانيين أحدهم طبيب اسمه الدكتور جون باستويك والثانى قسيس ومبشر اسمه القس هنرى بيرتون والثالث محام اسمه وليم برين . وقد اتهم الثلاثة بأنهم قاموا بنشر هجوم لاذع على لود وقساوسته وعلى الكنيسة الأنجليكانية . والغريب أن تغيراً جوهرياً طرأ على موقف عامة الشعب الإنجليزى من قسوة السياسة التى يتبعها لود مع المجدفين .

فقد سبق لمحكمة مجلس النجمة أن أصدرت عام ١٦٣٣ حكمها بحرمان برين من مزاولة مهنة المحاماة وفرضت عليه غرامة كبيرة تقصم الظهر وأمرت عشماوى بقطع أذنيه دون أن يستهجن الرأى العام فظاعة هذا الحكم . ولكن لم تمض ثلاثة أعوام على صدور هذا الحكم حتى حدث تغير واضح فى موقف عامة الناس فقد بدؤوا يعبرون عن سخطهم واشمئزازهم من قساوة مثل هذه الأحكام . وتجلى هذا بوضوح من موقفهم عام ١٦٣٧ من الأحكام الصادرة ضد المتهمين البيوريتانيين الثلاثة الذين سبق الإشارة إليهم . فقد أظهروا عطفاً بادياً عليهم باعتبارهم ضحايا

الاضطهاد وشهداء الاستمساك بعقائدهم ، وبات من الواضح أن مراجل الشعب الإنجليزى تغلى بالغضب وتمثلت وحشية السياسة التى انتهجها لود مع البيوريتانيين الثلاثة المخالفين له فى الملة فى طبيعة الأحكام التى أصدرتها محكمة مجلس النجمة ضدهم . فقد فرضت هذه المحكمة على كل منهم غرامة قدرها خمسة آلاف جنيه استرلينى وحبستهم مدى الحياة فى قلاع نائية مع قطع آذانهم . وعند التنفيذ اكتشفت المحكمة أنه سبق لعشماوى أن قطع أذنى البيوريتانى برين وأنه ترك جزءاً منهما دون بتر فلم تتورع عن إصدار الأمر باستئصال ما تبقى منهما فضلاً عن أنها حكمت بدمغ ندبتين على وجنتيه تذكران بما اقترف من جرم .

وفى عام ١٦٤٠ أى بعد انقضاء ثلاثة أعوام على محاكمة البيوريتانيين الثلاثة اجتاح التمرد الغاضب صفوف الشعب الإنجليزى . واحتدم الخلاف بين مجلس العموم البريطانى وبين الملك تشارلس الأول الذى أسلم قياده لرئيس أساقفته لود ، وساء هؤلاء الأعضاء ألا يعير الملك الشكوى من هذه المظالم والممارسات الكنسية الوحشية أدنى اهتمام . وزاد الطين بلة أن لود أراد أن يفرض المذهب الإنجليكانى على إسكتلندا المؤمنة بالمذهب البرسبتيرى وهو مذهب بيوريتانى متطرف يدعو إلى انتخاب رجل الدين الأمر الذى أدى إلى اندلاع الحرب الأهلية بين إنجلترا وأسكتلندا . وبدلاً من أن يتخلى لود عن تشدده أمعن فى اتباع سياسة القسر وإصدار المراسيم الخاصة بقمع البروتستانت وطائفة الصوصيان . وفى العام نفسه (١٦٤٠) حدث صدام بين الجماعة الكالفينية وهى أيضاً ملة بروتستانتية متشددة وبين أجهزة الدولة .

فقد اجتمع ألفان من أتباع كالفين المطالبين بالاستقلال عن كنيسة الدولة الأنجليكانية وقاموا بتحطيم قاعة محكمة اللجنة العليا للقضايا الدينية وهم ينتظرون إصدارها الحكم على واحد من زملائهم ، وخشى مجلس الملك من تقديم زعيمهم إلى المحاكمة كما رفضت هيئة كبار المحلفين إدانة القائمين بأعمال الشغب . وهكذا بات من الواضح أن الحكومة تتهاوى وأنها عاجزة عن التصرف . وفى شهر نوفمبر ١٦٤٠ اجتمع البرلمان الثائر فى وجه الملك ووجه أعوانه من الكنيسة الإنجليكانية .

واستطاعت طائفة البيوريتانيين التى كانت مضطهدة أن تسيطر على البرلمان الذى رفض المراسيم القمعية التى أصدرها لود . وأمر بالإفراج عن كل المنشقين الدينيين من السجون وإلقاء القبض على لود نفسه . ثم أمر البرلمان بحبسه تمهيداً لتنفيذ حكم الإعدام فيه عام ١٦٤٥ . وإلى جانب هذا قام البرلمان البيوريتانى الثائر بإلغاء محكمة مجلس النجمة ومحكمة اللجنة العليا للقضايا الدينية . وفى صيف عام ١٦٤٢ كانت الحرب الأهلية بين أنصار البرلمان وأنصار الملك تشارلس الأول قد بدأت وبالرغم من أن هذا البرلمان استطاع أن يقوض نفوذ الكنيسة الكاثوليكية فى إنجلترا ، وأنه كان يتمنى لو أنه استطاع فرض البروتستانتية على البلاد فإنه خشى مغبة ذلك ورأى أنه من الحكمة أن يناصر الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة (وهو الموقف الذى كان أتباع الطائفة المعمدانية يتبنونه) درءاً للصراعات الدينية التى قد تطيح به . غير أن هذا لم يمنع البرسبتيريين أو البيوريتانيين المتعصبين الذين دانت لهم أغلبية البرلمان من إصدار الكتيبات والمؤلفات الداعية إلى التعصب الدينى واضطهاد

الطوائف الدينية المعارضة لهم فى الرأى والعقيدة . ويلقي الكتاب الذى ألفه فرانسيس تشينيل «نشأة الصوصانية ونموها وخطرها» (١٦٤٣) الضوء على نزعة البرسبتيريين إلى قمع الاتجاهات الدينية المخالفة لهم واتهامها بالهرطقة الصوصانية . وجاء آدم ستيورات من بعده ليحرض القضاة على قطع ألسنة الهراطقة والمجدفين حتى لا تنتقل عدوى الزندقة إلى المتدينين الصالحين قائلاً : «إن الله فى العهد القديم لم يدع إلى التسامح مع الديانات المختلفة» . وإن المسيحية أشد ما تكون حاجة إلى التماسك والوحدة بل إن أفرايم باجيت طالب فى كتابه «هرطقات» (١٦٤٥) بإعدام المهرطقين على أساس أنه طالما أن القانون ينص على إعدام من سمم مياه الشرب فلابد وأن يحكم بالإعدام على ما هو أسوأ من ذلك وهو تسميم الأرواح . ومما يدل أيضاً على أن غلاة المتزمتين من البيوريتانيين كانوا بعيدين عن التسامح الدينى أن جون باستويك الذى كان ضحية تعصب واضطهاد رئيس الأساقفة لود لم يتورع عندما دانت له السلطة أن يضطهد كل من يعترض على الملة البرسبيترية متناسياً أنه كان إلى عهد قريب للغاية منفياً ومضطهداً بسبب آرائه الدينية . وأكد باستويك أن الكتاب المقدس لا يدعو إلى التسامح وأن الله نفسه طالب بالموت للمجدفين والملحدين والذين يدنسون السبت ويفتقرون إلى الخلق القويم والمتسامحين مع جميع الأديان . «ومعنى هذا أن الطائفة البرسبتيرية سعت إلى إحياء الاضطهاد الدينى الذى كانت ضحيته فى يوم من الأيام . وقد بث جنوح البرسبتيريين إلى إحياء الرعب فى قلوب الملل الأخرى التى شعرت بالعجز أمام البرسبتريين الذين كانوا يسيطرون على الجيش . وكان مذهب الصوصيان بالذات فى مركز واضح الضعف . صحيح أن البرلمان فى عهد تشارلس الأول ألغى المرسوم الذى أصدره لود فى عام ١٦٤٠ لقمع الصوصانية . ولكنه لم يفعل هذا من باب التعاطف معها بل لأن لود احتفظ لنفسه وأساقفته بحق إطلاق تهمة الصوصانية على من شاء من العباد فى حين أراد البرلمان أن ينتزع منه هذا الحق وهذا ما نجح فيه بعد تمكنه من التخلص من سلطة لود وأساقفته .

وفى عام ١٦٤٥ أدان البرلمان بمجلسيه العموم واللوردات مبحثاً بعنوان «تغذية المؤمنين» من تأليف جون آرتشر مفاده أن ضعاف الإيمان لا ينبغى أن يتعرضوا للإضطهاد . وذهب المجلسان إلى أن الكتاب يتضمن دعوة إلى الهرطقة والتجديف . وسعى البرلمان إلى معاقبة المؤلف فلما اكتشف أنه انتقل إلى جوار ربه اضطهد صاحب المطبعة وأمر عشماوى بإحراق نسخه فى أماكن مختلفة فى مدينة لندن بحضور رجال الكنيسة ليشرحوا للناس الفظاعات التى يتضمنها الكتاب .

ومرت فترة طويلة دون أن تثار على الرأى العام قضية تجديف واحدة .

ولكن فى عام ١٦٤٥ أثيرت فى عهد تولى البيوريتانيين زمام الأمور قضية رجل اسمه بول بست . وهو أول إنجليزى يتصدى للكتابة عن الصوصانية . وتمكن بست من تهريب مخطوطته من السجن الذى أودع فيه ورأت المخطوطة طريقها إلى النشر . واجتمع البرلمان على عجل ليصدر أمره بأن يقوم عشماوى بحرق الكتاب أمام الناس .

درس بست اللاهوت فى جامعة كامبردج واستطاع بفضل يسر حالته أن يتفرغ لدراسة موضوع الصوصانية الذى استهواه وأن يسافر إلى البلاد الأوروبية ليستقصى هذا المذهب على

الطبيعة وظروف نشأته فى كل من بولندا وترانسلفانيا . وعند عودته إلى إنجلترا التحق بست بالجيش الذى كان البرلمان يسيطر عليه . وبعدئذ تجددت صداقة كانت تربطه بزميل قديم يدرس اللاهوت فى جامعة كامبردج . وأطلع بست زميله الذى صار فيما بعد قسيساً بيوريتانياً على مخطوط كتاب يتناول الثالوث كما أطلعه على بعض الكتب التى تتناول الصوصانية كان قد استوردها من الخارج . وارتاع هذا الزميل لما احتوته هذه الكتب من آراء خارجة على الدين فقام بتبليغ البرلمان بأمره . فزج البرلمان ببست فى السجن أوائل عام ١٦٤٥ . وشكا قساوسة مدينة يورك من تجديف بست إلى مجمع «وستمنستر» لرجال الأكليروس . وهو مجمع أنشأه البرلمان عام ١٦٤٣ وأراد هذا المجمع أن يجعل من مسألة بول بست محكاً لاختبار فاعليته وقدرته على العمل . وأظهر البرسبتيريون الذين كانوا يسيطرون على مجمع «وستمنستر» إعجاباً بكنيسة إسكتلندا البرسبتيرية باعتبارها نموذجاً يحتذى فى التنظيم الكنسى ودقة النظام . وكان هذا المجمع يأمل فى فرض المذهب البرسبتيرى على جميع أرجاء إنجلترا . ولكنه أراد إزاحة بست لأنه يقف عائقاً فى طريق تحقيق هذا الهدف ، وظن المجمع بأنه بإمكانه أن يضع حداً للدعوة إلى انتهاج سياسة التسامح لو أنه استطاع أن يجعل من بست عبرة وأمثولة . وانتهز البرسبتيريون هذه الفرصة لإثبات أن التسامح الدينى سوف يؤدى إلى الشقاق والهرطقة والمروق . ولما علم اللورد فيرفاكس القائد الأعلى للجيش الذى كان بست يخدم فيه بالأمر قام بإرساله إلى مجمع «وستمنستر» فى لندن ليتولى التحقيق معه .

وفى ١٠ يونية ١٦٤٥ اجتمع مجمع «ويستمنستر» ليصدر إدانة بست بسبب تجديفه وطالب بسرعة وضع حد لحرية الرأى والأديان (كما تتضمنها الكتب وغيرها) التى تتذرع بحرية الضمير وتنتهزها فرصة للتعبير عن الأفكار المهرطقة وما شابه ذلك . وفى يوم الاجتماع نفسه توجه أعضاء المجمع بكامل هيئته إلى مجلس العموم لشرح الموضوع أمامه والضغط عليه واتهموا بست بالتجديف على إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح وعلى الروح القدس وساقوا الدليل على تجديفه وطالبوا بإنزال أقصى عقوبة على هذا المذنب الزنيم . ووعد البرلمان بإنزال أقصى عقوبة عليه وأحال الأمر إلى لجنة للتحقيق فيه وأصدر البرلمان تعليماته إلى هذه اللجنة بعدم انشغالها بأى موضوع آخر حتى يتسنى لها الوصول إلى قرار فيه على وجه السرعة . واحتفظت السلطات ببست رهن السجن ومنعته من الاتصال بغير أعضاء اللجنة ومع هذا عجزت اللجنة عن التوصل إلى قرار سريع بشأن هذه المشكلة .

واستمر بست فى التعبير عن تجديفه لمدة سبعة شهور وهى الفترة التى وجدت فيها اللجنة نفسها عاجزة عن التصرف معه وكان سبب من أسباب تعطيل عمل اللجنة أن مجلس العموم قرر أن يضيف إليها بعض المحامين .

وفى يناير ١٦٤٦ انتهت اللجنة من وضع تقريرها ورفعته إلى مجلس العموم وأعلنت أن بست مذنب فى التهمة الموجهة ضده ولكنها صرحت بأنه ليس هناك نص فى القانون لمعاقبته . واستمر بست سادراً فى تجديفه دون رادع فأنكر الثالوث والروح القدس وعبر عن طائفة من التجديفات الفظيعة التى لم يسمع بها أحد من قبل .

ومع ذلك فقد أصبح عجز القانون أمامها واضحاً بعد أن قام البرلمان الإنجليزى عام ١٦٤١

بإلغاء المحاكم الكنسية التى استغلها رئيس أساقفة كانتربرى للتنكيل بالمخالفين له فى الملة والعقيدة . ومما زاد الأمر تعقيداً أن القانون العام اعترف بقصوره وعجزه عن التصدى لظاهرة الهرطقة والتجديف . وأمام هذا الوضع المربك والمحير طلبت اللجنة المناط بها التحقيق مع بست من البرلمان أن يسدى إليها المشورة والنصح فيما عساها أن تفعله ، فأمر مجلس العموم بضرورة فرض القيود المشددة على بست وضرورة معاقبته على تجديفه . ولم يجد البرلمان مخرجاً من ورطته غير تجريم التجديف واستنان قانون بشأنه ثم تطبيق هذا القانون بأثر رجعى على بست وتقديمه إلى المحاكمة للاحتفاظ بالشكل القانونى المطلوب . ولأن مثل هذا القانون احتاج لاستنانه وضع تفصيلاته فقد قام مجلس العموم بضم كل المحامين فيه إلى لجنة الصياغة وطالبها بالانتهاء من تقريرها ورفعه إلى المجلس فى ظرف أسبوع . ولكن الإجراءات تعثرت ولم ترفع اللجنة تقريرها إلا بعد شهرين وأصدر البرلمان مشروعاً بإعدام بست شنقاً بسبب إنكاره للثالوث وألوهية المسيح والروح القدس وغيرها من التجديفات اللعينة ، ولكن البرلمان لم يضع هذا المشروع موضع التنفيذ . ويتضح تخبط البرلمان فى قضية بست من أن أعضاء مجلس العموم صوتوا على أن يقوم المجلس بالتحقيق بنفسه معه فى الوقت نفسه الذى شكل فيه لجنة من القساوسة لزيارته فى السجن للسعى إلى هدايته وإقناعه بالتخلى عن تجديفه .

ولكنه ظل متشبثاً بهرطقته فى عناد حتى النهاية .

وفى ٤ أبريل ١٦٤٦ أحضر السجان بست من سجنه للمثول أمام مجلس العموم فى اليوم نفسه الذى كان من المفروض أن يمثل أمام المحكمة . وكان من المفروض أيضاً أن تتم محاكمته قبل صدور قرار بإدانته . ولكن رئيس اللجنة التى أنيط بها تحقيق القضية والتى استمرت فى عملها ما يقرب من عام تلا الاتهامات التى قال إنها ثابتة على المتهم . وأعطى رئيس اللجنة للمتهم فرصة للدفاع عن نفسه . فادعى أنه يؤمن بالثالوث المقدس ولكنه يختلف مع أثناسيوس فى تصوره للأقانيم الثلاثة وهو يتصدى لدحض الهرطقة الأريوسية فى القرن الرابع . وبعد أن أدلى بست بأقواله أمام مجلس العموم أعيد إلى السجن واحتار هذا المجلس فلم يعرف كيف يتصرف معه فقام بتشكيل لجنة جديدة مكونة من خمسة أعضاء للبت فى هذا الموضوع . ووجدت هذه اللجنة الجديدة نفسها فى حيص بيص فاستعانت بدورها بخمسة أعضاء آخرين من مجمع «وستمنستر» وشاءت الصدفة أن يكون بعض الأعضاء فى اللجنة بعيدين عن التعصب ومن غير المؤمنين بالمذهب البرسبتيرى ومن المدافعين عن حرية العقيدة . ومما زاد من صعوبة وصول اللجنة إلى قرار أن قضية بست تحولت إلى قطعة فى لعبة شطرنج فى مباراة محتدمة بين دعاة التحرر الدينى ودعاة القمع الدينى لكل من يخالفهم فى مفاهيمهم العقائدية أو يخرج عن النسق الدينى العام . والجدير بالذكر أن تماسك البيوريتانيين كان رهناً بكفاحهم لرفع الظلم الواقع عليهم من قبل الكنيسة الكاثوليكية ولكن تماسكهم تهاوى وانفرط عقدهم بمجرد أن تغلبوا على مضطهديهم وأطاحوا بكنيسة إنجلترا فتحولوا إلى مجموعة متنافرة من الفرق والنحل المتناحرة الأمر الذى حدا قسيس برسبتيرى إلى الشكوى من أن كل من هب ودب أصبح واعظاً يفتى فى شؤون الدين سواء كان (جزماتى أو صرماتى) أو سايس

خيول أو صانع زراير . ورأى هؤلاء أن من حقهم أن يفسروا الكتاب المقدس على النحو الذى يشاؤون من فوق المنابر الأمر الذى أدى إلى بث الخلافات وانتشار الهرطقات . حتى الجيش نفسه والبرلمان لم يسلما من عدوى الخلافات الدينية التى فرقت صفوف البيوريتانيين ؛ ورغم أن البرسبتيريين كان لهم اليد الطولى فى منتصف الأربعينيات من القرن السابع عشر فإنه لم يكن لديهم القوة الكافية للسيطرة على الطوائف البروتستانتية الأخرى . وهكذا ارتفع عدد الفئات البروتستانتية المتناحرة فى غضون سنتين فقط من ثلاث إلى أربعين طائفة . ولما أدركت هذه الفرق المتناحرة خطر الخلافات الداهم على بقائها رأت ضرورة الاستمساك بمبدأ التسامح الدينى مع الطوائف المسيحية كافة باستثناء الكاثوليك والصوصيان والملحدين ، وظهرت مجموعة بروتستانتية تعرف بمجموعة المستقلين انضموا تحت لواء واحد هو الذود عن التسامح الدينى . وكان كروميل الذى أطاح بالملك تشارلس الأول من المؤيدين لهؤلاء المستقلين . ومن المعروف أن كروميل وجه رسالة إلى رئيس مجلس العموم ينادى فيها بضرورة تحقيق حرية الضمير لكل عضو فى البرلمان والجيش بل لكل مواطن يحارب ضد الملك . ولكن البرسبتيريين أصروا على إدانة بست حتى يرتدع الآخرون عن التجديف والتطاول على الدين . وظهرت كتابات تدعو بصراحة إلى ذلك .

والجدير بالذكر أن أحد غلاة البرسبتيريين المتشددين واسمه توماس إدوارز ألف كتاباً بعنوان «جانجرينا» ذهب إلى أن التسامح الدينى رجس من عمل الشيطان لأنه فتح الباب لدخول ما لا يقل عن ١٧٦ نوعاً من أنواع الهرطقة والتجديف إلى الأراضى البريطانية وعلى رأسها الأريوسية والصوصانية . وشكا عضو من رجال الدين فى مجمع «وستمنستر» من أن الجيش وجماعة المستقلين دعوا إلى الحرية الدينية فى الوقت نفسه الذى انتشر فيه التجديف . فضلاً عن أن مجلس العموم شجع المستقلين بدعوتهم أحياناً إلى التحدث من فوق منابره . وهكذا بدا واضحاً أن الدعوة إلى الحرية الدينية كانت فى مثل قوة الدعوة إلى التشدد والقمع الدينى . أى أن موازين القوى بين الجانبين كانت متعادلة . وأمام هذا التكافؤ لم تجد القوى المتشددة أمامها غير الإصرار على الاحتفاظ ببست فى السجن . وفى عام ١٦٤٦ قام مجلس العموم على نحو متكرر باستدعاء بست من السجن للتحقيق معه ثم أعادته إليه دون أن يتمكن من الوصول إلى قرار بشأنه نظراً لتأييد عدد كبير من أعضاء البرلمان له . ويكفى للتدليل على وجود هذا التأييد أنه تمكن وهو فى الحبس من كتابة ونشر كتيب وجهه إلى مجمع «وستمنستر» طالب فيه بإلغاء عقوبة الإعدام بحجة أنه لا يعطى فرصة للمهرطق أو المجدف أن يندم . ويضرب على ذلك مثلاً ببولس الرسول . فلو أن بولس الرسول أعدم بسبب تجديفه لخسرت المسيحية واحداً من عمدها ، فضلاً عن أن بست تمكن وهو فى السجن من نشر رسالة موجهة إلى البرلمان طالبه فيها إما بالإسراع فى إدانته والحكم عليه أو إطلاق سراحه .

وفى نهاية عام ١٦٤٦ حسم البرلمان هذه الملاحاة بين المطالبين بالحرية الدينية والمعارضين لها بأن أصدر قراراً بإعدام كل من يدينه القضاة بتهمة الهرطقة ضد «صفات الله» . ولكن هذا القرار استبعد سلطة المحاكم الدينية واختصت المحاكم المدنية بالنظر فى قضايا الهرطقة والتجديف . وفى

منتصف عام ١٦٤٧ نشر بست كتاباً بعنوان «اكتشاف الأسرار» ورد فيه أن أنصاره قدموا أكثر من مائة التماس إلى البرلمان للدفاع عنه . وفى أوج مناقشة البرلمان لمشروع عقاب التفتيش تقدم إليه الجيش بمقترحات تطالب بضمان الحرية الدينية لكل الطوائف والملل باستثناء الكاثوليك . ووجد بست عدداً من رجالات المجتمع الإنجليزى البارزين يدافعون عنه مثل جون سيلدن عالم القانون المرموق . وتصدت للدفاع عن بست من خارج البرلمان جماعة الهدم وهى أول جماعة فى التاريخ الحديث تنذر نفسها لمحاربة الاضطهاد الدينى والدفاع عن حرية الضمير . وقال واحد من زعماء هذه الجماعة واسمه وليم والدين إنه ليس من حق البرسبتيريين إنزال أى عقاب ببست فى حالة فشلهم فى تغيير معتقداته وإقناعه بخطئه . وقد تصدى للدفاع عن بست قسيس فى جماعة المستقلين (التى سبق الإشارة إليها) اسمه جون جودوين الذى نادى بضرورة إعطاء حرية الضمير الكاملة للملل كافة بمن فيهم الأتراك واليهود وأتباع البابوية ، وأضاف أن الزج ببست فى السجن لا يخدم غرضاً وطالب بعدم استخدام العنف ضده حتى لو تمكن من تأسيس مؤسسة مهرطقة وخارجة على الدين وتؤمن بالأريوسية .

ولكن بست تحدى البرلمان بهرطقاته على نحو أحرج صدر المدافعين عنه . وغضبت الأغلبية البرلمانية البرسبتيرية من دعوة بست الصريحة إلى الهرطقة الصوصانية مثل قوله إن المسيح أدنى مرتبة من الله وإن مجمع نيقية جانبه الصواب عندما قرر بأن الله يشتمل على أقانيم ثلاثة . ويرفض بست الاعتقاد باجتماع اللاهوت والناسوت فى شخص المسيح ويذهب إلى أن هذا الاعتقاد يتعارض مع أحكام العقل والإنجيل . كما أنه اتهم قرارات مجمع نيقية بأنها تفوح برائحة الهرطقة لأن هذه القرارات تجعل يسوع المسيح الابن مساويا للأب والمخلوق مساويا للخالق . والرأى عند بست أن الهرطقة الحقيقية تكمن فى الإيمان بالتثليث والتشكيك فى وحدانية الله . فضلاً عن اعتقاده أن أريوس كان أكثر فهماً للمسيحية من أثناسيوس . وأضاف بست أن تجربة هولندا وبولندا فى التسامح الدينى كانت لها أفضل النتائج وطرحت فى كلا البلدين أطيب الثمار . وبسبب هذا المروق الصريح على الدين أدان مجلس النواب الإنجليزى كتابه الذى يتضمن هذه التجاديف وأمر عشماوى بحرق نسخه على مدار ثلاثة أيام وفى أماكن مختلفة من لندن . ورغم أن مجلس العموم أجرى تحقيقاً لمعرفة كيف نجح السجين بست فى تهريب مخطوطة كتابه ونشره فإن التحقيق لم يسفر عن أية نتائج .

ثم تفجرت قضية أخرى تتعلق برجل آخر اسمه جون بيدل الذى يعتبر أبا المذهب اليونيتارى فى إنجلترا وهو مذهب ينكر الثالوث ويؤمن بوحدانية الله . وقد تسببت الدعوة اليونيتارية فى خلق كثير من المشاكل والمتاعب لسلطات إنجلترا الكنسية . وبدأت هرطقة جون بيدل تطغى على أخبار بست التى أخذت تتوارى فى طيات النسيان . وذلك بعد أن قامت السلطات بالإفراج عنه بسرية فى نهاية عام ١٦٤٧ بعد أن قطع على نفسه عهداً بالامتناع عن نشر أفكاره المهرطقة . ورغم أن بست توفى دون أن يترك وراءه أتباعاً ومريدين فإنه من المحتمل أن يكون جون بيدل قد تأثر به .

لم يترك بيدل مدرسة أو مؤسسة دينية من بعده كما أنه لم يترك فى مجال الهرطقة أية إضافة

ذات بال . ولا ترجع شهرته إلى أفكاره بقدر ما ترجع إلى ما تعرض له من اضطهاد فى حياته وإلى ما كتبه عن الصوصانية فى أوروبا لتعريف الإنجليز بها . ورغم استقلاله واعتداله وعلميته فى التعبير عن رأيه فإنه أثار عاصفة من السخط الأهوج عليه ، والغريب أن سخط المجتمع الإنجليزى على بيدل كان أضعاف سخطه على جماعة «المتكلمين» الذين عبروا عن هرطقتهم على نحو ملتاث فصبوا اللعنات والملامة على الله والمسيح ولم يتورعوا عن إنكارهما . ومع ذلك فالعقاب الذى نزل بالمتكلمين طفيف بالمقارنة بالعقوبة التى نزلت ببيدل الذى طال أمد اضطهاده لفترة لا تقل عن سبعة عشر عاماً . ولكن هذا الاضطهاد لم يفت فى عضده بل زاده عناداً وتشبثاً برأيه ولكن وطأة الضغوط التى تعرض لها كانت السبب فى تحطيمه فى نهاية الأمر .

بدأ بيدل يواجه المتاعب بسبب أفكاره المهرطقة عام ١٦٤٤ عندما كان فى الثامنة والعشرين من عمره . ولم يظهر عليه فى حياته الباكرة ما يدل على هرطقته اللاحقة . وفى أيام الدراسة تنبأ له أساتذته ومعارفه بمستقبل علمى باهر . ولا غرو فقد تمتع بالموهبة وقام فى شبابه بترجمة شعراء اللاتينية إلى اللغة الإنجليزية . تخرج بيدل فى جامعة أكسفورد عام ١٦٣٨ ثم حصل على رسالة الماجستير عام ١٦٤١ وتخصص فى الكلاسيكيات والفلسفة . واشتغل بالتدريس . وليس أدل على نبوغه الباكر من أنه كان يحفظ فى شبابه جانباً كبيراً من العهد الجديد عن ظهر قلب باللغتين اللاتينية والإغريقية كلتيهما . وفى عام ١٦٤٤ ظهر اقتناعه بعد قراءة العهد الجديد أن الروح القدس هو الملاك الرئيسى ولا يتصف بالألوهية ، وسمعه البعض يعبر عن هذا الرأى فوشى به لدى رئاسات الطائفة البرسبتيرية فاتهمته بالدعوة إلى آراء خطرة وهدامة الأمر الذى اضطره إلى التراجع . وفى عام ١٦٤٥ عنَّ له أن يشرح رأيه فى موضوع الروح القدس فألف مبحثاً صغيراً . ودون أن يتحرى وجه الحيطة والحذر أطلع صديقاً له على مخطوطة هذا المبحث . فغدر به هذا الصديق وأبلغ المسؤولين فى البرلمان عنه . فقام مندوبو البرلمان فى جلوستر بالقبض عليه . ودفع صديق له الكفالة المطلوبة لإطلاق سراحه لحين استدعائه للمثول أمام مجلس العموم للتحقيق معه . وفى ربيع عام ١٦٤٦ توقف جيمس أشر رئيس أساقفة أيرلندا فى مدينة جلوستر وهو فى طريقه إلى لندن . فقرر مقابلة بيدل ليناقشه فى آرائه بغية إقناعه بخطئه ولما فشل رئيس الأساقفة فى إقناعه أبلغَ السلطات المسؤولة فى لندن أن بيدل يرى أن كل المسيحيين عبدة أوثان . وعلى أثر ذلك قام البرلمان باستدعاء المهرطق إلى لندن لاستجوابه . وفى خلال التحقيق معه اعترف بيدل بإنكاره لألوهية الروح القدس ولكنه امتنع عن إبداء رأيه فى مسألة ألوهية المسيح .

وفى عام ١٦٤٦ زجت السلطات ببيدل فى سجن جيت هاوس «بوستمنسر» وهو السجن نفسه الذى كان بول بست نزيلاً فيه . ومن المحتمل أن السجينين تقابلا فى السجن وأن يكون بست وهو حجة فى الهرطقة الصوصانية قد لفت أنظار زميله إليها . وحتى ذلك الوقت كانت هرطقة بيدل قاصرة على إنكاره ألوهية الروح القدس . ولهذا آثر البرلمان أن يتجاهل هرطقته وخاصة لأنه لم يكن هناك نص فى القانون يمكن معاقبته بمقتضاه . غير أن بيدل أراد انتهاز هذه الفرصة لشرح أفكاره الخاصة بالروح القدس للرأى العام فرفع التماساً إلى السير هنرى فين المدافع البرلمانى عن حرية

العقيدة قال فيه إنه توصل إلى رأيه على أساس الاحتكام إلى العقل والكتاب المقدس . وكان تقديمه للعقل على الكتاب المقدس دلالة على تأثره بالهرطقة الصوصانية ، ووقع السير هنرى فين فى حيص بيص فلا هو استطاع أن يتجاهل تصريحات بيدل ولا هو استطاع أن يرفع الأمر إلى البرلمان . ولكن مجلس العموم على أية حال قرر فى مايو ١٦٤٧ تشكيل لجنة للنظر فى هرطقة بيدل الذى ظل رهن السجن دون السماح بإطلاق سراحه بكفالة وفى الوقت نفسه دون تقديمه إلى المحاكمة . وضاق السجين ذرعاً بهذا الوضع فأراد أن يلفت النظر إلى قضيته فتجرأ ونشر المخطوطة المهرطقة التى كانت سبباً فى محنته فى سبتمبر ١٦٤٧ . وبالفعل نجحت هذه الخطة فى لفت النظر إليه غير أنها زادت من سوء وضعه فقد أدان مجلس العموم البحث ووصفه بالتجديف وأمر بإحراق الكتاب فى الأماكن العامة وتفتيش دار النشر التى قامت بطباعته وتكليف اللجنة التى سبق أن حققت مع بست بالتحقيق مع بيدل . وحين رأت هذه اللجنة أنه لم يتزحزح قيد أنملة عن أفكاره كلفت هذه اللجنة لجنة أخرى تنوب عن مجمع «وستمنستر» كى تتولى هدايته سواء السبيل . ولكن لجنة «وستمنستر» الدينية أخفقت بدورها فى إقناعه . وأحس المحققون أن إطلاق سراح هذا الرجل خطر داهم على الرأى العام . فاحتفظت به فى السجن دون تقديمه إلى المحاكمة لأن القانون لم يكن يسمح بتجريمه أو رفع الدعوى ضده .

وذاع أمر الكتاب المشار إليه بعد صدور الأمر بإحراقه فقام طابعه بإصدار طبعة أخرى منه فى السر الأمر الذى حفز المؤمنين التقليديين بالرد عليه فنشر البعض عام ١٦٤٧ رداً بعنوان «تمجيد الله دحض التجديف» كما وقع اثنان وخمسون قسيساً فى لندن وثيقة بعنوان «شهادة عن حقيقة يسوع المسيح» تضمنت هجوماً على تجاديف كل من بست وبيدل . وفى عام ١٦٤٨ أصدر بعض البرسبتيريين مبحثين يحملان العنوان نفسه «دحض التجديف» وهكذا احتدمت الملاحاة الدينية بين دعاة التحرر ودعاة التزمت عن طريق نشر النشرات والنشرات المضادة . وحدث فى تلك الآونة أن أعضاء أحد المجالس البرسبتيرية اكتشفوا أثناء زيارتهم لأكسفورد كتباً تروج للهرطقة الصوصانية فى حوزة جون وبرلى مساعد قسيس كلية لنكولن الأمر الذى أدى إلى طرده ثم حبسه .

وعندما بدا أن الهرطقة الصوصانية يتزايد انتشارها فى أرجاء العالم المسيحى لم ير البرلمان بداً من إصدار التشريع الرادع لوضع المهرطقين الصوصانيين عند حدهم . وخاصة بعد أن تبين أن القانون يقف حائراً بل عاجزاً عن التصدى لثلاث حالات تجديف متتالية هى حالات بست وبيدل ووبرلى . لقد كانت كتلة المستقلين فيما مضى تخشى على نفسها من اضطهاد الطائفة البرسبتيرية لها فظلت على مدار عامين كاملين تعترض سبيل سن التشريعات التى تحارب المروق على الدين خشية أن تصبح ضحيتها . ولكن الموقف اختلف بحلول عام ١٦٤٨ إذ بدأ المستقلون أنفسهم يحسون بالخطر من انتشار الفوضى والمنازعات الدينية وخاصة بعد أن اطمأنت أنها فى مأمن من التعصب البرسبتيرى الذى خفت حدته . وأدرك المعتدلون بين البرسبتيريين استحالة فرض فكر دينى موحد على جميع الناس . وبعد أن اطمأن المستقلون أن الحرية الدينية أصبحت مكفولة للطوائف البروتستانتية كافةً لم يجدوا أية غضاضة فى استنان قانون يهدف إلى محاربة التجديف

والإلحاد ، وفى ٢ مايو ١٦٤٨ صدر قانون معاقبة التجديف والهرطقة . وينص هذا القانون على تطبيق عقوبة الإعدام لكل من ينكر وجود الله ويقول إن الثالوث ليس إلهاً واحداً خالداً أو أن المسيح أدنى مرتبة من الله أو من ينكر قيامة المسيح من الأموات أو صعوده إلى السماء أو يقول إنه ليس ابن الله أو أن الإنجيل ليس كلمة الله أو من يتشكك فى البعث ويوم الحساب فى الآخرة .

وفيما يتعلق بالإلحاد فقد انصب القانون على حظر مذهب الصوصانية ، واللافت للنظر أن عقوبة الهرطقة فى هذا القانون كانت مخففة بالمقارنة بعقوبتى التجديف والإلحاد . غير أن مفهوم الهرطقة فى القانون اتسع نطاقه ليشمل جماعة أرمانيوس والمعمدانيين ومعظم منتقدى المذهب الكالفينى ، وأيضاً المؤمنين بخلاص كل البشر وأن الإنسان يتمتع بحرية الإرادة فضلاً عن اشتماله على الفكرة الصوصانية القائلة بأنه لا يجوز للإنسان الإيمان بأى شىء يعجز العقل عن فهمه ،والدعوة إلى نبذ الصلاة من أجل مغفرة الخطايا والقول بأن تعميد الأطفال خطأ أو أن هذا التعميد ينبغى أن يقتصر على المؤمنين وحدهم أو أن الكنيسة البرسبتيرية معادية للمسيحية وغير شرعية . ونص القانون على أنه يكفى لإثبات تهمة الهرطقة على أحد أن يشهد شاهدان على صحتها ويتحتم فى هذه الحالة على المهرطق أن يتراجع وإلا زج به فى السجن ولا يخرج منه إلا بضمانة ضامنين اثنين يمكن مساءلتهما فى حالة عودته إلى ارتكاب الوزر نفسه .

غير أن طائفة المعمدانيين تصدت لهذا القانون واستنكرت صدوره بشدة . واحتج المعمدانيون بأن الحرية لن تهدد الدين فى وجوده ولن تفتح الباب على مصراعيه أمام البدع والهرطقات والضلالات . فالإيمان الحقيقى لا ينبغى أن يتزعزع أو تساوره الشكوك مهما كانت الظروف . وذهب المعمدانيون إلى أن الخطأ فى الرأى شىء طبيعى ولا غبار عليه فضلاً عن أنه يحدث بسماح من الله . والله هو الوحيد الذى يحق له محاسبة البشر على ما يرتكبون من أوزار وأخطاء . ورغم أن المعمدانيين أدانوا التجديف فإنهم لم يروا مسوغاً لاضطهاد أى إنسان طالما أنه يؤمن بوجود الله . والرأى عندهم أن المسيحية لم تقم بحد السيف أو عن طريق العنف والإرغام . وأضافوا أن الإقناع هو الطريق المشروع لتغيير أفكار الناس وأن أقصى عقوبة يمكن لكنيسة أن تفرضها على المارق هو طرده من حظيرتها . ورفض المعمدانيون أن يتدخل القضاء المدنى أو المؤسسات الدينية فى الفصل فى المنازعات العقائدية . وانضم إلى المعترضين على قانون التجديف والإلحاد لعام ١٦٤٨ ثلاثون هيئة دينية أخرى فى لندن بعثت إلى كرومويل التماساً تطلب إليه إلغاء هذا القانون وإطلاق سراح جون بيدل . وقال المعترضون فى التماسهم إن الخطأ الذى يرتكبه أى مسيحى مسالم لا يستوجب مساءلته أو محاكمته طالما أنه لا يستخدم العنف . حتى بيدل نفسه رغم خروجه على المألوف فى الدين يستحق أن يتمتع بحرية العبادة . وعلى أية حال ظل قانون التجديف والإلحاد الصادر عام ١٦٤٨ مجرد حبر على ورق ليس نتيجة مطالبة المعترضين عليه لوقف العمل به بل نتيجة نجاح جماعة المستقلين فى السيطرة على البرلمان وتقليص نفوذ البرسبتيريين فيه . حتى قبل فوز المستقلين على البرسبتيريين فى البرلمان ، تحدى بيدل قانون التجديف والإلحاد بنشره رغم وجوده فى السجن كتابين أولهما بعنوان «اعتراف الإيمان بشأن الثالوث المقدس» والآخر بعنوان «شهادات بخصوص الإله

الواحد وأقانيم الثالوث الإلهى» ويدل هذان الكتابان على أن بيدل أصبح الآن يعتنق الصوصانية بعد أن كان جاهلاً بها عندما دخل السجن لأول مرة . وأنكر بيدل قرارات مجمع نيقية باعتبارها وثنية تهدم وحدانية الله وتدعو إلى الإيمان بثلاثة آلهة . وذهب بيدل إلى أن المسيح ليس هو الله نفسه رغم أنه ابن الله وذو صفة إلهية الأمر الذى يدل على أن السجن لم يغيره أو يصلح من حاله . بالعكس ازداد بيدل إمعانا فى التجديف . ولو أن قانون التجديف والإلحاد لعام ١٦٤٨ وضع موضع التنفيذ بالفعل لكان مصيره الإعدام . على كل حال تحسنت ظروف بيدل عندما فقد البرسبتيريون السيطرة على البرلمان بعد انهزامهم أمام المستقلين . فسمحت له السلطات بدفع كفالة والخروج من السجن ورغم أن أحد الكائدين له نجح فى إرجاعه إلى السجن الذى بقى فيه حتى فبراير ١٦٥٢ وكاد يتضور جوعاً خلف أسواره فقد تم الإفراج عنه بمقتضى العفو الذى أصدره كرومويل . وبذلك يكون جون بيدل قد أمضى خمسة أعوام ونصف فى السجن دون محاكمته بسبب إنكاره لألوهية الروح القدس . ولكن بيدل لم يرعو فقد أعيد اتهامه بالتجديف بعد ذلك بثلاثة أعوام .

وزاد الطين بلة أن البرلمان الإنجليزى اكتشف أثناء سجن بيدل أن عضواً من أعضائه يجدف على الثالوث المقدس . وكان هذا العضو (وهو ضابط جيش اسمه جون فراى) رجلاً ثرياً له حظوة لدى أصحاب النفوذ والسلطان بل إن المتمردين على الملك تشارلس الأول اختاروه كأحد المندوبين لمحاكمته . وفى عام ١٦٤٩ طلب عضو فى البرلمان من زميله جون فراى أن يسعى للإفراج عن بيدل فسمع عضو ثالث الحديث الذى دار بينهما وعرف منه أن فراى وعده بالتدخل من أجل إطلاق سراح بيدل من السجن . فاحتد الزميل الثالث على فراى وقال له إن بيدل يستحق الشنق لا العفو . وهنا أخذ فراى يجادل هذا الزميل المعترض قائلاً إنه شخصياً لا يوافق على تعبير «شخص» عند تناول الثالوث ، فاللاهوتيون الإنجليز يستخدمون أشخاصاً بدلاً من كلمة أقانيم التى تستخدمها الكنيسة القبطية فيقولون إن الثالوث يحتوى على ثلاثة أشخاص . وأضاف فراى أن كلمة شخص تنطبق على البشر ولا تنطبق على الله . فلو كان الله شخصاً لأمكن أن يصف نفسه أو غيره بأنه صنو الله أو المسيح . وفهم الزميل هذا الكلام على أنه يعنى به أن المسيح لا يتصف بالألوهية أو أن كل البشر يتصفون بها . ووشى هذا الزميل بفراى لدى البرلمان فقرر البرلمان إيقاف عضويته لحين تكوين لجنة والانتهاء من التحقيق معه . وأنكر فراى أمام هذه اللجنة أنه ينسب الألوهية إلى نفسه . فأعاد البرلمان إليه عضويته بعد إيقافها . غير أن فراى رفض أن يسكت أو يتوقف عند هذا الحد وآثر أن ينشر دفاعاً مفصلاً ينفى فيه عن نفسه تهمة التجديف . ولكن دفاعه أكد تجديفه إذ إنه وصف القول بوجود ثلاثة أشخاص فى الله (أى ثلاثة أقانيم) قول مضحك ليس له سند فى الإنجيل الذى يرفض إرغام الناس وإكراههم على تزييف ضمائرهم . وفى معرض دفاعه عن نفسه نادى فراى بضرورة توفير الحرية حتى للذين ينكرون الثالوث كما سخر من مجمع وستمنستر الدينى بقوله إنه يطمئن إلى تصرفات المجانين ولا يطمئن إلى أعضائه من البرسبتيريين ، وطلب هذا المجمع من فرانسيس تشينيل المعروف بهوسه فى تعقب الهرطقة الصوصانية التصدى لفراى فهو الذى ادعى بوجود كتب تدعو لهذه الهرطقة بحوزة جون وبرلى عام ١٨٤٨ كما أنه سبق أن نشر عام ١٦٤٣ كتاباً عن هذه الهرطقة

بعنوان «تصاعد ونمو وخطر الصوصانية» وبسبب حماسه الملتهب فى تعقب المذهب الصوصانى أسند إليه المسؤولون أستاذية اللاهوت وعمادة كلية سانت جون بأكسفورد . وتنفيذاً لتوصية مجمع «وستمنستر» توفر تشينيل على تأليف كتاب ضخم نشره مؤخراً عام ١٦٠٥ بعنوان «الثالوث الإلهى» . ولكن آخرين سبقوه إلى الرد على فراى وتفنيد آرائه المنكرة للثالوث . وفى رده على فراى ذهب تشينيل إلى أن إنجلترا شاهدت فى القرن الأخير ظهور مجموعة كبيرة من الكتب التى تتطاول على الثالوث المقدس ورمى تشنيل آراء فراى بأنها منحلة وتدعو إلى الإلحاد وأنها تعتبر المسيح مجرد إنسان .

ولم يسكت فراى على هذا الهجوم عليه وتصدى له بأن نشر عام ١٦٥٠ كتيباً بعنوان «الأكليروس على حقيقتهم» انتقد فيه رجال الدين بشدة لأنهم يلقنون الناس الأكاذيب والمعلومات المغلوطة على أنها حقائق . يقول فراى إن الإيمان الصحيح بالدين لا يمكن أن يقوم على التسليم بل لابد له من الاستناد إلى الاقتناع العقلى وإلى نصوص الكتاب المقدس نفسه . ويتهم فراى رجال الدين بالتهرب من أى سؤال صعب بقولهم بعدم إمكانية الإجابة عنه لأنه يتجاوز حدود العقل البشرى . ويذهب فراى إلى أن مثل هذه الإجابات المتهربة لا تشفى غليلاً أو تروى ظمأ لأن العقل هو الشيء الوحيد الذى يتميز به الإنسان على الحيوان . وأضاف فراى أنه يهدف إلى دفع الناس إلى إعمال الفكر فى كل ما يتلقونه من علم وألا يأخذوا ما يقوله لهم معلموهم على عواهنه بل أن يتفحصوه ولا يعتقدون بصحته إلا إذا كان متمشياً مع العقل وله سند فى الكتاب المقدس . وبلغت ضراوة الهجوم الذى شنه فراى على رجال الدين حداً من العنف جعل أصدقاءه والمتعاطفين معه فى مجلس العموم يعجزون عن الدفاع عنه أمام صيحات الاستنكار ضده . وفى عام ١٦٥١ تشكلت لجنة لمراجعة كتاباته التى قررت اللجنة بعد فحصها أنها مجدفة وتنكر الثالوث فضلاً عن أنها تهدف إلى هدم الأكليروس وتعليم الأناجيل .

ولم يعط البرلمان أية فرصة لفراى كى يدافع عن نفسه ، وبعد مضى يومين اجتمع مجلس العموم ليناقش قضية فراى من الصباح حتى المساء وانتهى إلى إدانة كتاباته والأمر بإحراق بعض منها . وبالنظر إلى أهمية المتهم ومكانته المرموقة وكثرة معارفه من أصحاب السلطان اكتفى البرلمان بطرده من عضويته . ولم يكتب لفراى أن يعيش طويلاً بعد هذا الطرد . وقد أصدر تشينيل كتاباً صغيراً بعنوان «مناقشة مبادىء مستر فراى» التى أدانها البرلمان مؤخراً اتهمه فيه باعتناق المذهب الصوصانى الذى يتعارض مع الدين المسيحى .

أما جون بيدل فقد اتجه إلى الوعظ والتبشير بالإنجيل فى لندن بعد صدور العفو عنه فى أوائل عام ١٦٥٧ وفى بادىء الأمر التف حوله جمهور صغير ولكن سمعته السيئة سرعان ما جذبت إليه جماهير عريضة من رواد الكنائس فى أيام الآحاد الأمر الذى جعل أتباع الدين التقليدى يجأرون بالشكوى من أنه يبث تجاديفه على الملأ . غير أن الحكومة انتهجت سياسة التسامح الدينى مع كل مسيحى يؤمن بوجود الله ويعبده وآثرت أن تغض الطرف عن تجديف بيدل حتى لا تثير غبار المشاكل الدينية . وفى عام ١٦٥٢ نشر بيدل ما يعرف بكتاب الصلوات الراكوفية وهو أول

كتاب عن مبادىء المذهب الصوصانى نشر عام ١٦٠٥ باللغة البولندية فى مدينة راكوف بجنوب بولندا ، وقد كتب بيدل مقدمة لهذا الكتاب دعا فيها إلى التسامح الدينى . والجدير بالذكر أن راكوف كانت مركزاً نشيطاً لدعوة الصوصانية . وكان بها مطبعة دينية زاهرة اشتهرت بنشر الكتب المناهضة للثالوث وتوزيعها فى كل أرجاء أوروبا . وقد أمر الملك جيمس الأول بحرق هذا الكتاب .

وفى عام ١٦٣٨ اضطرت الحكومة البولندية تحت ضغط اليسوعيين أن تقوم بمصادرة المطبعة وإلغاء الكلية والمدارس والكنائس الصوصانية وتشريد جميع المصلين فيها ونفى وإقصاء قساوستها وتهديدهم بالإعدام إذا مارسوا نشاطهم الصوصانى . ويقول المناوئون لبيدل إنه بعد اندثار راكوف كمركز لانتشار الصوصانية أراد أن يجعل من لندن مركزاً جديداً لها . وفى ١٦٥٢ أخرجت مطابع لندن سراً نسخة من كتاب الصلوات الراكوفية مكتوبة باللغة اللاتينية . فلم تستطع أغلبية البرلمان من المستقلين البيوريتانيين رغم إيمانهم بالتسامح الدينى السكوت على هذا الوضع ، وخاصة بعد أن قام بيدل بترجمة النص اللاتينى إلى اللغة الإنجليزية وزود ترجمته بتصويباته وتنقيحاته . ولم يكتف بيدل بهذا بل نشر عدداً من الكتابات الداعية إلى الصوصانية وسيرة حياة فاوستوس سوكينوس مؤسس المذهب الصوصانى . وفى عام ١٦٥٣ ازداد بيدل جسارة فنشر مختاراته من أعماله التى سبق إحراق بعض منها . وفى عام ١٦٥٤ أصدر آخر أعماله وأهمها جميعاً تحت عنوان «كتاب الصلوات المزدوج» الذى يتكون من جزءين . ويعتبر هذا الكتاب أكثر الكتب التى تهاجم الفكر المسيحى التقليدى ضراوة ودعوة إلى رفض اللاهوت والكهنوت المتراكم خلال ستة عشر قرناً والعودة بالمسيحية إلى منابعها . وبلغت ثورية بيدل فى كتاب الصلوات المزدوج حداً جعله يدعو إلى تجاوز الراكوفية واعتناق مذهب سمى فيما بعد بالمذهب اليونيتارى أى المذهب التوحيدى الذى ينكر التثليث . ويفسر بيدل فى عمله الأخير الكتاب المقدس تفسيراً حرفياً مباشراً ليس فيه التواء فإذا اعترضه أى غموض احتكم إلى العقل لاستجلائه . ويرى بيدل أن المسيحية فى منابعها الأولى لم تقل بالخطيئة الأولى أو الثالوث أو سر المناولة أى تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . ويعزو بيدل هذه البدع إلى التعقيدات التى أدخلها علماء اللاهوت على الدين المسيحى البسيط فجعلته يستغلق على أفهام عامة الناس . والكتاب المقدس فى نظره بسيط ويمكن للبسطاء أن يفهموه فهو الدين الذى يعلمنا وحدانية الله ومحبته وخلاصه للبشر وأبوته لشخص المسيح الفانى وحرية الإرادة . هو دين يخلو من أية إشارة إلى الخطيئة الأولى وبعث الأجسام وألوهية المسيح ومن الإيمان بالمقدر والمكتوب .

وضاق كثيرون ذرعاً بالتجاديف التى ضمنها بيدل فى كتابيه الأخيرين فشكوه إلى البرلمان الذى أمر بالقبض عليه والقضاء على أتباعه ، ومرة أخرى أدان مجلس العموم ما جاء فى كتاب بيدل الأول من «آراء تجديفية ضد ألوهية الروح القدس» وأمر بإحراقه . فى ١٣ ديسمبر ١٦٥٤ فتح البرلمان ملف التحقيق معه فلم ينكر أنه مؤلف الكتابين ولكنه أنكر وجود طائفة من أتباعه الذين يتلقون الدين على يديه . كما أنه رفض الإدلاء بأسماء المطبعجية الذين طبعوا كتابه المزدوج لأن قانون المسيح - على حد قوله - يأمره «بعدم خيانة أخوته» غير أنه عاد ليؤكد إنكاره لألوهية المسيح . وعندما سئل

إذا كان يسوع المسيح هو الله منذ الأزل حتى الأبد أجاب بأن هذا لم يرد فى الكتاب المقدس . وعقاباً له أمر البرلمان بحبسه انفرادياً فى سجن «جيت هاوس» الذى سبق أن حبس فيه ومراقبته مراقبة دقيقة حتى لا تصل إليه الأدوات الكتابية مرة أخرى .

وأيضاً أمر البرلمان بإحراق كتابه المزدوج عن الصلوات . فضلاً عن أنه كلف لجنة بدراسة كتابيه الأخيرين . إن بيدل باعتداله وعقلانيته لم يعبر عن تجديفه بطريقة استفزازية لا تحترم مشاعر المسيحيين . ولكن هذا لم يمنع البرلمان من إدانته وتعداد تجديفاته بإدعائه أن للمسيح سيادة قدسية دون أن تكون له طبيعة إلهية وأنه لم يمت فداء عنا من أجل أن يصالحنا مع الله وأن المسيح مجرد إنسان وأنه أدنى مرتبة من الله فالابن ليس مساوياً للأب .

ولكن البرلمان واجه مشكلة قانونية فهو لا يستطيع أن يجد فى نصوص القانون ما يسمع له بمساءلة بيدل . ولهذا تذرع بأن بيدل نشر كتابه المزدوج دون تصريح سابق الأمر الذى يعد انتهاكاً صريحاً لقانون الرقابة . ولكن انتهاك قانون الرقابة آنذاك انطوى على عقوبة بسيطة لا تتجاوز دفع غرامة . وحتى إذا أراد البرلمان محاسبته بمقتضى قانون التجديف الصادر فى ١٦٤٨ فإن هذا القانون ينص على محاكمته أمام محاكم مدنية عادية ، ولهذا السبب تحايل البرلمان بالسعى إلى حرمانه من حقوقه المدنية قبل أن تثبت المحكمة إدانته . وانتهز أعداء بيدل هذه الفرصة ليطالبوا بتشديد القوانين الخاصة بالرقابة وسن قانون عقوبات صارم لردع المجدفين والمارقين على الدين . فى الفترة التى انتظر فيها الرأى العام (وهى يناير ١٦٥٥) ليرى كيف يعالج البرلمان قضية بيدل أصبحت قضية الرقابة مرتبطة أشد الارتباط بقضية الدفاع عن التسامح الدينى . ولم يعدم بيدل من أن يجد من يقف فى صفه مثل جون جودوين . ورغم أن جودوين لم يكن راضياً عن إنكار بيدل للثالوث فإنه آمن بحرية النشر وعدم فرض أية قيود رقابية على الأفكار الدينية . ونحن نراه فى مبحثه «اكتشاف جديد للروح البرسبتيرية» يعارض قوانين الرقابة لأنها خطرة وعديمة الفائدة ولأنها - وهو الأهم - تتعارض مع روح الكتاب المقدس . وطالب جودوين بعدم إخفاء الأفكار المجدفة عن الناس حتى يمكن الرد عليها وتفنيدها وحث الناس على كراهيتها . فالرأى الخاطىء يترعرع فى الظلمة ويموت فى النور . كما أن الحث الروحى وليس القمع هو الوسيلة السليمة لتصحيح الخطأ . ويرى جودوين أن الاعتراض على حرية النشر عمل معاد للمسيحية . وهو محاولة من جانب القساوسة ورجال الدين لمنع العلماء والدارسين وذوى الفضل والحجى من الوصول إلى الآراء المغايرة للتفكير الدينى السائد حتى يتمكنوا من دحضها وتفنيدها . وأضاف جودوين أن سياسة الرقابة على الكتابات الدينية تتنافى مع روح المسيحية . وأن الأمر سوف ينتهى بأن تتخذ الدولة لنفسها ملة أو ديانة تفرضها على الناس وتتحيز ضد ما عداها من الملل والنحل .

وكان بيدل محظوظاً بشكل غير عادى ، فقد تصادف أن قام كرومويل بحل البرلمان قبل أن تتم إجراءات تجريد بيدل من حقوقه المدنية قبل أن تثبت المحكمة إدانته . وفى ١٠ فبراير ١٦٥٥ طلب كرومويل من المحكمة السماح لبيدل بدفع كفالة للإفراج عنه موقتاً لحين مثوله أمام الجلسة القادمة .

واكتشفت المحكمة أن السجين لا يوجد ضده أى اتهامات محددة فقامت بشطب القضية

وإخلاء سبيله . وقد أجرى بعض المعمدانيين معه مناقشة علنية دامت ساعات طوال يوم ٢٨ يونية ١٦٥٥ حول ألوهية المسيح التى أصر بيدل على إنكارها ما أثار عليه غضب البرسبتيريين الحاضرين فقاموا بتبليغ مجلس الدولة بالأمر ويعزم بيدل على مواصلة النقاش فى الموضوع نفسه فى الأسبوع التالى . وانعقد مجلس الدولة بحضور كرومويل نفسه وأصدر قراراً إلى عمدة لندن بمنع الاجتماع المزمع حتى إذا اقتضى الأمر إلقاء القبض على بيدل . ثم توجه البرسبتيريون إلى العمدة وأدلوا بشهاداتهم ضد تجديف بيدل فأمر العمدة بالزج به فى السجن فوراً . وقبل العمدة على مضض ومعه عضو المجلس البلدى والقاضى المحلى أن يعقد جلسة لسماع أقوال السجين الذى أيده عدد قليل ومحام من أصدقائه . ونظراً لأن القبض على بيدل تم دون الحصول على إذن النيابة فقد طالب أصدقاؤه بتحديد التهم الموجهة ضده . وتهرب العمدة من الاستجابة إلى هذا الطلب بقوله إن مجلس الدولة هو الذى أمر بحبسه . فرد عليه الدفاع عن بيدل قائلاً إنه ليس من حق مجلس الدولة أن يحبس إنساناً دون تهمة محددة . ثم استفسر العمدة من السجين إذا كان قد أنكر ألوهية المسيح . وشاء بيدل هذه المرة أن يتهرب من الإجابة كما أنه رفض الاعتراف بأنه مؤلف «كتاب الصلوات المزدوج» قائلاً إن السيد المسيح نفسه آثر التزام الصمت عندما سعى أعداؤه إلى الوقيعة به . وهنا سأله العمدة : «عن أى مسيح تتحدث ؟» فأجابه بيدل «هو سيدى ومخلصى يسوع المسيح الذى يجلس على يمين الله فى السماء .» وهذه المرة الأولى التى يعترف فيها بيدل أن المسيح سيده وإلهه على عكس ما سبق أن ذهب إليه عام ١٦٥٥ . ورغم تهربه من أية إجابة قد تورطه فإن القاضى لم يتركه وشأنه وأخذ يفتش فى قانون التجديف لعام ١٦٤٨ حتى وجد بعض الفقرات التى يمكن تطبيقها على المتهم . وبذلك أصبح بيدل أول ضحية لهذا القانون الذى ظل مجرد حبر على ورق حتى تم تطبيقه لأول مرة فى قضية بيدل . والجدير بالذكر أنه حتى البرلمان لم يلجأ مطلقاً إلى مواد هذا القانون عندما رفع الدعوى ضد بيدل . قال القاضى إن بيدل مذنب رغم أنه لم يستخدم الألفاظ المجدفة التى يعاقب عليها قانون ١٦٤٨ بل استخدم ألفاظاً شبيهة بها . ثم أعاده العمدة إلى السجن فى ١٠ يولية ١٦٥٥ بتهمة إنكار ألوهية المسيح . وسعى أصدقاؤه إلى إطلاق سراحه بكفالة من سجن نيوجيت حيث كان ينتظر محاكمته أمام محكمة الأولد بايلى فى لندن ، ولكن سلطات المدينة رفضت الإفراج عنه بكفالة نظراً لبشاعة الجريمة التى ارتكبها .

وكان تطبيق قانون التجديف لعام ١٦٤٨ على بيدل بمثابة صدمة لم تذهل دعاة التسامح الدينى فحسب بل الكثير من الطوائف الدينية المختلفة . ولم يمض أسبوعان حتى أخذ الباعة المتجولون يجوبون شوارع لندن يبيعون نبذات ونشرات غير مصرح بطبعها تدين الحكومة وتستنكر تصرفاتها . وبثت نشرتان بوجه خاص الفزع فى السلطة بسبب تهييجهما للرأى العام وتحمل النشرة الأولى العنوان التالى : «حالة قضية حرية الضمير الحقة فى الكومونولث الإنجليزى مع حكاية المستر جون بيدل الحقيقية وطريقة عذابه» أما الكتيب الآخر الذى أفزع السلطة فحمل العنوان التالى : «روح الاضطهاد تطل برأسها من جديد عن طريق محاولة تنفيذ قانون عقاب التجديف والهرطقة الذى تم إلغاؤه ضد المستر جون بيدل حامل درجة الماجستير فى الآداب» . وقد جاء فى الكتيب

الثانى أن الألفاظ التى استخدمها بيدل تغاير الألفاظ التى يعاقب عليها قانون ١٦٤٨ . فلو كانت الألفاظ التى استخدمها يحرمها القانون لأصبح من الممكن تجريم المسيحيين كافة ، فالمسيحيون قاطبة يقولون إن المسيح مات مما يعنى إنكار ألوهية المسيح لأن الله لا يموت . ومن ثم يصبحون مذنبين ويستوجبون الموت بمقتضى قانون التجديف . وكذلك استنكرت قطاعات فى المجتمع الإنجليزى الحكم على بيدل بالسجن على أساس أن الوثيقة التى استحدثها كرومويل فى ديسمبر ١٦٥٣ تكفل للناس حريتهم الدينية وتلغى قانون التجديف لعام ١٦٤٨ فالمادة ٣٧ من هذه الوثيقة الحكومية تنص على أن كل مسيحى ينبغى أن يتمتع بحماية معتقداته وحقه فى ممارسة ما يشاء من شعائر دينية حتى إذا كانت مختلفة عما درج الناس عليه مادام يؤمن بوجود الله عن طريق يسوع المسيح . كما أن المادة فى الوثيقة نفسها تنص على إلغاء القوانين كافة المكبلة للحريات الدينية السابقة إصدارها . ولا غرو أن ارتفعت أصوات المعترضين على سجن بيدل مؤخراً قائلة إن رأس الاضطهاد البرسبتيرى الساعى إلى فرض المذهب البرسبيترى على الجميع عنوة واقتداراً قد بدأ يطل من جديد ليهدد حرية العقيدة والضمير بل يهدد حكم كرومويل نفسه الذى يقوم على توفير الحرية الدينية لجميع الطوائف باستثناء الكاثوليك .

يقول الكتاب الأول «حالة قضية حرية الضمير الحقة فى الكومونولث الإنجليزى» الذى انتشر فى شوارع لندن والمجهول المؤلف : «إن بيدل رجل مسيحى فاضل ومسالم صحيح أنه أخطأ خطأ واضحاً فى فهمه للثالوث ولكن هذا لا يعنى أنه مهرطق أو مجدف . ويذكرنا الكتاب بأن المسيح كان لا يرد على الخطأ بالإساءة والاضطهاد بل بالمحاجّة الهادئة والموعظة الحسنة . وفى زنزانته أرسل بيدل عدداً من الخطابات إلى كرومويل ورئيس مجلس الدولة شارحاً فيها وجهة نظره الدينية وطالباً من الحكومة إطلاق سراحه وفقاً لأحكام الوثيقة التى تعمل بمقتضاها وقُرئت هذه الخطابات على أعضاء مجلس الدولة الذين آثروا تجاهلها والتغاضى عنها . ولكن موقفهم ما لبث أن تغير بعد أن شاهدوا إحدى النشرات الملتهبة تدعو إلى تهييج الخواطر بعنوان «اكتشاف قصير لنوايا سعادة كرومويل القائم بالحمية بشأن المناهضين المعمدانيين فى الجيش» ، واتهمت هذه النشرة كرومويل بالعمل على اجتثاث المعمدانيين من الجيش وأن ميثاق الحكومة الواعد بالحرية الدينية قد أصبح حبراً على ورق ووصفت كرومويل بالديكتاتور المخادع الذى يمارس القمع والاضطهاد مع الطوائف الدينية التى تخالفه فى العقيدة . ورد كرومويل على هذه الاتهامات بأنها باطلة ولا أساس لها من الصحة وأنه من الخطل كل الخطل الاعتقاد أن ميثاق حكومته يتضمن إلغاء قانون التجديف لعام ١٦٤٨ أو أن هذا الميثاق يوفر الحماية للمجدفين ويحول دون عقابهم .

وعندما مثل بيدل أمام محكمة الأولد بايلى التزم الصمت حتى تسمح له المحكمة باستدعاء محامين للدفاع عنه . فهددته المحكمة بتنفيذ عقوبة الصمت عليه . وهى عقوبة اقتضت طرح المتهم أرضاً ووضع أثقال ينوء بها على جسده ويبقى فى هذا الوضع حتى يتضور جوعاً إذا امتنع عن الرد على الاتهامات الموجهة إليه على أى نحو شاء بنعم أو لا . وأمام هذا التهديد بالتعذيب رضخ بيدل لضغط المحكمة عليه مؤكداً براءته من التهم الموجهة إليه . وأيضاً أكد بيدل أن نصوص قانون

التجديف الصادر عام ١٦٤٨ لا تنطبق على حالته وأضاف أن ميثاق حكومة كرومويل ألغى العمل بمقتضى هذا القانون . ثم وافقت الحكومة على السماح لبيدل باستخدام المحامين للدفاع عنه . وأودعته سجن نيوجيت لحين عقد محكمة الأولد بايلى لجلستها القادمة . وبات من الواضح أنه حتى إذا أفرجت المحكمة عنه فإن البرلمان سوف يعود إلى القبض عليه . ولهذا سعى عدد من أتباع بيدل وأنصاره وأيضاً من المعمدانيين وبعض الطوائف الدينية الأخرى إلى الاجتماع بكرومويل ومجلس الدولة بهدف تقديم التماس للدفاع عنه . ورغم اعتراف المدافعين عن بيدل بأنهم يختلفون معه فى عدد كبير من النقاط الدينية الجوهرية فإنهم موقنون من تعمق دراسته فى الكتاب المقدس وتعقله ورجاحة عقله ومن طبيعته الهادئة المسالمة . ومن ثم فإنهم يرون أن من حقه أن يتمتع بالحرية الدينية التى ينص عليها ميثاق الحكومة . فرد عليهم كرومويل بأن هذا الميثاق لم يكن مقصوداً به حماية المجدفين من العقاب الواجب إنزاله بهم . وأنحى عليهم باللائمة لأنهم يدافعون عن رجل ينكر ألوهية المسيح ويعتبره مجرد إنسان . والجدير بالذكر أن تاجراً شاباً ثرياً يدعى توماس فيرمين دفع أتعاب المحامى المدافع عن بيدل . وقد أصبح هذا الشاب فيما بعد واحداً من زعماء المذهب اليونيتارى أو المذهب التوحيدى الذى ينكر التثليث . ويقال إن كرومويل غضب من هذا الشاب لوقوفه بجانب بيدل وأنه قال له : لا تحسب أننى سأظهر الشفقة نحو رجل ينكر مخلصه ويسبب إزعاجاً للحكومة . لكن هذا لم يثبط من همة المدافعين عن بيدل الذين أذاعوا بيانهم فى كل أرجاء لندن . ولم يمض على هذه الحادثة بضعة أيام حتى ظهرت نشرة أخرى مجهولة المؤلف تحت عنوان «الرجل الذى يطلق عليه اسم القائم بأمر المحمية» ويعنى به كرومويل الذى أقام نظام المحمية الذى حكم إنجلترا بمقتضاه من عام ١٦٤٩ حتى ١٦٦٠ . وتتهمه النبذة بأنه خدع شعبه وضلله وسلبه حقوقه وباختصار بأن حاميها حراميها . وتهاجم النبذة كرومويل لاستهانته واستخفافه بالالتماس المدافع عن بيدل ولأنه ترك بيدل فى السجن ومنع الزيارات عنه كما ترك مؤلفاته تحرق وصاحبها ينتظر صدور الحكم بإعدامه فى أية لحظة .

ويجدر بالذكر أن أنصار بيدل تمكنوا من تأليب قطاعات كبيرة من الرأى العام ضد كرومويل وحكومته لدرجة أنذرت بتفجر الموقف مع اقتراب موعد تقديمه إلى المحاكمة . واستفز هذا الجو المشحون كرومويل فلم يطق صبراً ولم ينتظر حتى تفرغ المحكمة من إجراءات محاكمته وآثر أن يتولى بنفسه النظر فى القضية ثم أصدر أمره بنفى بيدل مدى الحياة تحت حراسة مسلحة فى جزر سكيلى التى تبعد عن جنوب إنجلترا بنحو أربعين ميلاً . ولكنْ سجانوه لم يسيئوا معاملته قط بل سمحوا له بالقراءة والكتابة كما أجروا عليه راتباً مجزياً ينفق على معاشه منه . وبهذه الحيلة الماكرة استطاع كرومويل أن يتخلص من المأزق الحرج الذى وجد نفسه فيه فلو أن المحكمة أدانته لحكمت عليه بالإعدام ، الأمر الذى سوف يثير مشاعر الغضب على حكمه ولو أنها برأته لما وافقها البرلمان على ذلك وتدخل لإدانته كذلك . فضلاً عن أن كرومويل أراد أن يتحاشى مناقشة الجهات القانونية لموضوع بالغ الحساسية وهو أن ميثاق حكومته قد ألغى بالفعل قانون التجديف لعام ١٦٤٨ وجعله حبراً على ورق ؛ وهكذا استطاع كرومويل بنفى بيدل أن يتجنب إغضاب المتدينين والمتسامحين على

حد سواء . والجدير بالذكر أن كرومويل رغم ديكتاتوريته كان يمقت الاضطهاد الدينى ويجنح بطبيعته إلى التسامح ولا يريد أن يجعل من بيدل شهيداً . وكان كرومويل رغم نزوعه إلى التسامح لا يوافق على تطرف بيدل وغلوائه . ولم يسكت أنصار بيدل على نفيه فقد ظلوا يعملون من أجل حصوله على حريته وطالبوا بعودته من منفاه . ونشر هؤلاء الأصدقاء عدداً من النشرات والنبذات المؤيدة له . ومن ناحيته ناشد بيدل كرومويل أن يعفو عنه ولكنه رفض إجابته إلى طلبه . ولما شعر كرومويل أن الرأى العام قد بدأ ينسى قضية بيدل أمر بعودته من منفاه إلى أرض الوطن بعد أن نجح فى تقليم أظافره . وبعد عودة عائلة ستيورات إلى الحكم عام ١٦٦٠ واشتداد ساعد العناصر المحافظة وانحسار المد الثورى البروتستانتى استخدمت الكنيسة الأنجليكانية عضلاتها وفرضت عن طريق إصدار ما يعرف بقانون الوحدة لعام ١٦٢٢ كتاب الصلوات الموحد على المنابر الكنسية فى إنجلترا كافة وحرمت على القساوسة الوعظ خارج هذا الكتاب . وبعد إصدار قانون الوحدة أصبح مجرد الخروج على رأى الجماعة شيئاً لا يمكن السكوت عليه أو السماح به . ولم يمض شهران على صدور قانون الوحدة حتى اقتحم عملاء الملك تشارلز الثانى بيت بيدل وهو يؤم بعض أصدقائه فى الصلاة وألقوا القبض عليهم وقدموهم إلى المحكمة التى وقعت عليهم الغرامات . ولم يكن بيدل وحده ضحية هذا الجو المكبل للحريات الدينية . فى تلك الفترة زجت السلطات فى السجن بآلاف المنشقين على الكنيسة الأنجليكانية مثل طائفتى البرسبتيريين والكويكرز حيث مات كثير منهم وحكمت المحكمة على بيدل بدفع غرامة قدرها مائة جنيه لم يكن فى مقدوره دفعها فأودع السجن فى ظروف بالغة السوء الأمر الذى أصابه بمرض عضال فتك بحياته عام ١٦٦٢ وهو فى السابعة والأربعين من عمره . وبموته اندثرت الصوصانية فى إنجلترا .

٤

مذهب الهادمين فى إنجلترا

ظهرت فى منتصف القرن السابع عشر وبالذات فى الفترة بين ١٦٤٩ و١٦٥١ طائفة مسيحية تعرف بطائفة الهادمين ronters تعارض النظام الملكى وتدعو إلى حرية العقيدة وتوسيع نطاق حق الانتخاب. ووجدت هذه الجماعة أنصاراً لها فى الجيش. ولكن مذهب الهادمين اختفى من إنجلترا بزوال حكم كرومويل وعودة الملكية إلى إنجلترا. وقد اتسمت هذه الجماعة بشدة التعصب ودعوتها إلى الإنحلال الخلقى متشبهة فى ذلك بجماعة الأنتيمونيين التى ظهرت فى القرون الأولى من نشأة المسيحية. ذهبت جماعة الهادمين إلى أنه لا جناح على الإنسان من ارتكاب الموبقات لأنها لا تستطيع أن تلوث روحه. يقول لورانس مكدرسون وهو واحد من أهم أتباع جماعة الهادمين إنه انتهك القانون فى عدد كبير من الأمور الجوهرية (باستثناء ارتكاب جريمة القتل) من منطلق أن كل الأشياء التى صنعها الله طيبة وأنه لا يوجد شىء اسمه السرقة أو الكذب أو الغش فهذه الأشياء تعتبر هكذا لأن الإنسان يراها كذلك. وتذهب جماعة الهادمين إلى أن الملكية الفردية هى التى تعلم الإنسان السرقة فلو كانت كل الأشياء على المشاع لما فكر فى السرقة. والجدير بالذكر أن جماعة الهادمين تشبه فى اتجاهاتها الشيوعية جماعتين أخريين هما جماعة الذين يجعلون «عاليها واطيها» Levellers و«جماعة الحفارين» Diggers الذين قاموا عام ١٦٤٩ باحتلال جبل القديس جورج فى منطقة «سرى» فى ضواحى لندن وبدأوا يحرثون الأرض ويزرعون فيها الخضروات لأن الله كما يقول جيرارد ونستانلى فى كتاب له بعنوان «الذين يجعلون عاليها واطيها» جعل الأرض مشاعاً للجميع. ومن الواضح أن تسميات «الحفارون» و«الهادمون» و«الذين يجعلون عاليها واطيها» تسميات أطلقها عليهم شانئوهم للحط من شأنهم والتعبير عن شدة احتقارهم لهم. ولم يكتم كرومويل احتقاره لهم حين قال: «ألا يميل المبدأ المنادى بجعل عاليها واطيها إلى المساواة بين جميع الناس بحيث يصبح الساكن فى مرتبة المالك ؟».

يقول «ونستانلى» - فى صدد الحديث عن فقر الفقراء : - «إن الإنجيل تنبأ بأن الفقراء سوف يرثون الأرض وإن هذه النبوءة سوف تتحقق بالفعل وليس على سبيل المجاز» . ويستنكر ونستانلى سخرية الناس بجماعة «الذين يجعلون عاليها واطيها» : (أنتم تهزأون من اسم الذين يجعلون عاليها واطيها ولكنى أقول لكم إن يسوع المسيح وهو روح المحبة القوية هو زعيم هذه الجماعة وقائدها) .

بالرغم من أن طوائف الصوصانيين والحفارين والذين يجعلون عاليها واطيها كانت قلة ضئيلة لا تشكل أى خطر سياسى على انجلترا فإنها كانت بكل تأكيد تهدد باقتلاع المسيحية من جذورها . حتى المجدفين والخارجين على الدين التقليدى أمثال الصوصانيين والمعمدانيين استشعروا خطر هذه الطوائف الداهم على الدين المسيحى . ولو أن قادة جماعتى الهادمين والذين يجعلون عاليها واطيها أمثال جون ليلبرن وريتشارد أوفرتون وجون وايلمان ووينستانلى وكلاركسون وأبيزر كوب كتب لهم النصر لانتهت الديموقراطية السياسية فى إنجلترا وزال النظام الطبقى والملكية الفردية وتهاوت أركان العقيدة المسيحية . كل ما فى الأمر أن راديكالية هذه الطوائف وثوريتها لو تحققت لكانت قمينة بأن ترفع شيئاً من المعاناة الاقتصادية عن كاهل الفقراء ولا غرو فقد كانت تحمل البغضاء والمقت الشديد للأثرياء والموسرين .

بادرت الحكومة الإنجليزية بالانقضاض على الطوائف المشار إليها حتى لا يستفحل أمرها . ولم يكن بمقدور هذه الحكومة أن تغض الطرف عن جماعة الهادمين بوجه خاص بسبب تحديها الصارخ واحتقارها الصريح للمجتمع وتعمدها التحرش بمشاعر عامة الناس وصدمها . ناهيك بانحلالها الأخلاقى واستغراقها فى ملذات الجسد على نحو ما فعل سلفهم من الأنتيمونيين وإخوة الروح الحرة . ولم تكن توجهات الهادمين العقائدية واحدة بل كانت شديدة التباين والاختلاف . ويكاد كل هادم بارز فى توجهه ومشربه يختلف عن بقية أقرانه فقد كان جوزيف سالمون وجورج فوستر ولورانس كلاركسون ووليم فرانكلين وجون رونتر أشد ما يكونون اختلافاً فى مفاهيمهم ولا يجمعهم شيء غير إيمانهم بالفوضى الدينية لدرجة أن البعض قسمهم إلى سبع شيع تختلف فيما بينها . وعلى أية حال لم ينضو الهادمون تحت أية تنظيمات كما أنهم لم يمارسوا العبادة فى أية كنائس أو دور عبادة .

والجدير بالذكر أن أبيزر كوب بز جميع أقرانه من الهادمين فى سوء سمعته . نشأ كوب نشأة بيوريتانية متزمتة وبلغ إحساسه بالذنب حداً جعله يفكر ليل نهار فيما يرتكبه يومياً من أوزار ثم يقوم بتدوين هذه الأوزار فى سجل ويذرف الدمع سخيناً لاقترافها . وفى سن السابعة عشر التحق كوب بجامعة أكسفورد لدراسة اللاهوت فيها . ولكنه اضطر إلى هجران دراسته النظامية بسبب نشوب الحرب الأهلية بين أنصار كرومويل وأنصار الملك تشارلس الأول . ووقف كوب بجانب البرلمان فى صراعه ضد النظام الملكى . وفى حياته الباكرة آمن كوب بالمذهب البرسبتيرى ، ولكنه ما لبث أن نبذه ليعتنق المذهب المعمدانى الذى أخفق بدوره فى إقناعه وإرضائه من الناحية الدينية . وكان كوب مالكاً لناصية الخطابة بدليل أنه تحدث فى زهو عن قدرته على تحويل نحو سبعة آلاف شخص إلى المذهب المعمدانى قبل أن ينبذ هذا المذهب ويتحول إلى الإيمان بمذهب الهادمين الذى ظهر فى

إنجلترا فجأة عام ١٦٤٠ أى فى العام نفسه الذى تم فيه إعدام الملك تشارلس الأول . وفيما يلى ظروف تحوله إلى مذهب الهادمين . فقد سمع ذات يوم دوى الرعد وشاهد ضوءاً مبهراً كضوء الشمس وأحس بالفرحة الغامرة تجتاح روحه فارتعدت فرائصه وتصبب جسده بالعرق وصرخ بصوت عظيم : «إلهى ماذا تريد منى ؟ » فأجاب الرب بأنه سوف يصطفيه فى فردوس السماء بعد أن يدخله فى جوف الجحيم حيث وجد كوب نفسه تحيطه الشياطين ويعتريه الرعب والفزع . غير أنه رأى شرارة متقدة من النار ظلت تكبر وتكبر حتى تحولت فى النهاية إلى ذى الجلال الذى باح له برسالة الأنتيمونيين . وفحواها أن موت المسيح حرر الإنسانية من الخطايا وأن الله يسكن فى جميع البشر . وأن استغراق الإنسان فى ملذات الجسد وشهواته لا يدنس الروح وأن المسيح سوف يخلص البشر عن بكرة أبيهم باستثناء الأثرياء والموسرين . ولا غرو فقد كان شديد العطف على الفقراء ويمقت الأغنياء مقتاً لا مزيد عليه . يقول كوب : «إنه لم تكد تمضى على رؤياه أربعة أيام بلياليها حتى تلقى أمراً من الله بأن يتوجه إلى لندن ليبشر بالرسالة التى أوحى بها إليه» . ورغم أن هذه الرسالة كما رأينا دعوة فاضحة للانحلال والبذاءة والتجديف فقد صورها كوب على أنها وحى هبط عليه من السماء . واللافت للنظر أن مقته للطبقة الموسرة جعله يهاجمها بضراوة ويصك أسنانه فى وجوه من يقابلهم فى الشارع من الأغنياء وينذرهم بقرب الساعة التى يأتى إليهم فيها الله المنتقم الجبار أو الهادم الأعظم . ومن هنا جاءت التسمية «من يجعلون عاليها واطيها» . وكان من عادته - كما يشهد بذلك بعض عارفيه فى أكسفورد - أن يلقى مواعظه وقد تجرد من كل ثيابه ويتفوه بتجاديفه وبذاءاته أثناء النهار فإذا جاء الليل انصرف إلى معاقرة الشراب ومضاجعة البنات اللاتى جئن للاستماع إلى مواعظه وهن عرايا كما ولدتهن أمهاتهن . وألقت السلطات القبض عليه وزجت به فى السجن لمدة ثلاثة شهور ونصف . وفى لندن التقى كوب بلورانس كلاركسون الذى صادف هوى فى نفسه وكونا جماعة شهوانية وشبقية من الهادمين أسموا أنفسهم جماعة «جسدى الوحيد» . وفى عام ١٦٥٠ ذكر البعض أن كوب الذى يتزعم هذه الجمعية الشبقية سكر حتى الثمالة وأخذ لمدة ساعة كاملة يتجشأ لعناته وبذاءاته وسفالاته التى تتعارض تماماً مع الدين المسيحى . ويقال إنه فى تلك الليلة عاد إلى منزله بصحبة اثنتين من مريداته . ويقال أيضاً إنه كان يحلو له فى العادة أن يمارس الجنس مع امرأتين فى الوقت نفسه وعلى الفراش نفسه .

كان كوب بليغاً فى وعظه الذى امتزجت فيه هلوسة المتصوفين براديكالية الثائرين . فقد دعا إلى الإيمان بوحدة الوجود وبحلول الله فى البشر وإلغاء الملكية الفردية فضلاً عن دعوته إلى التهتك الخلقى بحجة أن الله وضع فينا روحاً نقية لا تؤثر فيها الشهوة أو دنس الجسد . وفى أواخر ١٦٤٩ ألف كوب كتاباً من جزءين بعنوان «رعد طائر من اللهب» ويتضمن الجزءان تحذيراً موجهاً من الله إلى جميع العظماء فى الأرض بأن ساعة حسابهم والانتقام الإلهى منهم قد اقتربت وأن الله فى طريقه إلى الأرض ليساوى عاليها بواطيها ، ويزلزلها من تحت أقدام الأقوياء والأثرياء وينشر العدل والمساواة بين الناس ويثأر لرجال الجيش الذين حكم عليهم بالإعدام بتهمة التمرد لأنهم من أتباع طائفة الهادمين . ورغم فجره وثوريته الواضحة كان كوب مسالماً بطبعه ينفر من استخدام العنف

ويؤثر حياة الدعة والملذات ومضاجعة النساء . ولم ير فى هذا الفجور أى وزر فالوزر الحقيقى فى نظره يكمن فى الجاه والثروة والسلطة وسلب الفقراء من ثمرة كدحم . وفى الهجوم الذى شنه كوب على رجال الكهنوت نراه يذهب إلى أن الله أمرهم بالامتناع عن كى المجدفين بالنار ودمغ أجسادهم بحرف يدل على تجديفهم . ويبرر هذا بقوله إنهم لا يصلحون للحكم على أى إنسان بأنه خير أو شرير ومجدف أو غير مجدف لأنهم لا يخدمون المسيح لذاته بل يخدمونه لقاء الأجر الذى يتقاضونه من الكنيسة ، ومن ثم فهو يرى أنهم - رغم علمهم - لا يفهمون المعنى الحقيقى للخطيئة . ولاشك أن كوب قلب المقاييس والقيم الدينية التقليدية رأساً على عقب عندما اعتبر الخير شراً والشر خيراً والتجديف حقاً والحق تجديفاً والظلام نوراً والنور ظلاماً . وأيضاً فى الجزء الثانى من كتابه «رعد طائر من اللهب» يحذر كوب الأغنياء من أن الهادم الأعظم سوف يتسلل إليهم ملوحاً بسيفه مثلما يتسلل السارق فى الليل ويقول لهم : «سلموا حوافظ نقودكم . سلموها أيها السادة . سلموها وإلا قطعت رقابكم» كما يأمرهم بتسليم أموالهم وما يملكون إلى العجزة والمقعدين والبرص والمومسات وحثالة المجتمع . وكذلك بشر كوب بأن طريق الخلاص يكمن فى انتهاك الواجبات العائلية وصرح بأن الله الذى يسكن فيه يملؤه بالفرحة والجمال ناهيك بجمال المحظيات وبالفرحة بالجوارى اللائى ليس لعددهن حصر . ويكشف كوب عن نزعته وأحلامه بإقامة مدينة فاضلة أو يوتوبيا يسودها الانحلال والتهتك والملكية المشتركة للثروة حين يقول : «أما نحن الذين نسمع بشارة الرسول فسوف نتقاسم جميعاً فى ملكية جميع الأشياء . . سوف نشترك فى أكل خبزنا بقلب واحد . وسوف ندور على كل بيت لنأخذ الخبز من عنده ونعطيه ممن ليس عنده» . والجدير بالذكر أن وينستانلى يدين بالمبادىء نفسها ويعبر عن الأفكار عينها . ورغم غرابة كوب وشذوذه فإن حلمه بإقامة عالم مثالى أو مدينة فاضلة لم يكن بالأمر الجديد على الخارجين على الدين المسيحى التقليدى . فقد انتشرت فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر هرطقة مماثلة تعرف بالروح الحر التى انتقلت عن طريق المهاجرين من كل من هولندا وألمانيا إلى إنجلترا فى عهد الملكة إليزابيث ، فقد اعتنق هؤلاء المهاجرون هرطقة هندريك نيكولاس المعروفة بهرطقة عائلة المحبة التى ترجمها كريستوفر فيتيل - أحد أتباع نيكولاس - إلى اللغة الإنجليزية . ويعتقد البعض أمثال هنرى أنيزورت وإدموند جيزوب أن العالم لن يرى هرطقة فى مثل تجرؤ وفداحة عائلة المحبة التى سبق لنا الإشارة إليها . وقد تأثر كوب وأتباعه من الهادمين بهرطقات عائلة المحبة . وفى عام ١٦٤٩ اشتد ساعد جماعة الهادمين نتيجة إعادة طبع أربعة مؤلفات لهندريك نيكولاس مكتوبة باللغة الإنجليزية .

والذى لا ريب فيه أن إلغاء المحاكم الكنسية التابعة لسلطة الكنيسة الإنجليكانية قبيل منتصف القرن السابع عشر شجع على انتشار الملل والنحل وعلى الخروج على الأعراف الدينية والدعوة إلى الانفصال عن الكنيسة . واستاءت العناصر المحافظة فى المجتمع الإنجليزى من تكرار التجرؤ على الكنيسة فذهب بعضهم إلى أن جماعة الأنتمونيين وعائلة المحبة ألد أعداء الحكومة المدنية وأن سعيهم للإطاحة بسلطة الكنيسة ليس إلا محاولة لنسف سلطة البرلمان والنظام الملكى . كما أن القضايا الدينية التى يثيرها الخارجون على المسيحية تخفى فى طياتها أبعاداً اجتماعية وسياسية . وهذا ما ذهب إليه الواعظ توماس كيس فى الخطبة التى ألقاها فى مجلس العموم عام ١٦٤٧ . فقد رأى

كيس أن حرية الخروج على الأعراف الدينية سوف يفضى فى نهاية الأمر إلى التمرد على سلطة البرلمان والملك وأن حرية الضمير سوف تؤدى إلى الانحلال وأن تمشى النساء على حل شعرهن . ويبدو أن كيس كان على حق فى تحذيره إذ لم يمض عام واحد حتى قام بعض أفراد جماعة الهادمين داخل الجيش الإنجليزى بالتمرد الأمر الذى انتهى بالحكم عليهم بالإعدام . ولكن لم يكد عام آخر يمر على هذا التمرد العسكرى حتى تمكن الجيش من الإطاحة بالملك تشارلس الأول وإعدامه . وفى هذا الجو المضطرب نادى الحفارون والهادمون وغيرهم بالحب الطليق من جميع القيود واشتراك كل الناس فى الثروة القومية . كما احتدمت الخلافات الدينية بين النحل والملل الأمر الذى ساعد بطبيعة الحال على الخروج على الأعراف الدينية فنادى البعض بإزاحة رجال الأكليروس من منابر الكنائس بحيث يتولى أناس عاديون مهمتهم فى الوعظ والإرشاد . ويقول توماس إدواردز الباحث البرسبتيرى فى الهرطقات والتجاديف التى انتشرت فى إنجلترا عام ١٦٤٦ إن كثيراً من مظاهر الفوضى الدينية ترجع إلى تمكين الميكانيكيين والحدادين والترزية وصانعى الأحذية والبائعين المتجولين والنساجين وكذلك النساء من الوعظ فوق المنابر وتعميد المسيحيين . وفى حين يذهب أتباع كالفين إلى أن الله يصطفى بعض عباده الصالحين ويمنحهم الخلاص والحياة الأبدية نرى أن الهادمين يذهبون إلى أن المسيح بموته خلص جميع الآنام وأنه ليس من المعقول أن يقصر الله رحمته على البعض دون الآخر لأن رحمته اللانهائية تتسع لجميع البشر الذين ينعمون بحبه سواء كانوا أخياراً أم أشراراً صالحين أم طالحين ، والجدير أن روجر وليامز ألف كتاباً عام ١٦٤٤ أمر البرلمان بإحراقه جاء فيه «أن التجديف أمر يخص ضمير الفرد ومن ثم فليس من حق القاضى أن يعاقب عليه أو على إنكار الإنجيل أو حتى إنكار الله نفسه» . وليس أدل على أن مذهب الهادمين كان له جانبه السياسى من أن قادتهم أمثال جوزيف سالمون وكلاركسون وكوب رأوا فى سقوط الملكية الإنجليزية بوادر التغير الاجتماعى الذى سوف يقلب حياة المجتمع الإنجليزى رأساً على عقب . ولم يرض الهادمون بسقوط الملكية وتحويل إنجلترا إلى نظام جمهورى تحت حكم كرومويل لأن كرومويل كان لا يقل فى طغيانه واستبداده عن الملوك السابقين كما أن النظام الجمهورى الجديد الذى سيطر عليه قادة الجيش أعلى من شأن الملكية الفردية وأبرز أهمية الثروة . ولهذا نرى واحداً من زعماء الهادمين يشكو قائلاً : «لقد كان الملك واللوردات وأعضاء مجلس العموم فيما مضى يحكموننا ونحن الآن يحكمنا قواد الجيش والمحاكم العسكرية ومجلس العموم . فأين يا ترى الفرق بين كلتا الحالتين !؟»

لقد كان الهادمون يحلمون باستشراف مجتمع جديد ينهض على أنقاض النظام الملكى المنهار . . مجتمع تسوده الديموقراطية وتؤول فيه مقاليد الحكم إلى الشعب ويتمتع فيه الجميع بالحريات المدنية والدينية فإذا بالحرب الأهلية فى إنجلترا تتمخض عن نظام جمهورى لا يقل فى بطشه وجبروته عن النظام الملكى البائد . ويجدر بالذكر أن أنصار جماعة الهادمين فى الجيش كانوا من الجنود والرتب الدنيا ممن ينتمون إلى طبقات فقيرة . وكان الأمل يداعبها أن تساعدها التحولات الاجتماعية التى أطاحت بالملك تشارلس الأول على تحقيق العدالة والمساواة وأن ترث الأرض وما عليها بعد طول ظلم ومعاناة . ومن ثم نرى أحد الهادمين وهو ريتشارد أوفرتون يؤكد بمنتهى الثقة أن الفقراء سوف ينتصرون لا محالة على الأغنياء وأن الضعفاء سوف يتغلبون على الأقوياء . غير أن هذا

الحلم سرعان ما تبدد أمام الواقع السياسى ، فقد تبين بعد أن هدأ غبار المعركة أن النصر من نصيب الأقوياء والأغنياء فهم الذين استفادوا بالفعل من الإطاحة بالنظام الملكى . وعندما تأكدت العناصر الثورية كافة فى إنجلترا من اندحارها وأن الأثرياء هم ورثة النظام الجديد أصدروا بياناً يدينون فيه الحكومة وقادة الجيش ويطالبون بإلغاء مجلس الدولة الذى تتمثل فيه الدكتاتورية العسكرية التى وجدت مؤازرة من مجلس العموم الذى يسيطر عليه قواد الجيش . واتهم مجلس الدولة الهادمين بالتمرد والخيانة . وفى اليوم التالى ألقى كرومويل القبض على ليلبرن وأوفرتون مع اثنين من أعوانهما وزج بهم فى سجن البرج التاريخى بلندن . ولكن هذا لم يمنعهم من مواصلة الكفاح من داخل السجن فى سبيل الدعوة إلى مذهبهم . وانتهى الأمر بقيام الهادمين بتمرد عسكرى تصدى له كرومويل بكل شدة وحزم فنجح فى قمعه وإلحاق الهزيمة بالمتمردين . وهكذا فقدت جماعة الهادمين قوتهم العسكرية داخل الجيش دون أن يعنى هذا نهاية دعوتهم .

وعندما خاب سعى الهادمين لتغيير واقعهم الاجتماعى والسياسى لم يجدوا ملاذاً لهم غير عالم دينى طوبوى تصوروا فيه أن المسيح سوف يخلف الملك المخلوع تشارلس الأول فى حكم البلاد . وزاد من لهفتهم على الهروب من بؤس واقعهم تلك الهزيمة العسكرية التى منى بها أنصارهم داخل الجيش وذلك الشتات الذى أصاب رفاق طريقهم من الحفارين . والجدير بالذكر أن جون فوكس بدأ يمارس نشاطه عام ١٦٤٩ - وهو العام الذى أعدم فيه الملك تشارلس الأول - داعياً إلى مذهبه الجديد المعروف بمذهب الكويكرز . وفى تلك الفترة أيضاً ظهرت جماعة شديدة التعصب تعرف بجماعة المؤمنين بالملكية الخامسة ويعنون بذلك أن المسيح سوف يأتى ليحكم لمدة ألف عام . وهم يعتبرون حكمه أو إمبراطوريته الخامسة فى الترتيب لأنها تجىء بعد أربع إمبراطوريات غابرة هى الأشورية والفارسية والإغريقية والرومانية . وفى بادىء الأمر أيد أعضاء هذه الجماعة أوليفر كرومويل فى صراعه ضد الملك تشارلس الأول فلما كتب لكرومويل النصر اتضح لهم أنه لن يحقق لهم أحلامهم الدينية الطوبوية فانقلبوا ضده وثاروا عليه مرتين فى عامى ١٦٥٧ و ١٦٦١ ، ولكن السلطات تمكنت من قمع ثورتهم وقامت بقطع رؤوس زعمائهم . وبعد ذلك اختفت جماعة المؤمنين بالملكية الخامسة من الوجود .

نعود إلى جماعة الهادمين فنؤكد أنها جماعة دينية ثورية رفضت الخضوع لأية سلطة أخرى غير حدسهم ومشاعرهم . كما أنهم انتهجوا نهجاً لا عقلانياً وسعوا إلى تحويل انحلالهم وفجورهم وجنونهم وسلوكهم المناهض للمجتمع إلى مذهب دينى . ورغم أنهم ضلوا الطريق فمن المؤكد أنهم كانوا يحلمون بإقامة مجتمع طوبوى يختفى منه الفقر والشقاء الإنسانى . هذا على الرغم من أنهم درجوا على تدخين التبغ أثناء الوعظ والأكل بنهم شديد وممارسة الجنس بشراهة أشد ومعاقرة الخمر بدون ضابط والإفراط فى البذاءات والشتائم واللعنات . وعندما تلقى الهادمون الضربة العسكرية القاصمة على يدى كرومويل فقدوا طاقتهم الثورية . ومن ثم اتجهوا إلى الصوفية وحذوا حذو جماعة عائلة المحبة التى آمنت بأن الله الحالّ فى الكون هو القوة المحركة له .

اتسم الهادمون دون غيرهم من الطوائف الراديكالية التى ظهرت آنذاك (أمثال أتباع الملكية

الخامسة وعائلة المحبة والذين يجعلون عاليها واطيها والحفارين والبهمينيين والكويكرز وغيرهم) بالنزوع إلى التهتك والفجور . فى حين انتهجت الطوائف الأخرى المشار إليها المواضعات الأخلاقية التقليدية السائدة . وإلى جانب التهتك اتسمت آراء الهادمين بالتجديف الذى يصدم المشاعر ويؤذيها . ولكن تجديفهم ينهض على الحدس والعاطفة بعكس تجديف الصوصيان الذى كان ينهض على العقل . ولم يشعر الهادمون بأدنى خجل من الإتيان بالأفعال المنافية للأخلاق أو بممارستهم للفجور فهم يذهبون إلى أن الإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئاً بل هو من صنع الله عز وجل . ودعا الهادمون إلى مذهب الحلول . يقول جون هولاند الذى عرفهم عن كثب فى هذا الصدد إنهم آمنوا أن الله موجود فى ورقة الشجر مثلما هو موجود فى الملائكة . ويضيف أنه سمع أحد الهادمين يقول : «إن الله موجود فى الخليقة وليس خارجها . ومن ثم لا ينبغى على الإنسان أن يصلى لله بل أن يصلى إلى الله الحالّ فيه» . وأيضاً سمع جون هولاند شخصاً آخر من الهادمين يقول : «إنه إذا كان الله موجوداً فهو موجود فيه . وكذلك أكد جاكوب بوثيوملى أن الهادمين يؤمنون بحلول الله فى الخليقة وأن أحدهم قال أمامه : «إنه يرى الله فى كل زهرة وفى الإنسان والحيوان والسمك والدواجن وفى كل نبت أخضر» . بل إن بعضهم ذهب إلى حد الاعتقاد أن الله موجود فى الجماد . وذهبت قلة منهم مثل إدوارد هايد إلى القول : «إنه طالما أن الله موجود فى كل شىء فمعنى ذلك أن الخطيئة والشر يتمثلان فيه» . وعلى أية حال لم يكن هذا مفهوم غالبية الهادمين الذين نفوا الشر عن الله ونسبوا إليه كل ما هو مفيد وممتع وقالوا إن الله لا يمكن أن يكون موجوداً فى الأشياء المقيتة مثل الحروب والأمراض والثروة والظلم والكنائس . وهذا رأى ينطوى على التناقض لأن الهادمين يعتقدون بحلول الله فى كل شىء . والجدير بالذكر أن الهادم البارز لورانس كلاركسون رفض الإيمان بموسى والأنبياء والمسيح والرسل كما رفض الإيمان بالبعث والنشور . ويقول الهادم ريتشارد كوبين إنه إذا كان الله الكامل موجوداً فى كل إنسان فمعنى ذلك أن كل إنسان كامل ، الأمر الذى يعنى أنه لا يمكن أن يرتكب أية معصية . ويرى الهادم إبيز كوب أن الله يوجد فى أكثر الأشياء وضاعة مثلما هو موجود فى أكثرها قداسة» . ويضيف كوب إلى ذلك قوله : «إن روحى تسكن مع الله وتتعشى معه وفيه وتتغذى عليه ومعه وفيه» .

رفض الهادمون الكتاب المقدس والقواعد الأخلاقية التى أرساها والمتمثلة فى الوصايا العشر التى اعتبروها من صنع البشر وليست شيئاً منزلاً أو موحى به من السماء . واعتقد بعض الهادمين أن الكتاب المقدس لا يعدو أن يكون مجموعة من القصص المؤلفة والحكايات الرمزية ، كما ذهبوا إلى أن البعث روحى وليس بعثاً جسدياً وأن مجىء المسيح يرمز إلى خلاص جميع البشر . وقد أنكر الهادمون الآخرون الكتاب المقدس تماماً ولم يجدوا فى الحقائق الروحية أى معنى على الإطلاق . فضلاً عن أنهم نادوا بأن يهتدى الإنسان بالإله الذى يسكن بداخله وليس بالكتاب المقدس ، الذى اعتبروه ضرباً من السحر ونوعاً من الأدب الرومانسى . والرأى عند هؤلاء الهادمين أنه لا وجود للجحيم والفردوس والعالم الآخر وأن الخطيئة مجرد وهم يطوف بخيال الإنسان . يقول كلاركسون فى هذا الشأن «إن روحه سوف تعود بعد وفاته إلى الله لتتحد معه اتحاداً كاملاً» . وذهب نفر من الهادمين إلى أن الشيطان ليس بالشىء المقيت أو الشرير لأنه من صنع الله الكامل .

وسعى الهادمون إلى اقتلاع الشعور بالذنب أو الخطيئة من جذور النفس البشرية بقولهم : «إن الخطيئة شىء اخترعه الكهنة والقساوسة للتربح منه» . وأضافوا أن الأشرار هم الذين يتصورون وجود الشر فى العالم الخارجي . ويؤكد الهادمان كوب وكلاركسون فى هذا الصدد : «إن الأنقياء يرون كل شىء فى عيونهم نقياً» . كما يقول كلاركسون : «إن كل ما أعمل من فعل الله ذى الجلال الحالّ فيَّ» . ومن هذا المنطق حلل كلاركسون الشتائم واللعنات والسكر والزنا والسرقة . والرأى عنده أن كل الجرائم والموبقات حلال باستثناء القتل والتردد على الكنائس .

وذهب كلاركسون إلى أنه إذا أراد المرء أن يلتصق بالله فلابد له من التحرر الكامل من الخجل والعار والإحساس بالخطيئة فيضاجع كل نساء العالم وكأنه يواقع امرأة واحدة . وحتى يلتصق الإنسان بالله يتعين عليه أن يسكر حتى الثمالة ثم تمتد يده إلى أقرب امرأة ويجلسها على ركبتيه ثم يأتيها حتى يتكاثر العالم . ومن الواضح أن الهادمين أحاطوا الجنس بالجلال والتقديس فقد دعوا إلى ممارسته بالمئات أمام الملأ فى البيوت والحقول والشوارع . ورغم هذه الدعوة إلى الفجر والدعارة فقد اهتدى الهادمون إلى الدور المدمر الذى يلعبه الإحساس بالذنب فى نفوس المسيحيين وإلى أن الدين المنظم يؤدى إلى الكبت الجنسى والعقد النفسية وإلى تكبيل تلقائية الإنسان . ومعنى ذلك أن الهادمين توصلوا فى وقت باكر إلى ما توصل إليه سيجموند فرويد بعدة قرون . لقد رأى الهادمون أن النفس المسيحية ممزقة ومنقسمة على نفسها بسبب رزوحها تحت وطأة الذنب فأرادوا لها التخلص من عقدها كى تعيش فى وئام وسلام مع ذاتها .

لقد كانت الحانات والخمارات المكان المفضل لدى الهادمين الأمر الذى جعل ناقداً يصفهم بأنهم أظرف الشياطين . وكانوا لا يكفون عن الزراية بالدين فكثيراً ما كانت عقائرهم ترتفع بالغناء بأبذأ لغة وأفحشها على غرار نغمات الترتيل فى الكنائس وهم يصفقون ويصفرون ويتمايلون ويتراقصون . ويقول مخبر فى البوليس إنه شاهد بعض الهادمين يأكلون قطعة من اللحم البقرى فى إحدى الحانات فأخذها واحد منهم فى يده ثم قسمها إلى قطعتين قدم إحداها إلى زميل له وهو يقول : «هذا جسد المسيح خذه وكل» . ثم تناول ثالثهم قدحاً من الخمر وقذف به فى ركن المدفأة وهو يقول : «وهذا دم المسيح» . وفى أثناء تناولهم الغداء انتقل بهم الحديث إلى موضوع الله . فإذ بأحدهم يقول : «إنه يستطيع الذهاب إلى المبنى الخارجي الملحق بالحانة وأن يصنع إلهاً كل صباح باستجابته لرغبة الجسد» . وتدل كتابات الذكور من الهادمين أن الهادمات شاركن الرجال ملذات الجسد عن رضا وطيب خاطر . يقول كلاركسون : «أن أول موعظة هادمة سمعها فى حياته ألقتها امرأة من أتباع هذا المذهب تدعى مارى ليك» . وورد فى نبذة بعنوان «موعظة الهادمين الأخير» أن سيدة يشار إلى اسمها بحرفى آى . بى كانت فى مجتمع مختلط من الرجال والنساء وأنها توجهت إلى واحد من الرجال الموجودين وعرضت عليه أن تفك زراير لباسه . فلما سألها عن السبب أجابته هازلة بقولها «حتى نرتكب الرذيلة» فاستجاب لها الرجل وزنا بها على مرأى ومسمع من جميع الحاضرين . ويؤكد لنا جون هولاند أن الهادمات كن يشجعن الهادمين على ممارسة الانحلال الجنسى . غير أن هذه الإباحية الجنسية لم تكن فى صالح النساء بسبب عدم وجود وسائل منع الحمل

آنذاك ، الأمر الذى أدى إلى تكبيلهن بقيود الحمل والولادة فى حين ظل الرجل يتمتع بكامل حريته وانطلاقه . وقد قام واحد من زعماء طائفة الحفارين وهو جيرارد وينستانلى بتحذير النساء من مغبة هذا الانحلال الذى ينتهى بأن يترك الرجل المرأة دون أدنى تبعة عليه بعد أن يكون قد قضى منها مأربه . وتدل شهادة جون تيلور التى أدلى بها كتابة عام ١٦٥١ أن هرطقة الهادمين تفشتْ بين عدد كبير من الناس . ويؤيد صامويل شبارد هذه الشهادة ، ويبلغ تفشى مذهب الهادمين حداً جعل قاضياً اسمه دوراند هوثام يقول فى عام ١٦٥٢ لجون فوكس مؤسس مذهب الكويكرز : «إن كل قضاة إنجلترا عاجزون عن منع مذهب الهادمين من الانتشار فى كل مكان فى البلاد» . ويذكر المؤرخون أن هذا المذهب انتشر بين فقراء لندن أكثر من انتشاره فى أية بقعة أخرى من إنجلترا وأن انتشاره كان بين العمال غير المهرة والحرفيين والعاطلين عن العمل والمتشردين والمجندين السابقين وحثالة المجتمع بوجه عام . فلا غرو إذا وجدنا أحد زعماء الهادمين - وهو كوب - يعتبر نفسه أخاً للصوص والشحاذين والعاهرات . وعلى وجه العموم قام الهادمون فى السر بتشكيل مجموعات صغيرة العدد حتى يتجنبوا أن يلفتوا أنظار العالم الخارجى إليهم .

ويبدو أنه لم يكن من السهل على الأعضاء الجدد الانضمام إلى هذه التنظيمات السرية بدليل نأحد قادتهم وهو كلاركسون لم يتمكن من التغلغل فى أعماقهم إلا عن طريق أكثر من وسيط وأكثر من توصية . ويقدر الدارسون عدد الهادمين فى لندن بالألوف . ومع ذلك فإنهم لم يشكلوا قوة اجتماعية ذات خطر سياسى حقيقى رغم أنهم كانوا يحرضون زملاءمهم وأتباعهم على حل مشكلة الفقر عن طريق السطو والسرقة واستدانة المال من القادرين دون سداده .

اتسم الهادمون بشدة تعصبهم لأفكارهم الأمر الذى حدا معاصريهم أن يتحدثوا عنهم باعتبارهم طائفة دينية رغم كل ما أظهروه من تهتك وفجور . فقد وصفهم معاصر بأنهم أصحاب دين غير دينى ، كما أن كثيراً من الكتب التى تسجل معتقداتهم تحمل عناوين دينية مثل «إنجيل الهادمين» و«عقيدة الهادمين» . وذهب البعض إلى أن الهادمين ليسوا سوى امتداد للهرطقات الغنوصية التى أفرزها المسيحيون الخوارج فى وقت باكر . وعلى الرغم من أن الكويكرز والبرسبتيريين كانوا يحملون المقت الشديد للهادمين ويشمئزون من سفالتهم وانحطاطهم فقد أخطأ كثيرون من الناس عندما ظنوا أن طائفة الكويكرز فى أوائل ظهورها جزء من طائفة الهادمين ، وقد التقى جون فوكس - مؤسس طائفة الكويكرز - بنفر من الهادمين فى سجن كوفنترى فى نهاية عام ١٦٤٩ . ويقول فوكس : «إنه شعر بإعصار من الظلمة يجتاحه عندما قابلهم فى السجن . وعندما ادعوا أن الله حالّ فيهم سألهم إذا كانت السماء سوف تمطر فى اليوم التالى ولكنهم عجزوا رغم ادعائهم الألوهية عن التنبؤ بالجو فى الغد» .

ورغم وجود قسمات أساسية مشتركة بين أتباع الحفارين أمثال جيرارد ونيستانلى وأتباع مذهب الهادمين فإن ونيستانلى ساءه كثيراً أن يعتبره الناس واحداً من الهادمين . ولهذا نراه يهاجمهم حتى يبين أن هناك فروقاً بينه وبينهم منها أن ونيستانلى الذى آمن أن واجب الإنسان يقتضى منه أن يكسب قوته بعرق جبينه ، عبر عن احتقاره لجماعة الهادمين واتهمهم بالكسل والغش والتحايل على

الآخرين . فضلاً عن أن ونيستانلى تميز عنهم بحرصه على مراعاة القواعد الأخلاقية ورفضه الكامل لإباحية الهادمين وماديتهم . وعاب ونيستانلى على الهادمين استغراقهم فى الاستمتاع بالمأكل والشراب وأطايب الحياة والنساء إلى حد الإفراط كما عاب عليهم التصرف على نحو ما تتصرف الحيوانات . وذهب ونيستانلى إلى أن إفراط الهادمين فى الشهوات من شأنه أن يدنس معبد الجسد وسوف يجلب فى أعقابه «أحزان العقل» . وأضاف أن الانحلال الجنسى سوف يؤدى إلى تحطيم الروابط الأسرية وإلى انتشار المنازعات العائلية وتكبيل النساء بأعباء الحمل والولادة . ورغم سخطه على أفكار الهادمين فإنه لم يدع إلى قمعها . وقد ظهر تسامح ونيستانلى معها حين قال : «من كان منكم بلا خطيئة فليرم الهادمين بأول حجر» .

وفى يناير ١٦٥٠ أعيد نشر كتاب أبيزر كوب «الرعد الطائر الملتهب» بجزئيه رغم أن مؤلفه كان حبيساً فى سجن كوفنترى بسبب دعوته إلى مذهب الهادمين . ورغم أنه كان سجيناً فى كوفنترى فإن إدارة السجن كانت تجهل أن سجينها هو مؤلف الكتاب المشار إليه . كما أن مجلس العموم كان يجهل أن كوب نزيل سجن كوفنترى بدليل أنه أصدر أمراً بالبحث عنه بسبب إعادة نشر كتابه . وأمر مجلس العموم بضبط الكتاب وإحراق كل نسخه المضبوطة فى أى مكان فى جميع أنحاء البلاد وأن يقوم عشماوى بإحراق هذه النسخ أمام الملأ . ويبدو أن السبب فى عدم اكتشاف إدارة السجن ومجلس العموم لهويته يرجع إلى أن كوب انتحل اسم شخص آخر حتى لا يتعرف عليه أحد . وقد أطلق سراح كل من الهادمين كوب وجوزيف سالمون فى منتصف عام ١٦٥٠ . ويبدو أن الهادمين لم يكونوا على استعداد للشهادة والتضحية بحياتهم فى سبيل الاستمساك بمبادئهم . بل إنهم نبذوها وتخلوا عنها بسهولة عندما أخذت السلطات تشدد النكير عليهم . وساعدهم على التخلى بسهولة عن معتقداتهم فى الأوقات العصيبة عدم إيمانهم بالعالم الآخر وشدة حرصهم على الاستمتاع إلى أقصى حد ممكن بأطايب الحياة الدنيا . ويشهد على ذلك القاضى هوثام الذى أخبر فوكس عام ١٦٥٢ أن الهادمين بادروا بالانصياع لأوامر قضاتهم دون أن يثيروا أية متاعب مؤثرين الاحتفاظ بآرائهم لأنفسهم . ويبدو أيضاً أن الهادمين استخدموا فى التعبير عن أنفسهم أسلوباً لغوياً يتميز بالغموض والمجاز والتناقض حتى يتمكنوا من إخفاء حقيقة مقصدهم . وفى ١٦٥٠ أصدر الهادم كلاركسون بيانه الداعر بعنوان «النور والظلام واحد» قال فيه : «الشيطان هو الله والجحيم هو النعيم والخطيئة هى القداسة واللعنة هى الخلاص» فزاد هذا من غضب مجلس العموم على الهادمين فكلف فى العام نفسه لجنة تقصى لتتبع نشاط طائفة الهادمين وحبسهم ، كما أن المجلس أمر هذه اللجنة بإعداد مشروع قانون بهدف قمع مثل هذه التجديفات وتوقيع عقوبة الإعدام على مرتكبيها .

وبالإضافة إلى قانون التجديف لعام ١٦٤٨ شعر المجتمع الإنجليزى بحاجته إلى سن تشريع جديد يمكنه التصدى لتجديف الهادمين . فقانون ١٦٤٨ استهدف المجدفين الصوصيان . فضلاً عن أنه قانون واسع وفضفاض صنعه البرسبتيريون ويمكن تطبيقه على قطاعات كثيرة من الجيش والبرلمان الذى أصبح تحت سيطرة كتلة المستقلين . ولم يدر بخلد واضعى قانون ١٦٤٨ أنه سوف يتعين

مواجهة الخطر الجديد المتمثل فى مذهب الهادمين لأن نصوص القانون القديم لا تنطبق على هذا المذهب . غير أن القانون القديم تضمن فقرة واحدة تنص على معاقبة من ينكرون الوصايا العشر ويمكن تطبيقها على تجاديف الهادمين . ولكن هذه الفقرة لم تكن محكمة بالقدر الكافى إذ إنها أعطت المجدف فرصة للهروب من العقاب بأن خيرت المنكر للوصايا العشر بين التراجع أو الحبس . والجدير بالذكر أن أحد العوامل المهمة التى دفعت كتلة المستقلين فى البرلمان الإنجليزى إلى إيقاف العمل بقانون ١٦٤٨ أن إسكتلندا الخاضعة آنذاك للمذهب البرسبتيرى كانت فى حالة حرب ضد إنجلترا وتسعى ما وسعها السعى إلى الإطاحة بأوليفر كرومويل وإعادة الملكية إلى الحكم . واتهم رجال الدين الإسكتلنديون إنجلترا بالتسامح مع التيارات المهرطقة والمجدفة والامتناع عن اتخاذ الإجراءات المشددة ضدهم ، الأمر الذى أحرج كرومويل وأنصاره فى البرلمان وجعلهم يغالون فى إظهار غيرتهم على الدين ويبالغون فى الظهور بمظهر الحريص على حمايته والذود عنه . فلا غرو إذا رأينا كرومويل لا يمقت شيئاً مثل مقته للتجديف . ومن ثم فإنه لم يأل جهداً لاستئصال شأفته من المجتمع الإنجليزى ولفت النظر إلى خطره والدعوة إلى ضرورة معاقبته . ورغم تصريحات كرومويل المتشددة فإن البرلمان الإنجليزى الذى سانده صوت ضد مشروع قانون بإعدام أتباع مذهب الهادمين واكتفى البرلمان بمعاقبة الهادم بالحبس لمدة ستة أشهر ،كما أن البرلمان رفض اقتراحاً بمقاومة التجديف الصوصيانى بخرم لسان المجدف الصوصيانى ، بقطعة من الحديد المحمى . واكتفى البرلمان بتوقيع عقوبة الإعدام على الذين يتحدّون قراره بنفيهم خارج البلاد فيعودون إليها دون الحصول على إذن منه بذلك .فى ظل هذه الظروف أصدر البرلمان فى ٩ أغسطس عام ١٦٥٠ «قانوناً ضد مختلف الآراء الإلحادية والمجدفة والملعونة التى تلطخ شرف الله» . وكان هذا القانون يرمى فى الأساس إلى القضاء على تجديفات الهادمين دون سواهم . فهو لم ينص على معاقبة الخارجين على الخط المسيحى السائد أو الأصيل من أمثال أتباع عائلة المحبة أو أتباع هندريك نيكولاس أو طائفة الكويكرز التى سوف نتناولها فيما بعد أو المؤمنين بمجىء المسيح ملكاً متوجاً ليحكم الإمبراطورية الخامسة . ولكنه نص على عقاب من ينكرون الدين المسيحى من أساسه أو ما ينادون بتحويل الدين إلى مجموعة من الآراء الداعرة والفاجرة . ويجدر بالذكر أن الشاعر المعروف جون ميلتون أظهر مؤازرته لقانون ١٦٥٠ باعتبار أن التجديف ليس مسألة حرية ضمير ، بل انتهاك صارخ للدين . ومعنى هذا أن القانون الجديد لم يعتبر عائلة المحبة وأتباع هندريك نيكولاس والكويكرز والمؤمنين بالإمبراطورية الخامسة مجدفين ، فهو لم يستهدف غير الهادمين كما أسلفنا . وينص القانون الجديد على تحريم طائفة من الآراء من بينها اعتقاد الإنسان أنه الله أو مساو لله أو أنه يتصف بصفات الله أو اعتقاده بحلول الله فيه وعدم وجوده فى أى مكان خارج عن الإنسان ، أو القول إن اقتراف الذنوب ليس عملاً منافياً للأخلاق أو إن السماء هى الجحيم أو إن الخلاص هو اللعنة أو إنكار وجود مثل هذه الأشياء . وينطبق القانون الجديد أيضاً على من يذهب إلى أن البذاءة والسرقة والغش والخديعة ومعاقرة الخمر والدعارة والزنا واللواط والعلاقات الجنسية بين ذوى الأرحام ليست خطيئة أو فاحشة . كما أن القانون الجديد ينطبق على كل من يزعم أن ارتكاب هذه الأوزار من شأنه تقريب الإنسان من الله والبلوغ به إلى مرتبة الكمال ، وأيضاً على كل من يدعو إلى اقتراف جميع هذه

الموبقات دون ندم أو يقول إن الخطيئة وهم لا وجود له أو إن الله يوافق على ارتكابها . والغريب أنه في الوقت نفسه تقريباً الذى صدر فيه هذا القانون الجديد صدر قانون آخر يبيح الحرية الدينية . فلم يمض شهر واحد على صدور قانون التجديف الجديد حتى أصدر مجلس العموم فى سبتمبر ١٦٥١ قانوناً يعرف بقانون التسامح الدينى يكفل حرية العبادة لكل الطوائف والملل باستثناء أتباع المذهب الصوصيانى الذين استهدفهم قانون ١٦٤٨ والهادمين الذين استحدث المشرّع الإنجليزى قانون التجديف الجديد لعام ١٦٥٠ من أجلهم .

وفى اليوم نفسه الذى أصدر فيه البرلمان قانون التسامح الدينى أمر بالقبض على اثنين من أتباع مذهب الهادمين هما لورانس كلاركسون مؤلف كتاب «العين الواحدة» الذى كان السبب المباشر فى إصدار قانون التجديف الجديد لعام ١٦٥٠ وضابط جيش يدعى وليم رينبوا الذى تحول من طائفة «الذين يجعلون عاليها واطيها» إلى مذهب الهادمين . أما زعيم الهادمين كوب فقد كان آنذاك رهن السجن ينتظر مثوله أمام المحكمة . واستدعت اللجنة المعنية التى شكلها البرلمان لتقصى نشاط الهادمين كلاركسون للتحقيق معه . ولكنه رفض الإجابة عن أى سؤال يمكنه أن يكون سبباً فى توريطه أو الاشتباه فى أمره . غير أن اللجنة المذكورة ادعت بالباطل أن كلاركسون اعترف بذنبه ورفعت تقريراً بذلك للبرلمان فسارع البرلمان بإدانته وأمر بإحراق كتابه وسجنه لمدة شهر ثم نفيه بعد هذا على أن ينفذ فيه حكم الإعدام إذا عاد إلى البلاد . ولكن بطلان إجراءات محاكمته كانت السبب فى عدم تنفيذ عقوبة نفيه من البلاد . ولهذا تقرر إطلاق سراحه بعد أن أمضى أكثر من أربعة أشهر فى السجن . واكتفى البرلمان بمعاقبة المتهم الثانى وليم رينبوا بتجريده من رتبته العسكرية وطرده من الجيش .

وعندما جاء الدور لتحقيق اللجنة مع كوب ادعى أمامها الجنون وأخذ يكلم نفسه ويلقى بالفاكهة واللوز والجوز والبندق فى أرجاء الغرفة حتى يتحاشى توقيع العقوبة بموجب قانون ١٦٥٠ الذى استثنى المجانين من العقاب . ولكن هذه الحيلة لم تنطل على أعضاء اللجنة الذين أودعوه سجن «نيوجيت» . ووجد البرلمان أن التزامه بحذافير القانون لن يجديه فتيلاً ولهذا آثر أن يودعه السجن دون محاكمة أو حتى دون قرار برلمانى بإدانته كما أصدر أمراً بحرق كتابه «الرعد الطائر الملتهب» . وفى سجن «نيوجيت» استقبل كوب زواره فى صخب وعجيج ونجح فى إقناع بعض زملائه المساجين بمذهب الهادمين . ولكنه سرعان ما ضاق ذرعاً بقيود السجن فأعلن تراجعه عن أفكاره وكتب إلى السلطات يحتج على حبسه وينكر تهمة التجديف الملفقة ضده ويشكو مما لحقه من تشويه لسمعته . غير أن الحكومة لم تعبأ باحتجاجه .

وبعد أن ظل كوب أربعة عشر شهراً فى السجن نشر كتاباً بعنوان «الرجوع إلى الحق» التمس فيه من البرلمان العفو والسماح معلناً عن تخليه عن أفكاره المجدفة . ورغم هذا التراجع فقد ظل محتفظاً بثوريته الاجتماعية فقد آمن بأن الخطيئة الحقيقية تكمن فى النفاق وإلحاق الظلم بالفقراء والمساكين . وأكد كوب أن الدين الحقيقى يكمن فى العطف على المساكين وإطعام الجياع وكساء العرايا وتحرير الناس من الأغلال التى يرسفون فيها . وأيضاً طمأن كوب السلطات المسؤولة أنه فى صف الفضيلة

والأخلاق الحميدة . ولهذا قبلت هذه السلطات الإفراج عنه مقابل إلقائه موعظة فى بيرفورد يعلن فيها رجوعه عن الباطل وهدايته إلى الحق . ولم يقتنع أحد القساوسة الذين استمعوا إلى موعظته بصدقه وإخلاصه فكتب يقول : إن كوب استخدم فيها ألفاظاً معسولة ولكنها تخفى السم الزعاف فى طياتها . ولعلنا نذكر أن بيرفورد هى المدينة التى أخمد فيها كرومويل التمرد الذى شنته ضده جماعة «الذين يجعلون عاليها واطيها» .

ذهب الهادمون كما أسلفنا إلى الإيمان بحلول الله فى الإنسان الأمر الذى دعا بعضهم إلى الاعتقاد الحرفى بأنه مادام الأمر كذلك فإن الإنسان هو الله . وكان من بين الهادمين الذين آمنوا بصحة هذه المقولة إيماناً حرفياً صانع حبال فى لندن اسمه وليام فرانكلين تصادف أن ظهر تجديفه قبيل صدور قانون التجديف الجديد لعام ١٦٥٠ فاضطر المشرع إلى إضافة فقرة إلى القانون تعرف بفقرة فرانكلين . لم يبدأ فرانكلين حياته مجدفاً بل كان رجلاً تقياً ورعاً من أتباع الطائفة البروتستانتية المعروفة باسم المجمعيين (الكونجر يجيشنا لست) . وشاءت الأقدار أن ينتابه مرض عقلى . وما إن شفى منه حتى دخل فى روعه أنه الله والمسيح وأعلن ذلك التجديف للناس . وفى عام ١٦٤٩ انضم فرانكلين إلى مذهب الهادمين فهجر زوجته ليغرق حتى أذنيه فى الانحلال الجنسى . وكانت إحدى محظياته امرأة متدينة غريبة الأطوار اسمها مارى جادبرى تراءى لها أن المسيح ولد من جديد وتجسد فى شخص عشيقها فرانكلين . وقامت المرأة بإذاعة هذه البشارة بين الناس . وأراد أحد القساوسة أن يعيدها إلى صوابها فسألها إذا كانت علاقتها بفرانكلين حلالاً أم حراماً ؟ فردت عليه قائلة : إن آدم وحواء عاشا معاً عريانين فى براءة تامة دون أن يشعرا بالخجل من علاقتهما حتى عرفت الخطيئة طريقها إلى العالم . غير أن المسيح بمجيئه خلص البشر من هذه الخطيئة . ومن ثم فهى بلا خطيئة . بل إنها أطلقت على نفسها عروس المسيح زاعمة أنها على قدم المساواة مع الله . وفى أواخر عام ١٦٤٩ غادر فرانكلين وجادبرى لندن وتوجها إلى ريف ساوثهامبتون حيث استطاعا اجتذاب بعض التلاميذ والمريدين الذين آمنوا بأن فرانكلين هو المسيح ابن الله . وفى ١٦٥٠ ألقت السلطات القبض على جادبرى وعشيقها فرانكلين الذى آمن حرفياً بأنه المسيح . والغريب أن مريديه وأتباعه استمسكوا بضلالته أكثر من استمساكه بها . وقد بلغ إيمانهم به حداً جعلهم يعتبرون تاريخ ميلادهم هواليوم الذى آمنوا فيه بتعاليمه . وظل أتباعه لا يتزحزحون عن إيمانهم به حتى تخلى هو عن معتقداته وتنكر لها حتى يتجنب السجن . غير أن عشيقته مارى جادبرى لم تتخل قط عن إيمانها به . فزجت بها السلطات فى سجن «برايدويل» حيث قام حراسها على مدى عدة أسابيع بجلدها على نحو متقطع . ورغم أن فرانكلين تنكر لمبادئه فقد ألقت به السلطات فى السجن نفسه الذى وضعت فيه عشيقته المهووسة مارى جادبرى . كما أن السلطات تعقبت أتباعه . ورغم هذا فإن بعض الهادمين ظلوا سادرين فى غيهم دون أن يعبئوا بأوامر الحبس الصادرة ضد عدد منهم مثل سالمون وكلاركسون وفرانكلين . ولعل الكتاب الذى نشره جورج فورستر بعنوان «صوت البوق الأخير» أبلغ دليل على عدم اكتراث البعض بالسجن . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى إبراز الجانب الثورى الاجتماعى فى دعوة الهادمين . يقول فورستر فى كتابه إن الله هو أعظم الهادمين وأعظم من يجعل

عاليها واطيها . فهو سيقيم يسوع ملكاً على المدينة الفاضلة التى سوف يسودها النظام الشيوعى والعدل الاجتماعى بعد أن يطيح بالأغنياء ورجال الأكليروس والبرلمان وكل الطغاة والظالمين . وإلى جانب هذا ألف أحد الهادمين واسمه جاكوب بوثيوملى كتاباً بعنوان «الجوانب المضيئة والمظلمة فى الله» يناهض الثالوث ويؤمن بحلول الله فى الكون . والجدير بالذكر أن جاكوب بوثيوملى كان جندياً فى مدينة لستر قام الجيش بطرده بسبب ما تضمنه كتابه من تجديف فضلاً عن أنه عاقبه بقسوة بأن خرم لسانه بسيخ حديد محمى .

والجدير بالذكر أن الجيش كان يقسو على المؤمنين بمذهب الهادمين دون رحمة أو هوادة . حتى كروموبل نفسه رغم عزوفه عن الاضطهاد الدينى لم يتسامح مع أحد ضباط الجيش وأمر بطرده منه لأنه قال : إنه لا وجود للخطيئة فى حياة المسيح . وكانت إدارة الجيش تعذب الجنود المؤمنين بمذهب الهادمين بتعليقهم من الإبهام . وفى نهاية عام ١٦٥٠ قامت السلطات بشنق جندى اسمه دابليو سميث من رقبته لإنكاره ألوهية المسيح على نحو ما فعل أريوس . وأيضاً أغار البوليس بصفة منتظمة على الهادمين من المدنيين وألقى القبض على العشرات منهم وصدرت أحكام بالحبس والجلد على الذين ثبتت إدانتهم . ويقول المؤرخون إن عدداً كبيراً من أتباع مذهب الهادمين كان مصاباً بلوثة عقلية . وفى كثير من الأحيان وقعت السلطة العقاب عليهم بسبب خيلائهم وصلفهم إلى جانب بشاعة معتقداتهم .

وقد ألقت السلطات القبض على امرأتين قريبتين مختلتين تحملان الاسم نفسه وهو إليزابيث سوريل لتجديفهما على الثالوث وزعمهما القدرة على إحياء الأموات وتم القبض على أربعة من أتباعهما . ومن دلائل اللوثة التى انتشرت بين الهادمين أن أحدهم واسمه ريتشارد كنج ادعى عام ١٦٥١ أن زوجته الحامل على وشك أن تلد له الروح القدس ، وأن هادمة اسمها مارى آدمز حكم عليها بالسجن لادعائها بأنها سوف تلد يسوع المسيح وهو الادعاء نفسه الذى سجنت من أجله فى العام نفسه امرأة أخرى تدعى جوان روبينز . أضف إلى ذلك أن رجلين ادعيا فى عام ١٦٥١ أيضاً أنهما المسيح المنتظر وهما توماس تانى وروبينز زوج السيدة جوان الآنفة الذكر .

وفى مبدأ الأمر ألقى القبض على توماس تيلفورد باعتباره تابعاً للقريبتين اللتين تحملان الاسم نفسه إليزابيث سوريل . ولكن تيلفورد سرعان ما تحول من الولاء لهاتين القريبتين إلى الولاء لجون روبينز الذى زعم - شأنه فى ذلك شأن القريبتين سوريل - أنه قادر على إحياء العظام وهى رميم . بل إن لوثته فاقت لوثتهما عندما ادعى أنه أحيا قابيل وبنيامين ابن يعقوب والنبى إرميا من الأموات وخلصهم من ذنوبهم . ومن الغرابة بمكان أن نرى زميلاً لروبينز اسمه لودووك ماجلتون يشهد بأنه رأى بعينى رأسه روبينز يحيى الأموات . فلا غرو إذا رأينا أتباعه يعبدونه بتشجيع منه . ويزعم روبينز الفقيه فى الكتاب المقدس أن روح آدم تقمصته معلناً أنه رسم خطة للخروج من إنجلترا بجماعة تعدادها مائة وأربعة وأربعون ألف شخص وعن عزمه على التوجه بهم إلى جبل الزيتون فى أرض الميعاد قائلاً : إن مساعده يشوع جارمنت سوف يشق ماء البحر الأحمر مثلما فعل موسى بعصاه وأن السماء سوف تمطر منا مثلما فعلت من قبل . وفى مايو ١٦٥١ ألقت السلطات القبض

على روبينز وزوجته وأحد عشر تابعاً له وزجت بهم جميعاً فى السجن حيث أمضى روبينز عاماً سطر بعده خطاب تراجع واستغفار بعث به إلى كرومويل الذى سامحه وأفرج عنه .

وهناك مجدف آخر من أتباع روبينز يدعى توماس تانى زجت به السلطات فى سجن نيوجيت بسبب تجاديفه . كان توماس تانى صائغاً للمشغولات الذهبية قبل أن يتحول إلى مذهب الهادمين . ولكنه آثر أن يهجر عمله كى يبشر الناس أن الله كلمه شخصياً وأفهمه أنه يهودى وأوحى إليه أن يجمع اليهود ويعود بهم إلى أرض الميعاد ويعيد بناء الهيكل الذى تهدم . وادعى تانى أن الله أمره بتغيير اسمه إلى ثورو جون . ويخبرنا ماجلتون أن هذا الرجل قام بختان نفسه . فضلاً عن ادعائه عدة ادعاءات أخرى منها أنه الإيرل أف إسكس الوريث المنتظر لعرش إنجلترا . وكان يجوب الشوارع ويبشر بأعلى صوته بوصفه الحبر الأعظم لليهود وهيكل الله الحال فيه . ولكن الفترة التى قضاها فى السجن كانت كفيلة بإخراسه لعدة سنوات عاد بعدها عام ١٦٥٤ إلى سابق ترهاته فادعى أنه سليل الإمبراطور شارلمان والوارث لعرش فرنسا . وفى نهاية عام ١٦٥٤ قام بحرق الكتاب المقدس علناً وهاجم البرلمان ملوحاً بسيفه الطويل الذى يعلوه الصدأ أثناء مناقشته مصير جون بيدل وأخذ يضرب بسيفه القريبين من المداخل . ولكن الحراس استطاعوا السيطرة عليه وتقديمه إلى محكمة البرلمان . فبرر تصرفاته بأن الناس كانوا يتأهبون لرجمه بالحجارة بسبب قيامه بإحراق الكتاب المقدس . وعندما سئل عما حدا ه إلى إحراقه أجاب بأن الكتاب المقدس خدعه وأنه لا يعدو أن يكون حروفاً وعبادة أصنام وأكد أنه ليس «الحياة» أو «كلمة الله» . وقرر مجلس العموم إيداعه سجن جيت هاوس بسبب إشهاره السيف وحرقه الكتاب المقدس وإنكاره أن الكتاب المقدس حكمة الله . وبعد مضى بضعة أشهر فى السجن خرج توماس تانى ليجدد رسالته التى تتلخص فى عودة اليهود إلى أورشليم ولأن إنجلترا لم يكن بها يهود يتبعونه سافر الرجل بحراً إلى أمستردام بهولندا لكنه غرق فى الطريق إليها .

وكان لتانى صديق وضابط جيش يدعى روبرت نوردوود سار على درب الهادمين فأنكر خلود الروح والوجود المادى للجنة والنار كما رفض الإيمان بالبعث بطريقة حرفية . وبسبب تجديفه حاكمته محكمة الأولد بايلى بلندن عام ١٦٥٢ بمقتضى قانون التجديف الجديد الصادر عام ١٦٥٠ وحكمت عليه هذه المحكمة بالسجن مدة ستة أشهر . كما أن إحدى محاكم الجنايات حكمت على مجدف آخر اسمه ريتشارد فولكنر بالسجن لمدة ستة أشهر لأنه شرب نخب الشيطان تحية له وقال : «إن المسيح مخلصنا ابن زنا» .

وفى عام ١٦٥٢ اتهم البرلمان الإنجليزى رجلاً يدعى وليام إربرى بالإيمان بمذهب الهادمين . ورغم تعاطف إربرى مع بعض آراء الهادمين فإنه - كما يتضح من استجواب اللجنة البرلمانية له عام ١٦٥٢ - ازور عن كثير من معتقداتهم ، وقد أنكر إربرى مثلما فعل بيدل من قبل - ألوهية المسيح . فلا غرو إذا وجدنا أن تشينيل البرسبتيرى يتهمه بأنه واحد من المجدفين الصوصان . والذى لا ريب فيه أن أفكاره الاجتماعية لم تقل فى ثوريتها وراديكاليتها عن أفكاره فى اللاهوت المسيحى . وعلى أية حال أدى انقضاض الحكومة على جماعة الهادمين إلى تضاؤل عددهم وانحسار نفوذهم والتزامهم الصمت والتجائهم إلى ممارسة نشاطهم فى السر مثل هنرى ووكر الذى أعلن أنه يفضل أن

يضاجع حبيبته على أن يكون بصحبة المسيح فى الجنة .وقد تم تطبيق قانون التجديف لعام ١٦٥٠ على ابنى عم يدعيان جون ريف ولودوويك ماجلتون اللذين تعاطفاً مع بعض أفكار الهادمين واتهما باتباع مذهبهم رغم شدة نفورهم من كثير من مبادئهم ، ولكن هذا النفور لم يمنعهما من إقامة علاقات طيبة مع اثنين من الهادمين البارزين هما جون روبينز وتوماس تانى . ويحدثنا توماس بانجتون عن لودوويك ماجلتون فيقول عنه : إنه ترزى مجنون ينتقل من ماخور إلى ماخور ومن حانة إلى أخرى يحتسى الخمر ويستنزل العذاب الأبدى على كل من لا يصدق تعاليمه التى تقول إن طول الله (أو الكائن الأسمى كما يسميه) لايزيد على ستة أقدام وإن الشمس لا تبعدأكثر من أربعة أميال عن الأرض . ورغم هذه الترهات الواضحة فقد استطاع ماجلتون أن يجتذب إليه نفراً من التابعين والمريدين .

وعلى خلاف الهادمين نرى أن ريف وماجلتون لا يدافعان عن الخطيئة ، فالرأى عندهما أن حواء هى الشيطان المتجسد ، الأمر الذى يؤكد تزمتهما الأخلاقى ونزعتهما البيوريتانية الجلية . وبالنظر إلى حرصهما على مكارم الأخلاق - بعكس الهادمين - فقد احتجا على تقديمهما إلى المحاكمة ووصفا قضاتهما بالتجديف لأنهما كانا رجلين صالحين ومجتهدين يؤمنان بالمسيح ويخلصان لزوجتيهما ويستنكران احتساء الخمر ولعب القمار . وظل ماجلتون الذى توفى طاعنا فى السن عن تسعة وثمانين عاماً يفاخر بأنه عاش طيلة حياته من عرق جبينه يدفع كأى مواطن صالح ما عليه من ضرائب فى حين أن الرسل وتلاميذ المسيح كانوا يقتاتون من التبشير بالإنجيل .

وفى عام ١٦٥١ ظهرت له رؤيا رأى فيها «فردوس السماء الموجود بداخل الإنسان على الأرض» . وظهرت لابن عمه ريف رؤيا مماثلة فاشتركا معاً فى التبشير بما رأياه . وفى العام التالى (١٦٥٢) نشر ريف نبذة تبشيرية كانت السبب فى اتهامه بالتجديف . فقد جاء فى هذه النبذة أن سيدنا يسوع المسيح كلم ريف من السماء قائلاً : إنه اصطفاه فوق كل إنسان آخر ليهبه فهم ما يرمى إليه فى إنجيله من مقاصد وأنه اختاره ليكون خاتم المرسلين للقيام بعمل عظيم من أجل هذا العالم الكافر اللعين ، كما أنه اختار ابن عمه لودوويك ماجلتون كى يصبح لسان حاله والمتحدث باسمه . فضلاً عن أن يسوع أعطاه القدرة على منح البركات وصب اللعنات الباقية إلى أبد الدهر .

ويضيف ريف وماجلتون أن يسوع المسيح فى إحدى رسائله اللاحقة طلب منهما أن يصبا اللعنة على كل من ثوروجون تانى وجون روبينز . فبادرا برسم روبينز بأنه عدو المسيح ولعناه لعنة أبدية كى يتلظى بنار الجحيم الموقدة . وكان روبينز آنذاك فى سجن برايدويل وشاع بين الناس أن سر اللعنة التى صبها ريف وماجلتون عليه ظهرت آثارها فى الحال . فقد شوهد بعدها وهو يمسك بقضبان زنزانته ويقول : «انتهى الأمر ولتكن مشيئة الله» ثم نبذ معتقداته الضالة وتراجع عنها على الفور .

وهكذا انفض المريدون المفتونون بتانى وروبينز ليلتفا حول النبيين الجديدين ريف وماجلتون اللذين أعادا النظر فى اللاهوت المسيحى فأنكرا الثالوث الأمر الذى أدى إلى القبض عليهما فى عام ١٦٥٣ .

وبالمقارنة بحياة ماجلتون المعمرة كانت حياة ريف قصيرة فقد مات عام ١٦٥٨ - ولم يستطع ريف وماجلتون أن يجدا حلا للمتناقضات اللاهوتية التى وقعا فيها . فعلى الرغم من إنكارهما للثالوث فقد آمنا بأن الأب والابن والروح القدس ليست سوى مترادفات تعبر عن شخص حقيقى هو ربنا يسوع المسيح . وعندما خلق الله العالم فى البداية كان على هيئة روح . ولكنه بمجيئه إلى الأرض صار يسوع المسيح كى يموت ويفهم بموته محنة البشر . وعلى الصليب صرخ المسيح إلى إيلى الذى كان يمثله وهو جسد فان . وبموت يسوع مات الله ولكنه قام من الأموات جسداً وروحاً . وبعد قيامته لم يعر الإنسان أدنى اهتمام . فبعد أن جعل الله الحركة تدب فى كل شىء فى الكون آثر ألا يتدخل فى شؤون البشر حتى يوم القيامة . ومن ثم فإن الله برىء مما نشاهده فى هذا العالم من شرور فهى من عمل الشيطان . والرأى عند ريف وماجلتون أن الشيطان ملاك ساقط خاطىء وضع بذرته الشريرة فى حواء فتوارثها أسلافها . ووضع الله الضمير فى قلب الإنسان حتى يتمكن من تقرير مصيره بنفسه . وفى اعتقادهما أنه يوجد داخل كل إنسان روح الله وروح الشيطان . يقول ريف إنه سمع صوتاً علوياً يقول له : «إن السماء والجحيم يوجدان بداخل كل إنسان» .

وسوف يقوم الله فى يوم النشور ببعث الصالحين جسداً وروحاً وبعد ذلك تصبح الأرض جحيماً لسكنى الملعونين . وذهب ريف وماجلتون إلى أن أهم شىء بالنسبة للإنسان هو الإيمان والحياة الصالحة وأنه لا أهمية للعبادة والكنائس والأسرار المقدسة والطقوس ورجال الدين . وأضاف الرجلان أن اللعنة سوف تحل على كل من يسمع رسالتهما ويرفض العمل بها لأن الله اصطفاهما آخر النبيين . وأسخطت هذه الآراء الجدفة نفراً من الناس فشكوا إلى عمدة لندن وقالوا إن ريف وماجلتون أنكرا الثالوث وخلود الروح وادعيا أن الله مات . وطلبوا من العمدة إلقاء القبض عليهما فاستجاب إلى طلبهما متهماً إياهما بإنكار الثالوث . ودخل ريف وماجلتون لبعض الوقت فى جدال لاهوتى مع عمدة لندن الذى شعر بالحرج فأراد أن يخرج من مأزقه عن طريق اتهامهما بما لم يتفوها به وهو إدعاء الألوهية وإنكار وجود الله . ورد عليه ماجلتون بصلف واستعلاء بأنه والقاضيان الآخران على المنصة مدنيون ومن ثم غير مؤهلين للحكم على التجديف على الله وفى شؤون اللاهوت . فأرسلهما العمدة إلى سجن نيوجيت .

وبعد مرور شهر استدعت محكمة الأولد بايلى كلا من ريف وماجلتون للمثول أمام المحلفين برئاسة عمدة لندن . وانصب الاتهام هذه المرة على إنكارهما للثالوث كما هو واضح من الكتاب الذى ألفه ريف . وبعد محاكمة سريعة وقصيرة قرر المحلفون أن المتهمين مذنبان وحكموا عليهما بالحبس لمدة ستة أشهر فى سجن «برايدوويل» . وبعد خروجهما من السجن سطرا رسالة موجهة إلى الحكومة بعنوان : «احتجاج من الله الخالد» وأكدا فيها سابق ادعائهما بأنهما رسولان أرسلهما الله لهداية البشر . وفى رسالتهما دافع الرجلان عن «حرية الضمير» وحرية العقيدة ودافعا دفاعاً مجيداً عن حق الشعب الإنجليزى فى التمتع بحرياته المدنية كافةً . وبعد خروجه من السجن بأربعة أعوام مات ريف فأكمل ماجلتون المسيرة التى ظل يتزعمها حتى وفاته فى عام ١٦٩٨ .

وبالنظر إلى أن ماجلتون لم يتراجع أو يرْعَوِ فقد وجهت إليه السلطات مرة أخرى تهمة

التجديف ثلاث مرات . ولكن الأحكام الخفيفة التى صدرت ضده لم توهن من عزيمته . والغريب أن الحكومة التبس عليها الأمر فحاكمت ريف وماجلتون على أنهما من أتباع مذهب الهادمين فى حين أنهما كما أسلفنا هاجما بشدة كثيراً من مبادىء هذا المذهب الذى ظل موجوداً حتى الخمسينيات من القرن السابع عشر . ثم ما لبث أن اختفى شيئاً فشيئاً . حتى زعماء الهادمين تخلّوا عن مذهبهم فى أخريات حياتهم ، فعلى سبيل المثال غيَّر كوب اسمه وأصبح طبيباً ودفن عند موته فى كنيسة المدينة . وهاجر الهادم سالمون من البلاد . كما أن بوثيوملى (الذى وصفه جورج فوكس) بأنه واحد من كبار الهادمين آثر الحياة المحترمة فعمل كأمين مكتبة مدينة «ليستر» .

وليس أدل على أن مذهب الهادمين لم يندثر إلا بعد عقد الخمسينيات من القرن السابع عشر من أن واحداً من أتباع مذهب الكويكرز اسمه ر . فورنوث رسم عام ١٦٥٥ صورة لهادم من ليستر اسمه روبرت ويلكنسون على النحو التالى :

«قال عن نفسه إنه الله والشيطان وإنه لا وجود لإله غيره ولا وجود لأى شيطان إلا فيه وادعى القدرة على أن يمنح الناس البركات أو أن يصب على رؤوسهم اللعنات . كما قال عن نفسه إنه أفعى (وإنه لأفعى بالفعل) وأن الرسل كاذبون ومخادعون . وعندما أعطيته الكتاب المقدس ليثبت ذلك قال : إن الكتاب المقدس مجموعة من الأكاذيب ، وأنه لا وجود للسماء أو الجحيم إلا على الأرض . وأنه يتعين عليه أن يعيش فى الفردوس مثلما يتعين عليه أن يعيش فى الجحيم . ووصف نفسه بأنه زير عاهرات . وقد سبق له القول إنه ابن الله ومن ثم فلا يمكن أن يرتكب المعصيات» .

ويذكر المؤرخون أن الحكومة الإنجليزية لم تكن تتصدى لأتباع مذهب الهادمين إلا بعد جهرهم بآرائهم ودعوة الناس إلى اتباعها . فقد كان من الممكن لواحد من زعمائهم وهو ريتشارد كوبين ألا يتعرض للأذى لو أنه امتنع عن نشر كتاب صغير بعنوان «التعاليم القدسية» (١٦٤٩) الذى أصبح المرجع الأساسى لمذهب الهادمين . وبعد صدور قانون التجديف لعام ١٦٥٠ آثر كوبين التزام الصمت بعض الوقت . ورغم أن كوبين نبذ مذهب الهادمين وهاجم دعوتهم إلى الفسق فإنه دعا إلى مجموعة من الأفكار الدينية غير التقليدية التى أحرجت صدور ثلاث قضاة تولوا محاكمته . قال كوبين إن المسيح يسكن فيه وإن الإنجيل لا يمكن فهمه فهماً صحيحاً إلى عن طريق الوحى الذى أوحى به الله إلى المسيح الساكن فيه .

وأضاف كوبين أن الله لا يوجد فى المسيح فحسب ، بل فى كل البشر . وكذلك أنكر كوبين الوجود المادى للفردوس والجحيم .

وفى عام ١٦٥٢ استدعته محكمة «ورستر» للمثول أمامها بتهمة التجديف . ورغم أن المحلفين أدانوه فإن القاضى طلب إعادة محاكمته لأن بنود قانون ١٦٥٠ لا تنطبق على حالته تماماً . ولهذا أعيدت محاكمته فى «أكسفورد» عام ١٦٥٣ حيث أدانه المحلفون للمرة الثانية بتهمة التجديف . غير أن القاضى خالفهم فى الرأى وقرر الإفراج عنه .

وفى العام التالى (١٦٥٤) تكرر القبض عليه بالتهمة نفسها ولكن القاضى برأه منها لثالث

مرة . وفى عام ١٦٥٥ ارتكب كوبين حماقة لابد أنه ندم عليها . فقد وافق على الاشتراك مع برسبتيرى فى مناقشة لاهوتية تجرى فى مدينة «روتشستر» . وكان بين الحاضرين رجل عسكرى رفيع المستوى اسمه توماس كيسلى الذى سمع كوبين يقول : «إن الخطيئة دنست جسد المسيح عندما كان إنساناً .» وشكا كيسلى إلى كرومويل من تجديفه وطلب إليه نفيه خارج البلاد أسوة بالمجدف بيدل . غير أن كرومويل آثر أن يترك الأمر للقضاء كى يبت فيه . فحكم القضاء عليه بالحبس لمدة ستة أشهر . وهو المصير نفسه الذى لقيه كل من وليم بوند وتوماس هيبورد النساجين من قرية لاكوك فى منطقة «ويلتشاير» لمجاهرتهما بإنكار وجود الله والمسيح والقول بأن الجنة هى الحظ السعيد فى هذه الدنيا والجحيم هو الفقر . وفى تجديفه قال هيبورد إنه على أتم استعداد لأن يبيع كل أديان العالم من أجل وعاء ملىء بالبيرة . وبلغت جسارة بوند حداً جعله يقول إن بإمكان صديقه توم لامباير من «ملكشام» أن يؤلف إنجيلا أفضل من إنجيل يسوع المسيح .

وفى ختام الحديث عن مذهب الهادمين يجدر بنا أن نقول إنه لم يكن ممكناً لهذا المذهب أن يذيع وينتشر فى إسكتلندا التى سادها المذهب البرسبتيرى بسبب قسوة البرسبتيريين المتناهية فى التصدى للمجدفين والمهرطقين والخوارج على عكس إنجلترا المتحررة التى رفضت أن تأخذهم بالشدة واكتفت بسجنهم لبضعة أشهر .

أما إسكتلندا فلم تتردد فى إعدامهم وإرسالهم إلى حتفهم كما حدث لمتشرد ملحد يعرف باسم جول الإسكتلندى الذى سأله البعض إذا كان يود الذهاب إلى الكنيسة فأجاب : «ليذهب الله إلى حبل المشنقة» .

وأضاف أن الله ليس له أدنى فضل عليه وأن الشيطان - وهو أقوى من الله - صاحب فضل عليه . وأنكر هذا الملحد الثالوث وألوهية المسيح الذى اعتبره مجرد بشر . ولم ينكر الرجل خطيئته فحسب ، بل استهزأ برحمة الله وبالعبادات والأديان كافة مؤكداً أنه ليس لله أو المسيح وجود . فالطبيعة هى الشىء الوحيد الموجود . وكذلك أنكر وجود الجنة والنار قائلاً : إن الكتاب المقدس زائف وأنه ليس فى الإنسان روح وبطبيعة الحال انتهى أمر هذا الملحد إلى الوقوف أمام إحدى محاكم إسكتلندا فحكمت عليه فى ٢١ مايو ١٦٥١ بالإعدام شنقاً .

الفصل الثاني

عصر العقل
الزندقة والمذهب التأليهي
في القرن الثامن عشر

١

خلفية عامة

يعرف القرن الثامن عشر فى أوروبا بعصر العقل فى معظم الأحيان وعصر التنوير فى كثير من الأحيان . ولعل من المفيد قبل أن أتحدث عن عصر العقل أو التنوير أن ألقي شيئاً من الضوء على المذهب التأليهى الذى ظهر فى أوروبا فى أواخر القرن السابع عشر ثم شاع فى القرن الثامن عشر بسبب نزوع هذا القرن إلى العقلانية وتركيزه على العلم وإعمال العقل . ورغم أن المذهب التأليهى يدعو إلى الإيمان بالله وينبذ الإلحاد والوثنية فإنه أصبح بمضى الوقت السبب فى تقويض الدين من أساسه . صحيح أن التأليهيين آمنوا بالله مثلما آمن المسيحيون به . ولكن شتان الفرق بين صورة الله فى الحالتين . فصورة الله كما رسمها الدين المسيحى فى القرون الوسطى وحتى فى عصر الإصلاح الدينى بدت فى أعين التأليهيين كما لو كانت صورة حاو أو ساحر يأتى بالعجائب والمعجزات ليبهر الناظرين إليها . وكانت قوة هذا الإله تنبع من قدرته على انتهاك نواميس الطبيعة وتعطيل قوانينها ، فى حين تصور المفكرون فى عصر التنوير الله على أنه المهندس الأعظم أو عالم الرياضيات الأعظم الذى استطاع أن يخلق آلة فى منتهى الدقة والروعة هى آلة الكون . وعظمة هذا الإله لا تتجلى فى خرق قوانين هذه الآلة الكونية بل فى الحفاظ عليها . وترجع أسباب رفض أتباع المذهب التأليهى للدين المنزل فى الأساس إلى أن كثيراً منهم توفر على دراسة الكتاب المقدس فاكتشف أنه ملىء بالمتناقضات . فضلاً عن عدم صحته من الناحية التاريخية ، لكن من الخطل أن نظن أن نقد الكتاب المقدس كان قاصراً على التأليهيين وحدهم فقد شاركهم فيه الملاحدة والمتشككون . وعلى أية حال يمكن القول إن الهجوم على الدين المسيحى بوجه عام استند إلى تعارضه مع أحكام المنطق والعقل من ناحية وإلى فساد رجال الكنيسة وزيف الداعين إلى الدين من ناحية . وإنها لمفارقة صارخة أن نرى التأليهيين الذين ينكرون قداسة المسيحية ينتهون إلى الإيمان بالمبادىء الأخلاقية نفسها التى تدعو المسيحية إليها . كما آمن كثيرون منهم بالعقاب والثواب فى الآخرة على عكس ما ذهب إليه

الملاحدة . والجدير بالذكر أن إلغاء الرقابة على الصحافة فى إنجلترا عام ١٦٩٤ شجع كثيرين من الإنجليز على اعتناق المذهب التأليهى وأن إنجلترا فاقت سائر البلاد الأوروبية فى انتشار هذا المذهب ، الأمر الذى حدا بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنها مسؤولة عن تصديره إلى فرنسا وغيرها من الدول .

تقول دائرة المعارف البريطانية إن الأديب والفيلسوف الفرنسى بايل هو أول من استخدم تعبير المذهب التأليهى فى فرنسا فى القاموس الذى ألفه وأصدره فى منتصف القرن السادس عشر .

وتعبير المذهب التأليهى ترجمة لكلمة Deism المشتقة من لفظة deius اللاتينية ومعناها الله . ويؤمن أصحاب هذا المذهب بوجود كائن أسمى أو خالق للكون يتسم بالخير والحكمة والصلاح . ولكنهم ينكرون فى الوقت نفسه الدين المنزل أو الدين الموحى به من السماء بل يزعمون أن الله كف عن التدخل فى شؤون الكون بمجرد أن انتهى من خلقه وتركه يسير بمقتضى مجموعة من القوانين التى لا تتبدل أو تتغير . وفى الكتاب الذى ألفه س . كلارك فى الفترة من ١٧٠٤ حتى ١٧٠٦ بعنوان «إيضاح وجود صفات الله» نرى هذا الباحث يميز بين أربعة أنواع من المذهب التأليهى . يذهب النوع الأول إلى أن الله قام بخلق العالم ثم ابتعد عنه مؤثراً ألا يتدخل فى شؤونه ، ويعترف النوع الثانى بوجود عناية إلهية وأيضاً بوجود نظام فى الكون المادى وليس بالمعنى الروحى أو الأخلاقى ، ويذهب النوع الثالث إلى وجود صفات أخلاقية معينة فى الله ولكنه ينكر وجود العالم الآخر ، وأما النوع الرابع والأخير فيؤمن بحقائق الدين الطبيعى كما يؤمن باليوم الآخر . ولكنه يرفض فى الوقت نفسه الإيمان بالتنزيل .

وأيضاً تقول دائرة المعارف البريطانية إننا نجد إرهاصات المذهب التأليهى عند أتباع الفيلسوف العربى ابن رشد والكاتبين الإيطاليين بوكاشيو وبترارك وفى مدينة توماس مور الفاضلة (يوتوبيا) وكذلك عند كتاب فرنسيين أمثال مونتانى وشارون وبودين . ويتضمن الخطاب الذى سطره الأسقف الإنجليزى ستلنجفليت بعنوان «خطاب إلى مؤمن بالمذهب التأليهى» (١٦٧٧) أول هجوم على هذا المذهب . ويعتبر اللورد هربرت تشربرى (١٥٨٣ - ١٦٤٨) أول من دعا إلى هذا المذهب فى إنجلترا ثم تلاه تشارلس بلوانت (١٦٥٤ - ١٦٩٣) . وتضم قائمة التأليهيين الأوائل الأسماء التالية : ماثيو تندال (١٦٥٧ - ١٧٣٣) ووليم وولياستون (١٦٥٩ - ١٧٢٤) وتوماس وولستون (١٦٦٩ - ١٧٣٣) وجون تولاند (١٦٧٠ - ١٧٢٢) وإيرل شافتسبرى الثالث (١٦٧١ - ١٧١٣) والفيكونت بولنجبروك (١٦٧٨ - ١٧٥١) وأنتونى كولينز (١٦٧٦ - ١٧٢٩) وتوماس مورجان (. . . . - ١٧٤٣) وتوماس تشب (١٦٧٩ - ١٧٤٧) وبيتر أنيت (١٦٩٣ - ١٧٦٩) . وقبل أن نعرض لأهم هؤلاء التأليهيين يخلق بنا أن نذكر أن القرن الثامن عشر شاهد ازدهار دراسة متفقهة فى شؤون الدين المسيحى تعرف بـ «نقد الكتاب المقدس» وهى دراسة سعت إلى بيان ما فى المسيحية من تناقضات ومجافاة للعقل وحقائق التاريخ .

هذا فضلاً عن بعض الإضافات الطفيفة التى أضافها الدارسون إلى ما يسمى بالدراسة النصية للكتاب المقدس مثل الإضافة التى قدمها و . ويتسون فى مقاله «نحو استعادة المعنى الحقيقى للعهد القديم» (١٧٢٢) والدراسة التى سطرها يراع السير اسحق نيوتن الرياضى المعروف فى بحثه

المنشور عام (١٧٥٤) - أى بعد وفاته - بعنوان «تاريخ الفسادين الملحوظين اللذين طرءا على الكتاب المقدس» إلى جانب الأبحاث النصية الناجحة التى أجراها جوهان البرخت بنجال (١٦٨٧ - ١٧٥٢) . وتتوفر الأبحاث النصية على المقارنة بين النصوص القديمة للكتاب المقدس فى لغاتها المختلفة والمقارنة بينها لمعرفة الصحيح منها .

نقد الكتاب المقدس :

يعتبر تشارلس بلاونت (١٦٥٤ - ١٦٩٣) أول تأليهى إنجليزى ينتقد الكتاب المقدس كى يشك فى أنه كتاب منزل . وفر السير هنرى بلاونت لابنه تشارلس أفضل تعليم فى زمانه فقد تشرب منذ نعومة أظفاره أفكار هوبز والتأليهى هربرت تشربرى ثم ضمنها فى كتبه فيما بعد .

وكانت حياته مضطربة عاصفة فقيل إنه أقدم على الانتحار لأن القانون الإنجليزى حال بينه وبين الزواج من أخت زوجته المتوفية .

نشر بلاونت أول عمل له عام (١٦٧٩) بعنوان «سرد تاريخى لآراء الأقدمين بخصوص روح الإنسان بعد الموت طبقاً للطبيعة غير المستنيرة» وفيه يشرح الموقف التأليهى فى الدين وما يردده التأليهيون من أفكار تناصب الدين العداء . ويصف بلاونت الأنبياء وسدنتهم بأنهم جماعة من المحتالين والنصابين الجشعين الذين اخترعوا الجنة والنار بهدف إحكام سيطرتهم على العباد مؤكداً أن الروح فانية كالجسد . فلا يوجد أى فرق بين الحيوان والإنسان لدرجة أن البعض يعتقد أن الإنسان ليس سوى قرد ارتفع فى مدارج الرقى والتثقيف . فضلاً عن أن الحواس قمينة بأن تخدع أصحابها وتمدهم بالمعلومات المضللة .

وتتجلى نظرة بلاونت المادية الخالصة فى كتاب له بعنوان : «عظيمة هى ديانا الأفسوسية : أو أصل عبادة الأوثان والمؤسسة المدنية للضحايا غير اليهود» (١٦٨٠) وفيه يؤكد أن الاقتصاد هو أساس العقيدة الدينية التى يستحدثها الكهنة من أجل مصلحتهم والمصلحة السياسية للطبقة الحاكمة . وبذلك يكون بلاونت أول تأليهى يقدم تفسيراً مادياً للتاريخ (انظر الفلاسفة الماديين) . ونحن نجد هجوماً على المعجزات الواردة فى الكتاب المقدس فى ترجمته «حياة أبولونيوس من تيانا» وتعنى هذه الإشارة إلى أبولونيوس - وهو صانع المعجزات عند الإغريق - أنه ليس هناك فرق بين المعجزات التى يقوم بها الوثنى أبولونيوس والمعجزات الواردة فى الكتاب المقدس . ويعتبر كتاب «عرافات العقل» (١٦٩٣) من أهم أعمال بلاونت على الإطلاق . وتتلخص أهم نقاطه فى رفضه القاطع لمعجزات الكتاب المقدس وأية إشارات عن الخليقة ونهاية العالم . وأيضاً قصة خلق حواء من ضلع آدم وقصة متوشالح الذى يقول الكتاب إنه عمر أكثر من تسعمائة عام ، وقصة إيقاف يوشع لحركة الشمس وفكرة الخطيئة الأولى . ويقول بلاونت إنه سخف ما بعده سخف أن تصدق أن كوكبنا الحديث التكوين (والذى لا يزيد على كونه حبة خردل عمياء وقميئة هى فى الكون أدنى مرتبة من أى نجم من نجومه الثابتة من ناحيتى الحجم والجلال) يحتل مركز هذا الكون أو يمثل أنبل جزء فيه وأكثره حيوية . هذا أمر يأباه العقل تماماً ولا تقبله طبيعة الأشياء» .

والجدير بالذكر أن علماء اللاهوت بعد أن توفروا على دراسة الأنساب الواردة فى العهد القديم وحسابها توصلوا إلى نتائج متضاربة بشأن بدء الخليقة كما ورد فى سفر التكوين . واستقر رأى عدد كبير منهم على أن تاريخ الخليقة هو ٤٠٠٤ ق . م . وعبر بلاونت عن تشككه فى صحة هذه النتيجة استناداً إلى الأبحاث الجيولوجية والتاريخية إلى جانب معرفته بعلم الفلك . واستغل بلاونت الآراء المتضاربة بشأن بدء الخليقة ليدلل بها على أن الأنساب الواردة فى الكتاب المقدس غير صحيحة ولا يعتد بها . وكذلك استند بلاونت فى هذا الصدد إلى المؤرخ جيلدون الذى يقدر عمر التاريخ المصرى القديم بثلاثة عشر ألف عام وأن الصينيين قدروا عمر حضارتهم بتسعين ألف عام أو ما يزيد وأن البراهمة الهنود قدروا تاريخ العالم بنحو ثلثمائة وسبعة وعشرين عصراً يحتوى كل عصر فيه على عدة قرون . وبناء على هذا ذهب تشارلس بلاونت إلى أن الرقم الذى حدده الكتاب المقدس لبدء الخليقة لابد وأن يكون خاطئاً . وفى عام (١٧٢٧) نشر التأليهى الإنجليزى أنتونى كولينز نقداً للعهد القديم بعنوان «النظر فى النظام الحرفى للنبوة» ذهب فيه إلى أنه يستحيل أن يكون دانيال قد عاش فى زمن باكر أيام حكم الملك نبوخذ ناصر لأنه كان يعرف تاريخ اليهود وأحداث هذا التاريخ فى عصر لاحق على ذلك . والجدير بالذكر أن أسقفا اسمه روبرت لوت نشر عام (١٧٥٣) باللغة اللاتينية مبحثاً بعنوان «محاضرات أكاديمية حول الشعر العبرى» (ظهرت ترجمته فى إنجلترا عام ١٧٨٧) يتناول العهد القديم كشعر وليس كدين . وفى العام نفسه (١٧٥٣) ظهر فى بروكسل كتاب بالفرنسية مجهول المؤلف يحمل العنوان التالى : «خواطر حول المذكرات الأصلية التى يبدو أن موسى استخدمها فى تأليف سفر التكوين» ومؤلف الكتاب طبيب كاثوليكى اسمه جان أستروك تلخصت هوايته فى نقد الكتاب المقدس . قرأ أستروك العهد القديم بالعبرية واللاتينية والفرنسية والمقارنة بينها . وانتهى رأيه إلى أن الترجمة البروتستانتية التى تمت عام ١٦١٠ هى أفضل الترجمات طراً . ومن الواضح أنه اطلع على تعليقات المعلقين على العهد القديم من أصحاب الفكر الحر الذين رفضوا تصديق قصة الخلق كما وردت فى العهد القديم لأنهم رأوا أنه من غير المعقول أن يعرف سيدنا موسى كثيراً عن أحداث وقعت قبل زمانه بأربعة وعشرين قرناً . وتساءل هؤلاء المفكرون الأحرار عن المصادر التى اعتمد عليها موسى فى كتابة سفر التكوين . وبفكره الثاقب المبتكر الخلاق قسم أستروك هذه المصادر إلى قسمين فقد لاحظ أنها تندرج تحت جزءين : جزء يشير إلى الله باسم «ألوهيم» وجزء يشير إليه باسم يهوه إلى جانب بعض الفقرات القليلة الثانوية التى لا تستقيم مع أى من الجزءين . ومما دعا أستروك إلى تقسيم المصادر إلى جزءين أساسيين ما لاحظه فى كل منهما من وحدة عضوية . أما بالنسبة للمصادر الثانوية فقد ذهب أستروك إلى أن موسى لابد أنه استقاها من الشعوب المجاورة لفلسطين وليس من أجداده كما هو الحال مع الجزءين الآخرين . وترجع أهمية أستروك إلى أنه أول من اكتشف المنهج السليم لمعرفة مصادر السجلات القديمة عن طريق تحليل سماتها الأسلوبية . ولهذا السبب وحده يطلق عليه الناقد الأول للكتاب المقدس .

أما نقد العهد الجديد فقد قام به التأليهيون الإنجليز والألمان أثناء هجومهم على خوارق الطبيعة فى نشأة الدين المسيحى . وفى بادىء الأمر لم يهتم نقاد المسيحية بمعالجة جوانبها التاريخية فقد اقتصر نقدهم على الجانب اللاهوتى منها . ويتسم هجوم التأليهيين على العهد الجديد بالاستناد إلى

العلم الطبيعى أى استبدال ما هو طبيعى بالخوارق للطبيعة على نحو ما فعل التأليهى المعروف چون تولاند فى كتابه «مسيحية بدون أسرار» الذى بناه على الأفكار التى ذهب إليها چون لوك فى مبحثه «معقولية الدين المسيحى» كما أن چون لوك قدم مبدءاً لم يسبقه فيه أحد فى تفسير العهد الجديد فى مبحثه «رسائل القديس بولس» (١٧٠٥) وترجع أهمية هذا المبحث إلى أنه يشير لأول مرة إلى عدم وجود اتساق كامل واتحاد فى المذهب فى كل أرجاء العهد الجديد .

وبينما كان لوك والتأليهيون الإنجليز يتلمسون طريقهم للوصول إلى أفضل السبل لنقد الكتاب المقدس ، انصرف عالم لغات شرقية فى هامبورج غير معروف اسمه هرمان صامويل ريماروس (١٦٩٤ - ١٧٦٨) إلى وضع اللبنة الأولى فى بناء صرح شامخ لم يكتمل إلا فى القرن التاسع عشر هو البحث فى مدى صحة وجود يسوع المسيح من الناحية التاريخية .

وفى حين كان العلماء قبله مشغولين فقط بالعقيدة المتمثلة فى الجانب اللاهوتى من حياة المسيح ، بدأ ريماروس ومن سار على دربه يهتمون باستجلاء حياة الرجل المدعو يسوع المسيح الذى عاش فى فلسطين فى عهد الحاكم الرومانى تيبريوس . ألف ريماروس التأليهى كتاباً يقض مضاجع المسيحيين لدرجة أذهلتهم فلم يجد فى حياته من يجرؤ على نشره . ويحتوى هذا الكتاب على شرح لفلسفة التأليهيين وأيضاً على نقد العهد الجديد . وقام الأديب الألمانى الكبير والتأليهى لسنج بنشر سبعة فصول منه تحت عنوان «شذرات من عمل مجهول عثر عليه فى فلفنتيل» فى الفترة من عام ١٧٧٤ حتى عام ١٧٧٨ ، انصرفت أربعة منها إلى نقد العهد الجديد وتناولت الموضوعات التالية :

١ - عبور بنى إسرائيل للبحر الأحمر وشرح أوجه استحالة تصديق هذه القصة بأسلوب ينم عن الذكاء .

٢ - توضيح أن جميع الكتب الواردة فى العهد القديم لم تكتب بقصد الكشف عن دين منزل .

٣ - قصة البعث .

٤ - أهداف يسوع وحوارييه .

وقد سعى الكاتب من وراء عرضه لهذه الموضوعات أن يفصل ما هو عارض فى الكتاب المقدس عن لبه الأخلاقى الذى اعتبره من الناحية الفلسفية مطابقاً للدين الطبيعى . ورغم رفضه للمعجزات المنسوبة إلى السيد المسيح فقد نجح الكاتب فى رسم صورة له كإنسان أقرب ما تكون إلى الدقة والواقع . والرأى عنده أن المسيح لم تكن لديه أدنى نية فى إلغاء الدين اليهودى واستبداله بدين آخر بل كان مشغولاً بتعليم الواقع الأخلاقى وتوقع نهاية سريعة للعالم الفاسد الذى يعيش فيه . ويفسر الكاتب تبشير المسيح على أنه مجرد إقامة إمبراطورية زمنية وسياسية لليهود وأن الذى حول المسيحية إلى دين جديد يغزو العالم هو الإحباط العظيم الذى أصاب أتباع المسيح نتيجة قتل سيدهم ومعلمهم . ومن ثم أعاد أتباعه صياغة رسالته على أنها دعوة لإقامة مملكة روحية فى السماء .

هذا هو التفسير التاريخى الذى قدمه هيرمان صامويل ريماروس للعهد الجديد .

يقول باسيل ويلى فى الفصل الأول من كتابه «خلفية القرن الثامن عشر» إن أوروبا فى هذا القرن سادها الاعتقاد بأننا لم نعد نعيش فى كون غامض بل فى كون شديد الوضوح يسير وفقاً لمجموعة من القوانين التى يمكن للإنسان عن طريق العلم أن يكتشفها مثلما فعل إسحق نيوتن فى عالم الرياضيات والفيزياء . ولهذا نرى الشاعر الإنجليزى الكلاسيكى المعروف ألكسندر بوب (١٦٨٨ - ١٧٤٤) يقول :

الطبيعة وقوانينها ظلت خبيئة فى الظلام .

فقال الله : ليكن نيوتن فتبدد الظلام وأصبح نوراً يضىء كل شىء .

وزاد من إحساس الإنجليز بالارتياح أنهم بدؤوا يشعرون بوطأة الحروب الدينية والأهلية تنزاح عن كاهلهم ، الأمر الذى حدا الشاعر چون دريدان (١٦٣١ - ١٧٠٠) إلى أن يقول عام ١٦٦٨ : «لقد عشنا معاً لفترة طويلة كانجليز أشرار لدرجة أنه لم يكن لدينا أى وقت فراغ نجيد فيه صناعة الشعر . ولكننا مع عودة السعادة إلينا نرى الشعر يرفع رأسه وقد دبت فيه الحياة من جديد بعد أن نفض عنه القمامة الثقيلة التى تجمعت فوقه» .

ويذهب باسيل ويلى إلى أن كلمة الطبيعة هى المفتاح الذى يدلف به إلى رحاب القرن الثامن عشر . ونحن فى يومنا الراهن نرى أن الطبيعة كلمة أشد ما تكون غموضاً ولها أكثر من معنى أو دلالة لدرجة أن أحد الباحثين الأمريكيين أحصى لها مؤخراً ستين معنى مختلفاً . ولكن القرن الثامن عشر لم ير فى الطبيعة أى لبس أو غموض على الإطلاق . بالعكس رآها جلية واضحة أشد ما يكون الوضوح ، الأمر الذى جعله يبنى على هذه الطبيعة وقوانينها نظرياته فى السياسة والعلوم بل فى الفنون والآداب . ولهذا تقبلت العقول المفكرة فى القرن الثامن عشر قوانين الطبيعة كشىء ثابت لا يتبدل ولا يتغير ويتمشى مع أحكام العقل الثابتة فى كل مكان وزمان .

رأى مفكرو القرن الثامن عشر أن السير بمقتضى قوانين العقل التى هى فى واقع الأمر قوانين الطبيعة تؤدى بالمجتمع إلى العيش فى سلام ووئام وتسامح وتقدم كما أنها أيضاً تؤدى فى مجال الشعر إلى مراعاة الشاعر لمقتضيات الوحدة والنظام والتناسب . وهى الصفات الأساسية التى يتميز بها الشعر الكلاسيكى الجديد فى القرن الثامن عشر . وبعد أن كان الأوروبيون يدافعون عن المسيحية على أساس التنزيل أو الوحى من السماء أصبحنا نراهم فى نهاية القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن عشر يجدون فى قوانين الطبيعة دليلاً على صحة هذا الدين ، وهو الأمر الذى لم يكن من الممكن حدوثه لولا أن تضافرت جهود مجموعة كبيرة من أبرز العلماء أمثال كوبرنيكوس وكبلر وجاليليو وبيكون وهارفى وديكارت وبويل ونيوتن والجمعية العلمية الملكية البريطانية فى الكشف عن قوانين الطبيعة التى تحكم سير هذا الكون الجلى الواضح . فلا غرو إذا رأينا الإيمان بما فوق الطبيعة يتقلص وينحسر ليحل محله الإيمان بقوانين الطبيعة .

والجدير بالذكر أن العلم حتى القرن الثامن عشر لم يكن كافراً أو ملحداً أو متشككاً فى الدين

بل كان لايزال حليفاً له . كل ما فعله العلم فى نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر أنه استبعد الظواهر فوق الطبيعية من مفهومه للطبيعة التى أصبحت فى نظره تسير وفق نظام دقيق مثل آلة شديدة الدقة والنظام . وافترض العلماء آنذاك بديهية مفادها أن هذه الآلة الشديدة الدقة والنظام (وهى الكون) لابد أن يكون لها صانع أو خالق (هو الله) . ومعنى هذا أن العلماء لم يجدوا أدنى تعارض بين إكتشافاتهم العلمية والدين . بالعكس فنحن نرى أن ديكارت وبويل ونيوتن شديدو الإيمان بالله ويعتقدون أن إكتشافاتهم العلمية تعزز مركز الدين وتسدى إليه خدمة . ويقول بيكون فى هذا الشأن إن وظيفة العالم هى التوفر على دراسة أعمال الله ، كما أن تلميذه السير توماس براون يقول إن الله يفضل أن يقوم الإعجاب بخليقته على العلم من أن يقوم على البداوة المشدوهة التى تحملق فى بلاهة إلى الطبيعة وترتعد فرائصها أمام نذر شؤم وهمية لا وجود لها . ولأن العلماء اكتشفوا أن النظام والقانون يحكمان حركة الكون الدقيق الصنع فقد رأوا فى الطبيعة نوعاً من القداسة ، الأمر الذى دعاهم إلى إقامة إيمانهم على أساس ما يعرف بالدين الطبيعى أى الدين الذى يعتمد الإيمان به على قوانين الطبيعة وليس على أية ظواهر فوق طبيعية . لقد أدت الصراعات الدينية الدامية بين الطوائف المسيحية المتناحرة فى القرن السادس عشر والسابع عشر إلى اختلاف المسيحيين فيما بينهم حول جوهريات الدين المسيحى إلى ادعاء كل طائفة بأنها المحتكرة لفهم الدين على حقيقته . ولكن دموية الصراعات الدينية أدت بالمجتمع المسيحى الأوروبى إلى الرغبة فى التوصل إلى فهم عام للمسيحية يقوم على العقل لأن العقل هو الشىء المشترك بين جميع البشر .

ولم يجد المسيحيون فى بحثهم عن الفهم المشترك للدين غير الطبيعة القدسية يهتدون بنواميسها السرمدية التى لا تخيب . فلا غرو أن يقول فيلسوف التسامح الدينى المعروف چون لوك فى هذا الشأن : «إن أعمال الطبيعة فى كل مكان أبلغ دليل على وجود الله» . وتعنى مقولته أننا لسنا بحاجة إلى التنزيل للتدليل على وجود الله ولكننا بحاجة إلى تأمل الطبيعة للتأكد من وجوده . فالناس يختلفون فى فهمهم للتنزيل ولا يختلفون فى فهمهم لقوانين الطبيعة التى هى صنو لإعمال العقل كما أسلفنا . وبذلك يصبح لدى الإنسان دليلان على وجود الله أولهما ذلك العقل الذى يكشف عن النجوم والكواكب والأفلاك السيارة الخ . وثانيهما الطبيعة الداخلية التى تتمثل فى ذلك القانون الأخلاقى المحفور فى ضمير الناس . . ذلك القانون الذى اهتدى به اللورد هربرت تشربرى إلى جوهريات ما يعرف بالدين الطبيعى الذى يهدى الإنسان إلى وجود الله وإلى واجبه نحوه ونحو جيرانه كما يهديه إلى ضرورة الكفارة والندم والعقاب والثواب فى اليوم الآخر .

هذه أساسيات الدين الطبيعى أو ما يسميه لوك التنزيل الطبيعى الذى أماط الله عنه اللثام للعقل البشرى . وهذا ما يؤكده تولاند التأليهى بقوله : «إن للبشر عقلا عليهم أن يعنوا باستخدامه وإن الإنجيل يوفر أوضح مثال يمكن تصوره يدل على الحصافة وإعمال العقل» . ويضيف تولاند إلى ذلك قوله إن التنزيل فى الدين بقدر ما هو شديد الفائدة والضرورة قد يكون بل يجب أن يكون – مفهوماً بيسر وأن يكون متمشياً مع أفكارنا المشتركة فندركه مثلما ندرك الخشب والحجر والماء الخ . . . أما بالنسبة لله فنحن لا نفهم شيئاً مثلما نفهم صفاته . . . والرأى عند تولاند أن جوهر التنزيل فى العهد

الجديد هو كشف وتوضيح الأشياء التى كانت غامضة فيما مضى بحيث تصبح مفهومة . ولو لم يكن الأمر كذلك لكانت المسيحية مجرد هراء ولغو أشبه ما يكون بلغو الفلاسفة ولغو اللاهوتيين والمدرسيين الذى يستغلق على الأفهام . فى حين أن تعاليم المسيح تعاليم أخلاقية تتسم بالبساطة والمعقولية ويمكن لأى إنسان مهما تواضعت قدراته الذهنية أن يدركها . إن المسيحية فى رأى تولاند تقدم إلينا الحقيقة خالية من الأساطير ومن تراكمات المعتقدات الدينية . وأن ميزة المذهب البروتستانتى تكمن فى عقلانيته ورفضه للمعتقدات الوثنية التى يرى أن كثيراً منها تسلل إلى العقيدة الكاثوليكية بينما كان الكاثوليك يبشرون الوثنيين باعتناق المذهب الكاثوليكى . ويعتقد تولاند أن المسيحية فى بدايتها كانت شيئاً أشبه بالدين الطبيعى ولكنها فقدت بساطتها وعقلانيتها بمضى الوقت .

والجدير بالذكر أن العقيدة المسيحية كانت قبل مجىء القرن الثامن عشر تنطوى على إحساس بالفجيعة ومأساة الوجود الإنسانى وأنها درجت على تصوير الله على أنه مكفهر الوجه مقطب الجبين باستمرار . فضلاً عن أن هذه الديانة اتسمت بالغموض وبشيوع الظلمة فى أرجائها . ولكن بمجىء القرن الثامن عشر تغيرت هذه النظرة المأساوية القاتمة وحلت محلها نظرة تدعو إلى الفرحة والانشراح . وبذلك أصبح من الممكن بل من الواجب الجمع بين الدين المسيحى وروح الدعابة والاستبشار خيراً بالحياة . ولم يعد هذا الدين مجرد سعى من جانب رجال الأكليروس لتعميق إحساس المسيحيين بالخطيئة أو الذنب . بالعكس سقطت أمارات الغضب والاكفهرار عن وجه الله وحلت محلها أمارات الرقة التى تبعث البهجة والانشراح فى النفوس .

ولهذا نرى واحداً من أهم التأليهيين الإنجليز - وهو اللورد شافتسبرى - يصف الله بأنه «أطيب كائن فى الوجود» هذه الصورة المطمئنة والبهيجة لله فى رأى البعض تجعل الملحد يتمنى أن يكون هذا الله موجوداً . ولهذا أيضاً نجد أن الباحث بول هازارد يصف التأليهيين فى تلك الفترة بأنهم «عقلانيون يشدهم الحنين إلى الإيمان بالدين» . ويؤكد لنا هذا أن فكرة الإلحاد كانت بعيدة كل البعد عن أذهان التأليهيين فى القرن الثامن عشر .

والجدير بالذكر أن القرنين السابع عشر والثامن عشر شاهدا تزايداً هائلاً فى عدد الرحلات والأسفار إلى البلاد النائية مثل الرحلة التى قام فيها ماجلان ورفيقه بيجافيتا الذى قال عن سكان البرازيل إنهم يعيشون فى هناء وسعادة لأنهم يتبعون الحياة الطبيعية ولا يعرفون شرور المجتمع المتمدن . وقد عالج مونتانى هذا الموضوع نفسه فى مقال بعنوان «عن أكلة لحوم البشر» وصف فيه الحياة الطوباوية والمثالية التى عاشها ثلاثة من البدائيين فى بلاط تشارلس التاسع بهدف الزراية بأخلاق المسيحيين الأوروبيين غير الحميدة وسمو حياة البداوة . وأيضاً كتب فواينى كتاباً بعنوان «الأرض الاسترالية المعروفة» (١٦٧٦) وصف فيها جزيرة فى بحار الجنوب تسكنها جماعة من التأليهيين فى حرية ومساواة كاملتين . ومما يذكر فى هذا الصدد أن فينبلون ألف رواية عن الأسفار والرحلات النائية بعنوان «تليماك» كما أن أباً من طائفة الجيزويت اسمه لى كومبت ألف عام (١٦٩٦) كتاباً عن الصينيين يقول فيه إن صلتهم بالله تواصلت لأكثر من ألفى عام وأنهم يتمتعون

بأخلاق حميدة لا تتوفر فى نظرائهم من المسيحيين الأمر الذى أغضب المسؤولين عن كلية اللاهوت فى باريس فهاجموا الكتاب وأدانوه .

كما أن بعض كتاب هذا الزمان آثروا أن يصفوا سكان جزيرة تاهيتى بالأصالة وطيب المعدن . وقد أوحى هذا إلى چان چاك روسو بفكرة الهمجى أو البدائى النبيل وهى الفكرة نفسها التى أكدها الموسوعى الفرنسى المعروف ديدرو فى كتابه «ملحق عن رحلة بوچنفيل البحرية» .

الذى لا شك فيه أن فرنسا فى القرن الثامن عشر كانت مركزاً لليبرالية والاستنارة الفكرية فى أوروبا . وتمثل الثورة الفرنسية التى اندلعت عام (١٧٨٩) نقطة تحول نحو الحرية والديموقراطية . ولم تكن الثورة الفرنسية حدثاً مفاجئاً إذ كانت الدلائل تشير إلى وقوعه . وقد تعرضت الكنيسة المسيحية الفرنسية فى القرن الثامن عشر إلى هجوم يفوق فى ضراوته الهجوم الذى تعرض له نظام الملكية فى فرنسا .

وفى ذلك القرن الذى يوصف بعصر العقل أو التنوير نرى الفلاسفة يستخدمون العقل فى الدعوة إلى الحرية . والشىء نفسه دعا إليه كتاب الرواية والمسرح فى فرنسا آنذاك ، وبدا من الواضح لأنصار النظام القديم أنهم يدافعون عن قضية خاسرة وأنهم مهما فعلوا فلن يستطيعوا وقف زحف الطبقة البورجوازية أو إيقاف تقدمها . والدليل على ذلك أن مالشيرب مدير المطبوعات الفرنسية وفر للأنسيكلوبيديين (ديدرو ورفاقه) الحماية الكفيلة باستمرارهم فى عملهم رغم سعيهم الواضح للإطاحة بالنظام القديم .

ومن الخطل كل الخطل أن نظن أن فلاسفة التنوير فى القرن الثامن عشر يفكرون على نحو متطابق ، فالأفكار التى دعا إليها ڤولتير تختلف اختلافاً جذرياً عن الأفكار التى دعا إليها روسو كما تختلف بدورها عن أفكار كل من هولباخ وهلفتيوس . ورغم ثورية ديدرو ورغبته الأكيدة فى الإطاحة بالنظام القديم فإن بعض أفكاره الميتافيزيقية كانت لا تتمشى مع الاتجاه العقلانى العام للقرن الثامن عشر . وليس أدل على عمق الاختلافات بين فلاسفة التنوير من أن روسو ونكر كانا يفخران بالدفاع عن الدين فى حين سعى فولتير إلى تقويضه : غير أن مفهوم روسو للدين كان غائماً وعاطفياً وأبعد ما يكون عن الوضوح . فضلاً عن أن هذا المفهوم استبعد جميع الأفكار الجامدة والمتزمتة من مفهومه للدين . ورغم ما تعرض له الدين فى القرن الثامن عشر من هجوم شرس فقد وجد كثيراً ممن يدافعون عنه ويتحمسون له . ويعتبر ليفر دى توفارى واحداً من أبرز المدافعين عن النظام القديم والمعارضين للأفكار التحررية الجديدة . فهو يذهب فى كتابه «القاموس الاجتماعى والوطنى» (١٧٧٠) إلى أن الحرية تؤدى إلى انهيار النظام الاجتماعى . وبقدر ما أفرز القرن الثامن عشر من روايات تناصب النظام القديم العداء بقدر ما أفرز من روايات تتعاطف معه وتهاجم النظام الجديد . ولكن هذا لا يمنع من أن الاتجاه العام كان أميل إلى الأفكار الجديدة . وتتجلى تناقضات القرن الثامن عشر فى الصراع الذى نشب بين طبقة التجار ورجال الأعمال من ناحية وبين رجال الكنيسة الكاثوليكية من ناحية أخرى حول شرعية القروض والربا وأهميتها فى نجاح المشروعات العمرانية والإنتاجية . ففى حين أصرت الطبقة البورجوازية على أهمية

القروض والربا فى دفع حركة التقدم والانتعاش الاجتماعى والاقتصادى إلى الأمام نرى الكنيسة الكاثوليكية تعارضهما معارضة شديدة .

وليس معنى هذا أن الطبقة البورجوازية نبذت الإيمان بالدين ولكن معناه أن هذه الطبقة فهمت الدين على النحو الذى تريد وبالطريقة التى تتفق مع مصالحها . أى أن الطبقة البورجوازية آمنت بالدين دون أن تسمح له أن يتدخل فى نشاطها أو يحد من كسبها . فلا غرو إذا رأينا هذه الطبقة تأخذ عن ڤولتير دفاعه عن الحريات المدنية وترفض إنكاره للدين ، فقد كان أخشى ما تخشاه الطبقة البورجوازية أن يفقد الدين سطوته على عقول الطبقة العاملة إذ إن هذا من شأنه أن يؤدى بالحتم والضرورة إلى تمردها على النظام القائم .

إن الدعوة إلى الفردية التى بدأت تؤتى أكلها فى القرن السابع عشر أصبحت الركيزة الأساسية فى القرن الثامن عشر ليس فى إنجلترا وحدها بل فى معظم الدول الأوروبية . ويعتبر الاقتصادى الكبير آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) من أهم المدافعين عن حرية الفرد ضد أية قيود قد تفرضها الدولة عليه . فالرأى عنده أن دور الدولة يتوقف عند توفير الحماية والأمن لمواطنيها على الصعيدين الداخلى والخارجى . أى أن واجبها يحتم عليها الاستقرار الاجتماعى والسلام الخارجى دون أن يكون لها الحق فى التدخل فى شؤون مواطنيها وخاصة الاقتصادية منها . وفى كتابه الشهير «ثروة الأمم» يذهب آدم سميث إلى أن الطبيعة استنت قانوناً اجتماعياً من شأنه أن يوفق بين أنانية الفرد ومصلحة المجتمع . يقول آدم سميث إنه وفقاً لهذا القانون الطبيعى نجد أن رغبة الفرد فى الكسب الشخصى تدفعه إلى بذل المزيد من الجهد والعمل على زيادة إنتاجه الأمر الذى سوف يعود بالفائدة على مجموع الناس فى نهاية الأمر .

ولهذا هاجم آدم سميث معظم التشريعات التى تحد من حرية التجارة والصناعة مثل فرض الجمارك لحماية المصنوعات الوطنية والتشريعات المنظمة للعمل والمقيدة لحركة رأس المال . والرأى عند آدم سميث أن العناية الإلهية خلقت قانوناً طبيعياً من شأنه أن يرغم صاحب رأس المال أن يعمل - سواء شاء أو لم يشأ - على خدمة المجتمع حتى ولو كان يسعى عن طريق أثرته وأنانيته إلى تحقيق مصلحته الذاتية . وقال آدم سميث إن إصدار الدولة للتشريعات المقيدة لحرية التجارة والصناعة عبث لا طائل من ورائه . فالذى يحدد الأسعار والأجور هو آليات السوق وقانون العرض والطلب . ودعا آدم سميث إلى عدم وجود أية حاجة للبرلمان . وبطبيعة الحال صادفت آراؤه التى تطالب بعدم تدخل الدولة فى نشاط الأفراد هوى فى نفوس طبقة رجال الأعمال ، فقد أضفى على نشاطهم الرأسمالى شرعية عندما تحدث عن ذلك القانون الطبيعى أو الإلهى الذى يوفق بالحتم والضرورة بين أنانية الفرد ومصلحة المجتمع وهى أفكار ظلت تختمر فى أذهان الناس منذ عهد الإصلاح حتى تبلورت على يد آدم سميث .

٢

أبرز فلاسفة الفكر الحر في القرن الثامن عشر

١ - دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) Hume

لم يكن الفيلسوف الإسكتلندى التجريبى دافيد هيوم ملحداً أو يناصب الدين المسيحى العداء . ولكنه مهد بفلسفته المتشككة الطريق إلى الكفر والإلحاد فضلاً عن وشائج الصداقة والقربى التى كانت تربطه بعدد من رجال الدين المعتدلين . ولسنا نعرف عن حياته سوى النزر اليسير .

ولد هيوم من عائلة ميسورة الحال فى أسكتلندا وتلقى تعليمه فى جامعات فرنسا . وهناك كتب وهو فى نحو السادسة والعشرين أهم أعماله الفلسفية «مبحث عن الطبيعة البشرية» أثناء إقامته فيها من الفترة فى (١٧٣٤) حتى عام (١٧٣٧) ولكن صيته كان آنذاك خامل الذكر فلم يلتفت إلى ظهور مبحثه أحد ، الأمر الذى سبب له ألماً ممضاً . كما أنه فشل عام (١٧٤٤) فى الحصول على وظيفة أستاذ كرسى الفلسفة فى جامعة أدنبره .

وفيما بعد أعاد هيوم نشر مبحثه الذى تجاهله الناس بعد اختصاره تحت عنوان جديد هو «مبحث فى الفهم البشرى» . ولكن حظ هذا المبحث من النجاح لم يكن أفضل من سابقه . ولهذا اتجه من الكتابة الفلسفية الغامضة والعسيرة إلى الكتابة السياسية والتاريخية الواضحة فأصاب قدراً لا بأس به من النجاح . والغريب أنه كان فى مطلع حياته يأمل أن يصبح أديباً (وليس فيلسوفاً) يشار إليه بالبنان . نشر هيوم عام ١٧٥١ كتاباً بعنوان «مبحث عن مبادىء الأخلاق» . ثم «مقالات سياسية» عام ١٧٥٢ ثم «تاريخ بريطانيا العظمى» فى ثلاثة أجزاء (١٧٥٤ - ١٧٥٩) . والجدير بالذكر أن هيوم الذى سار على درب لوك وتأثر بنقيضه باركلى (١٦٨٥ - ١٧٥٣) فى تأكيد كليهما للآثار والمدركات الحسية كأساس للمعرفة الإنسانية لم يدحض فلسفة باركلى الروحية فحسب بل فتح الباب أمام التشكك فى وجود الله وصحة الدين المنزل . والجدير بالذكر أنه كتب حوالى (١٧٤٩) «محاورات فى الدين الطبيعى» أوصى بعدم نشرها فى حياته ونشرت عام (١٧٧٩) أى بعد وفاته

بثلاثة أعوام . ويذهب هيوم فى مبحث شهير له بعنوان «مقال عن المعجزات» إلى أنه لا يوجد أى دليل تاريخى على صحة هذه المعجزات . والمعروف أنه شغل منصب سكرتير فى السفارة البريطانية فى باريس فى الفترة من (١٧٦٣) إلى (١٧٦٥) وأنه قدم العون إلى صديقه چان جاك روسو عندما خشى روسو على حياته فهرب إلى إنجلترا حيث استضافه هيوم .

لعلنا لا نخطىء إذا قلنا إن أهم الموضوعات التى عالجها هيوم فى كتاباته الفلسفية هى : ١ - الانطباعات والأفكار . ٢ - السببية . ٣ - العقل الإنسانى . ٤ - الشك . ٥ - الأخلاق . وسوف نركز على نظرية هيوم فى الشك ونظريته فى الأخلاق باعتبار أنهما أقرب المداخلات لموضوعنا الراهن متجاهلين على نحو متعسف ما بين هذه المداخلات جميعاً من ترابط . ولكننا نبدأ بلمحة سريعة عن موقف هيوم من الموضوعات الثلاث الأخرى .

أ - الانطباعات والأفكار :

يقسم هيوم المدركات الحسية إلى : أ - الآثار الحسية . ب - الأفكار . وكلاهما فى نظره من نوع واحد . يقول زكى نجيب محمود وأحمد أمين فى كتابهما «قصة الفلسفة الحديثة» : كل الفرق بينهما هو درجة القوة التى يؤثر بها كل منهما فى العقل .

فالآثار الحسية أقوى فى العقل أثراً وأوضح ظهوراً . وأما الأفكار فهى عبارة عن آثار حسية تقادم عهدها فوهنت قوتها وضعفت صورها - ومادام الأمر كذلك فلا يمكن أن تنشأ فى العقول إلا إذا سبقتها آثار حسية . وإذن فالآثار الحسية هى المرجع الأخير الذى نقيس به صحة الأفكار وحقيقتها ومن الواضح أن هذا النوع من التفكير يتعارض مع الأفكار الغيبية واللاهوتية والميتافيزيقية .

ب - السببية :

يناقش هيوم ما يعرف بقانون الاحتمال الذى يربط بين السبب والنتيجة أو العلة والمعلول ويحاول أن يثبت بطلان فكرة السببية ، فالإنسان يربط السبب بالنتيجة عندما يرى حادثة تتبع الأخرى فى حين أن هاتين الحادثتين منفصلتان تماماً والإنسان يربط بينهما بحكم العادة الأمر الذى يعنى أن النتيجة لا تترتب على السبب على نحو حتمى وأن ترتبها على السبب فيما مضى لا يعنى ترتبها على هذا السبب فى المستقبل . فالأمر فى هذا التعاقب بين السبب والنتيجة لا يعدو أن يكون احتمالاً . وفكرة السببية نفسها محض اختراع أو أنها خدعة من الخيال كى يفرض على الأشياء رابطة لا وجود لها فى الواقع ولا وجود لها فى العقل المدرك لها .

جـ - العقل الإنسانى :

ليس من شك أن مبحث هيوم فى طبيعة العقل البشرى هو الذى دعاه إلى إنكار السببية أو علاقة العلة بالمعلول وخاصة لأن العقل عنده يعمل بطريقة آلية محضة بموجب قوانين التداعى ، غير أن هيوم الذى تأثر بأفكار كل من لوك وباركلى الخاصة بإيمانهما بأن المدركات الحسية هى أساس كل المعرفة الإنسانية اختلف مع لوك الذى رأى على عكس هيوم أن الذهن البشرى يلعب دوراً إيجابياً فى الربط بين المدركات الحسية .

د - الشك :

يتمثل الشك فى مذهب هيوم فى أنه قام بدحض مزاعم الميتافيزيقيين واللاهوتيين بقدرتهم على إثبات الحقائق مثل وجود الله أو كيف بدأ هذا الكون عن طريق اتباع أسلوب الاستدلال العقلى Apriori بمعنى معرفة هذه الحقائق عن القواعد المنطقية للعقل ، كما أن هيوم دحض وفى الوقت نفسه ادعاء علماء العلوم الطبيعية القدرة على الوصول إلى الحقائق الثابتة والنهائية عن طريق التجربة Aposterioi . فعل هيوم ذلك عن طريق بذر بذور الشك فى قدرات العقل البشرى والحواس على حد سواء وذلك بالتدليل على أن المعرفة الإنسانية بما فى ذلك العلم أمر مشكوك فيه . لقد استخدم هيوم محاجاته للتدليل على أن إيمان الإنسان (بأى شىء) لا يعدو أن يكون حالة نفسية مردها الغرائز والعادة وليس إعمال العقل بشكل منطقى وكامل . فمن وجهة نظر هيوم لو أن الإنسان أعمل عقله ومنطقه حتى النهاية لتخلى عن إيمانه بكل شىء . والرأى عنده أن الإيمان مرده الطبيعة وليس استخدام المنطق . وإذا كان الناس يرفضون اتباع محاجات الشكاك فلا يرجع السبب فى هذا إلى عدم سلامة محاجاتهم بل إلى أن هذه المحاجات تبدو بعيدة ومجهدة وخارج نطاق تجارب الحياة اليومية . ومن الواضح أن هذه النظرية التشكيكية لا تنسف الدين وحده بل العلم كذلك . فضلاً عن أنها تنسف الحواس والعقل معاً .

هـ - الأخلاق :

يقول زكى نجيب محمود وأحمد أمين فى كتابهما «قصة الفلسفة الحديثة» : إن هيوم رأى فى سلوك الإنسان عملاً آلياً محضاً يخلو من حرية الإرادة وأن الدافع الأساسى لسلوكه هو اجتناء اللذة واجتناب الألم فالإنسان يميز بين الخير والشر عن طريق شعوره باللذة والألم .

وينكر هيوم أن للعقل أى دور فى توجيه أعمال الإنسان فهو ينسبها إلى العاطفة كما أنه يفترض وجود غريزة أخلاقية عند البشر من شأنها الحكم على العمل بأنه أخلاقى أو غير أخلاقى بناء على ما يخلقه من لذة أو ألم . والخير فى نظر هذا الفيلسوف المتشكك هو المنفعة ليس بمعناها الفردى ولكن بمعناها العام . وسوف نلاحظ أثر هذه الأفكار عند الفيلسوف الإنجليزى چيرمى بنثام وأتباعه . ومن هنا استحسان البشر للعدل والإحسان . ويقرر هيوم أن للفضيلة ثوابها وللرذيلة عقابها فى هذه الدنيا فثوابها هو الشعور باللذة وعقابها هو الشعور بالألم .

والخلاصة أن الفيلسوف داڤيد هيوم أنكر وجود العالم الخارجى وقال إنه وهم باطل وأضغاث أحلام . وإن معرفتنا به لا تتجاوز إدراكنا الحسى له . ولم يكتف هيوم بالتشكيك فى حقيقة العالم المادى بل شكك فى العقل وعالم الروح والخلود . يقول زكى نجيب محمود وأحمد أمين فى هذا الشأن : «ومن نتائج فلسفة هيوم ، القضاء على كل دليل ينهض على وجود الله . فهو يقول فى كتابه (محاورات فى الديانة الطبيعية) : إننا لا نعلم عن العلة شيئاً إلا أنها الحادثة السابقة التى نشاهدها قبل حدوث معلولها . وإذن فلابد من مشاهدة الحادثتين معاً : السابقة واللاحقة على السواء . إننا نستدل من وجود الساعة على وجود صانعها ، لأننا رأينا الساعة والصانع كليهما . وإذن

فوجود الكون لا يقوم دليلاً على وجود صانعه إلا إذا رأينا الصانع والمصنوع معاً (ص ١٦١) .

وهكذا يتضح لنا بجلاء شديد أن هيوم كان يناصب المذهب التأليهى العداء لأن المذهب التأليهى يرى فى روعة الكون ودقة نظامه دليلاً على وجود الله . ويستطرد مؤلفا «قصة الفلسفة الحديثة» قولهما : «وينكر هيوم فى كتابه (مقالة فى المعجزات) وقوع المعجزة على الرغم من أنه لا ينكر إمكانها . لأن إمكان وقوع المعجزة الخارقة نتيجة طبيعية لمذهبه الذى ينكر ضرورة التتابع السببى بين الأشياء والحوادث . فما دامت الأشياء لا تتتابع فى نظام معين فمن الجائز إذن أن يحدث فى الطبيعة أى شىء ، (ص ١٦١) ويشعر المرء أن زكى نجيب محمود وأحمد أمين على حق عندما يعبران عن دهشتهما من إنكار هيوم للمعجزات على أساس أن التجربة تدل على أن الكون يسير فى نظام معين فى حين أن فلسفة هذا الفيلسوف تحدثنا طيلة الوقت عن احتمالات كسر هذا النظام واضطرابه .

٢ - إيمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) Kant

من النادر أن تجد فيلسوفاً ترك ما تركه إيمانويل كانط فى الفكر الإنسانى .

ولد كانط فى أسرة فقيرة ومتدينة . عاش وعمل فى قرية كونسبرج فى بروسيا الشرقية دون أن يغادرها طيلة حياته تقريباً . وكانت حياته غاية فى الوداعة والهدوء وظل خجولاً وعازفاً عن الزواج حتى النهاية . درس كانط الرياضيات والفيزياء إلى جانب الفلسفة واشتغل أستاذاً جامعياً للمنطق والميتافيزيقا . اشتهر كانط بالانضباط فى عاداته لدرجة أن أهل القرية التى عاش بين ظهرانيهم كانوا يضبطون ساعاتهم عندما يشاهدونه يتريض . فى وقت لا يتبدل ولا يتغير . يقول راسل إن كانط لم يشذ عن هذا الانضباط إلا عندما كان يطالع كتاب جان چاك روسو المعروف «إميل» الأمر الذى يؤكد عمق الأثر الذى تركه روسو فيه . والجدير بالذكر أن والدته أرضعته الدين المتشدد منذ نعومة أظفاره .

غير أن هذا أدى إلى عزوفه عن الكنيسة فى لاحق أيامه رغم حرصه الشديد فى مطلع حياته على حماية الدين من انتهاكات الملحدين . ولكن ما أشبه فيلسوفنا بالطبيب الذى ينذر نفسه لمحاربة وباء الشك فتنتقل إليه عدوى هذا الوباء ويصبح ضحية له . ومن الغرابة بمكان أن يختتم كانط حياته (وهو فى نحو السبعين من عمره) بالدفاع عن الأفكار الهدامة والملحدة . ولولا شيخوخته وشهرته وحماية فردريك الأكبر له لتعرض للأذى . ولولا تسامح فردريك الأكبر معه لما تمكن من نشر أهم أعماله الفلسفية على الإطلاق «نقد العقل الخالص» (١٧٨١) . كانت معرفة كانط بالأدب وثيقة . ولكن الموسيقى وسائر الفنون الجميلة لم ترق له .

أما موقفه السياسى فاتسم بالليبرالية فقد أظهر تعاطفه مع حرب الاستقلال الأمريكية ومع مبادىء الثورة الفرنسية ولكن سيطرة الإرهاب على هذه الثورة نفره منها .

تأثر كانط بعقلانية ليبنتز وبمذهب هيوم التجريبى وإنكاره للسببية واعترف أنه يدين بالفضل لهيوم لأنه أيقظه من سبات الاستمساك المتزمت والضيق الأفق بمجموعة من العقائد . ويخلق بنا أن

نذكر أن كتابات كانط الأولى كانت أقرب إلى العلم منها إلى الفلسفة فضلاً عن أنها تدافع عن وجهة النظر الدينية .

ولا غرو فقد عشق الميتافيزيقا عشقاً لا مزيد عليه . ففى كتابه «نظرية السموات» (١٧٥٥) نراه يسعى إلى إثبات وجود الله عن طريق الجمع فى محاجاته بين الفيزياء واللاهوت . فضلاً عن أنه توصل فى كتاباته الباكرة - شأنه فى ذلك شأن لابلاس - إلى ما يعرف فى علم الفلك فى يومنا الراهن بالنظرية السديمية وهى النظرية التى تقول : إن نظام المجموعة الشمسية كان فى الأصل سديماً تعيث فيه الفوضى ، ولكنه ارتكب أخطاء علمية بادية للعيان منها اعتقاده أن الكواكب الأخرى آهلة بالسكان وكلما ابتعد الكوكب عنا كان ذلك دلالة على سمو سكانه وارتقائهم . وألمح كانط أن الصدفة وحدها قد تحدث انقلاباً هائلاً فى الطبيعة يتمثل فى تطور القردة العليا مثل الشمبانزى والأورانج تانج إلى مخلوقات أرقى ، وهذا جوهر نظرية التطور . ويؤكد لنا راسل شدة اهتمامه بالعلم أكثر من اهتمامه بالفلسفة وأنه عالج نظرية الزلازل بعد الزلزال العنيف الذى ضرب لشبونة وألف مبحثاً عن الرياح . ولا غرو فقد استأثرت الجغرافيا الطبيعية بعظيم اهتمامه . ولكن أهم عمل علمى أنتجه على الإطلاق هو الكتاب المشار إليه عن الأجرام السماوية وعنوانه الكامل «التاريخ الطبيعى العام ونظرية السموات» ثم كتب عام (١٧٦٦) كتاباً بعنوان «أحلام نبى الأشباح» يمتدح فيه الصوفى المعروف سويدنبرج ويدلل راسل على ذلك بوجود جانب صوفى خبىء فى شخصيته . وبعد أن عالج كانط الجانب النظرى من وظيفة العقل فى كتابه الشهير «نقد العقل الخالص» نراه ينتقل إلى معالجة استخدامات العقل التطبيقية فى كتابه «نقد العقل العملى» (١٧٨٦) . فضلاً عن أنه ضمن رأيه فى الأخلاق كتابه «ميتافيزيقا الأخلاق» (١٧٨٥) . ونظراً لوساوسه وخوفه من العدوى بالأمراض فقد كتب وهو فى السبعين من عمره مقالاً يبدو غريباً عن مقدرة العقل على السيطرة على شعور المرض بقوة العزيمة .

ارتبط اسم الفيلسوف كانط بما يعرف بالتصورية الترانسندنتالية (أو المثالية) أى تلك التى تتجاوز عالم الحواس . ويلقى عنوان «نقد العقل الخالص» الضوء على طبيعة هذا المبحث الفلسفى : فكانط الذى ينكر أن المعرفة تأتى إلينا عن طريق الحواس مثلما اعتقد چون لوك يتشكك فى قدرة العقل على التعرف أو تحصيل المعرفة . تساءل كانط عن حدود العقل الخالص فى التعرف وهو يقصد بالعقل الخالص : ذلك العقل الذى لا يعتمد فى تحصيله للمعرفة على التجربة أو الحواس أى العقل على فطرته دون أن يتأثر بما يأتيه من مدركات حسية من العالم الخارجى . ومعنى ذلك أنه فى كتابه «نقد العقل الخالص» يبحث فى إمكانية المعرفة العقلية التى لا تجىء عن طريق التجربة بل تكون موجودة قبل هذه التجربة . ويذهب كانط إلى أن العلم بما وراء المحسوسات أو بما وراء الطبيعة ممكن . ويعرض كانط فى مبحثه لمحاجة التأليهيين الذين يعتقدون أن النظام الكائن فى الكون يشير إلى وجود صانع له . ورغم أن هذه المحاجة تحظى بعظيم احترامه فإنه يرى أنها لا تقنع المرء بوجود الله أو بخالق الكون بل إنها على أحسن تقدير تقنعه بوجود صانع له . فهناك فى نظره فرق بين مفهوم الصانع ومفهوم الخالق . وهو ينتهى إلى القول بأن لاهوت العقل الوحيد الممكن هو ذلك اللاهوت المبنى على

القوانين الأخلاقية أو الذى يسعى إلى الاسترشاد بهذه القوانين ، ويذهب كانط إلى أن أفكار العقل الخالص ثلاثة الله والحرية والخلود . ورغم أن العقل الخالص يستطيع أن يتصور هذه الأفكار فإنه يعجز عن إثبات حقيقتها .

وهذه الأفكار لها جانبها العملى بسبب ارتباطها بالأخلاق فالاستخدام الفكرى الصرف للعقل يؤدى بنا إلى المزالق والأخطاء فى حين أن الاستخدام الصحيح له يرتبط بالغايات الأخلاقية . يستفيض كانط فى شرح هذا الجانب العملى من العقل فى كتابه «نقد العقل العملى» حيث يجادل بأن القانون الأخلاقى ينشد العدالة بمعنى أن يكون هناك تناسب بين سعادة الإنسان وفضائله ومن الواضح أن العالم الذى نعيش فيه يخلو من أية ضمانات لهذا . ومن ثم فإن هناك حياة أخرى تكون فيه العناية الإلهية وحدها هى الضامنة لهذا . ولابد أن تكون للإنسان فى هذه الدنيا حرية لأن الفضيلة لا يمكن أن تقوم لها قائمة بدون الحرية ولاشك أنه من المفارقات بل من المضحكات المبكيات أن نرى أن الفيلسوف كانط الذى أراد أن يذود عن الدين والله ويحميهما من معاول الشك كان أول بل أخطر هادم لهما على وجه البسيطة بسبب فلسفته المؤمنة بعجز كل من المدركات الحسية والعقل عن فهم العالم الخارجى . فنحن لا نعرف عن الأشياء الخارجة عنا غير ظاهرها والإنسان قاصر عن معرفتها على حقيقتها فهو يعرفها وفقاً للصورة التى تنقلها الحواس والعقل إليه . وليس فى استطاعتنا أن نتصور ماهية الأشياء قبل نقلها إلينا عن طريق الحواس والعقل . صحيح أن جميع البشر يشتركون فى إدراكهم للعالم الخارجى لها . نحن باختصار كما أسلفنا لا نعرف عن وجود المادة غير ظاهرها . ووظيفة ما أسماه كانط «الميتافيزيقا الترانسندنتلية» أو ما يسميه زكى نجيب محمود البحث السامى فيما وراء الحس Transcendental Dialectic أن يبين موضع الخطأ فى محاولة العقل أن يتخطى دائرة الحس والظواهر .

إن الزمان والمكان والسببية ليس لها وجود خارجى مستقل عنا ، بل هى سبيل الإنسان إلى فهم التجارب (أو الواقع) وتفسيرها ، ويؤكد كانط أن كل محاولة يبذلها العلم أو الدين فى أن يصل إلى الحقيقة النهائية محاولة فاشلة ؛ يقول زكى نجيب محمود فى هذا الشأن نقلاً عن «قصة الفلسفة» لـ ويل ديورانت فى شرح موقف كانط فى الله والدين : «لو حاول اللاهوت أن يبرهن بالعقل النظرى أن الروح خالدة لا يجوز عليها الفساد وأن الإرادة حرة من قيود السببية والضرورة فسيجدها كلها صوراً عقلية ووسائل يتبعها العقل فى تبويب وتنظيم التجربة الحسية ، فهى إذن لا تكون صحيحة قويمة إلا إذا طبقناها على الظواهر الحسية التى تأتى بها التجربة . أما إذا تعدينا ذلك وطبقناها على المدركات العقلية فهنالك الخطأ والتناقض . وعلى ذلك فلا يمكننا أن نبرهن على صحة الدين بالعقل النظرى» (ص ١٩٣) وحيث أن العلم والعقل عاجزان عن إقامة البرهان على صحة الدين فلا مناص من إقامته على دليل يفوق العقل أو يتجاوزه . هذا الدليل الفوقى أو الترانسندنتالى هو الأخلاق . والأخلاق كما يفهمها كانط ليست تلك السلوكيات التى تسود مجتمعاً ما فى زمن ما كما أنها ليست مستمدة من التجارب الحسية القابلة للشك أو الطعن فيها . الأخلاق هى ذلك الهاتف الفطرى الذى يستلهمه الإنسان فى حياته . هى بلغة جان جاك روسو ذلك القانون الخالد

المحفور فى ضمير الإنسان يهديه إلى سواء السبيل ويجعله قادراً على التمييز بين الخير والشر دون حاجة إلى الالتجاء إلى أية تجارب سابقة أو إلى إعمال العقل . فعندما يرتكب الإنسان خطأ ما يشعر فى قراره قلبه بخطئه حتى إذا دعته نوازعه إلى تكرار هذا الخطأ . ويرى كانط أن سعادة الإنسان تكمن فى اتباع أوامر القانون الأخلاقى ونواهيه . والرأى عنده أن هذه السعادة لا تتبع من أثرة الفرد وأنانيته بل من رغبته فى العمل لخير الجماعة . أى أنها ليست سعادة شخصية بالمعنى المألوف بل هى إحساس بضرورة الانصياع للواجب . ويؤكد كانط أن هذا الهاتف المنبعث من ضمير الإنسان وإحساسه بالواجب ليس سابقاً على التجربة فحسب بل هو الدليل على حرية الإرادة الإنسانية لأننا لا نستطيع أن نتصور فكرة الواجب دون أن نتصور أن الإنسان يتمتع بحرية الاختيار . لقد استنتج كانط حرية الإرادة من إحساسه الفطرى بالواجب . ثم استنتج خلود الإنسان من حرية إرادته . إن خلود الإنسان أمر لا يمكن الاستدلال عليه بالعلم أو العقل . ولكن الهاتف الفطرى الذى يحفزنا إلى عمل الخير لا معنى له بدون الإيمان بالخلود والحياة الأخرى .

فما الذى يدعو الإنسان لعمل الخير إلا إذا كانت الدنيا مجرد تمهيد للآخرة حيث يثاب المرء على فضائله ويعاقب على رذائله ويسوق كانط فكرة الخلود هذه كبرهان على وجود الله الذى - أيضاً - لا نستطيع إقامة الدليل على وجوده بالعقل بل نستدل على وجوده بشعورنا الفطرى بالأخلاق .

ونحن نخطىء إذا ظننا أن هذه المحاجات التى ساقها كانط للتدليل على صحة الدين ووجود الله راقت فى عيون اللاهوتيين ورجال الدين فقد بلغ سخطهم عليه مبلغاً جعلهم يطلقون اسم إيمانويل كانط على كلابهم .

من الواضح أن جان جاك روسو الذى أعلى من شأن القلب على حساب العقل ترك بصماته الواضحة فى فلسفة كانط الذى تعرض للنقد والتجريح بسبب هجومه على الفكر اللاهوتى . ولكن كانط ظل صامداً كالطود الأشم فى وجه هجوم رجال الدين عليه ولم يفت هجومهم عليه فى عضده فنشر كتابين عاصفين توخى فيهما الأسلوب الواضح والبسيط (على غير عادته) فى شرح أفكاره فى الدين والله ونشر كانط فى شيخوخته هذين الكتابين وهما «نقد الحكم» الذى نشره وهو فى السادسة والستين من عمره و«الدين فى حدود العقل الخالص» الذى نشره وهو فى التاسعة والستين من عمره . والجدير بالذكر أن كانط ذهب فى كتابه الأول «نقد الحكم» إلى دحض الرأى الذى يدلل على وجود الله من خلال القول بوجود غاية فى الكون ونحن نراه هنا يعود إلى مهاجمة الفلسفة التأليهية فيسلم مع التأليهيين بأن الكون ينم عن الجمال الرائع والنظام الدقيق ولكنه يتحفظ بأن جماله ليس كاملاً لأن فيه كثيراً من مظاهر العبث ودلائل الفوضى الأمر الذى يجعلنا لا نستطيع أن نجادل بوجوده كدليل على جمال واكتمال الكون . ولكن كانط رفض فى الوقت نفسه المحاجة التى تذهب إلى أن الكون محكوم بمجموعة من القوانين الآلية التى لا تتبدل ولا تتغير ورأى فيها نظرة علمية آلية قاصرة . ويذكر كانط مثل هؤلاء العلماء الآليين بما يسود الكون من روعة وجمال ودقة نظام . وهنا يكرر كانط ما سبق أن ذهب إليه من أنه من الخطأ أن نبنى الأخلاق على الكتب المقدسة والدين المنزل .

فالدين لا ينبغى بأى حال من الأحوال أن يكون المرجع الذى يحتكم إليه الإنسان فى صياغة الأخلاق لسبب بسيط هو أن الدين كثيراً ما يتحول إلى شكل فارغ من المضمون باهتمامه بالطقوس وآليات العبادة فى حين أن أهمية الدين الحقيقى هى فى الأخلاق وفى ذلك الهاتف الفطرى الذى يهتدى به الإنسان فى حياته . لهذا يرى كانط أنه ينبغى على الدين أن يتمشى مع أحكام الأخلاق لا أن تتمشى الأخلاق مع أحكام الدين . وأيضاً يرفض كانط الاستدلال بالمعجزات على صحة الدين فبئس دين يحاول أن يثبت وجوده عن طريق انتهاك قوانين الطبيعة التى تدل تجاربنا على صحتها . ثم إن الدين كثيراً ما يسيس لتسخيره لخدمة أغراض دنيوية مثل تدعيم سلطة الحاكم . ويبدو أن واقع بروسيا السياسى كان خير دليل على صحة أفكاره فقد تولى العرش بعد فردريك الأعظم الذى ازدهرت حرية الفكر فى عهده والذى مات عام ١٧٨٦ ملك رجعى هو فردريك وليم الثانى الذى أصدر عام ١٧٨٨ قانوناً يحرم تدريس أى أفكار قد تكون مخالفة للدين ، ووجد كانط نفسه محاصراً فسعى إلى فك حصاره بإعادة طبع «نقد الحكم» خارج البلاد فاستشاط الملك الجديد غضباً وأرسل إليه رسالة يوبخه ويعنفه فاضطر الفيلسوف الشيخ إلى الامتثال لهذا الأمر الملكى .

٣

فلاسفة فرنسا الماديون

١ - البارون هولباخ (١٧٢٣ - ١٧٨٩) Holbach

إذا كان كانط قد أساء إلى الدين المسيحى دون قصد فإن هولباخ بماديته الواضحة وإلحاده الصريح أضر به عن قصد . اسمه بالكامل بول هينربش ديتربتش هولباخ . وهو فيلسوف من أصل ألمانى مجهول يعود جانب لا بأس به من شهرته إلى صلته الوثيقة بالموسوعيين الفرنسيين منهم جان جاك روسو الذى يصف والد هذا المفكر الأرستقراطى بأنه من الأغنياء الجدد مضيفاً أنه أحضر ولده من باريس فى وقت باكر للغاية . درج هولباخ على استضافة كثيرين من الموسوعيين ومفكرى عصره أمثال هيليفتيوس وهيوم وجاريك وويلكس وديدرو وكونديياك وتورجو وبوفون وستيرن وروسو وقدم إليهم أفخر المشروبات وأشهى المأكولات ، ساهم هولباخ فى الموسوعة التى أصدرها ديدرو بعدد كبير من المقالات عن الكيمياء وعلوم التعدين مترجمة من اللغة الألمانية إلى الفرنسية غير أن كتاباته الفلسفية هى التى لفتت الأنظار إليه .

وفى عام (١٧٦٧) ظهر كتابه «المسيحية بعد أن أميط عنها اللثام» . وفيه هاجم المسيحية بمنتهى الضراوة واعتبرها أصل كل بلاء . ثم واصل هجومه عليها بعنف أكبر فى كتابه الشهير الذى أصدره عام (١٧٧٠) بعنوان «نظام الطبيعة» . ومن الجائز أن يكون ديدرو قد ساعده فى تأليف هذا الكتاب . وعلى عكس التأليهيين آمن هولباخ بالمادية الخالصة فأنكر وجود الله ورفض الاعتقاد بوجود أى شىء غير المادة وذهب هولباخ إلى أن ما يسمى بالروح يندثر باندثار الجسد وأن هدف الإنسان فى الحياة هو السعادة وإلى أن الفضيلة أمر لا قيمة له إذا رأى فيها بعض الناس شقاءهم ورأوا فى الشر سعادتهم . ولهذا نادى هولباخ أن يستبدل بالتربية المسيحية نظاماً تعليمياً يقوم على الأنانية المستنيرة أى الأنانية التى لا تتعارض مع مصلحة الجماعة . ولم يرق إلحاده فى عين ڤولتير التأليهى المؤمن بوجود الله فبادر بالهجوم عليه فى مقال بعنوان «الله» ، نشره فى الإنسكلوبيديا وفعل

الإمبراطور الألمانى المتحرر فردريك الأعظم شيئاً شبيهاً بهذا . ويميل أسلوب هولباخ فى الكتابة إلى استخدام الخطابة والألفاظ الرنانة فى كثير من الأحيان . وقد نشر هولباخ عام (١٧٧٢) فى أمستردام كتاباً حظى بشعبية عريضة بعنوان : «بون ستس» أو الأفكار الطبيعية فى مواجهة الأفكار فوق الطبيعية و«السياسة الطبيعية» (١٧٧٣ - ١٧٧٤) و«الأخلاق العالمية» (١٧٧٦) .

وقد سعت فلسفة هولباخ إلى استحداث نظام أخلاقى يحل محل الأخلاق المسيحية التى هاجمها بشراسة ، والجدير بالذكر أنه نشر كتبه دون وضع اسمه عليها كما أنه نشر بعضاً منها تحت أسماء مستعارة كما أنه وجد نفسه مضطراً إلى نشرها خارج فرنسا بسبب ما تضمنته من هجوم لاذع على الدين . ويقول بعض الدارسين إن روسو رسمه على صورة رجل ملحد فاضل فى روايته «هلويزا» .

يقول هولباخ فى كتابه المهم «نظام الطبيعة» إننا نلاحظ وجود كثير من المؤمنين بالمذهب التأليهى والخارجين على مألوف الدين فى إنجلترا والبلاد البروتستانتية الأخرى ، فى حين أننا لا نجد منها سوى عدد قليل من الملاحدة . ويرجع هولباخ هذا إلى انتشار روح التسامح الدينى فيها بسبب الإصلاح البورجوازى والثورة البورجوازية . ومن ثم فإنه يعتبر إنجلترا والدول الأوروبية البروتستانتية أسعد حالاً وأوفر حظاً من فرنسا الكاثوليكية ودول أوروبا المماثلة التى ترسخ فيها الإقطاع جنباً إلى جنب مع الفلسفات المستنيرة ، التى اضطر القمع والاضطهاد أصحابها إلى القول بأن الإيمان بوجود الله لا يتعارض مع وجود العقل كما هو الحال عند التأليهيين . ويقول باسيل ويلى فى كتابه «خلفية القرن الثامن عشر» إن فلسفة هولباخ - كما تتجلى فى كتاباته - تشير إلى النهاية المنطقية المحتومة التى يؤدى إليها الإيمان بالطبيعة على نحو ما آمن بها كثير من المفكرين فى القرن الثامن عشر .

ولكن الطبيعة عند هولباخ لم تعد تصطبغ بأية صبغة مسيحية على الإطلاق كما أنها لم تعد تسير وفقاً للعناية الإلهية بل انتهت إلى اعتناق موقف لا ينكر الألوهية فحسب بل إنه يسعى ما وسعه السعى إلى الإطاحة برموز الطغيان كافةً سواء كانت دينية أم غير دينية .

يقول باسيل ويلى عن الأفكار الثورية الحديثة مثل الماركسية إنها تحمل كثيراً من خصائص الفكر المادى فى فرنسا فى القرن الثامن عشر مع فارق واحد هو أن الماديين الفرنسيين فى هذا القرن جنحوا إلى التفكير الميتافيزيقى وليس إلى التفكير التاريخى أو الديالكتيكى . ويضيف باسيل ويلى إن هولباخ يشارك بوجه عام مفكرى هذا القرن إيمانهم بأن شقاء الإنسان يرجع أساساً إلى الابتعاد عن الطبيعة والانحراف عن نواميسها وقوانينها المقدسة التى درج هؤلاء المفكرون على تبجيلها ، ولكنه أحياناً يختلف عنهم فى الاعتقاد بعدم وجود تلك الهوة السحيقة التى رأى فلاسفة القرن الثامن عشر أنها تفصل بين ما هو طبيعى وما هو مصطنع . ويذهب باسيل ويلى إلى أن تقديس هؤلاء الفلاسفة للطبيعة ليس سوى استبدال لمشاعرهم الدينية بالإيمان بقداسة الطبيعة وهو رأى سبق للناقد الكبير ت . أ . هيوم أن أشار إليه فى كتابه «تأملات» . ويرد باسيل ويلى تبجيل الماديين فى القرن الثامن عشر للطبيعة إلى اعتيادهم من الناحية الذهنية النظر إلى المؤسسات الإنسانية بطريقة

مفرطة فى تجريدها متجاهلين أن هذه المؤسسات هى نتيجة التطور التاريخى وإلى اعتقادهم أن العيوب والنقائص التى تشوبها ترجع إلى المقاييس الثابتة التى يضعها كل من الطبيعة والعقل . والرأى عند هولباخ أن الإنسان يؤمن بوجود الله بسبب عدم فهمه للطبيعة فالكون فى نظره يتكون من المادة والمادة فى نظره ليست مجرد شىء خامل ينتظر من يبعث فيه الحركة من الخارج بل هو شىء فى حالة حركة دائمة . وهكذا يردد هولباخ ما سبق للتأليهى تولاند أن ذكره فى هذا الصدد . والرأى عند هولباخ أن الطبيعة لا تعرف الفوضى بل إن الفوضى هى نوع من النظام يغيب عن مدارك البشر الذين يعتبرون إزعاج الطبيعة لهم ضرباً من الفوضى والطبيعة تحكمها قوانين القصور الذاتى وحفظ الطاقة . ويعتقد هولباخ أن الإنسان يتوهم أنه يتمتع بحرية الإرادة فى حين أنه فى كل لحظة من لحظات حياته مجرد أداة سلبية فى يد القدر ولأن الإنسان وجد نفسه قادراً على الفعل أو التصرف فقد دخل فى روعه أنه يملك بداخله مبدأ دافعاً مستقلاً عن الطبيعة . إن هذا الخطأ فى رأيه هو المسؤول عن اعتقاد الإنسان الخاطىء بالخلود ووجود الروح . أما الروح فهى مجرد جسد قادر على أن يفكر ويشعر ويشاء . والرأى عنده أن الإيمان بأن المادة مفكرة وقادرة على التفكير أبسط وأكثر طبيعية بكثير من الإيمان المسيحى بازدواجية المادة والروح وهى الازدواجية نفسها التى انتهت إليها فلسفة ديكارت و«التى تثير من المشاكل والصعوبات أكثر من الإيمان البسيط بقدرة المادة على التفكير» . ويستشهد هولباخ بآراء الفيلسوف هوبز فى الإحساس والتفكير والتذكر والتخيل صحيح إنه من الصعب على الإنسان أن يفهم الآليات الداخلية التى تعمل الروح بمقتضاها ولكن الصعوبة تزداد عسراً إذا تخيلنا أن الروح كائن لا سبيل إلى وصفه وحيث أن الروح وظيفة الجسد فإن الطريق إلى الروح يكمن فى الجسد ، الأمر الذى يجعل الطب المفتاح الحقيقى للأخلاق . ومن ثم فإن التفكير المادى يوفر مزايا للأخلاق يعجز عن توفيرها لها الإيمان بوجود الروح ولهذا فإنه من الأهمية بمكان أن نعمل على تحسين بنية الإنسان المادية لأن مثل هذا التحسين قمين بتحسينه من الناحية الأخلاقية ، ومن الطبيعى أن تكون هناك أرواح شريرة مادامت تعيش فى أجساد بائسة وتعيسة والإنسان بطبيعته ليس خيراً أو شريراً فالطبيعة خلقت البشر آلات تسعى إلى تحقيق السعادة . والفرق بين بعض الآلات وبعضها الآخر أن هذا البعض يتمتع بطاقة ونشاط أكبر من بعضها الآخر .

ويعزو هولباخ فساد الأرواح فى زمانه إلى فساد نظام الحكم والتعليم والدين والرأى العام التى تتضافر جميعاً من أجل تشويه الأرواح .

والفضيلة فى رأيه هى كل ما يعود على أفراد المجتمع بالنفع ، كما يتلخص واجب الإنسان الأخلاقى فى استخدام الوسيلة المناسبة لإسعاد الناس حتى يقوم هؤلاء الناس بدورهم بإسعاد الغير .

و هذا يعنى أن مراعاة الفضيلة أمر فى صالحنا وهو الأساس الحقيقى للأخلاق .

ووظيفة القانون فى المجتمع هى حمايته من أن يحقق الأفراد مصالحهم على حسابه وينبغى على السياسة أن تعمل على كبح جماح الأفراد وتوجيه نشاطهم لصالح المجموع . ويقول هولباخ إن الإيمان بوجود حياة أخرى لا يعدو أن يكون سراباً خادعاً من شأنه أن يصرف أنظار الناس عما هو أهم منها

وهو المجتمع فى الوقت الحالى . ولهذا دعا هولباخ إلى تركيز القوانين والنظام التعليمى حتى يجعل من مصلحة الناس وسعادتهم مراعاة الفضيلة فى هذه الدنيا وهو يستند فى هجومه الشديد ضد الدين على الطبيعة التى يدعو الإنسان إلى ترسم خطاها ولكن على نحو يختلف عما دعا إليه التأليهيون ، وهو يرفض الدين لثلاثة أسباب أولها أن الدين يقدم لنا أساساً خاطئاً وثانيها أن تعاليم الدين تتعارض مع الحقائق العلمية وثالثها أن الدين يساند النظم الاجتماعية والسياسية الفاسدة وهو يعزو نشأة الدين إلى الخوف الذى يشعر به الإنسان البدائى نحو المجهول ، يقول هولباخ عن الدين : «إنه كان دائماً نظاماً سلوكياً اخترعه الخيال والجهل من أجل تهدئة تلك القوى المجهولة التى يعتقد أنها تتحكم فى الطبيعة» فالدين فى الأصل يرجع دوما إلى الإيمان بوجود إله غاضب وأنه بالإمكان تهدئة غضبه . والكهنة يقيمون حقوقهم ومعابدهم ومحرابهم وثروتهم وسلطتهم ومعتقداتهم الجامدة على أساس هذه الفكرة الصبيانية المضحكة . وتنبنى على هذه الأسس البدائية كل النظم الدينية فى العالم . ورغم أن الإنسان فى بداوته وهمجيته هو الذى اخترع أصلاً هذه الأسس الساذجة فإنها لاتزال تسيطر على مصائر أكثر الأمم رقياً . ويقول هولباخ : «إن الدين أصبح فى يومنا الراهن فناً جعل الناس سكارى بالحماس بهدف صرف انتباهم عن الشرور التى يلحقها بهم حكامهم على هذه الأرض وجعلهم يقبلون التعاسة فى هذا العالم على رجاء الحياة السعيدة فى العالم الآخر» . ويرى هذا الفيلسوف الملحد أن هذه النظرة تسىء إساءة بالغة إلى مبادىء الأخلاق لأن الإنسان الذى يكتشف زيف الأساس الدينى الذى تنبنى عليه الأخلاق يفترض أن مثل هذه الأخلاق لابد أن تكون زائفة زيف الدين نفسه ، الأمر الذى يغريه بالفسق والفجور . ويترتب على ذلك أن تصبح كلمتا ، «كافر» و«فاسق» مترادفتين . فى حين أن هذا الترادف سوف يختفى فى حالة اتباعنا الأخلاق المستمدة من الطبيعة بدلاً من الأخلاق المستمدة من اللاهوت . فالأخلاق المستمدة من الطبيعة من شأنها أن تنبذ التطرف وتحفظ الإنسان من الأذى وتحرم ما يحرمه العقل كما أن الطبيعة تحرم عليه الإتيان بأية أفعال لا توفر له السعادة الدائمة . إن الجهل وحده هو الذى يجعل الإنسان يؤمن بالآلهة فى حين أن الاستنارة تقضى على الإيمان بها . ويحمل هولباخ الكهنة مسؤولية استمرار الإنسان فى الإيمان بهذه الآلهة رغم أننا أصبحنا نعيش فى عصور أكثر استنارة عن ذى قبل . ويعتبر هولباخ أن صديق الإنسان الحقيقى هو من يحطم فكرة وجود الله ويرى أن تفسير الظواهر بأسباب فوق الطبيعية يعود إلى نفوذ رجال الدين السيىء . وهو يشير إلى كتاب يدافع عن وجود الله نشره صامويل كلارك عام (١٧٠٤) بعنوان : «مبحث عن وجود الله وصفاته» . يقول هولباخ أن جميع الصفات التى ينسبها كلارك إلى الله مثل الخلود واللانهائية غير قابلة للفهم وإنها تنطبق على المادة والطبيعة بصورة أوضح . صحيح أننا لا نفهم جوهر المادة ولكننا نعرف مظاهرها على أقل تقدير ونتأثر بها فى حياتنا طيلة الوقت فى حين أننا لا نعرف عن اللا مادة شيئاً . ومن ثم يحق لنا أن نتجاهلها . والحركة صفة ضرورية ولازمة للمادة مثل الامتداد والشكل . ومن ثم فليس هناك ما يدعونا إلى البحث عن محرك خارج الطبيعة .

ويعتقد هولباخ أن بحث الإنسان عن محرك أول فوق الطبيعة أو خارجها دلالة على قصوره .

وهو قصور شاب اسحق نيوتن نفسه . فمجرد أن خرج نيوتن عن دائرة عمله فى الهندسة والفيزياء نراه يصبح طفولياً فى تفكيره وإيمانه بوجود الله . والرأى عند هولباخ أن الطبيعة هى كل شىء والخالقة لكل شىء . وهى لا تعمل بمحض الصدفة ولكنها تتبع مجموعة من القوانين الثابتة والنواميس التى لا تتغير . وهو أيضاً يهاجم ديكارت للسبب نفسه ولكنه فى الوقت نفسه يرفض فلسفة سبينوزا التى تؤمن بحلول الله فى الكون يقول باسيل ويلى فى هذا الشأن إن هولباخ أضفى على المادة من الصفات المدهشة ما يجعلها شيئاً قريباً من فكرة الله . والمادة فى نظره فى حالة نمو مستمر ويضيف هولباخ إن الطبيعة ليس لها غاية أو هدف سوى وجودها واستمرارها فى الوجود . والإنسان يخطىء حين يفصل الله عن الطبيعة والروح عن الجسد والحياة عن الكائن العضوى . ويجب أن يتعلم الناس أنه ليس هناك شىء خارج الطبيعة وإن العلم وحده (أى معرفة الطبيعة وتطبيق هذه المعرفة على سلوك الإنسان فى المجتمع) هو الذى يستطيع إسعادهم . وهو يهاجم الكهنة لأنهم يشجعون على انتشار الأسرار والأفكار الغامضة . يقول هولباخ فى هذا الشأن : إن الطبيعة الواضحة والمفهومة لا تبدو مقدسة فى نظر الرجل العادى ولن تكون لها أية فائدة تذكر لطبقة القساوسة ورجال الدين» ورغم هذا فإن هولباخ يتحفظ مردفاً قوله : «إن الدين الطبيعى رغم أنه أفضل من الدين الكهنوتى إلا أنه ينبنى على أسس لا تخلو من العيوب والشوائب ، فالذين يتخيلون أنهم يرون (الله) فى الطبيعة يخدعون أنفسهم لأنهم يرون فقط جانباً من الصورة فى حين تغيب عنهم الصورة بأكملها» وليس من شك أن هولباخ يهاجم كلا من المذهب التأليهى والمذهب المؤمن بحلول الله فى الطبيعة وأيضاً يدرك هولباخ أن الإيمان بالدين الطبيعى قد يتحول فى نهاية الأمر إلى الإيمان بالخزعبلات . وفى إنكاره الواضح الصريح لوجود الله يضع هولباخ المؤمنين بالله والتأليهيين فى سلة واحدة فيقول : «هكذا يتضح أن التألهيين والمؤمنين بالله ليس لديهم ما يبرر تمييزهم عن المؤمنين بالخزعبلات وأنه يستحيل وضع خط فاصل بينهم وبين أكثر الناس سذاجة وتصديقاً للترهات» . ويضيف هولباخ إلى هذا قوله : «إن الإنسان الذى يسمح لنفسه أن يؤمن بالدين سوف يكون على أهبة الاستعداد للإيمان بأى شىء يقول به الدين» ، ويعلق باسيل ويلى على هذا قائلاً إن هولباخ لم يرتح قط لبشاعة منظر العالم الفعلى ، الذى رأى أنه يتعارض مع فكرة وجود خالق قادر على كل شىء وتسع رحمته كل شىء ، أنه لا يمكن النظر إليه باعتباره كائناً أخلاقياً بسبب ما تزخر به الحياة من فظائع وبشاعات ولكن نغمة هولباخ تتغير عندما يتحدث عن الطبيعة ولبس عن منظر العالم الفعلى ، يقول هولباخ : «إن الطبيعة تدفع الناس إلى التغلب على الشرور والانتصار عليها عن طريق إدراك القوانين التى تسير الطبيعة بمقتضاها فى حين أن الدين يحول بينهم وبين السعى لتحقيق هذا الهدف لأنه يجعلهم يتطلعون إلى السماء ويشخصون بعيونهم إليها ويركزون أبصارهم عليها» ، وهذا يذكر لنا هولباخ كيف أن الدين يشجع على الإيمان بالخزعبلات فيقول : «إنه عندما حلت المجاعة بباريس عام (١٧٢٥) وبدأت مقدمات الثورة تظهر فى الأفق قام الناس بإحضار التابوت الصغير الذى يضم رفات القديسة جنفياف راعية باريس التى يعبدها الباريسيون وأخذوا يطوفون بالتابوت فى شوارع باريس حتى يقضوا على الكارثة التى نزلت بهم» .

ثم يطرح هولباخ التساؤل الذى يجول فى أذهان كثير الناس هل هناك حقاً علاقة بين الإلحاد والانحلال الخلقى ؟ فيرد بأن هناك علاقة أكيدة بين الانحلال الخلقى والإيمان بالخزعبلات ولكنه ينكر وجود أية علاقة بين الإلحاد والاتجاه نحو الفسق . فالإلحاد فى رأيه يشجع على اتباع الفضائل الاجتماعية . صحيح أن بعض الناس قد يعتنقون الإلحاد كى يفعلوا ما بدا لهم ويسيروا على (حل شعرهم) ولكن الناس الطيبين سوف يهاجمونهم ويتصدون لهم باعتبارهم أعداء الفضيلة ، الرأى عنده أن الإلحاد لن يحول إنساناً طيباً إلى إنسان شرير كما أنه لن يحول إنساناً شريراً إلى إنسان طيب . فالإنسان وما جبل عليه فإذا تصادف أن كان الملحد رجلاً شريراً فإنه على أقل تقدير لن يزعم أنه يفعل الشر بسماح من الله كما يفعل المؤمنون بالدين ، وأغلب الظن أن يصبح الملحد المنطقى مع نفسه إنساناً طيباً وليس أدل على ذلك من تلك القائمة الطويلة من الملحدين النابهين الذين يجمعون بين المسالمة والاجتهاد فى العمل أمثال أبيقور ولوكريشيوس وبودين وسبينوزا وهوبز ، فى حين أن التعصب الدينى هو الذى دفع بالملك تشارلس إلى حبل المشنقة . ويستطرد هولباخ فيقول إن الإلحاد على أية حال لا يصلح لأن يكون عقيدة الشعب ومن ثم فليست له أية أخطار سياسية على الإطلاق .

والجدير بالذكر أن إلحاد هولباخ ترك أثره الجلى الواضح فى تفكير الشاعر الرومانسى الملحد المعروف شلى الذى استشهد فى المذكرات التى ألحقها بقصيدته كوين ماب بفقرتين من كتاب هولباخ «نظام الطبيعة» إحداهما تقول : إن الطبيعة لا تعرف الصدفة فكل شىء فيها محكوم بالحتم والضرورة حتى إذا بدا غير ذلك ؛ أما الفقرة الثانية فتهاجم فكرة الإيمان بوجود الله . ولكن بعد انقضاء عشرة أعوام طرأ تغيير على اقتناع شلى بآراء هولباخ ومن سار على دربه من الماديين الفرنسيين فقد كتب عام (١٨٢٢) يصف مذهبهم بالزيف ويصمه بالضرر ، غير أنه اعتبره على كل حال أفضل من المبادىء المسيحية مثلما اعتبر الفوضى أفضل من الاستبداد . ولعل أبرز من تأثر فى إنجلترا بأفكار هولباخ هو وليم جودوين الذى تأثر به كل من الشاعرين الرومانسيين شلى ووردزورث ، غير أن وردزورث تخلص من أثر جودوين فيه فى حياته اللاحقة .

لقد آثرنا أن نبدأ حديثنا بهولباخ نظراً لأهميته كأبرز فيلسوف مادى فرنسى ولكن . . يجدر بنا أن نشير إلى أن اثنين من المفكرين الفرنسيين هما كونديلاك وهلفتيوس مهدا السبيل لظهور إلحاد هولباخ . ولهذا نعطى نبذة سريعة عنهما فيما يلى .

٢ - كونديلاك (١٧١٥ - ١٧٨٠) Condillac

لم يكن إتيين بونوت دى كونديلاك مفكراً فذا ومع ذلك فقد ترك بصماته الواضحة على الفلسفة المادية رغم أنه آمن بوجود الله وأنكر فقط الدين المنزل . ولولا كونديلاك وهلفتيوس لما ظهر إلحاد هولباخ . تأثر كونديلاك تأثراً واضحاً بفلسفة لوك التى يمكن أن نصفها بالنبع الذى تفرعت منه مدرستان كانتا على طرفى نقيض هما المدرسة الإنجليزية المثالية والمدرسة الفرنسية المادية التى ينتمى إليها كونديلاك . لم تناصب المدرسة الإنجليزية الدين العداء بل سعت إلى ترسيخ التسامح الدينى والتوفيق بين العقل والدين على خلاف المدرسة الفرنسية التى لفظت الدين واعتنقت المذهب المادى .

ينحدر كونديلاك من عائلة من دارسى القانون واقتدى بأخيه الأكبر فى الانخراط فى سلك الكهنوت ولكن الأخوين سرعان ما خلعا عنهما رداء الكهنوت . وقد اتسمت شخصية فيلسوفنا بالحذر والتحفظ الأمر الذى وقاه الأذى رغم اتصاله بفلاسفة الثورة الفرنسية الراديكاليين بل إنه كان موضع ثقة البلاط الذى عهد إليه بتدريس حفيد الملك لويس الخامس عشر . واتجه كونديلاك منذ باكورة أيامه ليحيا حياة الفكر والتأمل وألف مجموعة من المباحث هى . «مبحث عن أصل المعارف الإنسانية» (١٧٤٦) و«مبحث عن ا لنظم» (١٧٤٠) و«مبحث عن الحيوانات» (١٧٥٥) كما ألف كونديلاك منهجاً دراسياً شاملاً (١٧٦٧ - ١٧٧٣) يقع فى ثلاثة عشر جزءاً من أجل تعليم فرديناند دوق بارما بإيطاليا وحفيد لويس الخامس عشر . وبعد وفاته نشر كتابه «المنطق» (١٧٨١) ، «لغة حساب المثلثات» (١٧٩٨) الذى توفى دون أن يكمله ، وكان منذ باكورة حياته على اتصال بالموسوعى الكبير ديدرو كما ربطته حتى آخر أيامه وشائج الصداقة بچان جاك روسو الذى تولى إعطاء دروس خصوصية لأولاد عمه المسيو دى مابلى فى مدينة ليون . وفى عام (١٧٦٨) اختارته الأكاديمية الفرنسية عضواً فيها ، ثم آثر أن يعيش فى عزلة عن العالم على إيراده الخاص منصرفاً إلى البحث والتأمل .

ويرجع الفضل إلى كونيديلاك فى تعريف الفرنسيين بفلسفة جون لوك الحسية كما يرجع إليه الفضل فى تطوير علم النفس ، وفى مبدأ حياته أظهر كونديلاك تأثراً غير محدود بفلسفة لوك فى المعرفة الحسية . وفى تلك الفترة من حياته هاجم كونديلاك أفكار ديكارت ومالبرانش وليبنتز وسبينوزا . ويعتبر مبحثه فى الحواس أهم أعماله على الإطلاق وهو مبحث يدل على أنه تخلص من سيطرة لوك الطاغية عليه وأخذ يسلك سبيلاً مستقلاً عنه . وقد ساعدته على هذا الاستقلال تلك المناقشات الذكية المستفيضة التى أجراها مع سيدة عالية الثقافة اسمها مدموازيل فيراند ، التى بذرت بذور الشك فى بعض أفكار لوك الخاصة بالمعرفة الحسية . فلا غرو إذا رأينا كونديلاك يحتفظ بأفكار لوك الخاصة بالأحاسيس وينبذ أفكاره الخاصة بالتفكير . وبذلك كما يقول يوسف كرم فى كتابه (تاريخ الفلسفة الحديثة) «يذهب كونديلاك فى الحسية إلى أبعد من لوك فإنه يقصر التجربة على الإحساس الظاهرى ويستغنى عن التفكير كمصدر أصيل للمعرفة .» وهو تفسير مادى خالص يفضى مباشرة إلى الإلحاد والحتمية لأنه ينكر الجانب الروحى فى المعرفة الإنسانية . ويبدو أن كونديلاك لم يكن يدرى الإلحاد والحتم المترتبين على تفسيره المادى للمعرفة الإنسانية . ولكنه ما من شك فى أنه كان صادقاً فى إيمانه بالروح وبالله وفى محاولة التدليل على حرية الإرادة فى بعض كتاباته . ورغم هذه التناقضات فقد استطاع أن يجعل من دراسة النفس علماً وأن يترك بصماته الواضحة على الفكر الفرنسى والفكر الإنجليزى ، فقد تأثر به من الإنجليز كل من جيمس مل وجون ستيوارت مل كما تأثر به هربرت سبنسر .

٣ - هلفتيوس (١٧١٥ - ١٧٧١) Helvitius

ولد الفيلسوف والأديب كلود أدريان هلفتيوس فى أسرة ميسورة الحال تحترف مهنة الطب . وكان أبوه طبيباً للملكة مارى لكزينسكا فى فرنسا ، توفر هلفتيوس على دراسة شؤون المال والأعمال

وطلبت الملكة تعيينه فى خدمتها وهو فى الثالثة والعشرين من عمره فى وظيفة مرموقة تعرف بالمزارع العام وهى وظيفة تدر على صاحبها عائداً مالياً كبيراً . وهكذا استطاع هلفتيوس أن يقضى وقت فراغه فى ترقية ذوقه الأدبى والفنى من ناحية والاستمتاع بأطايب الحياة إلى أقصى حد من ناحية . وعندما تقدم به العمر راوده حلم أن يصبح عالم رياضيات مشهوراً مثل لموبرتوبيس وشاعراً يشار إليه بالبنان كفولتير وفيلسوفاً فى مثل عظمة مونتسكيو ، ولكن حلمه فى تحقيق الشهرة كعالم رياضيات وشاعر لم يسفر عن شيء ذى بال . ولكن دراسته للفلسفة أثمرت عملاً كتب له الشهرة والذيوع فقد ألف كتاباً بعنوان «عن الروح» وشعر هلفتيوس أن دخله من ممتلكاته يكفيه كى يعيش فى عزلة فى الريف حيث أنفق جانباً كبيراً من ثروته الطائلة على الفقراء والمعوزين . وعندما ألف هلفتيوس كتابه «عن الروح» (الذى قدم دابليو مدفورد ترجمة إنجليزية له عام ١٨٠٧) كان الأمل يحدوه أن ينافس كتاب مونتسكيو المعروف «روح القانون» الذى ظهر عام (١٧٥٨) وبالفعل لفت كتاب هلفتيوس الأنظار إليه على الفور ولقى معارضة شديدة من الكثيرين وخاصة من ولى العهد ابن الملك لويس الخامس عشر ، وقامت جامعة السوربون بإدانة الكتاب واقتنعت كنيسة البلاط الملكى بأن الكتاب يزخر بالمذاهب الخطرة والهدامة وذعر المؤلف للعاصفة الهوجاء التى أثارها كتابه فتراجع عن الآراء التى يتضمنها فى ثلاث مناسبات منفصلة . ورغم زعمه بأن آراءه لا تخرج عن صحيح الدين فقد أرغمه البلاط أن يتخلى عن مكانته فيه . وقام عشماوى بحرق كتابه علناً أمام الملأ . وزاد هذا من إقبال الناس على قراءته وترجمته إلى كل اللغات الأوروبية تقريباً وهاجم فولتير الكتاب ووصفه بأنه عادى وأن الجانب الذى يبدو مبتكراً فيه ينطوى على الزيف . وكذلك هاجمه روسو . واتهمه جريم بالسطو على أفكار ديدرو . وزعمت مدام دى جرافينى أن هلفتيوس استقى كل أفكاره المبتكرة من المناقشات التى كانت تدور فى صالونها الأدبى ، ولم يتقدم للدفاع عنه غير مدام دى ديفاند التى قالت إن كل جريرة هلفتيوس أنه كان يقول بصراحة وعلناً ما كان الآخرون يقولونه سراً ، وفى عام (١٧٦٤) زار هلفتيوس إنجلترا . وفى العام الذى يليه دعاه فردريك الثانى لزيارة برلين حيث احتفى به وأكرم وفادته . وبعد عودته إلى فرنسا آثر الانزواء فى ريفها حيث أمضى البقية الباقية من حياته فى هدوء كامل .

وتنتمى فلسفة هلفتيوس النفعية إلى المدرسة المادية . ويمكن تلخيص هذه الفلسفة فى أربع نقاط (أولها) أنه بإمكاننا أن نرد كل قدرات الإنسان بما فى ذلك الذاكرة والقدرة على المقارنة والحكم إلى الإحساسات المادية أو الفيزيقية وليس هناك فارق بين الإنسان والحيوان فى هذا الشأن . وثانيهما أن حرص الإنسان على مصلحته الخاصة - الذى يقوم على حب اللذة والخوف من الألم - هو المصدر الوحيد لأحكامنا وأفعالنا ومشاعر الحب التى تجيش فى صدورنا حتى إنكار الذات مصدره إحساس الإنسان بلذة تفوق ما قد يشعر به من ألم . ومعنى ذلك أن التضحية بالذات عملية حسابية مقصودة . ويضيف هلفتيوس أن الإنسان لا يتمتع بحرية الاختيار بين الخير والشر كما أنه ليس هناك عدل أو ظلم مطلق لأنهما يتغيران وفقاً للعادات والتقاليد ، و(ثالثها) أن جميع العقول متساوية وأن الفروق التى نراها بين هذه العقول ترجع إلى عدم رغبتها فى التعليم بالدرجة نفسها . فلو أن الناس

رغبوا فى التعليم بالدرجة نفسها لما كان هناك أى تفاوت بينهم فى العلم والذكاء ، و(رابعها) وأخيراً يناقش هلفتيوس مفهوم العبقرية والخيال والموهبة والذوق الخ . ومن الواضح أن بنتام وجون ستيورات مل تأثراً بإيمان هلفتيوس بقدرة التعليم على عمل أى شىء .

٤

أعلام المذهب التأليهى فى بريطانيا في القرن الثامن عشر

١ - تندال Tindal (١٦٥٣ - ١٧٣٣)

يرجح الدارسون أن التأليهى الإنجليزى ماثيو تندال ولد عام (١٦٥٣) فى منطقة ديفونشير بجنوب إنجلترا ، وهو من الرعيل الأول للتأليهيين الإنجليز بعد اللورد هربرت تشربرى . درس تندال القانون فى كلية لنكولن فى أكسفورد . وفى عام (١٦٧٨) وقع عليه الاختيار لتعيينه أستاذاً بكلية «كل الأرواح» بجامعة أكسفورد . وعام (١٦٨٥) تقريباً دافع عن كنيسة روما وهاجم كنيسة إنجلترا لانفصالها عنها مؤكداً أنه ليس هناك ما يبرر هذا الانفصال ثم انضم إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . ولكنه لم يقتنع بسخافات النظام البابوى فآثر الرجوع إلى الكنيسة الإنجليزية التى هجرها .

ألف تندال عدداً من الكتب كان أولها «مبحث فى طاعة القوى العليا» (١٦٩٤) و«مبحث فى سلطة القاضى والحقوق الإنسانية فى أمور الدين» (١٦٩٧) و«حرية الصحافة» (١٦٩٨) . وفى عام (١٧٠٦) ظهر الجزء الأول من جزئى مجلده الضخم «حقوق الكنيسة المسيحية المنضمة ضد الكنيسة الرومانية وكل القساوسة الآخرين الذين يرون أن لهم سلطاناً مستقلاً عنها» . واعتبر هذا الكتاب عند ظهوره بمثابة دعوة إلى ضرورة خضوع الكنيسة لسلطة الدولة الأمر الذي أثار ملاحاة شديدة بين مؤيد ومعارض ، وحاول بعضهم رفع دعوى ضد الكتاب ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل ؛ غير أن إحدى هذه المحاولات ضد المؤلف والناشر وصاحب المطبعة التى يرجع تاريخها إلى ١٢ ديسمبر (١٧٠٧) أصابت نجاحاً . وفى اليوم التالى (١٣ ديسمبر) نجحت محاولة أخرى فى مقاضاة بائع الكتاب ، ولكن رفع الدعوى ضد الكتاب ومؤلفه لم يحل دون صدور طبعة رابعة منه وقيام صاحبه بإصدار كتاب بعنوان «دفاع عن حقوق الكنيسة المسيحية» . الذى أمر مجلس العموم البريطانى

عشماوى بإحراقه عام (١٧١٠) . وقد استمر حظر هذا الكتاب لعدة أعوام . واعتقد تندال أن أسقف لندن الدكتور جيسون كان يرمى من وراء «خطابه الرعوى» اتهامه بتدمير الدين وتشجيع الكفر والإلحاد وهى تهمة سعى تندال إلى دحضها فى كتاب لا يحمل اسم مؤلفه بعنوان «خطاب إلى سكان لندن ووستمنستر» والذى ظهرت طبعة ثانية منه عام (١٧٣٠) . ويتضمن هذا الكتاب دفاعاً شجاعاً ومجيداً عن المذهب التأليهى . ويعتبر هذا الكتاب بمثابة المقدمة التى أدت إلى ظهور أشهر أعماله التأليهية على الإطلاق تحت عنوان «مسيحية قديمة قدم الخليقة أو الكتاب المقدس ، إعادة لنشر دين الطبيعة» (لندن - ١٧٣٠) وهو كتاب توالت طبعاته واعتبره التأليهيون كتابهم المقدس ثم توفر تندال على استكمال هذا الكتاب فى مبحث آخر عهد بمخطوطته إلى صديق له . لكنه لم ير طريقه إلى النشر مطلقاً . وأثار كتابه «مسيحية قديمة قدم الخليقة» ردود فعل عاصفة فتصدى كثيرون للرد عليه مثل جيمس فورستر فى عام (١٧٣٠) وجون كونى بير فى عام (١٧٣٢) وجون ليلاند فى عام (١٧٣٣) والأسقف جوزيف بتلر فى عام (١٧٣٦) ، وفى عام (١٧٤١) تولى ج لورنز شميدت ترجمته إلى الألمانية فكان السبب فى تأثر الألمان بالمذهب التأليهى الذى يعتبر الإنجليز أول دعاته . وقد أطلق تندال على نفسه اسم «التأليهى المسيحى» اعتقاداً منه بعدم وجود تعارض بين المسيحية والمذهب التأليهى وبأن المسيحية الحقة تطابق دين الطبيعة الخالد . والجدير بالذكر أن تندال استقى مذهبه التأليهى من مذهب جون لوك التجريبى .

٢ - بولنجبروك Bolingbroke (١٦٧٨ - ١٧٥١)

هو سليل الحسب والنسب والسياسى الإنجليزى المرموق الفيكونت هنرى سانت جون بولنجبروك . تلقى بولنجبروك العلم فى مدرسة إيتون الخاصة وسافر إلى الخارج خلال الفترة من ١٦٩٨ حتى ١٦٩٩ . مكنته أسفاره من اتقان اللغة الفرنسية إتقاناً تاماً . أمضى شبابه فى معاقرة الخمر والاستغراق فى العربدة والملذات على نحو أذهل أصدقاءه ومعارفه واستغرقته العربدة الصاخبة أسابيع بأكملها . وذات يوم دخل فى مباراة مع واحد من عتاة السكارى فاستطاع أن يتفوق عليه فى كمية الخمر التى احتساها وشاهده أحد معارفه فى حالة سكر بيّن فى حديقة يجرى عرياناً كما ولدته أمه . وفى عام (١٧٠٠) تزوج من سيدة أرستقرطية واسعة الثراء ولكن الزواج زاد من ثرائه دون أن يصلح من أخلاقه . وفى عام ١٧٠١ اختير عضواً فى البرلمان وأعلن عن تأييده الكامل لحزب المحافظين واستطاع بفضل طلاقة لسانه أن يسيطر سيطرة عظيمة على مجلس العموم وكانت علاقته بهارلى رئيس هذا المجلس طيبة للغاية ، وفى الفترة من (١٧٠٤ إلى ١٧٠٨) أصبح وزيراً للدفاع فى وزارة هارلى . ولكن علاقته بهارلى ما لبثت أن تدهورت ؛ ولعب بولنجبروك دوراً بارزاً فى المفاوضات المؤدية إلى عقد معاهدة سلام بين إنجلترا وفرنسا تعرف بمعاهدة أولبرخت عام (١٧١٣) غير أن هذه المعاهدة لقيت معارضة شديدة من خصومه السياسيين فضلاً عن أن مناوراته ومؤامراته السياسية التى لا تنتهى أدت إلى إثارة سخطهم عليه فحاولوا الاعتداء على حياته . وفى عام (١٧١٥) اضطر إلى الفرار خارج البلاد ولم يسمح له بالرجوع إليها إلا عام (١٧٢٣) ليشتغل مرة أخرى بالدسائس والمؤامرات ، وقد تأثر السياسى الإنجليزى المعروف دزرائيلى بكتاباته السياسية

وبخاصة كتابيه «الملك الوطنى» و«خطابات عن دراسة وفائدة التاريخ» . ويقول الباحثون إن كتابات بولنجبروك التى تهاجم اللاهوت المسيحى من وجهة نظر تأليهية تتسم بالضحالة ومن ثم فهى لم تترك وراءها أى أثر يذكر .

٣ - جون تولاند (١٦٧٠ - ١٧٢٢) Toland

ينحدر جون تولاند من أصول غامضة ، فالبعض يعتقد أنه ابن غير شرعى لأحد القساوسة الكاثوليك . وأغلب الظن أنه ولد يوم ٣٠ نوفمبر (١٦٧٠) .

كان تولاند فى صباه يعمل برعى الغنم حتى سن الرابعة عشرة . وظل يدين بالكاثوليكية الرومانية حتى تحول إلى المذهب البروتستانتى فى السادسة عشرة من عمره . وأظهر تفوقاً دراسياً واضحاً والتحق عام (١٦٨٧) بجامعة جلاسجو بأسكتلندا حيث درس علوم الفلسفة واللاهوت واللغة اللاتينية وشيئاً من الإغريقية . وفى عام (١٦٨٩) قرر الانتقال إلى جامعة أدنبره التى منحته درجة الماجستير فى الآداب . وبعد أن عاش بعض الوقت مع عدد من العائلات الإنجليزية البروتستانتية سافر إلى ليدن بهولندا حيث درس اللاهوت ، ثم عاد إلى إنجلترا ليعيش فى كل من لندن وأكسفورد .

وفى أكسفورد قام بعض رجال الكهنوت باحتضانه . ولكنه أحاديثه المهرطقة فى مقاهى أكسفورد وحاناتها صدمت مشاعرهم وخيبت ظنهم فيه . فقد شاهدوه وهو يحرق كتاب الصلوات العامة كما استمعوا إليه وهو يهاجم الكتاب المقدس ويبرر قتل البيوريتانيين الثوار للملك تشارلس الأول ويتهكم على الأكليروس ، الأمر الذى أثار حفيظة بعض الناس عليه فأرسلوا إليه عام (١٦٩٤) خطابات تهديد غفلاً عن الإمضاء تعترف له بسعة الإطلاع ولكنها تتهمه بالأريوسية واعتناق المذهب الصوصيانى . ورغم أن تولاند أنكر هاتين التهمتين فإنه اضطر عام (١٦٩٩) إلى أن يهرب ليحمى نفسه من ملاحقة بنى جلدته له . وازدادت الشكوك فى صحة عقيدته لأنه كتب نبذة بعنوان «مقالتان» تضمنت رأيه فى الملاحاة التى دارت آنذاك بين توماس بيريت وجون وودوك حول ضرورة تحديث التاريخ الجيولوجى كما ورد فى سفر التكوين . فقد انتهز تولاند فرصة هذه الملاحاة للتعبير عن نظريته فى الكون وآرائه الخاصة بالأديان والأساطير القديمة بما فيها المسيحية . كان تولاند على علاقة بالفيلسوف المعروف جون لوك ،فقد جمع بينهما إيمانهما بضرورة إعمال العقل فى أمور الدين . ولكن لوك آثر الابتعاد عن تولاند حتى لا يقترن اسمه به خوفاً من أن يجلب نزق تولاند واندفاعه وخيلاؤه عليه المتاعب . فعلى العكس من تولاند نرى أن لوك يتوخى الحذر فى تصرفاته والتعبير عن آرائه . وزاد من خشية جون لوك على نفسه أن مدينة أدنبره الأسكتلندية شاهدت حادثة إحراق طالب مراهق فى كلية الطب اسمه توماس إيكندهيد لأنه هاجم الثالوث وشك فى صحة الكتاب المقدس .

وفى عام (١٦٩٤) سافر تولاند إلى أكسفورد حيث أكمل كتابه المثير للجدال «المسيحية بدون أسرار» والذى تمكن من نشره عام (١٦٩٦) .

ويذهب هذا الكتاب كما أسلفنا إلى عدم وجود تعارض بين إعمال العقل والمسيحية وأن ما يشوب المسيحية من أسرار غامضة يرجع إلى تسرب الأفكار الوثنية إليها وإلى المؤامرات التى يحيكها الكهنة .

والذى لا ريب فيه أن تولاند فى هذا الكتاب تأثر بمبحث لوك «معقولية الدين المسيحى» . رفض لوك وتولاند التسليم بالأفكار التقليدية الدينية والسياسية السائدة . وحتى صيف (١٦٩٦) لم يكن تولاند يجرؤ على نشر اسمه كمؤلف كتاب «المسيحية بدون أسرار» . ولو أن هذا الكتاب ظل مجهول المؤلف لتجنب صاحبه الكثير من المتاعب والمنغصات التى جرها حرصه على نسبة الكتاب إليه . ومعنى هذا أن هذه المتاعب والمنغصات لحقت به كنتيجة لغروره وخيلائه ورغبته الملحة فى إظهار جسارته وجرأته للعالم . وعلى العكس من ذلك توخى صديقه جون لوك الحذر الشديد فى نشر كتاباته المثيرة للجدل . ولم يقتصر توخى الحذر على لوك وحده فقد شارك فيه الكثيرون من الداعين إلى المذهب اليونيتارى الذى ينكر التثليث وألوهية المسيح .

كان لجون لوك صديق يدعى مولينو فتنته شخصية تولاند فعبر عن شدة إعجابه به كباحث ومفكر حر أمين يستمسك بأفكاره . ونقل مولينو لصديقه إعجابه الشديد بتولاند ولكنه لاحظ فى الوقت نفسه شدة كراهية الأيرلنديين له (وعلى الأخص رجال الدين) الذين استفز مشاعرهم فى فترة وجوده بين ظهرانيهم . وعلق لوك على ملاحظات صديقه مولينو بقوله إنه يعيب على تولاند زهوه وغروره اللذين يدفعانه إلى الاصطدام بمشاعر الناس . كما أنه عبر عن شديد استيائه من تولاند الذى لا يكف عن ربط اسمه به . ولهذا قرر لوك التنصل من صداقته لتولاند والابتعاد عنه لأنه قمين بطيشه ونزقه أن يجر المتاعب على نفسه وعلى معارفه وخاصة بعد أن أقام المدعى العام فى أيرلندا الدعوى ضده . ولو أن كتاب «المسيحية بدون أسرار» نشر فى لندن لما هاجت الدنيا وماجت على مؤلفه . ولكن نشر الكتاب فى دبلن أثار ثائرة الأيرلنديين عليه فاتهموه بالدعوة إلى الصوصيانية وإنكار ألوهية المسيح . وقد دفع نشر هذا الكتاب رئيس أساقفة دبلن إلى أن يوحى إلى أحد أتباعه أن ينشر نبذة تستعدى السلطات المدنية على الكتاب ومؤلفه . وبعد أن تدارس مجلس العموم الأيرلندى التقرير الذى رفعته إليه اللجنة التى شكلها لفحص كتاب «المسيحية بدون أسرار» والذى جاء فيه أن الكتاب يدعو إلى الهرطقة ، اجتمع هذا المجلس فى سبتمبر (١٦٩٥) ليأمر بالقبض على تولاند ويتولى المدعى العام رفع الدعوى ضده وبأن يقوم عشماوى بإحراق الكتاب ، وأبلغت السلطات الدينية المحلية فى أيرلندا رئيس أساقفة كانتربرى فى إنجلترا بالإجراءات التى اتخذتها ضد تولاند وطلبت إلى الكنيسة الإنجليزية ملاحقة هذا المهرطق والكشف عن المحرضين له من كبار رجال الدولة فرحب رجال الدين الإنجليزى باقتراحات نظرائهم الأيرلنديين . والجدير بالذكر أن تولاند ألقى بنفسه فى بحر السياسة المتلاطم الأمواج فغرق فيه .

وعندما شعر تولاند فى أيرلندا بدنو الخطر منه قرر مغادرتها والعودة إلى إنجلترا الأمر الذى أنقذه من براثن السجن المحقق . غير أن متاعبه لم تنته إلى هذا الحد فقد وجهت إليه فى إنجلترا تهمة اليونيتارية التى تنكر التثليث وألوهية المسيح . ولكنه أنكر هذه التهمة كما أنكر تهمة الأريوسية التى

سيقت ضده وأيضاً دفع تولاند عن نفسه تهمة الصوصيانية . ورغم أنه كان صادقاً فى إنكاره لهذه التهم فيبدو أن كنيسة إنجلترا العالية أرادت أن تستغله ككبش فداء فى صراعها ضد الحركات الدينية والسياسية المتحررة مثلما تمثلت فى حزب الأحرار الذى كان يعرف آنذاك بحزب الهويجز وفى الحركة الدينية التى نشأت فى القرن السابع عشر والمعروفة بالحركة الداعية إلى التسامح المتسيب Lat-itudinarianism نظراً لتهاونها فى كثير من عقائد المسيحية وتنظيماتها وطقوسها .

وفى عام (١٦٩٨) ألف تولاند كتاباً بعنوان «حياة الشاعر ميلتون» اتُّهم بعض فقراته بالهرطقة . وعبر المتدينون عن سخطهم على هذا الكتاب وشبهوا مؤلفه بطالب الطب الأسكتلندى المهرطق توماس أيكندهيد الذى انتهى الأمر بإحراقه . فكان من الطبيعى أن يخشى تولاند على نفسه أن يلقى مصيراً مماثلاً وأن يشد رحاله عن إنجلترا ويسافر إلى هولندا عام (١٦٩٩) طلباً للأمان . وهكذا أصبح اسم تولاند مضغة فى الأفواه كما أصبح شخصاً طريداً ومقيتاً لدى قطاعات عريضة من المجتمع ، الأمر الذى رأى معه كثيرون أن الحكمة تقتضى منهم الابتعاد عنه .

حتى المتعاطفون معه وعلى رأسهم لفيف من كبار الهويجز أو حزب الأحرار خشوا من الارتباط به بسبب نزقه وطيشه وتهوره فآثروا الابتعاد عنه كما فعل جون لوك من قبل . وبالرغم من انفضاض كثيرين عنه فقد ظلت قلة من زعماء حزب الأحرار تسانده مثل جون هولز دوق نيوكاسل الذى احتضن فكرة نشر مذكرات تولاند ، والسير روبرت كلايتون مدير بنك إنجلترا حينذاك وغيرهما من رجال المال والأعمال . واتهم تولاند بأنه فى فترة تلمذته فى أسكتلندا أنشأ جمعية سرية تعرف بجماعة الروزينكروشيان نسبة إلى رجل اسمه روزينكروش دعا إلى التوفر على دراسة أسرار الطبيعة وأنواع المسيحية الغريبة وغير المألوفة . فضلاً عن أنه أنفق ما يقرب من نصف حياته فى دراسة فلسفة جيوردانو برونو .

وفى مارس عام (١٧٠٢) تعهد تولاند للمجمع الدينى الذى تولى التحقيق معه بالامتناع عن الزج بنفسه فى المستقبل فى أية منازعات دينية . ولكنه فعل ذلك دون أن يتراجع عن مواقفه اللاهوتية السابقة واتهم أعداءه بالسعى إلى اصطياده والوقيعة به . وفى عام (١٧٠٤) أعلن أن إعمال العقل يؤدى بالمرء إلى الانتقال عن طريق المذهب الأرمنيوسى إلى المذهب التأليهى . ولكنه أخذ فى الوقت نفسه يتظاهر بقبول المعتقدات التى تعتنقها الكنيسة الإنجليزية .

وعندما اعتلت الملكة آن عرش إنجلترا وأيرلندا فى عام (١٧٠٢) شعر بالخطر المباشر يتهدده . فقد كانت هذه الملكة شديدة الغيرة على كنيسة إنجلترا الأمر الذى اضطر الكثيرين من الهراطقة والتأليهيين إلى التخلى عن أفكارهم . وصدق ظنه ففى ١٦ مايو (١٧٠٢) قام مجلس اللوردات بإدانة نبذة نشرها بعنوان «أسباب مخاطبة جلالة الملك» واصفاً إياها بأنها نبذة فاضحة وخطرة وتميل إلى حض الرعية الإنجليز على كراهية ملكتهم . والجدير بالذكر أن الفيلسوف الألمانى المعروف ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) أظهر تعاطفه مع أفكار تولاند اللاهوتية وذهب إلى أن تولاند كان ضحية مؤامرة خسيسة لتشويه سمعته وإلصاق تهمة الإلحاد به . والجدير بالذكر أيضاً أن تولاند كان فى فترة من فترات حياته على علاقة طيبة ببلاط عائلة هانوفر الملكية فى ألمانيا . (وهى عائلة كانت تربطها بإنجلترا

فى القرن السابع عشر أوثق الروابط) . وفى برلين دُعي تولاند إلى الاشتراك فى عدة مساجلات دينية تتسم بالعنف والاحتدام . وقدمته أميرة هانوفر إلى قسيسها الخاص إسحق بوسوبر على أنه «واحد من المتشككين فى الأساس الذى تنهض عليه عقيدتنا» وهو الكتاب المقدس . وحاول تولاند من جانبه أن يشرح لقسيس أميرة هانوفر مفهومه عن المسيحية . فبدأ بإلقاء ظلال من الشك على العهد الجديد ، وشيئاً فشيئاً وجد تولاند نفسه يدافع عن آراء أثارت الانزعاج الشديد فى نفس القسيس لدرجة أنه شك فى أن الإله الذى يؤمن به تولاند هو الإله نفسه الذى يؤمن به المسيحيون . وكان الفيلسوف ليبنتز حاضراً فأراد تحذير تولاند من أن ولعه بالمفارقات وبمعارضة الأفكار المستقرة يدفعه إلى الشطط وإلى المناداة بأفكار لا تقل فى تحجرها وتزمتها عن الأفكار التى يسعى إلى دحضها . ولما فشل ليبنتز فى ثني تولاند عن شططه اضطر رئيس الديوان الملكى إلى التدخل ونصح الأميرة بقطع كل صلاتها بهذا المهرطق فعملت بنصيحته وغادر تولاند ألمانيا ليعود إلى إنجلترا واصفاً نفسه بالغريب خارج بلاده وبلا صديق داخلها . ويمكن القول إن معظم أصدقائه وأنصاره انفضوا عنه باستثناء دوق نيوكاسل وشافتسبرى .

وتراكمت الديون على تولاند الذى بدأ يعانى من ضائقة مالية شديدة الوطأة فاضطر إلى استرضاء سياسى من حزب الأحرار اسمه هارلى الذى انتهز هذه الفرصة لاستغلاله من الناحية السياسية . فضلاً عن أنه قام بترجمة قصص إيسوب الخرافية عن الحيوانات من اللغة الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية . وعلى أية حال وجد تولاند مساندة من السياسى المعروف وليم بن الذى سعى قدر ما يستطيع لانتشاله من ضائقته المالية . وفى تلك الفترة من حياته اعترف تولاند بأن سبب النكبات والمصائب التى حلت به يرجع إلى نزقه وطيشه وافتقاره إلى سند وعمل مستقر وأرض يعيش على ريعها . ومن الجائز أن علاقته بوليم بن ترجع إلى أنه أخذ يظهر فى أخريات أيامه تعاطفاً مع جماعة الكويكز (التى ينتمى إليها بن) بعد أن تخلى عن الاحتقار الشديد لها الذى سبق أن عبر عنه بكل وضوح وجلاء فى الفترة بين (١٧٠١ و١٧٠٤) .

وعلى أية حال بدأ تولاند عام (١٧٠٤) يتخلى عن هجومه على كنيسة إنجلترا وأخذ الولاء لها . فذهب فى كتابه «شرح مبادىء الإصلاح البروتستانتى» إلى أن خلاف أى مواطن إنجليزى مع كنيسته القومية فى بعض المعتقدات لا يبرر مطلقاً انسلاخه عنها أو انشقاقه عليها . بل إننا نراه فى عام (١٧٠٧) يتباهى بولائه لشخص مؤسس الدين المسيحى وتعاليمه . كما إننا نراه فى وقت لاحق من العام نفسه يطلب إلى أحد معارفه أن يضمن حسن سيره وسلوكه لدى رئيس أساقفة كانتربرى ؛ ورغم أن كثيرين لم يصدقوا تحوله إلى الدين المسيحى أو يأخذوه مأخذ الجد فإن البعض الآخر شهد له بالإيمان بكنيسة إنجلترا . وحتى يكون عند حسن ظن رجال هذه الكنيسة سعى تولاند فى تلك الفترة من حياته إلى الابتعاد عن معارفه وأصدقائه من الملاحدة أمثال أنتونى كولينز وماثيو تندال . غير أن (ريمة ما لبثت أن عادت إلى عادتها القديمة) فما كاد تولاند يغادر إنجلترا ويطأ بقدمه أرض أوروبا حتى عاد إلى سابق انفلاته الدينى وبدأ يوزع على الناس نسخاً من كتابه المشبوه «المسيحية بدون أسرار» .

ولا مناص من الاعتراف بأن تولاند ارتضى تحت شدة الحاجة إلى المال أن يشتغل عميلاً وجاسوساً فى خدمة نفر من الساسة الإنجليز من ذوى النفوذ والسلطان وعلى رأسهم روبرت هارلى أحد زعماء حزب الويجز (أو الأحرار) آنذاك الذى كان ولى نعمته فى الفترة بين عامى ١٧٠٧ - ١٧١٠ على وجه التحديد . ورغم أن مساعدات هارلى المالية لم تصل إلى يدى تولاند بشكل منتظم فقد تكفل بنفقات سفره المتكرر إلى البلاد الأوروبية حيث طاف بهولندا وألمانيا والنمسا وغيرها من الدول . ولكن هولندا راقت له أكثر من أى بلد أوروبى آخر فاستقر فيها لفترات أطول . وبالنظر إلى أن هولندا كانت تدين بالمذهب البروتستانتى فقد نذر تولاند نفسه فى تلك الفترة من حياته للدفاع عن هذا المذهب وأيضاً الدفاع عن حرية الضمير والعبادة ضد النظام البابوى .

غير أنه ما لبث أن تحول عن البروتستانتية وبدأ يهاجمها الأمر الذى بين أن تولاند مجرد أجير وعميل فى خدمة كل من يدفع له الثمن ، فضلاً عن أن بعض (البلطجية) التابعين لمارلبورو السياسى الإنجليزى المرموق اعتدوا عليه بالضرب المبرح لأنه هاجم سيدهم لمصلحة هارلى منافسه . والجدير بالذكر أن لغطاً ثار فى فرنسا - أثناء وجود تولاند فيها - حول ولادة هذا الرجل غير الشرعية - فالتجأ تولاند إلى جماعة من الرهبان الأيرلنديين الفرنسيسكان الذين يعيشون فى فرنسا فهدؤوا من روعه وطيبوا خاطره وأدلوا بشهادة مفادها أنه ينحدر من منبت كريم . والغريب أن هارلى ولى نعمته كان يعامله باستهانة وازدراء . فصرح بأن تولاند دأب على فرض نفسه عليه وأنكر أية صداقة تربطه به وأكد أن الشىء الوحيد الذى جعله يسمح لتولاند بالاقتراب منه هو ما نُمي إليه من سعة إطلاع هذا الرجل . ويدل هذا على مدى استغلال رجال السياسة لتولاند . واستغل بعض أعداء تولاند تصريح هارلى المهين لإفساد علاقة تولاند الطيبة بكل من العائلة المالكة فى هانوفر بألمانيا وبالفيلسوف الألمانى الكبير ليبنتز . وساعد على استياء ليبنتز من تولاند أنه هاجم الدين فى كتابه «أديسيديمون» . وقال إن هناك علاقة وثيقة بين الدين والإيمان بالخزعبلات .

والذى يدل على هوان شأن تولاند أن رقة حاله اضطرته إلى مداهنة روبرت هارلى الذى بدأ يستعيد نفوذه السياسى الذى شاءت تقلبات السياسة الحزبية أن يفقده بعض الوقت . فما إن استرجع هارلى حظوته لدى الملكة آن حتى بادر تولاند بتهنئته وتقديم اسمى آيات العرفان له . ولكن مشاعره نحو هارلى لم تكن آنذاك خالصة . واكتشف هارلى هذا وأن تولاند يخفى تأييده لمعارضيه فغضب منه وأشاح بوجهه عنه فألفى تولاند نفسه بلا سند أو صديق . ولم يجد ما يقتات به فالتجأ إلى ترجمة شيشرون إلى اللغة الإنجليزية لعلها تحل مشكلته المالية . ولكن ترجمته أخفقت ولم تجد الرواج الذى توقعه لها . فاضطر تولاند إلى الاشتغال بالصحافة الأسبوعية كى يسد رمقه . كما أنه استأنف كتاباته اللاهوتية المثيرة للجدل . وفى عام (١٧١٧) أصدر تولاند كتاباً يقع فى جزءين بعنوان «تشريح دولة بريطانيا العظمى» دافع فيه عن إلغاء القوانين الخاصة بمعاقبة الانشقاق الدينى .

وبالرغم من كثرة الكتب والمنشورات التى أصدرها تولاند فقد ظل يعانى قلة الدخل وشظف العيش . ولهذا نراه يشكو زمانه وجشع الناشرين وأصحاب المكتبات . لم يربح تولاند من مؤلفاته العديدة غير النزر اليسير ؛ ولعل مكسبه من كتابه «فن الحكم عن طريق الأحزاب» يفوق مكسبه من

بقية كتبه . ومع ذلك فإن مكسبه من هذا الكتاب لم يتعد عشرين جنيهاً . وليس أدل على ضآلة دخله من الكتب أن ستة من كتبه لم يربح الواحد منها أكثر من ستة جنيهات . وقد عكف باحث يدعى إسحق دزرائيلي على استقصاء دخل تولاند من كتاباته فوجد أنها جميعاً لم تدر عليه طيلة حياته أكثر من مائتي جنيه . وفي (١٧٢٠ و١٧٢١) أقدم تولاند على شراء أسهم في شركة بحر الجنوب ، يراوده الأمل أن ترتفع قيمتها فيما بعد فتعود عليه بالكسب الوفير . وشجعه صديق ثرى على الاقتراض حتى يتمكن من شراء هذه السندات . ولكن قيمة هذه السندات سرعان ما انخفضت بدلاً من أن ترتفع فازدادت حالته المالية سوءاً . ومما يذكر أن الروائي الإنجليزي المعروف دانييل ديفو صاحب رواية «روبنسون كروزو» ساهم في (تجريسه) فقد كشف للناس أن كتاب «تشريح دولة بريطانيا العظمى» من تأليف تولاند وليس مجهول المؤلف . والذى دعا ديفو إلى التشهير به أن تولاند سخر قلمه للدفاع عن حزب الويجز أو الأحرار وفي تلك الفترة من حياته التصقت تهمة الإلحاد به لدرجة أن المتحررين في فهم الدين خشوا على أنفسهم من الارتباط به . والذى لاشك فيه أن تهمة الإلحاد بادية التجنى عليه فمن الثابت أنه كان يدين بالمذهب التأليهي أى أنه آمن بوجود الله رغم إنكاره للدين والتنزيل .

ازدادت حالة تولاند سوءاً في سنواته الأخيرة فقد تخلى عنه جميع أصدقائه ومعارفه باستثناء صديق واحد أو اثنين فعاش في غرفة واحدة في فقر مدقع وضنك شديد . ولاذ بالخمر كى تنسيه واقعه المرير . وتدهورت صحته بشكل واضح وبدأ يعانى من وجود حصى في كليته وأقعده المرض وألزمه الفراش فأشفق عليه أعداؤه ورثوا لبؤسه ، ووصفه أحد أعدائه وهو توماس هيرن بأنه ذلك الكافر التعس الذى يستهويه التجديد من أجل التجديد . وحتى الصحافة رثت لحاله فكتبت عنه تقول : «لا يوجد إنسان سطر كل هذا العدد من المجلدات للهجوم على الدين دون أن يتمكن من أن يلحق بالدين أذى ضئيلاً لا يكاد يذكر الأمر الذى يجعل المرء يتساءل : «هل يشفق المتدينون من أهل الورع والتقوى عليه أم أن أقرانه الكفرة يحملون له الاحتقار ؟» ومما شوه صورته أنه كان دائم الاستدانة من أصدقائه دون أن يسدد لهم ما عليه من ديون تراكمت عليه حتى أثقلت كاهله .

عاش تولاند وحيداً بلا زوج أو ولد . ولكن هذا لم يمنعه من إقامة العلاقات المحرمة مع عدد من النساء كما أنه استغرق أحياناً في ممارسة القمار . ودفعته طباعه الاجتماعية ورغبته في الاتصال بالناس إلى كثرة ارتياد المقاهي والحانات لعلها تؤنس وحشته ؛ وإلى جانب شغفه بالموسيقى والفنون التشكيلية وجد السلوى أحياناً في الذهاب إلى الريف لصيد السمك .

ورغم أن تولاند لم يكن مجدداً أو مبتكراً في عالم الفكر فقد استطاع أن يعبر عن عصره أصدق تعبير وأن يتمثل أبرز الاتجاهات الفكرية التي سيطرت على القرن الثامن عشر ويصيغها بأسلوبه المميز الذى يتسم بالفكاهة والمفارقة دون أن يتسم بحضور البديهة أو السخرية أو الهجاء الذى شاع بين كتاب هذا القرن وشعرائه مثلما نجد عند الشاعرين ألسكندر بوب ودرايدن . ورغم طيشه واندفاعه اللذين سبق الإشارة إليهما فلا مناص من الاعتراف بأنه كان في بعض الأحيان يتوخى الحذر فيخفى دعوته إلى المذهب التأليهي ويدعى التزامه بقواعد الدين المسيحى التقليدية الأمر الذى لم ينطل على

كثيرين من معارفه وقرائه . يقول بيير دى ميزو فى هذا الشأن إنه سمع أن تولاند تعلم من طائفة الصوصيان أن مذهبهم يبيح التقية عند الضرورة . وهذا ما يؤكده الباحث الثقة جون ليلاند الذى يعتبر أول من استقصى بشكل شامل المذهب التأليهى فى إنجلترا إذ يقول إن التأليهيين الإنجليز كثيراً ما درجوا على إخفاء حقيقة ما كانوا يؤمنون به تحت أقنعة متنوعة . وقد عرض تولاند نفسه لهذا فى بعض كتبه فذهب فى الكتاب الذى ألفه عام (١٧٢٠) بعنوان «تيترا ديموس» إلى أن الاضطهاد يجعل المؤلفين ذوى ملمس ناعم وحذرين فى معظم الأمور من الإفضاء بما يجول بعقولهم بل إنه يدفعهم إلى التعبير عن أنفسهم بعبارات غامضة . ولا عجب فى ذلك فقد نص القانون حتى وقت تولاند على ألا يتولى المناصب العامة كل من ينكر الثالوث أو ينادى بتعدد الآلهة . فضلاً عن تجريده من حرياته المدنية والزج به فى السجن . وقد ظل هذا القانون سارياً ولم يلغ إلا فى السنوات الأخيرة من حكم الملك جورج الثالث (١٧٣٨ - ١٨٢٠) . ولولا أن تولاند توخى شيئاً من الحذر فى التكلم عن نفسة لانتهى أمره بالمحرقة مثلما انتهى إليها طالب الطب إيكنهد من قبل . ولهذا نرى تولاند ينصح بعدم تمزيق ثوب الأفكار التقليدية دفعة واحدة والاكتفاء بعمل ثقوب صغيرة وكثيرة فيه سوف تتسع حتى يتمزق الثوب كله بمرور الوقت . وقد ساعد الأسلوب المميز القائم على المفارقة - والذى دعا تولاند إلى استخدامه فى صدر كتابه «المسيحية بدون أسرار» - هذا المؤلف فى التخفيف من وطأة هجومه على الدين بل إخفاء هذا الهجوم أحياناً . والجدير بالذكر أن تولاند ألف كتاباً عن فيلسوفة الإسكندرية الوثنية «هيباشيا» تحدث فيه بازدراء شديد عن مضطهديها من النساك المسيحيين .

كان تولاند شديد الوثوق بصحة آرائه ويكتب بسرعة ملحوظة ، فضلاً عن أنه كان يطرح بطريقة تبدو عرضية بعض التساؤلات التى تثير الشك فى عقول القراء مثل التساؤلات التى طرحها فى كتابه عن سيرة حياة جون ميلتون ولماذا امتنع ميلتون فى آخر أيامه - وهو الشاعر الدينى الكبير - عن ممارسة شعائر الدين بشكل علنى . ويتساءل تولاند : «هل يرجع هذا لكراهيته لمناقشات رجال الأكليروس التى لا تعرف الهوادة ومنازعاتهم التى لا تنتهى والساعية إلى الهيمنة وبسط النفوذ والجانحة إلى الاضطهاد . أم أنها ترجع إلى أنه فكر فى أن بإمكانه أن يصبح رجلاً صالحاً دون الإيمان بمبادىء أى حزب أو أن جميع الأحزاب أُفسدت بعض الأشياء فى مؤسسات يسوع المسيح ؟ إننى لن أغامر بالإجابة عن هذا التساؤل» .

قلنا إن تولاند لم يكن مبتكراً فى فكره اللاهوتى الذى يهاجم الدين المسيحى ، فقد استمد كثيراً منه من مجموعة من الكتب والمباحث الفرنسية التى تبذر بذور الشك فى صحة العقيدة المسيحية مثل الكتاب الذى ألفه ريتشارد سيمون بعنوان «ملاحظات جديدة حول نصوص ونسخ العهد الجديد» (١٦٩٥) وكتاب آخر ألفه ل . س . تيليمون بعنوان «مذكرات فى خدمة التاريخ الكنيسى» (١٦٩٣) وكتاب ألفه الأب نيكولاس مالبرانش بعنوان «البحث فى الحقيقة» (١٦٧٤) وبعض مقالات بايل المنشورة فى «القاموس التاريخى والنقدى» (١٧٠٢) ومهما حاول البعض الحط من شأن تولاند واتهامه بالعمالة والمغامرة والمهادنة والتقية أحياناً والتزلف لذوى النفوذ ، فإنه أفضل من عبر عن

الأفكار التأليهية فى عصره . وعندما وورى الثرى يوم ١٣ مارس فى كنيسة بضاحية بتنى القريبة من لندن كتب على الشاهد المقام فوق قبره «إن روحه انتقلت إلى رحاب الله تعالى وإن جسده عاد إلى أحضان الطبيعة التى خلقته وإنه إذا بعث من الموت فلن يكون الشخص نفسه ،» وبهذه الكلمات شاء تولاند فى فقره ومرضه ووحدته أن يودع العالم الذى ازدراه فى حياته ليحفل به بعد مماته .

٤ - شافتسبرى (١٦٧١ - ١٧١٣) **Shaftesbury**

ولد الإيرل شافتسبرى الثالث الذى ينحدر من عائلة عريقة المحتد فى لندن فى ٢٦ فبراير (١٦٧١) . كان جده إيرل شافتسبرى الأول صديقاً للفيلسوف الإنجليزى جون لوك الذى عهد إليه بأمر تربيته عندما كان فى الثالثة من عمره فجاءت تنشئته متمشية مع المبادىء التى أرساها هذا الفيلسوف فى مبحثه «أفكار حول التربية» . وفى عام (١٦٨٣) ألحقه والده بكلية ونشنستر التى ما لبث أن تركها من أجل السفر فى بقاع العالم المختلفة سعياً وراء الفائدة والمتعة معاً . وفى عام (١٦٩٥) أصبح عضواً فى حزب الأحرار (الويجز) فى البرلمان نائباً عن دائرة بول . وقد نذر شافتسبرى نفسه للدفاع عن حرية الفرد واستقلال البرلمان وتأييد كل من يدافع عنهما سواء كان منتمياً إلى حزب الويجز أم لا . غير أن اعتلال صحته دفعه إلى الانسحاب من البرلمان والانعزال عن الحياة العامة . ثم سافر إلى هولندا حيث التقى بمعلمه لوك فى مدينة روترادم التى التجأ إليها هذا الفيلسوف هرباً من الاضطهاد . فضلاً عن أن اعتلال صحته دعاه إلى رفض عرض من الملك وليم الثالث بتعيينه وزيراً للدولة . وفى عام (١٧٠٣) شد رحاله مرة أخرى إلى هولندا حيث بدأ مبحثه المعروف باسم «خصائص» . وفى عام (١٧٠٨) لفت نظره زيادة حدة التعصب الفكرى فرأى أن أنجح وسيلة لمقاومته هى السخرية والتفكه عليه . ولهذا سطر رسالة مجهولة المؤلف بتاريخ سبتمبر (١٧٠٧) بعنوان «حول التحمس» . وفى عام (١٧٠٩) عاد إلى تناول هذا الموضوع فى مبحث آخر بعنوان «مبحث عن حرية البديهة والدعابة» . وفى العام نفسه نشر «دعاة الأخلاق» و«الاندفاع فى التعبير عن السرور الفلسفى» . ثم نشر عام (١٧١٠) «مناجاة أو نصيحة إلى المؤلف» ثم فى العام التالى (١٧١١) كتاباً فى ثلاثة أجزاء بعنوان «خصائص الناس وسلوكهم وآراؤهم وأزمتهم» . وقد نشر شافتسبرى جميع هذه الأعمال دون أن يضع اسمه عليها . وفى يولية (١٧١١) سافر شافتسبرى إلى إيطاليا من أجل الاستشفاء . وهناك أمضى عاماً فى نابولى حيث أعد عام (١٧١٣) الطبعة الثانية من كتاب «الخصائص» . و

الرأى عند شافتسبرى فى مبحثه «دعاة الأخلاق» أن الهدف وراء الأخلاق هو الدفاع عما يمكن تسميته باللاهوت الطبيعى أو الدين الطبيعى وليس عن الأخلاق المستمدة من أية قوى غيبية أو خارجية . فالدين الطبيعى يختلف عن الدين المنزل فى أنه مبادىء تستند إلى قوانين الطبيعة ونواميسها . فضلاً عن أنه يشرح أسلوب معاملة الله للإنسان . والجدير بالذكر أن شاعر الكلاسيكية الجديدة المعروف ألكسندربوب يقدم لنا شرحاً لهذا الدين الطبيعى فى قصيدته «مقال عن الإنسان» التى يتضمن مطلعها فكرة شافتسبرى عن هذا الدين ، رغم أنه ليس من المؤكد أنه استقاها مباشرة من قراءة أعمال هذا المفكر التأليهى ، فمن الجائز أنه استمدها عن طريق بولينجبروك

الذي كان يحتفظ بأوراق شافتسبري بعد وفاته . ومن المؤكد على أية حال أن المفكر هتشنسون صاغ أفكار شافتسبري صياغة شديدة الإحكام وأن هذه الأفكار أثرت في كل من الفيلسوف الإنجليزي دافيد هيوم والاقتصادي الإنجليزي آدم سميث . والذي لا شك فيه أن شافتسبري أهم وأبرز تأليهي أنجبته إنجلترا . وترجع أهميته إلى المعقولية التي اتسمت بها محاجاته . وعندما نشر كتاب «الخصائص» استقبله الفيلسوف ليبنتز بالترحيب فضلاً عن أن ديديرو ضمنه مبحثه المعروف باسم «مقال حول ميزة الفضيلة» . وذاعت أفكار شافتسبري عندما ظهرت الترجمة الفرنسية لجميع أعماله في جنيف بسويسرا عام (١٧٦٩) وأيضاً عندما ظهرت الترجمة الألمانية لكتابه «الخصائص» في الفترة من عام (١٧٧٦ حتى عام ١٧٧٩) . وليس أدل على مدى نفوذه في عصره من تأثر فولتير ولسنج ومندلسون وهيردر إلى جانب كل من ليبنتز وديديرو به . وقد وصف هيردر كتابه «دعاة الأخلاق» بأنه قريب الشبه في روعة شكله إلى آثار الإغريق وأن مضمونه يفوق هذه الآثار . والجدير بالذكر أن المفكر التأليهي تولاند الذي سبق تناوله قام عام (١٧٢١) بتحقيق أربعة عشر خطاباً كتبها شافتسبري من بين عدد كبير من الرسائل التي وجهها إلى صفوة المفكرين في عصره . والجدير بالذكر أيضاً أن شافتسبري يعترف بتأثره بواعظ مسيحي يدعى ويتشكوت نادى بأن الخير يكمن في طبيعة البشر وأن فطرته تتسم بالصدق والأمانة على عكس ما يدعو إليه المبشرون بالمسيحية في العادة وأضاف ويتشكوت أن الخير هدف في حد ذاته وأن الشر يعاقب نفسه بنفسه فلا غرو إذا سماه شافتسبري «الفيلسوف المسيحي الحق» و«المدافع عن طبيعة الإنسان الخيرة» .

يقول دافيد هيوم إن شافتسبري هو أول مفكر ميز بين نظريتين أخلاقيتين مختلفتين كل الاختلاف ، أولاهما نظرية تبني الأخلاق على أساس العقل ، ونظرية أخرى تبني الأخلاق على أساس الشعور المباشر والإحساس الداخلي المرهف . ويذهب مونتسكيو – وفي ذلك كثير من الغرابة – إلى أنه واحد من أربعة شعراء عظام . أما الشعراء الثلاثة الآخرون في رأي مونتسكيو فهم أفلاطون ومونتاني ومالبرانش .

وعلى أية حال ترك شافتسبري بصماته واضحة على تلك المدرسة الأخلاقية التي تعرف باسم مدرسة كامبريدج الأفلاطونية وهي المدرسة التي أعلت من شأن حاسة الإنسان الأخلاقية وآمنت بأن الإنسان إذا أراد أن يهتدي إلى سواء السبيل فليس عليه سوى النظر إلى دخيلة نفسه ليقرأ قوانين الطبيعة المحفورة في قلبه . وفي مطلع حياته نشر شافتسبري مواعظ مختارة من ويتشكوت عام (١٦٩٨) وطرح في المقدمة التي كتبها لها السؤال المحير التالي : لماذا يتنافى سلوك المسيحيين مع عقيدتهم ؟ ويرد هوبز هذا التناقض بين القول والفعل إلى فساد الطبيعة البشرية . ويرى شافتسبري أن الملحدين والمسيحيين على حد سواء يذهبون إلى هذا المذهب . ولكن شافتسبري رفض مثل هذا التفسير وهاجمه ورد الفجوة بين أقوال المسيحيين وأفعالهم إلى استغلال الدين لخدمة الأغراض السياسية ، ومن ثم فإننا نراه ينحي على هوبز باللائمة لأن فلسفته المتشائمة تتجاهل الخير الموجود في الطبيعة البشرية والمتمثل في «الشفقة والصداقة والمودة والرغبة في عشرة الناس والحديث معهم والحب الطبيعي أو أي شيء من هذا القبيل» واستبدل بكل هذه العواطف الطيّبة مشاعر الخوف

والرغبة النهمة فى الاستئثار بالسلطة وهو نهم يلازم الإنسان حتى وفاته . ويعجب شافستبرى من الذين يؤمنون بوجود كائن اسمى يفيض بالخير والبركات ثم يرفضون الاعتقاد بأنه فى مقدور مخلوقاته أن تحذو حذو خالقها فتفعل الخير من أجل الخير بغض النظر عن أى ثواب تلقاه فى العالم الآخر .

ومع انتشار الروح العلمية ونمو التفكير العلمانى أصبح الفلاسفة الذين لا ينكرون الدين المنزل أمثال جون لوك وصامويل كلارك يضعون التنزيل فى مرتبة ثانوية كمصدر للأخلاق . ولهذا نرى كلارك يذهب إلى أن قانون الطبيعة أو الحكمة من وراء الأشياء هى فى حد ذاتها إرادة الله . ومن الواضح أن كلارك هنا يضع إرادة الله فى مرتبة تالية لقانون الطبيعة . ولم يكن هوبز الوحيد الذى رأى الفساد فى الطبيعة الإنسانية ، فقد عارض المفكر توماس براون تفاؤل شافتسبرى وأصر على ضرورة ارتباط فعل الخير بالثواب فى الآخرة . وهى نظرة اعتبرها شافتسبرى نفعية وتتنافى مع الروح المسيحية الحقة . ويسخر شافتسبرى بطريقة غير واضحة من دعاة الفضيلة الذين يؤسسون دعوتهم على أساس الإيمان بالتنزيل كما لو كانوا يخشون هدم أركان الدين باستبعاد التنزيل منه والإيمان بأن فطرة الإنسان السليمة تدفعه إلى فعل الخير .

وبعد أن عبر شافتسبرى عن إيمانه بالطبيعة البشرية وبالخير النابع من قلب الإنسان نراه يؤكد فى كتابه المهم «خصائص» قداسة الطبيعة التى يعنى بها النظام الكونى بأسره أو الخليقة بأسرها . أى أن شافتسبرى متفائل بالطبيعة الإنسانية وطبيعة الخليقة على حد سواء . فهو يرى أن الكون نظام هائل يتكون من أجزاء يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً لا محيص عنه ، وأننا لا شك نعيش فى كون عجيب وبديع يتحرك فى عظمة وجلال وفقاً لقوانين سرمدية لا تعرف التغيير أو التبديل . بل إن ما يبدو لنا أنه شر يرجع فى حقيقة الأمر إلى الجهل به وعدم قدرتنا على فهم ترابط العلاقات بين الأجزاء فهماً صحيحاً . والرأى عند شافتسبرى أنه لا يوجد أى فرق بين الملحدين الذين يعتقدون أننا نعيش فى عالم من الذرات تعيث فيه الفوضى وبين المتدينين التقليديين الذين يعتقدون أننا نعيش فى عالم من الظلمة والقتامة بسبب خطيئة آدم وطرده من الجنة . فهؤلاء الملاحدة والمتدينون التقليديون تجمعهم النظرة المتشائمة من الطبيعة البشرية والكون . وتتضح لنا عبادة شافتسبرى للطبيعة من بعض أجزاء كتابه «دعاة الأخلاق» حيث يتخلى المؤلف عن تحفظه المعتاد فيعبر عن حماسته الشديدة لروعة الطبيعة وكمالها . فلا غرو إذا رأينا عدوى هذه الحماسة لها تنتقل إلى أدباء القرن الثامن عشر الذين يهيمون بالريف وبكل ما هو طبيعى ويزورّون عن حياة الحضر .

يقول باسيل ويلى إن أسلوب كتابة «دعاة الأخلاق» يدل على أنه مزيج من تفصيلات الشعر ينم عن تأثر صاحبه بكل من الشاعرين ميلتون ولوكريشيوس وبالتقليد الشعرى الرعوى . فقد جاء على لسان ثيوكليس إحدى الشخصيات المحورية فى «دعاة الأخلاق» ما يلى : «أيتها الحقول والغابات . يا ملاذى من عالم الأعمال المضنى . استقبلينى فى محرابك الهادىء وانعمى على بالخلوة والوحدة التى تسمح بالتفكر والتدبر . أيتها الحقول الخضراء . . . كم أحييك بفرح عظيم . مباركة أنت أيتها الطبيعة . . . ، أيها المستقر الطهور حيث يسكن أسعد البشر . .» ثم يعبر ثيوكليس

عن تأليهه للطبيعة فيقول : «أيتها الطبيعة المجيدة التى تفيض بالحلاوة والخير إلى أبعد الحدود والتى تفيض أيضاً بكل الحب والجمال والقداسة يا من تقدمين فى كل عمل من أعمالك صورة مكتملة ومنظراً نبيلاً يفوق كل ما يمكن المفن أن يقدمه إلينا ، أيتها الطبيعة الجبارة . أيها البديل الحكيم للعناية الإلهية . يا من تملكين القدرة على الخلق أو أيها الإله القدير والخلاق الأسمى . إياك أستحضر وإياك وحدك أعبد .» ويستطرد ثيوكليس قائلاً : «كل عجائب الطبيعة تنم عن وجود صانع لها يسمح لنا أن نراه ونتحدث إليه عن طريقها على نحو يتفق مع ما نتصف به من ضعف بشرى وإنه لمجد عظيم أن نتأمل هذا الصانع فى أنبل أعماله الظاهرة لنا .» وينتقل ثيوكليس بعد ذلك إلى الحديث عن النظام الموجود فى الطبيعة : «فى عالم الأحياء والنبات والنجوم والأرض والإنسان الذى يعيش عليها بل مشكلة الشر التى يرى أنها جميعاً تشكل منظومة آية فى الإتقان والإبداع حتى إذا استعصى فهمها على الألباب . وفى غمرة تأليهه للطبيعة وحماسته لشرح فلسفته يتناسى شافتسبرى تحفظه المعتاد بل وكراهيته للتحمس نفسه .

من الواضح إذن أن مبدأ تقديس الطبيعة ليس بالجديد أو المستحدث ، فقد ظهر فى الأفق قبل ظهور شاعر الطبيعة الرومانسى المعروف وليم وردزورث بقرن من الزمان . بل إنه يرجع إلى عصر النهضة وما يعرف بالمذهب الإنسانى أو الهيومانيزم . حتى الشعراء الأوجسطنيين أو الكلاسيكيين الجدد من أمثال الكسندر بوب ، سبقوا وردزورث ورفاقه فى السير على درب الطبيعة وانتهاج منهاجها . يقول ألدوس هكسلى فى هذا الصدد فى مقال له بعنوان «وردذورث فى خط الاستواء» : «إن الفكرة المنادية بقداسة الطبيعة وبقدرتها على الارتقاء الأخلاقى بالإنسان صارت مستقرة فى وجدان الإنسان ، فوردزورث وأتباعه يرون أن التريض الحثيث فى أرجاء الريف الجميل يعادل الذهاب إلى الكنيسة وأن جولة فى أحضان الطبيعة تعادل زيارة المؤمن لبيت المقدس بأورشليم .» وهكذا يتبين أن شافتسبرى لم يكن الرسول الأوحد الذى بشر بقداسة الطبيعة إذ سبقته إلى ذلك كوكبة من الأدباء أمثال الشاعر الإنجليزى أديسون .

ذكرنا أن شافتسبرى يرى تعارضاً بين الدين والفضيلة ، إيماناً منه أن الفضيلة غاية فى حد ذاتها لا تحتاج إلى أفكار لاهوتية تعاقب من ينتهكها وتثيب من يتبعها فى العالم الآخر . بل إن شافتسبرى يرى أن الفكر الدينى التقليدى ألد أعداء الدين الحق ، وهو الدين الطبيعى لأن الدين التقليدى يدعو إلى الإيمان بالمعجزات بما فيها من انتهاك لقوانين الطبيعة ونظام الكون ، فى حين أن دين الطبيعة - وهو دين الحق - ينبغى أن ينبنى على أساس التجانس والتناغم والتوافق الموجود فى الكون وفى نظامه المحكم الدقيق ؛ فتأمل مثل هذا النظام المحكم الدقيق من شأنه أن يقود الإنسان إلى الإيمان بخالق للكون . أما المعجزات وخوارق الطبيعة - إذا جاز تصديقها - فتدل فقط على أن هناك قوى قادرة على الإخلال بقوانين الطبيعة ولكنها ليست دليلاً على أن هذه القوى تتسم بالخير . فالإله الذى يتصف بالقوة دون أن يتصف بالخير غير جدير بأن يكون إلهاً . إن الانتهاكات المتكررة لنظام الكون فى رأى شافتسبرى تسبب خللاً فى الطبيعة وتعيد إلى أذهاننا دعاوى الملاحدة والوثنيين . وفى كتاب له بعنوان «نصيحة إلى مؤلف» يسخر شافتسبرى على نحو ما فعل فولتير من بعض شخصيات

العهد القديم . وتتلخص هذه النصيحة فى حث الشعراء على ألا يستلهموا أدبهم من حكايات الكتاب المقدس وشخصياته لأنه كتاب منزل ويحتوى على المعجزات التى تتجاوز قدرة البشر على فهمها . وهذا النقد للدين المنزل يذكرنا بنقد مماثل يسوقه فيما بعد الفيلسوف التجريبى دافيد هيوم فى مقاله عن المعجزات .

ويعتبر الدارسون شافتسبرى صديقاً للإنسان بسبب دفاعه المجيد عن صلاح الطبيعة البشرية وخيرها ضد فلسفة هوبز المؤمنة بالشر الكامن فى هذه الطبيعة . ويعتمد شافتسبرى فى تفنيد أفكار هوبز المتشائمة على السخرية منها من ناحية ومناقشتها من ناحية أخرى . يقول شافتسبرى إن أفكار هوبز التى تؤمن بأثرة الإنسان وأنانيته توحى بأن الإنسان مخلوق غير اجتماعى . فى حين أن الدلائل تشير إلى غير هذا . فاستقراء التاريخ والتطور يدل على أن الإنسان كائن اجتماعى بطبعه بدليل أنه اهتدى منذ البداية إلى تكوين نظام الأسرة الذى تطور فيما بعد إلى نظام القبيلة أو العشيرة ثم إلى نظام الدولة . وهو أمر لم يكن من الممكن حدوثه لو لم يتصف الإنسان فى حالته الطبيعية بالالتزام الأخلاقى الذى يدفع حتى الوغد الطبيعى إلى الانخراط فى كيان اجتماعى . يقول شافتسبرى : «إن الفضيلة تكمن فى إتباع الطبيعة بمعنى أن يراعى الإنسان فى دخيلة نفسه ذات النظام والتناغم والإنسجام الموجود فى العالم والكون الكبير» . فلا غرو إذا رأيناه يعتبر الأخلاق نابعة من الطبيعة وليست لجاماً على الطبيعة لمحاولة كبح جماحها .

ويذهب شافتسبرى فى مبحثه عن الفضيلة (١٦٩٩) الذى سبق الإشارة إليه أن الإنسان يتمتع بحاسة أخلاقية طبيعية تهديه إلى إدراك الصواب كما أنه يتمتع بطبعه بحاسة جمالية تهديه إلى إدراك مواطن الجمال فى الفن وخلافه . والرأى عنده أن الخير لابد أن يكون مرتبطاً بالجمال أى إدراك ما فى العالم من تناغم وتناسق ونظام . ومن ثم فإن الفضيلة فى نظره هى ذلك الاستعداد الطبيعى عند البشر للعمل على خير المجتمع . والرأى عنده أن الحاسة الأخلاقية الكامنة فى الإنسان ليست مجرد شعور كما أنها ليست شيئاً منفصلاً عن العقل . فالعقل هو الذى يهدى الإنسان إلى أنجح الوسائل لخدمة المجتمع . فالعمل لصالح المجتمع لا يصبح فضيلة إلا إذا كان العقل مقتنعاً به . وعمل الخير على مضض أو كمجرد واجب أبعد ما يكون عن الخير بمعناه الحقيقى . ويعرف شافتسبرى الحساسة الأخلاقية الكامنة فى البشر والتى حفرتها الطبيعة على قلوبهم بأنها : «ود أو حب حقيقى للخير والحق كهدف فى حد ذاته وبسبب ما فيهما من جمال واستحقاق» . ويتلخص عمل الله فى اعتماد هذا الخير الذى سطرته الطبيعة فى قلوب الناس والموافقة على قوانين الخير السرمدية . ومعنى هذا أن الدين الطبيعى فى نظر شافتسبرى يستلزم الإيمان بإله سامق يمثل العدل والخير ولا يملك غير تأييد واعتماد ما غرسته الطبيعة من حث أخلاقى فى النفس البشرية . ويستند شافتسبرى فى هجومه على الملاحدة أنهم يتجاهلون ذلك التناسق والتناغم الموجودين فى الكون واللذين تحملهما الطبيعة فى طياتها .

يقول شافتسبرى : «إن حب النظام والانسجام والتناسق مهما كان مقداره ، مدعاة إلى تحسين طباع الإنسان وزيادة حبه للمجتمع واستمساكه بالفضيلة التى لا تعدو أن تكون فى حد ذاتها حباً

للنظام والجمال» ؛ وهذا النظام القدسى من شأنه إذا تأملناه أن يثير فينا النشوة . ورغم أن شافتسبرى يعتقد أن الثواب على الخير فى الآخرة يفقد فعل هذا الخير قيمته الأدبية والأخلاقية فإنه يرى أن مثل هذا الثواب قد يكون ضمانة ضد الاستسلام المفاجىء للإغراء أو قد يكون بمثابة لجام أو فرملة للذين يفتقرون إلى الحس الأخلاقى الناضج والسليم .

قلنا إن شافتسبرى لا يرى أدنى تعارض بين حب الإنسان لذاته وحبه للجماعة التى ينتمى إليها . وهو يقسم الحب إلى ثلاثة أنواع :

١ - حب الذات .

٢ - الحب الطبيعى المتمثل فى الحرص على الصالح العام .

٣ - الحب غير الطبيعى وهو لا يعود على الفرد أو الجماعة بأى نفع مثل كراهية البشر والطغيان والقسوة غير الآدمية . ويذهب شافتسبرى إلى أن الفضيلة تتلخص فى وجود النوعين الأول والثانى من الحب بنسب متكافئة أو متناسقة ، بحيث لا تزيد كفة أى منهما على الأخرى . والرأى عنده أن الحيوانات تمتاز على الإنسان من حيث قدرتها الفطرية على الاحتفاظ بهذا التوازن بين هذين النوعين من الحب . أما الإنسان فيجد نفسه أحياناً مضطراً إلى بذل الجهد للاحتفاظ بمثل هذا التوازن . ويؤكد شافتسبرى أن حب الإنسان لذاته يجلب عليه التعاسة فى أعقابه ، وأنه لا سبيل لسعادته إلا إذا تغلب حبه للصالح العام على حبه للصالح الخاص . ويفترض شافتسبرى أن معظم الناس يعتبرون المتع الذهنية تفوق المتع الجسدية فى تميزها ، بدليل أن معرفة الإنسان لحقائق علم الرياضيات توفر له سعادة بالغة تتضاءل معها لذات الجسد . ويدلل شافتسبرى على تأصل حب المجتمع فى النفس البشرية بعدة شواهد ،منها أن الإنسان يجد فى مشاهدة المسرحيات التراجيدية متعة تفوق المتعة التى قد يجدها فى أية وسيلة أخرى من وسائل التسلية . وهو يرد السبب فى هذا إلى أن الإنسان يجد متعة فى العطف على أقرانه المنكوبين أكثر من متعته بأية تسلية أخرى وأن الوليمة تصبح عديمة اللذة لو أنها اقتصرت على مدعو واحد ؛ وحتى يكتمل حب المجتمع عند الإنسان فلا بد من أن يعيش وفقاً للطبيعة وقواعد الحكمة العليا وأوامرها . وهذا هو مفهوم شافتسبرى عن الأخلاق والعدالة والتقوى والدين الطبيعى . وهو لا يرى فى أنانية الإنسان أى ضرر ما دامت لا تتعدى الحدود المعقولة . والغريب أن شافتسبرى اعتقد أنه استطاع أن يهتدى إلى نظرية فى الأخلاق أشبه ما تكون فى استدلالاتها إلى نظريات علم الرياضة . ومن ثم أطلق عليها مشروع الرياضيات الأخلاقى .

إن شافتسبرى يؤكد على ضرورة نبذ التحمس المفرط الذى ينتهى بالإنسان إلى التعصب واضطهاد الرأى المخالف له . يقول شافتسبرى عن الخطر الناجم عن الاضطهاد : «لو أن اليهود اكتفوا بالاستهزاء بتعاليم لمسيح دون اضطهاده لما قويت شوكة الدين المسيحى إلى هذا الحد» . ويعتقد شافتسبرى أن مشكلة البشر تكمن فى أنهم يخلعون خصائصهم غير الحميدة مثل الانتقام على الله ، الأمر الذى يعتبره مهانة للذات الإلهية . فالله أكبر وأعظم من أن يسيئه تشكك البشر فى وجوده كما أنه أكبر وأعظم من أن يمنعنا من البحث فى حرية تامة فى كل ما نريد . وكيف يستاء الله من هذا وهو

الذى يفوق فى خيره كل الأنام ! ويجدر بنا أن نختم حديثنا عن شافتسبرى بالقول : إنه لم يكترث مطلقاً بأفكار عامة الناس ودهمائهم وإنه استحدث فلسفته ليتوجه بها إلى مجموعة من الأصدقاء والخلصاء الذين ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية نفسها التى ينحدر منها .

٥ - توماس بين (١٧٣٧ - ١٨٠٩) Paine

يندر أن نجد إنساناً يحمل كل هذه العداوة والموجدة المشبوبة للعقيدة المسيحية مثلما فعل المفكر الإنجليزى الراديكالى توماس بين الذى ارتبط اسمه بالمذهب التأليهى الذى ذاع وانتشر فى أوروبا فى القرن الثامن عشر . وقد سبقه إلى التبشير بهذا المذهب نفر من المفكرين الإنجليز من بينهم بيتر أنيت (١٦٩٣ - ١٧٦٩) الذي قامت جمعية لندن للمراسلات بإعادة نشر أعماله . كما أن هاى وود أصدر فى مدينة مانشستر دورية بعنوان «المرآة الطبيعية : أو الفكر الحر فى اللاهوت» ملأ صفحاتها بمقتطفات من كتابات أنيت وفولتير وتوماس بين وعالم الكلاسيكيات الفرنسى بون سبنس .

يعتبر توماس بين من أوائل المدافعين عن حقوق الإنسان . هاجر من بريطانيا إلى أمريكا عام ١٧٧٤ حيث حارب فى صفوف الأمريكيين من أجل حصولهم على الاستقلال من التاج البريطانى . ونشر كتاباً بعنوان «التعقل» يدافع فيه عن استقلال أمريكا عن بريطانيا انتشر بين الأمريكيين انتشار النار فى الهشيم . وبطبيعة الحال أوغر هذا صدر بنى جلدته ضده . والذى لا شك فيه أن الفترة التى أمضاها فى فرنسا فور اندلاع الثورة الفرنسية من عام (١٧٩٢ حتى عام ١٧٩٥) زادت من وهج ثوريته وراديكاليته . وفى فرنسا كاد يفقد حياته بسبب اعتراضه على إعدام الملك لويس السادس عشر ، الأمر الذى أثار حنق روبسبير عليه فقام بحبسه لمدة عشرة شهور باعتبار أنه مناهض للثورة ولا يعدو أن يكون مجرد مصلح ليبرالى . ولولا تدخل سفير أمريكا لدى فرنسا لأطاحت المقصلة برأسه . فقد منحه الجنسية الأمريكية وطلب إلى السلطات الفرنسية ترحيله إلى الولايات المتحدة . وكما سوف نرى عندما عجزت السلطات الإنجليزية عن القبض عليه لوجوده خارج البلاد حاولت أن تشفى غليلها منه ومن أفكاره الثورية بتقديمه إلى المحاكمة غيابياً وحبس الناشرين الذين تجاسروا على نشر أعماله وتوزيعها .

والجدير بالذكر فى هذا المقام أن الحكومة الإنجليزية ظلت قبيل ظهور كتاب توماس بين السيىء السمعة «عصر العقل» ممتنعة لما يزيد على عقدين من الزمان عن تقديم المجدفين إلى المحاكمة . ورغم كثرة التجديف الذى تردد على ألسنة دعاة المذهبين التوحيدى والتأليهى فقد بدا كما لو كانت قوانين التجديف قد ألغيت ، ولكن الوضع اختلف بعد ظهور كتاب بين التأليهى «عصر العقل» فقد دبت الحياة فى أوصال هذه القوانين بين (١٨٢١ و١٨٣٤) فارتفع عدد الحالات المقدمة إلى المحكمة بتهمة التجديف إلى ثلاث وسبعين حالة أى بمعدل حوالى خمس حالات كل عام . وكان معظم هذه الحالات مرتبطاً بشكل أو آخر «بعصر العقل» . ولا نغالى إذا قلنا إن هذا الكتاب كان السبب المباشر الذى حدا الحكومة البريطانية إلى التخلى عن سياسة التسامح مع أتباع المذهب التأليهى . وترجع خطورة بين إلى سببين : أحدهما سياسى وقد سبق أن ألمحنا إليه وسوف نعالجه بتفصيل أكبر عند الحديث عن كتابه «حقوق الإنسان» الذى يؤلب الطبقة العاملة ضد السلطة الحاكمة . والآخر دينى

فقد كان عداؤه للمسيحية شديد الوضوح والضراوة معاً على عكس كثير من التأليهيين الإنجليز أمثال اللورد بولنجبروك الذين اتسموا بالمحافظة الفكرية واعتبروا أنفسهم مسيحيين ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية . بل إن كثيرين من المنشقين عن الدين المسيحى لم يولوا مسألة الفقر ومشاكل الفقراء أدنى اهتمام ، فى حين نذر توماس بين قلمه للدفاع عن الفقراء والمظلومين . وباستثناء قلة من التأليهيين أمثال بين نجد أن غالبيتهم العظمى أمثال وولستون وتشاب وأنيت لم يتركوا فى الرأى العام بعد مماتهم أى أثر يذكر ؛ بل إن التاريخ فى نهاية القرن طواهم فى طيات النسيان . وقد أشار المفكر المحافظ إدموند بيرك إلى هذا فكتب عام (١٧٩٠) يقول : «من من المولودين خلال الأربعين سنة الماضية قرأ كلمة واحدة لكولينز وتولاند وتندال وتشاب ومورجان وجميع الذين يسمون أنفسهم المفكرين الأحرار ؟ ومن ذا الذى يقرأ بولنجبروك الآن؟

نشر توماس بين الجزء الأول من كتابه «حقوق الإنسان» فى فبراير (١٧٩٢) . وجاء هذا الكتاب بجزءيه رداً على كتاب الفيلسوف الإنجليزى المحافظ إدموند بيرك الذى هاجم الثورة الفرنسية فى كتابه «خواطر عن الثورة الفرنسية» - (١٧٩٠) . ويدافع بين فى «حقوق الإنسان» عن حق الانتخاب للمواطنين الراشدين كافةً وحقهم أيضاً فى تغيير نظام الحكم إذا اجتمع رأيهم على ذلك . ويعتبر بين أول من طالب بإقامة دولة الرفاهية التى لم تتحقق فى بريطانيا إلا فى القرن العشرين . كما أنه طالب الدولة بفرض ضريبة تصاعدية على دخل القادرين وتفتيت الإقطاعيات الشاسعة ومنح إعانة عائلية للأمهات الفقيرات وتوفير فرص التعليم العام لكل الأطفال وصرف مكافأة أو إعانة بطالة للعاطلين عن العمل ومعاش لكبار السن والمحاربين القدماء ،كما طالب بإيواء المشردين الذين لا مأوى لهم وتقديم وجبات مجانية للجياع . وبسبب ذيوع هذه الأفكار الراديكالية بين عامة الناس ارتعدت فرائص السلطة فقدمت الكثيرين من المؤمنين والمنادين بها إلى المحاكمة . ففى أواخر عام (١٧٩٢) قام المدعى العام بحصر الاتهامات الموجهة للمنادين بأفكار توماس بين فوجد أنها لا تقل عن مائتى قضية أو حالة وقد تصدى المحامى توماس إرسكين للدفاع عن أفكار توماس بين الراديكالية قائلاً : «إن القانون لا يجرم الرأى ولا يحاسب الإنسان عليه إنما يحاسبه فقط على تصرفاته وأفعاله» ولكن موقف إرسكين من كتاب بين «عصر العقل» كان مغايراً تماماً ، إذ إنه رأى أن آراء بين فى الدين المسيحى أمر لا يمكن الدفاع عنه أو السكوت عليه .

عندما ظهر الجزء الأول من كتاب «حقوق الإنسان» عجزت الحكومة عن منعه من التداول ولكنها نجحت فى إقامة الدعوى ضد مؤلفه عند نشره الجزء الثانى ، ولا غرو فقد كانت إنجلترا آنذاك فى حالة حرب مع فرنسا . وشعر المؤلف بالخطر المحدق به فهرب خارج البلاد وتمت محاكمته غيابياً على نحو ما أسلفنا . وأمرت المحكمة بضبط جميع نسخ الكتاب (التى يقال إنها بلغت نحو مائتى ألف نسخة) ، وإحراقها . غير أن بعض النسخ نجت من الحريق الأمر الذي حفظ أفكار هذا الثائر من الاندثار . ورغم أن السلطات الإنجليزية فشلت فى منع الجزء الأول من الصدور فإنها تمكنت من مقاضاة ج . س . جوردان لإقدامه على نشر الجزء الثانى من «حقوق الإنسان» وفى المحكمة اعترف هذا الناشر بأنه مذنب .

وفى ٢١ مايو عام (١٧٩٢) – وهو اليوم نفسه الذى رفعت فيه الحكومة البريطانية قضية ضد المؤلف – أصدر التاج البريطانى مرسوماً ملكياً يحظر مختلف الكتابات الشريرة والمهيجة للخواطر ، الأمر الذى استفز مؤلفنا وحفزه إلى الرد العنيف عليه . ولم يكتف بين فى رده بمهاجمة المرسوم الملكى فحسب بل طالب بإلغاء النظام الملكى فى بريطانيا وأن يستبدل به نظام جمهورى . وأيضاً لحق الأذى بدانييل إسحق إيتون صاحب المطبعة الذى قام عام (١٧٩٣ - ١٧٩٤) بإعادة نشر الجزء الثانى من « حقوق الإنسان » .

لقد بث كتاب « حقوق الإنسان » الذى انتشر انتشار النار فى الهشيم ، الرعب والفزع فى قلوب الحكام والمسئولين البريطانيين . ويستطيع الدارس أن يتتبع مدى الأثر الذى خلفه توماس بين فى الرأى العام العالمى على وجه العموم والبريطانى على وجه الخصوص ، من مطالعة السجل السنوى لتاريخ أوروبا المدون عام (١٧٩٤) . ويتضح من هذا السجل مبلغ الرعب الذى أصاب الحكام الإنجليز على أنفسهم من مغبة انتشار أفكار بين الثورية والتى شككت عامة الناس فى أحقية استئثار الطبقة الحاكمة بالامتيازات . وسعت الحكومة البريطانية المرتعدة فرائصها إلى القضاء على التذمر المتفشى فى الطبقات الدنيا . غير أن سعيها باء بالفشل الذريع . ورغم أن الحكومة أصدرت فى منتصف عام (١٧٩٢) قراراً بمنع الاجتماعات الرامية إلى تهييج الخواطر وإثارة الفتن ، فقد استمر مثل هذه الاجتماعات فى الانعقاد . بل إن عدد الجمعيات المهيجة للخواطر ازداد . وفى كثير من الأحيان نسى المجتمعون أنفسهم فى غمرة حماستهم الثورية فعبروا عن طائفة من الأفكار المتطرفة ، تجاوزت الحدود وجعلت من السهل على السلطة اتهامهم بإثارة الفتن . ومن أبرز الجمعيات التى لم تأل جهداً فى نشر أفكار توماس بين المتحررة ، جمعية لندن للمراسلات التى كان الروائى والشاعر الإنجليزى الكبير توماس هاردى سكرتيراً لها . وكتب ملك إنجلترا آنذاك خطاباً إلى مجلس العموم يعبر فيه عن استيائه من تجرؤ جمعية لندن للمراسلات ومثيلاتها ، منبهاً أعضاء البرلمان إلى تجاوزاتها وانتهاكاتها للقانون ومسلكها التحريضى السافر وترويجها لأفكار الثورة الفرنسية . وأمر بضبط أوراق هذه الجمعيات الراديكالية وقام بإرسالها إلى مجلس العموم الذى كلف السياسى المعروف وليم بيت بتشكيل لجنة سرية تتكون من واحد وعشرين عضواً فى البرلمان للتحقيق فى نشاط هذه الجمعيات . ويتضح من أحد التقارير الذي وضعته لجنة مجلس العموم البريطانى فى ٦ يونيو (١٩٩٤) بشأن تهييج الخواطر وإثارة الفتن ، أن عدداً كبيراً من الجمعيات نشأ فى بريطانيا للدفاع عن الأفكار التى ضمنها توماس بين فى كتابه «حقوق الإنسان» مثل جمعية لندن للمراسلات وجمعية مانشستر الدستورية وجمعية شيفيلد الدستورية . وأجمعت هذه الجمعيات على تقديم الشكر لتوماس بين بسبب ما أسداه إلى الفكر السياسى المتحرر من جليل الخدمات .

وبلغ الخوف بالحكومة البريطانية آنذاك مبلغاً جعلها تختلق وجود مؤامرة للإطاحة بها . ولهذا أصدر البرلمان البريطانى قراراً بوقف العمل بالقانون الذى يحتم وجود جسم الجريمة كشرط لتوجيه الاتهام ضد أى متهم . واعترض بعض أعضاء البرلمان على اتباع الحكومة لهذه السياسة القمعية . وانبرى أحدهم وهو ر .ب . شريدان للتصدى لسياسة الحكومة القمعية مطالباً إياها بالعودة إلى

العمل بمقتضى قانون جسم الجريمة . ولكن المؤيدين لشريدان فى مجلس العموم كانوا أقلية لا تتعدى ٤١ صوتاً مقابل ١٨٥ صوتاً يؤيدون قرار إلغاء هذا القانون . والغريب أن التحقيقات التى أجريت دحضت مزاعم الحكومة الكاذبة بوجود مؤامرة للإطاحة بها رغم الأموال الباهظة التى أنفقتها الحكومة على عدد هائل من شهود الزور .

ولعل الصواب لا يجانبنا إذا قلنا إن زراية توماس بين بالدين المسيحى كانت لا تقل عن زرايته بالنظام السياسى فى بلاده . وتتضح لنا زرايته للدين المسيحى فى كتابه « عصر العقل » الذى ظهر أول جزء منه عام (١٧٩٣) . فالرأى عنده أن العهد القديم ملىء بقصص الفحش والتهتك ، كما أن العهد الجديد لا يستقيم مع العقل أو المنطق ، فضلا عما شابه من متناقضات ، والجدير بالذكر أن بين لم يهاجم المسيحية من منطلق إلحادى مثلما ظن ثيودور روزفلت الذى وصفه بذلك « الملحد القذر الصغير » بل هاجمها من منطلق إيمانه بالمذهب التأليهى . فقد كتب بين إلى صديقه سام آدمز يقول : « لقد شاهدت الشعب الفرنسى يندفع نحو الإلحاد ،ولهذا عملت على ترجمة الكتاب ونشره بلغته لعلنى أوقف اندفاع هذا الشعب نحو الإلحاد وأذكره بأول بند من بنود الإيمان وهو الإيمان بالله » . فتوماس بين كان يؤمن بالله رغم إنكاره للمسيح والمسيحية . وقد انتهى بين عام (١٧٩٥) من إتمام كتابه « عصر العقل » وكان هدفه الأساسى من الجزء الأول الدفاع عن المذهب التأليهى فى وجه المادية الإلحادية على نحو ما أشرنا ، فى حين كان هدفه من الجزء الثانى الهجوم على خرافات الدين المسيحى وخزعبلاته . وعندما صدر الجزء الثالث من كتاب « عصر العقل » قامت السلطات الإنجليزية بالقبض على ناشره ووضعه فى المشهرة وهو أسلوب فى التحقير شاع فى أوروبا فى القرون الغابرة . والمشهرة هى أشبه بصندوق مكون من العوارض الخشبية فيه عدد من الفتحات . ويزج بالإنسان المعاقب فى هذا الصندوق فيتفرج عليه الناس .

ويحكى لنا و . ه . ريد فى كتابه « بداية ونهاية الجمعيات الكافرة » المنشور عام (١٨٠٠) عن الأثر الذى تركه كتاب « عصر العقل » فى الناس فيقول : « إن كثيرين من أعضاء جمعية لندن للمراسلات اعترضوا على الأفكار التى تضمنها هذا المجلد . ولكن المتحمسين لأفكار توماس بين تمكنوا من التغلب على هذه الاعتراضات وإقناع بائع كتب يدعى ويليامز بنشر طبعة رخيصة منه . فحكم على ويليامز بالسجن . غير أن جمعية لندن للمراسلات التى حرضته على نشر الكتاب لم تقدم إلى عائلة ويليامز أية مساعدات تذكر ، فقد جاءت معظم المساعدات إليها من الغرباء .

وعلى أية حال بلغت حماسة المؤيدين لأفكار توماس بين حداً جعلهم يطلقون على كتاب « عصر العقل » الكتاب المقدس الجديد ويرون أن مجرد اقتنائه دليل على تحضر مقتنيه . ورغم أن جمعية لندن للمراسلات لم تكن فى مجموعها تميل إلى الكفر فإن الإيمان بالمذهب التأليهى بما يتضمنه من إنكار للدين كان سمتها الغالبة . وقد أدى التباين فى مواقف أعضاء هذه الجمعية من الدين إلى حدوث انشقاق فى صفوفها واستقلال جماعة المؤمنين بالمسيحية عنها . وضمت هذه الجماعة المنشقة عدداً من بائعى الكتب الذين امتنعوا عن توزيع « عصر العقل » . والجدير بالذكر أن حماسة أعضاء جمعية لندن للمراسلات لم تقتصر على كتاب «عصر العقل» بل امتدت إلى كتابين

آخرين ينكران الدين على نحو أشد وطأة هما «نظام الطبيعة» تأليف ميرابود و « حطام الإمبراطوريات» تأليف فولنى اللذان اعتبرهما التأليهيون والملاحدة سفرين يهتدون بهما . واقترح بعض أعضاء الجمعية إعادة نشر كل أعمال بيتر أنيت المعادية للدين . غير أن هذه الجمعية خشيت من رفع الدعوى ضدها فاكتفت بنشر جانب يسير منها . وأحيت الجمعية نشاطها عن طريق إعادة نشر هجوم فولتير على الدين المسيحى ، ولكن الحكم على بعض الناشرين بالحبس الانفرادى بسبب زرايتهم بالمسيحية نجح بعض الشىء فى كبح جماح العداء الكاسح للدين بين أوساط المثقفين والمتعلمين . ومن الكتب المعادية للمسيحية التى رحبت الجمعية بها ونشرت أفكارها على أوسع نطاق : «جمال المذهب التأليهى » «المعجم الأخلاقى» و «جوليان ضد المسيحية» فضلا عن الكتاب الإلحادى الذى ألفه بون سبنس تحت عنوان «الأفكار الطبيعية فى مواجهة الأفكار الخارقة للطبيعة » وكتابات وليم جودوين الراديكالية . وفى مثل هذا الجو بدت الزراية بالدين شيئاً طبيعياً للغاية لدرجة أن المؤمنين به آثروا الصمت أمام هذا السيل العارم من التحقير والسخرية حتى لا يظهروا بمظهر المتخلفين عن ركب المدنية والحضارة . واعتاد المجتمع المسيحى التطاول على الكتاب المقدس ودوسه تحت الأقدام والقول بأن المدن لا يمكن أن يستقيم حالها إلا إذا خلت من الكنائس ودور العبادة .

نعود فنتحدث عن كتاب توماس بين « عصر العقل » الذى جاء فيه أن المسيحية هى ألد أعداء العقل كما أنها تنطوى على تطاول على الله وتجديف عليه . فلا غرو أن يتعرض كتاب «عصر العقل » للمقاضاة بصورة متكررة .

يقول توماس بين فى هذا الكتاب : « فى جميع الأديان التى تم اختراعها لا يوجد دين أشد إهانة لله القدير ومدعاة لجهل الإنسان وأكثر عداوة للعقل وتناقضاً مع ذاته من ذلك الشىء المسمى بالمسيحية » . وأكد بين على أن تناقضات الدين المسيحى لم تأت بغير الملاحدة والمتعصبين ، فالمسيحيون فى نظره كفرة استمدوا دينهم من الأساطير الوثنية والعهد القديم الذى حمل له شديد المقت . والرأى عنده أن إيمان المسيحيين بأن يسوع المسيح ابن الله جاء فى وقت كانت فيه الأساطير الوثنية لاتزال قوية ومسيطرة على العقول ، الأمر الذى جعل من السهل على الناس أن يعتقدوا أن البشر الخارقين للعادة هم أبناء الآلهة الذين تجىء ولادتهم من السماء نتيجة معاشرة الآلهة للعذارى ، وهى فكرة كانت مألوفة آنذاك . صحيح أن بين يتحدث عن شخصية يسوع المسيح باحترام شديد باعتباره نموذجاً للفضيلة والشرف وداعياً للأخلاق الحميدة ، ولكنه اعتبر ولادة العذراء وقيامة المسيح من الأموات نوعاً من النصب والاحتيال . وتوفر بين على دراسة قصة قيامة المسيح من الأموات كما وردت فى الأناجيل الأربعة حتى يبين ما فيها من تناقض . بدأ بين بشهادة متى الرسول عن صلب المسيح التى تقول : « وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين . وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا للكثيرين » (متى إصحاح ٢٧ ، ٥١ - ٥٣) ويسلم بين باحتمال أن تكون حادثة الصلب قد وقعت بالفعل ، ولكنه يطرح عديداً من الأسئلة المتشككة حول

هذه الشهادة فيسأل عن أسماء القديسين الذين قاموا من الأموات وأين ذهبوا ومن رآهم وهل بعثوا بثيابهم أو مجردين من ثيابهم إلخ . . . ومن الواضح أن بين وجد متعة خاصة فى التشكيك فى معجزات الدين المسيحى مثل قيامة المسيح من الأموات وصعوده إلى السماء لأنها فى رأيه تسىء إلى الله باعتبارها نوعاً من أعمال الحواة المهرة المنسوبة إليه عز وجل . كما أنه وجد متعة فى إظهار التناقضات فى روايات الرسل المختلفة فى الأناجيل الأربعة مثل الخلاف بين روايتى كل من متى ولوقا حول تسلسل الأنساب من داود حتى يوسف . فقد أورد متى ثمانية وعشرين جيلا فى حين أورد لوقا ثلاثة وأربعين جيلا فى الفترة نفسها ، بل إن الرسل الأربعة اختلفوا فيما بينهم حول الكتابة المحفورة على الصليب . وأيضاً يهاجم بين المسيحية لأنها تدعو إلى الثالوث الذى يضعف إيمان الإنسان بوحدانية الله .

ولم يقتصر هجوم توماس بين على المسيحية بل امتد إلى اليهودية فلم يسلم العهد القديم من زرايته به ، فالعهد القديم فى نظره لا يقدم إلينا الأخلاق الرفيعة والسامية . بالعكس فهو يرسم صورة بشعة وغير إنسانية لله الذى يأمر بارتكاب جرائم القتل الجماعى الأمر الذي يشككنا فى أولى صفات الله وهى العدل . ويعتبر بين مثل هذه الصورة الشائهة لله صورة مجدفة ومسيئة معاً . ولهذا اعتقد أن الكتاب المقدس لا يمكن أن يكون من عمل الله بسبب ما يحتويه من أوامر إلهية بالغة القسوة والظلم .

والجدير بالذكر أن توماس بين يجمل إيمانه فيما يلى : « أومن بإله واحد وآمل فى سعادة تتجاوز الحياة على الأرض وبالمساواة بين البشر كما أومن بأن واجبات الدين تتلخص فى تثبيت العدل والمحبة والرحمة والسعى إلى إسعاد جميع زملائنا فى الخليقة » . إن الله فى نظر بين هو « ميكانيكى الخليقة العظيم » الذي تحدث عن طريق خليقته إلى كل البشر بلغة كونية يفهمها الجميع وليس بمجرد اللغتين العبرية والآرامية . هذه الخليقة هى الإنجيل الذى يؤمن به أتباع المذهب التأليهى . وحكمة صانعها تنبع من نظامه المحكم الذى يستعصى على الألباب . . والشىء الوحيد الذى يمكننا أن نصف الله به هو أنه « المحرك الأول والسبب فى وجود جميع الأشياء » وليس هناك دون العقل سبيلٌ لتأمل الله . والمذهب التأليهى يدفعنا إلى تأمل أعماله ومحاكاته فى كل شىء . ويضيف بين أن الله القادر على كل شىء لم يخلق الأرض وحدها بل خلق ملايين العوالم الأخرى التى تعتمد فى وجودها على حمايته لها وفضله عليها . ولكن خيلاء المسيحيين جعلهم يتوهمون أن الله خلق كل هذه العوالم التى صنعها من أجل أن يجىء إلى عالمنا ويموت فيه . ومن الواضح أن توماس بين أثار مقت كثيرين له ليس بسبب دفاعه عن المذهب التأليهى ولكن بسبب تسفيهه الضارى للدين المسيحى وتحقيره الشديد له .

بقى أن نشير إلى ما حدث لتوماس وليامز الذى تجاسر ونشر كتاب « عصر العقل » والدور الذى لعبه إرسكين فى مقاضاته أمام محكمة الملك فى لندن ، قلنا إن إرسكين دافع دفاعاً مجيداً عن « حقوق الإنسان » وحق مؤلفه فى التعبير عن رأيه ، غير أن موقفه من « عصر العقل » تغير تماماً . فقد بادر بإقامة الدعوى ضد ناشر هذا الكتاب واتهمه بانتهاكه الحرية لأن القانون البريطانى الذى

يوفر حرية الرأى والعقيدة فى مسائل السياسة والدين يعاقب الزراية والاستهزاء بالحكومة وبالدين الذى تعتبره هذه الحكومة أساساً لها . فضلا عن أنه زراية بالدستور الإنجليزى الذى يستند أيضاً إلى الدين المسيحى . وذهب إرسكين إلى أنه من حق أى مواطن فى إنجلترا أن ينكر المسيحية رغم أن القانون الإنجليزى يعاقب على ذلك . ولكن ليس من حقه أن يكيل لها كل هذه الإهانات والشتائم . ونبه إرسكين الأذهان إلى خطورة مثل هذا الهجوم البذىء على الدين لأنه يجىء من شخص راق كتابه « حقوق الإنسان » فى عيون كثير من الناس . وانبرى للدفاع عن الناشر المتهم واحد من أتباع بين ومريديه هو توماس كيد الذى لعب إرسكين نفسه دوراً نشطاً عام (١٧٩٤) فى تبرئته وتبرئة كل من الكاتب العظيم توماس هاردى وجون هورن توك من تهمة الخيانة . وقد بنى كيد دفاعه على أساس أن الكتاب ينم عن احترام مؤلفه الشديد ليسوع المسيح وتبجيله العميق لله سبحانه وتعالى وذهب كيد فى دفاعه إلى أنه مادام القانون الإنجليزى يتيح للمواطن حق الاختلاف فى الرأى فى أمور الدين فإنه من الطبيعى أن تتوفر لهذا المواطن الحرية فى اختيار الأسلوب الذى يعبر به عن اختلافه . ولكن دفاع كيد وجد آذاناً صماء . فقد بادر اللورد كينيون والمحلفون بإدانة الناشر وليامز على الفور دون الحاجة للتداول وأعلنت المحكمة قرارها بأن المتهم مذنب وحكمت عليه بالحبس سنة مع الأشغال الشاقة ودفع غرامة قدرها ألف جنيه إسترلينى كضمان لحسن السير والسلوك مدى الحياة .

والعجيب فى الأمر أن كتاب «عصر العقل» لم يكن بداية فترة من الحرية والإباحة والتسامح بل كان إيذاناً بمقدم فترة من القمع والاضطهاد . وجاء الحكم الصادر ضد ناشره وليامز كاستهلال لهذه الفترة . وبعد فترة ذهبية تمتع فيها الإنجليز بالحرية الخالصة فى القرن الثامن عشر أصابهم الهلع فى التسعينيات من هذا القرن من جراء اندلاع الثورة الفرنسية فلم يجدوا فى فزعهم غير القمع الفكرى يحتمون به .

٤ - بيتر أنيت (١٦٩٣ - ١٧٦٩) Annet

وجمعية البحث الحر والمخلص المعروفة باسم جمعية «روبين هود» .

ازدهرت فى العاصمة البريطانية لندن فى القرن الثامن عشر جمعية «البحث الحر والمخلص» التى اشتهرت باسم جمعية روبين هود بالنظر إلى أن أعضاءها كانوا أحياناً يجتمعون فى حانة تحمل علامة روبين هود لمناقشة ما يعن لهم من قضايا وأفكار فى الدين والسياسة والأخلاق . وكان معظم هؤلاء الأعضاء من المؤمنين بالمذهب التأليهى . واستطاعت الجمعية بفضل مناقشاتها الصريحة والنابضة بالحياة أن تجذب إليها جمهوراً عريضاً من المستمعين من المستويات والطبقات كافة . وساعد على هذا أن عضوية الجمعية جمعت بين الطوائف الدينية المتعارضة والمنشقين على الدين على حد سواء . وفى عام (١٧٥٢) بلغ عدد أعضاء هذه الجمعية التى كان خباز يرأسها نحو ثلثمائة عضو معظمهم من صانعى الأحذية والمشتغلين بالصيدليات وعمال الإضاءة ومدرسى الأرياف (إلى جانب بعض صغار التجار والصناع والمحامين والسياسيين والأطباء والشعراء والممثلين) الذين التقوا لمناقشة الموضوعات التى تشغل بالهم . وقد عبرت مجلة الجنتلمان عام (١٧٥٤) عن بالغ دهشتها أن ترى مثل هذا المستوى الرفيع من المعرفة والعلم لدى أعضاء الجمعية وجمهور الحاضرين ومن أن

الكتبة وصغار التجار والميكانيكية بدا وكأنهم يحفظون أعمال التأليهيين أمثال تندال وكولنز وتشاب وماندلفيل عن ظهر قلب . بل إن صانع أحذية خطب فى الناس لمدة خمس دقائق فى روعة الأفكار والمبادىء التى يعتنقها التأليهى الأرستقراطى اللورد بولنجبروك .

واشتهرت جمعية البحث الحر والمخلص بالدفاع عن الأفكار الحرة الثورية وانتظم اثنان من دعاة المذهب التأليهى هما توماس تشاب وبيتر أنيت فى إلقاء المحاضرات على أعضائها . وقد عرف أنيت بسمعته السيئة بسبب تطاوله على الدين لدرجة جعلت أحد شانئيه يصفه بأنه رئيس جمعية الكفر . وقد انتهى الأمر به إلى السجن . غير أن جاكوب ليفى الذى كان (مطبعجيا) وخطيباً مفوهاً كان أسبق إلى السجن من بيتر أنيت ، بسبب جرأته البالغة فى الهجوم على توماس شيرلوك أسقف لندن فى كتاب مجهول المؤلف نشره عام (١٧٥٥) بعنوان «ملاحظات» .ولم يمض عام على صدور هذا الكتاب حتى قبضت السلطات الإنجليزية على ليفى ، صاحبه وأدانته بتهمة نشر كتاب شديد التجديف ينكر على نحو مضحك ألوهية المسيح والدين المنزل . وحكمت المحكمة عليه بالحبس لمدة ثلاثة أعوام مع الأشغال الشاقة قضى منها سنتين فى السجن قبل إطلاق سراحه . غير أن قضية جاكوب ليفى لم يكن لها الصدى الهائل الذى أحدثته قضية بيتر أنيت .

بيتر أنيت : بدأت قصة أنيت قبل محاكمة جاكوب ليفى بعشرة أعوام حين كان أنيت يعمل مدرساً . فقد قام آنذاك بتوجيه نقد قاس وعنيف ضد أسقف لندن شيرلوك عندما سعى هذا الأسقف لتفنيد آراء رجل يدعى وولستون أنكَر قيامة المسيح من الأموات . ونشر أنيت عامى (١٧٤٤ و١٧٤٥) نبذتين استهزأ فيهما بالإنجيل نفسه ووصفه بأنه لا يعدو أن يكون هراء غير جدير بالتصديق ، مشبهاً قيامة المسيح بتلك الحكايات الخرافية الواردة فى الأساطير . وليس أدل على تسامح السلطة آنذاك من أنها اكتفت بطرده من وظيفته دون أن تقاضيه أو تتخذ ضده أى إجراء قانونى . وانتعشت أحوال أنيت . ويبدو أن تسامح السلطة معه أغراه بنشر نبذة لاذعة فى كفرها تتهم القديس بولس بالكذب والنفاق والتعطش للسلطة . وفى عام (١٧٦١) تولى أنيت نشر مجلة أسبوعية اسمها «الباحث الحر» قامت الحكومة بإغلاقها ، على غير ما كان متوقعاً - بعد صدور تسعة أعداد منها . ودأبت المجلة على مهاجمة التوراة وسيدنا موسى وخاصة الأسفار الخمسة التى ارتبطت باسمه وهى : التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية ، وزعم أنيت أن هدفه تطهير المسيحية من أدران اليهودية وأوشابها وأن يبين أن المسيحية دين طبيعى قديم قدم الخلق نفسه . وقارن أنيت بين معجزات موسى وبين الحكايات الخيالية الواردة فى روايتى «دون كيشوت» و«رحلات جاليفر» . والغريب أن السلطة قلبت له ظهر المجن بعد أن سكتت على تطاوله ضد الدين لفترة طويلة . فقد بدأت تتحرك ضده بعد أن نشرت مجلة «الجنتلمان» رأياً مفاده أن أية حكومة ينبغى عليها أن تتصدى لمثل هذا الهجوم اللاذع على الدين . حتى أنيت نفسه لم يفهم ما الذى حدا الحكومة إلى أن تسعى لمعاقبته على رأيه فى موسى والتوراة فى حين أنه سبق له أن تطاول على المسيحية بصورة أوضح . والذى حدث على أية حال أن بعض الأساقفة أو المدعى العام ضاقوا ذرعاً فقدموه للمحاكمة . ويزعم أنيت أن المدعى العام أوحى إلى القضاة أن مليك البلاد نفسه هو الذى

طلب تحريك الدعوى ضد المتهم وأنه يرغب فى توقيع أقصى عقوبة عليه حتى يجعله عبرة لمن يعتبر . وتمت بالفعل محاكمته أمام محكمة الملك وهى أعلى محكمة جنائية فى البلاد . وجاء فى عريضة الاتهام أن أنيت سعى إلى «نشر الإلحاد وبث الأفكار الشيطانية فى عقول رعايا جلالة الملك بهدف زعزعة أركان العقيدة المسيحية وأيضاً أركان السلطتين المدنية والكنسية فى هذه المملكة» . وذكرت مجلة «تقارير» التى يصدرها بلاكستون أن أنيت اعترف بذنبه وأنه طلب من المحكمة الصفح والمغفرة والرحمة به . وبالفعل أخذت المحكمة فى الاعتبار فقره وسنه الطاعنة (فقد كان فى السبعين من عمره) وأعراض نوبات الهياج التى تعتريه فقامت بتخفيف الحكم ضده وخفضته إلى السجن لمدة شهر (كان قد قضاه بالفعل أثناء المحاكمة فى سجن نيوجيت) وأمرت المحكمة بوقوفه مرتين فى المشهرة وقد علقت على جبينه ورقة مكتوب عليها كلمة «تجديف» ثم أرسل بعد ذلك إلى إصلاحية برايدويل ليعمل فيها عملاً شاقاً لمدة عام ويدفع غرامة وكذلك ضمانة مالية كبيرة لضمان حسن سيره وسلوكه فى المستقبل .

لا شك أنه من المفيد أن نعلم أن القوانين الإنجليزية ظلت متشددة حتى نهاية القرن الثامن عشر كما نستدل على ذلك من المبحث القانونى المهم الذى ألفه الباحث القانونى البارز السير وليم بلاكستون بعنوان «تعليقات على قوانين إنجلترا» والصادر فى عام (١٧٦٩) . فهذا المبحث يشير إلى إحدى عشرة إساءة يعتبرها قانون التجديف الصادر عام (١٦٩٨) جريمة ضد الدين يعاقب عليها مثل الردة والهرطقة وإنكار الثالوث وإنكار وجود الله والزراية بالمسيحية والكتاب المقدس وإنكار السحر (الذى يعترف به الدين المسيحى) وادعاء الألوهية . ولكن هذه القوانين أصبحت فى القرن الثامن عشر مجرد حبر على ورق كما تدلنا على ذلك قضيتان إحداهما تعرف بقضية تعيين المأمورين . نبدأ بقضية جون ويلكس .

جون ويلكس Wilkes

ليس هناك ما يدل على إيمان ويلكس بالمذهب التأليهى ولكن هناك بالتأكيد ما يدل على بذاءته وتجديفه معاً . فى عام (١٧٦٣) ذاعت قضية شهيرة خاصة بحرية الصحافة هزت الرأى العام البريطانى واقترنت باسمه . فقد كانت الأحزاب السياسية البريطانية آنذاك أشد ما تكون تصارعاً وفى مسيس الحاجة إلى أحزاب تؤيدها وتهاجم خصومها ، فلا غرو إذا رأينا هذه الأحزاب تمول الصحف الموالية لها ، الأمر الذى زاد من عدد الصحف الصادرة فى إنجلترا . ففى لندن وحدها بلغ عدد الصحف الصادرة فى أول عهد الملك جورج الثالث نحو تسعين صحيفة بالإضافة إلى ما فيها من مطابع كثيرة . وكان من الطبيعى فى هذا الجو أن تكتسب الصحافة أهمية بالغة لدرجة أن السياسى الكبير هوراس والبول أطلق عليها اسم «مجلس البرلمان الثالث» إضافة إلى المجلسين المعروفين «اللوردات» و«العموم» .

ويعتبر جون ويلكس - وهو عضو فى مجلس العموم - أحد أبطال الحرية فى إنجلترا . تعمد ويلكس أن ينشر إهانة محسوبة وجهها إلى الخطاب الذى ألقاه جلالة الملك جورج الثالث عام (١٧٦٣) وذلك فى عدد من أعداد مجلته «البريطانى الشمالى» ، الأمر الذى أثار ثائرة الملك عليه .

وبادر المدعى العام إلى توجيه الاتهامات السياسية إلى ويلكس كما بادر وزير الداخلية بإصدار عدد من أوامر التفتيش ضده . وانتهى الأمر بإلقاء القبض على تسعة وأربعين من المشتبه فيهم . واجتمع مجلس العموم ليقرر حرق العدد ٤٥ من مجلة «البريطانى الشمالى» لما ينطوى عليه من قذف وتهييج للخواطر .

وفى الوقت نفسه تآمرت الحكومة على ويلكس وكادت له بأن رفعت ضده دعوى تتهمه فيها بالتجديف وبأن مجونه وفسقه دفعاه إلى تأليف محاكاة ذكية وبذيئة بعنوان «مقال عن المرأة» يقلد فيها قصيدة ألكسندر بوب المعروفة «مقال عن الإنسان» كما تتضمن هذه المحاكاة سخرية من الحذلقة التى اتصف بها أسقف جلوستر وليم واربيرتون الذى نشر عام (١٧٥١) ديواناً لأشعار بوب . واتهمت الحكومة ويلكس باحتفاظه فى عقر داره بمطبعة ومطبعجى وبأنه أمر المطبعجى بطبع اثنتى عشرة نسخة من محاكاته البذيئة المجدفة ولكن المطبعجى خان ثقة ويلكس فيه فطبع نسخة زائدة آثر أن يحتفظ بها لنفسه حتى يتسلى بها وقت فراغه . ومما زاد الطين بلة أن هذا المطبعجى أضاع صفحة من صفحات تجارب (بروفات) الديوان فوقعت فى يد عامل البوفيه الذى استخدمها فى لف الطعام وكانت هذه الصفحة تحوى بيتين من الشعر الشهوانى البذىء الذى استرعى انتباه راعى كنيسة سيىء السمعة يعمل لدى واحد من أعضاء مجلس اللوردات وأثارت الأبيات الشهوانية شهية هذا القسيس السيىء فصمم على اقتفاء أثرها بغية تتبع مصدرها وبغية سحق ويلكس المشتبه فيه وفضحه أمام المنشقين البروتستانت الذين يؤازرونه . واستطاع هذا القسيس الفضولى أن يحمل المطبعجى على الاعتراف عن طريق التهديد والوعيد من ناحية وتقديم رشوة كبيرة إليه من ناحية أخرى ثم أبلغ الحكومة التى بادرت بضبط جميع نسخ «مقال عن المرأة» فهالها ما احتوته من بذاءة وتجديف معاً . فعلى صفحة الديوان الأولى كانت هناك صورة لقضيب هائل الحجم وصفت إحدى قصائد الديوان أن طوله يبلغ ثلاث عشرة بوصة كما تضمن الديوان مقدمة يقال إن رئيس أساقفة مشهوراً سطرها وإنه مكتوب تحت القضيب الضخم عبارة «مخلص العالم» باللغة الإغريقية .

وتقول الصفحة الأولى من الديوان إن الأسقف واربيرتون هو الذى تولى شرح قصائد الديوان البذيئة . وعبثاً حاول أحد أنصار ويلكس الدفاع عنه بقوله إن العبارة المحفورة أسفل التمثال موجودة بالفعل تحت رسم أثرى لقضيب صنعه الإغريق قبل ولادة يسوع المسيح بعدة قرون ، ولكن أعداء ويلكس أصروا أن العبارة المكتوبة «مخلص العالم» إشارة إلى السيد المسيح تهدف إلى الحط من شأنه وفى الخطاب الذى ألقاه الأسقف واربيرتون فى مجلس اللوردات قرأ عليه أبيات المحاكاة التى تحمل عنوان «مقال عن المرأة» وذهب هذا الأسقف إلى أن الملك جورج كلفه برفع دعوى ضد ويلكس ومحاكاته البذيئة من أجل حماية الدين من هذا العبث والاستهزاء ، وأضاف أن هذه المحاكاة المقززة «تصب الإهانات البشعة على الدين» وتتضمن تجاديف يشيب لها الولدان ضد الله العلى القدير . وبعد أخذ الأصوات قرر مجلس اللوردات أن المحاكاة بذيئة ومجدفة وسعى أعداء ويلكس إلى إثبات صحة هذه الاتهامات بمختلف الطرق فذكر أحدهم أنه ورد فى أحد حواشى المحاكاة أن الحمار كان ينعم بالتقدير والاحترام بسبب ضخامة قضيبه لهذا دخل يسوع المسيح أورشليم على ظهر

أتان ، وأضاف أن إحدى قصائد الديوان تتمثل بركة الله فى عملية المضاجعة وأن قصيدة «الحبيب المحتضر يتحدث إلى قضيبه» ليست سوى سخرية من القديس بولس ؛ وأشار الشانئون إلى قصيدة تمتدح القضيب قالوا عنها إنها زراية بالثالوث الذى شبه بقضيب تحيط به خصيتان . ويقال إن ويلكس دافع عن نفسه بأنه من حق الحكومة معاقبة الزراية بالمقدسات ولكن من حق الفرد أن يعبر عن زرايته بهذه المقدسات فى خلوته ، فهو حر فى السخرية مما يشاء واحتج ويلكس أن الحكومة داهمت مكتبه كى «تحول التسلية الخاصة إلى جرائم ضد الدولة» ولكن هذا الدفاع ذهب أدراج الرياح إذ أصر مجلس اللوردات على اتهام ويلكس باستخدام البذاءة فى إهانة المسيح والله وأنه صاغ هذه الإهانة فى قالب القصائد والابتهالات .

شعر ويلكس بدنو الخطر منه فخف إلى الهرب خارج البلاد . فقامت الحكومة الإنجليزية عام (١٧٦٤) بمحاكمته غيابياً أمام محكمة الملك التى قررت إدانته فى كل تهم البذاءة والتجديف الموجهة ضده . فضلاً عن أن المحكمة أهدرت دمه لأنها رأت أنه بهروبه أسقط حقه فى حماية الدولة له . ومن ثم حل قتله دون حساب أو مساءلة بمجرد مشاهدته فى أى مكان . غير أنه طرأ على الجو السياسى السائد فى إنجلترا تغيير عام (١٧٦٨) فشجعه هذا على العودة إليها وتسليم نفسه ورفع قضية ضد الحكومة لتغيير الحكم الصادر ضده . ولهذا استطاع القاضى اللورد ما نسفيلد أن يجد المبررات القانونية لإلغاء الحكم بإهدار دمه ولكنه حكم على ويلكس بالحبس بالفترة نفسها التى كان سيحكم بها عليه لو أنه بقى فى إنجلترا ولم يهرب خارجها . ورغم أنه أصبح واضحاً للعيان أن ويلكس يقف على أعتاب الشهرة السياسية العريضة فقد حكمت عليه محكمة الملك بالحبس لمدة عشرة شهور وتغريمه غرامة قدرها خمسمائة جنيه عقاباً له على القذف والتشهير الذى نشره فى العدد ٤٥ من مجلة «البريطانى الشمالى» بالإضافة إلى غرامة مماثلة وعقوبة حبس أخرى لمدة عام بسبب ما تضمنته محاكاته «مقال عن المرأة» من تجديف . ورغم ذلك فقد تمكن ويلكس من داخل زنزانته من إلهاب مشاعر الناس المتعطشة للحرية فى كل من إنجلترا وأمريكا . وأصبح الرجل بين عشية وضحاها يشار إليه بالبنان . والجدير بالذكر أن الإنجليز آثروا بعد قضية ويلكس أن يتجاهلوا القوانين الخاصة بالتجديف وأن يغضوا الطرف عنها حتى أطاشت آراء توماس بين الثورية صوابهم .

فى تلك الفترة تعمدت الحكومة الإنجليزية وكنيسة إنجلترا التغاضى عن كثير من مظاهر الانشقاق والخروج على الدين . فتسامحت تسامحاً عجيباً مع الفكر اليونيتارى المؤمن بأن الله أقنوم واحد والأفكار الأريوسية التى اعتبرت أن المسيح أدنى مرتبة من الله بل إنها تسامحت أيضاً مع الأفكار المنكرة لألوهية المسيح . فلا غرو إذا رأينا المذاهب الدينية المنشقة تنمو وتزدهر . وعلى سبيل المثال ازدهر المذهب اليونيتارى على يد مجموعة من زعمائه أمثال جون جيت وجون ديزنى وريتشارد برايس وجوزيف بريستلى . ومن العجيب أن هذا التسامح على أرض الواقع لم يواكبه تسامح فى استنان القوانين أو تعديلها . فقد ظلت القوانين الإنجليزية تميل إلى المحافظة ورفضت الاستجابة لمطلب كثيرين بإلغاء قانون الاختبار الذى سبق أن أشرنا إليه وهو قانون يقضى بأن يقسم

كل من يتولى الوظائف العامة على إيمانه بألوهية المسيح .

قضية تعيين المأمورين :

وأيضاً تدل هذه القضية - شأنها فى ذلك شأن قضية ويلكس - على أن بعض قضاة إنجلترا أصدروا أحكاماً عظيمة التسامح تتعارض مع تشدد نصوص القانون ضد الخروج على مألوف الدين Non Conformity . فقد احتدم نزاع قانونى بين مجلس مدينة لندن والمنشقين البروتستانت المارقين على مألوف الدين . إذ فرض مجلس المدينة عليهم غرامات لرفضهم التعيين فى وظائف المأمورين ؛ ويرجع سبب رفضهم إلى أن القانون انذاك كان يلزمهم بأخذ التناول أو العشاء الربانى كشرط أساسى من شروط التعيين وهو ما كان يتعارض مع مفاهيمهم الدينية . والتجأ المتضررون إلى القضاء فوقف بجانبهم وألغى الغرامات المفروضة عليهم . ولم يرق هذا فى عيون المسئولين فى مجلس مدينة لندن فأستأنفوا ضد هذا الحكم أمام مجلس اللوردات الذى رفض أبرز قضاته النظر فى الاستئناف وأيدوا الحكم السابق على أساس أن قانون التسامح الصادر عام (١٦٨٩) «لا يجعل من الخروج على مألوف الدين جريمة يعاقب عليها القانون» فهو ينظر إليه كشكل من أشكال العبادة ، يضمنها القانون وتستحق أن تحظى بحماية الجمهور لها» . وألقى وليم مرى (البارون مانسفيلد) ، وهو محام بارز فى مجلس اللوردات خطاباً مثيراً أيد فيه هذا الحكم . قال البارون مانسفيلد إن القانون الإنجليزى يكفل حرية الاختلاف الدينى باستثناء الإلحاد والكفر والتجديف أى الزراية بالمسيحية . وإذا دلت قضية المأمورين على شيء فهى تدل بشكل قاطع على مدى الحرية الدينية التى كفلتها إنجلترا لمواطنيها فى القرن الثامن عشر وعلى أن بلاكستون لم يدرك مدى التغييرات التى طرأت على قوانين التجديف الإنجليزية آنذاك . وهى تغييرات حدثت فى التطبيق العملى للقانون على أرض الواقع دون أن يواكبها تغيير فى نصوص القانون ، ومعنى هذا أن القضاء الإنجليزى كثيراً ما غض النظر عن تنفيذ القوانين المكبلة للحريات الدينية . الأمر الذي يدل على أن بلاكستون كان يتحدث عن القانون الإنجليزى ليس كما هو كائن بل كما هو مفروض أن يكون .

المحامى المسيحى البارز فيليب فورنو يدافع عن الملاحدة والتأليهيين :

كان المحامى المسيحى البارز فيليب فورنو يتزعم حملة البروتستانت من أصحاب الرأى المخالف ضد قرارات مجلس مدينة لندن بفرض الغرامة على كل من يرفض التعيين فى وظيفة مأمور لأسباب عقائدية . وذهب فورنو إلى رأى بالغ الجسارة مفاده أنه ينبغى على القانون أن يتجاهل الدعوة إلى الإلحاد وإنكار وجود الله والسخرية من الثالوث والزراية بالكتاب المقدس وعدم الانصياع لأوامر الكنيسة ونواهيها . واستهجن فورنو قانون الاختبار الذى يلزم كل من يتقلد وظيفة عامة بالتناول وفقاً لطقوس الكنيسة الإنجليزية ودعا إلى الاكتفاء بمعاقبة الأفعال دون الأقوال اللهم إلا إذا كانت هذه الأقوال السبب فى تعكير الصفو العام . ويعتبر فورنو أول رجل قانون فى إنجلترا يدافع بهذه الصراحة والوضوح عن حرية التعبير وإبداء الرأى . فجاء دفاعه بمثابة استكمال لما سبق أن ذهب إليه نفر من المفكرين والفلاسفة فى أوروبا أمثال روجر وليامز ووليم والوين المؤمن بمذهب «جعل عاليها واطيها»

وسبينوزا ومونتسكيو الذين حبذوا محاسبة الإنسان فى هذه الدنيا على أفعاله دون أقواله . وهى وجهة نظر وجدت من يعترض عليها بدعوى أنها سوف تفتح الباب على مصراعيه أمام حرية التعبير الفاسق والماجن والمنحل . ولكن فورنو رد على ذلك بقوله إن بلاكستون يخطىء عندما يذهب إلى أن واجب القاضى يحتم عليه أن يقرر مدى الضرر الذى يصيب الدين أو الأخلاق من جراء هذا الرأى أو ذاك ، لأن معنى هذا أن الأمر سوف يُترك للحكومة لتقدير مدى الحرية الدينية التى ينبغى السماح بها وأن باستطاعتها أن تعاقب المخالفين للدين على آرائهم فى حين أنه من المفروض أن يقتصر عقابهم على مسلكهم وتصرفاتهم وأن يترك أمر حسابهم على أقوالهم ونواياهم للمولى سبحانه وتعالى فى الآخرة ، فالله وحده علام الضمائر والقلوب . يقول فورنو فى هذا الشأن : «إن معاقبة الإنسان على اتجاه مبادئه معناه إنزال العقاب به قبل ثبوت ذنبه خشية أن يتضح أنه مذنب .» لقد رأى بلاكستون فى الحنث بالقسم الذى يردده الماثل أمام المحكمة انتهاكاً للدين يعاقب عليه القانون باعتبار أن هذا القسم يقتضى من صاحبه الإيمان بالمسيحية وبوجود الله فى حين أنكر فورنو وجود أى رابط بينهما مؤكداً أنه ليست هناك أية علاقة بين القسم والإيمان بالمسيحية وبالله . بل إنه ذهب إلى حد القول بأن الأخلاق شىء منفصل تماماً عن الدين بوجه عام والمسيحية بوجه خاص . ورغم أن فورنو اعترف أن التجديف يتضمن إساءة إلى المسيحية والمؤمنين بها فإنه رفض أن يكون التجديف جريمة يعاقب عليها القانون ذاهباً إلى أن أنجح وسيلة للرد على التجديف هى دحضه وتفنيده ومقارعته الحجة بالحجة . فالله والمسيح ليسا بحاجة إلى من ينتقم لهما من الكافرين . ثم إن عظمة الله والمسيح لن ينال منها مجدف . وثمة أمر آخر إن التجديف شىء نسبى يتوقف على وجهة نظر ولى الأمر . فإثناسيوس اعتبر آريوس مجدفاً كما أن الكالفنيين اعتبروا أتباع أرمنيوس مجدفين إلخ . والذى يستطيع أن يقرر ذلك هو الذى يملك السلطة . وهذا أمر واضح الخطورة لأنه قمين بأن يقضى على الحرية الدينية لأن من بيده السلطة يستطيع أن يلصق تهمة التجديف بالرأى المخالف له . والشىء الوحيد الذى أقر فورنو عقابه هو السب والشتم واستخدام لغة سوقية من شأنها أن تؤذى المشاعر المهذبة .

لقد نصح فورنو المسيحيين أن يتحلوا بالصبر ويستمسكوا بعقيدتهم ويردوا على المعترضين عليها أو المخالفين لها ، وحذر من مغبة توقيع العقاب على الخارجين على المألوف من الدين لأن هذا من شأنه أن يثير فضول الناس ويجعلهم أكثر تلهفاً وتشوقاً على سماع وجهة نظرهم . ويؤكد فورنو أن الله والمسيح لا يخشيان حفنة من الملاحدة والتأليهيين ومن ثم فلا ضرر أو خوف مطلقاً من إعطائهم حرية التعبير عن أنفسهم . ويختتم فورنو حديثه عن التجديف بقوله : «إن كل من يؤيد المسيحية عن طريق إلحاق الألم والعقوبة بالمجدفين ينسى القداسة التى تتسم بها شخصية السيد المسيح ومسلكه» .

وعلى كل حال فإنه سواء كان فورنو مخطئاً أم مصيباً فيما يذهب إليه فقد ظلت إنجلترا لأكثر من ربع قرن بعد صدور مبحث بلاكستون «تعليقات على قوانين إنجلترا» (١٧٦٩) تتمتع بالسماحة الدينية وتمتنع عن تقديم أى إنسان إلى المحاكمة بتهمة التجديف رغم كثرة ما كان أتباع المذهبين

اليونيتارى (المؤمن بأن لله أقنوم واحد) والتأليهى (المؤمن بالله والمنكر للدين المنزل) يرددونه من تجاديف على مسمع ومرأى من الجميع . وبدا كما لو كان قانون التجديف الإنجليزى قد أصبح جثة هامدة لولا أن كتاب توماس بين المستفز «عصر العقل» بعث فيه الحياة من جديد .

صحيح أن إنجلترا لم تقم بإلغاء قانون الاختبار الصادر عام (١٦٧٣) إلا فى عام (١٨٢٩) (وينص هذا القانون على ضرورة التناول قبل تولى الوظائف العامة) ولكن معظم القوانين المتشددة كانت مجرد حبر على ورق لدرجة أن الملاحدة والتأليهيين الإنجليز فى القرن الثامن عشر كانوا فى العادة فى مأمن من عقاب القانون ما داموا يتوخون الحكمة ويمتنعون عن استفزاز الرأى العام بدليل أن اثنين من هؤلاء التأليهيين (وهما كونيورز ميدلتون وتوماس تشاب) لم يلحق بهما أى أذى بسبب حصافة مسلكهما .

١ - فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) Voltaire :

فولتير اسم غني عن التعريف طبقت شهرته الآفاق حتى فى حياته . استطاع فولتير (واسمه الأصلى فرانسوا مارى أرويه) أن يجمع بفضل حسه التجارى ثروة عريضة وفرت له الاستقلال وأغنته طيلة حياته عن الحاجة إلى الغير . تعددت مواهبه الأدبية فكتب المسرحيات والشعر ولكن تميزه الحقيقى يرجع إلى روعة كتاباته النثرية . خالط الأرستقراط بسبب نجاحه الأدبى المنقطع النظير . غير أن حادثة وقعت له وهو فى الثلاثين من عمره كانت نقطة تحول فى حياته . فقد صور له اعتزازه بنفسه أنه على قدم المساواة معهم . وكانت نتيجة ذلك أنه تشاجر ذات يوم مع واحد من أعرق العائلات الأرستقراطية الفرنسية هو الشفاليه دى روهان فتكاثر عليه خدم هذا النبيل وأوسعوه ضرباً . وطلب فولتير إلى دى روهان أن يبارزه ولكن هذا الأرستقراطى رفض إجابته إلى طلبه إمعاناً فى تحقيره والحط من شأنه . فضلاً عن أنه ألقى به فى غياهب سجن الباستيل دون محاكمة . واشترطت عليه السلطات مغادرة البلاد عقب الإفراج عنه . فرحل إلى إنجلترا حيث تعرف عن كثب بمؤسساتها الليبرالية وترسيخ هذه المؤسسات لتقاليد الحرية والتسامح الدينى . وتتضمن خطاباته الفلسفية أو «خطابات عن الإنجليز» (١٧٣٤) إعجابه بهذه التقاليد الليبرالية . فضلاً عن أننا نرى فى هذه الخطابات هجوماً شديد الوطأة على امتيازات الطبقة الأرستقراطية التى تؤازرها الكنيسة . وأصدر فولتير مبحثاً بعنوان «ملاحظات حول باسكال» شن فيه هجوماً قاسياً على الدين ، فأدان البرلمان الفرنسى هذا الكتاب وأمر مؤلفه أن يعيش خارج باريس فدعته المركيزة دى شاتيليه التى عشقته كى ينزل ضيفاً عليها فى منطقة اللورين . وشجعته هذه العشيقة الأرستقراطية على دراسة العلم فكتب شروحاً مبسطة لنظريات نيوتن يمكن لعامة الناس فهمها . وفى تلك الفترة من حياته انصرف إلى دراسة التاريخ على نحو موضوعى . غير أن حبه للأدب ما لبث أن تغلب على حبه للعلوم والتاريخ . وفى عام ١٧٦٩ ألف مبحثاً بعنوان «مقال عن الأموات» سعى فيه إلى توضيح تقدم الإنسانية البطىء نحو التنوير والعقلانية والتخلص من الإيمان بالخزعبلات . ورغم توخيه البساطة والوضوح فى التعبير فإن معالجته للمادة العلمية اتسمت بالتأنى ، ومن ثم نراه يقول فى هذا الصدد إنه كان أحياناً يستغرق فى قراءة المراجع لمدة أسبوعين كاملين من أجل كتابة عشرة سطور فى

فصل واحد من فصول كتبه التاريخية .

على أية حال استطاع فولتير فى وقت قصير أن يصبح رمزاً للحرية والثقافة الليبرالية ليس فى فرنسا وحدها بل فى جميع أنحاء أوروبا لدرجة أن الملوك والأمراء كانوا يتهافتون ويتنافسون على صحبته . ودعته مدام دى بومبادور إلى بلاط الملك لويس الخامس عشر . ولكن فولتير حلت به فجيعة عندما توفيت حبيبته مدام دى شاتيليه فسئم الحياة الباريسية ورغب فى الابتعاد عن حياة البلاط . ولهذا قبل عام (١٧٥٠) دعوة من فردريك الثانى إمبراطور بروسيا للسفر إليها . ولم ترقه معاملة هذا الإمبراطور المستعلية فرحل عن بروسيا عام (١٧٥٣) إلى الحدود السويسرية الفرنسية حيث استقر فى مأمن من الاضطهاد وبعيداً عن أذى أعدائه . وهناك أقام عدداً من المشروعات الصناعية والتجارية الناجحة واستخدم جانباً من ريعها فى مساعدة ضحايا العسف والاضطهاد مثل عائلتى كالاس وسيزفين . وقد ألف فولتير تحت أسماء مستعارة مئات النشرات والنبذات التى تدعو إلى التسامح وتهاجم التعصب . ثم ألف بعد ذلك كتابين هما «مبحث فى التسامح» (١٧٦٣) و«القاموس الفلسفى» (١٧٦٤) دافع فيهما عن التسامح على نحو أكثر استفاضة . وفى عام (١٧٤٧) أصدر فولتير حكاية فلسفية تسخر من حماقة البشر بعنوان «زاديج» استمد جوها من القصص الشرقى . وفى رواية «كانديد» التى ألفها عام (١٧٥٩) يسخر فولتير من فلسفة الفيلسوف الألمانى ليبنتز المفرطة فى التفاؤل والتى ترى أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان . ورغم عقلانيته وجموده العاطفى فقد استبدت بفولتير رغبة عارمة فى نشر العدل والقضاء على الظلم وميل إلى البر بالمظلومين والإحسان إليهم . وكان يكره فى الدين غموضه وضيق أفقه ولكنه آمن مثل رابلييه بوجود خالق للكون يتجاوز بخيره وصلاحه كل الأديان وكل العوالم . وسوف نفصل فيما بعد رأيه فى الله والدين . وفى شيخوخته الواهنة سافر وهو فى الثالثة والثمانين إلى باريس ليحضر فى مسارحها افتتاح آخر أعماله الدرامية وهى مسرحية تراجيدية بعنوان «إيرين» استقبلها الجمهور بحماس محموم يصل إلى حد الهوس . ولكن الرحلة كانت شاقة ومضنية فعجلت بوفاته .

والجدير بالذكر أن فولتير استحدث أسلوباً فريداً عقلانياً وبسيطاً شديد الوضوح يروق لعامة الناس مثلما يروق لخاصتهم . وهو أسلوب شاركه فيه عدد من رواد عصر التنوير فى فرنسا المعروفين باسم الموسوعيين الذين نرجىء الحديث عنهم حى ننتهى من عرض آراء فولتير فى الدين .

ليس من السهل استقصاء آراء فولتير فى الله لجملة أسباب أهمها أنه لم يكن - مثل توماس هاردى - مهموماً أو مشغولاً بالتفكير فى مشكلة الله بدليل أن إشاراته إليه فى كتاباته - باستثناء مبحثه فى الميتافيزيقا - قليلة ومتناثرة ،وأن عدداً من هذه الإشارات مجرد ملح أو إشارات تقليدية . ولا أحد يعرف على وجه التحديد التاريخ الذى ألف فيه فولتير «مبحث فى الميتافيزيقا» . ولكن الثابت أنه امتنع عن نشره فى حياته . ويتناول هذا المبحث مشكلة وجود الله وطبيعة علاقته بالإنسان . ومن الواضح أن فولتير كان تأليهياً يؤمن بوجود الله ومن ثم جاء هجومه على الإلحاد فى «القاموس الفلسفى» . ولكن لا مناص من الاعتراف بأن رائحة الإلحاد قد تفوح من بعض آرائه مثل

قوله إن «معظم عظماء العالم يعيشون كما لو كانوا ملحدين» وإن إيمان الإنسان بوجود الله لم يمنعه من إشعال الحروب والأنانية والانغماس فى الملذات .

كان فولتير فى كتاباته يطرح أسئلة فلسفية لا جواب عنها ، غير أن الأفكار الفلسفية المجردة لم تكن تثير اهتمامه فقد كان مهموماً على نحو مباشر بالدفاع عن قضايا أخرى أكثر إلحاحاً مثل محاربة التعصب والقضاء على الخزعبلات والعمل على سيادة القانون ونشر العدل . ويبدو أن فولتير لم يكن مقتنعاً بجدوى استحداثه نظاماً فلسفياً متكاملاً على نحو ما يفعل الفلاسفة المتخصصون . فهو يذهب فى مبحثه فى الميتافيزيقا إلى أن النظم الفلسفية تسىء إلى العقل لأن هذه النظم تتسم بالجمود فى حين أن العقل البشرى قادر على التغيير . يقول فولتير فى هذا الشأن : «أما بخصوص النظم فإنه يجب دائماً أن يحتفظ الإنسان لنفسه بالحق فى أن يضحك فى الصباح من أفكاره فى اليوم السابق» . أضف إلى ذلك أن فولتير ككاتب لم يكن بمقدوره أن يسطر عبارة واحدة لا تتميز بشدة الوضوح ، على عكس الأكاديميين من الفلاسفة واللاهوتيين . فأسلوب فولتير فى جلائه كان أقرب إلى الأسلوب العلمى منه إلى أى شىء آخر . والملاحظ أن آراء فولتير فى الله ليست قاطعة مثل أحكامه الفكرية والأدبية الأخرى ومثل مقته للتعصب وإيمانه بضرورة التسامح وتفضيله لأدب راسين على أدب كورنيل .

يتناول رينيه بومو فى كتابه «ديانة فولتير» نظرة هذا الكاتب التأليهية وإنكاره للدين المنزل فيقول : «نحن نرى فولتير عام (١٧٦٥) يصف المؤمن بأنه ذلك الرجل الذى يقتنع اقتناعاً راسخاً بوجود كائن أسمى يجمع بين الخير والقوة وأنه خالق هذا الكون والمسئول عن استمرار الجنس البشرى وأنه يعاقب الجرائم والآثام دون قسوة ويثيب الصالح من الأعمال» . والجدير بالذكر أن فولتير لم يفرق بين تعبيرى (المؤمن بالله) و(المؤمن بالمذهب التأليهى) كما هو واضح فى قاموسه الفلسفى . ففى عام (١٧٤٢) نشر فولتير مقالاً بعنوان «المذهب التأليهى» ولكنه أعاد نشره فى قاموسه الفلسفى تحت عنوان آخر هو الإيمان بالله مما يدل على أنه لم يفرق مطلقاً بين التعبيرين .

ومما يجعل من العسير علينا تتبع أفكار فولتير عن الله أنه توخى الحذر فى كل إشاراته إليه حتى يتجنب سخط الرأى العام عليه . وليس أدل على تردده وحذره من أنه كتب خطاباً للرد على مدام دى ديفاند جاء فيه «إن الملك يفقد حقوقه - وكذلك الله - إذا أصبحت مملكته خاوية» . وتردد فولتير فى استخدام عبارة (وكذلك الله) لأنه خشى أن تقرأ مراسلته خطابه على المترددين على صالونها فغير كلمة الله بكلمة الطبيعة ثم عاد إلى استخدام الله وهى الكلمة الأصلية . ولكن النسخة الأخيرة من الخطاب تدل على أن فولتير استبعد كلمة الله نهائياً واستبدلها بكلمة الطبيعة . كما أن مجاملة فولتير للآخرين تحول أحياناً دون وضوح أفكاره عن الله . ولهذا يحذرنا بعض الدارسين ألا نأخذ ما يقوله بشأن اللاهوت على عواهنه . فخطاباته الحميمة إلى أخلص أصدقائه تدل على أنه كان أحياناً لا يعنى مطلقاً المعنى الحرفى لبعض الكلمات والعبارات التى يستخدمها مثل مقولته الشائعة إنه لا يوجد ملحد واحد فى كل أوروبا . فقد وردت هذه العبارة فى خطاب مجاملة سطره فولتير إلى ستانيسلاس ملك بولندا السابق ليشكره على أنه أرسل إليه نسخة من كتابه المدافع عن الدين بعنوان

«الشك فى الدين ينهزم أمام أبسط مبادىء العقل» . وليس أدل على أن هذه العبارة قيلت كنوع من المجاملة للملك المؤلف المتدين من أنها تتعارض مع الكثير مما كتبه فولتير فى هذا الصدد . فهو يقول فى مقال نشره فى القاموس الفلسفى بعنوان الإلحاد : «لا يزال يوجد فى إنجلترا قبل أى مكان آخر أناس كثيرون يؤمنون بالإلحاد كمبدأ . أما الذين يعتقدون بعدم وجود ملاحدة فليسوا سوى وعاظ حديثى السن ويبدون خبرة فى الحياة وليس لديهم معلومات صحيحة عما يحدث فى العالم» .

ومن الخطل أن نستدل من فقرة واحدة يسوقها فولتير فى كتاباته على أن هذه الفقرة تمثل اتجاهه الفكرى طالما أن هذه الفقرة تتعارض مع كثير من الفقرات المخالفة التى يسطرها المؤلف فى مواضع أخرى ؛ ويتضح لنا هذا من تأييد فولتير لنظرية الخلق المستمر التى نادى بها مالبرانش . يقول فولتير فى تأييده لهذه النظرية إنه يجد من المستحيل أن نؤمن بإله يظل خاملاً وبلا عمل على مدى الدهر . والذى يدعونا إلى عدم أخذ مثل هذا الرأى على عواهنه أنه لا يتمشى مطلقاً مع سائر كتابات فولتير .

ويضيف الباحثون أن بعض الحكم الشائعة والأمثال السيارة تنسب خطأ إلى فولتير الذى يجرى أحياناً بعض التعديلات على هذه الحكم والأمثال . ومن الأمثال التى تنسب خطأ إليه ذلك المثل الذى يستخدمه الانتهازيون دوماً أمثال نابليون وستالين لتحقيق مآربهم بغض النظر عن القيم والاعتبارات الأخلاقية . يقول المثل المنسوب إلى فولتير : «إن الله يناصر دائماً كتائب الجيش الكبيرة العدد» بمعنى أن الله ينصر القوة ضد الحق . ويبدو أن ما حدث كالآتى . قرأ فولتير هذا المثل الشائع أو سمع به فقام بتدوينه فى كراسته على نحو ما قرأ أو سمع : «إن الله لا يناصر الكتائب الكبيرة العدد ولكنه يناصر من يتقنون الرماية» . ثم أدخل عليه فولتير - بغية تحسين صياغته - بعض التغييرات والتعديلات التى أدت فى النهاية إلى تغيير معناه على نحو ما رأينا آنفاً .

آمن فولتير بالمذهب التأليهى وسعى فى كتاباته إلى تحديد معانيه الغامضة . فقد عرفه فى الخطاب الذى أرسله إلى ألمبرت بتاريخ ٤ فبراير (١٧٥٧) على نحو واضح بأنه «العبادة الخالصة لكائن أسمى والتى تخلو من الخزعبلات» . وقد استخدم فولتير كلمة المذهب التأليهى فى كتابه «دفاع عن بولينجبروك» مرتين واصفاً التأليهيين بأنهم «هؤلاء الفلاسفة الذين يعبدون إلهاً» . ويعترف فولتير بأنه والإمبراطور فردريك يؤمنان بالمذهب التأليهى ويدافعان عن دينهما على حد تعبيره . ومعنى هذا أن فولتير يعتبر هذا المذهب مرادفاً للدين الأمر الذى يتعارض مع إنكاره للدين .

ويرى فولتير أن هناك نوعين من المذهب التأليهى : نوع يعتقد أن الله خلق العالم دون أن يستن له أية قوانين أخلاقية . وهذا ما يسميه فولتير المذهب التأليهى الفلسفى . أما النوع الثانى فيذهب إلى أن الله أعطى الإنسان قانوناً أخلاقياً يهتدى به . ويعبر فولتير عن نفوره من ذلك النوع الثانى من التأليهية لأنه ذو صبغة دينية ويفضل عليه النوع الأول ذا الطابع الفلسفى . وتتسم آراؤه فى مجال الأخلاق بالتناقض فهو أحياناً يعطينا الانطباع بأن الطبيعة أودعت فى الإنسان قانوناً أخلاقياً عاماً وشاملاً ، ولكنه أحياناً أخرى يحدثنا كما لو كانت قوانين الأخلاق نسبية . فنحن نراه عام (١٧٤١) يذهب إلى ما ذهب إليه الفيلسوف الدينى باسكال الذى قال : «إن ما نراه حقاً على هذا الجانب من

جبال البيرنيز خطأ على جانبها الآخر» .

ويعبر فولتير عن رأيه فى وجود الله بصورة أكثر وضوحاً وثباتاً فى كتابه «مبحث فى الميتافيزيقا» (بدون تاريخ) وفيه يقول : «إن الرأى القائل بوجود إله تكتنفه الصعوبات . ولكن الرأى المضاد المنكر لوجود الله يبعث على الضحك» الأمر الذى يشير إلى جنوح فولتير نحو الإيمان بالله وبعده عن الإلحاد . وتعتبر مسرحيته «سقراط» لسان حاله ، تقول المسرحية : «ليس هناك سوى إله واحد . . ذى طبيعة لا نهائية . . وما من أحد بمستطيع أن يشاركه هذه الطبيعة اللانهائية . ارفع عينك إلى السماء ، إلى نجومها وكواكبها ثم انظر إلى الأرض والبحار وسوف تجد تناغماً بين ما هو كائن فى السماء وما هو كائن على الأرض . فكل منهما تربطه بالآخر أوثق الروابط . فكل شىء جزء من نظام واحد . ومن ثم فليس هناك سوى خالق واحد وسيد واحد وحافظ واحد» . غير أنه لم تمر على هذا بضع سنوات حتى كتب فولتير على لسان واعظ : «ما هو هذا الكائن الإلهى . هل يوجد فى هذا الوجود الهائل ؟ وهل المكان أحد صفاته ؟ وهل هو فى مكان أم أنه ليس فى أى مكان ؟ أرجو ألا أجد نفسى مضطراً إلى مناقشة هذه الأفكار الميتافيزيقية المعقدة الدقيقة . فلسوف أثقل على عقلى الواهن بما لا قبل له به لو أنى حاولت أن أفهم ذلك الكائن الذى يتجاوز قدرتى على الإحاطة به بحكم طبيعته وطبيعتى» . وتلخص هذه الكلمات الحيرة والبلبلة التى واجهها هذا الفيلسوف المؤمن بالله عند التفكير فى مشكلة وجوده . ويقول فولتير فى مقال له عن الله منشور فى كتابه «القاموس الفلسفى» : «ليست لدينا فكرة صحيحة عن الله فنحن نرغم أنفسنا ونجبرها على الانتقال من افتراض إلى افتراض ومن الممكن إلى المحتمل لنصل إلى عدد صغير للغاية من الأمور اليقينية ومنها أن هناك شيئاً موجوداً وأن هذا الموجود لا يمكن أن يوجد من العدم . فأى مبنى ينم عن وجود بانيه والغاية من بنائه . ومن ثم فإن الكون الذى يتكون من آليات ووسائل لكل منها غايته يكشف عن وجود صانع شديد الذكاء وذى سلطان عظيم ،هنا نصل إلى احتمال يقترب أشد الاقتراب من أكبر قدر من اليقين . ولكن هل هذا الصانع لا نهائى ؟ أو هل هو موجود فى كل مكان ؟ أم أن له مكاناً ؟ ولكن كيف نستطيع أن نجيب عن هذه التساؤلات بذكائنا المحدود ومعرفتنا الضعيفة والضحلة ؟» .

ولكن يبدو أن إيمان فولتير بوجود الله لم يستأصل بذور الشك الذى كان يراوده أحياناً . ففى عام (١٧٤٧) أرسل خطاباً إلى الإمبراطور فردريك الثانى جاء فيه أن وجود الكائن الأسمى من أكثر الأمور احتمالاً ولكنه أضاف أنه ليس هناك دليل على وجود هذا الكائن . وحتى بعد مرور ثلاثين عاماً على تعبيره عن هذا الرأى المتشكك نراه يحكى بحماس شديد قصة ضابط سويسرى على وشك الخوض فى المعركة يصلى قائلاً : «يا إلهى إذا كنت موجوداً فلتأخذك الشفقة بروحى إذا كانت لى روح» . ويؤكد فولتير أنه لا سبيل إلى إثبات وجود الله باستخدام المحاجات العلمية ورأى أنه من العبث والسخف أن يحاول الإنسان إثباته . وقد دون فولتير فى كراسة عبارة مكتوبة باللغة الإنجليزية تقول : «إن الله لا يمكن إثباته أو إنكاره بمجرد استخدام العقل» . ونحن نراه فى أول رسالة له إلى ديدرو يقول : «إن من أكثر الأمور صفاقة أن نرغب فى فهم ماهية الله ولماذا خلق كل

الموجودات . ولكن يبدو أننا نتجاسر كثيراً لو أننا أنكرنا وجوده» .

وقبل وفاته بوقت قصير عاودته الشكوك فعبر عنها دون لبس أو غموض عندما طلب إليه عالم يدعى سبالأنزانى كان مشغولا بإجراء التجارب الخاصة بإعادة بعض الأسماك المجمدة الميتة إلى الحياة أن يقول له رأيه فى هذا الموضوع وإذا كانت لهذه الكائنات المائية أرواح . فأجابه فولتير بما يلى : «لقد ظللت مقتنعاً أن بإمكان (الله) أن يمنح القدرة على الإحساس والتفكير والتذكر لأى مخلوق يشاء وأن بإمكانه أن يمنح القدرة الطبيعية الهائلة والمجهولة . وكنت دائماً مقتنعاً أن بإمكانه أيضاً أن يبعث الحياة فى الكائنات وهى رميم» . ويتعجب فولتير قائلاً إن الذى يحيره ليس قدرة الخالق على رد الحياة إلى آلاف الكائنات الحية فى مملكتى الحيوان والنبات . ولكن الذى يحيره ويتعجب له كيف أنه منحها خصائص الحياة أصلاً .

والجدير بالذكر أن فولتير ألف مقالاً بالغ الأهمية يتناول الموضوع نفسه بعنوان «مقال عن الموتى» ترجع أهميته إلى أنه يلخص موقفه من مشكلة وجود الله وفائدة الإيمان به والدور الإيجابى والبنّاء الذى يلعبه هذا الإيمان فى بناء المجتمعات الإنسانية . يقول فولتير فى هذا المقام : «إن الاعتقاد القاطع بعدم وجود إله خطأ أخلاقى مروع ، خطأ لا يتمشى مع أية حكومة تتسم بالعقل والحكمة» ؛ ويقول فولتير فى معرض هجومه على الإلحاد فى «القاموس الفلسفى» : «إنه من الأفضل بكثير من الناحية الأخلاقية أن نؤمن بوجود إله من عدم الإيمان بوجوده» . يقول فولتير في هذا الصدد : «من المؤكد أن مصلحة جميع البشر تقتضى الإيمان بوجود إله يعاقب ما تعجز العدالة الإنسانية عن عقابه» . فضلاً عن أنه فى مصلحة أية حكومة أن يؤمن شعبها بوجود إله يعاقب الشر ويثيب الخير . ويذكر فولتير أنه لو كان لدى المفكر بايل الذى ينكر الله خمسمائة أو ستمائة فلاح عليه أن يحكمهم لما تردد فى أن يعلمهم بنفسه وجود إله يعاقبهم على رذائلهم ويثيبهم لفضائلهم . ويؤكد فولتير هذا المعنى فى كثير من المواضع . فقد كتب فى أواخر نوفمبر (١٧٧٠) بصراحة كاملة : «أعتقد أنه من المفيد دائماً الإيمان بالرأى القائل بوجود الله . فالمجتمع فى مسيس الحاجة إلى مثل هذا الرأى» ثم أردف مقولته الشهيرة «لو لم يكن لله وجود لتعين اختراعه» . وكثيراً ما نرى فولتير يكرر هذه الحاجة بالفائدة التى تعود على المجتمع نتيجة الإيمان بوجود الله ، لأن مثل هذا الإيمان قمين أن يردع الأشرار . ويستطرد فولتير قائلاً إنه من الواضح أن الطبيعة تدل على وجود خالق ذكى وأن قوانين هذه الطبيعة ليست من اختراع أحمق أو صنع مأفون . ورغم هذا فإن فولتير لم يكف من آن لآخر عن التعبير عن طائفة من الآراء الدالة على الشك . فقد كتب إلى فردريك وليم إمبراطور بروسيا يشكو من أن أفكار الملاحدة شىء مبالغ فيه وتبدو له دائماً غير مقنعة . فهو لا يشك فى وجود عقل ذكى فى هذا الكون ولكنه ليس متأكداً من أن هذا العقل الذكى يتصف بالعدل . غير أنه يناقض نفسه عندما يبرز عدل الله فى موضع آخر ويعود إلى مناقضة ذاته عندما يكتب إلى صديقه ألمبرت قائلاً : «إن الذكاء الذى يوجه الطبيعة ويديرها لابد وأن يكون ذكاء محدوداً بدليل كثرة ما يشوب الطبيعة من نقائص وبؤس وشقاء» وهى الفكرة نفسها التى سبق لفولتير أن عبر عنها بقوله : «إن الله هو عالم الهندسة الخالد . ولكن علماء الهندسة لا يعرفون الحب» . ومعنى هذا أن إيمان فولتير بوجود خالق كان أمراً مؤكداً .

ولكن جانباً من الشك كان يخامره فى صفات هذا الخالق وفى عدالته . ورأى فولتير فى حرية الإرادة مثل آخر على تناقضاته الميتافيزيقية . ففى خطابين أرسلهما إلى إمبراطور بروسيا نراه يقول : «إن الإنسان يتمتع بحرية الإرادة وأن السبب فى هذا يرجع إلى وجود الله» . ولكنه يعود فينكر فيما بعد حرية «الإرادة الإنسانية» . ورغم اللبس والغموض الذى اكتنف موقفه من بعض القضايا الميتافيزيقية فإنه كان شديد الوضوح فى إنكاره التنزيل والمعجزات وألوهية الرسل . وعلى أية حال فنحن نجد أن بعض الباحثين يتهمونه بالشك حتى فى وجود الله . وحجتهم فى ذلك أنه لو كان موقناً من وجوده لما احتاج إلى الإلحاح فى تأكيد هذا الوجود وتبريره بشدة نفعه وفائدته للمجتمعات الإنسانية . والذى لاشك فيه أنه كان مؤمناً بالمذهب التأليهى ولكنه فهم هذا المذهب على نحو خاص . ويبدو أنه فهمه على أن الوجود لا نهائى وأن العقل البشرى يعجز عن فهم اللانهائية فهى فوق طاقة البشر . ومن ثم فإن الإنسان يسميها الله لعجزه عن إدراكها . أو فهمها على أن الوجود محدود ومن ثم فلابد من وجود محرك أول له وهو ما نسميه الله حتى يمكننا إدراكه ونريح عقولنا المكدودة .

والجدير بالذكر أن فولتير التأليهى المؤمن بالمذهب الإنسانى استحدث أسلوباً فى الكتابة فريداً ويتسم بالعقلانية والبساطة وشدة الوضوح وهو أسلوب راق لعامة الناس مثلما راق لخاصتهم . وقد شاركه فى هذا الأسلوب لفيف من رواد عصر التنوير فى فرنسا معروفين باسم الموسوعيين نظراً لأنهم وضعوا أهم موسوعة تشرح تقدم البشرية منذ بداياتها حتى ظهور العلم الحديث القائم على العقل .

٢ - ديدرو وأعوانه الموسوعيون Diderot :

فى عام (١٧٤٥) كلف ناشر اسمه لى بريتون ديدرو بتأليف موسوعة فرنسية على غرار موسوعة أفرايم تشامبرز التى كان قد مضى على صدورها فى لندن سبعة عشر عاماً تحت عنوان «الإنسيكلوبيديا أو القاموس العالمى للفنون والعلوم» ولكن ديدرو تجاوز هذا التكليف وأصدر شيئاً مخالفاً تماماً عن الإنسيكلوبيديا الإنجليزية وأقرب إلى إنسيكلوبيدية بايل الفرنسى المعروفة باسم «القاموس التاريخى» . وأسهم ديدرو فى موسوعته بعدة مقالات من تأليفه وحث أبرز رجال العلم والفن والأدب فى فرنسا على المساهمة فى مشروعه الثقافى الكبير . وكان فولتير نفسه أحد المساهمين فى هذا المشروع .

وفى عام (١٧٥١) نشر ديدرو أول عددين من الموسوعة التى صدرت الأوامر بمنعها من التداول . ولم يفتّ هذا الحظر فى عضد ديدرو الذى ظل يعمل فى السر على استكمال موسوعته حتى انتهى عام (١٧٦٥) من وضع السبعة عشر جزءاً الأساسية فيها . وتمكن ديدرو من تجنب قيود الحظر عليها بفضل النغمة العقلانية والعلمية الهادئة التى سادت مقالات هذه الموسوعة . واستعان ديدرو بمفكر عقلانى وعالم رياضيات اسمه جان دى لامبرت (١٧١٧ - ١٧٨٣) فى تحرير الموسوعة التى أسهم فيها نفر من أبرز العلماء والمفكرين مثل الراهب دى كونديلاك (١٧١٤ - ١٧٨٠) الذى تأثر بالفيلسوف الإنجليزى جون لوك وكتب عن الدور الذى تلعبه الحواس ومعطياتها فى تشكيل

الشخصية الإنسانية منذ الولادة . وقام هيلفتيوس (١٧١٥ - ١٧٧١) بتطبيق هذه النظرية فى علم الاجتماع فذهب إلى أن سعى الفرد وراء اللذة والمنفعة الخاصة هما الأساس الذى ينبنى عليه النظام الاجتماعى . وأدت إدانة مقاله «عن الروح» (١٧٥٨) إلى وقوع الموسوعة فى مشكلات رقابية . والجدير بالذكر أن الفيلسوف الأرستقراطى هولباخ وديدرو صاغا فى كتابهما المشترك «نظام الطبيعة» (١٧٧٠) فلسفة مماثلة .

دنيس ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤)

ينحدر ديدرو من الطبقة الوسطى فى الأقاليم . ولم يكترث بنصيحة أهله فسافر إلى باريس حيث عاش عيشة متواضعة للغاية من قلمه ككاتب . وحتى عندما تولى هذا الرجل رئاسة تحرير الإنسيكلوبيديا لم يدر عليه هذا العمل سوى عائد مادى ضئيل . ولكن العائد الأدبى كان هائلاً إذ أتاح له هذا العمل فرصة الإلتقاء بصفوة المفكرين والأدباء الفرنسيين . ورغم عوزه فقد طبقت شهرته الآفاق حتى وصلت إلى ملوك أوروبا . ولم تنته مشاكل ديدرو المادية إلا عند بلوغه الخمسين من عمره . فقد تقدمت الإمبراطورة كاثرين إلى مساعدته بأسلوب يتسم باللباقة والكياسة فاشترت مكتبته الخاصة بمبلغ كبير من المال وأعطته مقدماً راتب أمين لهذه المكتبة لمدة خمسين عاما ومنحته حق الاحتفاظ بالمكتبة واستخدامها طوال حياته . وفى عام (١٧٧٣) دعته الإمبراطورة كاثرين لزيارة بطرسبرج حيث استمتع بحياته استمتاعاً عظيماً . وأمضى جانباً من وقته فى بطرسبرج فى طرح القضايا الفكرية ومناقشتها مع الإمبراطورة . وكان من عادته أن يشوح بيديه عندما يجرفه الحماس فى المناقشة فينسى أنه فى حضرة مليكة البلاد . وفى إحدى المرات أنساه التحمس نفسه فضرب بيده على فخذ الإمبراطورة التى علمتها هذه الواقعة أن تضع مائدة صغيرة كحاجز بينهما .

استطاع ديدرو بفضل جرأته الذهنية وجسارته الفكرية أن يصل على نحو غير منظم إلى فكرة المادية الجدلية ونظرية التطور فى وقت باكر . وتدل كتاباته ومعظمها من المقالات ، على شدة تأثره بعدد من الفلاسفة الإنجليز على رأسهم التأليهى شافتسبرى وجون لوك والفيلسوف التجريبى فرانسيس بيكون . وبلغ تحمسه لنظرية كوندياك عن أهمية الحواس حداً جعله يسطر عام (١٧٤٩) مبحثه «خطاب عن العميان» ذهب فيه إلى أن الفكر وظيفة من وظائف المادة وأن الأخلاق محصلة الظروف المادية الأمر الذى كان سبباً فى حبسه لفترة ما . ولعل أهم الأفكار التى نادى بها ديدرو وتركت أعمق الأثر فى الفكر المعاصر له ، دعوته إلى السعادة الطبيعية التى يتمتع بها الإنسان البدائى أو الهمجى النبيل التى أصبحت حجر الزاوية فى الفكر الرومانسى بوجه عام وفى فكر جان جاك روسو بوجه خاص . وقد ضمن ديدرو هذه الأفكار فى كتابين ألفهما عام (١٧٦٩) ولم يقيض لهما أن يريا طريقهما إلى النشر إلا بعد وفاته . وهذان الكتابان هما «رؤيا دى لامبرت» و«تكملة الرحلة إلى بوجينفيل» . ويقارن الكتاب الأخير بين السعادة الفطرية والبدائية التى يشعر بها سكان جزيرة تاهيتى وشقاء الإنسان المتمدن . وإلى جانب هذا عبر ديدرو عن أفكاره فى قالب حكايات مثل حكاية «المتدينة» (١٧٦٠) التى تهاجم فرض حياة العزوبية على النساك ورهبان الأديرة . ويدافع ديدرو فى حكاية «جاك القدرى» التى ألفها عام (١٧٧٣) عن النظرية التى تبرز أهمية الحواس

والقائلة بأن الإنسان نتاج البيئة الطبيعية أو الفيزيقية التى تفرزه . وفى «ابن أخ رامو» التى ألفها على شكل حوار فى الفترة بين (١٧٦٢ و١٧٧٣) نراه يعبر عن هجاء المجتمع . وقد ترك ديدرو وراءه بعض النظريات الأدبية المهمة الداعية إلى تأليف ما يسمى بالدراما البورجوازية وهى نوع جديد من الدراما الجادة المكتوبة نثراً لتحل محل التراجيديات الكلاسيكية المكتوبة شعراً والتى عفا عليها الزمن . وقد قيض لهذه الدراما النثرية أن تصبح القالب الأدبى المقبول فى القرن التاسع عشر .

ويمثل ديدرو عصر التنوير بجنوحه نحو المذهب التأليهى وإعلائه من شأن العقل والعلم ورفضه الأخلاق النابعة من الدين المنزل وإيمانه بالأخلاق النابعة من فيض القلب بعيداً عن المواضعات الاجتماعية . والجدير بالذكر أن القرن الثامن عشر فى رفضه لقداسة الدين أضفى قداسة على الطبيعة منادياً بما يعرف بالأخلاق الطبيعية .

مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) Montesquieu :

مونتسكيو واحد من أبرز الموسوعيين الفرنسيين ينحدر - على عكس ديدرو - من عائلة عريقة المحتد . ورغم شهرته العظيمة كرجل قانون فإنه بدأ حياته بكتابة الأدب . التجأ مونتسكيو إلى أدب الرحلات كى يهاجم مثالب الحياة الفرنسية . ففى كتابه «خطابات فارسية» (١٧٢١) نراه يتصور رحالين من بلاد فارس جاءا لزيارة فرنسا التى لم ترق لهما الحياة فيها فهاجماها بشدة . ومن خلال عقلانية هذين الزائرين الغريبين يقوم المؤلف بالهجوم على الدين المسيحى مبرزاً نواحى القصور فيه بالمقارنة بالأديان الأخرى . وبعد أن نشر مونتسكيو عدداً من المقالات السياسية وروايتين تعالجان شهوة الجنس ، شد رحاله إلى أوروبا ثم عاش فى إنجلترا لمدة عامين (١٧٢٩ - ١٧٣١) . وراقت له الحياة السياسية فى إنجلترا ونظامها الملكى الدستورى الذى لا يمارس ما مارسه نظيره الفرنسى من استبداد وطغيان لأنه كان مقيداً من قبل المجالس النيابية الإنجليزية . والغريب أن مونتسكيو لم يكن ثائراً ومع ذلك فقد لعبت أفكاره دوراً حيوياً فى التمهيد للثورة الأمريكية والثورة الفرنسية ، ويرجع ذلك إلى احترامه العميق لحرية الأفراد الشخصية وإيمانه بالأفكار الديمقراطية والليبرالية ودعوته إلى ضرورة التسامح والحفاظ على حقوق الإنسان والرغبة المخلصة فى تحريره من ربقه العبودية . الرأى عند مونتسكيو أن تقييد سلطة الملكية فى أى بلد من البلاد لن يتم إلا عن طريق الفصل بين السلطات بمعنى أن تتولى السلطة التشريعية وليس الملك سن القوانين ثم تقوم السلطة القضائية بتنفيذها . وهى أفكار استقاها مونتسكيو من الفيلسوف الإنجليزى جون لوك لضمان الحرية الفردية والحيلولة دون انتهاكها .

ويعتبر كتاب مونتسكيو «أفكار عن أسباب عظمة الرومان وتدهورهم» (١٧٣٤) من أهم مؤلفاته ،غير أن كتابه «روح القوانين» هو أهمها جميعاً . وفى كتابه الأول عن الرومان استبعد مونتسكيو تماماً الصدفة والعناية الإلهية من سيرة التاريخ الرومانى الذى فسر وقائعه بمجموعة من الأسباب الطبيعية والأخلاقية العامة . ومن المعروف أنه أمضى عشرين عاماً فى تأليف كتابه «روح القوانين» (١٧٤٨) الذى يعتبر من أخطر الدراسات وأجلها شأناً فى النظريات السياسية والقانون

المقارن . وبعد أن استعرض القوانين المختلفة في بلاد مختلفة - قديماً وحديثاً - انتهى مونتسكيو إلى نتيجتين : أولاهما : أن ما نراه من خلافات في القوانين يرجع إلى مجموعة من الأسباب المادية مثل مناخ البلد وجغرافيته وأعمال سكانه وتطورهم السياسي إلخ . . . ، أما النتيجة الثانية وهي الأجل شأناً فهي نسبية القوانين . . . وهو أمر يذكرنا بما وصل إليه مونتاني على صعيد آخر وهو نسبية الأخلاق . ولا غرابة في أن يصل مونتسكيو إلى مثل هذه النتيجة فهو الذي يعلي من شأن العقل في كتابه «روح القوانين» بقوله «إن العقل أنبل وأكمل وأبدع حاسة يملكها الإنسان» .

٣ - روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) **Rousseau** :

كان جان جاك روسو سافلا ولصاً ومخادعاً ونصاباً دون أن يجد أية غضاضة في الاعتراف بذلك في كتابه الشهير الذي يروي سيرة حياته «اعترافات روسو» . وظل خامل الذكر إلى نحو الأربعين من عمره دون أن تنبيء حياته بما سوف يتركه من أثر عظيم في الفكر الأوروبي كأديب وفيلسوف ومصلح اجتماعي . فيكفي أن تعرف أنه أب الحركة الرومانسية .

ولد روسو في عائلة فرنسية بروتستانتية اضطرها اضطهاد الكاثوليك لها إلى الفرار إلى سويسرا . وماتت أمه بعد ولادته في جنيف وكان والده أفقر من أن يتولى تنشئته فقامت عمته بتربيته ،وحاول روسو أن يتعلم عدداً من الحرف لكنه شعر نحوها بالبغضاء والكراهية فتركها جميعاً . وفي السادسة عشرة قرر مغادرة جنيف والسفر إلى إيطاليا وهو خاوي الوفاض . ولما لم يجد ما يقتات به ذهب إلى القسيس الكاثوليكي في سافوي وادعى أنه يريد الهداية إلى المذهب الكاثوليكي على يديه . ويعترف لنا روسو الذي لا يخجل أبداً من ماضيه المشين بأن دافعه إلى ذلك لم يكن دينياً على الإطلاق بل كان مادياً ودنيوياً تماماً . ويعترف روسو بسفالته فقد سرق شريطاً من السيدة التي آوته واسمها مدام ميرسكي فلما اكتشف أمره لم يجد سبيلاً للخروج من ورطته غير اتهام خادمتها زوراً بأنها سرقت الشريط وأعطته له . وفيما بعد حاول تبرير فعلته بقوله إنه كان بالفعل يحب هذه الخادمة وأن اسمها كان أول شيء يرد على خاطره ففكر في إلصاق التهمة بها . ولم يكن مسلكه الجنسي أفضل حالاً فقد كان زير نساء منفلتا في علاقاته بالجنس الآخر . فقد صادق في فترة وجوده في سافوري بإيطاليا سيدة تدعى مدام وارتيز كانت بروتستانتية وتحولت مثله إلى الكاثوليكية وعاش معها في بيتها يعاشرها معاشرة الأزواج دون أن يكدره أنها كانت تضاجع خادمها الخاص . بالعكس فحين مات هذا الخادم شعر بالحزن عليه ولم يدخل العزاء عليه سوى علمه أنه سوف يستولي على ثيابه من بعده . وفي عام (١٧٤٥) تعرف روسو بخادمة دميمة تدعى تيريز لي فاسبر عاش معها دون زواج بقية حياته وأنجب منها خمسة أطفال أدخلهم جميعاً دار اللقطاء . وعندما ذاع صيته تعين على علية القوم أن يتعاملوا مع هذه الخادمة الدميمة . وبطبيعة الحال لم تمنعه حياته معها من إقامات العلاقات الجنسية بغيرها .

أحرز روسو أول نجاح أدبي له في وقت متأخر في حياته عندما منحته أكاديمية ديجون جائزة أحسن مقال عن مقال كتبه بعنوان : «هل أفادت العلوم والفنون الجنس البشري ؟» ذهب فيه إلى أن

العلوم والفنون والآداب هى ألد أعداء الأخلاق وأنها تستعبد البشر وتفرض القيود عليهم ،فى حين أن الإنسان البدائى الذى يسير عارى الجسد لا تكبله هذه القيود فهو أكثر حرية وتلقائية وانطلاقاً من الإنسان المتمدن . فضلاً عن أن الدوافع إلى نشأة العلوم دوافع غير نبيلة بالمرة فاهتمام الإنسان بدراسة الفلك راجع إلى إيمانه بالخزعبلات . واتقانه للخطابة راجع إلى طموحه كما أن شحه مسئول عن تعلمه الحساب والهندسة .

وفى عام (١٧٥٤) ألف روسو كتاباً بعنوان «مبحث فى عدم المساواة» ردد فيه أفكاره السابقة نفسها عن الهمجى النبيل مؤكداً أن الإنسان مطبوع على الخير وأن ما يرتكبه من شر إنما هو نتيجة المؤسسات الاجتماعية الفاسدة التى ينشأ فيها . وفى العام التالى (١٧٥٥) أرسل روسو نسخة من مبحثه إلى فولتير الذى لم ترقه مثل هذه الأفكار الرومانسية . ولعل هذه الواقعة أحد الأسباب المهمة التى أدت إلى الشقاق بينهما . وزاد فى حدة هذا الشقاق أنه تصادف وجودهما فى الوقت نفسه فى مدينة جنييف بسويسرا . فقد دعت هذه المدينة روسو لزيارتها لتكريمه باعتباره واحداً من أعلامها . وكانت جنييف آنذاك تدين بالمذهب الكالفينى (وهو مذهب بروتستانتى بيوريتانى شديد التزمت) ، الأمر الذى اضطر روسو إلى التخلى عن الكاثوليكية والعودة إلى أحضان الملة البروتستانتية التى سبق أن نبذها . وسعى فولتير فى فترة إقامته بجنيف إلى تمثيل بعض مسرحياته على خشبة المسرح السويسرى . ولكن أتباع المذهب الكالفينى المتزمتين وقفوا له بالمرصاد باعتبار أن المسرح رجس من عمل الشيطان . وانتهز روسو هذه الفرصة السانحة لمهاجمة فولتير ووقف بجانب الكالفينيين المناوئين له . ولم يكن هذا أول خلاف يدب بينهما . فقد سبق أن احتدم بينهما خلاف عام (١٧٥٥) حول زلزال مدمر وقع فى لشبونة بالبرتغال . فقد نظم فولتير قصيدة عن هذا الزلزال تلقى بظلال الشك على وجود عناية إلهية فى هذا العالم . وغضب روسو من هذا الرأى فتصدى للهجوم عليه قائلاً : «إن فولتير الذى يبدو دائماً مؤمناً بالله لا يؤمن فى حقيقة الأمر بأى شىء غير الشيطان لأن الإله الذى يتظاهر بالإيمان به كائن شرير يجد - فيما يرى - كل متعته فى عمل الشر . وسخافة مثل هذا المذهب تدعو إلى الاشمئزاز وخاصة إذا كان المؤمن به رجلاً يستمتع بكل أطاييب الحياة ويحاول رغم ما يعيش فيه من هناء وسعادة أن يملأ باليأس والقنوط قلوب زملائه من البشر وذلك عن طريق رسم صورة قاسية وفظيعة ومروعة للمصائب والنوازل الخطيرة التى هو فى مأمن منها» . ومن ناحيته عزا روسو الدمار الذى ألحقه زلزال لشبونة إلى بعد سكانها عن حياة الفطرة والبداوة السليمة وتشييدهم المنازل من عدة طوابق . فلو أنهم عاشوا على البداوة متفرقين بين أشجار الغابات لما استطاع الزلزال أن يصيبهم بكل هذه الأضرار . وهكذا تفاقم النزاع بين روسو فيلسوف القلب والفطرة السليمة وبين فولتير فيلسوف العقل الذى اعتبر زميله رجلاً شريراً وملتاث العقل فى حين وصف روسو غريمه بأنه بوق للطالحين والبعيدين عن التقوى . وقد بلغ النزاع المحتدم بينهما ذروته عندما سطر روسو عام (١٧٦٠) رسالة عبر فيها بصراحة عن مقته لفولتير وأنه لا يحمل له سوى الإعجاب بشخصيته .

ولا شك أن الفترة التى شاهدت تأليف كتابيه المعروفين «إميل» و«العقد الاجتماعى» عام

(١٧٦٢) تعتبر من أخصب فترات حياته . وكتاب «إميل» مبحث فى التربية يدافع عن مبادىء الطبيعة وسلامة الفطرة . وقد كان من الممكن ألا تجد السلطات فيه ما يغضب أو يثير لولا احتواؤه على فصل يدافع عن مبادىء الدين الطبيعى تحت عنوان «اعترافات قسيس سافويارد الإيمانية» كان سبباً فى إغضاب الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء بسبب ما جاء فيه من رفض للأخلاق القائمة على الدين المنزل ومن دعوة إلى العيش وفق أحكام الطبيعة والفطرة . أما كتاب «العقد الاجتماعى» فكان أجل خطراً بسبب دعوته إلى الديمقراطية وإنكار حق الملوك الإلهى . وأثار هذان الكتابان زوبعة عاصفة ضد مؤلفهما الذى اضطر إلى الهرب من فرنسا . ورفضت كل من سويسرا وألمانيا منحه حق اللجوء إليها ، وأخيراً أشفق فردريك الأعظم إمبراطور ألمانيا عليه فسمح له بالعيش فى بلدة موتييه حيث بقى لمدة ثلاثة أعوام . ولكن بحلول عام (١٧٦٩) اتهمه أهالى موتييه وكاهنها بدس السم لهم فحاولوا قتله . فاضطر إلى الهرب إلى انجلترا حيث مد إليه الفيلسوف الإنجليزى التجريبى المعروف دافيد هيوم عام (١٧٦٢) يد العون والمساعدة .

يقول برتراند راسل إن الفضل يرجع إلى روسو فى التدليل على وجود الله عن طريق ذلك الفيض الإيمانى الغامر الذى ينبع من القلب وهى محاجة وجدت قبولاً حسناً لدى طائفة البروتستانت بدلاً من استخدام المحاجات القديمة القائمة على إعمال العقل . يقول روسو فى رسالة بعث بها إلى إحدى سيدات المجتمع الراقى : «يلوح لى أحياناً وأنا قابع فى ظلام مكتبى أو وأنا وحدى أضغط بشدة بكلتا يدى على عينى أن الله غير موجود ولكنى عندما أشخص ببصرى متجاوزاً هذا وأرى الشمس الطالعة وهى تبدد الضباب الذى يغطى الأرض ويكشف عن روعة منظر الطبيعة التى تتلألأ ، تتبدد فى الوقت نفسه كل السحب التى تغطى روحى فيعود إيمانى إلىّ مرة أخرى ويعود إلىّ الله كما يعود إلىّ إيمانى به فأعجب به وأعبده وأسقط ساجداً فى حضرته» . وفى مقام آخر يؤكد روسو إيمانه بوجود الله بقوله «إننى أؤمن بالله بالقوة نفسها التى أؤمن بها بأية حقيقة أخرى . .» وفى إحدى المناسبات كان روسو حاضراً حفل غداء . فساءه كثيراً أن يسمع سانت لامبرت يعبر عن شكه فى وجود الله فهدد بالانصراف عن الحفل قائلاً لسانت لامبرت : «إننى يا سيدى أؤمن بوجود الله .» والجدير بالذكر أن الثائر المعروف روبسبيير الذى أغرق الثورة الفرنسية فى حمام الدماء كان تلميذاً وفياً لتعاليم روسو وعلى رأسها الإيمان بالله . فقد آمن روبسبيير بوجود الكائن الأسمى وأقام عيداً لاحتفال الفرنسيين به .

ويعبر ذلك الجزء من كتاب «إميل» الذى يحمل عنوان «اعترافات كاهن سافويارد الإيمانية» عن عقيدة روسو الدينية . وهى عقيدة قائمة على الإيمان بالدين الطبيعى ورفض الدين المنزل . فالدين الطبيعى يغرس الفضيلة الطبيعية أو الفطرية فى نفوس الناس بغض النظر عن تعارضها مع المواضعات الأخلاقية السائدة فى المجتمع ، فصوت الطبيعة الذى يفوق معارف الفلاسفة ويتجاوز حدود العقل وتعقيداته يهدى الإنسان سواء السبيل . يقول كاهن سافويارد فى هذا الشأن : «لست أخمن بوجود قواعد للسلوك ولكننى أجد هذه القواعد منحوتة فى أعماق قلبى وقد سطرتها الطبيعة بحروف لا تمحى» . إن ضمير الفرد فى رأى روسو لا يخيب ولا يعرف الخطأ بل

هو الهادى إلى السلوك القويم . ويختتم روسو هذا الجزء بقوله : «شكراً للسماء لأننا بهذا قد تحررنا من ربقة الفلسفة وفظائعها ولأننا نستطيع أن نصبح رجالاً دون أن ننال أى قسط من التعليم» . إن مشاعر الإنسان الطبيعية تنتهى به إلى خدمة المجموعة فى حين يدفعنا عقلنا إلى الأثرة والأنانية . وإذا شئنا أن نتصف بالفضيلة فعلينا أن نتبع عواطفنا وننبذ عقولنا» . والدين الطبيعى فى رأى كاهن سافويارد لا يحتاج إلى الإيمان بالتنزيل . ولو أن كل فرد أنصت لما يبوح به الله إلى ضميره لاجتمعت الإنسانية على الإيمان بدين واحد . ويعتمد الإيمان بالدين المنزل على شهادة الشهود . ولكن مثل هذه الشهادة قد تخطىء . أما الدين الطبيعى فلا يحتاج الإيمان به إلى وسطاء أو شهادة شهود قد يقعون فى الخطأ بل يكشف عن نفسه مباشرة لكل فرد منا . وينكر كاهن سافويارد أبدية الجحيم . ويرى أن الخلاص من عذابه لن يكون قاصراً على ملة دون أخرى أو على دين دون دين . وبطبيعة الحال أثارت هذه الأفكار حنق السلطات الفرنسية والسويسرية ، ونحن نستطيع أن نتصور مقدار عداء روسو لفولتير الذى يمثل الإيمان بالعقل . ويجدر التنبيه إلى أن روسو كان يدرك أن الهمجى النبيل لا يعدو أن يكون افتراضاً وأنه ليس له أى وجود تاريخى أو أنثروبولوجى .

بقى أن نقول إنه قد يتبادر إلى الذهن خطأ أن روسو الذى بدأ كتابه المشهور «العقد الاجتماعى» بقوله : «ولد الإنسان حراً وهو مع ذلك يرسف فى الأغلال» يحرص فقط على حرية الفرد ، فى حين أنه كان معنياً قبل كل شىء وفوق كل شىء بصيانة الحريات الاجتماعية والمدنية فهو يعتبر أن سيادة المجتمع التى تنهض على هيئة علاقة تعاقدية بين الفرد والمجتمع تكمن فى سيادة الإرادة العامة على الحرية الشخصية ، فأول بل أهم شرط فى هذا التعاقد هو ضرورة خضوع الفرد لإرادة المجتمع والانصياع له ، وهو الأمر الذى يتناقض مع دفاعه الباكر عن حرية الفرد .

٣ - ألمانيا : لسنج Lessing (١٧٢٩ - ١٧٨١) :

قبل أن نعرض لإيمان الأديب الألمانى الكبير لسنج بالمذهب التأليهى يجدر بنا أن نقول إن انتشار هذا المذهب فى أوروبا اقتصر على ثلاثة بلاد هى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وأنه كان ضعيفاً للغاية فى سائر البلاد الأخرى . ويمكننا أن نضيف أن إنجلترا بنشاطها الواسع فى هذا الاتجاه ساعدت على ترسيخ الفكر التأليهى وتغذيته فى كل من فرنسا وألمانيا . ويعتبر جورج شاد (١٧١٢ - ١٧٩٥) و . ج . ب . بيسدو (١٧٢٣ - ١٧٩٠) وجوهان أوجست إيرهارد وك . ف . إهردت (الذى رأى أن المسيح مجرد معلم عظيم مثل موسى وكونفشيوس ولوثر) من رواد المذهب التأليهى فى ألمانيا . وتركت فلسفة فولف العقلانية أثرها الواضح فى اعتناق كل من هـ . س . ريماروس ولسنج مبادىء المذهب التأليهى . والجدير بالذكر أن التيارين العقلانى والتأليهى اختلطا فى ألمانيا بحيث أصبح من الصعب التمييز بينهما كما هو الحال مع جيه . س . شملر . وعلى أية حال ينبغى ألا ننسى أن ألمانيا هى التى أنجبت عدداً من عمالقة الفلسفة ممن نبذوا الدين وأشاحوا بوجوههم عنه .

ولد الناقد والمؤلف المسرحى جوتهولد أفرايم لسنج فى منطقة ساكسونى بألمانيا من أب قسيس . تلقى لسنج العلم فى مدرسة لاتينية فى جوتهولد مسقط رأسه . وفى عام (١٧٤١) التحق

بمدرسة إفرا الذائعة الصيت حيث أظهر تفوقاً ملحوظاً فى دراسة الكلاسيكيات والرياضيات . وفى عام (١٧٤٦) التحق بجامعة ليبزج لدراسة اللاهوت . ولكن محاضرات الفلسفة جذبته إليها وصرفته عن دراسة اللاهوت . وأيضاً فى ليبزج وجد لسنج فى المسرح (الذى كانت الممثلة كارولين نوبر تديره آنذاك) ضالته المنشودة وإليها يرجع الفضل فى تقديم أولى مسرحياته الكوميدية على المسرح عام (١٧٤٨) . وهى مسرحية كان قد بدأ تأليفها أيام المدرسة . وعندما نما هذا إلى علم والده استشاط غضباً واستدعاه من ليبزج ليعبر له عن سخطه على مسار حياته . ولم يسمح له بالعودة إلى ليبزج إلا بعد أن قطع على نفسه عهداً بدراسة الطب . ورغم أنه حضر بعض المحاضرات فى الطب فقد استمر المسرح يجذبه إليه بسحره . وفى عام (١٧٤٨) تعرضت الفرقة المسرحية المشار إليها للانهيار بسبب غرقها فى الديون ما اضطرها إلى مغادرة مدينة ليبزج وما اضطر لسنج أيضاً إلى مغادرتها لأنه كان الضامن المالى لها . ثم سافر إلى برلين حيث عاش على الكتابة والترجمة الأدبية . وهناك اشترك مع زميله ميليوس فى إصدار مجلة تناقش شئون المسرح . وفى عام (١٧٥١) أصبح الناقد الأدبى لإحدى المجلات . وأثبت لسنج جدارته كمترجم عندما بين العيوب ومواطن الزلل التى تورط فيه لانج عندما أقدم على ترجمة هوراس إلى الألمانية ، كما أنه سخر من لانج سخرية قاذعة . وفى عام (١٧٥٣) بدأ اسم لسنج يستقر فى عالم الأدب الألمانى فجمع مسرحياته الباكرة وكتاباته المنشورة فى ست مجلات . وتعتبر مسرحيته «الآنسة سارة سامبسون» (التى مثلت لأول مرة عام ١٧٥٥ واستقبلت بالتهليل والتكبير) علامة مميزة فى تاريخ الدراما الألمانية . وفى تلك الفترة من حياته توثقت عرى الصداقة بينه وبين الفيلسوف موسى مندلسون الذى اشترك معه فى كتابة مبحث نقدى مهم عن الشاعر الإنجليزى ألكسندر بوب تتبعا فيها جذور شعره الميتافيزيقية . وفى أكتوبر (١٧٥٥) استقر لسنج مرة أخرى فى ليبزج كى يتفرغ للتأليف المسرحى تفرغاً كاملاً . وفيما بعد توفر على دراسة أدب القرون الوسطى ثم أصدر فى الفترة بين (١٧٥٩ و١٧٦٥) سلسلة من المقالات النقدية فى قالب رسائل مكتوبة إلى ضابط جريح تعالج أهم الكتب الصادرة آنذاك . وقد ذهب لسنج فى هذه الرسائل إلى أن أدب شكسبير يفوق أدب كل من كورنيل وراسين وفولتير . ثم قدم إلى القراء مختارات من كتابات ف . فون لوجو فى القرن السابع عشر . وفى عام (١٧٥٩) أصدر مسرحية مأساوية نثرية من فصل واحد ومجموعة من قصص الحيوان الخرافية قدم لها بمبحث عن طبيعة هذا الأدب . ويعد هذا المبحث من أفضل مباحثه النقدية على الإطلاق وفيه ميز باقتدار بين الحدث فى قصص الحيوان الخرافية وبين الحدث فى الأدبين الدرامى والملحمى . وفى عام (١٧٦٠) توجه لسنج إلى مدينة بريسلو حيث التحق بوظيفة سكرتير جنرال فى الجيش البروسى الأمر الذى أتاح له فرصة الاختلاط بالضباط . وفى بريسلو انصرف إلى لعب القمار الذى لم يصرفه عن الدراسة والتحصيل . فانكب على دراسة تاريخ المسيحية الباكر وتعمق فى مغزى فلسفة سبينوزا الملحدة كما أنه بدأ فى كتابة «لوكون» . وفى عام (١٧٦٥) استقال من عمله فى بريسلو وعاد إلى برلين حيث سعى أصدقاؤه إلى مساعدته فى الحصول على وظيفة أمين مكتبة القصور الملكية . ولكن الإمبراطور فردريك عارض تعيينه فى هذه الوظيفة لأنه سبق أن استاء من هجومه على صديقه فولتير . وفى عام (١٧٦٦) نشر لسنج كتابه «لوكون» الذى يعتبر واحداً من أبرز أعماله . وهذا الكتاب يدور حول

تحليل وتحديد حدود الشعر والفنون التشكيلية وضرورة أن تعرف هذه الفنون حدودها حتى يمكنها استثمار إمكانياتها إلى أقصى حد ممكن . ويرى الدراسون أن أفضل أجزاء الكتاب هى تلك التى تعالج الشعر الذى يقف لسنج على أسراره أكثر من وقوفه على أسرار النحت والرسم . وأيضاً يرجع الفضل إلى لسنج فى تبيان مواطن القوة فى الأدب الإغريقى وخاصة هوميروس وسوفوكليس . وفى عام (١٧٦٧) استقر به المقام فى هامبورج التى دعته إلى إنشاء مسرح قومى فيها . وهناك اشترك مع الأديب بود فى تأسيس مطبعة ولكن الأمر انتهى بغلق المسرح والمطبعة بسبب تراكم الديون عليهما . وأصاب القنوط لسنج فقرر فى يأسه أن يترك وطنه وسافر إلى إيطاليا . وفى الفترة بين (١٧٦٧ و١٧٦٨) ألف أول مبحث فى الأداء المسرحى كما أنه تمكن من تحرير الدراما الألمانية من تبعيتها للدراما الفرنسية الكلاسيكية موجهاً أنظار بنى جلدته إلى أهمية الدراما الإغريقية والدراما الشكسبيرية . وفى هامبورج ألف لسنج عام (١٧٦٨) سلسلة من الخطابات البديعة التى تصدت للرد على المفكر المسيحى كريستيان أدولف كلوتز الأستاذ بجامعة هال . .

واختتم لسنج حياته المضطربة المليئة بالأسفار بأن استقر عام (١٧٧٠) فى خدمة أمير برنسويك بأن عمل لديه فى هذا العام كأمين مكتبة دلفن باتل التى عثر فيها على مخطوط حول تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه كتبه بيرنجاريوس للرد على آراء لافرانك وأشاد لسنج بهذا المخطوط واعتبر صاحبه مفكراً جاداً ومتسقاً مع نفسه . وأمضى لسنج السنوات الأخيرة من عمره فى مناقشة الأمور اللاهوتية . فقد نشر هـ . س . ريماروس أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة هامبورج كتاباً دافع فيه عن وجهة نظر التأليهيين الإنجليز . وناقش لسنج فى كتاب له موقف ريماروس من المعجزات كما وردت فى الكتاب المقدس . وامتنع لسنج عن نشر كتابه فى حياته فقامت ابنته بنشر أجزاء منه . وما إن نشرت هذه الأجزاء حتى هاجت الدنيا وماجت وأنحى اللاهوتيون التقليديون بالملامة والتقريع على مؤلف الكتاب . والجدير بالذكر أن جوهان ملفور جوز كبير أساقفة هامبورج كان أكثر الناس ضراوة فى الهجوم عليه . ولم يهدف لسنج فى كتابه إلى الدفاع عن آراء ريماروس اللاهوتية بقدر ما كان يهدف إلى حرية النقد فى شتى مجالات الفكر الإنسانى . واستند لسنج فى محاجته إلى أن الكتاب المقدس ليس ضرورياً للإيمان بالمسيحية لأن المسيحية أسبق فى وجودها من قبول الكنيسة للعهد الجديد بصورته الراهنة . كما رأى لسنج أن الدليل الدامغ على صحة جوهر المسيحية يكمن فى ملاءمتها لحاجات الطبيعة البشرية ومتطلباتها وليس فى معجزاتها . ولهذا ذهب لسنج إلى أن روح الدين لا تتأثر بأية أفكار مهما بلغت من جرأة وجسارة . وكانت نتيجة هذه الملاحاة أنه تحقق لمن يكتبون فى أمور اللاهوت قدر كبير من الحرية لم يتوفر لهم من قبل . وتدخلت حكومة برونسويك لمصادرة الكتاب المثير للجدل وأمرت صاحبه أن يكف عن الاستمرار فى هذه الملاحاة . غير أن لسنج اتجه إلى المسرح لتسخيره للدفاع عن آرائه . ففى شتاء (١٧٧٨ - ١٧٧٩) ألف مسرحية صاغ فيها شعراً الأفكار الدينية المتحررة نفسها التى سبق أن عبر عنها نثراً . وذهب لسنج فى هذه المسرحية إلى أنه لا يؤمن بسائر الأديان غير ذوى الأرواح السامية النبيلة . ولهذا فليس هناك أى مبرر لأى طائفة أن تقمع غيرها من الطوائف الدينية .

وفى أخريات أيامه نشر لسنج كتابين يتضمن واحد منهما هجوماً على الفكر الدينى المتزمت وادعاء أى دين أنه يمثل كلمة الحق الأخيرة وأن الباطل لا يأتيه من خلف أو قدام . وهو يرى أن مسيرة التاريخ تكشف عن وجود قانون مؤكد يدل على أن الإنسانية دائبة التقدم وإن ما يعترضها من نكسات لا يحول دون تقدمها فى نهاية الأمر . ويعتقد لسنج أن كل دين له فضل على تقدم الإنسانية باشتراكه فى تطوير حياتها الروحية . ومع هذا فقد أثارت أفكار لسنج ثائرة الجميع عليه بسبب جرأته غير المألوفة فى تناول العقيدة الدينية . وأياً كان الأمر فلا محيص من الاعتراف بأنه أعطى لحركة الفلسفة الدينية اتجاهاً جديداً . أما الكتاب الآخر الذى ألفه فى أخريات حياته فيتكون من خمس محاورات تدور فى الظاهر حول الماسونية ولكنها فى واقع الأمر تناقش روح الإنسان الساعية إلى تحقيق الخير والحرية فى مواجهة التعصب الأعمى الذميم الذى يزين لأى دين أن ينسب العصمة لنفسه .

وبسبب عداوته للفكر اللاهوتى التقليدى تعرض لسنج لسلسلة لا تنتهى من المضايقات . وتدهورت صحته وساءت أحواله المالية . ورغم هذا فقد كان الأمل يحدوه إلى مواصلة التأليف والكتابة ، كما أنه خف إلى مساعدة المحتاجين إليه بقدر ما تسمح بذلك ظروفه السيئة . وعندما توفى فى برونسويك فى ١٥ فبراير (١٧٨١) نعاه الأديب الكبير جوته بقوله : «إن خسارتنا فيه لعظيمة بل هى أعظم مما نظن» . وما من شك أن النهضة الكبيرة التى شهدها الأدب الألمانى من بعده ترجع فى المقام الأول والأخير إلى الدور الريادى الذى لعبه فى التمهيد لها .

٤ - أمريكا : بنيامين فرانكلين (١٧٠٦ - ١٧٩٠) Franklin :

قل أن نجد مؤمناً بالمذهب التأليهى فى شهرة بنيامين فرانكلين باستثناء فولتير وروسو . استطاع فرانكلين أن يصل إلى مكانة عظيمة الشأن رغم انحداره من أصول اجتماعية أشد ما تكون تواضعاً . كان فرانكلين رجلاً متعدد المواهب فهو السياسى ورجل الدولة الذى لا يشق له غبار . فقد اشترك فى صياغة وثيقة استقلال أمريكا عن المستعمرات البريطانية ثم تفاوض من أجل الوصول إلى إقرار للسلام مع بريطانيا كما أنه تفاوض لتحقيق التحالف بين فرنسا وأمريكا . وكلنا نعرف الدور الذى لعبته حرب الاستقلال الأمريكية ضد بريطانيا فى إزكاء الثورة الفرنسية .فضلاً عن أنه كاتب مرموق وعالم بارز يرجع إليه الفضل فى إثبات أن البرق هو شكل من أشكال الكهرباء وفى اكتشاف الفرق بين الموجب والسالب الكهربائى واستحداث ما يعرف بموانع الصواعق . ولأن الحديث عن عبقرية هذا الرجل وتعدد مواهبه لا ينتهى فإننا نكتفى فى هذا المقام بتبيان موقفه من الدين .

لم يكن فرانكلين متمسكاً بأهداب الفضيلة والطهارة الجنسية ، فلا غرو إذ رأيناه ينجب أبناء غير شرعيين . والجدير بالذكر أنه كان منذ باكورة حياته متمرداً فى وجه التزمت الدينى البيوريتانى . وهو تزمت سيطر على عقلية الكثيرين من البروتستانت الذين هاجروا من بريطانيا إلى أمريكا تحت وطأة الاضطهاد الدينى . وفى فترة إقامته فى لندن نشر فرانكلين عام (١٧٢٥) كتاباً بعنوان «مبحث فى الحرية والضرورة واللذة والألم» وكان يسمى نفسه أحياناً المؤمن بالمذهب التأليهى وأحياناً أخرى

المؤمن بوجود الله وكأن هذين الأمرين المختلفين شىء واحد . صحيح أنه كان لا يوافق على العقيدة الدينية المتزمتة ولكن الجانب العملى فى عقليته كان يجعله يمتنع عن أن ينهر التزمت الذى يراه فى الآخرين . وليس أدل على ذلك من الخطاب الذى أرسله إلى أخته ليخبرها فيه عدم موافقته على الأفكار الدينية المتشددة التى تعتنقها والسائدة فى نيو إنجلاند ولكنه لا يطلب منها أن تغيرها أو تتخلى عنها .

أنكر فرانكلين ألوهية المسيح ولكنه عبر عن إعجابه الشديد بمبادئه وقيمه الأخلاقية ورأى فيها أفضل ما أنتجته الإنسانية من أفكار . ومن الواضح أن نظرته إلى الدين كانت نظرة براجماتية صرف وأن الجانب العملى فى شخصيته دفعه إلى اعتناق نظام أخلاقى خاص به استحدثه وأطلق عليه فن الفضيلة الذى يتلخص من وجهة نظره فى ثلاث عشرة صفة : «التسامح - السكون - النظام - العزم - البعد عن الإسراف - الاجتهاد - الإخلاص - العدل - الاعتدال - النظافة - الهدوء - الطهارة والتواضع» . وكان يحتفظ بمفكرة يسجل فيها ممارسته لهذه الفضائل بحيث يخصص أسبوعاً كاملاً لممارسة كل منها . بل كان يسجل فى مفكرته الأعمال التى تدل بالفعل على ممارسته لهذه الفضائل . ومما يذكر أن فرانكلين استحدث صلاة خاصة به تقوم على إيمانه بأن الله ينبوع الحكمة ومن ثم فإنه من الصواب والضرورى أن يتوجه الإنسان إليه يطلب منه العون وأن يمنحه حكمته . وفيما يلى نص الصلاة التى كان فرانكلين كل يوم يتوجه بها إلى الله : «أيها الإله القوى ! أيها الأب الكريم والمرشد الرحيم . زدنى من تلك الحكمة التى تكشف لى عما هو فى مصلحتى حقاً ، قو عزمى حتى أؤدى ما تتطلبه الحكمة منى ، اقبل مساعى الحميدة التى أبذلها من أجل أبنائك الآخرين فهى المقابل الوحيد الذى أقدر به أن أوفى ما تشملنى به من نعم وأفضال مستمرة على .»

وهى صلاة أبعد ما تكون عن صلاة المسيحيين التقليدية : «أبانا الذى فى السموات .» .

الفصل الثالث

أعلام الزندقة والإلحاد في إنجلترا في القرن التاسع عشر

وليم جودوين : (١٧٥٦ - ١٨٣٦) ——— ١

ليس من شك أن المصلح الاجتماعى والسياسى الثائر وليم جودوين ترك أعمق الأثر فى الشعراء الرومانسيين الإنجليز . فالشاعر سوزى لم يقرأ أعماله فحسب بل إنه كاد يعبده ، كما أن الشاعر كولريدج ألف سوناتا من أجله . ويذكر الناقد هازليت أن الشاعر وردزورث نصح أحد الطلبة أن يهجر كتب الكيمياء ويقرأ ما كتبه جودوين عن الضرورة والتى عالجها فى مبحثه عن العدل الاجتماعى . . . ذلك المبحث الذى ترك كبير الأثر فى الفكر الإنجليزى فى زمن الثورة الفرنسية . ويذكر عنه الناقد هازليت فى كتابه النقدى المهم «روح العصر» (١٨٢٥) أنه «انغمس فى الآراء الموغلة فى التطرف حاملاً معه أكثر مفاهيم زمانه دموية وجسارة» .

ولد جودوين - وهو ابن قسيس من الخارجين على مألوف الدين nonconformist - فى منطقة كامبردج بإنجلترا ، ومات والده وهو صغير ولم يشعر الصبى بالحزن على وفاته غير أنه ظل يحمل لأمه شيئاً من الود (رغم خلافه الشديد معها) حتى وفاتها فى سن متقدمة . واتسم كلا الوالدين بنزعتهما الدينية الكالفينية الموغلة فى التشدد . وأظهر وليم جودوين فى حداثته تشدداً أخلاقياً يفوق التشدد الأخلاقى الذى أظهره معلموه فى كلية اللاهوت فى هوكستون حيث تعلم علوم الدين كى يصير قسيساً كوالده . وقد دفعه تزمته الدينى الذى فاق تزمت كالفن إلى أن يصبح واحداً من أتباع جون جلاس . فإذا كان كالفن فى تشدده قد أدان ٩٩٪ من البشرية لترديها فى الخطيئة فإن جون جلاس قام بإدانة ٩٩٪ من أتباع كالفن لأنهم ليسوا متشددين بما فيه الكفاية . وبعد أن تخرج جودوين فى كلية هكستون انخرط فى سلك الكهنوت . غير أن صديقاً له اسمه جوزيف فوويت الذى آمن بالنظام الجمهورى أحضر له كتب الفلاسفة الفرنسيين الثورية كى يطالعها . وفى عام ١٧٨٢ شد رحاله من الأرياف إلى لندن وكله أمل فى أن يسخر قلمه لإصلاح المجتمع . ورغم أنه كان

لايزال منخرطاً فى سلك الكهنوت فقد أخذ يدين بمبادىء الموسوعيين الفرنسيين ويحلم بالإطاحة بجميع المؤسسات السياسية والاجتماعية والدينية القائمة عن طريق الجدل والنقاش والإقناع دون اللجوء إلى استخدام العنف ، الأمر الذى يدل أن ثوريته رغم شدة حدتها اقتصرت فقط على التنظير دون التنفيذ .

نشر جودوين أول أعماله عام ١٧٨٣ بعنوان «حياة اللورد تشاثام» دون ذكر اسمه كمؤلف له . ثم نشر فى العام التالى (١٧٨٤) كتاباً آخر بعنوان «اسكتشات من التاريخ» وفيها نراه يعالج شخصية المسيح ذاهباً إلى «أن الله نفسه ليس من حقه أن يكون طاغية» . ثم بدأ عام ١٧٨٥ فى الكتابة فى المجلات والدوريات وكتب ثلاث روايات طواها النسيان . ثم سطر عدة مقالات على جانب من الأهمية بعنوان «اسكتشات التاريخ الإنجليزى» بهدف نشرها فى مجلة «السجل السنوى» وبعد انضمامه إلى نادى الثائرين تخلى عن شخصيته اللاهوتية تماماً . وفى عام ١٧٩٣ نشر جودوين كتابه الشهير فى العلوم السياسية وهو أهم أعماله على الإطلاق تحت عنوان «مبحث فى العدل الاجتماعى وأثره فى الفضيلة والسعادة العامة» . ورغم أن هذا الكتاب لم يعد يجد من يطالعه فى يومنا الراهن فإنه يعتبر علامة بارزة فى تاريخ الفكر الإنجليزى . فقد لعب دوراً ريادياً فى التنوير لا يقل عن الدور الذى لعبه جون ميلتون فى دفاعه عن حرية الكتابة والنشر فى مبحثه المعروف باسم «الأريو باجتيكا» ومبحث جون لوك «مقال فى التعليم» وكتاب «إميل» لجان جاك روسو . ورغم أن جودوين اكتفى بالتنظير دون الاشتراك فى العمل السياسى على أرض الواقع فإن كتاباته ألهمت الطبقة العاملة بالفكر الراديكالى دافعة إياها إلى الاشتراك فى معترك السياسة اليومية .

وفى ثورته آمن جودوين بفساد النظام الملكى وضرورة أن يستبدل بالنظام الجمهورى وبأن الحكومات إن هى إلا مؤسسات تقف عائقاً فى طريق العقول الخلاقة المبدعة . كما آمن بأن الطبيعة البشرية نقية وخالصة بالفطرة وأن النظم الاجتماعية الفاسدة هى التى تلوثها . وذهب جودوين إلى أن الإنسان إذا استجاب لنداء الفطرة فلن تشوب أفعاله أدنى شائبة وسوف تتفق جميعها مع أحكام العقل البشرى . آمن جودوين كما أسلفنا بأن النقاش والحجة هما السبيل الصحيح لإجراء أية تغييرات اجتماعية . ولهذا اشمأز مثل بيرك من حمامات الدم التى صاحبت الثورة الفرنسية رغم اقتناعه الكامل بسلامة مبادىء الفلاسفة الذين مهدوا لها وتعاطفه مع أفكارهم . ندد جودوين بقوانين بلاده الصارمة واعترض على عقوبة الإعدام كما هاجم شره الإنسان إلى التملك واكتناز المال ورأى أن نظام الزواج يقوم على الأثرة والرغبة فى التملك وجميعها آراء ذات طابع شيوعى واضح . ولكنه تخلى فيما بعد عن جانب من أفكاره الشيوعية غير أنه احتفظ حتى النهاية بنزعته الفردية الملحوظة وبكراهيته لكل القيود التى تكبل حرية الإنسان وبإيمانه بسلامة الفطرة الإنسانية واهتدائها بأحكام العقل .

وفى مايو ١٧٩٤ نشر جودوين روايته «كاتب وليامز أو الأشياء كما هى عليه» ورغم تقديم كتابه «العدل السياسى» إلى محكمة الملك بتهمة نشر الأفكار الهدامة ، فإن السياسى الإنجليزى المرموق بت رفض أن يتخذ ضده أى إجراء أو يوقع عليه أى عقاب بحجة أن كتاب «العدل السياسى»

غالى الثمن ويتكلف ثلاثة جنيهات لشرائه ومن ثم فإنه من غير المحتمل أن يؤثر فى أفكار أناس فقراء لا يملكون الاستغناء عن مجرد ثلاثة شلنات وبالتالى لن يكون له أثر هدام عليهم . ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن أهم الساسة الليبراليين فى إنجلترا آنذاك طالعوا كتابه وتمثلوا أفكاره التى عرفوها عن كثب . ورغم شهرته التى طبقت الآفاق فقد كان دخله فى العادة ضئيلاً ومحدوداً .

وفى عام ١٧٩٧ تزوج وليم جودوين من مارى ولستونكرافت الأديبة والداعية إلى تحرير النساء ومؤلفة كتاب «دفاع عن حقوق المرأة» (١٧٩٢) . آمنت ولستونكرافت مثل زوجها بأن الزواج نظام عبودى . ولولا رغبتها فى الإنجاب لعاشت معه دون زواج . كان جودوين سعيداً معها ولكن الموت اختطفها منه بعد فترة وجيزة تاركة له طفلة اسمها مارى هى التى غواها الشاعر شلى للهروب معه . ورغم أن جودوين غرق فى الأحزان بسبب وفاة زوجته فقد آثر عام ١٨٠١ أن يتزوج للمرة الثانية من أرملة لها طفلتان باسم مارى جين كليرمونت . وفيما بعد أصبحت إحدى هاتين الطفلتين وهى كلارا مارى جين كليرمونت عشيقة الشاعر السيىء السمعة اللورد بيرون .

ثم نشر جودوين رواية أخرى بعنوان «سانت ليون» فى عام ١٧٩٩ وتعرف بكل من الأديبين الرومانسيين تشارلس لامب ووليام وردزورث ووقع تحت تأثر الشاعر الرومانسى الكبير كوليردج ، لدرجة أنه بدأ بسبب نفوذه عليه فى التخلى عن سابق إلحاده واستطاع كوليردج أن يعيده إلى حظيرة الإيمان بالله . وبعد أن توفر جودوين على دراسة المسرح الإليزابيثى قام بتأليف مسرحية تراجيدية بعنوان «مأساة أنتونيو» التى باءت بالفشل عند تقديمها على خشبة المسرح عام ١٨٠٠ . وعلى العكس من ذلك لقى كتابه «حياة تشوسر» نجاحاً مادياً ملحوظاً . واستطاعت زوجته الثانية أن تقنعه بجدوى الاشتغال بالتجارة وإدارة الأعمال وساعدته فى تأسيس مكتبة ودار نشر لنشر الكتب المدرسية المفيدة وكذلك كتب الأطفال ومنها كتاب مارى وتشارلس لامب المعروف «حكايات من شكسبير» . ولكن هذا المشروع التجارى مالبث أن باء بالفشل الأمر الذى ضاعف من مشاكله المالية . وانتهى الأمر بإفلاسه عام ١٨٢٢ . ورغم سوء ظروفه المالية استطاع أن ينجز واحداً من كتبه المهمة بعنوان «تاريخ الكومونولث» .

كان لجودوين موهبة فذة فى التأثير على الشباب (وعلى رأسهم الشاعر شلى) الذين اعتبروه نبياً وصاحب رسالة . وأيضاً كان إدوارد ليتون (الذى أصبح فيما بعد اللورد ليتون) مفتوناً به . والغريب أن جودوين غضب من الشاعر شلى عندما نفذ مبادىء أستاذه الخاصة بحرية ممارسة الجنس بغواية ابنته مارى والهرب معاً . والأغرب من هذا أن جودوين لم يشعر بأية غضاضة أو حياء عندما دأب على مطالبة عشيق ابنته بالمال حتى آخر يوم فى حياته . والجدير بالذكر فى هذا الصدد أنه كان له رأى فى الاقتراض الذى لم يعتبره منة من جانب المقرض على المقترض بل واجباً يفرضه الإيثار وإنكار الذات عليه انطلاقاً من المبدأ القائل بأن الملكية الفردية هى السبب فى شره البشر وجشعهم . وأيضاً يهاجم جودوين شعور الإنسان بالامتنان نحو شخص آخر ويرفض مبدأ الإحسان والبر بالوالدين أو الأقربين باعتبار أننا جميعاً أخوة فى الإنسانية ولا فضل لإمرء على آخر إلا بما يتحلى به من مزايا .

لقد قيل عن جودوين إنه كان يعبد العقل الصرف وإن شلى اقتدى به وسار على دربه ورغم أن تأثيره فى الرومانسيين أمثال وردزورث وكوليردج وهازليت كان واضحاً فإن كثيرين منهم نفضوا عنهم هذا الأثر كما فعل وردزورث عام ١٧٩٨ عندما نشر ديوانه «قصائد البالاد الغنائية» . ويمكن القول إن جودوين نبذ الدين نبذاً تاماً عام ١٧٨٧ ويرجع السبب المباشر فى ذلك إلى نفوذ صديقه توماس هولكروفت الفكرى عليه وبطبيعة الحال إلى مطالعاته لأعمال هولباخ وهلفتيوس التى توفر على قراءتها فى الفترة التى كان يرتدى فيها ملابس الكهنوت . وإن فكرة كتابه «العدل الاجتماعى» لم تخطر بباله إلا فى عام ١٧٩١ بعد أن قرأ كتاب بيرك «خواطر عن الثورة الفرنسية» وكتاب مارى وولستونكرافت الذى يدافع عن حقوق المرأة وكتاب توماس بين «حقوق الإنسان» . وترجع كراهيته المشبوبة للنظام الملكى واقتناعه بفساده إلى تأثره بكتابات سويفت وهولباخ وهلفتيوس وروسو فى هذا الصدد . ويضيف الباحثون أن جودوين آمن بالمادية الآلية وأيضاً بالضرورة أو الجبر . ويرجع إيمانه بكمال الطبيعة ونقائها إلى تأثره بكل من لوك وهارتلى اللذين تذهب فلسفتهما إلى أن العقل البشرى صفحة بيضاء تتأثر بما يصل إليها من انطباعات عن العالم الخارجى . ومعنى هذا أن الظروف الخارجية هى التى تحدد طبيعة الإنسان وتشكل نفسيته . ويترتب على ذلك أن نظام الحكم هو الذى يحدد صلاح أو فساد المجتمعات الإنسانية وأن هذه المجتمعات تحدد صلاح أو فساد الأفراد . ورغم إيمان جودوين بأن تأثر العقل البشرى بما يفد إليه من انطباعات من العالم الخارجى تأثر يحكمه الجبر والضرورة ، فإن واجب الإنسان يحتم عليه ألا يقف مكتوف اليدين فيحاول تحسين الظروف التى يعيش فيها . ومن الغرابة بمكان أن هذا الرجل الذى أراد تغيير وجه المجتمع الإنساني تغييراً ثورياً شاملاً كان يمقت العنف مقتاً لا مزيد عليه لدرجة جعلته يدعو إلى السلام وينبذ الحرب . كما أنه من الغرابة بمكان أن هذا الرجل الذى نذر حياته لإصلاح المجتمع الإنسانى فى مجموعه آمن بأهمية الفرد إلى أبعد الحدود ورفض رفضاً باتاً فكرة التضحية به من أجل مصلحة الجماعة . ونادى جودوين بنبذ التناحر القومى والزهو الوطنى ودعا أوروبا آنذاك إلى تكوين الولايات المتحدة الأوروبية وهو ما تسعى إلى تحقيقه فى الوقت الراهن . وكما أسلفنا دعا جودوين إلى اعتناق مبدأ الجبر ذاهباً إلى أن كل شيء فى العالم إنما يحدث كنتيجة حتمية لأسباب لا مفر من أن تؤدى إلى هذه النتيجة . وأفضى إيمانه بالجبر إلى اعتبار المجرمين والأشقياء الخارجين على القانون غير مسئولين عن أفعالهم ومن ثم طالب بعدم إنزال العقاب بهم . وقد وقع جودوين فى تناقض مع نفسه عندما دعا الإنسان إلى بذل الجهد من أجل العمل على تحسين أحوال المجتمع وظروف المعيشة ، الأمر الذى يوحى بإيمانه بحرية الإرادة بشكل أو بآخر . واعترض جودوين على قمع الدولة للآراء المخالفة فى الدين والسياسة لأن هذه الآراء تنطوى فى العادة على نقد للنظم الفاسدة . ويلفت باسيل ويلى نظرنا إلى أن تغيراً طرأ على موقف جودوين من الطبيعة . ففى الفترة الأولى من حياته رأى أن الطبيعة تتطابق مع العقل فى حين أنه فى الفترة بين عامى ١٧٩٣ و١٨٠٠ أخذ يرى أن الطبيعة تتطابق مع العاطفة وهو ما آمن به الرومانسى وردزورث عندما تمرد على عقلانية جودوين . والجدير بالذكر أن هذا التغير ترك أثراً ملحوظاً فى تفكير جون سيتوارت ميل الذى ضاق ذرعاً بالحياة العقلانية الجافة ووجد الدفء

والراحة فى شعر وردزورث الذى يفيض بالعاطفة . فضلاً عن أن جودوين الذى ألحد فى الفترة الأولى من حياته تخلى عن بعض شططه وغلوائه فى أخريات أيامه .

شلى (١٧٩٢ - ١٨٢٢) ——— ٢

من الواضح أن الشاعر الإنجليزى بيرسى بيش شلى لم يعمر طويلاً فقد مات وهو لايزال فى العقد الثالث من عمره . ولد شلى فى عائلة ثرية من جانب الأب والأم معاً وكان منذ نعومة أظفاره ملتهب الخيال وخجولاً ورقيق الطباع . ولكن استثارته كانت قمينة بأن تطلق ضراوته وشراسته من عقالها . تلقى تعليمه فى مدرسة إيتون الخاصة حيث أطلق عليه أقرانه من الطلبة «شلى المجنون» تارة و«شلى الملحد» تارة أخرى . وفى عام ١٨١٠ التحق بجامعة أكسفورد حيث قابل توماس جيفرسون هوج الذى أصبح صديقه الحميم . وفى تلك الفترة أظهر شغفاً عظيماً بالشعر والفلسفة والدراسات الكلاسيكية إلى جانب شغفه بإجراء التجارب الكيميائية . فضلاً عن أنه هو وصديقه هوج اشتركا فى إظهار العداء السافر للدين المسيحى . وفى أيام طلب العلم بأكسفورد كتب شلى نبذة صغيرة مجهولة المؤلف بعنوان «ضرورة الإلحاد» . أرسل نسخاً منها إلى الأساقفة وغيرهم من الناس داعياً إياهم إلى تفنيد ما جاء بها من أراء . وذهب شلى فى هذه النبذة الصغيرة إلى القول بأن العقل وشهادة الشهود لا يكفيان للتدليل على وجود الله وبأنه لا سبيل إلى إثبات وجوده إلا إذا كشف الله بنفسه عن نفسه لكل فرد على حدة . وساورت الشكوك إدارة الجامعة فى أن يكون شلى هو مؤلف الكتاب فشكلت لجنة قامت باستدعائه والتحقيق معه بشأنه وسأله أعضاء اللجنة إذا كان هو مؤلف الكتاب موضع الاتهام ولكنه رفض الإجابة فقامت الجامعة بطرده . واستدعت اللجنة هوج بعد ذلك فتصرف على هذا النحو نفسه الأمر الذي دفع الجامعة إلى طرده أيضاً . وتذكر سجلات الجامعة أن السبب فى طردهما يرجع إلى رفضهما الإجابة عن السؤال الموجه إليهما إذا كانا قد ألفا الكتاب أم لا . وقد قامت الجامعة بطردهما فى ٢٥ مارس ١٨١١ أى بعد نحو عام من التحاق شلى بها . ولعله من المفيد أن نروى تفاصيل الحادثة .

فى يوم ١٣ فبراير ١٨١١ على وجه التحديد أرسل شلى بالبريد نسخاً من نبذته الملحدة التى تقع فى سبع صفحات إلى عمداء الكليات بجامعة أكسفورد وأساتذتها وجميع الأساقفة (وإلى أصدقائه كذلك) أملا أن يستنفرهم للرد حتى تتوفر لديه الفرصة لمقارعتهم الحجة بالحجة . واشتملت النبذة على إعلان عن مطبعة يملكها إودابليو فيلبس وزرنج اللذان قاما بطبع باكورة أشعار شلى بعنوان «الشعر الأصيل» . وتدل الصفحة الأولى من النبذة أن صاحبها كان لا يريد أن يذيعها فى جميع أنحاء البلاد بل أن يقتصر توزيعها على لندن وأكسفورد فقط ، وأن هدفه من نشرها كما أسلفنا أن يجر رجال الجامعة والدين إلى مناقشات لاهوتية كان يحلم بالفوز فيها .

وذات يوم توجه شلى إلى مكتبة لبيع الكتب اسمها «مانداى وسلاتر» حاملاً معه عدداً من النسخ من نبذته ثم نشر هذه النسخ على منضدة البيع فى واجهة المكتبة وطلب من البائع الإسراع ببيعها نظير ستة بنسات للنسخة الواحدة . وبعد عشرين دقيقة دخل المكتبة القسيس جون ووكلر

الأستاذ بكلية نيوكوليدج بأكسفورد . فوقعت أنظاره على النبذة فاستدعى صاحبى المكتبة مانداى وسلاتر الغائبين . وجاء صاحبا المكتبة وشاهدا النبذة والغضب المرتسم على وجه القسيس . فحملا جميع النسخ إلى المطبخ وقاما بحرقها فى حضرة القسيس . ثم أرسل صاحبا المكتبة فى طلب شلى من بيته وبادر شلى بالحضور . وهناك وجد نفراً من الحاضرين ومن بينهم المستشار كليفورد فى انتظاره . وعبثاً حاول هذا المستشار حمله على التخلى عن مسلكه الشائن المعيب عن طريق الترغيب تارة والتهديد تارة أخرى . وكان من الواضح أن شلى يشعر بالفخر بما يفعل . وفى ١٥ مارس من العام نفسه (١٨١١) ذكر تشارلس كيرباتريك شارب العامل بكلية كرايست بجامعة أكسفورد فى أحد خطاباته أن النبذة التى تحمل اسم مؤلف مستعار هو أرميا ستاكلى هى فى الواقع من تأليف شلى . وعن طريق مقارنة خط يد شلى بالخطابات المكتوبة بخط اليد والمرسلة إلى الأساقفة والأساتذة أمكن التكهن بهوية المؤلف الحقيقية . ويبدو أن إدارة جامعة أكسفورد آثرت أن تنتهج فى بادىء الأمر سياسة الاستعباط حتى لا تجر على نفسها المتاعب . ولكن رجل الدين إدوارد كوبلستون الذى كان أسقف لانداف آنذاك وأصبح عميد كلية أوريل فيما بعد أحرج صدور المسئولين بالجامعة عندما قدم إليهم نسخة من النبذة ومعها نسخة من الخطاب المرسل إليه بخط اليد . وفى صبيحة عيد البشارة (الموافق ٢٥ مارس) توجه هوج لزيارة شلى فلم يجده فى حجرته . ولم تمر لحظات حتى جاء شلى من الخارج وهو فى حالة من الاضطراب الشديد صائحاً : «لقد طردونى» وبعد أن زايله اضطرابه بدأ يحكى لصديقه هوج تفاصيل ما حدث فقال إن رئيس الجامعة ومعه ثلاثة من الأساتذة استدعوه للمثول أمامهم فى حجرة أعضاء التدريس . وأخرج رئيس الجامعة نسخة من النبذة وبادر بسؤاله بغتة بأسلوب تشوبه الوقاحة إذا كان مؤلف النبذة موضع التحقيق . وحاول شلى أن يتهرب من الإجابة فسأل رئيس الجامعة عن السبب الذى حداه إلى طرح هذا السؤال عليه فكرر رئيس الجامعة عليه السؤال بلهجة تنم عن الاتهام فأجاب شلى قائلاً إن لهجته تدل على عزمه على توقيع العقوبة عليه إذا هو اعترف بأنه مؤلف النبذة وتحداه أن يقيم الدليل على ذلك قائلاً : «ليس من العدل أو القانون فى شىء استجوابى فى هذه الحالة وبهذا الغرض . إن مثل هذه الإجراءات تعنى أننا أمام محكمة تفتيش وأننا لسنا رجالاً أحراراً فى بلد حر .» وأعيد طرح السؤال على شلى ولكنه لم يحر جواباً . وهنا صاح رئيس الجامعة قائلاً : «إذن فأنت مطرود ، وأريد منك أن تترك الكلية غداً فى الصباح الباكر على الأكثر» . وقام أحد الأساتذة بتسليم شلى أمر الطرد من الجامعة الذى كان جاهزاً فى شكله النهائى . ويستطرد هوج فى رواية قصة صديقه مع الجامعة فيقول : «لقد عرفت شلى وهو يجتاز أزمات ومحناً كثيرة ، ولكن لم أره فى حالة صدمة إلى هذا الحد ومضطرباً بمثل هذه القسوة كما رأيته فى تلك المناسبة فقد جلس على الأريكة وهو يكرر بتشنج عنيف «مطرود مطرود» ورأسه يهتز من فرط جيشان عواطفه وكيانه كله يتشنج» .

وتضايق هوج مما حدث لصديقه شلى على أيدى رئيس الجامعة والأساتذة فأرسل إليهم ورقة عبر فيها عن حزنه للمعاملة التى عاملوا بها شلى وعن أمله فى أن يعيدوا النظر فى قرارهم بشأنه . وأضاف أن هذه الإجراءات قمينة بأن توقع عليه هو نفسه العقوبة عينها وتنسب إليه الذنب نفسه ،

وكانت لجنة التحقيق لاتزال مجتمعة فى حجرة أعضاء هيئة التدريس فقامت باستدعاء هوج للمثول أمامها . وسأله رئيس اللجنة إذا كان قد كتب النبذة فرد قائلاً إنه ليس من العدل توجيه هذا السؤال إليه وطلب إليه أعضاء اللجنة الانصراف وإعادة النظر فى إجابته . غير أنه لم يكد يخرج من الباب حتى استدعوه مرة أخرى وطرحوا عليه السؤال نفسه ليكرر عليهم الإجابة نفسها . فقال رئيس اللجنة له : «إذن فأنت مطرود» وسلموه أمر الطرد الذى كان جاهزاً وموضوعاً على المنضدة . وجاء فى أمر الطرد أنه رفض على نحو مهين إنكار النبذة . واعترض هوج على استخدام كلمة «إهانة» لوصف مسلكه . وقبل أن ينهى هوج حديثه قال له رئيس اللجنة : «هل أفهم من كلامك يا سيدى أنك تعتنق المبادىء نفسها التى تحتوى عليها النبذة ؟» وهنا أجابه هوج بقوله : «إن السؤال الأخير يفوق السؤال الأول فى عدم لياقته . وإنك بما اتخذت من قرار لم يعد لك سلطان على ومن ثم ينبغى إنهاء الحديث بيننا» فأجابه رئيس الجامعة : «آمرك أن تترك كلّيتى فى وقت باكر غداً صباحاً» .

وفى الصباح وقبل انتهاء كل إجراءات الطرد ظهر الطالبان المطرودان شلى وهوج وهما يسيران جنباً إلى جنب فى أقشب حلة وأفخر ثياب على الحشائش التى تتوسط أبنية الكلية وقد بدت عليهما أمارات الفخار بالمصير الذى ينتظرهما . وما إن فات الظهر حتى قامت الكلية بتعليق أمر الطرد على ورقة كبيرة تحمل خاتمها وتوقيع عميدها ورئيس الجامعة . يقول الدارسون إنه لما يزيد من غموض هذه الحادثة أن أحدث الأبحاث تدل على أن شلى لم يكن قط ملحداً بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة بل كان مهرطقاً ، متمرداً صعب المراس لا يسلم بالأفكار الدينية المألوفة أو التقليدية ، وليس أدل على ذلك من أنه كتب بتاريخ ١٧ فبراير ١٩١١ خطاباً إلى والده يخبره فيه أنه سوف يخفى حقيقة أفكاره المهرطقة فى امتحان اللاهوت . والذى يدل على أنه لم يكن جاداً فى إلحاده أنه كتب فى مايو من هذا العام بعد طرده من الجامعة إلى شخص رفض الالتقاء به بسبب فضيحته فى الجامعة (لعلها الآنسة هتشنر) يشكو مر الشكوى من العقوبة الشديدة التى أنزلتها الجامعة به بسبب شىء كتبه بهدف إزجاء وقت الفراغ الذى يلزم الإنسان البيت فى يوم مطير . ويرى شلى أن الذى فعله قد لا يزيد على كونه تمادياً فى استخدام بعض المحاجات التى يسوقها لوك . وبرغم أن المحافظة الفكرية كانت لسوء حظه الطابع السائد فى الجامعة فى وقت التحاقه بها فإن بعض الأساتذة أظهروا عطفاً عليه وكانوا يفضلون إبقاءه فى الدراسة حتى نهاية الفصل الدراسى . ورآه أستاذ فى كلية وادهام وهو واقف فى المطر المنهمر فرق له قلبه وطلب إليه الدخول فى بيته حيث دارت بينهما مناقشة تجمع بين الحرية والصدق . ولو أن شلى وجد حوله أساتذة من هذا القبيل لتمكنوا فى أغلب الظن من إثنائه عن تشبثه وعناده واصطدامه المدمر بالسلطة . ويؤكد الدارسون أن شلى لا يدعو إلى الإلحاد فى نبذته «ضرورة الإلحاد» بقدر ما يدعو إلى نبذ المذهب التأليهى . وهى نقطة سوف نعود إليها فى وقت لاحق .

وعقب فضيحة جامعة أكسفورد سافر كل من شلى وهوج إلى لندن ولكن هوج الذى رحل لاستكمال دراسته فى يورك مالبث أن تركه بمفرده . واستشاط والد شلى غضباً من ابنه بسبب طرده من الجامعة ورفض مصالحته . ولكن شقيقاته البنات الأربع سارعن بإمداده بالمال حتى لا يتضور

أخوهن جوعاً وذلك عن طريق طالبة زميلة لهن على جانب كبير من الرقة والجمال ودماثة الخلق اسمها هارييت ويستمبروك . ووقعت هذه الفتاة فى غرام شلى الذى سعى إلى إقناعها بنبذ الدين المسيحى . وقبل هارييت أحب شلى ابنة عمه هارييت جروف التى ارتاعت لأفكاره الإلحادية فقررت الابتعاد عنه . أما الحبيبة الأخرى هاريت ويستمبروك فقد أرسلت إليه تشكو من أن والدها يعتزم إعادتها إلى المدرسة حيث لم تكف زميلاتها عن معايرتها بأنها تلميذة الزنديق شلى . ورجت منه هذه الفتاة أن يحميها وعرضت عليه الهرب معه . فوافقها على ذلك وسافر الاثنان معاً فى ٢٨ أغسطس ١٨١١ إلى أسكتلندا حيث تزوجا وفقاً لطقوس الكنيسة الأسكتلندية . والغريب أن شلى الذى آمن بالحب الطليق والمتحرر من كل القيود والرافض لفكرة الزواج كنظام اجتماعى تزوج من هارييت ويستمبروك زواجاً تقليدياً لأنه كان يدرك أن المرأة هى دائماً ضحية العلاقات الجنسية غير التقليدية . وقد ترك كتاب «العدل الاجتماعى» لوليم جودوين أعمق الأثر فى شاعرنا لا من ناحية إيمانه بالحب الطليق فحسب بل من ناحية الدفاع عن الكاثوليك فى أيرلندا ضد اضطهاد البروتستانت لهم .

وفى عام ١٨١٢ توطدت علاقة شلى بمعبوده وليم جودوين عن طريق المراسلات أولاً ثم الصلات الشخصية بعد ذلك . وتعرف شلى على عائلة جودوين وما إن وقعت أنظاره على مارى ابنته - وكانت آنذاك فى السابعة عشرة من عمرها - حتى شعر بحب جارف نحوها أنساه زواجه وابنته من هارييت . واتفق شلى ومارى أن يضربا بالأخلاق وتقاليد المجتمع عرض الحائط فهربا معاً إلى سويسرا عبر الحدود الفرنسية ليعيشا معاً عيشة الأزواج . وشهدت تلك الفترة من حياته مولد قصيدته البديعة «ألاستور أو روح الوحدة» . وأنجب من عشيقته مارى جودوين ابناً غير شرعى اسمه وليم . والغريب أن الفيلسوف جودوين غضب غضباً شديداً عندما وضعت ابنته مارى مبادئه المتحررة فى شئون الجنس موضع التنفيذ . وبعد أن هجر شلى زوجته هارييت من أجل عشيقته مارى أصابها الغم والكمد فأقدمت على الانتحار بأن ألقت بنفسها فى مياه بحيرة السيربنتين فى حديقة الهايدبارك . وكان انتحارها صدمة عنيفة هزت وجدان شلى ولكنه لم يعتبر نفسه بأى شكل من الأشكال مسئولاً عما حدث لها . وقد أتاح له انتحار زوجته هارييت فرصة الزواج من مارى فى ٣٠ ديسمبر ١٨١٦ . ولم يسكت والد هارييت على هذا الوضع فرفع قضية ضد الشاعر طالب فى بضم حفيديه إلى حضانته لأن شلى لم يهجر زوجته فحسب بل إنه سوف يغرس فى ولديه الإلحاد والأفكار المعادية للمجتمع . وبالفعل اقتنع القاضى بهذا واستجاب لطلب الجد باعتبار أن مسلك شلى المشين وآراءه الهدامة من شأنها أن تكون سبباً فى فساد ذريته . ولا شك أن حياة الإباحية التى عاشها مع اللورد بيرون فى سويسرا قد ساعدت على تلطيخ سمعة هذين الشاعرين الرومانسيين الكبيرين بالأوحال . وتعرف شلى بالشاعر الرومانسى المعروف جون كيتس عن طريق صديق مشترك هو الناقد الأديب لى هنت الذى نشر عدداً من قصائد شلى فى مجلته «ذى إجزامينر» . وفى نهاية المطاف سافر شلى إلى إيطاليا وظل يتنقل بين بلدانها حتى وافاه أجله المحتوم حيث غرق وهو يستقل قارباً فى أعقاب هبوب عاصفة عاتية عليه . وتعتبر القصائد التالية «الملكة ماب» (١٨١٣) «ألاستور» (١٨١٥) و«ثورة الإسلام (١٨١٧)» «برومثيوس طليقاً» (١٨١٩) من أهم أعماله

الشعرية على الإطلاق .

وبعد أن انتهى شلى من تأليف قصيدة «الملكة ماب» - وهى قصيدة فلسفية تعالج مكان الإنسان فى هذا الكون - توفر على قراءة كتاب دافيد هيوم ربما للمرة الثانية «حوار بشأن الدين الطبيعى» . وفى بداية عام ١٨١٤ نشر شلى الذى أعلى من شأن الفكر الإغريقى وحط من شأن الفكر المسيحى مبحثاً مجهول المؤلف بعنوان «دحض المذهب التأليهى» وفيه يحمل حملة شعواء على الدين المسيحى . يبدأ شلى هذا المبحث بعرض وجهة النظر المدافعة عن المسيحية ثم ما يلبث أن ينهال عليها بمعول الهدم ؛ وبعد ذلك يعرض لتاريخ اليهود وقصة العهد الجديد وعقيدة الكنيسة ويصفها تارة بأنها غير معقولة ولا يصدقها العقل وتارة أخرى بالانحلال ، ويتطرق المؤلف إلى مناقشة مشكلة وجود الله والشواهد التى يسوقها التأليهيون على وجود نظام يحكم الكون . وهل الله صانع الكون كما يذهب التأليهيون وهل هناك ما يشير إلى وجود محرك أول أو سبب لكل الأسباب أم أنه يمكن تفسير الكون بوجود مادة مشحونة بالطاقة والحركة . فهذا التفسير من شأنه أن يعفينا من القول بأن الانسجام والتضاد يكمنان فى المخطط الذى رسمه خالق هذا الكون وأن الخير والشر يقتسمان العالم فيما بينهما . فالخير والشر ليس لهما وجود فى حد ذاتهما بل هما من صنع عقولنا وخلق أفكارنا ، ويتساءل شلى أليس الله هو التسمية التى نطلقها على الكون بأسره وهو كون يمتد وجوده منذ الأزل ويحرك نفسه بنفسه وفقاً لقوانينه كما يقول الماديون ؟ والجدير بالذكر أن شلى - رغم تأثره بمادية هولباخ - يعبر فى نهاية بحثه «دحض المذهب التأليهى» عن رفضه لكل من وجهتى النظر التأليهية والإلحادية فهو لا ينبذ الإلحاد فحسب بل يقترب من الإيمان بوجود إله يمثل الانسجام والتناسق ويفيض بالحب ويتجاوز حدود الخير والشر كما يعرفها البشر . ويجدر بالذكر أيضاً أن شلى فى شعره الشديد الثورية والتمرد يناقش مشكلة الشر فى العالم ويذهب إلى أن الشر الحقيقى هو السم الزعاف الذى ينبع من الخوف والكراهية والإيمان والاضطهاد . ورغم أن كثيرين من الناس يوافقونه على رؤية الشر ماثلاً فى الخوف والكراهية والاضطهاد فإنهم لا يقبلون اعتبار الإيمان مصدراً من مصادر الشر الذى ينفث سمومه فى العالم . ورغم أن معظم النقاد درجوا على إبراز عداوة شلى للدين المسيحى والكنيسة المسيحية فإن لى هنت يحدثنا عن شدة قربه من هذا الدين . وهو الرأى نفسه الذى ذهبت إليه زوجته الأخيرة بعد وفاته . وعلى أية حال تأثر شلى وسائر الرومانسيين بالـ Pantheism الذى دعا إليه الفيلسوف سبينوزا وهو الإيمان بحلول روح الله فى أجزاء الكون كافةً وتفاصيله .

أربعة فلاسفة راديكاليون

ظهرت فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر جماعة من الفلاسفة العقلانيين تعرف بجماعة الفلاسفة الراديكاليين أمثال توماس مالثوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) الذى نبَه العالم إلى الأخطار الناجمة عن زيادة السكان ، وجيرمى بنثام صاحب النظرية النفعية ، وجيمس ميل المؤمن بهذه النظرية وابنه جون ستيورات ميل وريكاردو (١٧٧٢ - ١٨٢٣) ذلك الاقتصادى المعروف الذى تأثر

نتحدث فى هذا المقام عن مؤسس المدرسة النفعية جيرمى بنثام واثنين من أهم أتباعه هما جيمس ميل وابنه جون ستيورات ثم نعرض لرائد الاشتراكية قبل كارل ماركس ، روبرت أوين .

جيرمى بنثام : (١٧٤٨ - ١٨٣٢) ـــــ ٣

يعتبر جيرمى بنثام علماً من أعلام العقلانية لفرط إيمانه بالعقل وقد تجسد مثله الأعلى فى حياة الهدوء والنقاء والسكينة وصفاء البال . ولد بنثام فى عائلة موسرة من رجال الأعمال فقد كان والده من أصحاب اليسار كما كان جده من أنجح رجال الأعمال فى زمانه . وتعتبر فلسفة بنثام نموذجاً فريداً فى الصرامة والانضباط والرقابة احتذاه صديقه ومريده الفيلسوف جيمس ميل فى تربية ابنه جون ستيورات ميل . التحق جيرمى وهو فى السابعة من عمره بمدرسة وستمنستر ثم درس بجامعة كامبردج وهو فى الثانية عشرة ثم تخرج فيها وعمره لا يتجاوز الخامسة عشرة . أراد له أبوه أن يخالط وجهاء المجتمع فلم يبخل عليه بالمال حتى يستطيع مجاراتهم فى نهج حياتهم . غير أن جيرمى كان بطبعه شديد الحياء وعزوفاً عن مخالطة الناس ، يؤثر حياة الجد والوقار . فضلاً عن انكبابه الدؤوب على الدرس والتحصيل ورغم أنه قيد اسمه فى جداول المحامين إرضاء لوالده ونزولاً عند رغبته فإنه نبذ ممارسة المحاماة وفضّل أن يصبح مصلحاً قانونياً واجتماعياً خلافاً عن اهتمام عائلته بجمع المال . أحب جيرمى فى شبابه فتاة رقيقة الحال فرفض والده زواجه منها ما ترك فى نفسه ألماً مقيماً لم يفارقه طيلة حياته . وقد بلغ خوفه من الغرباء حداً جعل كل جسده يهتز عندما قابل روبرت أوين لأول مرة فى حياته قبل أن يصبح واحداً من ألصق الأصدقاء به . وفى وقت لاحق بعد مضى خمسة عشر عاماً شاءت الظروف أن يقابل ابن أوين فقال له مودعاً : «الله يباركك . هذا إذا كان الله موجوداً . وعلى أية حال خذ بالك من نفسك يا صديقى الشاب» .

تأثر بنثام بالفيلسوف الإنجليزى التجريبى المعروف دافيد هيوم كما تأثر فى مجال علم النفس بنظرية هارتلى فى تداعى الأفكار (وهو الأساس الذى طوره فيما بعد عالم الفسيولوجيا الروسى المعروف بافلوف إلى ما يعرف بانعكاس الفعل الشرطى) . فضلاً عن أنه استقى نظريته الأخلاقية من كتاب هتشينسون «مبحث حول الخير والشر» الذى يذهب إلى أن الحكم على الشر الناجم عن أى فعل يتحدد وفقاً لعدد الناس الذين يعانون من جرائه . من ثم فالفعل يعتبر خيراً إذا حقق أكبر قدر من السعادة أو اللذة لأكبر عدد من الناس . وقد أصبحت هذه الأفكار حجر الزاوية فى مذهب بنثام النفعى . وفى عام ١٧٦٩ توفر على دراسة مؤلفات هلفتيوس القانونية وأخذ عنها كما أخذ أيضاً عن بيكاريا وجون لوك اللذين رأيا أن وظيفة المشرّع تتلخص فى استنان القوانين التى توائم بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع .

والجدير بالذكر أن بنثام أظهر إعجابه الشديد بمجموعة الفلاسفة الفرنسيين (وعلى رأسهم فولتير) الذين مهدوا لقيام الثورة الفرنسية . وترجع علاقته بفرنسا إلى عام ١٧٧٠ عندما زار باريس وهو فى الثانية والعشرين من عمره . وظل بنثام مجهولاً بين بنى جلدته من الإنجليز بسبب عزوفه عن نشر كتاباته فى بلاده . غير أن هذه الكتابات ما لبثت أن ذاعت فى فرنسا وجميع أرجاء أوروبا

نشر كتاباته فى بلاده . غير أن هذه الكتابات ما لبثت أن ذاعت فى فرنسا وجميع أرجاء أوروبا وكثير من أنحاء العالم بفضل تحمس مريد سويسرى اسمه ديمونت لمؤلفاته وقيامه بترجمة مخطوطاته إلى اللغة الفرنسية . وبذلك ذاعت أفكاره بين الفرنسيين لدرجة أن الثائر الفرنسى المعروف ميرابو تبنى الكثير من أفكاره وضمنها فى خطبه لدرجة أن الجمعية العمومية بفرنسا اختارته مواطناً فرنسياً . غير أن محافظته الفكرية المتأصلة فيه جعلته يشمئز من دموية الثورة الفرنسية ، ولكنه تخلى فى حياته عن جانب من هذه المحافظة فنادى بإعطاء المرأة حق الانتخاب وإلغاء النظام الملكى وأن يستبدل به نظام جمهورى ، كما أنه نادى بإلغاء مجلس اللوردات لعدم جدواه . ويقول الناقد المعروف هازليت إن سيرة حياة بنثام تؤكد صحة المقولة أنه لا كرامة لنبى فى وطنه ، فقد أشاحت إنجلترا عنه بوجهها فى الوقت الذى استعانت به كثير من الدول فى وضع دساتيرها مثل شيلى والمكسيك فى أمريكا اللاتينية . فضلاً عن أنه كان يحظى بتوقير الحكومة الإسبانية وإسكندر إمبراطور روسيا له .

واستحدث بنثام نظاماً جديداً فى بناء السجون أسماه السجون الزجاجية التى صممها بطريقة تسمح للحارس أو السجان أن يرى عن طريق المرايا كل المساجين فى زنزاناتهم دون أن يراه أحد من هؤلاء المساجين . واستطاع أن يقنع الإمبراطور إسكندر ببناء سجن على هذا الطراز فى مدينة بطرسبرج ، كما أن ولاية ألينوى الأمريكية أنشأت عام ١٩٢٠ سجناً مشابهاً . وشجعته الحكومة الإنجليزية على بناء سجن على هذا الطراز من ماله الخاص فأنفق جانباً كبيراً من ثروته على إقامته . ومما زاد الطينة بلة أن الحكومة الإنجليزية ما لبثت أن تراجعت عن مساندتها له . ولكنها عادت فاعترفت بخطئها عام ١٨١٣ وصرفت له عشرين ألف جنيه كتعويض عما تكبده من خسارة ؛ ويقال إن عدم اكتراث الحكومة البريطانية بمشروعه هو الدافع وراء هجومه على النظام الملكى وتحبيذه للنظام الجمهورى فى أخريات أيامه .

ويعتبر عام ١٨٠٨ بداية لأهم وأخطر مرحلة فى حياة بنثام وهى المرحلة التى شاهدت توطيد علاقته بالفيلسوف جيمس ميل . آمن بنثام إيماناً مطلقاً بالديموقراطية التى رأى فيها الوجه الآخر للعقلانية كما آمن بحرية التعبير عن الرأى . غير أن إيمانه بالمساواة بين البشر فاق إيمانه بالحرية ، الأمر الذى جعله يطالب بالمساواة فى الميراث بين الأبناء دون تفرقة أو تمييز على عكس القانون الإنجليزى الذى كان يقصر حق الإرث على الابن الأكبر . ولم يجد أدنى غضاضة فى الدفاع عن فكرة المستبد العادل ورأى فى صديقته كاترين إمبراطورة روسيا النموذج الأمثل لهذا الحاكم .

كان بنثام يتحرق شوقاً إلى تحسين أحوال البشر . وكان سبيله إلى الوصول إلى الحقيقة هو إعمال العقل واستبعاد العاطفة . والرأى عنده أن الإنسان مخلوق أنانى . ولكنه لا يرى ضيراً فى هذه الأنانية ما دامت أنها تخضع لنظام تعليمى وتشريعى سليم . إذ يمكن عن طريق التعليم والتشريع السليمين المواءمة بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . ولاشك أن طبيعة بنثام المتفائلة هى التى جعلته يؤمن بإمكانية تحقيق هذه المواءمة . والقاموس الذى يستخدمه بنثام لا يعترف بأية ألفاظ أخلاقية مثل «الضمير» و«الإحساس بالواجب» . وهو يعرّف الفضيلة بأنها ذلك السلوك الذى يحقق

أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس . أى أن الفضيلة فى نظره هى الوجه الآخر للسعادة أو اللذة . وهنا يتساءل المرء ما الذى يرغم الفرد على التصرف على نحو يفيد المجتمع ؟ ويرد بنثام على ذلك بأن إعمال العقل والتعليم السليم قمينان بأن يدفعاه إلى ذلك . وهو لا يرى أن التهديد بالعقاب فى الآخرة له أى جدوى ، فمثل هذا العقاب بعيد من ناحية وغير مؤكد من ناحية أخرى . ويعتقد بنثام أيضاً أن الإله الحق لا يمكن أن يكون منتقماً لأن الإله الذى لا يود السعادة للإنسان يخلو من الرحمة ويفتقر إلى العدل .

وفى عام ١٨٣٤ نشر باورنج تلميذ بنثام كتاباً عن أستاذه بعنوان «الدنيونتولوجيا» ومعناه علم الأخلاق الخاصة ، يشرح فيه أهم أركان المذهب النفعى الذى استحدثه بنثام . وسوف نركز فى هذا المقام على رأيه فى الدين والكنيسة والرأى عنده أن الكنيسة تغرس الزيف والنفاق فى نفوس الأطفال لأنها تجعلهم يجزمون بسلامة أشياء غامضة يعجزون عن فهمها أو استيعابها ، فهم على سبيل المثال يقطعون على أنفسهم عهداً بالتخلى عن الشيطان ونبذ أفعاله ؛ ويتساءل بنثام فى هذا الصدد من هو هذا الشيطان الذى يتعهدون بنبذه؟ وهل حدث أن رآه أى من هؤلاء الأطفال ؟ بالطبع لا . ونظراً إلى أن الحكمة والحصافة اقتضيتا منه عدم الهجوم على الدين وأن القانون الإنجليزى آنذاك كان يجرم مثل هذا الهجوم ، فقد دعا بنثام وشريكه جورج جروت إلى أن ينشرا تحت اسم فيليب بوشامب المستعار كتابهما «تحليل نفوذ الدين الطبيعى على سعادة البشر فى الأرض» . (١٨٢٢) . وهو كتاب قام ريتشارد كارليل بنشره أثناء وجوده فى سجن دورستشير . وسعى بنثام وشريكه فى هذا الكتاب إلى تطبيق اختبارات المذهب النفعى على العقيدة الدينية ، ويقدم بنثام وزميله جروت تعريفاً للدين قد يبدو غريباً فى نظر الإنسان الحديث فهما يعرفانه بأنه الإيمان بوجود كائن قادر على كل شىء يقوم بتحقيق اللذة أو الألم للعباد فى الحياة . هذا هو مفهومهما عن الدين الطبيعى وهو مفهوم ينكر تنزيل الدين أو الوحى به من لدن الله . ويذهب بنثام إلى أن فكرة الحياة الأخرى فى المستقبل لا تبعث على الارتياح والطمأنينة إذ إن من شأنها أن تبث الرعب فى النفوس من الذات الإلهية التى تتسم بالبطش والاستبداد . فرجال الدين يصورون الله على أنه هوائى متقلب المزاج . ولهذا فإن الإيمان بإله من هذا القبيل لا يمكن أن يكون دافعاً سليماً يحفز البشر على السلوك الأخلاقى . إن رجال الدين يزعمون أننا سوف نتوقف عن فعل الخير إذا نحن توقفنا عن الإيمان بالدين ، الأمر الذى يوحى بأن الإيمان به لا يبعث على أية سعادة دنيوية . أما مسألة الحياة الأخرى فسر يستغلق على الألباب . إن السلوك الاجتماعى - فى رأى بنثام - لا تحكمه مخاوفنا أو آمالنا فى الحياة الأخرى ولكن يحكمه فى الواقع رأى المجتمع فى هذ السلوك الاجتماعى كما تحكمه رغبة المرء فى أن يكون عند حسن ظن زملائه . أضف إلى هذا أن الدين يحرم على الناس استمتاعهم بكثير من اللذات البريئة ويقف حجر عثرة فى سبيل التقدم الذهنى بسبب عدم إقامة الإيمان به على أساس تجريبى وهو الأساس السليم الوحيد للإيمان بأى شىء . والدين وسيلة ارتزاق جيش جرار من الكهنة والقساوسة المنتفعين الذين يمتهنون العقل البشرى ويحطون من شأنه ويروجون الخزعبلات . ومن ذا الذى يصدق الدين المسيحى الذى يكرس النظام الاجتماعى الراهن والذى ليس له سند غير عدة معجزات من المفترض أنها حدثت منذ

٤ جيمس ميل (١٧٧٣ - ١٨٣٦)

يرجع الفضل فى تأثر الحياة السياسية الإنجليزية بالمذهب النفعى الذى استحدثه بنثام إلى الدور الذى لعبه الفيلسوف الأسكتلندى جيمس ميل فى نشره بين بنى جلدته . كان جيمس ميل - الذى يصغر بنثام بخمسة وعشرين عاماً - موهوباً منذ نعومة أظفاره . وأراد له والده - وهو تاجر صغير - أن يصبح قسيساً . ولكن الفتى ما كاد ينتهى من دراسته حتى فقد إيمانه بالدين . ويبدو أنه اتسم بالمحافظة الفكرية عندما جاء إلى لندن عام ١٨٠٢ حيث اشتغل بالصحافة . وفى ١٨٠٦ انصرف ميل إلى تأليف كتاب عن الهند نشره عام ١٨١٨ واعتمد جيمس ميل فى معاشه فى الفترة من ١٨٠٨ حتى ١٨١٨ أى طوال عقد كامل على كرم بنثام وأريحيته ، فقد أقرضه صديقه بنثام منزلاً صغيراً كان ملكاً للشاعر المعروف جون ميلتون فى يوم من الأيام . ثم أراد بنثام أن يعيش صديقه بالقرب منه فاستأجر له منزلاً آخر قريباً من مسكنه . ولم يأخذ من صديقه سوى نصف ما كان يدفعه من إيجار .

كان ميل راديكالياً قبل أن يتعرف ببنثام وقبل أن يتتلمذ على يدى عالم النفس هارتلى . آمن جيمس ميل بمذهب توماس مالثوس فى زيادة السكان . بل كان أيضاً صديقاً شخصياً لعالم الاقتصاد الرأسمالى ريكاردو . فلا غرو إذا رأيناه ينادى بحرية الصناعة والتجارة . فضلاً عن شدة إعجابه بأفكار هلفتيوس الذى آمن بقدرة التعليم على تشكيل شخصية الإنسان . وأخذ جيمس ميل نظرية هلفتيوس مأخذ الجد وطبقها بحذافيرها فى تربية ابنه جون ستيورات ميل فتركت فى نفس الطفل أوخم الآثار والعواقب كما يتضح لنا من سيرة حياته . قام جيمس ميل بتعليم ابنه بنفسه فعلمه اللغة اليونانية القديمة وهو فى الثالثة من عمره ثم تعلم الصبى اللاتينية وهو فى السابعة وقرأ ستاً من محاورات أفلاطون وهو فى هذه السن الباكرة . كما أنه تعلم فى الوقت نفسه الرياضيات وقدراً هائلاً من التاريخ . وكانت تربية جيمس ميل لابنه جافة وصارمة لدرجة أن الابن لا يذكر أنه طالع فى طفولته أية كتب خفيفة أو مسلية مما يقرؤها الأطفال فى العادة ، كما أنه لا يذكر أنه تلقى فى طفولته أياً من لعب الأطفال ، كل ما يذكره أنه تلقى رواية «روبنسون كروزو» كهدية من أحد أقاربه فتوفر على قراءتها بشغف ونهم شديدين . وعندما بلغ جون ستيورات ميل الثامنة من عمره تولى مهمة تدريس إخوته وأخواته علم التاريخ ونظام الحكم عند الرومان إلى جانب عيون الأدب الإغريقى مثل الإلياذة والأوديسا وتراجيديات أسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس . واقتصرت متعة الغلام على قراءة الكتب التى تعالج العلوم التجريبية . وحز فى نفسه كثيراً أن معرفته بهذه العلوم كانت نظرية وليست تطبيقية . فهو لم يقم بنفسه بإجراء أى من هذه التجارب التى كانت نفسه تهفو إلى إجرائها بنفسه . وفى سن الثانية عشرة انصرف الغلام إلى دراسة المنطق الأرسطى ومعارف العصر الوسيط ، وفى العام نفسه علمه أبوه كل ما يمكن تعلمه حول الاقتصاد السياسى . وفى حياته اللاحقة تمرد الابن على أسلوب والده الصارم فى تربيته وشكا من قسوة والده فى تربية أولاده كما أنه اعترف بأنه لم يشعر أبداً بالحب نحوه . فقد كان الخوف منه هو الشعور الطاغى عليه . ولكن آلمه أن يكون شعوره نحو والده بمثل هذا السوء وخاصة أن بقية أخوته وأخواته كانوا يحملون لوالدهم أرق العواطف وأعذبها .

وتنطوى شخصية جيمس ميل على المفارقة نفسها التى تنطوى عليها شخصية جيرمى بنثام . فرغم إيمان الرجلين كليهما بأن الهدف من الحياة هو اجتناء اللذة واجتناب الألم فإنهما بحكم مزاجهما كانا يميلان إلى القصد والاعتدال ويعليان من شأن المتعة الذهنية دون المتعة الجسدية . أضف إلى هذا أنهما تشككا فى العواطف واعتبراها ضرباً من الجنون ونوعاً من الهوى . لقد أظهر جيمس ميل عطفاً كبيراً على المظلومين والمطحونين ولكن عطفه عليهم كان بارداً وخالياً من الدفء . فهو ينبع من إيمانه بعقلانية البشر ولا ينبع من أية مشاعر فياضة . وقد ضاق الابن ذرعاً بما فى تربية والده من نضوب للعاطفة . والجدير بالذكر أن الإيمان بالعقلانية كان القاسم المشترك الأعظم بين كل أتباع بنثام الذين استطاعوا عن طريق عقلانيتهم أن يمارسوا نفوذاً واضحاً على مجرى السياسة البريطانية خلال العصر الفيكتورى حتى عام ١٨٧٤ . وبسبب إيمانه بالعقل وتشككه فى العاطفة رفض جيمس ميل الدين المسيحى ورأى أنه إذا كان الإله الذى يدعو إليه هذا الدين موجوداً بالفعل فلابد أن يكون

جون ستيورات ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) ——— ٥

أطلق عليه وليم هازليت اسم قديس العقلانية لفرط نقاوته وطهارته . كتب جون ستيوارت ميل سيرة حياته الذاتية التى ألقى فيها الضوء على قصور المذهب النفعى بسبب مبالغته فى تمجيد العقل واستبعاده الكامل للعاطفة . وعندما طبق جيمس ميل مبادىء العقلانية البنثامية فى تربية ابنه جون ستيورات كانت النتيجة وبالا على الابن ، فقد أدت صرامة الأب المتناهية معه إلى إدراكه أن عقلانية والده والمذهب النفعى وحدهما لا يكفيان لأن هذه العقلانية المفرطة تقضى على تلقائية الإنسان وتصيب عواطفه بالجدب والضمور . وتأكد للابن قصور عقلانية أبيه وجفافها عندما قرأ أشعار الشاعر الرومانسى وليم وردزورث وأعجب بها . فضلاً عن أنه تأثر بكل من الكاتبين الرومانسيين كوليردج وتوماس كارليل (الذى ظل صديقاً له حتى افترق عنه بسبب خلافهما في الرأى) . وفى عام ١٨٣٣ لاحظ كارليل جنوح ميل إلى الإيمان بالدين خلافاً لما يدعو إليه المذهب النفعى . فبعد أن قرأ كارليل كتابه «روح العصر» (١٨٣١) إذا به يصيح قائلاً : «نحن الآن أمام متصوف جديد» ، ولكن باسيل ويلى يعلق على هذا بقوله إن تأثر جون ستيورات بالأدب الرومانسى الذى يتدفق بالعاطفة ويفيض بالخيال لا يعنى بحال من الأحوال اضمحلال أثر العقلانية البنثامية فيه» . . ويمكن القول إن جون ستيورات ميل يكاد يكون المفكر الوحيد الذى لم ينبذ الدين لأنه لم يعرفه أصلاً فقد أغفل والده التربية الدينية تماماً عند تنشئته . غير أن والده حذره من مغبة التصريح بكفره أمام الناس . ويتجلى لنا هذا من قراءة مقال جون ستيورات ميل المعروف «عن الحرية» (١٨٥٩) . والجدير بالذكر أن أباه لم يلحقه بأية جامعة مثل أكسفورد وكامبردج لأنه اعتبر هذه المؤسسات التعليمية معقلا للرجعية والتعصب الفكرى .

وقبل وفاته كتب جون ستورات ميل فى الفترة بين (١٨٥٠ و١٨٧٠) ثلاث مقالات حول الدين لم يتيسر لها الظهور إلا بعد عام (١٨٧٤) ، أى بعد أن وورى هذا الفيلسوف الثرى . ويتضح لنا من مطالعة هذه المقالات أنه كان شأنه فى ذلك شأن توماس هاردي - يتحرق شوقاً إلى الإيمان بوجود الله دون أن ينظر إليه فى الاتجاه الصحيح إذ كان يوليه ظهره وهو يبحث عنه . وبذلك انطبق

الدين لم يتيسر لها الظهور إلا بعد عام (١٨٧٤) ، أى بعد أن وورى هذا الفيلسوف الثرى . ويتضح لنا من مطالعة هذه المقالات أنه كان شأنه فى ذلك شأن توماس هاردى - يتحرق شوقاً إلى الإيمان بوجود الله دون أن ينظر إليه فى الاتجاه الصحيح إذ كان يوليه ظهره وهو يبحث عنه . وبذلك انطبق عليه - كما يذهب باسيل ويلى فى كتابه «دراسات فى القرن التاسع عشر» - قول القديس بولس إن الحكمة ليست السبيل إلى معرفة الله . على أية حال لم يكن هجوم جون ستيورات ميل على الكنيسة إلا جزءاً من اتجاه عام احتضنه عدد كبير من مفكرى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ممن نبذوا المؤسسات الدينية لأنها تبارك استئثار بعض الطبقات دون بعضها الآخر بالمزايا الاجتماعية وتشجع على إشاعة الظلمة فى عقول الناس . ولعل أهم اعتراض أثاره جون ستيورات ميل على الدين أنه لا يمكن بأى حال من الأحوال إقامة الدليل على صحته .

كتب جون ستيورات ميل إثنتين من هذه المقالات حول الدين وهما بعنوان «الطبيعة» و«فائدة الدين» فى الفترة بين (١٨٥٠ و١٨٥٨) ثم المقال الثالث (وهو أهم هذه المقالات جميعاً) بعنوان «الإيمان بالله والدين المنزل» فى الفترة من عام ١٨٦٨ حتى عام ١٨٧٠ . ويحدثنا هذا الفيلسوف فى مقاله الأول «الطبيعة» عن وجود معنيين أو مفهومين مختلفين للطبيعة ، يعنى المفهوم الأول منهما شتى القوى الكامنة فى العالم الخارجى والداخلى وشتى الأشياء التى تحدثها هذه القوى . وبهذا المعنى لا يمكن للإنسان الإتيان بأى عمل إذا لم يكن هذا العمل متمشياً مع الطبيعة . ويعنى المفهوم الثانى للطبيعة تلك الأحداث التى تقع دون تدخل إرادى أو مقصود من البشر . ويتضمن هذا المفهوم الثانى اعترافاً بأن غاية الإنسان تتلخص فى عمله على تغيير الطبيعة وإدخال التحسينات عليها وتنقيتها من أية شوائب أو قصور . ثم ينظر جون ستيورات ميل إلى الطبيعة الفيزيقية (المادية) بمعناها الشامل فيعترف باتساعها وسموقها وبأنها تبث الرهبة فى النفوس . ولكنه يؤكد أنها رغم هذا طبيعة غير أخلاقية بالمرة من ألفها إلى يائها ، فهى تقتل مخلوقاتها بفعل الأعاصير والزلازل والبراكين والأمراض والجوع والبرد دون أدنى رحمة أو شفقة . كما أنها توزع بلاءها ونوازلها دون تفرقة أو تمييز بين أشد الناس نبلاً وأكثرهم انحطاطاً . ومن خلال هجومه على الطبيعة يصر جون ستيوزرات ميل على نزعته إلى التشاؤم واحتقار الذين يعتبرون كوارث الطبيعة أسراراً قدسية أو علوية . يرى هذا الفيلسوف أنه لا يمكن - والحال هكذا - أن نجعل من الطبيعة هادياً لنا . كما يرى أن الله إما يريد شقاء البشر أو أنه عاجز عن وضع حد لشرور الطبيعة . فلا غرو إذا وجدناه يهاجم نظرية جان جاك روسو التى تؤكد براءة الطبيعة البشرية وطهارتها والتى تعلى من شأن الحدس والغرائز وتحط من شأن العقل . وفى حين يرى روسو أن الفطرة أكثر صحة وسلامة من إعمال العقل ، يرى جون ستيورات ميل أن العكس صحيح فحياة الإنسان البدائى - فى نظره - تتسم بالوحشية والشر وأنه لا سبيل إلى الارتقاء بها إلا عن طريق إعمال العقل .

وفى مقاله الثانى «فائدة الدين» لا يهتم جون ستيورات ميل بمناقشة صحة الدين ولكنه يهتم بمناقشة جدواه طارحاً هذا التساؤل : هل يمكن أن يكون الدين مفيداً من الناحية الأخلاقية دون أن نؤمن بصحة أركانه وسلامة معتقداته ؟ يقول جون ستيورات فى هذا الشأن إن الإنسانية درجت على

الربط بين الأخلاق والدين فى حين أن هذا الربط ليس حتماً أو ضرورة . والرأى عنده أن التعليم ورأى الناس فينا لهما أعظم الأثر فى سلوكنا بل إنه يمكن الاعتماد عليهما فى صياغة سلوك البشر دون الحاجة إلى تهديدهم بالعقاب فى الحياة الأخرى . صحيح أن الإنسان البدائى لا يؤمن بصحة الأخلاق وسلامة القيم إلا إذا كان لهما سند ميتافيزيقى ، ولكن مع ارتقاء الإنسان فى مدارج التحضر نجد أنه ليس بحاجة إلى مثل هذا التخويف الميتافيزيقى . وهذا الرأى يدل على مدى تأثر جون ستيورات بأفكار الفيلسوف الوضعى المعروف أوجست كونت الذى سوف نعالجه فى وقت لاحق . والرأى عند جون ستيورات أن الدين (مثل الشعر) ليس سوى محاولة لكشف النقاب عن المجهول عن طريق الخيال ، فضلاً عن أنه يرى أن الدين هو نتيجة تشوق البشر للوصول إلى المعرفة اليقينية . وهو الأمر الذى يستحيل الوصول إليه .

ويعتقد ميل أنه يمكن أن يُستبدل بالدين القائم على المعتقدات الميتافيزيقية دين آخر قائم على حب الإنسان لأخيه الإنسان . إن ميل فى غمرة حماسه للتعليم وإيمانه بقدرة هذا التعليم على صياغة نفوس الناس من جديد أراد أن يجعل من الإيثار ديناً لا يستمد جذوره من حب الإنسان لله أو للمسيح بل من حب الناس للناس . وهو افتراض على حد قول باسيل ويلى - يصعب تصور صحته . ويثير الدين فى عقل جون ستيورات ميل مشكلة شائكة وعويصة ، فالدين يفترض أن الخليقة من صنع إله كامل فى حين أن نقائصها تشير إلى عكس ذلك . ولهذا نراه يفاضل بين المسيح والله فيذهب إلى أن موعظة المسيح على الجبل تفوق فى سموها العالم المعيب الناقص الذى يفترض أنه من خلق الله . واستناداً إلى هذا التفضيل يتساءل جون ستيورات : كيف يمكن للمسيحية أن تدخل فى روعنا أن مؤلف الموعظة الكاملة على الجبل هو نفسه مؤلف هذا الكون الناقص ! ؟

وفى مقاله المهم «الإيمان بالله والدين المنزل» يتناول جون ستيورات علاقة الدين بالعلم . يقول ميل : «إن الله لا مكان له فى العالم الحديث نظراً لعدم قدرة الإنسان على إخضاع فكرة الألوهية لتجربته وإن إجماع الناس على وجوده ليس دليلاً على هذا الوجود الذى يتجاوز نطاق التجربة البشرية . ويبدو ميل متناقضاً مع نفسه عندما يعترف بأن الطبيعة - التى سبق أن رماها بالقسوة والقصور - تسير وفقاً لنوع من النظام أو التصميم الذى يدخل فى نطاق التجربة الإنسانية . ومن ثم يمكن إخضاع مثل هذا النظام أو التصميم للاستدلال العلمى . ونحن نلاحظ أن تغيراً طرأ على نظرته إلى الطبيعة بعد قراءته لأبحاث تشارلس داروين بصدد عمليات التكيف أو التأقلم البيولوجى التى تحدث فى الطبيعة وما يجرى فيها من انتخاب طبيعى وبقاء للأصلح ، وهى أمور تجعل من المحتمل وجود عقل وراء الخليقة وأيضاً وجود حكمة وراء الكون . ويسلم ميل بأن هناك بعض الشواهد التى تدل على أن الله يرغب فى أن يحقق لخليقته السعادة واللذة . ولكنه يؤكد أن مثل هذا الإله يحظى بسلطات محدودة . فلو كانت قدرته غير محدودة لوضع حداً لما فى هذا العالم من قسوة وشر . ويرى ميل أن فكرة وجود إله قادر على كل شىء هى رغبة من جانب الإنسان فى أن يتصور الله على هذا النحو . فضلاً عن أنه ناجم عن إيمانه بالدين المنزل .

ويذهب جون ستيورات إلى ما سبق أن ردده الفيلسوف دافيد هيوم من أنه ليس هناك إثبات

أن يلجأ الإنسان إلى الخيال كى يقوى عزمه ويشد من أزره مادام هذا الخيال لا يتنافى أو يتعارض مع الواقع . ويرى أن الإيمان بوجود «كائن» يحقق للبشر أفضل ما يراودهم من أفكار عن الكمال من شأنه أن يقوى شعور الإنسان بهذا الكمال . قلنا إن جون ستيوارت تصور المسيح (وليس الله) على أنه تجسيد للكمال . ويبدو لنا التناقض الذى وقعت فيه آراء هذا الفيلسوف حين يقول : «إن المسيحية لم يجانبها الصواب عندما ركزت على شخصية المسيح واعتبرته أفضل من يمثل البشر ويهديهم» ثم يضيف : «إنه يحتمل أن يكون المسيح بالفعل إنساناً كلفه الله بمهمة خاصة وعاجلة كى يهدى البشر إلى الحق والفضيلة» . والرأى عنده أن مثل هذا الاعتقاد من شأنه أن يدعم إيمان العالم بدين الإنسانية مادمنا لا نؤمن بألوهية المسيح . هذا الدين الجديد الذى سوف يصبح دين المستقبل يخلو من فكرة العقاب فى الآخرة . فلا غرو إذا انتقد بعضهم چون ستيوارت ورموه بالتناقض ، وبأنه يجنح إلى الإيمان بالدين رغم كل ما يظهره من كفر فضلاً عن تناقضه فى الجمع بين التفاؤل والتشاؤم .

روبرت أوين (١٧٧١ - ١٨٥٨) ـــــــ ٦

لم يكن روبرت أوين فيلسوفاً بقدر ما كان رجل أعمال ناجحاً . ولد بمدينة نيو تاون بإنجلترا عام (١٧٧١) وتوفى فى المدينة نفسها عام (١٨٥٨) وبذلك يكون العمر قد امتد به سبعاً وثمانين سنة . وأوين نموذج للرجل العصامى الذى أصاب نجاحاً كبيراً فى الحياة رغم نشأته الاجتماعية الشديدة التواضع . واستطاع منذ أن كان طفلاً فى العاشرة من عمره حتى آخر يوم فى حياته أن يستقل فى معيشته عن أهله وذويه وأن يكسب قوته بعرق جبينه .كان والده سايساً للخيول ثم موظفاً بسيطاً فى مصلحة البريد لا يزيد دخله على عشرة جنيهات فى العام . والتحق روبرت بالمدرسة وهو فى السابعة من عمره . ولكن ظروف حياته القاسية اضطرته إلى تركها للعمل كفراش فى مدرسة أخرى ، الأمر الذى أتاح له فرصة التعرف إلى كل عائلات مدينته الصغيرة تقريباً . وحاولت ثلاث من العانسات اللاتى ينتمين إلى الطائفة البروتستانتية المعروفة بالميثوديست استمالة الصبى إلى هذه الملة . ولكن محاولتهن ذهبت أدراج الرياح . وفيما بعد يقول روبرت أوين فى هذا الشأن : «عندما قرأت الأعمال الدينية الخاصة بمختلف الطوائف أدهشنى أولاً ذلك التعارض الموجود بين الملل المسيحية المختلفة ثم أدهشتنى تلك الكراهية المميتة المتبادلة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين والهندوس والصينيين . . إلخ وأيضاً تلك الكراهية بين هؤلاء جميعاً وما يسمونهم بالوثنيين والكفرة فأدت دراستى لهذه العقائد المتصارعة والكراهية المميتة التى يحملها أتباع كل مذهب نحو أنصار المذاهب الأخرى إلى بذر بذور الشك فى نفسى فى حقيقة أى منها . وأرغمتنى قراءاتى للأعمال الدينية إلى جانب قراءاتى الأخرى وعمرى لا يتجاوز العاشرة أن أشعر بقوة أن هناك خطأ جوهرياً يشوب جميع الأديان كما درج الناس على فهمها حتى يومنا هذا» . واستطاع روبرت أوين أن يقنع والده وهو فى العاشرة من عمره أنه يمكنه أن يشق طريقه فى الحياة بمفرده . فأعطاه والده أربعين شلناً وأرسله إلى لندن كى يعيش مع أخيه الأكبر الذى يعمل سايساً فى منطقة هولبورن . وبعد وقت وجيز التحق الصبى للعمل كبقال فى خدمة رجل يدعى جيمس ماك جو فروج . وسادت مشاعر الود بين الصبى ومخدومه وهى مشاعر صافية لم يعكرها غير احتدام الخلاف بينهما حول الدين . يقول أوين

وأرسله إلى لندن كى يعيش مع أخيه الأكبر الذى يعمل سايساً فى منطقة هولبورن . وبعد وقت وجيز التحق الصبى للعمل كبقال فى خدمة رجل يدعى جيمس ماك جو فروج . وسادت مشاعر الود بين الصبى ومخدومه وهى مشاعر صافية لم يعكرها غير احتدام الخلاف بينهما حول الدين . يقول أوين : «إننى لم أنبذ إيمانى بالمسيحية المتأصل فى نفسى إلا عن كره ومضض شديد وبعد أن أرغمتنى على ذلك الصراعات التى نشبت فى عقلى . وعندما وجدت نفسى مرغماً على نبذ عقيدتى المسيحية ألفيت نفسى مضطراً كذلك إلى رفض سائر الأديان الأخرى لأننى اكتشفت أنها جميعاً تنهض على فكرة خيالية مضحكة مفادها : (أن كل إنسان يصنع الصفات والخصائص التى يتسم بها - أى أنه يحدد أفكاره وإرادته وأفعاله وأنه مسئول عنها أمام الله وإخوانه من البشر) . وانتهى بى تفكيرى الخاص إلى نتائج مختلفة تماماً . وهدانى عقلى إلى الاعتقاد بأننى لا أستطيع أن أصنع صفة واحدة من صفاتى ، لأن الطبيعة هى التى فرضت على هذه الصفات فى حين أن المجتمع يفرض على لغتى ودينى وعاداتى . ومعنى هذا أننى من صنع الطبيعة والمجتمع تماماً . فالطبيعة أعطتنى الصفات التى أتسم بها ثم يقوم المجتمع بتوجيه هذه الصفات . وهكذا وجدت نفسى بسبب اكتشافى للأساس الخاطىء الذى تنبنى عليه الأديان مضطراً إلى نبذ الإيمان بكل الأديان التى يدين بها البشر . ولكن الروح الدافعة لفعل الخير من أجل كل البشر تملكتنى وحلت فى الحال محل مشاعرى الدينية . . . الخير ليس من أجل ملة أو حزب أو من أجل دولة أو عنصر بل من أجل الجنس البشرى بأكمله» .

ولا شك أن هذه الفكرة تمثل واحداً من أحجار الزاوية فى تفكير روبرت أوين الذى يقوم على التنوير وإعمال العقل ويذهب إلى أن الطبيعة البشرية تتميز أصلاً بالصلاح والخير وإلى أهمية المجتمع والظروف البيئية فى تشكيل شخصية الإنسان . ومن ثم اهتمامه البالغ فى قابل حياته بقضية التعليم .

ثم التحق روبرت أوين للعمل بمحل يمتلكه فلنت وبالمر على كوبرى لندن نظير أجر قدره خمسة وعشرون جنيهاً فى العام . ولكن عمله كان شاقاً مضنياً استمر من الساعة الثامنة صباحاً حتى الثانية ليلاً ، الأمر الذى هدد صحته من ناحية ولم يسمح له بممارسة ما كان يرنو إليه وهو الاستزادة من المعارف والانكباب على القراءة فى وقت فراغه . ولهذا ترك هذا العمل فى لندن ليلتحق بعمل آخر مماثل فى مانشستر فى ظروف أقل قسوة . وظل يزاول عمله الجديد حتى عام (١٧٨٩) . وفى ذلك العام بلغ روبرت أوين مرحلة النضج فى الثامنة عشرة من عمره فقرر البدء فى تنفيذ بعض المشروعات الصناعية الصغيرة التى درت عليه شيئاً من الربح ومهدت الطريق إلى إحرازه نجاحاً مادياً وأدبياً فائقاً فى حياته اللاحقة . وشجعه نجاحه على التقدم وهو فى الثانية والعشرين لخطبة ابنة رجل صناعة ثرى من أصل أسكتلندى اسمه دافيد ديل الذى اعترض بادىء الأمر على زواجه من ابنته بسبب مروقه على الدين . غير أن روبرت أوين استطاع بسحر شخصيته أن يتغلب على اعتراض الأب عليه وخاصة لأن الفتاة وقعت فى غرامه . ورغم ضيقها بكفره فقد ظلت تحبه حتى نهاية العمر . وقبل حموه الثرى أن يبيع له مصانعه فى نيولانك بالسعر الذى يحدده زوج ابنته . وأثبت أوين كفاءة منقطعة النظير فى إدارة هذه المصانع التى درت عليه أرباحاً طائلة . وكان عدد العاملين بهذه المصانع نحو ألفى عامل خمسمائة منهم من الصبية القادمين من ملاجىء الأيتام . واستاء أوين

من بشاعة الاستغلال الرأسمالى للأطفال فسعى إلى تحسين ظروف العمل بمصانعه بوجه عام كما كف عن استخدام الأيتام فيها . وأيضاً رفض أوين فى مصانعه الأطفال دون العاشرة واشترط أن يتم تشغيلهم بموافقة الوالدين . وفى عام (١٨٠٦) تعطل العمل بمصانعه لمدة أربعة عشر شهراً بسبب الحظر الذى فرضته الولايات المتحدة على صادراتها من القطن إلى بريطانيا . ولكنه بسبب إيمانه بالاشتراكية رفض الاستغناء عن عماله واستمر يدفع أجورهم ، الأمر الذى زاد من شعبيته وحب العمال له . ونظراً لإيمانه الراسخ بأهمية التعليم فى حياة الإنسان قام بإنشاء مدرسة داخل مصنعه لتعليم الأطفال الذين أحبهم من شغاف قلبه . فضلاً عن أنه أقام دار حضانة على أسس حديثة لتعليم الأطفال الرقص الشعبى بالأزياء الشعبية كجزء أساسى من البرنامج التعليمى . وهكذا ذاعت شهرة مصانعه فى نيولانك فى كل أرجاء العالم لدرجة أن نحو عشرين ألف شخص قاموا بزيارتها خلال عشرة أعوام . وكان من بين زوارها الدوق نيقولا الذى أصبح قيصر روسيا فيما بعد . والجدير بالذكر أن قيصر المستقبل ظل يصغى إلى شروحه وآرائه فى إدارة الأعمال ونظام التعاونيات الاشتراكية ما يزيد على الساعتين . والواقع أن أوين استطاع بدماثته واعتداله ورقة طباعه أن يجتذب إليه جميع الطوائف على اختلاف مذاهبهم لا فرق بين الثوار الراديكاليين أمثال جيرمى بنثام الذى ساهم برأسماله فى مشروعاته الصناعية وبين المحافظين أمثال رئيس الوزارة آنذاك الذى قدمه إلى الملكة فكتوريا والدوق أف كنت والدها وإلى رئيس أساقفة كانتربرى .

ودفعت الرغبة الملحة فى إصلاح المجتمع روبرت أوين إلى أن يتقدم عام (١٨١٥) بمشروع قانون لتنظيم عمالة الأطفال . وتحمست الحكومة الإنجليزية لهذا المشروع وأحالته إلى البرلمان الذى خذله لأن عدداً كبيراً من أعضائه كانوا يستثمرون أموالهم فى المصانع ولا يريدون المساس بالأوضاع القائمة . ورغم سعيه الحثيث إلى أن يضع موضع التنفيذ أفكاره الاشتراكية عن التعاونيات القائمة على الاقتصاد الموجه فى مجالى الزراعة والصناعة ، فقد ظل يحظى باحترام الجميع الكبير منهم قبل الصغير . وذهب أوين فى حماسه للفكر الاشتراكى التعاونى إلى ضرورة جمع العاطلين فى كل قرية وتشغيلهم فى مزرعة جماعية بحيث يعيشون فى أبنية تحتوى على قاعة عامة للمطالعة ومطبخ عمومى وصالة طعام عمومية وبذلك يكون أوين أول من أرسى فى الواقع الأوروبى لبنة الفكر الاقتصادى الجماعى . ولكن مشروعاته فى الإنتاج الجماعى اصطدمت بعقبات كأداء أهمها نقص رؤوس الأموال اللازمة .

وقد أدت أمانة روبرت أوين وصراحته فى إبداء الرأى إلى تخلى الناس عنه وانفضاضهم من حوله . ففى ١٤ أغسطس عام (١٨١٧) ألقى محاضرة فى جمع كبير حضرها مفكرون عظام ورجال اقتصاد كبار أمثال كوبيت ومالثوس وريكاردو . وفى هذا الاجتماع أبدى الشاعر ساوثى اعتراضاً على الرأى القائل بأن الدين لا وجود له ولا يلعب أى دور فى المجتمعات التى يحلم أوين بإقامتها . ورأى أوين أن الأمانة تقتضى منه إبداء رأيه بصراحة فى هذا الموضوع . فدعا إلى عقد اجتماع آخر بعد أسبوع واحد حيث ألقى فيه خطبة أعدها بحرص شديد . ولكن هذه الحرص لم يمنعه من أن يصرح دون مواربة بعدم إيمانه بالمسيحية وبأنه يعتبر الدين السبب الرئيسى فى كل ما

يصيب البشرية من شر وبلاء . وأفضى هذا بطبيعة الحال إلى نفور معظم أصحاب السلطان والنفوذ منه مثل رئيس أساقفة كانتربرى والنبلاء والوزراء إلخ . . . كما كان السبب فى القضاء المبرم على اقتراحاته الإصلاحية وعدم اكتراث الحكومة والبرلمان بها . ورغم هذا فإن اليأس لم يتطرق إلى قلبه فأمضى أربع سنوات من عمره (من ١٨٢٤ حتى ١٨٢٨) فى محاولة إنشاء مجتمع اشتراكى تعاونى يسير وفق أفكاره ومخططاته . ولهذا اتجه ببصره نحو أمريكا ، تلك القارة الجديدة التى تفيض بالخيرات وكان قد سبقه إليها مصلح دينى ألمانى اسمه جورج راب الذى هاجر مع جماعة من أتباعه إلى الأراضى الأمريكية حيث أقاموا مستعمرة فى إنديانا يحظرون فيها الزواج وتدخين التبغ أسموها (الهارمونى) . وفى عام (١٨٢٥) وافق جورج راب على أن يبيع مستعمرته لأوين وأتباعه الذين أعادوا تسميتها بـ«الهارمونى الجديد» ولكن هذه التجربة باءت بالفشل الذريع فقد بلغت خسارة أوين فيها أربعين ألف جنيه استرلينى أصبح بعدها فقيراً معدماً . وبهذا أفل نجمه الساطع فى الحياة الإنجليزية . وبحلول عام (١٨٣٤) فقد شعبيته الكاسحة فى اتحادات العمال الذين ازورّوا عنه . ولم يعد لأوين - الذى لعب دوراً فى حياة إنجلترا لا يقل فى أهميته عن الدور الذى لعبه الثائر توماس بين فيها - مكانة تذكر بين بنى جلدته بل صار مجرد زعيم لجماعة صغيرة من الكفرة والملحدين يتجنبه الناس باعتباره خطراً على المجتمع . ومما زاد الطينة بلة أنه ألقى عام (١٨٣٥) سلسلة من المحاضرات التى تهاجم نظام الزواج بضراوة شديدة من منطق شيوعى باعتبار أن الزواج جزء لا يتجزأ من النظام الرأسمالى القائم على الملكية الفردية .

وبوجه عام يمكن القول إن أفكار أوين المعادية للدين المسيحى أخذت تذيع وتنتشر على نحو ينذر بالخطر منذ عام (١٨٣٧) . فقد تجاوز أتباعه ومريدوه كل حدود الكياسة وانتهجوا أسلوباً مستفزاً وطائشاً فى زرايتهم بالمسيحية . وعبثاً حاول العقلاء والمعتدلون من أنصار أوين إلى الدعوة إلى القصد والاعتدال فى النيل من المسيحية حتى لا يكون هذا سبباً فى نفور الناس من الأفكار الاشتراكية . والجدير بالذكر أن تشارلس سوث ويل (١٨١٢ - ١٨٦٠) - وهو أحد أنصار أوين - رفض التخفيف من ضراوة هجومه على الدين باعتباره عائقاً فى سبيل تقدم الإنسانية وانتشار الفكر الاشتراكى . ناهيك بأن نصيره وليم تشيلتون (١٨١٥ - ١٨٥٥) نشر أفكاره الإلحادية بكل صراحة فى المجلة التى أسسها بعنوان «عراف العقل» وفى يناير (١٨٤٣) حكم على توماس باترسون - وهو أيضاً أحد المشايعين لأوين - بالسجن لمدة شهر بتهمة عرض الكتب المجدفة والبذيئة فى واجهة مكتب تحرير هذه المجلة .

وفى أيام تألق مذهب أوين وأوج مجده أصاب الذعر والفزع رجال الكنيسة الإنجليزية عندما شاهدوا الجماهير تنصرف عن كنائسهم للاستماع إلى المحاضرات التى يلقيها أعوانه فى قاعاتهم (المعروفة باسم قاعات العلوم) عن المذهب الاشتراكى وعن إنكار الدين ، الأمر الذى حدا القس هيوستوويل أن يصف روبرت أوين فى اجتماع عقد فى مانشستر بقوله : «إنه رسول الكفر الحديث وتوماس بين هذا الزمان» . وحتى ندرك مقدار خطره وخطر أتباعه على الرأى العام يكفى أن نقول إنهم فى عام واحد هو عام (١٨٤١) ألقوا ما يقرب من سبعمائة وخمسين محاضرة فى الدين

اثنان من أتباع أوين هما مالتوس ريال وهوليوك دوراً بارزاً ونشيطاً فى إنشاء هذا الاتحاد . فضلاً عن أن «قاعات العلوم» التى يملكها أتباع أوين كانت المنابر الأساسية التى استخدمها المناهضون للدين فى الدعوة إلى التحرر منه . ولكن هؤلاء الأتباع اضطروا عندما تراكمت عليهم الديون إلى إغلاق هذه القاعات وبيعها . وهكذا فقد أعداء الدين المسيحى منابرهم ولم يجدوا أية أماكن بديلة يلقون فيها محاضراتهم فبارت تجارتهم وأصابها الكساد باستثناء فئة قليلة تعد على الأصابع مثل هوليوك ظلت ترفع راية الكفر وتعمل على ترسيخ الفكر العلمانى فى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً .

اليونيتاريون وقانون التثليث ــــــــ ٧

المذهب اليونيتارى ضرب من ضروب الهرطقة التى أصابت الدين المسيحى فيما أصابه من هرطقات . وينكر أتباع هذا المذهب الثالوث فهم يؤمنون بأن المسيح أقنوم واحد وليس ثلاثة أقانيم كما يذهب إلى ذلك التقليديون من المسيحيين .

من المؤكد أنه على الرغم من أن القوانين الإنجليزية ظلت تحتفظ بتشددها فى أمور الهرطقة والمروق على الدين (ولكن من الناحية الشكلية فقط) فإن إنجلترا فى القرن الثامن عشر شاهدت من الناحية الفعلية - باستثناء بعض الحالات المتفرقة - قدراً موفوراً من الحرية الدينية والتسامح الدينى لم يكن متوفراً فى معظم أرجاء أوروبا . . . هذا بالرغم من أن إنجلترا لم تقم بإلغاء قانون الاختبار لعام (١٦٧٣) إلا فى عام (١٨٢٩) . وينص قانون الاختبار على ضرورة تناول الموظف العام قبل توليه لوظيفته العامة . وكما أسلفنا فى موضع آخر ظلت هذه السماحة سائدة حتى اندلاع الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩) . حتى الملحدون والتأليهيون أنفسهم لم يتعرضوا لعقاب القانون ماداموا لم يسعوا إلى استفزاز الرأى العام وليس أدل على ذلك من أن اثنين من التأليهيين فى القرن الثامن عشر وهما كونيورز ميدلتون وتوماس تشب استطاعا أن ينجوا بنفسيهما من المتاعب بتوخى الحكمة والحذر وامتناعهما عن الزراية بالمسيحية والتحرش بها على نحو فاضح . ومعنى هذا أن التأليهيين الذين تعرضوا لعقاب القانون هم أولئك الذين ساروا على درب الثائر السياسى توماس بين فى استهزائه الفاضح بالدين المسيحى .

نبدأ بقسيس يونيتارى عجوز اسمه فرانسيس ستون أنكر الثالوث ونادى بأن المسيح أقنوم واحد سكتت الكنيسة على هرطقته حتى عام (١٨٠٧) ففى هذا العام ألقى بعض المواعظ على زملائه من رجال الكهنوت أنكر فيها مولد المسيح الخارق للطبيعة مؤكداً أن المسيح مجرد إنسان ورافضاً مذهب التثليث ودفع هذا القسيس المارق بنزقه الكنيسة الإنجليزية دفعاً إلى اضطهاده . وشعرت الدولة بالحرج فقد كان ستون طاعنا فى السن وشعرت أن تقديمه للمحاكمة سوف يجلب عليها المتاعب . بل إنه سوف يثير عطف زملائه من رجال الدين ممن لا يوافقونه على آرائه . وانعقدت محكمة كنسية فى لندن يرأسها أسقف لندن واستدعت ستون للمثول أمامها وطلبت إليه أن يحدد بنفسه إذا كان وفقاً للقسم الأنجليكانى الذى قطعه على نفسه جديرا بأن يستمر فى الحصول على معاشه ومسكنه الذى توفره الكنيسة للأكليروس . وهب اليونيتاريون المؤمنون بأن المسيح أقنوم واحد للدفاع عنه . ولكن

لندن يرأسها أسقف لندن واستدعت ستون للمثول أمامها وطلبت إليه أن يحدد بنفسه إذا كان وفقاً للقسم الأنجليكانى الذى قطعه على نفسه جديرا بأن يستمر فى الحصول على معاشه ومسكنه الذى توفره الكنيسة للأكليروس . وهب اليونيتاريون المؤمنون بأن المسيح أقنوم واحد للدفاع عنه . ولكن المحكمة الكنسية وجدت أنه مذنب فقامت بشلحه وتجريده من وظيفته وهما عقوبتان أبعد ما يكونان عن القسوة أو الصرامة . وانتهز الليبراليون هذه الفرصة للهجوم على تزمت الكنيسة الأنجليكانية وجعلوا من محاكمة ستون قضية رأى عام ظهر فيها هذا المهرطق وكأنه ضحية التنكيل والاضطهاد الدينى الغاشم .

غير أن عقاباً صارماً لحق بيونيتارى آخر يعمل صانعاً للأحذية اسمه دانييل اسحاق ايتون ليس بسبب معتقداته اليونيتارية ولكن بسبب ترويجه لأفكار توماس بين السياسية والتأليهية الهدامة . كان ايتون ناشراً وبائعاً للكتب يدعو إلى الأفكار الراديكالية فى مجال السياسة . وفى عام (١٧٩٣) قدمته السلطات الإنجليزية للمحاكمة بتهمة توزيع وبيع كتاب توماس بين «حقوق الإنسان» ثم عادت وبرأته من تهمة مماثلة عام ١٧٩٤ ولكنها نجحت فى إثبات هذه التهمة عليه فى العام التالى (١٧٩٥) الأمر الذى اضطره إلى الهروب إلى أمريكا حيث بقى أربعة أعوام عاد بعدها إلى بلاده لتزج به السلطات الإنجليزية فى السجن لمدة خمسة عشر شهراً وتصادر أملاكه وتأمر بحرق كتبه التى يقدر ثمنها بنحو ثلاثة آلاف جنيه استرلينى . ولم ينجح السجن فى إصلاحه إذ رجع إلى سابق حاله وأعاد نشر كتاب توماس بين المحظور «عصر العقل» . وفيما بعد نشر إيتون ملحقاً لكتاب «عصر العقل» الذى كان مؤلفه بين قد ألفه فى فترة هجرته إلى أمريكا . وفى عام (١٨١٢) رفعت محكمة الملك - وهى أعلى سلطة قضائية فى البلاد - قضية ضد إيتون . وتكونت هيئة المحلفين التى حاكمته من التجار الذين يؤمنون بالمسيحية إيماناً تقليدياً ولم يوكل إيتون محامياً للدفاع عنه فقد آثر أن يدافع عن نفسه بنفسه ، ولكن القاضى اللورد إلينبورو كان فظاً معه ولم يعطه أية فرصة لنفى تهمة التجديف الموجهة ضده . فقد أسكته القاضى بمجرد أن سمعه يقول إن الكتاب المقدس ملىء بالمتناقضات ولم يسمح له بالاستمرار فى الكلام أو شرح وجهة نظره متهما إياه بتسفيه المسيحية والحط من شأنها . واحتج إيتون على هذا الاتهام ودفع ببطلانه . فسمح له القاضى بعد لأى أن يقرأ خطبة تهدف إلى إثبات رحمة الله وأنه ليس الإله المنتقم الجبار كما يصفه لنا العهد القديم . ومع ذلك فقد اتهمه الادعاء بالتجديف وحكمت المحكمة عليه بأنه مذنب دون مراعاة لسنه التى تجاوزت الستين . وأمرت المحكمة بإيقافه فى المشهرة وإيداعه سجن نيوجيت لمدة ١٨ شهراً . ورغم ذلك لم يرعو إيتون فقد أصدر طبعة جديدة من «عصر العقل» كما نشر كتاباً مهرطقاً عن المسيح ألفه الفيلسوف الألمانى الملحد هولباخ . ولهذا حكمت عليه المحكمة بأنه مذنب ولكنها فى هذه المرة لم تقم بسجنه بسبب تقدمه فى السن وتدهور صحته تدهوراً أدى إلى وفاته عام (١٨١٤) . وأثارت قضية إيتون حنق الشاعر الرومانسى المعروف شلى الذى كان آنذاك فى العشرين من عمره فكتب مقالاً يدافع فيه عن حق الإنسان فى التعبير عن نفسه وآرائه بكامل حريته ويتهم القاضى المشار إليه بالظلم . والجدير بالذكر أن إيتون لم يحاكم أساساً بسبب إيمانه بالمذهب التأليهى بل بسبب الترويج لآراء بين الثورية

الهدامة .

ولا ينبغى أن تفوتنا الإشارة إلى الدور البارز الذى لعبه وليم سميث فى ترسيخ الحرية الدينية . كان وليم سميث رجلاً شديد الغنى يملك ثروة من الصور والرسوم واللوحات النادرة وعضواً مهماً فى البرلمان الإنجليزى عرف بدفاعه عن برامج الإصلاح الراديكالية مثل إلغاء تجارة العبيد وتوسيع نطاق حق الانتخاب والتمثيل النيابى السليم . ونذر نفسه لمدة عقود للمطالبة بإلغاء قوانين الاختبار التى سبقت الإشارة إليها حتى تتحقق الفرص المتساوية بين أتباع الكنيسة ومناهضيهم من المنشقين . ويرجع إلى زعامته الفضل فى نجاح الحملة الداعية إلى إباحة المذهب اليونيتارى المنكر للتثليث . وبلغ إيمانه بالحرية مبلغا جعله يذهب إلى أنه من حق كل إنسان أن يعبر عن رأيه بشأن الله . بل إن مشروع القانون الأصلى الذى تقدم به إلى البرلمان (الذى لم يوافق على كل تفاصيله) لم يسع إلى الاعتراف بشرعية المذهب اليونيتارى فحسب بل إلى الاعتراف بحق توماس بين وأتباعه فى الدفاع عن المذهب التأليهى . ورغم أن سميث نجح فى إقناع مجلس العموم بوجهة نظره فإن رئيس أساقفة كانتربرى حال دون موافقة مجلس اللوردات على مشروعه . ومع ذلك فقد وافقه رئيس أساقفة كانتربرى على رأيه المنادى بعدم اعتبار إنكار التثليث جريمة يعاقب عليها القانون . ومن ناحيته وافق سميث على رأى رئيس أساقفة كانتربرى بترك مسألة تجريم التجديف فى يد القانون العام حتى لا يتشجع الناس على التطاول على الله والدين . وبعد مداولات كثيرة ومشاورات طويلة دارت بين الرجلين وصلا إلى ضرورة معاقبة التجديف فى حق الله وليس فى حق المسيح أو الروح القدس . ورغم أن سميث لم يوافق على تسخير القانون لحماية الدين المسيحى والكتاب المقدس فإنه تنازل لرئيس أساقفة كانتربرى عن رأيه حتى يسمح هذا المسئول الدينى بإباحة إنكار المذهب اليونيتارى للتثليث . وعلى أية حال أراد سميث أن يتحاشى إغضاب الغيورين على الدين المسيحى . ولكن التنازلات التى قدمها سميث لرئيس أساقفة كانتربرى لم تكن كافية لإرضاء الحكومة الإنجليزية . فقد عبر اللورد الدون واللورد الينورا عن اعتراضهما على مشروعه وأصرا على أن يعيد سميث صياغته بحيث ينص فقط على إلغاء تلك الفقرات من القانون التى توقع العقاب على أتباع المذهب اليونيتارى ووعداه نظير ذلك بحث البرلمان للإسراع فى إصدار تعديله المقترح . ووافق سميث على هذه المساومة فانتقده الفيلسوف جيرمى بنثام ولامه على التنازلات التى قدمها للكنيسة والدولة . وهكذا بقى النص القانونى القديم قائماً الذى يعتبر المسيحية جزءاً لا يتجزأ من قانون البلاد . هذه هى الظروف التى ظهر فيها قانون التثليث الذى كان فى الأصل يسمى «قانون إعفاء الأشخاص الذين ينتهكون مذهب التثليث المقدس من توقيع بعض العقوبات المعينة عليهم» . وتنص الفقرة الأولى من هذا القانون على إلغاء المادة الموجودة فى قانون التسامح لعام (١٦٨٩) الخاصة بحرمان غير المؤمنين بالثالوث المقدس من المزايا ، كما أن الفقرة الثانية منه تنص على إلغاء المادة الموجودة فى قانون التجديف للعام نفسه (١٦٨٩) الخاصة بمعاقبة الأشخاص الذين ينكرون أياً من الأقانيم المقدسة الثلاثة . وأدى إجراء هذه التغيرات على قانون التسامح إلى أن يتمتع بهذا التسامح أتباع المذهب اليونيتارى الرافض للتثليث دون أن يحدد القانون الجديد هذا المذهب بالاسم . وعند تقديم مشروع القانون الجديد إلى مجلس

اللوردات لإقراره قال رئيس أساقفة كانتربرى إن الهدف من ورائه هو إلغاء العقوبات وإزالة المعوقات التى تقف فى طريق عبادة اليونيتاريين حتى يتمتعوا بما تتمتع به سائر الطوائف البروتستانتية من حرية الضمير فى تفسير الكتاب المقدس على النحو الذى يرون ، وأن هذا خير دليل على سماحة كنيسة إنجلترا .

ويمكن القول إن صدور قانون التثليث - رغم كل ما شابه من عيوب - كان بمثابة انتصار عظيم للمهرطقين من أتباع المذهب اليونيتارى فى إنجلترا . بل امتدت سماحة هذا القانون لتشمل غير المسيحيين مثل اليهود والمسلمين والتأليهيين واللا أدريين بل والملاحدة أنفسهم . ولكن العيب فى هذا القانون الجديد أنه بتأكيده للنص الوارد فى القانون الجنائى العام بأن المسيحية دين الدولة أتاح للقضاة المحافظين فرصة لمعاقبة اليونيتاريين وغيرهم وفقاً لما يتراءى لهم . ويؤكد علماء القانون الإنجليزى أن الحرية الدينية الكبيرة التى تمتعت بها إنجلترا لم تكن محصلة أى نص قانونى واضح وصريح خاص بحقوق الإنسان بل جاءت نتيجة غض كثير من القضاة النظر عن الفقرات الواردة فى القوانين بشأن محاسبة ومعاقبة المارقين على الدين . أى أنها حرية براجماتية مبنية على تعمد عدم الالتفات أو ما نسميه باللغة العربية الدارجة على «الاستعباط» . والعيب المهم فى اتباع هذه السياسة أنها تعتمد على مزاج القاضى وتفكيره . ومع هذا فلا مناص من القول بأن قانون التثليث كان خطوة كبيرة إلى الأمام وانتصاراً حقيقياً للحرية الدينية .

وفى نهاية العقد الثانى تقريباً من القرن التاسع عشر تعرضت الصحافة الإنجليزية للمضايقات نتيجة سياسة الحكومة بفرض ضرائب على أسعار الورق الأمر الذى جعل سعر الصحيفة يرتفع إلى ما يقرب من الشلن . وأراد الكاتب والصحفى الكبير وليم كوبيت (١٧٦٣ - ١٨٣٥) أن يوفر للشعب الفقير فرصة الإطلاع على الكتابات الراديكالية الداعية إلى الثورة والإصلاح فهداه تفكيره إلى الاحتيال على قانون الضرائب المفروضة على ورق الصحف بأن أصدر صحيفة فى ورقة كاملة غير مطوية تباع بنحو أربع بنسات . فأقبل الناس على شراء صحيفته الإصلاحية إقبالاً عظيماً وارتفعت أرقام توزيع صحيفته إلى أربعين ألف نسخة . فاقتدى به ووكر فى إصدار مجلته «القزم الأسود» ، فامتلأت لندن بمثيلات هذه الصحف والمجلات الراديكالية التى أغرى رخص ثمنها الفقراء بشرائها . وفى خلال العقد الثانى من القرن التاسع عشر أرادت الحكومة أن تستأصل شأفة المعارضة الراديكالية التى واجهتها وخاصة معارضة أنصار الثائر توماس بين الذين مزجوا فى كتاباتهم بين مهاجمة الفساد السياسى والاجتماعى والزراية بالدين المسيحى . ولاحظت الحكومة أن تقديم المعارضين للمحاكمة بتهمة القذف والتشهير سياسة لا تؤتى ثمارها لأنها فى العادة تبوء بالفشل وتنتهى ببراءة المتهمين فضلاً عن أن الرأى العام كان يحلو له أن يقرأ هجوماً على رجال الدولة والسياسة ولكنه كان يسخطه التطاول على الله والتجديف على الدين . ولهذا أصدر وزير الداخلية اللورد سيدموث عام (١٨١٧) أوامره إلى القضاة بتقديم المعارضين للحكومة بتهمة التجديف كلما أمكن ذلك وعدم الاكتراث كثيراً بتهمة القذف والتشهير .

وفى تلك الفترة كان كوبيت قد فر هارباً إلى أمريكا ليخلو المسرح تماماً أمام الثائر السياسى

اتهامه بالتجديف فاضطرت مرتين متتاليتين إلى تقديمه للمحاكمة بتهمة القذف والتشهير التى كانت المحكمة تبرئه منها فى كل مرة يمثل أمامها .

وظهر آنذاك صوت معارض آخر لقسيس يونيتارى اسمه روبرت أسبلاند الذى نشر مواعظه فى التجديف . وذهب فى هذه المواعظ إلى نفس ما ذهب إليه رجل القانون فيرنو من قبل وهو أن مبادىء المسيحية الحقة تتعارض مع تقديم أى مسيحى إلى المحاكمة بتهمة التجديف لأن التجديف علاقة بين العبد وخالقه . بل إنه استشهد برأى المؤرخ الوثنى الرومانى تاسيتوس القائل «دع الدينونة للديان» . ورأى أسبلاند أن الدولة ليس من حقها أن تحاسب أى مواطن على آرائه فى الدين مهما كانت هذه الآراء ، وأن معظم الذين تتهمهم الحكومة بالتجديف ليسوا مجدفين فى واقع الأمر بل هم أناس يختلفون مع الكنيسة فى فهمهم للدين وتفسيرهم له . وأصر أسبلاند على اعتبار الحرية كلا لا يتجزأ بمعنى أن الإنسان حر فى اعتناق ما يشاء من آراء ، وذهب إلى أن الرأى الذى يتبناه السواد الأعظم من أية أمة لا يبرر له استئصال أو استبعاد ما يخالفه فى الرأى ، لأن مصلحة المجتمع ككل تقتضى وجود مثل هذه الآراء المخالفة ، ودلل على ذلك بأن المجتمع كان يعتبر فيما مضى بعض الآراء مهرطقة ولكنه عاد واعتنقها . فضلاً عن أن الأغلبية كثيراً ما تتهم إنساناً بالهرطقة زوراً وبهتاناً . واعترف أسبلاند بأن الحرية تنطوى على بعض المحاذير من بينها احتمال التطاول على المقدسات . ولكنه رأى أنه ليس من حق الدولة أن تتدخل لردع هذا التطاول بل تترك أمر عقابه للخالق . ولم تكترث حكومة المحافظين آنذاك بمثل هذه الآراء فقد ألقت القبض فى عام (١٨١٧) على عشرات الناس وزجت بهم فى السجون لتضطر فى نهاية الأمر لتبرئتهم إما بسبب عدم ثبوت التهمة أو بسبب الضغوط الشديدة التى مارسها الليبراليون عليها ، مثل قضية قسيس يونيتارى من مدينة ليفربول اسمه جون رايت . فقد أثار تقديم الحكومة لهذا الرجل إلى المحاكمة عاصفة من الاستنكار رغم فداحة التهم الموجهة ضده وهى إنكار ألوهية المسيح والتثليث وخلود الروح وكذلك إنكار اليوم الآخر . وانبرى للدفاع المجيد عن رايت نفر من الليبراليين يتزعمهم الايرل جراى عضو مجلس اللوردات البريطانى . وأيضاً هاجم جراى بشدة الأوامر التى أصدرها للقضاة الإنجليز اللورد سيدموث للتنكيل بالمجدفين . وما كادت الحكومة البريطانية المحافظة تفرغ من مشكلة القس اليونيتارى جون رايت حتى واجهتها مشكلة أشد تعقيداً وأكثر تفاقماً . وهى مشكلة رجل شديد العناد والبأس والمراس اسمه وليم هون .

وليم هون (١٧٨٠ - ١٨٤٢) ———— ٨

بالرغم من عناده وصلابته لم يكن وليم هون يجنح بطبعه إلى المشاكسة أو يميل إلى المنازعات أو يحب الاستشهاد . بل كان ذا طبيعة سهلة تتحرق شوقاً إلى رفع الظلم عن كاهل المظلومين والمطحونين .

ولد وليم هون فى مدينة باث بإنجلترا بتاريخ ٣ يونية عام (١٧٨٠) فى عائلة بروتستانتية فقيرة وشديدة التدين تناصب العداء لمذهب الميثوديزم المقترن باسم المصلح الدينى

ولــد وليم هــون فى مــدينة بــاث بإنجلـتــرا بتـاريخ ٣ يونيــة عــام (١٧٨٠) فى عــائلة بروتستانتية فقيرة وشديدة التدين تناصب العداء لمذهب الميثوديزم المقترن باسم المصلح الدينى المعروف جون ويسلى . ومن فرط عداوة والديه لجون ويسلى دأبا على وصفه بالشيطان العجوز . ولكن الأيام جعلت وليم هون يغير موقفه من هذا الرجل ويدرك خطأه وخطأ عائلته فى حقه .

تلقى وليم هون تعليمه فى طفولته على يد مديرة مدرسة أرستقراطية تدعى السيدة بيتردج وبسبب جده واجتهاده أصبح الطفل أثيراً إلى قلبها . كان هون فى السادسة من عمره عندما حانت ساعة هذه السيدة العطوف فأصر على ملازمتها فى غرفتها وقت احتضارها وعندما جاء القسيس ليعطيها التناول الأخير لاحظ الصبى أن هالة من القداسة تحيط به . ولم تفارق ذاكرة الطفل طيلة حياته صورة القسيس وهو يضع يده الحانية على رأسه كى يباركه . ولما علم فيما بعد أن الشخص الذى باركه بكل ذلك الحنان ليس سوى الشيطان العجوز جون ويسلى رق قلبه نحوه وأدرك خطأ موقف والديه المتحيز ضده . فضلاً عن أن وليم كان بطبيعته يمقت التعصب الطائفى . فبالرغم من أنه منذ نعومة أظافره نشأ وترعرع فى بيئة بروتستانتية فقد قبل دعوة طفلة صديقة له للصلاة فى كنيسة كاثوليكية فوجد نفسه مفتوناً بجمال طقوسها وسحر شعائرها .

بدأ هون قراءة الكتاب المقدس فى طفولته بتشجيع من والديه ثم طالع رواية جون بنيان الدينية «رحلة الحاج» . وفى التاسعة من عمره التقى فى أحد أحياء لندن بواحد من معارفه الأطفال الذى أبلغه بأمر اندلاع الثورة الفرنسية وكيف هاجم الشعب فى باريس سجن الباستيل واستولى عليه بعد أن شنق مأمور السجن ، وكيف تم إطلاق سراح جميع السجناء فيه قبل هدمه بالكامل وتسويته بالأرض . والغريب أن الصبى هون تشرب منذ نعومة أظافره من أمه وخالته روح المحافظة والعداء للفكر الثورى والنظام الجمهورى . وليس أدل على ذلك من أنه سطر وهو فى الثانية عشرة من عمره قصيدة شعر ضد الثورة الفرنسية قام والده - من فرط إعجابه بها - بطبعها .

أظهر هون منذ يفاعته اهتماماً واضحاً بالمكتبات التى تبيع الكتب وخاصة مكتبة فى منطقة تشانسرى لين فى لندن يملكها رجل فى نحو الأربعين من عمره اسمه توماس سبنس . كان سبنس يعلن عن بيع الكتب والملازم التى يقوم بنشرها بنفسه . ويبدو أن هذا الرجل كان يميل إلى الأفكار الاشتراكية ويؤمن أن الشعب يجب أن يكون المالك الحقيقى للأرض . وقد صدمت مشاعر الصبى هون وهو فى الثانية عشرة من عمره عندما رأى يوم ٦ ديسمبر (١٧٩٢) بعض ضباط البوليس يقتادون سبنس إلى قسم الشرطة بتهمة أنه غشهم وباع لهم كتاباً من الشعر من تأليفه بعنوان «حقوق الإنسان» بدلاً من كتاب «حقوق الإنسان» (جزء ٢) لتوماس بين . ولم تمر أيام قليلة حتى أعاد البوليس القبض عليه لأنه باع كتاب توماس بين المحظور «حقوق الإنسان» . ثم علق البوليس تنبيهاً فى واجهة المحل مفاده أنه تم القبض على صاحب المكتبة والزج به فى السجن لأنه يبيع الكتب المهيجة للخواطر والمثيرة للفتن وأن ذلك تحذير لكل من يحذو حذوه . وفى الثالثة عشرة من عمره التحق وليم هون للعمل المضنى والشاق كناسخ فى مكتب المحامى نفسه الذى كان والده يعمل فيه . وترويحاً عن نفسه اعتاد الصبى الذهاب إلى المسرح دون علم والديه . ولاحظ الأب شدة اهتمام ابنه

بالقراءة فأعطاه نسخة من كتاب «التماس العذر للكتاب المقدس» . وهو كتاب ألفه الأسقف واتسون لتفنيد المحاجات التى ساقها توماس بين فى «عصر العقل» للدعوة إلى المذهب التأليهى . وعن طريق الرد وقف هون على وجهة نضر توماس بين التى تنكر الدين وتدافع عن المذهب التأليهى .

بدأ وليم هون حياته مؤمناً بالمذهب اليونيتارى فى فترة حداثته . وهو مذهب ينكر كما أسلفنا الإيمان بأن الأقانيم الثلاثة ليست سوى أقنوم واحد هو الله الأحد . عندما بلغ هون السادسة عشرة انضم إلى جمعية لندن للمراسلات التى سبق الإشارة إليها . وقد شاهدت تلك الفترة من تاريخ إنجلترا (التى أعقبت الثورة الفرنسية) عدداً ضخماً من مداهمات الشرطة لأصحاب الفكر الحر والزج بهم فى السجون . فعلى سبيل المثال ألقت الشرطة القبض أربع مرات على سبنس صاحب المكتبة الذى سبقت الإشارة إليه وقامت السلطات بسجنه ثلاث مرات فى خلال السنوات الثلاثة التى قضاها فى لندن . وفى عام (١٨٠١) مثل سبنس أمام المحكمة بتهمة الترويج للأفكار الهدامة فوقعت عليه غرامة قدرها خمسون جنيهاً وألقت به فى السجن لمدة عام كامل . وفى تلك الآونة كان عدد من أبرز مفكرى وكتاب إنجلترا مثل وليم كوبيت يقضون فترات عقوبتهم فى السجون .

تأثر وليم هون تأثراً واضحاً بأفكار روبرت أوين الاشتراكية معرضاً حياته للخطر والسجن والنفى خارج البلاد وتحقير السلطات له بوضعه فى المشهرة . ثم انتقل للعمل فى مكتب محام جديد يؤمن بالدين فى مدينة صغيرة بعيدة عن العاصمة اسمه جفريز ، أصر على ضرورة حضور وليم الصلاة فى الكنيسة كل يوم أحد . ولكن مواعظ القسيس المملة زادت من نفوره من الدين . فقرر فى سن الثانية عشرة أن يعود إلى لندن للاستزادة من الأدب . وهناك استأجر مسكناً فى بيت تعيش فيه أرملة تقية ورعة اسمها مسز جونسون لها ابنة جميلة وجذابة تدعى سارة . وبلغ مقت هون للدين المسيحى حداً جعله يرفض مرافقة هذه الفتاة (التى أصبحت زوجته فيما بعد) وأمها إلى الكنيسة . وفى عام (١٨٠٠) تزوج هون وهو فى العشرين من سارة ، وبعدها نبذ عمله ككاتب محام وافتتح دكاناً لبيع الأدوات المكتبية فضلاً عن بيع الكتب وإقراضها . غير أن هذا المشروع التجارى باء بالفشل الذريع لأن المكان الذى أقام فيه دكانه كان نائيا وغير مناسب . الأمر الذى دعاه إلى استئجار محل آخر أكثر قرباً من العمار حيث انتقل إليه هو وزوجته ورضيعهما . ويذكر أن هون قدر له أن ينجب أحد عشر طفلاً معظمهم من البنات . وبفضل حبه العميق للكتب استطاع أن يجتذب إلى دكانه عدداً كبيراً من الزبائن الذين أقبلوا على شراء الكتب منه . وبهذا استطاع أن يجمع ثروة كبيرة . ولكنه فشل فى الاحتفاظ بثروته التى بددها فى مشروعات تهدف إلى إصلاح المجتمع . فقد دفعته رغبته العارمة فى إصلاح المجتمع إلى إنشاء مكتب أسماه مكتب الهدوء فى ديسمبر (١٨٠٦) . واشترك معه فى تأسيس هذا المكتب زميل له فى بيع الكتب يدعى جون بون . وكان هدف هون من إنشاء هذا المكتب القيام ببعض الأعمال المصرفية مثل التوفير والتأمين وخلق فرص العمل . ورغم أن جون كان يعمل سكرتيراً لهذا المكتب دون أن يتقاضى عن عمله الإدارى أى أجر فقد انتهى هذا المشروع الإنسانى الطموح إلى إفلاس صاحبه لدرجة أنه أصبح عاجزاً عن دفع ايجار مسكنه الأمر الذى اضطره إلى الانتقال إلى بيت حماته ليعيش معها تحت سقف واحد . والغريب أن هذا الفشل

لم يفت فى عضده أو يقضى على تفاؤله . ولكن صحته أخذت فى التدهور فأصابته الحمى الروماتيزمية فى شتاء عام (١٨٠٨) كما أصاب الشلل يده اليمنى لعدة شهور مما اضطره إلى استخدام يده اليسرى فى الكتابة وإدارة أعماله .

ورغم انتصار الإنجليز على نابليون فى موقعة واترلو فإنهم شهدوا نحو عام (١٨١٥ - ١٨١٦) زيادة كبيرة فى عدد العاطلين عن العمل وقام العمال فى المصانع بتحطيم الآلات لأنها تسبب البطالة وتؤدى إلى الاستغناء عن الأيدى العاملة . وتعاظم السخط بين عدد من أفراد الشعب الإنجليزى فاعتنقوا الأفكار الثورية المتطرفة وآمنوا أنه لا سبيل إلى إصلاح المجتمع إلا عن طريق استخدام العنف وهو الرأى نفسه الذى انتهى إليه المتمرد توماس سبنس (المتوفى عام ١٨١٤) . ولكن الدعوة إلى الفكر الثورى ظلت منحصرة فى نطاق ضيق دون أن تجد استجابة عريضة من جمهور الشعب الذى فضل عدد منه أن يتقدم بالتماس بالإصلاح إلى ولى العهد . أما أتباع الثائر توماس سبنس أمثال آرثر تسيلوود ممن اختاروا سبيل الثورة والعنف فقد خططوا للاستيلاء على سجن لندن أو برج لندن الشهير والإطاحة بالحكومة التى تبث جواسيسها فى صفوف المتآمرين وهو ما مكنها من إحباط المؤامرة ضدها . وأيضاً خطط المتآمرون لعقد اجتماع شعبى كبير يتحدث فيه كبار زعماء الإصلاح ولكن هذه الخطة باءت بالفشل كذلك . فقد رفض معظم زعماء حركة الإصلاح التحدث فى الاجتماع الذى اقترح عقده فى ١٥ نوفمبر (١٨١٦) . والتمس أحد زعماء الإصلاح المتحمسين لعقد الاجتماع (وهو هنرى هنت) المشورة لدى المصلح المعروف وليم كوبيت فنصحه بتقديم وثيقة معتدلة فى لهجتها إلى البرلمان بحيث تخلو من الشطط الذى اتسمت به الوثيقة التى اعتزم الثائر تسيلوود تقديمها . وأرادت السلطة أن تنتهز هذه الفرصة لتمزيق شمل المتمردين والقبض على زعمائهم فتعمدت أن تنشر وثيقة تسيلوود المهيجة للخواطر وأن تتجاهل الوثيقة البديلة المعتدلة اللهجة . ويجدر بالذكر أن الثائر تسيلوود نجح فى ٢ ديسمبر عام ١٨١٦ فى الاستيلاء على سجن لندن المشار إليه . كما تمكن بعض أعوانه من الاستيلاء على بنك إنجلترا باستخدام بعض الأسلحة المسروقة ، ولكن نجاح هذا التمرد كان محدوداً للغاية فقد فشل فى اجتذاب الناس إليه . صحيح أن بعض أعمال العنف والنهب وقعت ، ولكن لهيبها سرعان ما انطفأ . وفى هذا الجو الذى يمور بالغليان الاجتماعى استطاع وليم هون أن يشق طريقه إلى عالم الشهرة والمجد كمعلق سياسى ساخر . فقد أصدر مجموعة من الكتيبات الصغيرة التى تسجل أحداث العنف فى تلك الفترة تحت عنوان «سجل دعاة الإصلاح» الذى اعتبره الراديكالى الثرى فرانسيس بلاس (١٧٧١ - ١٨٥٤) فى مرتبة كتابات وليم كوبيت . والجدير بالذكر أن هون فى تلك الفترة من حياته كان فى مسيس الحاجة إلى مساندة هذا الرجل الثرى الذى يخفى ثوريته ولا يعلن عنها .

ومما يدل على مدى الغليان الاجتماعى الذى عانت منه إنجلترا آنذاك أن ولى عهدها توجه إلى مجلس العموم لإلقاء كلمة تعبر عن عزمه على التصدى بقوة وحزم للتمرد وأعمال الشغب . وبعد أن انتهى من إلقاء كلمته انصرف من البرلمان فى عربته فتجمهر حوله جمهور غفير من الفقراء الساخطين . وقذف أحدهم نافذة العربة بحجر فأحدث كسراً فى زجاجها . وسارعت حاشية الأمير

بوضع قبعة فى مكان الزجاج المكسور . تعمد أعداء الإصلاح الاجتماعى تضخيم هذه الحادثة فزعموا أنها محاولة من جانب الإصلاحيين وأتباعهم لاغتيال مليك البلاد المزمع . ولم ينطل هذا الإدعاء على هون فسطر فى سجله سخرية لاذعة من هذا الافتراء الذى دلل عليه بقوله إن الزجاج المكسور كان نتيجة إلقاء حجر وليس نتيجة إطلاق رصاصة وإلا لما أمكن ملء الفراغ الناجم عن الكسر بقبعة . فلو كان هناك إطلاق رصاص بالفعل لما كانت هناك أية جدوى فى ملء هذا الفراغ بقبعة . وحققت هذه النبذةالساخرة نجاحاً وذيوعاً بين القراء فشجعه هذا على الاستمرار فى الكتابة الساخرة . فتجرأ ونشر ثلاث محاكات لـ «كتاب الصلاة العامة» تحمل العناوين التالية : «التعاليم الدينية الخاصة بالمرحوم چون ويلكس» و«عقيدة الحاصل على راتب دون أداء عمل» و«الطقوس السياسية» وفيها استغل هون القالب الأدبى المعروف بالمحاكاة فى السخرية من رجال الدولة والسياسة . ولكنه استقى محاكاته الأدبية من الدين المسيحى فبدا كما لو كان يتهكم عليه وعلى الكتاب المقدس . وانتهز المدعى العام هذه الفرصة السانحة للانقضاض عليه فقام بنفسه بتقديمه إلى المحاكمة بتهمة التجديف على مدى ثلاثة أيام متتالية . ففى اليوم الأول اتهمته المحكمة بالزراية بتعاليم كنيسة إنجلترا . وفى اليوم الثانى اتهم بالزراية بطقوسها وشعائرها . وفى اليوم الثالث اتهم بازدراء المذهب المسيحى . وفى اليوم الأول رأس الجلسة القاضى تشارلس أبوت . أما الجلستان الثانية والثالثة فقد كانتا برئاسة اللورد إلينبورا رئيس القضاة نفسه .

وفى مارس (١٨١٧) دبر البوليس لوليم هون مكيدة غاية فى السذاجة ، فقد أرسل إليه مخطوطة منشور تحمل التوقيع بالأحرف الأولى تحض الشعب على الثورة المسلحة ضد الحكومة . وحدد المنشور للثوار ساعة الصفر واصفاً لهم بدقة طريقة صنع المدى والمطاوى . ووعد الراسل هون بمكافأة مالية ضخمة نظير طباعة المنشور وتوزيعه فى أماكن محددة وعلى أشخاص معينين بحيث يصلهم جميعاً فى وقت واحد . وكانت المخطوطة تحمل عنوان «خطاب إلى الشعب» . وكما قلنا كانت حيلة البوليس لتوريطه ساذجة ولم تنطل على هون . فخشى على نفسه من أن يلقى البوليس القبض عليه وفى حوزته هذا المخطوط الذى يحرض بطريقة سافرة على الثورة المسلحة فتوجه على الفور لمقابلة الوزير المسئول لتسليمه المخطوط المثير للفتن . كان الوقت متأخراً واليوم سبتاً . ولما عجز عن مقابلة الوزير فى مقر عمله بادر بالذهاب إلى مسكن وكيل الوزارة المختص وسلمه المنشور .

وفى ٤ مايو (١٨١٧) خرج هون من منزله للتريض شيئاً فشيئاً على الأقدام . وأثناء سيره اشترى كتاباً قديماً ألفه فى القرن السابع عشر رجل دين يشتغل بالسياسة اسمه صامويل جونسون . وفى كتابه هاجم هذا الرجل البابا بضراوة شديدة . ويحمل هذا الكتاب عنواناً غير عادى فى طوله هو «محاجة تثبت أولاً أن الشعب الإنجليزى قام بالفعل بعزل الملك جيمس الثانى من العرش بسبب سوء حكمه ثم أتى بالأمير أورانج بدلا منه . كما ثبت أن هذا الإجراء يتفق مع الدستور الإنجليزى» . وفى ١٦ نوفمبر (١٦٨٥) ألقت السلطات القبض على هذا القسيس وعاقبوه بالوقوف أربع مرات فى المشهرة ، ويدفع غرامة كبيرة وجلده ٣١٧ جلدة . ولم يرتدع الرجل رغم قسوة هذا العقاب بل أصر على نشر الكتاب (الذى اشترى هون نسخة منه) فى عام (١٦٩٢) .

وأثناء عودة هون إلى بيته حاملاً الكتاب الذى اشتراه عنَّ له أن يقلب صفحاته فوقعت عيناه على فقرة استأثرت ببالغ اهتمامه . تقول هذه الفقرة : «هل يعقل أن يشنق نشال غلبان أو قاطع طريق فقير من أجل مبلغ ضئيل من المال بينما لا أحد يحاسب اللصوص الكبار الذين يسلبون الأمة بأسرها حياتها وحريتها وأراضيها وكل ممتلكاتها .» وفى تلك اللحظة فوجىء هون بانقضاض اثنين من ضباط البوليس عليه . وقال أحدهما له : «أنت سجينى . وتحت يدى إذن من القاضى بالقبض عليك .» وطلب هون منه أن يمهله برهة حتى يتمكن من إبلاغ زوجته بما حدث . ورغم أنه كان لا يبعد أكثر من بضع خطوات عن مسكنه فقد رفض البوليس أن يستجيب إلى طلبه مبرراً رفضه بعذر سخيف مفاده أن الكفالة المطلوبة للإفراج عنه باهظة . واستمر البوليس فى التعنت معه فلم يسمح له بالاتصال بمحاميه لاتخاذ إجراءات دفع الكفالة وفرض عليه محامياً آخر رغم إرادته . وظل هون فى الحبس يومين متتاليين دون أن يتمكن من دفع الكفالة بل دون أن يعرف حقيقة التهم الموجهة ضده . وزاد من توتره العصبى وسوء حالته الذهنية والنفسية عدم السماح له بقضاء حاجته لمدة عدة أيام . ثم أقتيد للمثول أمام قاضى محكمة الملك فى ويستمنستر وفى الطريق عجز هون عن التحكم فى نفسه تماماً وكاد يغمى عليه . ووجهت إليه ثلاث تهم تدور جميعها حول تجديفه وتطاوله على الدين فى ثلاث من كتاباته أولها «التعاليم الدينية الخاصة بالمرحوم جون ويلكس» التى وصفها الادعاء بأنها محاكاة ساخرة لتعاليم المسيحية تهدف إلى التعريض والزراية بكتاب الصلاة العامة وكنيسة إنجلترا التى يقرها القانون . ووجه الإدعاء الاتهام الثانى إلى ما نشره هون بعنوان «الطقوس السياسية» التى وصفها الادعاء بأنها «تشهير وتجديف من شأنه أن يغضب الله العلى القدير غضباً شديداً ويزدرى طقوس كنيسة إنجلترا التى يقرها القانون .» أما التهمة الثالثة فقد وجهها الادعاء ضد ما سطره هون بعنوان «عقيدة الحاصل على راتب دون أداء عمل» التى وصفها بأنها «تشهير وتجديف يميل إلى التعريض والزراية بجزء آخر من القداس (يعرف بعقيدة القديس إثنا سيوس) كما ورد فى كتاب الصلاة العامة .» وطالب هون المحكمة بإعطائه نسخاً تفصيلية من الاتهامات الثلاثة التى يوجهها الادعاء ضده . ولكن المحكمة رفضت طلبه على أساس أن استنساخ هذه الاتهامات سوف يكلفها ما لا طاقة لها به . ورغم كل ما تعرض له هون من خسف واضطهاد فقد استمر حتى وهو فى زنزانته فى إصدار «سجل دعاة الإصلاح» .

عندما قدم الادعاء هون إلى المحاكمة لأول مرة يوم ١٨ ديسمبر (١٨١٧) كان ذلك الرجل محدود الشهرة ولكن شهرته ما لبثت أن طبقت الآفاق بعد انقضاء ثلاثة أيام فقط من بدء محاكمته . وهى الأيام الثلاثة التى مثل فيها هون ثلاث مرات متتالية أمام القضاء للدفاع عن نفسه ضد التهم الموجهة إليه والتى سبق لنا الإشارة إليها . فقد صار بين عشية وضحاها بطلاً قومياً يشار إليه بالبنان عندما فشلت الحكومة الإنجليزية فى إلصاق تهمة التجديف به فاضطرت إلى تبرئته وإخلاء سبيله .

وبمجرد خروجه من المحكمة مظفراً استقبله ما لا يقل عن عشرين ألف مواطن من سكان لندن بالتهليل والتكبير . بل إن المتعاطفين معه من دعاة الإصلاح نجحوا فى أن يجمعوا له مبلغ ثلاثة آلاف جنيه استرلينى تعبيراً من جانبهم عن تقديرهم للدور المجيد الذى لعبه فى الدفاع عن الدستور وحق

المظلومين والمطحونين وحرية الصحافة .

تناولت محاكمة هون محاكاته الثلاث لمقدسات العقيدة المسيحية على نحو ساخر وهازىء ، مثل «تعاليم الكنيسة» و«صلاة أبانا الذى فى السموات» والوصايا العشر وتحويلها إلى : «لا تعتبر إماتة إنسان جوعاً جريمة قتل . . . ولا تقل إن نهب ممتلكات الجمهور سرقة» . كما أنه حول صلاة «أبانا الذى فى السموات» إلى «أبانا الذى فى وزارة الخزانة مهما يكن اسمك فليظل سلطانك ولتكن مشيئتك فى جميع أنحاء الإمبراطورية . . .» حتى الثالوث المقدس لم يسلم من محاكاته الساخرة بهدف التهكم من رجال الدولة والسياسة فى إنجلترا فى عصره .

دافع هون عن نفسه ضد توجيه الاتهام إلى محاكاته الساخرة بقوله إنه ليس هناك موجب لمحاكمته لأنه توقف تماماً عن بيعها للجمهور فى الشهور التسعة الأخيرة أى قبل إحالته إلى المحكمة بنحو ثلاثة شهور . فضلاً عن أنه نفى عن نفسه تهمة الاستهزاء بالدين قائلاً إن محاكاته تستخدم الشكل الدينى للتعبير عن مضامين سياسية . فالذى يعنيه فى المقام الأول والأخير السخرية من رجال السياسة فى بلاده . وفى المحاكمة الأولى جاء فى عريضة الاتهام أن كتابه عن التعاليم الدينية يتضمن تعريضاً بكتاب الصلاة العامة الذى أصبح منذ أن تولى الملك تشارلس الثانى العرش جزءاً من كنيسة إنجلترا كما يقر بذلك القانون الإنجليزى . واحتج هون فى مرافعته عن نفسه بأن القانون الإنجليزى لا يعتبر كنيسة إنجلترا العقيدة المسيحية الوحيدة فى البلاد . فهذا القانون يسمح بأشكال أخرى للعبادة المسيحية . بل إنه ألغى فى عام (١٨١٣) العقوبات الخاصة بطائفة اليونيتاريين المنادين بأن الله أقنوم واحد وليس ثلاثة أقانيم فى إله واحد .

عندما مثل هون أمام المحكمة بدأ كاتبها فى تلاوة المحاكاة الدينية الساخرة موضوع الاتهام فارتسمت أمارات الغبطة على وجوه الحاضرين فقد كانت المحاكاة ذكية ولاذعة تستخدم لغة الصلاة مثل «أبانا الذى فى السموات» على نحو فكه . وكانت خفة دم هذه المحاكاة فى نقد الوزارة وزعماء الحكومة سبباً فى حسن استقبال الجمهور لها وتعاطفهم معها ومع مؤلفها . ومما زاد من عطف جمهور الحاضرين على هذا المؤلف أنه كان فقيراً ومسكيناً فى مظهره وملبسه ولا يستعين بخبرات المحامين ورجال القانون ولم يكترث القاضى كثيراً بشكواه من الأسلوب الظالم والمجحف الذى اتبعته السلطات فى القبض عليه . ولكنه تدخل لإسكاته عندما تعرض لتشكيل قائمة المحلفين ، وعندما قال له القاضى إن تشكيل هيئة المحلفين ليس من الأمور التى تعنيه ، أجاب المتهم بأن براءته أو ذنبه يعتمد على رأى المحلفين فيه ، وراق هذا الرد لأحد المحلفين فعبر عن تأييده له . وهكذا بدأ هون دفاعه بأن نجح فى اجتذاب بعض المحلفين إلى صفه . وأيضاً اتبع هون فى الدفاع عن نفسه أسلوباً آخر ، فقد أحضر معه إلى قاعة المحكمة عدداً كبيراً من الكتب القديمة والجديدة للاستشهاد بأن محاكاة الكتاب المقدس وكتاب الصلاة العام على نحو فكه وساخر لا تعنى التجديف . فضلاً عن أنها تقليد إنجليزى راسخ وقديم لجأ إليه رجال الدين والسياسة لنقد ما يرونه من أوضاع خاطئة ودلل هون على ذلك بمحاكاة لغة مزامير داود التى استحدثها المصلح البروتستانتى المعروف مارتن لوثر كما دلل بمحاكاة «أبانا الذى فى السموات» التى ألقاها من فوق المنبر عام (١٦١٥) رئيس قساوسة

كانتربرى للسخرية من بابا روما ، وفيها يقول : «أبانا الذى فى روما ملعون هو اسمك . . . إلخ ، فانفرجت أسارير المحلفين عند سماعهم هذا الهزل الساخر اللطيف . وأضاف هون أن أحد وزراء الدولة واسمه جورج كاننج وأيضاً الشاعر الدينى المعروف جون ميلتون قاما بمحاكاة الكتاب المقدس دون أن يلومهما أحد على ذلك . وأكد المتهم أنه يؤمن بالعقيدة المسيحية وأنه لا يسعى إلى الزراية بها والتحقير من شأنها . ولما لاحظ ممثل الادعاء أن الجمهور والمحلفين يظهرون تعاطفاً مع هون قاطعه لمنعه من تلاوة محاكاة أخرى مماثلة فيما يلى نصها : «أبانا المتزوج من أمنا ، الذى فى باريس . ملعون اسمك . مملكتك نائية وبعيدة عنا . لتكن مشيئتك فى غير السماء وفى غير الأرض» وعندما احتج المدعى العام على هذه المحاكاة الدينية الساخرة برهن له أنها محاكاة نشرتها جريدة حكومية رسمية عام (١٨٠٧) وحين نبهه القاضى أن الخطأ لا يبرره ارتكاب خطأ مماثل رد هون بقوله إنه لم يفعل غير ما فعله بعض رجال الدين والدولة الذين سطروا المحاكاة . وكما أسلفنا أنكر هون أنه يرمى من وراء محاكاته الدينية الساخرة إلى الزراية بالدين وإنه لو كان ذلك مقصده لما امتنع عن نشر وتوزيع محاكاته رغم شدة الطلب عليها والمكاسب المادية الأكيدة التى سوف تعود عليه من ورائها . وفى المحاكمة الأولى ظل هون يدافع عن نفسه أكثر من خمس ساعات وفى الثانية أكثر من ست ساعات وفى الثالثة أكثر من ثمانى ساعات . وفى نهاية المرافعة فى المحاكمة الأولى انسحب المحلفون من قاعة المحكمة لمدة خمس عشرة دقيقة للتداول والتشاور ثم عادوا بعدها ليصدروا حكماً بالإجماع بأنه غير مذنب . وكانت هذه الجولة الأولى التى انتصر فيها هون على أعدائه وشانئيه .

غير أن هذا لم يفت فى عضد المحكمة التى لم ترحم إرهاق المتهم فأعلنته بضرورة مثوله فى الساعة التاسعة والنصف من صبيحة اليوم التالى لمحاكمته على محاكاته الثانية التى تسخر من الطقوس الكنسية . وكان يوماً مشهوداً فقد تجمعت حشود الناس خارج المحكمة وسدت كل الطرق المؤدية إلى مدخلها . ولم تسمح المحكمة إلا بدخول عدد محدود للغاية منهم . وفى المحاكمة الثانية غيّر الإدعاء أسلوبه فى الهجوم على هون فوجه إليه تهمة القذف والتشهير بولى العهد ومجلس العموم ومجلس اللوردات بدلاً من اتهامه بالتجديف كما حدث فى المحاكمة الأولى . وعند تلاوة أجزاء من هذه المحاكاة على مسامع الحاضرين استقبلوها بالإعجاب والتهليل لدرجة أشعرته بالحرج فالتفت إلى القاضى ليعتذر له زاعماً أن تهليل الجماهير له ليس تعبيراً عن إعجابهم به بل عن نقمتهم عليه . وأكد هون من جديد أن كتابة المحاكاة تقليد راسخ فى بريطانيا . وفى نهاية المرافعة انسحب المحلفون لساعة وثلاثة أرباع الساعة ثم عادوا ليعلنوا براءته من التهمة الثانية فدوت المحكمة بتصفيق حاد يصم الآذان . وتدفق الناس خارج المحكمة وهم فى شدة الابتهاج بقرار المحلفين . ولم يكن فوزه على أعدائه بالأمر السهل هذه المرة فقد بدا عليه الإعياء والارهاق واضحين بسبب الإنهاك الذى حل به من جراء الدفاع عن نفسه لساعات متصلة خلال يومين متتالين .

وساء المحكمة بطبيعة الحال أن يحصل المتهم على الحكم بالبراءة مرتين متعاقبتين فلم تتركه يهنأ بفوزه : فقد أبلغته قبل انصرافه أنه يتعين عليه المثول أمام المحكمة مرة ثالثة لمحاكمته على محاكاته

«عقيدة الحاصل على راتب دون أداء أى عمل» . واتهمه الادعاء هذه المرة بالتشهير بقداس القديس إثناسيوس كما تقره كنيسة إنجلترا ورغم حساسية التهمة فقد استمتع الحاضرون بتلاوة هذه المحاكاة فى المحكمة وغمرهم شعور بالمرح والانشراح . وفى معرض دفاعه عن نفسه ذكر هون أنه لم يفعل أكثر من محاكاة كتب الصلاة العامة فى حين أن أحد المسئولين فى وزارة اللورد ليفربول - وهو جورج كانج - قام بنفسه بمحاكاة الكتاب المقدس ورسم صورة كاريكاتورية ساخرة للسياسى الإنجليزى المعروف وليم بت تحت عنوان «وشاح ليشع» .

ولم تألُ المحكمة جهداً لسحقه تحت وطأة الإنهاك والإعياء فقد بلغ عدد الساعات التى ترافع فيها عن نفسه مايزيد على الواحدة والعشرين ساعة خلال الأيام الثلاثة المتعاقبة . ورغم أن الإدعاء وصف محاكاة «عقيدة الحاصل على راتب دون أداء عمل» بأنها تفوق عمليه الآخرين فى بذاءتها وانتهاكها لأعراف الدين والأخلاق ، فإن المحلفين لم يستغرقوا أكثر من عشرين دقيقة فى محاكمته الثالثة للوصول إلى إجماع بأن مؤلفها غير مذنب . وهكذا خرج هون منتصراً وظافراً من معاركه الثلاث التى خاضها من أجل الإصلاح ضد الرجعية والظلام . وأصبح الرجل بلا تمهيد أو مقدمات بطلاً قومياً . ولو أنه أراد أن يستغل هذا المجد الشخصى استغلالاً مادياً أو سياسياً لما وجد أية صعوبة غير أنه كان رجلاً من طراز فريد يؤثر الدفء العائلى على الثروة والجاه . وأراد ربيبه القديم فرانسيس بلاس أن يمد إليه يد العون لتعويضه عن الخسائر التى تكبدها من جراء محاكمته فدعا إلى عقد اجتماع فى حانة لندن فى ٢٩ ديسمبر (١٨١٧) تحدث فيه عدد من زعماء الإصلاح مشيدين بالدور المجيد الذى لعبه هون فى الدفاع عن قضية الإصلاح ثم قرروا فتح باب الاكتتاب العام لمساعدته فى محنته . وساهم فى هذا الاكتتاب الناقد والأديب الرومانسى لى هنت معتذراً عن ضآلة المبلغ الذى تبرع به لضيق ذات اليد . والغريب أن عدداً من رجال الدين وقفوا بجانبه لأنهم أحسوا بصدقه وإخلاصه وتحامل المحكمة ضده فلولا نزاهة المحلفين لما تردد الادعاء والقاضى فى الفتك به .

وفى الفترة التى أودع فيها هون سجن محكمة الملك بوستمنستر التقى هون بمطبعجى يصغره بخمسة أو ستة أعوام وينحدر من منطقة يوركشير اسمه توماس جوناثان وولر . غادر وولر يوركشير واستقر فى لندن حيث لفت الأنظار إليه بدعوته إلى الإصلاح . وفى لندن أصدر وولر مجلة إصلاحية اسمها «القزم الأسود» (سبق الإشارة إليها) فى ٢٩ يناير (١٨١٧) بتمويل من بعض المتحمسين لقضية الإصلاح . وساهم وولر بنفسه فى تحريرها وظهر العددان الأول والثانى من المجلة دون أية مشاكل . ولكن بصدور العدد الثالث بدأت المشكلات تجابهه بعد أن صرح فى كتاباته بأن حق المتهم فى الالتماس لم يكن أبداً منحة من الحاكم للمحكوم فقد انتزعه الشعب البريطانى انتزاعاً - عن طريق استخدام العنف - من براثن الملك جون والملك تشارلس الأول والملك جيمس الثانى . ولهذا ألقت السلطات القبض عليه واتهمته بالقذف والتشهير ضد هؤلاء الثلاثة من ملوك إنجلترا الأموات . ثم وجه إليه الادعاء اتهاماً آخر مفاده أنه يشهر بالوزراء البريطانيين ويصفهم بالأنانية وخدمة مصالحهم الخاصة وعدم الاكتراث بمصالح الشعب .

وقد تعلم هون من دفاع المحامى الإصلاحى بيرسون عن موكله وولر أن الهجوم خير وسيلة

للدفاع . فقد اكتشف بيرسون أن قائمة المحلفين التى أعدتها المحكمة للحكم على وولر غير دقيقة . كما اتضح له أن قائمة المحلفين من طبقة التجار فى لندن تضم ٤٨٥ محلفاً ثبت من الفحص والتمحيص أن ٢٢٦ منهم غير مؤهلين للعمل كمحلفين لجملة أسباب منها فساد البعض وموت البعض الآخر فطعن فى سلامة هذه القائمة الأمر الذى اضطر المحكمة إلى الإفراج بكفالة عن موكله وولر وعن هون أيضاً . ولكن السلطات مالبثت أن قدمته للمحاكمات الثلاث على نحو ما فصلنا .

ويرجع الفضل إلى هون فى ترسيخ أقدام الحرية الدستورية وحرية الصحافة وأيضاً حرية محاكاة الدين بهدف السخرية . أضف إلى ذلك أن محاكمات هون الثلاث كشفت النقاب عن قذارة العمل السياسى فى إنجلترا كما أماطت اللثام عن فساد الحكم ونبهت الأذهان إلى أن الساسة يسخرون الدين لخدمة أغراضهم الدنيئة فهم لا يتورعون عن إلصاق تهمة التجديف بمناوئيهم بغية تصفيتهم والتخلص منهم .

وبعد محاكماته الثلاث توقف وليم هون تماماً عن المحاكاة الدينية وانصرف إلى المحاكاة السياسية فألف محاكاة بعنوان «البيت السياسى الذى بناه جاك» أصاب شعبية هائلة وبلغ توزيعها مائة ألف نسخة فى أربعة أعوام . ورغم تدهور صحته فى أيامه الأخيرة فقد انتهى من تأليف كتاب بعنوان «العهد الجديد المشكوك فى سلامته» الذى استقبله استقبالاً سيئاً المؤمنون وغير المؤمنين على حد سواء . كما انتهى من إعداد كتاب آخر بعنوان «وصف الأسرار القديمة وخاصة مسرحيات المعجزات الإنجليزية» والجدير بالذكر أنه أنشأ دار نشر فى الفترة الأخيرة من حياته وأن حدة ثوريته خفت على مر الزمان فقد تخلى عن حماسه للثورة الفرنسية وعاد إلى شىء من محافظته الباكرة التى غرسها فيه والده . ومن ثم ذهب إلى أن الإصلاح الذى أدخلته إنجلترا على نظامها عام (١٨٣٢) كاف ويفى بالغرض المطلوب .

وفى عام (١٨١٥) أصابت هون جلطة فى الدماغ وبدأ عام (١٨٢١) يعانى الهلوسة فتراءى له يوماً ما أنه يرى نفسه يسير فى جانب من فليت ستريت فى حين أن نصفه الأعلى يسير على الجانب الآخر من هذا الشارع . وازدادت حالته سوءاً عندما أحجم عن دخول بيته لأنه تراءى له أن حائطاً من النيران يحيط به . ولولا أن ابنته أخذت يده وساعدته على دخول البيت لعجز عن ذلك . وفى سن الثانية والخمسين شعر بالمرض والشيخوخة ينهشان فى جسده . ونكب بوفاة اثنين من أبنائه فى عرض البحر وتهشم رأس ابنه الثالث فى حادث طريق بلندن . والغريب أن هون الذى بدأ حياته تأليهياً ينكر الأديان المنزلة آمن فى آخر أيامه بإله الكنيسة الكاثوليكية الذى اعتبره إلهاً يبارك الإصلاح . ويرجع الفضل فى ذلك التغير إلى الأثر الذى تركه فيه قسيس يدعى ت . نبنى . وقبيل وفاته فى فاقة وعوز أصابه الشلل . وظل يعيش على معاش غاية فى الضآلة قدره جنيه واحد فى الأسبوع وذلك فى الفترة من ١٨٣٨ حتى وفاته عام ١٨٤٣ .

وكان هناك حينذاك داعية بارز آخر من دعاة الإصلاح يدعى ريتشارد كارليل سوف نتناوله فى الصفحات التالية . فقد استاء كارليل من مشاهدة هون يتوخى الحذر بسبب حرصه على مستقبل عائلته الكثيرة العدد وعياله الكثيرين البالغ عددهم ثمانية أطفال فاتهمه بالجبن والتقاعس والتخاذل .

الكائن بالعقار رقم ١٨٨ فى فليت ستريت كما يقوم ببيعه كل الذين لا يخشون إغضاب وزارة حكومة جلالة الملك وجواسيسها ومخبريها أو يخشون إغضاب اللصوص والناهبين فى شتى الملل والنحل . وهو من مطبوعات (١٨١٧) . وثمنه بنسان . .» .

وبطبيعة الحال لم تسكت السلطة على استفزاز ريتشارد كارليل لها فبادرت بالقبض عليه وحبسه دون محاكمة .

والجدير بالذكر أن هون الذى نذر حياته لمحاربة المظلومين شعر بعطف شديد نحو أحد ضحايا الحكومة وهو بائع كتب فى لندن اسمه روبرت سويندلز الذى لحقت به أضرار جسيمة من جراء قيامه ببيع كتب هون التى تحاكى الدين على نحو ساخر . فضلاً عن تعرضه لاعتداء بعض الأفراد عليه . ففى منتصف ليلة ١٠ مارس (١٨١٧) كان سويندلز نائماً مع زوجته الحامل وطفله البالغ من العمر عشرة شهور عندما سمع طرقاً عنيفاً كاد الباب ينخلع تحت شدته ، ففتح النافذة ليسأل عن الطارق ، فأجابه صوت بعض الأفراد الذين زعموا أنهم رجال البوليس وحتى يتخلص من شدة الطرق أشارت الزوجة على زوجها سويندلز أن يفتح لهم الباب ويسمح لهم بالدخول فإذا بجماعة من السكارى المسلحين بالعصى يقتحمون داره ويعبثون ويفتشون فى أرجائه دون أن يكون معهم إذن من النيابة بذلك . وهدد هؤلاء الأوغاد سويندلز وزوجته بالويل والثبور وعظائم الأمور ثم انصرفوا وهم يحملون لفافة من الأوراق والكتيبات وسط فزع الزوجة ورعبها الأمر الذى أصابها بصدمة عنيفة أودت بحياتها بعد وقت قصير . وتقدم سويندلز بشكوى ضد الذين اعتدوا على حرمة بيته وأصابوا زوجته المسكينة بالهلع ولكن المعتدين استطاعوا الانتقام منه بإثارة البوليس ضده فأصدرت الشرطة أمراً بالقبض عليه بتهمة إثارة القلاقل وأيضاً بتهمة نشر محاكاتى هون الساخرتين «الطقوس السياسية» و«العقيدة السياسية» اللتين وصفهما الادعاء بأنهما يتضمنان قذفاً بجلالة الملك وحكومته . وكتب هون يحتج على معاملة سويندلز وزوجته على هذا النحو الظالم الأمر الذى كان سبباً فى وفاتها ووفاة رضيعها . وكانت قضية سويندلز آخر قضية قيض لهون أن يتصدى للدفاع عنها فى «سجل دعاة الإصلاح» بعد أن سحب ربيبه الثرى تمويل نشر هذا السجل ما اضطر هون إلى التوقف عن إصداره . وفى تلك الأثناء قام وولر وريتشارد كارليل بنشر مجلتين منافستين هما «القزم الأسود» و«الجمهورى» على التوالى واستطاعت هاتان المجلتان أن تحلا محل «سجل دعاة الإصلاح» الذى توقف هون عن اصداره .

ريتشارد كارليل (١٧٩٠ - ١٨٤٣) ــــــــ ٩

إذا كان الفضل فى ترسيخ أقدام حرية الصحافة يرجع قيراطاً إلى هون فإن الفضل الأكبر فيه يرجع أربعة وعشرين قيراطاً إلى ريتشارد كارليل الذى بلغت سنوات حبسه عشر سنوات ست منها بتهمة التجديف بسبب نشره كتاب توماس بين «عصر العقل» . ويعتبر ريتشارد كارليل ودابليو ت . شيروين من أبرز الإصلاحيين الذين تأثروا بتوماس بين وساروا على دربه .

ولد كارليل عام ١٧٩٠ فى منطقة ديفون بإنجلترا من أب سكير يعمل راتقاً للأحذية وموظفاً فى

شيروين من أبرز الإصلاحيين الذين تأثروا بتوماس بين وساروا على دربه .

ولد كارليل عام ١٧٩٠ فى منطقة ديفون بإنجلترا من أب سكير يعمل راتقاً للأحذية وموظفاً فى الضرائب ومدرساً وجندياً . ومات الوالد قبل أن يبلغ طفله الرابعة من عمره وتأثر بسكر والده لدرجة أنه استبشع الخمر وعافها طيلة حياته . وبعد وفاة والده تولت أمه تربيته وتربية أختيه الكبريين .

تلقى الطفل ريتشارد تعليمه الأولى فى مدرسة أشبيرتون حتى الثانية عشرة من عمره . وبسبب إلمامه الضئيل باللغة اللاتينية ألحقه أحد الصيادلة فى مدينة إكستر كصبى يساعده فى صيدليته . ولكنه لم يستمر فى هذا العمل غير فترة قصيرة للغاية .

ثم اشتغل كصبى فى ورشة بمدينة إكستر لصناعة الصفيح . ولا يذكر كارليل فترة تدريبه لدى ورشة الصفيح بالخير . فهو يقول عنها إن صاحب الورشة لم يعلمنى أى شىء أستفيد منه لنفسى . وكل ما كان يهمه من أمرى أن ينتزع منى أكبر قدر من العمل مقابل أقل قدر من الطعام . وفى أيامه اللاحقة أكد كارليل بشاعة السنوات السبع التى قضاها فى ورشة صنع الصفيح لدرجة أنه فضل عليها فترة الحبس التى أمضاها فى سجن دور ستشير .

شب ريتشارد كارليل فى أعقاب الثورة الفرنسية التى استقى معرفته بها من جماعة من التأليهيين المتحمسين لهذه الثورة من مجلدى الكتب . وكان الصبى آنذاك أصغر من أن يفهم المذهب التأليهى ويدرك الفروق بينه وبين الدين المسيحى الذى ترعرع فى ظله . أما توماس بين الذى صار فيما بعد مثله الأعلى فإنه فى صباه لم يعرف عنه سوى اسمه وسوى اشتراكه فى حرق صورته فى إحدى المناسبات .

وفى عام ١٨١١ رحل إلى لندن حيث عمل مرة أخرى فى صناعة الصفيح غير أن كساد هذه الصناعة آنذاك اضطره للعودة إلى إكستر . ثم انتقل كارليل للعمل فى عدة موانىء إنجليزية - بليموث وبورتسموث وجوسبورت . وفى جوسبورت التقى بامرأة حسناء تدعى جين تكبره بسبع سنوات فتزوج بها عام ١٨١٣ بعد شهرين فقط من أول مقابلة معها . ثم عاد مع زوجته إلى لندن ليستمر فى عمله القديم فى ورشة صناعة الصفيح ، التى أتقنها بشكل ملحوظ ، وترجع بداية اهتمامه بالسياسة إلى عام ١٨١٦ انصرف بعدها إلى قراءة كل ما يقع تحت يديه من كتابات سياسية . وكان زمناً يمور بالثورة والتمرد وتشيع فيه أفكار الثورة الفرنسية .

وأراد كارليل أن يجرب قدرته على الكتابة فى الصحف والمجلات ولكن تعليمه المحدود حال دون ذلك . ولهذا قوبلت كتاباته العنيفة بالرفض فلم يرد هذا الرفض إلى ضآلة علمه بل إلى جبن رؤساء التحرير . وعندما أصدر المصلح وولر مجلة «القزم الأسود» رأى فيها كارليل أمله ومثله الأعلى وغاية ما يصبو إليه . وبلغ إعجابه بها حداً جعله يتداولها مع زملائه من العمال ودعاة الإصلاح ، بل إنه اقترض يوم ٩ مارس ١٨١٧ جنيهاً استرلينياً اشترى به مائة نسخة من هذ المجلة وجاب أنحاء لندن ليعرضها للبيع فى الشوارع . وتجشم فى سبيل هذا أشق الصعاب دون أن يدر عليه ذلك أدنى ربح يذكر . فقد اضطر أحياناً إلى السير خمسة وثلاثين ميلاً فى يوم واحد ليربح ١٨

بنساً .

وبعد فترة وجيزة قام وليم ت . شيروين (صاحب مجلة «السجل السياسى الأسبوعى» والذى تأثر منذ يفاعته براديكالية توماس بين) بإصدار مجلة انتقادية ساخرة تدعى «الجمهورى» على غرار مجلة «القزم الأسود» . وراقت لكارليل اللهجة العنيفة التى تميزت بها مجلتا «القزم الأسود» و«الجمهورى» فسعى ما وسعه السعى لتوزيعهما وترويجهما . غير أنه لم يكترث بتوزيع مجلة «السجل الإصلاحى» التى كان وليم كوبيت يصدرها بلغة يغلب عليها الاعتدال وهدوء النبرة . وبعد أن أصدرت الحكومة مجموعة من القوانين المكبلة للحريات وإيقاف العمل بمقتضى قانون الهابيوس كوربوس - وهو اصطلاح لاتينى معناه وجود جسم الجريمة قبل توجيه الاتهام لأى إنسان - تم القبض على المطبعجى ستيجيل الذى قام بطباعة مجلة وولر «القزم الأسود» . وعرض كارليل على وولر أن يحل محل ستيجيل المقبوض عليه ولكن وولر رفض هذا العرض لأنه رأى فى نفسه القدرة على أن يتولى طباعة مجلته بنفسه .

وأراد شيروين أن يتجنب المشاكل الناجمة عن النشر فتحرى عن كارليل حتى اطمأن إلى إخلاصه وعرض عليه أن يتولى إدارة مطبعته وإصدار مجلته «السجل السياسى الأسبوعى» نظير أن يدفع كارليل لشيروين مبلغ ثمانية جنيهات شهرياً . وهكذا أصبح كارليل بين عشية وضحاها ناشراً من حقه أن يصدر المجلة لحسابه وبالطريقة التى يراها . وأتاح هذا لشيروين فرصة التفرغ للكتابة تاركاً لكارليل مسئولية إصدار المجلة وما تنطوى عليه هذه المسئولية من مخاطر . ومن ناحيته قام كارليل بتشجيع شيروين على الاستمرار فى الكتابة المثيرة والملتهبة واعداً إياه بنشرها دون أن يكشف لأحد عن اسم كاتبها . ولعلنا نذكر أن وليم هون آثر أن يسحب محاكاته من النشر حتى يتجنب تنكيل الحكومة به . ولكن هذا لم يمنع بعض الناشرين من طبعها وتوزيعها فى السوق السوداء بأسعار باهظة . فقد قرر كارليل المغامرة بإعادة نشرها وتوزيعها بأسعار زهيدة . وعبثاً حاول هون أن يثنيه عن عزمه راجياً إياه ألا يفعل هذا حتى لا يتورط أكثر وأكثر مع الدوائر الحكومية ، وخاصة لأنه بدا أن الحكومة على استعداد لإسقاط الاتهامات ضد هون . ولم يراع كارليل الذى كان متزوجاً ولا يعول ، كثرة عيال هون وثقل مسئولياته الأسرية فاعتبره رعديداً ورماه بالجبن على نحو ما أسلفنا . ويذكر كارليل فى هذا الشأن أن هون كثيراً ما هدده وتوعده بمقاضاته ولكنه لم يبال بوعيده بل ظل يطبع محاكاته ويبيعها ويربح كثيراً منها . والواقع أن كارليل استغل محنة هون وغيره من الكتاب المحظورين فقد نص القانون الإنجليزى آنذاك على حرمان أى مؤلف تتضمن كتاباته تجديفاً أو قذفاً من حقوق التأليف . وانتهز كارليل هذه الفرصة فسطا على مؤلفاتهم علماً منه بأنه لن يكون لهم الحق فى مطالبته بتعويض أو حقوق التأليف . وإلى جانب محاكاة هون نشر كارليل «كوين ماب» للشاعر شلى و«كابيل» و«دونجوان» و«رؤية الحكم» للشاعر بيرون دون إذن منهما . ولكنه لم يجن أرباحاً تذكر لافتقارها إلى الشعبية . وبسبب بيعه لمحاكاة هون عاقبت الحكومة كارليل بالسجن لمدة عامين فاضطرت زوجته خلالها إلى الاستمرار فى تحدى الحكومة وبيع النسخ المتبقية . ولم يطلق سراح كارليل إلا بعد دفع غرامة كبيرة وبراءة هون من التهم المتتالية الموجهة ضده . وفى فترة بقائه فى

السجن حاول كارليل أن يقلد هون ويؤلف بعض المحاكات على طريقته فنشر عام ١٨١٧ محاكاة بعنوان «نظام إدارة الأرغفة والأسماك» اتسمت بالغلو والشطط والاندفاع الأمر الذى نفر كثيرين من الناس منه . أضف إلى ذلك أن كارليل لم يكن يتمتع بأية موهبة أدبية كالتى يتمتع بها هون . ثم أقدم كارليل على نشر عمل شعبى رائج هو «حقوق الإنسان» لتوماس بين . وعندئذ لم تستطع الحكومة السكوت عليه وتحركت ضده .

وفى نوفمبر عام ١٨١٨ سرت شائعة مفادها أن كارليل على وشك إصدار طبعة ثانية من «عصر العقل» لتوماس بين . فهددت الحكومة بالويل والثبور أى ناشر يجسر على نشره فلم يحفل كارليل بهذا التهديد بل رحب به وتحداه وأقدم على نشر هذا الكتاب المحظور وهو يتحرق شوقاً إلى أن يصبح شهيد الفكر الحر ونزيل السجون . وقبل قيامه بنشر «عصر العقل» فى ١٦ ديسمبر عام ١٨١٨ تعمد كارليل أن يملأ شوارع لندن بالإعلانات التى تخبر القراء باسماء المكتبات التى تتولى بيعه . وفى اليوم التالى أرسل محامى وزارة الخزانة مرسالاً من طرفه لشراء بعض النسخ من كتاب «عصر العقل» . ولم يتوقع المرسال أن يصل ثمن النسخة الواحدة منه إلى نصف جنيه استرلينى ، فقد كانت جميع مطبوعات كارليل تتراوح بين بنسين وشلنين على أقصى تقدير . وانصرف المرسال كى يحضر المبلغ الكافى لشراء ثلاث نسخ . وأدرك كارليل بغريزته أن هذا المشترى موفد من قبل الحكومة فقال له متحدياً وساخراً إن بإمكانه شراء ضعف هذا العدد إذا أراد . وطلب منه أن ينقل تحياته إلى الوزارة التى أرسلته وأن تؤجل الحكومة إصدار أمر القبض عليه حتى تنتهى فترة أعياد الميلاد . لقد كان الأمل يحدو كارليل إلى أن يصدر محامى وزارة الخزانة أمرا بالقبض عليه قبل حلول أعياد الميلاد فيزيد ذلك من مبيعات كتاب «عصر العقل» المحظور . ولكن أمله خاب عندما امتنع هذا المحامى عن اتخاذ أية إجراءات قانونية ضده . وهكذا ظل كتاب «عصر العقل» محدود الذيوع والانتشار حتى تدخلت جمعية أسسها محرر العبيد وليم ولبرفورس عام ١٨٠٢ باسم «النهى عن المنكر» لمنع الكتاب من التداول بسبب ما تضمنه من تجديف .

وكانت تلك اللحظة التى يتمناها كارليل لإحداث فرقعة إعلانية وإعلامية هائلة فانتهز الفرصة لإبلاغ جميع الصحف اللندنية بما حدث من جانب جمعية «النهى عن المنكر» وبعد مضى وقت قصير امتلأت أعمدة هذه الصحف بأنباء تدخل هذه الجمعية لحظر كتاب «عصر العقل» وتقديم ناشره كارليل إلى المحاكمة بتهمة إشاعة الكفر . وبطبيعة الحال أثر ذلك أثراً كبيراً فى أرقام التوزيع فنفدت جميع نسخ الطبعة الأولى البالغ عددها ألف نسخة ، ثم تلتها طبعة ثانية من ثلاثة آلاف نسخة . والجدير بالذكر أن جمعية «النهى عن المنكر» كانت توفر الحرج على الحكومة بأن تفعل ما تتحرج الحكومة من فعله . وتحركت الأجهزة الحكومية بناء على تحرك هذه الجمعية واتخذت الإجراءات القانونية ضد كارليل الذى جنى ثروة لا بأس بها من تجارة الكتب الممنوعة مكنته من الانتقال إلى مكتبة أرحب وأوسع . وفى ١١ فبراير ١٨١٩ نجحت جمعية النهى عن المنكر فى استصدار أمر من القضاء بالقبض عليه ومحاكمته . وزجت السلطات به فى سجن نيوجيت ، وتشهد ثيوفيلا ابنته من زوجته الثانية أن أباها كان يرتاح فى غياهب السجون أكثر مما يرتاح فى بيته .

وأدى القبض عليه إلى زيادة مبيعاته من الكتب . وبمجرد الإفراج عنه بكفالة قام بطبع خطاب وجهه إلى جمعية «النهى عن المنكر» متهماً فيه أعضاءها بأنهم لم يقرؤوا كتب توماس بين فى الدين لأنهم لو فعلوا ذلك لأدركوا أنها كتب لاتشوبها شائبة وتخلو تماماً من أية دعوة للرذيلة . وأضاف كارليل إنه يتمنى لو كانت جمعية «النهى عن المنكر» تضم قسيساً قادراً على تفنيد محاجات توماس بين اللاهوتية والرد عليها حتى يمكنه أن ينشر هذا الرد فى الناس .

وفى ١٢ يولية ١٨١٩ وقعت أحداث اهتزت لها الحكومة البريطانية وكانت سبباً فى جزعها لأنها اعتبرتها مقدمة لثورة عاتية سوف تجتاحها . فقد كان نظام إنجلترا النيابى آنذاك لا يسمح بتمثيل بعض المناطق الصناعية المهمة مثل برمنجهام وليدز ومانشستر فى مجلس العموم . فارتفعت أصوات مطالبة بإصلاح هذا الخلل الذى يشوب نظام الانتخاب . ودب اليأس فى قلوب الشاكين لعدم اكتراث ولى العهد والحكومة بمطالبهم فقرر عشرات الألوف منهم الاجتماع فى اليوم التالى فى برمنجهام . وحضر هذا الاجتماع عدد من زعماء الإصلاح أمثال السير تشارلس ويسلى . واختار أهالى برمنجهام من تلقاء أنفسهم رجلاً يمثلهم فى مجلس العموم . ورغم أن هذا الاختيار تم فى هدوء تام فإنه بث الفزع فى قلوب المسئولين لأن الأهالى استحدثوا دائرة انتخابية فى برمنجهام لا وجود لها فى الواقع . وسارعت الحكومة بالقبض على زعماء هذه الحركة الإصلاحية وعلى رأسهم السير تشارلس ويسلى الأمر الذى دفع أهالى ليدز ومانشستر إلى التريث فى الاقتداء بمدينة برمنجهام المتمردة واختيار ممثلين عنهما . واكتفت ليدز ومانشستر برفع سيل من الشكاوى إلى المسئولين . وقد وردت أول إشارة إلى هذه الأحداث الجسام فى ريبورتاج صحفى خشى صاحبه من ذكر اسمه صادر فى سبتمبر عام ١٨١٩ . ويقرر هذا التقرير الصحفى أن المجتمعين كانوا ودعاء ومسالمين للغاية وأنهم لم يدعوا مطلقاً إلى إثارة الفتن وإحداث القلاقل بدليل أنهم تركوا وراءهم عصيهم التى يتسلحون بها وأحضروا معهم زوجاتهم وأولادهم وبناتهم إلى ساحة الاجتماع . وأيضاً بدليل أن المتجمهرين أحضروا معهم الفرق الموسيقية التى عزفت الأناشيد الملكية والقومية . كانت روح المسالمة تسودهم رغم هتافاتهم النارية مثل «التمثيل الانتخابى المتكافىء أو الموت الزؤام» و«موتوا كالرجال ولا تقبلوا أن تباعوا فى سوق النخاسة» وغيرها من شعارات التحدى .

نادى كارليل بضرورة أن يكون الحكم للشعب الذى يحق له انتخاب ممثلين له عن طريق الاقتراع السرى وفقاً لدوائر انتخابية تتحدد على أساس عدد المواطنين الذين يعيشون فى كل دائرة . كما أنه طالب دعاة الإصلاح بالامتناع عن معاقرة الخمور وتناول الشاى وتدخين التبغ للحفاظ على صحتهم من ناحية وحرمان الحكومة من جباية الضرائب المفروضة على هذه السلع ومثيلاتها من ناحية أخرى - أيضاً نشر كارليل فى مجلة «الجمهورى» إعلاناً منسوباً إلى الكولونيل تيتوس عن صدور نبذة بعنوان «القتل ليس جريمة» من المفترض أنها تدافع عن النظام الملكى ضد النظام الجمهورى . وجاء فى هذه النبذة أن أوليفر كرومويل الجمهورى (الذى أطاح بالملك تشارلس الأول) حاكم مستبد ويحل قتله . وكان ذلك أسلوباً ماكراً التجأ إليه كارليل للدفاع عن فكرة الاغتيال السياسى للحاكم المستبد الذى يبطش بشعبه .

غير أن هذه النغمة المتطرفة نفرت منه الكثيرين من دعاة الإصلاح على رأسهم كوبيت الذى رماه بالشطط كما أن دعوته الصريحة إلى الإلحاد أثارت عليه سخط كثير من الناس ومن بينهم هيئة المحلفين التى مثل أمامها . حتى المتعاطفين معه أمثال فرانسيس بلاس اعتبروه متعصباً . وأخذ عليه كثير من أنصار الإصلاح إقدامه على إعادة نشر مؤلفات قديمة لا لشىء إلا لأن القضاء أدانها مثل الأعمال اللاهوتية لتوماس بين و«مبادىء الطبيعة» للكاتب الأمريكى الضرير إليهو بالمر الذى ينكر الدين ويؤمن بالمذهب التأليهى . وبسبب نفور الناس من شططه وغلوائه وجد كارليل نفسه فى أكتوبر ١٨١٩ بدون حلفاء أقوياء عند تقديمه للمحاكمة بتهمة إعادة نشر «عصر العقل» الذى يتضمن تجديفاً وخروجاً عن الدين . وذكر كارليل أثناء محاكمته أنه يختلف فى الرأى مع توماس بين . ففى حين ينكر كارليل الخلود والآخرة إنكاراً تاماً نرى أن توماس بين يعتقد فى وجود حياة أخرى ينعم بها الأخيار والصالحون . وهكذا استطاع كارليل أن يسجل آراءه الإلحادية فى الأوراق الرسمية وأن ينشرها بمقتضى القانون البريطانى باعتبارها تقريراً لوقائع المحاكمة . ومن الطبيعى أن تترك آراؤه الملحدة أسوأ الأثر فى نفوس القضاة والمحلفين وعامة الناس على حد سواء . لقد استغرقت محاكمة كارليل الأولى بسبب إعادة نشر كتاب «عصر العقل» عدة أيام ولكن محاكمته بسبب نشر كتاب «مبادىء الطبيعة» لإليهو بالمر لم تستغرق سوى يوم واحد . والجدير بالذكر أن المحكمة حكمت عليه بالسجن لمدة سنتين وبغرامة قدرها ألف جنيه لنشره كتاب «عصر العقل» وبالحبس لمدة عام وبغرامة قدرها خمسمائة جنيه لنشره كتاب «مبادىء الطبيعة» كما أن السلطات أودعته فى زنزانة منفردة فى سجن دور ستشير حتى لا ينشر أفكاره الهدامة بين زملائه السجناء . غير أن الحبس الانفرادى راق وأتاح له فرصة كتابة الخطابات واستقبال الضيوف والأهم من ذلك تحرير مجلة «الجمهورى» .

كان لحبس كارليل آثاره الوخيمة على حياة زوجته جين . فعندما لم يدفع زوجها الغرامات المفروضة عليه قام البوليس بالاستيلاء على محتويات دار النشر التى يملكها وما فيها من أوراق ومذكرات ثم قام باحتلالها لمدة شهر . وحين أحست الزوجة بدنو الخطر منها سارعت بإخفاء الكتب الممنوعة فى مكان آخر . ويبدو أنها حققت ثروة من كتاب «عصر العقل» الذى باعت منه أكثر من ثلاثة آلاف نسخة . فى حين انشغل زوجها بالدفاع عن مبادئه دون أن يعبأ بما قد يصيب أولاده من فاقة وعوز . والجدير بالذكر أن المحكمة أدانت جين لأنها نشرت فى ١٦ يونية ١٨٢٠ مقالاً بقلم زوجها يدافع عن حق الأفراد فى اغتيال الطغاة إذا أملت ضمائرهم عليهم ذلك . صحيح أن كارليل أدان التآمر بهدف القتل والاغتيال ولكنه لم ير أدنى غضاضة فى أن يفعل الأشخاص ذلك بوازع من ضمائرهم .

لقد كانت السلطات على علم بأن كارليل يقوم بتهريب مخطوطاته إلى خارج السجن لترى طريقها إلى النشر . غير أنها وقفت مكتوفة الأيدى حياله . ولكنها لم تقف مكتوفة الأيدى أمام زوجته وأعوانه الذين تطوعوا لترويج أفكاره وعلى رأسهم متطوع اسمه توماس دافيدسون أثار حنق القاضى عليه بسلاطته وطول لسانه فعاقبه بفرض عدد من الغرامات عليه . ورغم أن المحكمة أدانت جين فقد

وجد محاميها خطأً فى الإجراءات مكنه من الحصول على إفراج عنها .

ويجدر بنا أن نذكر أن جمعية «النهى عن المنكر» ظلت حتى عام ١٨٢٠ الجمعية الأهلية الوحيدة التى يحق لها مقاضاة المارقين على الدين . وبحلول نهاية هذا العام استطاع محام اسمه ميرى تشكيل جمعية لها أهداف مماثلة هى الجمعية الدستورية التى نجح فى أن يضم إليها بعض الشخصيات المرموقة مثل الدوق ولنجتون . والذى لا شك فيه أن دفاع كارليل عن اغتيال الحكام المستبدين أساء إلى قضيته فى الدفاع عن الحريات الدينية بوجه عام كما أساء إلى زوجته التى انتهى الأمر بالزج بها فى السجن . وتطوعت أخت كارليل مارى آن لمواصلة مسيرته الإصلاحية فتولت إدارة المحل الذى كانت جين قبل سجنها تديره . وفى تلك الفترة عجز كارليل بسبب ضآلة موارده عن الاستمرار فى إصدار مجلة «الجمهورى» كما أن أخته مارى آن عجزت عن ذلك بسبب جهلها بأسرار الكتابة وتحرير الصحف والمجلات . ولهذا آثر كارليل أن يؤلف بعض النبذات والكتيبات الصغيرة بدلاً من مجلة «الجمهورى» . مثل الكتيب الذى أصدره بعنوان «خطاب العام الجديد إلى مصلحى بريطانيا العظمى عام ١٨٢١» . وقدمت مارى آن إلى المحاكمة بسبب تورطها فى مواصلة النشاط الذى كانت زوجة أخيها تضطلع به . وقام بالدفاع عن أخت كارليل واحد من أبرز وأكفأ المحامين الإصلاحيين الشبان من مريدى جيرمى بنثام واسمه هنرى كوبر . وفى معرض الدفاع عنها بين هذا المحامى أن الدعوة إلى الإصلاح لا تنطوى بالضرورة على دوافع إجرامية ، كما أنه أثبت بطلان الإجراءات التى اتخذتها الجمعية الدستورية فى إقامة الدعوى ضدها . ورغم ذلك فقد أدانتها المحكمة بسبب تهمة التجديف التى وجهتها إليها جمعية النهى عن المنكر .

وعقب الزج بكارليل فى السجن قامت الحكومة بسن المزيد من القوانين المكممة للحريات بهدف تضييق الخناق على الصحف الداعية للإصلاح والأفكار الراديكالية . فأدخلت تعديلات على قانون التجديف والتشهير ليتسع نطاقه ويشمل ليس فقط الزراية بالدين أو الدولة بل أيضاً الحض على احتقار وكراهية الملك أو الحكومة أو الدستور . وحين تعرض بعض مريدى كارليل والمعجبين به للسجن أدخل الطمأنينة إلى قلوبهم بقوله : «يا أصدقائى لا تجزعوا إذا ألقوا القبض عليكم فأنا لم أشعر بالسعادة فى حياتى قط مثلما شعرت بها وأنا فى سجن دور ستشير . ولن أشكو إذا استمر حبسى لمدة ثلاث سنوات أخرى» . وفى محنته لم يتخل عنه مريدوه وأتباعه فقد أخذوا يجمعون التبرعات له ولزوجته التى لم تتحمل الحياة فى السجن مثلما تحملها زوجها وخاصة لأن ساعة ولادتها كانت قد اقتربت . وقدم زوجها كارليل إلى وزير الداخلية التماساً بنقلها من السجن إلى مكان مناسب يمكنها الولادة فيه . ولكنه رفض إجابته إلى طلبه . وتم الإفراج عن زوجة كارليل من سجن دورستشير فى فبراير ١٨٢٣ كما أفرج عن مارى آن فى إبريل ١٨٢٣ ولكن هذا العام نفسه شهد القبض على شاب من أتباعه ومريديه اسمه جيمس واتسون (الذى كان يساعد زوجة كارليل فى إدارة محل جديد افتتح مؤخراً لبيع الكتب) بتهمة بيع نسخة من كتاب إليهو بالمر «مبادىء الطبيعة» إلى أحد المخبرين فى الشرطة . وفى الفترة التى قضاها جيمس واتسون فى السجن توفر على دراسة أعمال الفيلسوف دافيد هيوم والمؤرخ جيبون وكتاب موشيم «التاريخ الكنسى» . وهى مؤلفات عمقت فيه الدراية بالدين المسيحى والاقتناع بالنظام الجمهورى وهى أفكار سبق أن استقاها

أصلاً من كل من كوبيت وريتشارد كارليل .

وفى عام ١٨٢٤ تم القبض على ما لا يقل عن أحد عشر بائع كتب ممن تطوعوا لمساعدة كارليل فى نشر أفكاره . وانتهز هؤلاء المريدون فرصة تجمعهم فى السجن وقاموا بإصدار «مجلة سجن نيوجيت الشهرية» عبروا فيها عن رغبتهم فى إصلاح أحوال مجتمعهم المتردية . واستفاد أتباع كارليل من تجارب الماضى فأخذوا بأسباب الحيطة والحذر فى بيع الكتب الممنوعة . وأقاموا ستاراً يختفون وراءه ولوحة بأسماء الكتب الممنوعة على شكل عقارب الساعة . فإذا أراد الزبون شراء أى من هذه الكتب قام بتحريك العقرب بحيث يشير كالسهم إلى الكتاب المطلوب فيسلمه البائع له بعد أن يدفع له ثمنه ودون أن يرى وجهه وعلمت التجارب أيضاً أتباع كارليل القدرة على التمييز بين الزبائن العاديين والمخبرين السريين الذين امتنعوا عن بيع الكتب المحظورة لهم .

وباعد السجن بين كارليل وبين الممارسات اليومية للسياسة كما أن خلافاته مع زملائه من الراديكاليين والإصلاحيين وخاصة هنرى هنت باعدت بينهم وبينه . وكما أسلفنا انفض عنه الكثيرون بسبب شططه وتعصبه الأمر الذى جعله ينصرف عن الدعوة لإصلاح المجتمع إلى الدعوة إلى المذهب التأليهى ثم إلى الإلحاد وعبادة العلم والعقل . وفى عام ١٨١٦ - ١٨٢٠ استغل كارليل صفحات مجلة «دعاة المذهب التأليهى» فى إعادة نشر فقرات من كتابات قديمة تدافع عن هذا المذهب . ونحن نراه فى خطابه الموجه إلى رجال العلم المنشور عام ١٨٢١ لا يكتفى بالدفاع عن الإصلاح البرلمانى والمطالبة بالحرية بمعناها العام على النحو الذى ذهب إليه الإنسيكلوبيديون (أو الموسوعيون) الفرنسيون أمثال ديديرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) بل ينادى بحرية نشر الأفكار الملحدة أو المجدفة دون أن يتعرض صاحبها للمساءلة القانونية .

وفى عام ١٨٢٤ شب حريق فى المحل الذى يملكه كارليل فى شارع فليت ستريت فى لندن يبدو أنه بفعل فاعل . وأدى الحريق إلى هدم المحل ، غير أن كارليل تمكن من بيعه بسعر مرتفع وجنى منه أرباحاً مكنته من شراء محل آخر فى الشارع نفسه . وفى عام ١٨٢٥ أعادت مجلة «الجمهورى» نشر النص الكامل لمنشور يدعو إلى تحديد النسل ذاع فى شمال إنجلترا ورغم أن كارليل كان آنذاك نزيل السجن فقد اعتبرته السلطات مسئولاً عن إعادة نشره . ويشرح هذا المنشور أساليب منع الحمل ومنها استخدام المرأة لإسفنجة مبللة . (ويقال إن المفكر الاشتراكى المعروف روبرت أوين سافر إلى باريس لدراسة هذا الموضوع وإن فرانسيس بلاس كان من أشد الناس تحمساً له) .

وبحلول شهر نوفمبر ١٨٢٥ أكمل كارليل حبسه لمدة ست سنوات (وهى ضعف الفترة المحكوم عليه بها أصلاً بسبب امتناعه عن دفع الغرامات المفروضة عليه) . وبعد خروجه من السجن أنشأ شركة نشر مساهمة تهدف إلى نشر ذات النوعية من الكتابات التى كانت سبباً فى الزج به فى السجن مثل أعمال توماس بين وبـالمر ومسيليه وأعمال اللورد بيرون المحظورة . وكذلك قصيدة «كوين ماب» التى ألفها الشاعر الرومانسى شلى ودعا فيها إلى الحب الطليق المتحرر من جميع القيود والمواضعات الاجتماعية . وتعرضت هذه الشركة المساهمة إلى الإفلاس بسبب كثرة ما نشرت من كتب محظورة رغم اعتراض المساهمين على بعض منها .

وأضر الحبس بصحة كارليل وأصابه بمرض نفسانى يتمثل فى الشعور بالذعر والاختناق فى الأماكن المغلقة أو الضيقة . وانفض عنه الكثيرون من مريديه وأتباعه فى أخريات عمره القصير الذى لم يتجاوز السادسة والثلاثين ليلتفوا حول دعاة إصلاح آخرين أمثال روبرت أوين وزعماء حركة الإصلاح البرلمانى والحركة العمالية الثورية المعروفة بحركة أصحاب الميثاق . ويرجع أحد الأسباب المهمة فى انفضاض الناس عنه أنه رغم شجاعته وقوته واستقامته وقدرته على الصمود والتحدى كان يفتقر إلى الأصالة والابتكار . فلا غرو أن نراه يفقد زعامته كما نراه ينضوى تحت لواء رجل دين يتسم بالابتكار اسمه روبرت تيلور قدمته السلطات إلى المحاكمة فى يناير ١٨٢٨ بتهمة التجديف .

كان روبرت تيلور الذى يصغر كارليل بست سنوات الابن السادس لتاجر حدائد ثرى . مات والده فى طفولته فقام عمه بتربيته ووجهه إلى تعلم الجراحة فى كلية الجراحين بلندن عام ١٨٠٧ . ورغم تفوقه فى تعلم الجراحة فإن هذه الدراسة لم ترق فى عينيه . ومن ثم انصرافه عن دراسة الجسد إلى دراسة الروح . وفى أكتوبر عام ١٨٠٩ التحق بكلية سانت جورج بكامبريدج لدراسة اللاهوت . وشهد له أستاذه بأنه بز أقرانه فى علوم اللاهوت وفى القدرة على الوعظ . وفى ١٨١٨ انخرط تيلور فى مهنة الكهنوت يحدوه طموحه إلى الصعود إلى القمة . ولكنه سرعان ما فقد إيمانه بالدين عندما تعرف بتاجر كافر كان يقرضه كتباً عن الإلحاد . وبلغ تأثير هذا الرجل عليه حداً جعله يلقى موعظة فى الكنيسة كانت فضيحة صدمت مشاعر الناس وأصابتهم بالذعر . ولم يخف تيلور أفكاره المهرطقة كما أنه لم يجد غضاضة فى الإعلان عنها عام ١٨١٧ فى صحيفة التايمز فانتهى الأمر بإبعاده عن الكنيسة التى اشترطت عليه أن ينبذ أفكاره التأليهية إذا أراد إعادته إلى وظيفته الكهنوتية . وصدمت أفكاره الخارجة على الدين مشاعر أمه التى ارتاعت لكفره . وإرضاء لأمه نشر تيلور باللغة اللاتينية تراجعاً عن موقفه التأليهى فى جريدة التايمز الصادرة فى ١١ ديسمبر ١٨١٧ معتذراً بقوله إنه أصيب بنوع من الشذوذ العقلى . ولم تسمح له الكنيسة بالرجوع إليها إلا بعد أن تاب واستغفر وقام بحرق كتبه التأليهية المهرطقة . ولكن «ريمة ما لبثت أن عادت إلى عادتها القديمة» فقد أخذ الرجل يدعو من جديد إلى الأفكار التأليهية ويجاهر بها بكل صراحة . وتضايق إخوته من مسلكه المشين فعرضوا عليه أن يتكفلوا بمعاشه شريطة أن يغادر إنجلترا ، وبالفعل غادر الرجل البلاد متوجهاً إلى جزيرة سان القريبة من إنجلترا . ولكن إخوته تخلوا عن مساعدته وإمداده بالمال بعد مرور شهرين أو ثلاثة من الوعد الذى قطعوه على أنفسهم ، الأمر الذى اضطره إلى الكتابة فى الصحف ليكسب قوته . وفى تلك الفترة نشر تيلور مقالاً يبيح الانتحار ويبرره فغضب الأسقف منه واستدعاه ليهدده بأن فى استطاعته أن يسجنه مدى الحياة دون تقديمه إلى المحاكمة . فاضطره هذا التهديد إلى مغادرة الجزيرة وهو لا يملك من متاع الدنيا شيئاً . ثم سافر إلى دبلن فى أيرلندا . وهناك منعه رئيس أساقفة دبلن من الوعظ والتبشير والتدريس فى المدارس . وفى دبلن نشر روبرت تيلور طائفة من الكتب الصغيرة بعنوان «المجلة الأكليريكية» دعا فيها إلى اعتناق الشك المعتدل حول صحة العهد القديم من الناحية التاريخية

وحول صحة المعجزات الواردة فى الكتاب المقدس . وهناك استأجر مسرحاً صغيراً ليلقى فيه محاضراته ولكن جماعة من الطلبة البروتستانت هاجموا المسرح وحطموه وهددوا تيلور بالقتل إذا لم يكف عن نشاطه أو يرعو . فقرر أنصاره جمع المال له لتمكينه من السفر إلى لندن حيث يستطيع نشر أفكاره التأليهية بحرية أكبر . وفى لندن التى وصل إليها عام ١٨٢٤ قام تيلور بتدريس الكلاسيكيات وحصل على تصريح بالدعوة إلى «الدين الطبيعى» . وهى دعوة تخلو من الغيبيات فى دفاعها عن الدين . وكان أسلوبه فى الدعوة يتلخص فى إلقاء محاضراته على جمهور من المستمعين ثم يتحدى أياً من الحاضرين أن يتصدى لآرائه بالدحض والتفنيد . وفى يولية عام ١٨٢٦ تمكن تيلور من استئجار كنيسة صغيرة يمارس فيها هوايته فى التبشير وإلقاء المواعظ ومن اجتذاب عدد كبير من سيدات المجتمع . وتواصل نجاحه فتوفر له المال الكافى لشراء كنيسة مهجورة وغير مستخدمة أسماها الأريوباجوس (وهى كلمة تشير إلى جبل موجود فى أثينا تعقد على قمته أعلى سلطة قضائية إغريقية جلساتها) كرسها للتبشير بالمذهب التأليهى . ولكن هذا كان سبباً فى إثارة عمدة المدينة ضده فأمر بإلقاء القبض عليه والزج به فى السجن بتهمة التجديف والاشتراك مع خمسة آخرين فى مؤامرة للإطاحة بالدين المسيحى . وقبل أن تبدأ محاكمته استطاع بعض أعدائه وشانئيه أن يشهروا إفلاسه بسبب غرقه فى الديون وأن يستصدروا أمراً ببيع كنيسته لسداد ما عليه من ديون . وأخيراً مثل تيلور أمام هيئة المحكمة يوم ٢٤ أكتوبر ١٨٢٧ للتحقيق معه فى تهمة التجديف . واجتمع حشد غفير من الناس يضم عدداً كبيراً من السيدات الأنيقات منذ الصباح الباكر خارج قاعة المحكمة فى انتظار بدء المحاكمة . وما إن فتحت المحكمة أبوابها حتى غصت بالحاضرين ليشاهدوا القسيس المتهم تيلور يدخل القاعة برفقة ولديه وعدد كبير من الأصدقاء . ولفت تيلور الأنظار إليه بعباءته الكنسية الفضفاضة وقبعته الكهنوتية الأنيقة . وهو يمسك بنظارة تتدلى من عنقه ويضع فى كل يد من يديه دبلة فاخرة . وزاد من أناقة مظهره أنه كان يلبس قفازاً شفافاً فى كلتا يديه .

واختتم الادعاء الجلسة فقال إنه من الطبيعى أن يختلف كل الناس فى عباداتهم ومعتقداتهم الدينية . ولكن يتعين على كل إنسان أن يحترم مشاعر الأغلبية الدينية وإن يعاملها بالاحترام اللائق بها . وأردف الادعاء قائلاً إنه لا يطالب المحكمة أن تفرض على أى إنسان أية عقائد دينية لا يؤمن بها . ولكنه يطلب ممن يرفضون عقائد الملايين الدينية أن يظهروا الاحترام لها وليس السخرية أو الزراية بها مثلما فعل روبرت تيلور فى كتابه الصغير «شخصية المسيح» وفيه يصف المسيح بأنه «مصاص الدماء اليهودى» . ورغم أن تيلور ظل يدافع عن نفسه لمدة ثلاث ساعات وهو يقتطف فقرات بالإغريقية واللاتينية والعبرية فإنه تفوه بعبارات مجدفة أمام محلفيه إذ قال : «إننى أخشى الله ومن ثم لا أجرؤ أن أكون مسيحياً لأن المسيحية فى نظرى تبدو أقل منه جلالا» . وتشاور المحلفون بشأنه لمدة نصف ساعة خرجوا بعدها ليقولوا إن المتهم مذنب فيما يتعلق بتهمة التجديف . فحكمت عليه المحكمة بالحبس لمدة عام غير أنها لم تجد أى دليل على صحة التهمة الثانية وهى التآمر للقضاء على الدين المسيحى . هذه حكاية روبرت تيلور المؤمن بالمذهب التأليهى الذى قابله ريتشارد كارليل لأول مرة عام ١٨٢٥ .

لم يشعر كارليل نحو روبرت تيلور بأى تعاطف فى بادىء الأمر . ولكن موقفه من القسيس المارق ما لبث أن تغير وذلك بعد إشهار إفلاسه وإصدار حكم ضده بالحبس . وفى يناير عام ١٨٢٨ أسس كارليل مجلة جديدة بعنوان «الأسد» خصص كل صفحاتها لنشر محاضرات تيلور المجدفة والدفاع عنه . ولم يكتف كارليل بهذا بل ترك عائلته وأخذ يجوب البلاد ليلقى محاضرات يروج فيها لأفكار تيلور ويدافع عن حرية الإنسان فى التعبير عن رأيه ويجمع التبرعات من أجل هذا القس الذى انتهى به تجديفه إلى السجن . وكان ذلك بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير . فقد تدهورت على أثرها علاقة كارليل بزوجته فاتفقا معاً على الانفصال بمجرد أن تتحسن أحواله المالية حتى يتمكن من دفع تعويض مناسب لها . وأثناء وجود تيلور فى سجن أوكهام كتب مقالات ومبحثين تولى كارليل نشرها ثم خرج روبرت تيلور من السجن ليعتمد اعتماداً كلياً على كارليل . وقرر الاثنان العمل معاً على نشر أفكارهما التأليهية فى أرجاء إنجلترا فذهبا إلى كامبريدج حيث عاشا تحت سقف واحد مع مطبعجى أغرياه بطباعة منشور قاما بتوزيعه على المعاهد الدينية الكثيرة والمنتشرة فى عدة مناطق وهما يتحديان المؤمنين بالدين المسيحى التصدى لهما وتفنيد محاجاتهما ضد هذا الدين . وبدلاً من أن يتصدى لهما الأهالى بالإقناع لجأ البعض إلى أسلوب الاضطهاد لهما والتعنت معهما . وحين حاول كارليل وتيلور أن يحاضرا فى مدينة ليدز تدخل عمدتها وقضاتها للحيلولة دون ذلك . ورغم فشلهما بوجه عام فى نشر الأفكار المجدفة فى كل مكان ذهبا إليه فإن كثيراً من التوفيق حالفهما فى رحلتهما إلى ليفربول حيث نجحا فى التصدى لقسيس اسمه مستر ثوم وفى دحر دفاعه عن المسيحية . وفى ليفربول قابل ريتشارد كارليل سيدة شابة كانت علاقته بها سبباً فى إدخال السعادة على قلبه . وظل الرجلان لمدة أربعة شهور ينتقلان من مكان إلى مكان ينشران تجديفهما حيثما ذهبا . وفى عام ١٨٣٠ استطاعا أن يستأجرا قاعة مهجورة كانت فى يوم ما متحفاً وسيركاً ومسرحاً وقاعة محاضرات شرفها بإلقاء بعض المحاضرات فيها كوكبة من عمالقة الفكر والأدب الإنجليزى أمثال كولريدج وهازليت . وسمح كارليل وتيلور للاشتراكيين من أتباع أوين وغيرهم من الراديكاليين والإصلاحيين بعقد اجتماعهم فى هذه القاعة وأدخلت هذه اللقاءات والاجتماعات الكثيرة فى روع الطبقة العاملة الإنجليزية أن جواً جديداً من السماحة والرغبة فى الإصلاح بدأ يشيع . وشجعت التغيرات الإصلاحية التى حدثت فى فرنسا آنذاك العمال الإنجليز على المطالبة بحقوقهم ورفع الظلم عنهم . ولكن الحكومة الإنجليزية خيبت أملهم عندما تصدت لهم بكل عنف وشدة وحزم . فعندما عبر العمال الزراعيون فى إنجلترا عن احتجاجهم على الظلم الواقع عليهم بأن أحرقوا أكوام القش والتبن وامتنع عمال المصانع عن العمل وقاموا بتحطيم الآلات ، بادرت الحكومة الإنجليزية بشنق تسعة شبان ثائرين وسجن أربعمائة آخرين وكذلك نفت أربعمائة وخمسين متمرداً خارج البلاد . وأيد معظم أعضاء مجلس العموم هذه العقوبات الغليظة .

لم يسكت كارليل على قمع الطبقة العاملة فأنشأ على الفور مجلة جديدة بعنوان «الملقن» أدان فيها أعمال العنف والشغب التى لجأ إليها العمال ولكنه التمس لهم العذر لأنهم لم يجدوا آذاناً صاغية تستمع إلى شكواهم وتسعى للتخفيف عنهم . وذهب كارليل إلى أنه يعتبر العمال الزراعيين

الإنجليز فى حالة حرب ضد ظالميهم . ومن ثم فإنه يحق لهم تدمير المحاصيل والآلات . وكانت نتيجة ذلك أن الإدعاء وجه إليه أربعة اتهامات أولها حض الجمهور على كراهية الدستور وارتكاب أعمال العنف وتتلخص بقية التهم الثلاث فى حض العمال الزراعيين على كراهية الدستور وأعمال العنف ومقاومة السلطات حتى الموت . وسعى زميله فرانسيس بلاس إلى إقناع السلطات بإسقاط التهم الموجهة ضد كارليل الذى رحب بتقديمه إلى المحاكمة وأغضبه أن يتدخل زميله لدى السلطات للعفو عنه . فقد كان فى اعتقاده أنه يناضل من أجل قضية رابحة ومبدأ لا يختلف عليه اثنان هو حق المظلوم فى التمرد على ظالمه . وشاءت الظروف أن واحداً من أعدائه - وهو قاض اسمه نيومان نوليز - نظر القضية فى محكمة الأولد بايلى يوم ١٠ يناير ١٨٣١ وكان بين هذا القاضى وكارليل ما صنع الحداد بسبب هجوم شديد كان كارليل قد شنه عليه ولم يحاول نوليز إخفاء عداوته نحو غريمه واستشاط غضباً عندما دافع المتهم عن نفسه لمدة خمس ساعات ونصف طاعنا فى صحة الاتهامات الموجهة إليه . قال كارليل فى معرض الدفاع عن نفسه إنه لم يهاجم الملكية الدستورية كما يزعم الادعاء بل يهاجم وجود وظائف وزارية مضحكة لا تتفق بحال من الأحوال مع أى نظام حكم عصرى مثل وظيفة وزير خيول جلالة الملك . وأضاف كارليل إنه لم يكن الوحيد الذى انتقد مثل هذا الوضع الشاذ فقد أوردت صحيفة التايمز مثلاً فى إحدى افتتاحياتها هجوماً على ما أسمته بهؤلاء اللوردات الذين لا يخرجون عن كونهم خدماً وحشماً ومجرد إمعات فى حاشية الملك لا يفعلون شيئاً غير اصطحابه حيثما ذهب ومضايقته بقربهم منه .

ودفع كارليل عن نفسه تهمة تحريض العمال الزراعيين على الثورة بقوله إنه لم يكتب حرفاً واحداً إلا بعد أن وقعت بالفعل أحداث التمرد العمالى . فضلاً عن أنه نشر ما كتب فى مجلة محدودة التوزيع لا يزيد عدد نسخها المطبوعة على ألف نسخة تم توزيع ستمائة نسخة منها على الأفراد الذين اشتروها من محله كما تم بيع الأربعمائة نسخة الأخيرة بالجملة على بعض الموزعين فى المدن الصناعية الكبيرة مثل مانشستر ويوركشير ولانكشير ولندن وبعض المدن الأسكتلندية . وجميعها مناطق بعيدة كل البعد عن المناطق الزراعية ومن ثم فإن القول بأن مجلته كانت سبباً فى إثارة العمال الزراعيين وتهييج خواطرهم باطل من أساسه . وقد كان هذا الدفاع منطقياً لدرجة أن جمهور الحاضرين استقبله بالتصفيق الشديد . وبعد سماع الدفاع اجتمعت هيئة المحلفين لمدة ساعتين لتعلن بعدهما براءة المتهم من تهمة التحريض على الثورة وإثارة الشغب . ولم يرق هذا الحكم فى عين القاضى الذى طلب إليهم التشاور مرة أخرى وظلوا يتشاورون لمدة ساعة كاملة . ثم قام القاضى باستدعائهم فى منتصف الليل فأعلن ممثلوهم أنهم لم يتفقوا فيما بينهم على رأى . وكان المحلفون يعقدون اجتماعهم فى غرفة قارصة البرد وعارية من الأثاث فهددهم القاضى المغتاظ بأنهم سوف يقضون فيها ليلتهم حتى يصدروا حكمهم على المتهم . ورأى المدعى العام مقدار التعقيدات التى تحيط بسير المحاكمة فتدخل لوضع حد لتعنت القاضى الواضح . فقال إنه لا يريد إنزال أقصى العقوبات بالمتهم وإنه على استعداد لأن يطلب الإفراج عنه نظير دفع كفالة قدرها متتا جنيه وساعد تدخل الإدعاء على هذا النحو على انفراج الأزمة . وبعد أن بلغ الإعياء بالمحلفين كل مبلغ

اضطروا إلى الوصول إلى حل وسط يماثل الحل الوسط الذى توصل إليه الادعاء . فذهبوا إلى أنه مذنب فى تهمتين فقط من التهم الخمس الموجهة ضده . وهاتان التهمتان تتعلقان بالتحريض على مقاومة السلطات وليس التحريض على الإطاحة بالنظام الملكى الدستورى .

وفى اليوم التالى أصدر القاضى نيومان نوليز حكماً قاسياً بسجن عدوه كارليل لمدة عامين وفرض غرامة عليه قدرها مئتا جنيه ودفع ألف جنيه أخرى كضمان لحسن السير والسلوك لمدة عشرة أعوام . واستنكرت الصحافة الإنجليزية الراديكالية وغير الراديكالية مثل التايمز والاسبكتاتور قسوة هذا الحكم بدون أن يكون لهذه القسوة ما يسوغها وأنحت عليه باللائمة . وبعد انفصاله عن عائلته عام ١٨٢٩ تطلع ريتشارد كارليل إلى الكفاح بمفرده من أجل تدعيم الحرية . وفى ديسمبر عام ١٨٣١ تلقى خطاباً من بائع كتب من المؤمنين بحرية الفكر يخبره فيه عن سيدة شابة فى الخامسة والعشرين من عمرها اسمها إليزا شاربلز تحمل الإعجاب له وتريد أن تحضر إلى لندن لتنظيم اجتماعات التأييد له والدفاع عن أفكاره . وكتبت هذه السيدة إليه تقول إنها تؤمن بالتنوير وتناصب الملوك والأرستقراط والكنيسة العداء . كما أنها تشعر بالفخر أن يرميها الناس بالكفر والتجديف . وهى تتمنى لو أن الإنسانية جمعاء شاركتها هذا الكفر . ودخلت هذه الحسناء قلب كارليل قبل أن تقع عيناه عليها .

وصلت هذه المعجبة إلى لندن فى ١٢ يناير ١٨٣٢ وبادرت فور وصولها إلى زيارة كارليل فى زنزانته فاتفق معها على إعادة فتح قاعة المحاضرات التى تم إغلاقها عقب وضعه فى السجن كى تلقى فيها ما يكتب لها من محاضرات . وآثرت المعجبة إليزا شاربلز أن تغير اسمها إلى اسم إيزيس الفرعونى حتى لا يستطيع أهلها تعقبها أو تتبع أخبارها . وأشرفت إليزا شاربلز على صدور مجلة «الملقن» التى غيرت اسمها بعد حين إلى مجلة «إيزيس» . وتركت هذه الفتاة بصماتها النسائية الواضحة على المجلة . فبعد أن كانت فى عهد كارليل قاصرة على الدفاع عن حرية الرأى فى مجال الدين والسياسة أصبحت فى عهد إليزا شاربلز تدافع أيضاً عن حرية المرأة ومساواتها بالرجل . وفى بادىء الأمر نجحت إليزا شاربلز فى اجتذاب اهتمام الناس بها بسبب دعوتها إلى الإصلاح ومناصرتها لحقوق المرأة غير أن اهتمام الناس بها ما لبث أن فتر فأفل نجم إليزا شاربلز بعد أن اختطفت الأضواء منها تلك الحركة العمالية التعاونية التى ارتبطت باسم مؤسسها الاشتراكى المعروف روبرت أوين .

ويبدو أن تغيراً فى موقف كارليل من الدين طرأ عليه فى أخريات أيامه فعاد بشكل أو آخر إلى حظيرته بعد أن تمكن من التوفيق بين العقل والدين على نحو ما فعل روبرت تيلور الذى اهتدى إلى تفسير المسيحية بطريقة رمزية ، وأيضاً على نحو ما فعل الاشتراكى التعاونى روبرت أوين عندما نادى بما أسماه «الدين العقلانى» . ونشرت مجلة «إيزيس» أخبار عودة كارليل إلى الدين وتصريحاته فى هذا الشأن فهو يقول : «أعلن عودتى إلى الحقيقة كما تتمثل فى إنجيل يسوع المسيح وأيضاً أعلن أنى أؤمن بحقيقة الدين المسيحى» . ويبدأ هذا التحول من الإلحاد والمذهب التأليهى إلى الإيمان بالعقيدة المسيحية شيئاً غريباً على أسماع أتباعه ومريديه .

تدفع هذه المبالغ نيابة عنه وأن تطلق سراحه بلا قيد أو شرط بعد اثنين وثلاثين شهراً فى السجن . وبعد خروجه منه عاشرته إليزا شاربلز معاشرة الأزواج وأنجبت منه أربعة أطفال . وفى غمرة تفاؤله بالحياة أنشأ مجلة أخرى بعنوان «السوط» . ولكن كارليل عاد إلى سابق تطاوله على رجال الدين والزراية بهم فعرض فى فاترينة مكتبته صورة لأسقف يتأبط ذراع شيطان . وفى هذه المرة قدم كارليل إلى المحاكمة بتهمة إزعاج السلطات وليس بتهمة التجديف وحكم عليه بدفع مجموعة من الغرامات وتقديم الضمانات التى تضمن حسن سيره وسلوكه . وكعادته فضل كارليل السجن لمدة ثلاث سنوات على دفع هذه الغرامات . ووجد كارليل من حيث المبدأ أن الزج به فى السجن أكرم وأشرف له من أن يشترى حريته بالمال . غير أن الحكومة ضاقت ذرعاً به وأرادت أن تزيحه عن كاهلها فقررت الإفراج عنه دون قيد أو شرط ، وذلك بعد مضى أربعة شهور فقط على سجنه . ويصل مجموع الفترات التى قضاها فى السجون بعد أن ترك عمله فى ورشة صنع الصفيح فى هولبورن إلى تسع سنوات وسبعة شهور وأسبوع واحد ، أى بمعدل يومين فى كل ثلاثة أيام . وبعد خروجه الأخير من السجن لم يعش كارليل أكثر من تسعة أعوام .

قلنا إن كارليل فى أواخر أيامه عاد إلى حظيرة المسيحية وإنه سعى إلى التوفيق بين الدين والعقل وإلى تفسير الدين على نحو رمزى وعلمى فى آن . فقد ذهب إلى القول : «الله الأب بقدرته على معرفة كل شيء يجسد جميع العلوم فى حين أن الله الابن يجسد العقل البشرى . أما الروح القدس فيجسد روح الحق» . ولكنه أردف محذراً إن الإله الروحى كائن من اختراع البشر . وهو قول لا يدل على مسايرته للخط الدينى الراسخ والأصيل ، بل هو أقرب إلى المروق والانشقاق الدينى حتى وإن ابتعد به عن دائرة الكفر ، فلا غرو إذا رأينا كثيرين من رجال الكنيسة المنشقين يرحبون به فى صفوفهم وأن يستبعده الكفرة والمجدفون عن زمرتهم . ورغم هذا فقد ظل حتى مماته يظهر عطفاً على كل إنسان يتهم بالتجديف . وليس أدل على ذلك من أنه سعى إلى صداقة جورج جاكوب هوليوك ووقف بجانبه يشد من أزره ويسانده فى محنته عند تقديمه إلى المحاكمة . وهداه كارليل إلى أنجح وسيلة يدافع بها هوليوك عن نفسه فتكللت جهوده بالنجاح فلم تتمكن المحكمة من الحكم على هوليوك أكثر من ستة أشهر بسبب اختتامه إحدى محاضراته ببعض عبارات التجديف المرتجلة .

جورج جاكوب هوليوك (١٨١٧ - ١٩٠٦) ١٠

كان جورج جاكوب هوليوك الابن الأكبر بين ثلاثة عشر طفلاً أنجبهم عامل بسيط فى مسبك فى مدينة برمنجهام الصناعية . وكانت أمه تعمل فى صنع الأزرار لزيادة دخل أسرتها الفقيرة . وفى أيام التلمذة ساعد الصبى هوليوك والدته فى صنع الأزرار واضطره العوز إلى ترك مدرسته وهو لم يتجاوز التاسعة من عمره ليلتحق بالعمل فى المسبك نفسه الذى يعمل فيه والده . وأدرك هوليوك أن العمل اليدوى يحول دون تحسين أحواله وأنه عائق فى سبيل طموحه الذى دفعه إلى السعى للوصول إلى المكانة نفسها التى نجح روبرت أوين الذى يشاركه الأصول الاجتماعية المتواضعة نفسها فى بلوغها . فقد بدأ أوين حياته كحاجب فى مدرسة وهو فى السابعة من عمره ثم عمل كصبى فى

إلى المكانة نفسها التى نجح روبرت أوين الذى يشاركه الأصول الاجتماعية المتواضعة نفسها فى بلوغها . فقد بدأ أوين حياته كحاجب فى مدرسة وهو فى السابعة من عمره ثم عمل كصبى فى دكان ثم سايساً للخيول فى لندن .

نادى روبرت أوين كما نعلم بالاشتراكية التعاونية التى تهدف إلى اشتراك العمال فى امتلاك المصانع أو الورش التى يعملون بها تحفيزاً لهم على الإنتاج . وراق أسلوب أوين التعاونى فى إدارة العمل فى عين هوليوك وأترابه الذين وجدوا أن التعامل مع واقع المشاكل العمالية أجدى بكثير فى الناحية العملية من مجرد المطالبة بالإصلاح السياسى (مثل حرية التعبير وإصلاح النظام البرلمانى) الذى نذر له كل من وليم هون وريتشارد كارليل حياتهما . وأدى إعجاب هوليوك الشديد بأوين إلى التشبه به والسير على نهجه .

كانت رغبة هوليوك فى الاستزادة من العلم تفوق رغبته فى الاستزادة من المال . فقد وفر له والده فرصة الاشتغال على آلة لإنتاج الأزرار بالمئات بدلا من الأسلوب البدائى الذى اتبعته أمه فى صنعها فرادى . ولكنه فضل الاستمرار فى عمله فى المسبك أثناء النهار والانصراف إلى الدرس والتحصيل آناء الليل . وعندما بلغ السابعة عشر من عمره التحق بمعهد الميكانيكا ليدرس فيه الرياضيات وصنع الآلات . وفى فترة عمله بالمسبك أظهر مهارة فى تصميم الآلات فقد نجح فى ميكنة بعض أساليب الإنتاج . وعندما حال فقره دون شراء الآلات الهندسية التى يحتاج إليها فى دراسته تفتق ذهنه المتوقد عن تصنيع بعضها بيديه . الأمر الذى لفت أنظار جورج ستيفنسن مخترع الآلة البخارية إليه . ولو أن هذا المخترع تعهده بالرعاية لبلغ مكانة مرموقة فى عالم الهندسة ، ولانصرف عن الاشتغال بالسياسة والتحريض السياسى . وكانت هوايته المفضلة أثناء عمله فى المسبك الصعود إلى سطحه كى يحملق مبهوراً فى الكواكب الصغيرة السيارة دون أن يبالى بنزلات البرد التى تصيبه من جراء ذلك .

وفى مايو ١٨٣٨ جاء جورج كومب الذى اشتهر باهتمامه بدراسة العلاقة بين شكل جمجمة الإنسان وبين صفاته الأخلاقية والذهنية إلى مدينة برمنجهام ليلقى فيها سلسلة من المحاضرات فى هذا الموضوع ، فاحتاج إلى مساعد يعاونه فى عمله . وتطوع هوليوك بمساعدته بالمجان . وشعر كومب نحو مساعده بالامتنان فأهداه مؤلفاً له بعنوان «عناصر علم دراسة شكل الجمجمة وحجمها» . ولم يكن هوليوك ينتظر أية مكافأة نظير خدماته لكومب . غير أن بعض الناس استاؤوا من استغلال كومب له فتطوعوا من تلقاء أنفسهم بمطالبته بإعطاء هوليوك المكافأة التى يستحقها على تعبه . وأخيراً وبعد لأى استطاع المتعاطفون مع هوليوك الاتصال بكومب الذى كان يحزم أمتعته ويستعد للسفر إلى الولايات المتحدة . ولكن الرجل أراد أن يتهرب من الضغط عليه لإعطاء هوليوك مكافأة فبدأ يطعن فى كفاءته ويقول بوقاحة إن خدماته لم تكن على المستوى المطلوب ، الأمر الذى أثار ثائرة هوليوك واعتبره إهانة بالغة لكرامته رغم أنه لم يكن ينتظر أجراً أو مكافأة على عمله . ونما إلى علم هوليوك أن تاجراً من برمنجهام سوف يسافر إلى أمريكا فأعطاه خطاباً ليسلمه إلى مستر كومب هناك يعاتبه فيه على رأيه السيىء فى قدراته . ولكن كومب لم يبال بهذا العتاب ولم يكترث

بالرد عليه . ومرت السنون دون أن ينسى هوليوك الطعنة النجلاء التى سددها كومب إلى كبريائه . فبعد انقضاء ثمانية أعوام بلغه أن أخا كومب سوف يلقى محاضرة نيابة عن أخيه المعتذر عن الحضور بسبب اعتلال صحته فى ٧ يناير ١٨٤٦ فى مدينة جلاسجو بأسكتلندا فسافر هوليوك هناك والتقى بأخى كومب وسلمه خطاب احتجاج ضد كومب كان قد سطره منذ ثمانية أعوام وظل يحتفظ به طوال هذه الفترة وينتقل به من مكان إلى مكان وطلب إلى شقيق كومب تسليم الخطاب لأخيه . ولم يكن هوليوك يبغى بذلك تعويضاً مادياً بل رد الاعتبار إلى كرامته الجريحة . وظل هوليوك يبحث دون ملل أو كلال حتى استطاع العثور على وثائق وخطابات لا تدع مجالاً للشك فى افتراء كومب عليه وظلمه له . وكشف هوليوك النقاب عن هذه الوثائق بعد انقضاء نحو خمسة عقود الأمر الذى يدل على أنه من النوع الذى لا يبلع أو ينسى الإهانة مطلقاً . وهناك بعض الأحوال المماثلة التى تؤكد ذلك . فقد وعده فى صدر شبابه مثال اسمه بالى أن ينحت له تمثالاً نصفياً وحدد له جلسة لبدء العمل . ولما حضر هوليوك فى الموعد المتفق عليه اكتشف أن المثال خدعه وغرر به وأنه قد شد رحاله فى اليوم السابق إلى مانشستر دون أن يترك وراءه كلمة إعتذار واحدة . ولاحظ رؤساؤه فى المسبك أن صحته بدأت تتدهور بشكل ملحوظ فأجبروه على القيام بأجازة ينال فيها قسطاً من الراحة فما كان منه إلا أنه سافر إلى مانشستر ليقابل المثال الكذاب ويلقنه درساً فى الصدق والأخلاق .

وفى شبابه وقع هوليوك فى غرام حسناء غجرية فتنته بسحرها ونورانيتها . ولكن هذا الحب لم يؤت ثماره لجملة أسباب منها شدة خفر الفتاة ورومانسيتها ، فضلاً عن خشيته من أن يكون ارتباطه بها سبباً فى تعطيل طموحه الذى بدأ يظهر منذ يفاعته وهو فى الخامسة عشرة من عمره عندما أصبح عضواً فى الحركة الثورية الراديكالية المعروفة بالحركة الميثاقية ، ولم ينس هوليوك هذه الفتاة الغجرية قط طيلة حياته بل ظلت تطوف بمخيلته وتراوده فى أحلامه فى قابل أيامه . ولكنه على أية حال وجد فتاة أخرى تتصف بالشجاعة وشدة البأس تقف بجانبه وتشد أزره فى كفاحه وتساعده على تحمل المكاره . وهى ابنة رجل عسكرى تدعى إليانور وليامز التى وافقت على الزواج منه رغم ما فى ذلك من مخاطر ، فقد نذر حياته لرفع الظلم عن الطبقات العاملة الفقيرة . وقبل زواجه من إليانور بعامين قابل هوليوك روبرت أوين فى الاجتماعات التى كان هذا الاشتراكى الكبير يعقدها فى برمنجهام . وفى عام ١٨٣٨ أصبح هوليوك عضواً فى الجمعية التى أسسها أوين باسم «جمعية جميع الطبقات فى كل الأمم» والتى ألقى فيها هوليوك أولى محاضراته عن الاشتراكية والمذهب التعاونى . ولكنه فشل فى التأثير فى جموع السامعين بسبب ضآلة حجمه وصوته الرفيع الثاقب . وقد نادى هوليوك بالآراء الراديكالية نفسها التى نادى بها أنصار المذهب الميثاقى مثل حق المواطن فى الانتخاب وسرية الاقتراع كما نادى بإلغاء الشرط الذى ينص على ضرورة أن يكون عضو البرلمان من أصحاب الأملاك . ورغم إيمانه بالأفكار الثورية فقد كان يمقت العنف ويشمئز منه . وذهب إلى أن واجب الاشتراكيين الإنجليز يملى عليهم العمل على تحسين المجتمع دون اللجوء إلى استخدام العنف بل إقناع الناس بمعقولية التغيرات الاجتماعية المقترحة وبأن مصالحهم تكمن فى هذه التغيرات .

وعند زواجه من إليانور كان الدخل الذى يدره عليه عمله فى التدريس فى معهد

الميكانيكا وتدريس الرياضيات فى مدارس الأحد ضئيلاً للغاية . ورغم إنكاره للدين فإن عداوته له كانت أقل حدة من عداوة كل من ريتشارد كارليل وروبرت تيلور له . ولا غرو فى ذلك فقد كان ذا طبيعة معتدلة وأقرب فى قصده إلى وليم هون . ورغم أنه بدا ملحداً فى أحاديثه فقد آمن بوجود إله يهيمن على حركة الكون وينظمها . ثم انتقل وزوجته وطفله إلى بلدة ورستر حيث استعانت به جماعة من أتباع روبرت أوين فى تدريس الملتحقين بالورشة التى أسسها باسم «قاعة العلوم» . ونظراً لمهارته التى تميز بها فى مجال التدريس فقد تم تعيينه عام (١٨٤١) بوظيفة محاضر بمدينة شيفيلد الصناعية . وفى شيفيلد واجهته أزمة ضمير فقد كانت قاعات المحاضرات آنذاك تعمل بتصريح من الجهات الدينية المختصة كان لابد للحصول عليه أن يقسم المحاضرون على إيمانهم بالعقيدة المسيحية وبالكتاب المقدس . وأسقط فى يد أتباع روبرت أوين لأن السلطات لن تسمح لهم بمزاولة التدريس إذا امتنعوا عن القسم . وهنا أصر هوليوك على تكوين جماعة باسم «نقابة الأربعة للصمود والتحدى» هدفها إصدار دورية فى بريستول بعنوان «عراف العقل» تدعو إلى حرية الفكر . ورغم أن هوليوك لم يكن ملحداً مثلما كان زملاؤه الثلاثة الآخرون من أعضاء نقابة الأربعة بل كان تأليهياً معتدلاً فإنه وجد نفسه مضطراً إلى التضامن مع زميليه فى النقابة الأخوين ساوثويل فى كل ما نشراه فى مجلة «عراف العقل» من زراية بالدين .

لم يكن إلحاد تشارلس ساوثويل السبب فى محاكمته بل كان السبب فى ذلك تعبيره عن الإلحاد بلغة قاذعة ومسيئة . واعترفت المحكمة بحقه فى أن يرى ما يشاء فى الدين ولكنها اعترضت على مجاهرته بإلحاده بهذا الأسلوب المقيت القاذع وذهبت إلى أنه كان أجدر به أن يحتفظ بأفكاره لنفسه ، ويعتبره المؤرخون أول ملحد حقيقى يجاهر بإلحاده بهذه الصورة المقيتة فى إنجلترا . كان تشارلس ساوثويل بائع كتب وجندياً وممثلاً ومحاضراً يحظى بالشعبية كما كان على الصعيد السياسى راديكالياً من أتباع الحركة الميثاقية واشتراكياً ممن يسيرون على درب روبرت أوين . نشر ساوثويل أول عدد من «عراف العقل» فى ٦ نوفمبر (١٨٤١) فنجح فى اجتذاب أنظار الناس إليها . ويتباهى ساوثويل فى العدد الأول من هذه الدورية بأنها أول مجلة إلحادية من ألفها إلى يائها : وحتى ندرك مدى ما وصل إليه هذا الملحد فى تحقير الدين والحط من شأنه نقول إن صفحات العدد الرابع من هذه المجلة تحمل مقالا بعنوان «كتاب اليهود» جاء فيه أن الكتاب المقدس عبارة عن تسجيل فاضح لتاريخ الشهوة واللواط وسفك الدماء على أوسع نطاق . ويستطرد هذا المقال فيصف الكتاب المقدس بأنه أحقر الكتب وأغلظها التى قيض للإنسانية أن تخرجها . فضلاً عن أنه يفوق فى إباحيته كل الروايات الداعرة ذات الصيت الذائع التى أنتجتها قرائح المؤلفين . وعافت طبيعة هوليوك الرقيقة المهذبة استخدام هذه اللغة الخشنة والبذيئة . ولكنه ألفى نفسه مضطراً إلى قبولها بسبب إيمانه بأنه من حق كل إنسان أن يعبر عن رأيه بالطريقة التى يراها مناسبة ، وأن الحكم على هذه اللغة لا ينبغى أن يكون مرجعه إلى القانون ولكن إلى استساغة القراء أو رفضهم لها .

ولم تسكت السلطات فى بريستول على تحقير تشارلس ساوثويل للدين بهذا الشكل الفظيع وقوله إن الرسل والأنبياء من موسى حتى القديس بولس عبارة عن مجموعة من النصابين

والمتعصبين المتعطشين لسفك الدماء . وانتهى الأمر بالقبض عليه فى ٢٧ نوفمبر (١٨٤١) بتهمة التجديف وأودع فى السجن لمدة سبعة عشر يوماً قبل الإفراج عنه بكفالة . ولم يستند الإدعاء فى توجيه الاتهام إليه على تهمة التجديف بل إلى أن آراءه الموغلة فى الشطط من شأنها «أن تفضى إلى ارتكاب أعمال العنف» . وسلم الإدعاء بحقه فى اعتقاد ما يشاء ولكن رأى أنه لا يحق له أن ينشر ما يشاء حرصاً على المجتمع وحمايته من الأذى . وفى الجلسة الأولى من المحاكمة ظل ساوثويل يدافع عن نفسه على مدى سبع ساعات كاملة تكلم فيها دون انقطاع فاضطر القاضى إلى استئناف الجلسة فى اليوم التالى حيث أمضى المتهم بضع ساعات أخرى فى الذود عن نفسه . وأخذ ساوثويل يخوض فى شتى الموضوعات دون أن يركز فى موضوع التجديف وهو الاتهام الأصلى . ولم يقاطعه القاضى فى استرساله الممل إلا قليلاً فطاف يتحدث فى غير ترابط عن نظام المحلفين والقانون الكنسى والاشتراكية وتاريخ طائفة الكويكرز وروبرت أوين والخزعبلات والفرق بين المذهبين الكاثوليكى والبروتستانتى وفلسفة أرسطو وباسكال والكتاب المقدس ككتاب شعر . وتعمد ساوثويل أن تجىء محاضراته فى كل هذه الموضوعات قوية بالأسانيد والحجج الأمر الذى أشاع جواً من الملل فى قاعة المحكمة . ولم يقاطعه القاضى إلا قليلاً . فعلى سبيل المثال قاطعه عندما حاول أن يتلو على المحكمة فقرات من كتابات ڤولتير بهدف التدليل على أن كثيراً من أعاظم كتاب العالم لا يؤمن بالدين .

ومن ناحيته اقتبس الإدعاء بعض الفقرات من كتاب فرانسيس ل . هولت «تاريخ وملخص قانون القذف» الخاصة بتعريف كلمة التجديف ورد عليه ساوثويل باستحالة الوصول إلى تعريف لهذه الكلمة . واضطرت المحكمة إلى إخلاء القاعة من النساء عندما أصر المتهم على قراءة الفقرات البذيئة الواردة فى الكتاب المقدس التى تحكى قصة لوط مع بناته . وبعد انتهاء المرافعة وأخذ رأى المحلفين أصدرت المحكمة حكمها بالزج به فى السجن لمدة عام ودفع غرامة قدرها مائة جنيه . وبعد خروجه من السجن دب الخلاف بينه وبين زملائه الراديكاليين حول موضوع أفضل وسيلة لنشر الإلحاد بين الجمهور .

كما أنه تشاجر شجاراً عنيفاً مع هوليوك . ثم هاجر إلى أستراليا ونيوزيلاند فتولى هوليوك تحرير مجلة «عراف العقل» من بعده . وقبل أن نعرض لفترة تحرير هوليوك هذه المجلة يجدر بنا أن نشير إلى لجنة الدفاع عن ساوثويل التى تكونت لتقف بجانبه فى محنته .

نبدأ بالقول إن هيثرنجتون لعب دوراً بارزاً فى نشاط هذه اللجنة . علماً بأن هيثرنجتون كان قد أصدر عام (١٨٣١) صحيفة باسم «الوصى على الرجل الفقير : صحيفة أسبوعية من أجل الشعب» شن فيها هجوماً عاتياً على القوانين التى تكبل حركة توزيع المطبوعات نتيجة فرض الضرائب البريدية عليها . وقد زج بهيثرنجتون فى السجن ثلاث مرات مرتان لمدة ستة أشهر ومرة أخرى لمدة أربعة أشهر . وشحذ هيثرنجتون ذهنه لتحاشى دخول السجن على عكس ريتشارد كارليل الذى استمتع بحياة السجون . فلا غرو إذا رأينا هيثرنجتون يمضى فى تضليل الشرطة والتمويه عليهم وصرف انتباههم عن نشاطه فى توزيع المطبوعات . ولكن هذا لم يحل دون إلقاء القبض المتكرر عليه

وتقديمه إلى المحاكمة . ويبدو أن مرافعته عن نفسه كانت مشوقة لدرجة أنها أثارت إعجاب القضاة والمحلفين على حد سواء ، الأمر الذى دفع المحكمة إلى الحكم ببراءته فى كثير من الأحيان مكتفية بفرض غرامات كبيرة عليه . غير أن تبرئة ساحته لم يمنع المحكمة من إدانة المئات من أعوانه وإصدار أحكام بالسجن عليهم .

وفى العام نفسه الذى ألقى البوليس فيه القبض على ساوثويل ، قام هيثرنجتون بإيحاء من فرانسيس بلاس باتهام موكسون - وهو رجل من علية القوم اضطلع بنشر أعمال الشاعر شلى - بالتجديف والمروق على الدين ، وكان يهدف من وراء اتهام هذا الناشر بالتجديف أن يقيم الدليل على تحيز القضاء الإنجليزى الذى يتعنت ضد الناشرين المنحدرين من أصول اجتماعية متواضعة ويتلطف مع الناشرين المنتمين إلى طبقة وجهاء المجتمع . وبالفعل صدق ظن هيثرنجتون . فعندما مثل الناشر الأرستقراطى موكسون أمام المحكمة لم تحكم عليه بأية عقوبة الأمر الذى يدل على أن القانون يطبق على بعض الطبقات الاجتماعية دون الأخرى .

والجدير بالذكر أن اللجنة التى تكونت للدفاع عن ساوثويل وجدت دعماً ومؤازرة ليس من لندن وحدها بل من بريستول وبرمنجهام وشيفيلد وجلاسجو وإدنبره أيضاً . وعند تقديم ساوثويل للمحاكمة يوم ١٤ يناير (١٨٤٢) خف هنرى هيثرنجتون لمساعدته والوقوف بجانبه . وحضر المتهم ساوثويل إلى قاعة المحكمة ومعه كما ألمحنا كومة كبيرة من الكتب للرجوع إليها فى دفاعه عن نفسه على نحو ما فصلنا ، وطلب من القاضى منضدة ليضع عليها الكتب فاضطر القاضى إلى الاستجابة لطلبه . وبدا قفص الاتهام أشبه ما يكون بفاترينة لعرض الكتب .

قلنا إن دفاع ساوثويل عن نفسه وهو فى قفص الاتهام كان مملا ولكننا لم نقل إنه جاء مغايراً تماماً لكتاباته . ففى حين اتسمت كتاباته بالعداونية والعنف والشطط تميز دفاعه عن نفسه بالتعقل والاعتدال وجدية المعالجة والاعتماد على الدراسات والاستشهاد بالمراجع على نحو ما أسلفنا . كما أنها كانت تدعو إلى الملل مثلما بينا . ويمكن القول إنه لو كانت كتاباته الصاخبة من نوع دفاعه عن نفسه فى المحكمة لما تعرض للاتهام ولبرئت ساحته .

وانتهز الإدعاء فرصة محاكمة ساوثويل وتشويه المذهب الاشتراكى الذى دعا أتباع روبرت أوين إليه عن طريق الربط بين الاشتراكية وتجديف ساوثويل الذى ذهب من جانبه إلى ضرورة الفصل بين المذهب الاشتراكى وبين آرائه المجدفة . وحتى لا يتحمل المذهب الاشتراكى عبء تجديفه قرر ساوثويل الاستقالة من الجمعية الأوينية وشرح للقاضى أنه لا يرضى عن مسلك أتباع أوين لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون . فهم يقسمون من باب الخديعة والتمويه أنهم يؤمنون بالعقيدة المسيحية فى حين أنهم يضمرون للمسيحية الموجدة والعداء .

أما هو فيرفض مثل هذا الرياء ويرفض أن يقسم على إيمانه بالمسيحية التى ينكرها عقله . وبعد أن دخل ساوثويل السجون تولى هوليوك تحرير مجلة «عراف العقل» عام (١٨٤١) منتهجاً سياسة

معتدلة فى تحرير هذه المجلة بحيث جنبها التعرض للمساءلة القانونية .

اعتزم هوليوك زيارة ساوثويل فى سجن بريستول فقرر السفر سيراً على الأقدام حتى يصل إلى هذه المدينة . واعتمد فى كسب قوته أثناء رحلته على إلقاء بعض المحاضرات . ففى ٢٤ مايو (١٨٤٢) وصل إلى مدينة تشيلتنام حيث ألقى إحدى محاضراته وذلك فى طريقه إلى بريستول . وكان من عادة هوليوك فى ختام محاضراته أن يسأل الحاضرين أن يطرحوا عليه ما يعن لهم من أسئلة ، فقام رجل دين اسمه ميتلاند وسأله إذا كانت المجتمعات التعاونية التى يقترح الاشتراكيون من أتباع روبرت أوين إنشاءها تسمح ببناء الكنائس ودور العبادة المسيحية . وهنا ارتكب هوليوك زلة لسان رغم كل ما اتسم به من اعتدال وبعد عن الشطط كلفته غالياً ، فقد أجاب بما يلى :

«إننى لا أرغب فى الخلط بين الدين وبين الموضوعات الاقتصادية والعلمانية . ولكن مادام أن المستر ميتلاند طرح هذا السؤال المتعلق بالدين فسوف أجيب عن سؤاله بصراحة . إن ديوننا القومية تثقل كاهل الفقراء كما أن كنيستنا القومية وعامة مؤسساتنا الدينية تكلفنا - وفقاً للتقديرات الموثوق بها - نحو عشرين مليون جنيه كل عام . ولأن العبادة باهظة التكاليف إلى هذا الحد فإنى أناشد عقولكم وجيوبكم أن تدركوا أننا أفقر من أن نؤمن بإله ونحتفظ بإيماننا به . ولو أن بعض المواطنين المساكين مثل الجنود والعسكر كلفوا الدولة هذا المبلغ الكبير لقامت بتخفيض رواتبهم إلى النصف . ومادمنا نعانى من ضائقة مالية فإن الحكمة تقتضى منا أن نستغنى عن الله . ومن ثم فإنى من ناحية الاقتصاد السياسى أعترض على إنشاء دور العبادة المسيحية فى المجتمعات المقترح إقامتها . أما إذا رغب الآخرون فى بنائها فهم أحرار فيما يفعلون . غير أنى لعدم إيمانى بالدين لن أتقدم باقتراح بنائها . إننى أكن التقدير والاحترام للأخلاق ولكنى لا أعتقد بوجود شىء اسمه الله . إن رجال الدين يقولون من فوق منابر الكنائس (فتشوا فى الكتاب المقدس) فإذا جاء البعض وصدقهم وعن له أن يفعل ما يدعون إليه فإنهم يزجون به فى سجن بريستول مثلما فعلوا مع صديقى المستر ساوثويل . وإنى أقول عن نفسى إننى أهرب بجلدى من الحية الرقطاء وأشعر بالغثيان عندما يلمسنى مسيحى» .

ومن الواضح أن اللغة التى استخدمها هوليوك لغة مستفزة وغير لائقة . ولهذا استقبلها جمهور الحاضرين بنوع من الابتسام والتسلية الهادئة ، بل إن صحيفة تشيلتنام كرونيل المحلية أوردت فى تقريرها الذى نشرته بشأن هذه الحادثة أن جانباً كبيراً من الجمهور استقبل كلمة هوليوك بالتهليل والتصفيق .

وعقب زيارة هوليوك لصديقه تشارلس ساوثويل فى سجن بريستول آلمه أن يرى زميله يكابد محنة الحبس بسبب التعبير بحرية عن رأيه فزاد ذلك من تشدده وعنفوان هجومه على الدين رغم أن هذا لم يكن متماشياً مع شخصيته المتسمة بالقصد والاعتدال .

وليس أدل على اعتداله من أنه ابتعد بمجلة «عراف العقل» عندما تولى تحريرها عن هجوم ساوثويل القاذع على الدين إلى التركيز على مشاكل الفقر والمجتمع . ولكن من الواضح أن حزنه على صديقه ساوثويل أطاش بعقله وجعله يتهوّر فى هجاء الدين . بل إنه تعمد أن يتمادى فى تطاوله

على الله وإنكار وجوده ، الأمر الذى دفع صحيفة تشيلتنام كرونيل إلى أن تقول إن آراء هوليوك واضحة التجديف ومن ثم كان خطرها على المجتمع وضرورة اتخاذ الإجراءات القانونية ضد صاحبها . وأراد القاضى تحذير هوليوك وتنبيهه إلى ضرورة مغادرة مدينة تشيلتنام التى عاد إليها خصيصاً كى يدافع عن نفسه ضد اتهامات صحيفتها له ، وتظاهر هوليوك بمغادرتها ولكنه عاد إليها سراً فى المساء حيث قررت جماعة من الميثاقيين والراديكاليين عقد اجتماع لمناقشة موضوع الحرية الدينية والمدنية بعد أن تلقوا تهديداً بإغلاق قاعتهم إذا ما تحدث فيها هوليوك مرة أخرى . ولكن أنصاره لم يعبأوا بهذا التهديد وقاموا بتهريبه من القاعة ليشرح للجمهور الأسباب والمبررات التى دعته إلى التطاول على الدين والألوهية فى محاضراته المستفزة التى أشارت إليها صحيفة تشيلتنام كرونيكل تحت عنوان «هوليوك الخطيب الاشتراكى المجدف» . وعندما ترامى إلى أسماع الناس أن هوليوك سوف يتحدث فى الاجتماع امتلأت القاعة عن آخرها . وكان الاجتماع هادئاً ومسالماً للغاية حضره ضابط شرطة اسمه راسل . ولاحظ هوليوك عند دخوله القاعة وجود نحو اثنى عشر شرطياً يقفون على باب القاعة كى يمنعوه من الهرب إذا ما حاول ذلك . وفى بادىء الأمر فكر هوليوك أن يتجنب الخوض فى الحديث عن عدم وجود الله توخياً للحيطة والحذر ولكن إقبال الجمهور على محاضرته أنساه حذره وأغراه بمعالجة هذا الموضوع الشائك لعله يتمكن من اجتذاب بعض الحاضرين وإقناعهم بوجهة نظره . وانتظر ضابط البوليس راسل حتى نهاية الاجتماع ثم تقدم إلى هوليوك ليعلنه أن لديه تعليمات بالقبض عليه . وعندما ألقى البوليس القبض عليه طعن هوليوك فى إجراءات القبض عليه لأن الضابط لم يكن يحمل معه إذناً من النيابة بذلك . غير أن القاضى لم يبال باحتجاجه ونهره قائلاً : «نحن نرفض أن نتناقش مع إنسان يؤمن بصراحة بمبدأ بشع يتمثل فى إنكار وجود الله» .

ونودى على الشهود ضد هوليوك فلم يكن لديهم جديد يضيفونه إلى ما جاء فى تقرير صحيفة تشيلتنام كرونيكل . وبعد سماع شهادة الشهود قال القاضى له : «نحن لا يهمنا إذا كنت تؤمن بالدين ولكن سعيك إلى نشر الفكرة المشينة بأن الله غير موجود من شأنه أن ينشر الفوضى والاضطراب وأن ينتهك سلام المجتمع» . ورغم أن كلا الاجتماعين اللذين عقدهما هوليوك كانا يتسمان بالنظام والهدوء فقد وجه الإدعاء إليه تهمة «الإخلال بالسلام» . وقد عرض عليه بعض المتعاطفين معه دفع الكفالة المطلوبة للإفراج عنه . ولكنه رفض عرضهم إذ أراد أن ينتهز هذه الفرصة السانحة للتشهير بالحكومة الجائرة التى تقمع حرية الرأى والتعبير وزيادة عدد المتعاطفين معه والمؤمنين بعدالة قضيته . ولهذا فضل ألا يدفع الكفالة وأن يعود إلى زنزانته برفقة حارسه الذى عرّفه بالمستر بنشنج طبيب السجن الذى كان يرغب فى مجادلته والتناقش معه . بدأ الطبيب نقاشه مع هوليوك مدللاً على وجود المسيح من الناحية التاريخية ، فرد عليه هوليوك بقوله إنه لا يبحث فى مسألة الوجود التاريخى للمسيح ولكنه يهتم بما ورد على لسانه من أقوال . وسأله الطبيب إذا كان روبرت أوين مسئولاً عن اعتناقه الإلحاد فأجاب بقوله إن أوين ليس ملحداً وإن السبب الحقيقى فى إلحاده يرجع إلى الحكم على زميله ساوثويل بالحبس بسبب تعبيره عن رأيه . وهنا استشاط طبيب

السجن غضباً وبدأ يوجه إلى هوليوك ألفاظاً نابية لدرجة أن حارس السجن حاول تهدئته دون جدوى . وفى غضبه العارم أنهى مستر بنشنج حديثه بقوله : «إننى لا آسف على شيء قدر أسفى على انتهاء الزمان الذى كنا فيه نستطيع أن نرسلك ونرسل أوين معك لتعليقكما على عامود التعذيب بدلاً من الاكتفاء بإرسالك إلى سجن جلوستر» .

وفيما بعد عندما صدر الحكم ضد هوليوك بالسجن فعلاً جاءه قسيس السجن ودار بينهما الحوار التالى الذى بدأه هذا القسيس بقوله :

- هل أنت حقيقة ملحد يا مستر هوليوك ؟

- نعم إنى كذلك .

- هل تنكر وجود الله ؟

- هذا غير صحيح فأنا أنكر أن هناك أسباباً كافية للإيمان بوجوده .

- يسعدنى للغاية أن أجد أنه ليس لديك الشجاعة أن تنكر وجود الله .

- وإنه يؤسفنى أن أجد أن لديك الشجاعة أن تقول بوجود إله . فلو أنه من السخف أن أنكر مالا أستطيع التدليل عليه فإن من غير اللائق بك أن تؤكد بشكل قاطع ما لا تستطيع إثباته .

- هل تتخلى إذن عن مسألة الإلحاد .

- إنها مسألة احتمال .

وهكذا يتضح لنا أن هوليوك لم يكن ملحداً بل كان لاأدرياً وهو ما سوف نعود إليه عندما نعرض لوقائع المحاكمة .

وعندما تأكد بوليس تشيلتنام أن المتهم سادر فى غيه قاموا بحبسه فى زنزانة مع محبوس آخر يمتلىء جسده وملابسه بالقمل . ثم قرروا نقله إلى سجن جلوستر . فاقتاده الحراس ويداه مقيدتان بالأغلال فى شوارع تشلتنام وساروا به على الأقدام إلى سجن جلوستر الواقع على مبعدة تسعة أميال . ولم يشعر هوليوك بالمهانة من جراء هذه المعاملة الخشنة الفظة بل شعر بالارتياح لأن هذا التنكيل يفضح أكذوبة المجتمع المسيحى الذى يقسو فى معاملة الباحثين عن الحقيقة ولم يتخل عنه أصدقاؤه فى محنته بل انتظروا خروجه من باب السجن واصطفوا خلفه حتى وصلوا إلى محطة السكة الحديد .

وأراد الحراس استكمال المسيرة سيراً على الأقدام . ولكن أنصار هوليوك نجحوا فى إقناعهم بالسفر مع السجين فى القطار على نفقتهم حتى يجنبوا زميلهم المذلة والهوان . والذى لاشك فيه أن هوليوك استطاع أن يستغل هذه الحادثة للدعاية عن آرائه وإثبات قسوة اضطهاد البروتستانت للشكاكين والملاحدة والمخالفين لهم فى الرأى رغم أنهم هم أنفسهم لقوا الأمرين فى الماضى على أيدى معارضيهم من الكاثوليك . وبهذا نجح فى استدرار عطف بعض الناس عليه بسبب تعنت السلطة معه فذهبت صحيفة تشيلتنام الحرة فى افتتاحيتها إلى أنها تشجب فرض العقيدة المسيحية

على المجتمع عنوة واقتداراً ، كما ترفض فكرة حماية المجتمع من شرور الكفر والإلحاد عن طريق سن القوانين والتشريعات . وأضافت الصحيفة أن القول بأن إله الحق جلت قدرته يحتاج إلى اضطهاد الكفرة والملاحدة ليدرأ عن نفسه خطرهم هو فى حد ذاته نوع من التجديف والشك فى قدرة الله على كل شيء . وعندما وصل هوليوك إلى سجن جلوستر وجد زنزانته تزخر بالقمل الزاحف على الملاءات لدرجة أنه لم يغمض له جفن طوال الليل .

وقبل أن نصف محاكمة هوليوك يجدر بنا أن نذكر حقيقتين : أولاهما أن قضاته كانوا على استعداد لتبرئته لو أنه تصرف بكياسة . فقد حاول قاضياه أن يجعلاه يتخلى عن تشبثه بالأفكار الإلحادية إذ قالا له إنهما لا يعتبرانه ملحداً بل مجرد مؤمن بالمذهب التأليهى . ويدل ذلك على أن المجتمع الإنجليزى آنذاك (فى عام ١٨٤٢) كان لا يجد غضاضة فى الإيمان بالمذهب التأليهى ولكنه يجد غضاضة كبيرة فى الإلحاد وإنكار وجود الله . أما الحقيقة الثانية فمفادها أن هوليوك لم يكن ملحداً فى أى يوم من الأيام ولكنه لجأ إلى اتخاذ مواقف إلحادية كنوع من التحدى لمجتمعه الذى يقمع حرية الرأى كما يتضح من اعترافه اللاحق بأن ولاءه لصديقه ساوثويل هو الذى دفعه إلى إعلان إلحاده إمعاناً فى استفزاز المجتمع . والغريب أن واحداً من قاضييه واسمه برانزبى كوبر شعر بنوع من التعاطف معه وطلب إليه أن يستعين بمحام خبير يدافع عنه . ولكن هوليوك رفض قائلاً إنه أقدر على الدفاع عن وجهة نظره من أى محام لأن قضيته قضية رأى وضمير فى المقام الأول والأخير .

وقد أوردت صحيفة تشيلتنام الحرة فى افتتاحيتها الأسبوعية وتقارير مراسليها أنباء محاكمة هوليوك التى ما لبثت أن تحولت إلى قضية رأى عام . فقد عقد اجتماع فى تشيلتنام تحدث فيه مفكرون أحرار وممثلون عن طوائف البروتستانت والكاثوليك وأتباع المذهب الاشتراكى وانتهى هذا الاجتماع باحتجاجهم جميعاً على أسلوب الشرطة فى القبض على هوليوك واحتجازه وأسلوب القضاة الفظ فى معاملته وأرسلوا احتجاجهم إلى چون آرثر روبك عضو مجلس العموم عن باث لعرض الموضوع على البرلمان البريطانى . ولكن روبك آثر اختصار الوقت فاتصل بوزير الداخلية السير چيمس جراهام الذى وعد بإجراء تحقيق فورى فى الأمر . أضف إلى ذلك أن صحيفة ويكلى ديسباتش اعترضت على تصرفاته المنحازة والجائرة ضد هوليوك . وبعد أن أمضى هوليوك ستة عشر يوماً فى سجن جلوستر تم الافراج عنه بكفالة دفعها نيابة عنه صديقان من ورستر . وفى تلك الفترة التى كان فيها هوليوك طليقاً تحدث فى حانة درج فيها المشتغلون بالسياسة على مناقشة الشئون العامة لدرجة أنها أصبحت تعرف باسم «بيت أعضاء مجلس العموم» وفى هذا الحديث شرح هوليوك قضيته . فقرر المجتمعون أن يفتتحوا اكتتاباً للإسهام فى دفع نفقات محاكمته والدفاع عنه . ورغم أن هوليوك آثر أن يتولى الدفاع عن نفسه فقد أمده محام شاب ضليع اسمه چون همفريز بارى بالمحاجات القانونية التى يستند إليها . كما أن شخصاً تعرف إليه مصادفة أثناء سيره على كوبرى بلاك فراير شد من أزره ورفع من روحه المعنوية ولا غرو فقد كان هذا الشخص هو كارليل الذى سبق أن تحدثنا عنه . وأثنى كارليل على هوليوك وامتدح موقفه . ودعاه إلى الحضور فى المساء ليستمع إلى المحاضرة التى سوف يلقيها فى قاعة العلوم «بعنوان التفسير العلمى الجديد للكتاب المقدس» . وأيضاً

دعاه كارليل للاشتراك فى المناقشة التى سوف تعقب هذه المحاضرة .

فاغتنم هوليوك هذه الفرصة ليشرح وجهة نظره التى أطلق عليها اسم العلمانية وهو ما سنعود إليه بشىء من التفصيل .

وبهذا يكون هوليوك أول من استحدث كلمة العلمانية فى اللغة الإنجليزية .

ويبدو أن السير جيمس جراهام نقل قضية هوليوك إلى محكمة أخرى حتى يتحاشى تحيز القضاة ضده . وفى تلك الأثناء تم القبض على واحد من أصدقاء هوليوك اسمه جورج آدمز بتهمة بيع العدد ٢٥ من مجلة «عراف العقل» وما إن سمعت زوجة آدمز خبر القبض على زوجها حتى بادرت بالذهاب إلى السجن لرؤيته فألقى البوليس القبض عليها بتهمة بيع العدد الرابع من المجلة نفسها .

وفى يوم محاكمة هوليوك غصت قاعة المحكمة الجديدة بالحضور ودفع حب الاستطلاع الكثيرات من سيدات المجتمع الراقى إلى حضور الجلسة التى استمرت حتى وقت متأخر من المساء . وكان مشهد المحاكمة غريباً للغاية فقد حضر المتهم ومعه لفافة كبيرة من الكتب والمراجع أصر على اصطحابها فى قفص الاتهام .

فى أثناء المحاكمة تصرف هوليوك بحكمة وتعقل وعبر عن آرائه المتشككة باعتدال واتزان جليين فلم ينكر وجود الله ولكنه استبعد فكرة وجوده موضحاً الأسباب التى تدعوه إلى ذلك . ولم يكن المحلفون على المستوى الثقافى الذى يسمح لهم باستيعاب محاجاته فهم جماعة من المزارعين والتجار الذين لا قبل لهم بالمناقشات الفكرية التى يعتبرونها مضيعة للوقت . ويجدر بنا أن نؤكد مرة أخرى أنه كان بإمكان هوليوك فى إحدى مراحل المحاكمة - لو أنه شاء ذلك - أن يحصل على حكم من المحكمة ببراءته . ولكنه أراد غير هذا وسعى بنفسه إلى إدانة نفسه حتى يصبح شهيد الفكر الحر . فقد هز مشاعر جميع الحاضرين عندما قص على المحكمة الأسباب التى دعته إلى نبذ الدين وظروف حياته التعسة . وأجهشت السيدات بالبكاء من فرط التأثر . قال هوليوك إن والده كان تاجراً ناجحاً يعيش فى بحبوحة من العيش . غير أن تجارته أصابها الكساد والبوار فتدهورت أحوال العائلة المالية وبدأت تعانى الفاقة وشظف العيش . وزاد من تعاسة الأسرة أن أخته أصيبت بمرض عضال . . وطلب قسيس العائلة منها تسديد مبلغ كان يتعين عليها تسديده بمناسبة حلول عيد القيامة المجيد ورغم أن المبلغ - وهو أربعة بنسات - كان زهيداً فإن العائلة كانت فى كرب شديد وضيق بالغ . ومن ثم قررت ألا تدفع للقس مستحقاته عملاً بالمبدأ القائل : «إذا كان البيت يحتاج إلى الزيت يحرم على الكنيسة» .

وفى الأسبوع التالى وصلهم أمر من هذا القسيس بدفع غرامة تأخير قدرها شلنان وستة بنسات . وخشيت العائلة من مغبة عدم دفع الغرامة ومن الإجراءات القانونية التى تتخذ ضدها نتيجة لذلك فقد كان من حق القسيس أن يستصدر أمراً ببيع أثاث منزلهم وفاء للدين المستحق عليهم . واضطرت العائلة أن تبيع بعضاً من أثاث منزلها حتى تمكنت أخيراً من جمع الغرامة

المستحقة . وحملت الأم المبلغ وتوجهت إلى مكتب دفع الغرامات تاركة ابنتها المريضة وهى على أحر من الجمر كى تعود إليها على وجه السرعة . ولكن الصراف تركها تنتظر خارج المكتب ما يقرب من ست ساعات قبل أن تتمكن من سداد الغرامة المطلوبة . فلما عادت إلى البيت كانت ابنتها قد لفظت أنفاسها الأخيرة . واختتم هوليوك قصته الفاجعة بقوله : «أيها السادة المحلفون لعلكم تفهمون الآن لماذا قلت إنه ينبغى تخفيض المبالغ التى نصرفها على الله إلى النصف» . وهنا انخرطت سيدات كثيرات فى البكاء . وكان بإمكان هوليوك لو توقف عند هذا الحد أن يحصل على حكم ببراءته . ولكن الأمور تعقدت عندما استمر فى الحديث عن مدى استغلال رجال الدين لثروات البلاد القومية . فقال إن الإحصائيات تثبت أن رجال الدين يكلفون الدولة مالا طاقة لها به . فالكاثوليك البالغ عددهم فى العالم نحو ١٢٤ مليون شخص يدفعون أكثر من ستة ملايين جنيه استرلينياً كما أن البروتستانت البالغ عددهم أكثر من ٥٤ مليون شخص يدفعون للكنيسة البروتستانتية أكثر من ١١ مليون جنيه استرلينياً . وعندما استطرد هوليوك فى الحديث عن الإحصائيات المقارنة عنّ للادعاء أن يتدخل للتخفيف من وطأة كلامه على المحلفين قائلاً له : «إذا استطعت أن تقنع المحلفين بأنك تعنى فقط القول بأنه ينبغى تخفيض دخل رجال الأكليروس وأنه لم يكن فى نيتك إهانة الله فسوف أطلب إلى المحلفين أن يبرئوا ساحتك» غير أن هوليوك رد بقوله : «إن الله أكمل وأكبر من أن ينجح أحد فى إهانته» وظل يدافع عن نفسه بطريقة استفزازية الأمر الذى جعل المحلفين ينسون سابق تعاطفهم مع مأساة أخته التى ماتت بسبب الممارسات الكنسية الخاطئة التى لا تراعى الاعتبارات الإنسانية . ورغم أن أحد المحلفين كان يشارك هوليوك إيمانه بالمذهب التأليهى فإنه لم يجد فى نفسه الشجاعة فى أن يقف بجانبه فى مواجهة الغضب العارم الذى رآه يجتاح زملاءه المحلفين . ولا شك أن دفاع هوليوك المستفيض عن نفسه الذى دام أكثر من إحدى عشرة ساعة مستعيناً فيه بأكثر من ثلاثين مرجعاً أصاب المحلفين بالضيق والإعياء لدرجة أن مأمور السجن ذكر له يوماً من الأيام أنه يستحق عقوبة الحبس ستة أشهر التى حكم عليه بها لا لجريرة سوى أنه استنفد صبر المحلفين عليه . وبعد انقضاء ثمانية عشر عاماً سجل هوليوك وقائع هذه المحاكمة فى كتاب بعنوان «محاكمة المحلفين الآخرين للإلحاد» اعترف فيه بأنه يستحق العقوبة التى وقعت عليه بسبب الساعات الطوال التى قضاها فى الدفاع عن نفسه أكثر من العبارات التى أخذتها المحكمة عليه وأصدرت حكمها ضده بناء عليها . والجدير بالذكر أن ريتشارد كارليل كان يجلس بجواره وهو فى قفص الاتهام يشد من أزره ويلقنه الكلمات والأفكار التى يستخدمها فى دفاعه عن نفسه .

وكما أسلفنا لو أن هوليوك تخلى عن صلفه وعناده وأبدى شيئاً من الدبلوماسية أو الكياسة لحكم له بالبراءة ونجا بجلده من الحبس وهو لم يظهر هذا الصلف أثناء المحاكمة فحسب بل أيضاً أثناء وجوده بالسجن فقد أصر على أن ترسل إليه جميع المراسلات فى السجن باسم «سجين التجديف» للتمييز بينه وبين المجرمين العاديين . ورفض حضور الصلاة التى تقام فى كنيسة السجن باستثناء صلاة يوم الأحد بهدف سماع ما يبشر به قسيس السجن من كلام أجوف وفارغ . كما أنه رفض أن يلبس ملابس السجن . وتقدم هوليوك إلى وزارة الداخلية بطلب شمعة تضىء له ويسهر

عليها حتى الساعة التاسعة مساء كى يتمكن من دراسة الرياضيات . غير أن المسئولين رفضوا تزويده بشمعة ولكنهم سمحوا له بالسهر حسبما يريد بدون إضاءة أو تدفئة ، الأمر الذى جعل من المستحيل عليه أن يستثمر وقته فى أى عمل مفيد . وحاول كارليل أن يجمع له التبرعات التى تعينه فى الحياة ولكن العمر لم يطل به . وأيضاً وقفت زوجته إلى جواره تشد أزره فى محنته فأثبتت أنها بالفعل ابنة رجل عسكرى منضبط . وعندما قال هوليوك - بعد وضع ساوثويل فى السجن - لزوجته إن واجبه يحتم عليه أن يرأس تحرير «عراف العقل» بدلاً من زميله السجين شجعته على ذلك وطلبت إليه عدم التردد فى أداء واجبه وطمأنته بأنها سوف تبذل قصارى جهدها فى العناية بالأطفال وأنها على يقين من أن أطفالها عندما يكبرون سوف يشعرون بالفخر والعزة لما يتصف به والدهم من إحساس بالواجب . وفى سجنه أهدى إليه أحد القاضيين اللذين أمرا بالقبض عليه كتاباً من تأليف وليم بالى بعنوان «اللاهوت الطبيعى» على أمل أن يكون هذا الكتاب سبباً فى هدايته إلى صحيح الدين . وفشل الكتاب فى إقناعه بصحة المسيحية فكتب رداً يفند فيه الحجج التى ساقها بالى فى كتابه .

ومن المؤسف أن عائلة هوليوك عانت من شظف العيش بعد الزج بعائلها فى السجن . ولم تستطع جمعية «اتحاد مناهضة الاضطهاد» تقديم أية مساعدة تذكر لها فتدهورت صحة ابنته مادلين وخاصة بعد أن اضطر الفقر عائلتها إلى الانتقال إلى مسكن رخيص سيىء التهوية وغير صحى ، الأمر الذى أصاب الفتاة بحمى قاتلة قضت على حياتها . وكان مطلبها الأخير أن ترى أباها المسجون فآخر ما نطقت به قبل أن تقضى نحبها : «اكتبى إليه يا أماه فسوف يأتى ليرانى» . وتبرع أصدقاء هوليوك له بجنيه واحد كى يتمكن من شراء طعام أفضل من طعام السجن ولكنه ادخره كى يرسله لشراء عباءة تقى طفلته المريضة زمهرير الشتاء . ولكن الطفلة فاضت روحها قبل أن يتحقق ذلك فأنفق الجنيه فى شراء التابوت الذى توسدته . ومن ناحية المبدأ رفض الوالدان إقامة أية شعائر دينية على جثمانها فووريت الثرى فى صمت صحبها إلى عالم الأبدية . غير أن باقة الزهور نثرت على تابوتها الصغير الجميل . وكانت وفاة مادلين صدمة هزت كيان والدها فى سجنه لدرجة أن إدارة السجن منعت عنه أية أدوات حادة يمكنه أن يتخلص من حياته بها . وبعد وفاة مادلين تكررت زيارة الزوجة لزوجها فى السجن واستطاعت أن تثنيه عن الانتحار واصطحبت معها ابنته الأخرى إيفيلين التى كانت تشبه مادلين كى ينعم برؤيتها وترتفع روحه المعنوية .

لقد كان هوليوك مثالاً يحتذى فى الفضيلة والخلق القويم خارج السجن وداخله ، فعندما أحضرت له أخته كارولين هدية من الخمور والسيجار رفض قبولها لأن تعليمات السجن تمنع دخول هذه الأشياء فيه . وفى السجن تعلم هوليوك أن يسطر فى الظلام آلاف الخطابات التى أرسلها إلى أصدقائه . وبذلت إدارة السجن - دون جدوى - جهداً جهيداً لهدايته إلى الدين المسيحى فقد ظل متمسكاً بكفره وإلحاده حتى بعد خروجه من السجن . واستمر يدعو إلى الأفكار المجدفة نفسها التى كانت سبباً فى الزج به فيه . وهدده بعض رجال الدين بإعادته إلى السجن إذا لم يكف عن تجديفه فرد عليهم بقوله : «إننى أعتبر نفسى حاصلاً على ترخيص بحرية الكلام . وحتى أحصل على هذا

الامتياز تقاضت منى الحكومة الثمن إذ قامت بسجنى لمدة ستة شهور» .

لقد كان هوليوك قبل سجنه مدرساً شاباً ومغموراً للرياضيات ولكنه ما إن خرج من باب السجن حتى طبقت شهرته الآفاق وصار واحداً من شهداء حرية الفكر المعروفين . وبعد إطلاق سراحه افتتح هوليوك مكتبة فى لندن لبيع الكتب ذات الطابع الثورى والراديكالى كما أصبح سكرتير «الاتحاد المناهض للاضطهاد» فضلاً عن أنه قام بإصدار سلسلة من الدوريات التى عبر فيها عن آرائه .

وفى أواخر أيامه نبذ هوليوك الخوض فى الدين ومناقشة اللاهوت وانصرف بكليته إلى السياسة فدعا إلى الأفكار الثورية وطالب بإقامة النظام الجمهورى كما أنه انخرط بعض الوقت فى الحركة الاشتراكية التعاونية التى استنفدت طاقاته .

قلنا إن هوليوك أول من استخدم كلمة العلمانية . ويرجع أول استخدام له لهذه الكلمة إلى شهر ديسمبر عام (١٨٤٦) عندما أوردها فى مقال نشره فى مجلة «ذى ريزونور» (المجادل العقلانى) . والذى دفعه إلى استحداث هذه الكلمة أنه شعر - شأنه فى ذلك شأن أسلافه توماس بين وريتشارد كارليل وروبرت تيلور - بالحاجة إلى استبدال العقيدة المسيحية بمبدأ بديل . علماً بأنه سبق له أن تحمس للدعوة إلى ما أسماه أتباع روبرت أوين بالدين العقلانى . غير أن دماثة خلقه واعتدال طبعه جعلاه فى العادة ينتقد المسيحية بلهجة غير مستفزة على عكس روبرت تيلور الذى كان استفزازياً فى الهجوم عليه . ويشهد بذلك أحد خصوم هوليوك من رجال الدين وهو القس جوزيف باركر الذى دخل معه عام ١٨٥٥ فى ملاحاة دينية دامت ثلاث ليال . «ومن بداية الملاحاة حتى نهايتها لم يتفوه مستر هوليوك بلفظة نابية واحدة فى كل ما عرضه من حديث وما دافع عنه ببلاغة . فضلاً عن أنه كان يسعى لاكتساب ود أى رجل يغضب منه لتجديفه» .

وفى عام (١٨٥٥) أسس هوليوك جمعية لندن العلمانية التى ظل يرأسها لمدة أربعة أعوام . وكان هدفه من وراء تأسيسها أن يستميل الطبقة العاملة إلى آرائه ويقنعها بأفكاره الملحدة . ومن أبرز أعماله فى هذا الشأن تقرير كتبه عام (١٨٥٧) بعنوان «قضية توماس بولى» . وبولى رجل ملتاث العقل آمن بأن الكرة الأرضية حيوان حى وأن حفر بئر شديد العمق فيها سوف يؤدى إلى تهتك جلده ثم موته . وبموته تتوقف حركة المد على الأرض . ولم يغمض لهذا المجنون جفن لأنه رأى الفساد يعيث فى كل أرجاء المعمورة دون أن يعرف السبيل إلى إصلاحه . وذهب بولى إلى أن البطاطس والخضراوات تقى الأرض من الأمراض والعفن وأنه لا سبيل إلى علاجها إلا بحرق جميع نسخ الكتاب المقدس . وبينما كان بولى يحفر بئراً سقط حجر فوق رأسه وأرداه قتيلاً . والجدير بالذكر أن هذا الملتاث قدم إلى المحاكمة بتهمة التجديف وحكم عليه بالسجن لمدة ستة شهور بالإضافة إلى حكم آخر بسجنه لمدة خمسة عشر شهراً بتهمتين مماثلتين . واستطاع هوليوك فى تقريره أن يفضح نظام القضاء البريطانى المتعنت الذى لا يجد أدنى غضاضة فى الحكم على مجنون بالسجن . وبسبب هذا التقرير أدركت السلطات الخطأ الذى ارتكبته فقامت بنقل هذا المجنون إلى مستشفى الأمراض العقلية .

وفى العام نفسه (١٨٤٦) الذى استخدم فيه هوليوك لفظة العلمانية لأول مرة أصاب الفشل جمعية إلحادية كان روبرت أوين قد أنشأها باسم «الجمعية العقلانية» فسعى هوليوك إلى إحيائها وجمع شتاتها بمساعدة ساوثويل وروبرت كوبر وبعض المحاضرين الملاحدة الآخرين . وقام هوليوك بإنشاء جمعية أخرى باسم «جمعية النفعيين اللاهوتيين» . وخصص هوليوك صفحات مجلة «الريزونور» للدعاية عن جمعيته الجديدة . وفى ديسمبر (١٨٥١) تحولت الحركة العلمانية التى استحدثها هوليوك إلى تيار فكرى عام كان روبرت كوبر من أشد الناس حماساً له . وتجول كوبر فى شمال إنجلترا وأسكتلندا وذهب إلى مانشستر مسقط رأسه للترويج لهذا المذهب الجديد واستطاع كوبر عن طريق عقد المؤتمرات والاجتماعات المحلية فى الأماكن التى انتشر فيها مذهب أوين وخاصة «لانكشير ويوركشير» أن يجمع شتات أتباع أوين الذين تفرقوا بسبب أفول نجمه واضمحلال نفوذه . واستنفر هذا النشاط الإلحادى الملحوظ رجل دين غيور هو القس بروين جرانت الذى تحدى هوليوك كى يقارعه الحجة بالحجة . ودخل معه فى يناير وفبراير (١٨٥٣) فى مناظرة عنيفة حول العلمانية والمسيحية دامت ليالى بأكملها .

ويمكن القول إن العلمانية اشتد عودها فى الفترة بين عامى (١٨٥٣) و(١٨٥٤) فتصدى لها القس بروين جرانت الذى جال فى أنحاء إنجلترا ليهاجم العلمانية فى كل مكان يذهب إليه . ولم يسكت دعاة العلمانية أمثال كوبر وساوثويل وهوليوك على ذلك فلحقوا بهذا القس فى كل مكان وطأته قدماه يهاجمون آراءه ويذودون عن الفكر العلمانى .

وهكذا أصبحت العلمانية مثار جدل شديد بين الناس فى طول البلاد وعرضها . وزاد توزيع مجلة «الريزونور» العلمانية إلى خمسة آلاف نسخة .

ويبدو أن هوليوك كان يهدف من وراء استحداث مفهوم العلمانية أن يبعد عن نفسه تهمة الكفر والإلحاد . كما أنه أراد عن طريق العلمانية أن يوفق بين الفكر الراديكالى المتمثل فى المذهب الميثاقى وغيره من المذاهب وبين المسيحيين الاشتراكيين ومن يسير على دربهم . ويذكر فى هذا المقام أن هوليوك تخلى عن سابق موقفه المتشدد المعارض لفكرة التوفيق بين مذهب أوين الاشتراكى والفكر الدينى السائد وأصبح يدعو إلى المهادنة التى كان يرفضها من قبل . ورغم جهود هوليوك المضنية فى الدعوة إلى العلمانية فقد اعترى دعوته شيء من الضعف لعدة أسباب من بينها نشوب حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦) وتدهور صحة هوليوك وسوء أحواله المالية وعدم قدرته على الزعامة . فضلاً عن أن القس بروين جرانت أخذ يلاحقه فى كل مكان لتنبيه الناس إلى أن يافطة العلمانية الجديدة ليست سوى ستار يخفى وراءه الكفر والإلحاد . وفوق ذلك كله لم يكن هوليوك يتصف بصفة الزعامة التى توفرت لخلفه العلمانى البارز تشارلس برادلاف الذى ظهر فى أواخر الخمسينيات من القرن التاسع عشر والذى سنتناول أفكاره بشيء من التفصيل فيما بعد .

والذى لاشك فيه أن انتشار الجمعيات العلمانية فى الخمسينيات فى القرن التاسع عشر يدل دلالة قاطعة على زيادة الفكر العلمانى وتناميه فى بريطانيا .

ومن أبرز هذه الجمعيات التى ظهرت آنذاك «جمعية لستر العلمانية» و«منظمة منطقة وست

محدودة فى عضويتها ، ولكن يكفى أن نشير إلى كثرة عددها حتى ندرك أنها وجدت قدراً من الاستجابة من الإنجليز مثل جمعية بولتون العلمانية وأيضاً الجمعيات العلمانية فى ونتجهام وستانفورد وشيفيلد بلاكبيرن وناتيلى ولى ومانشستر وجلاسجو ونيومانتل ون وغيرها من الجمعيات .

وبعد أن ترك هوليوك رئاسة تحرير «عراف العقل» استمرت الدعوة للإلحاد فى إنجلترا على يد توماس باترسون الذى تولى تحريرها .

وانتهج باترسون نهجاً قاذعاً فى هجومه على الدين بعكس أسلوب هوليوك المتسم بالدماثة والاعتدال . وأثار أسلوب باترسون القاذع مشاعر الجماهير التى اتهمته بالتجديف والبذاءة فتمت محاكمته وصدر ضده حكم بالسجن . وقام الملاحدة بنشر كتاب يروج للإلحاد بعنوان «الله مقابل باترسون : التقرير غير العادى الذى رفعته الشرطة فى بوستريت» (لندن ١٨٤٣) ورغم أن أسكتلنده كانت أقل من إنجلترا فى تسامحها الدينى فإنها شاهدت عدداً محدوداً للغاية من اتهامات التجديف ، مثل مداهمة الشرطة فى أدنبره لمكتبة يملكها الثائر توماس ميئلاى وزوج ابنته هنرى روبنسون ومصادرة ما تحتويه من كتب ومطبوعات ، وانتهز الملاحدة فى لندن هذه الحادثة لتلطيخ سمعة المسيحيين وإظهار مدى تعصبهم المقيت ووقوفهم فى وجه حرية الرأى . وكان الزنديقان ساوثويل وباترسون قد خرجا لتوهما من السجن فسافرا إلى أدنبره لنشر إلحادهما على أوسع نطاق ممكن . وأقام باترسون فى أدنبره مكتبة جديدة أسماها «مستودع التجديف» تخصصت فى بيع الكتب الممنوعة والمصادرة مثل «عراف العقل» وكتاب هوليوك «تفنيد محاجات بالى» و«الله ضد باترسون» و«إثبات عدم وجود المسيح» و«خطابات إلى الأكليروس» و «حياة المسيح» لـ . د . ف شتراوس فضلاً عن مؤلفات فولنى وبالمر وبين وريتشارد كارليل . ووصلت حركات التجديف إلى بعض القرى الأسكتلندية النائية .

وقرب نهاية (١٨٤٣) وقف باترسون بتهمة التجديف أمام اللورد كلارك رئيس قضاة المحكمة العليا فى أدنبره . وكانت هذه هى المحاكمة الأولى من نوعها فى العاصمة الأسكتلندية منذ عدة عقود . والمدهش أن باترسون الذى ظهر على مسرح الإلحاد فجأة عام (١٨٤١) اختفى من هذا المسرح بسرعة الشهاب عام (١٨٤٥) عندما هاجر إلى أمريكا . وأمام المحكمة استمر باترسون فى الدفاع عن نفسه لمدة خمس ساعات ونصف أمضى معظمها فى توضيح فظاعة تاريخ المسيحية الأسود وتبيان مزايا الفكر الحر . وكان باترسون قاذعاً فى الهجوم على الدين المسيحى وعلى الله الذى رأى أنه لا سبيل إلى إثبات وجوده لأنه أكبر من أن يحيط به أو يفهمه البشر الذين يعجزون بوجودهم المحدود عن إدراك اللا محدود والخالد والعليم بكل شىء . ونادى باترسون بالأخلاق التى لا تستند إلى الإيمان بالدين أو بالله . ولم تر المحكمة غضاضة فى أن يصف المسيحيين بالكلاب الصاخبة التى تدعى العلم بالله وتصوره بصورة يخجل الشيطان نفسه منها وأن يصف المسيحية بأنها أسطورة ماكرة وخليط من الوثنية التى نشرت الظلام الفكرى فى العالم أكثر من ألف سنة . ولم ينس باترسون أن يذكر المحكمة بالممارسات الوحشية والمجازر التى اقترفها المسيحيون ضد بعضهم بعضاً

تحت ستار الدفاع عن المسيحية . وأمام هذا السيل القاذع من الشتائم استقر رأى القاضى والمحلفين على أنه مذنب وحكموا بحبسه لمدة خمسة عشر شهراً فى سجن التوبة . ولاحظ القاضى أن المتهم استقبل الحكم عليه بالفرحة والبهجة لأنه رأى فيه فرصة لنشر أفكاره الإلحادية والدعاية لها وقد تم إيداعه فى زنزانه انفرادية وعاملته إدارة السجن معاملة قاسية ووحشية .

ثم قام هيثرنجتون بكتابة تقرير عن محاكمة باترسون مع مقدمة له أعدها هوليوك بعنوان «مبحث فى الاضطهاد الدينى» . ويميز هوليوك فى هذه المقدمة بين نوعين من المؤيدين للاضطهاد : نوع يؤمن بالفعل بأن التجديف شر وضرر وهذا النوع من غلاة المتعصبين تحركه الدوافع الدينية البحتة . ونوع آخر يساند الاضطهاد لأسباب نفعية محضة ، فهذا النوع يريد بقاء الأوضاع كما هى عليه لأن ذلك فى صالحه . وينادى هوليوك فى مقدمته بضرورة أن يتمتع الملحدون بالمزايا نفسها التى يتمتع بها المسيحيون ، فإذا كانت الأفكار الملحدة تسىء إلى المسيحيين فإن الأفكار المسيحية تسىء إلى الملاحدة بالقدر نفسه . ومن ثم وجوب السماح بحرية التعبير لكلا الجانبين . ثم إن المسيحية تنادى بأن الإنسان مسئول أمام الله وإرغام الملحد على الصمت أو اضطهاده ينطوى على انتهاك لهذه المسئولية . وثمة نقطة أخرى يثيرها هوليوك فى مقدمته مفادها أن الاضطهاد يضر بمصالح المجتمع مثلما حدث عندما تبادل الكاثوليك والبروتستانت أعمال التعسف والاضطهاد . وعلى أية حال فإن الاضطهاد لا ينجح فى استئصال الفكر الجديد إلا لحين فالفكر الجديد ينتشر بالرغم من الاضطهاد فى نهاية المطاف . ولا خروج من هذا المأزق إلا بتوفير حرية الرأى والتعبير لجميع الاتجاهات المؤمنة والملحدة على حد سواء .

ولكن أمل هوليوك فى إشاعة جو التسامح الدينى خاب ، فبعد الحكم على باترسون بالحبس أصدرت محكمة أدنبره حكماً بالحبس لمدة شهر على صاحب المكتبة العجوز توماس مينلاى كما أنها حكمت على زوج ابنته بالحبس لمدة شهرين لبيع المطبوعات الملحدة . وفى أوائل (١٨٤٤) أصدرت المحكمة حكماً مماثلاً على سيدة تدعى ماتيلدا رولف كانت ذات يوم مدرسة بمدارس الأحد . ولكنها نبذت الدين عندما شعرت بعجزها عن التوفيق بين المتناقضات الموجودة فى الكتاب المقدس . وغادرت هذه السيدة لندن وسافرت إلى أدنبره بهدف الوقوف فى وجه الذين يمارسون التعصب والاضطهاد هناك وتولت هذه السيدة بعد باترسون إدارة مستودع التجديف ، وأذاعت بياناً قطعت فيه عهداً على نفسها ببيع الكتب الإلحادية حتى ولو كانت هذه الكتب تنطوى على الزراية بالدين المسيحى وكانت النتيجة أن البوليس داهم شقتها . ورغم أن ماتيلدا استطاعت أثناء المحاكمة أن تحمل أحد ضباط البوليس على الاعتراف بأنه طالع بعض صفحات مجلة «عراف العقل» دون أن يتأثر بما تحتويه من هرطقة وإلحاد ورغم أنها أيضاً أنكرت سعيها إلى تحقير الدين فقد أدانتها المحكمة فى أدنبره وأصدرت ضدها حكماً بالحبس . والذى عجزت ماتيلدا رولف عن فهمه هو موقف القانون الإنجليزى من التجديف فهو يسمح بالتجديف من حيث المبدأ ولكنه فى الوقت نفسه يعاقب على السخرية من الدين والزراية به .

غير أن اضطهاد المجدفين الذى كان على قدم وساق فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر

مالبث أن خفت حدته بشكل واضح . ويرجع السبب فى هذا إلى ارتباط الإلحاد الوثيق بانتشار الأفكار الاشتراكية التى يروج لها روبرت أوين وأمثاله ، فعندما أصاب الوهن الحركة الاشتراكية ضعفت بالتالى شوكة الملاحدة الذين اختفوا شيئاً فشيئاً من الحياة العامة فى إنجلترا . وفى هذه الظروف تقلصت مطبوعات الملاحدة فقد توقفت مجلة «عراف العقل» عن الصدور فى نهاية عام (١٨٤٣) وحتى عندما أصدر هوليوك مجلة أخرى بديلة باسم «الحركة» كان شغله الشاغل التركيز على التصدى لمشاكل المجتمع السياسية والاقتصادية والابتعاد عن المسائل الدينية أو اللاهوتية ، وأيضاً فقدت المجلة التى أصدرها هوليوك عام (١٨٤٦) بعنوان «المجادل العقلانى» شعبيتها . فلا غرو إذا رأينا وطأة الاضطهاد الدينى تقل . وليس أدل على انحسار الفكر الإلحادى فى إنجلترا فى تلك الفترة من أن جيمس واتسون - وهو أحد دعاة الفكر الحر البارزين كتب فى بداية (١٨٤٦) يشكو إلى هوليوك قائلاً : «إن كل النبذ والنشرات التى تحارب الخرافات والدين ظلت على الرفوف لا تجد من يشتريها كما لو كانت أوراقاً مهملة» .

١١ تشارلس برادلاف (١٨٣٣ - ١٨٩١)

يرجع الفضل فى ترسيخ العلمانية فى إنجلترا إلى تشارلس برادلاف . فضلاً عن أنه مسئول أكثر من أى شخص آخر عن إضفاء طابع الإلحاد عليها على عكس هوليوك الذى سعى فى أواخر أيامه إلى مهادنة الفكر الدينى والتوفيق بينه وبين العلمانية . وكما أسلفنا لم يكن تشارلس برادلاف فى حقيقة الأمر ملحداً بقدر ما كان من أتباع المذهب التأليهى .

ولد تشارلس برادلاف (وهو الابن الأكبر فى عائلة مكونة من سبعة أبناء) من أسرة فقيرة : من أب يعمل كاتب محام وأم تعمل بالتمريض . وكانت هذه الأسرة تعيش فى منزل أشبه ما يكون بالعشة . كان برادلاف نهماً فى حبه للقراءة منذ نعومة أظفاره . فبالرغم من أنه اضطر إلى ترك المدرسة وهو فى الحادية عشرة فإنه قرأ عن الإصلاح الاجتماعي وهو فى هذه السن الباكرة . وفى الفترة بين الحادية عشرة والرابعة عشرة استمر فى العمل كفراش وصبى مراسلة فى مكتب المحامى الذى يعمل فيه والده . ثم اشتغل بعدها كاتباً فى مرفأ لرسوم المراكب ثم صرافاً عند تاجر فحم . وكان يقضى وقت فراغه فى حضور الاجتماعات السياسية حيث تلقى فى أحدها ضربة هراوة . فضلاً عن حرصه فى حداثته على حضور مدارس الأحد حيث صار مدرساً للدين للصغار تحت إشراف قسيس اسمه جون جراهام . وتوقع هذا القسيس زيارة أسقف لندن المرتقبة للكنيسة التابعة له فطلب إلى الغلام برادلاف أن يدرس الكتاب المقدس بدقة وتمعن حتى يتمكن من الإجابة عن أية أسئلة قد يطرحها عليه الأسقف . ولكن ما إن توفر على هذه الدراسة حتى بدأ الشك يخالجه فى صحة الكتاب المقدس بسبب ما يشوبه من متناقضات . فكتب إلى القس جراهام يطلب منه شرحاً وتفسيراً لهذه المتناقضات . فغضب القس منه وشكا إلى والديه من إلحاده وحرمه حضور مدارس الأحد لمدة ثلاثة شهور . وكانت هذه الحادثة سبباً فى انصرافه عن مدارس الأحد إلى المحاضرات التى يلقيها الملاحدة أمثال جيمس سافيدج الذى أقرضه نسخة من كتاب ألفه القس الملحد روبرت تيلور . ويبدو أن الأفكار التى تضمنها هذا الكتاب راقت له لدرجة أنه حاول أن يأخذ رأى القسيس المشرف

عليه فى محتواه . فاستشاط هذا القسيس غضباً . واتصل على الفور بوالده ومخدوميه الذين هددوه بالفصل من العمل إذا لم يتراجع عن آرائه فى خلال ثلاثة أيام . ولكن برادلاف لم يرعو بل ألقى محاضرة أشار فيها إلى الاضطهاد الذى ألحقه القسيس به وكان الأمل يحدوه أن يجمع الحاضرون التبرعات الكافية كى يصبح تاجر فحم مستقل . وكان برادلاف - الذى أراد أن يشجعه - هو الذى قدمه إلى الجمهور . وفى بادىء الأمر شعر بعض الناس بالرغبة فى مساعدته . غير أنهم ازوروا عنه عندما نما إلحاده إلى أسماعهم . وأخذت الديون تتراكم عليه ولكن نفسه الأبية عافت أن يعيش على الإحسان فتطوع للخدمة العسكرية ، حيث حظى باحترام الضباط له فقد استطاع أن يهزم بطلا من أبطال المصارعة كما أن مسلكه راق لهم بسبب امتناعه القاطع عن التدخين وشرب الخمر . وأمضى برادلاف فترة خدمته العسكرية فى أيرلندا الأمر الذى منحه الفرصة لمعرفة مشاكلها السياسية . واستفاد برادلاف من الحياة العسكرية وما تتسم به من انضباط ودقة التخطيط . وبعد وفاة والده تم تسريحه من الجيش ليعول أمه وأسرته بعد أن أمضى فى خدمته ثلاث سنوات . فقد التحق به وهو فى السابعة عشرة وخرج منه وهو فى العشرين ليعود إلى لندن . ورغم أن فترة غيابه عن لندن لم تكن طويلة فقد ساءته التغيرات التى طرأت على الحياة فيها . ولاحظ أن القاعات التابعة لروبرت أوين والتى كان الملاحدة والعلمانيون يلقون محاضراتهم فيها قد أغلقت أبوابها . وبعد أفول نجم روبرت أوين وتهافت دعوته قام برادلاف بإنشاء جمعية العلمانية فانضم برادلاف إليها وأخذ يدافع عن أهدافها ومبادئها ويمهر مقالاته الموالية لها بتوقيع «محطم الأوثان» ثم أخذت أحواله المالية فى التحسن عندما تقلد بعض الوظائف الأكثر دخلا . وتقدم لخطبة فتاة تدعى سوناه هوبر وهى ابنة أحد الدعاة إلى التحرر الفكرى والنظام الجمهورى وتم زواجه منها فى ٥ يونية (١٨٥٥) . ورغم إلحاده فقد قبل أن تتم مراسم الزواج فى كنيسة نزولا على رغبة حماته .

كان حلم حياة برادلاف أن يدرس القانون ويصبح محامياً . ولكن هذا الحلم لم يتحقق . غير أن معرفته بالقوانين أفادته فى الحياة العملية فقد ساعدته في إكتشاف الثغرات الموجودة فى هذه القوانين . وهى ثغرات يجهلها أقرانه من الملاحدة والراديكاليين . وازدادت خبرته بالحياة العملية عمقاً عندما لعب دوراً فى إنشاء عدة شركات فى إيطاليا الأمر الذى جعله يتفوق فى مجالات الإدارة والتفاوض وعقد القروض . وهو تفوق كان فى حد ذاته كفيلاً بأن يحقق له الثروة العريضة لو أنه كان يهدف إلى النجاح المادى . ولكن الثراء لم يكن هدفه بل كانت الحياة العامة شغله الشاغل .

والجدير بالذكر أن مفهوم هوليوك للعلمانية كان يختلف بعض الشىء عن مفهوم برادلاف لها . فالأول كان يدافع عن العلمانية باعتبارها دعوة إلى الفضيلة والأخلاق والتقدم العلمى وحرية الرأى والنقاش . فضلاً عن أنه رأى فيها مذهباً فكرياً يتجنب الحديث عن العالم الآخر . وبذلك استطاع هوليوك أن يجد صيغة توفيقية بين الدين والعلمانية . أما برادلاف فلم يكف عن شن أعتى الهجمات على المسيحية وما تؤمن به من خزعبلات بما فى ذلك الإيمان بالآخرة . ورغم علمانيته فإن هوليوك لم يدافع قط عن تحديد النسل وتنظيم الأسرة بل إنه رفض مجرد التفكير فيهما . وعندما تخلى هوليوك فى إبريل (١٨٥٨) عن رئاسة جمعية لندن العلمانية لم يكن هناك من

يخلفه غير برادلاف البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً . وساعد على ترسيخ زعامته أنه خطيب مفوه ذو صوت جهورى وقوة بدنية هائلة تخيف رجال البوليس منه وتجعلهم يخشون الصدام به فى المظاهرات ، والحق أنه رغم حدة دعوته إلى الإلحاد فقد كان عف اللسان فى هجومه على رجال الدين . ونجح برادلاف بسبب قدرته على زعامة الحركة العلمانية التوفيق بين الأجنحة العلمانية المتعارضة والجمع بينها فى بوتقة واحدة . فضلاً عن أنه جعل العلمانية تمتد من الحضر إلى الريف .

وفى عام (١٨٦٠) طلب إليه العلمانيون فى مدينة شيفيلد أن يشترك فى تحرير مجلتهم الجديدة «المصلح القومى» التى حلت محل «الريزونور» فوافق على ذلك . وعلى صفحات هذه المجلة الجديدة أعلن برادلاف بمساعدة تشارلس واتس قيام الجمعية العلمانية القومية عام (١٨٦٦) واستطاع بأسلوبه العملى بسط نفوذها وزيادة فروعها وعدد المشتركين فيها عن طريق تخفيض رسوم الاشتراك . واعتمد برادلاف فى نشر أفكاره الراديكالية على المحاضرات التى يلقيها فى قاعة لندن للعلوم التى كانت تزدحم إلى حد الاختناق كلما عرف الجمهور أنه سوف يحاضر فيها . وكان ألفا مستمع يتكدسون فى القاعة لسماع محاضراته . وفى حين نشر هوليوك أفكاره العلمانية عن طريق التجوال فى الأقاليم اتخذ برادلاف من مقر جمعية لندن العلمانية مركزاً لنشاطه الذى امتد حتى وصل إلى الريف كما أسلفنا . ولم يقصر برادلاف محاضراته فى جمعية لندن العلمانية على موضوع العلمانية بل إن كثيراً من المحاضرات التى ألقاها فى الستينيات من القرن التاسع عشر كان يدور حول موضوعات سياسية واجتماعية تثير اهتمام الراديكاليين فى تلك الآونة مثل وضع الكنيسة الأيرلندية ومشاكل الأرض والتعليم والنظام الملكى . ومع بداية السبعينيات من القرن التاسع عشر بات من الواضح أن اهتمام برادلاف ومساعده واتس بالمشاكل السياسية يفوق اهتمامه بقضية العلمانية ، الأمر الذى جعلهما يقرران الانسحاب من رئاسة جمعية لندن العلمانية .

وفى عام (١٨٧٣) قرر برادلاف السفر إلى أمريكا يحدوه الأمل فى الحصول على المال عن طريق التجول فى ربوعها لإلقاء المحاضرات حتى يتمكن من سداد الديون المتراكمة عليه . ولكنه عاد إلى بلاده فى أوائل (١٨٧٤) ليرشح نفسه لعضوية مجلس العموم البريطانى عن دائرة «نورثامبتون» . غير أنه لم يوفق فى مسعاه فأخذ يركز كل جهده واهتمامه على قضيه العلمانية مرة أخرى . واستطاع بنشاطه الفياض أن يعيد الحياة إلى التنظيمات العلمانية التى أصابها الموات أو كاد يصيبها . وفى عام (١٨٧٧) حشد برادلاف جهود التنظيمات العلمانية كافة لشن الحملات للدفاع عن تحديد النسل الذى دعت إليه المالثوسية الجديدة وعن حق المالثوسية الجديدة القانونى فى الإعلان عن أهدافها والدعوة إلى برنامجها مما جعله يصطدم بالسلطة ويدخل معها فى صراع قانونى شائك وطويل . وفى أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر تفجرت قضية ارتبطت باسمه وتعرف فى تاريخ الفكر بقضية برادلاف . بدأت هذه القضية عندما اعترف تشارلس واتس فى عام (١٨٧٧) بعزمه على نشر كتيب صغير محظور تداوله لمؤلف أمريكى اسمه الدكتور تشارلس نولتون بعنوان «فاكهة الفلسفة» يدعو إلى تحديد النسل . غير أن واتس عاد وتنصل من الكتيب . وعندما أحس برادلاف أن حماس زميله واتس لإعادة نشر الكتيب فتر قرر أن يقطع صلته به وأن يستعين بمساعدة

جديدة اسمها أني بيسانت فى إعادة نشر هذا العمل الممنوع فى إنجلترا . وأقيمت دعوى ضد برادلاف لنشر هذا الكتاب ولكنه استطاع الخروج من ورطته كالشعرة من العجين بسبب مهارته فى استغلال بعض الثغرات الإجرائية والقانونية فى الدعوى المرفوعة ضده . وهكذا تمكن برادلاف من تجنب الحبس رغم ثبوت التهمة عليه .

والذى لاشك فيه أن دفاع برادلاف عن قضية تحديد النسل كان ضرباً من ضروب المقامرة فقد كان كثير من زعماء جمعية لندن العلمانية وأعضائها غير متحمسين بالمرة لهذه القضية ، الأمر الذى أدى إلى حدوث مزيد من الارتباك والتفكك فى صفوف العلمانيين وانقسامهم على أنفسهم . وفى السبعينيات قرر عدد من العلمانيين البارزين بزعامة هوليوك وواتس و .ج . دابليو فوت الانسحاب من جمعية لندن العلمانية وتكوين اتحاد منفصل باسم «الاتحاد العلمانى البريطانى» . وأمام هذا الانقسام فى صفوف أتباعه ورفاقه من العلمانيين قرر برادلاف ألا يجعل من تحديد النسل قضية رأى عام بل أن يطرح هذه القضية من منظور حرية المؤمنين بتحديد النسل فى التعبير عن رأيهم . الأمر الذى أثار عطف كثير من الراديكاليين عليه وزاد من تأييدهم له .

وفى عام (١٨٨٠) رشح برادلاف نفسه للمرة الثالثة لعضوية مجلس العموم (كانت المرة الأولى فى عام ١٨٦٨ والثانية عام (١٨٧٤) ونجح فى الانتخابات هذه المرة . وهنا جابهته مشكلة القسم على الكتاب المقدس كشرط لقبوله عضواً فى البرلمان فطلب إلى البرلمان أن يسمح له أن يستبدل بالقسم نوعاً من التعهد أو التأكيد المدنى حيث إن القسم على الكتاب المقدس يتنافى مع آرائه الملحدة . ولكن البرلمان رفض طلبه فضلاً عن أنه منعه من القسم على الكتاب المقدس بسبب إلحاده لأن هذا القسم لا يعنى شيئاً بالنسبة له . ووجد برادلاف نفسه فى موقف لا يحسد عليه واعتبر هذا الموقف انتهاكا لمبادىء الدستور لأن البرلمان يضع العوائق والعراقيل ضد دخوله فيه ، فى حين أنه من الناحية القانونية الممثل الشرعى للدائرة التى انتخبته . واستغلت المعارضة المحافظة هذا الوضع الشائك لإحراج حكومة جلادستون كما أن بعض المحافظين كانوا لا يناورون بل كانوا مخلصين فى اعتقادهم أنه لا يصح لرجل ملحد أن يصبح ممثلا للشعب فى دولة مسيحية . وسعى أعداء برادلاف إلى تضييق الخناق عليه وتجريده من أسلحته عن طريق العمل على إفلاسه وخراب بيته فحرَضوا مخبراً يدعى كلارك أن يرفع عدة قضايا ضده كى يدفع بسبب امتناعه عن القسم بالكتاب المقدس غرامة قدرها خمسمائة جنيه عن كل مرة يستخدم فيها حقه الانتخابى . وبعد لأى وعناء شديدين تمكن برادلاف من الناحية القانونية من القضاء على مؤامرات أعدائه وشانئيه . فقد حكم القضاء فى نهاية الأمر لصالحه ونص الحكم على أنه لا يحق لمخبر عادى أن يرفع ضده الدعوى لدفع هذه الغرامة بسبب إحجامه عن القسم .

وفى خلال هذه الأزمة الدستورية التى استمرت مالا يقل عن ثلاثة أعوام أعيد انتخاب برادلاف لعضوية مجلس العموم عن دائرة نورثامبتون غير أن المجلس كرر رفضه قبوله فيه . وكان هذا الرفض فضيحة دستورية جعلت صيته يذيع فى كل مكان . وبدا للرأى العام أنه ضحية العنف والاضطهاد الأمر الذى جعل كثيرين يتعاطفون معه ويناصرون جمعيته العلمانية التى ازداد الإقبال عليها .

وازدادت فروعها حتى بلغ عددها فى عام (١٨٨٤) أكثر من مائة فرع كما بلغ تعداد أعضائها أكثر من عشرة آلاف عضو .

ويمثل عام (١٨٨٥) نقطة تحول فى تاريخ العلمانية فقد انصرف الرأى العام عن مناقشة المشاكل الدينية واللاهوتية إلى الاهتمام بالقضايا السياسية والاجتماعية وخاصة بعد أن بدأت تظهر من جديد فى الأفق السياسى منظمات وحركات اشتراكية أخذت تلفت الأنظار إليها . والجدير بالذكر أن برادلاف لم يعد يثير اهتمام الناس به عندما وافق البرلمان مؤخراً فى عام (١٨٨٦) على عضويته فيه . وبعد اعتزاله الحياة العامة عام (١٨٩٠) تولى مريده وتلميذه ج . دابليو فوت رئاسة جمعية لندن العلمانية . وعندما أشرفت مجلة «المصلح القومى» على الاندثار عام (١٨٩٣) (أى بعد وفاة برادلاف بعامين) استطاعت مجلة «المفكر الحر» التى أسسها فوت عام (١٨٨١) أن تواصل المسيرة . وكما أسلفنا بدأ الفكر الراديكالى البريطانى يركز على المشاكل السياسية وعلى قضية الاشتراكية بالذات وانصرف عن الاهتمام بالعلمانية كبديل للدين . ورغم أن الكثيرين من هؤلاء الاشتراكيين كانوا ملاحدة فإنهم لم يعودوا يهتمون بالدفاع عن قضية الكفر والإلحاد فقد ركزوا كل جهودهم على النشاط السياسى . وبدا هذا جلياً فى موقف الاشتراكيين الفابيين من روبرت أوين . فعندما أراد هؤلاء الفابيون إحياء ذكرى أوين آثروا تكريمه باعتباره رائداً للفكر الاشتراكى وليس باعتباره رائداً للفكر العلمانى وأصبح هذا المناخ الجديد سبباً فى أن تفقد أفكار برادلاف العلمانية بريقها فصارت شيئاً عف عليه الزمان . وبالنظر إلى أن حياة برادلاف متشابكة مع حياة جورج وليم فوت فسوف نعود إليها عند الحديث عن تقديم فوت إلى المحاكمة بتهمة اشتراكهما مع وليم رامزى فى إصدار صحيفة ملحدة بعنوان «المفكر الحر» .

جورج وليم فوت (١٨٥٠ - . . .) ـــــــــــ ١٢

ولد جورج وليم فوت عام (١٨٥٠) من أبوين ينتميان إلى طائفة ويسلى الدينية وخلت نشأته من كل أثر للكالفينية وهو مذهب يغالى فى تشدده الأخلاقى . وما إن شب عن الطوق حتى أصبح يعتنق المذهب اليونيتارى الذى يؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة وليس طبيعتان هما اللاهوت والناسوت . وعندما بلغ فوت الثامنة عشرة من عمره اشتغل فى إحدى مكتبات لندن العامة أثناء النهار وانصرف فى المساء إلى الدراسة فى قاعة العلوم التى يشرف عليها برادلاف ، وكان إعجابه ببرادلاف شديداً لدرجة أنه اعتبر مجرد السلام عليه باليد أشد لحظات عمره مدعاة للفخر والاعتزاز . ومن ناحيته رأى برادلاف فى الشاب فوت تابعاً مفيداً للغاية يمكن الاعتماد عليه . وانضم فوت إلى الجمعية العلمانية القومية التى أسسها برادلاف عام (١٨٦٦) وألقى بعض المحاضرات فيها كما أنه أسهم بكتاباته فى مجلة «المصلح القومى» التى كان برادلاف يصدرها . وفى الواحد والعشرين من عمره أصبح فوت سكرتير النادى الجمهورى بلندن الذى كان برادلاف رئيساً له والذى يدعو - كما يدل اسمه - إلى استبدال النظام الملكى البريطانى بنظام جمهورى . وعندما رشح برادلاف نفسه للانتخابات عن دائرة نورثامبتون عام (١٨٧٤) اعتمد على فوت كثيراً فى القيام بالدعاية الانتخابية المطلوبة . ولم يجد فوت أدنى غضاضة فى أن يصبح تابعاً لبرادلاف وساعده الأيمن . ولكن عندما

التقى برادلاف عام (١٨٧٤) بالمسز أنى بيسانت اشتد اعتماده عليها مستغنياً بذلك عن خدمات فوت الأمر الذى أوغر صدر فوت وجعله يتحالف مع هوليوك للاستقلال عن برادلاف وإصدار مجلة ليبرالية أسبوعية بعنوان «العلمانى» ظهر العدد الأول منها فى أول يناير (١٨٧٦) . ولأن هوليوك لم يكن يحمل الود لبرادلاف فإنه ترك لفوت مهمة شن الهجوم عليه فى مجلة «العلمانى» التى يصدرانها ، فضلاً عن أن فوت حرض آخرين على الهجوم عليه . غير أن علاقة هوليوك بفوت ما لبثت أن ساءت ومن ثم أخذ هوليوك ينتقد فوت . ولكن هذا لم يمنع فوت من مواصلة هجومه على برادلاف متهماً إياه بالاستبداد والديكتاتورية .

والغريب أن دعاة العلمانية آنذاك كانوا رغم شدة تحررهم متحرجين من الخوض فى موضوع الجنس أكثر مما تحرج منه المسيحيون ، ويظهر هذا جلياً من موقف دعاة العلمانية المناهض لكتيب منشور بعنوان «زوجة أم عشيقة ؟» يخوض فى موضوع الجنس . كما أن إعادة بيع كتاب تشارلس نولتون «ثمرة الفلسفة» (الذى يدور حول شرح وسائل منع الحمل) أثارت ملاحاة فى صفوف دعاة التحرر . والملاحاة نفسها نشبت فى صفوف دعاة التحرر بشأن نشر كتاب درايزدال ، «عناصر علم الاجتماع» الذى ينظر إلى العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة كشىء صحى لا غبار عليه . والجدير بالذكر أن دعاة التحرر انقسموا على أنفسهم بشأن كتاب «ثمرة الفلسفة» فقد أظهر برادلاف تحمساً له فى حين تردد هوليوك وفوت فى الدفاع عنه ، الأمر الذى جعل برادلاف ورفيقته أنى بيسانت يرميانهما بالجبن والتخاذل . ونشر هوليوك فى صحيفة التايمز مقالاً يتنصل فيه من نشر كتاب «ثمرة الفلسفة» متعللاً بجهله بمحتواه وهو موقف بادى الغرابة إذا ما تذكرنا دفاعه السابق بدون قيد أو شرط عن مجلة «عراف العقل» عند صدورها منذ ما يقرب من خمسة وثلاثين عاماً .

يذهب الدارسون إلى أن فوت لم يكن يتمتع بشخصية تؤهله أن يلعب دوراً بارزاً أو قيادياً فى الدعوة إلى العلمانية على عكس مسز بيسانت رفيقة برادلاف ، ولعل شعور فوت بنقصه هو الذى دفعه إلى الاستماتة فى إظهار الاستقلال عن أقطاب الدعوة العلمانية وإلى إصدار مجلة علمانية باسم «الليبرالى» لم يقيض لها أن تستمر أكثر من شهور قلائل . ويبدو أن الأمل كان يداعب فوت فى أن يخلف برادلاف فى رئاسة الجمعية العلمانية إذا ما أصبح برادلاف عضواً فى البرلمان البريطانى . فلا غرو إذا رأيناه فى أوائل عام (١٨٨١) يخطب ود برادلاف بعد أن كان يهاجمه طمعاً فى أن يمنحه مسئولية إصدار مجلة متخصصة فى الشئون العلمانية تحمل اسم «المفكر الحر» . ولم يمانع برادلاف فى ذلك حتى يتمكن من تكريس كل صفحات «المصلح القومى» فى سرد تفاصيل صراعه مع خصومه الذين سعوا للحيلولة دون عضويته فى مجلس العموم . كانت شركة الفكر الحر للطباعة – وهى دار نشر يملكها وليام رامزى – تتولى نشر «المفكر الحر» تحت إشراف فوت ومعاونة برادلاف . وقد عبر فوت فى هذه المجلة عن لومه لبرادلاف لأنه اتبع أسلوباً مهذباً ورقيقاً فى الرد على أعداء العلمانية ورأى فوت أن أفضل أسلوب للتعامل معهم هو التحرش والزراية بهم ، الأمر الذى راق فى عيون الطبقات الدنيا من المجتمع . وملأ فوت صفحات «المفكر الحر» بالرسوم الكاركاتيرية الهازئة بالله والدين والزراية البذيئة برجال الدين والكنيسة واليهود . فاستاء كل من برادلاف

وهوليوك لهذا الإسفاف . ولم يخف فوت عزمه على الاستهزاء الرخيص بالدين منذ البداية فقد كتب فى العدد الأول من المجلة يقول : «إن مجلة (المفكر الحر) منبر للنيل من المسيحية ومن ثم جنوحها أساساً إلى العدوان . إنها سوف تشن الحرب بلا هوادة ضد الخرافات بوجه عام وخرافات المسيحية بوجه خاص .» فضلاً عن أنه دأب على وصف الله فى أعداد المجلة المختلفة بأنه متعطش للدماء ومتوحش ومستبد .

وأثار تهجم فوت على الكنيسة ثائرة جزار متدين اسمه هنرى فارلى فأرسل شكوى ضده إلى وزير الداخلية البريطانية آنذاك السير وليم هاركورت . لقد كان فوت يتحرق شوقاً كى يتعرض للاضطهاد والتنكيل حتى يبدو شهيداً للعلمانية وحرية الرأى . ولكن وزير الداخلية السير وليم هاركورت فوت عليه غرضه ورفض أن يأخذ شكوى الجزار فارلى ضده وضد برادلاف مأخذ الجد وامتنع عن اتخاذ الإجراءات القانونية ضدهما . ولم ترق سياسة الوزير المعتدلة فى عين فوت الساعى إلى الاستشهاد فأرسل إليه خطاباً يتحرش به ويتحداه أن يغلق مجلة «المفكر الحر» إذا وجد فى نفسه الجرأة على ذلك . وانتهز فوت فرصة حدوث واقعة فى بلدة تانبريدج فى ويلز بإنجلترا ليقيم الدنيا ويقعدها . فقد اغتاظ عضو فى الفرع المحلى من الجمعية العلمانية واسمه هنرى سيمور من أن يداً عبثت بأحد إعلانات الجمعية العلمانية وشوهته . واعتقد الرجل أن كاهن الكنيسة هو الذى حرض أتباعه على ذلك . لهذا قام بتعليق إعلان بدليل يسخر فيه من الدين ويدعو الجمهور إلى مشاهدة هاملت والروح (الشبح) القدس وهى إشارة ساخرة إلى الشبح الذى ظهر فى مسرحية شكسبير المعروفة «هاملت» (والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن كلمة ghost باللغة الإنجليزية تعنى الشبح أو الروح) . واستاء مواطن هو الشاويش ماليون من هذه الزراية بالروح القدس فى يوم مقدس هو يوم عيد القيامة الذى يحتفل به المسيحيون . فطلب فى صبيحة اليوم التالى للعيد من لجنة الفرع المحلى للجمعية العلمانية إزالة لفظة القدس من الإعلان المعلق . ولكن سيمور امتنع عن ذلك . ولهذا تم تقديمه إلى المحاكمة . ووجد فوت فى هذه المناسبة «جنازة يشبع فيها لطماً» فشن حملة شعواء على السلطة الخسيسة الجبانة التى تنكل بمواطن (غلبان) لا حول له ولاقوة . ومما أشعل الغضب فى نفس فوت أكثر وأكثر أن سيمور عندما مثل أمام المحكمة اعترف بالذنب .

ومما أثلج صدر فوت أن المحكمة طلبت استدعاءه واستدعاء زميليه هويتل ورامزى باعتبارهم جميعاً مسئولين عن إصدار مجلة «المفكر الحر» وما تتضمنه من تجديف قاذع . ورأى فوت فى هذا فرصته السانحة فى أن يتحول إلى شهيد حرية الرأى ويصبح على قدم المساواة مع ريتشارد كارليل وجورج جاكوب هوليوك . وتتلخص التهمة الموجهة إلى فوت وزميليه فى أنهم قاموا يوم ٢٨ مايو (١٨٨٢) بنشر تجديف وقذف ضد الدين المسيحى فى مجلتهم «المفكر الحر» وتم احتجاز المتهمين لمدة ستة أيام . ولم يكتف الإدعاء بهذا بل أدرج اسم برادلاف فى عريضة الاتهام باعتباره المسئول السابق عن تحرير هذه المجلة فقامت المحكمة أيضاً باستدعائه ، غير أنه من حسن حظ المتهمين أن المحكمة ارتكبت أخطاء جسيمة فى توجيه الاتهام الذى اتسم بالغموض والعمومية بحيث إنه شمل كل أهداف الحركة العلمانية ، الأمر الذى جعل من المتعذر على المحكمة أن تبت فى

القضية .

وإدراكاً منه بأنه لن يحظى بمحاكمة عادلة ، تمكن برادلاف من استغلال الثغرات الموجودة فى القانون ونجح فى نقل المحاكمة إلى محكمة أخرى غير الأولدبايلى والحصول على محاكمة منفصلة عن محاكمة بقية المتهمين . وأدى هذا إلى تأجيل النظر في القضية الأصلية لمدة تسعة أشهر انتهزها فوت لإصدار عدد خاص من مجلة «المفكر الحر» التى ملأت صفحاتها بأقذع صنوف التجديف واحتوى العدد الجديد من «المفكر الحر» على مقال يستهزىء بالعهد الجديد . وجاء هذا الاستهزاء فى صورة تقرير حول تقديم كتاب الأناجيل الأربعة متى ومرقص ولوقا ويوحنا إلى المحاكمة بتهمة التجديف على الذات الإلهية لأنهم يقولون إن الله ضاجع عذراء يهودية وأنجب منها طفلاً غير شرعى اسمه المسيح . ومضت مجلة «المفكر الحر» فى استهزائها بالمسيحية قائلة إن هذا المسيح جدف بأن ادعى الألوهية مهدداً كل من لا يؤمن بألوهيته بعذاب مقيم . فضلاً عن أن العذاب ينتظر العباد لأنهم ارتكبوا الذنوب والأوزار قبل أن تلدهم أمهاتهم والغريب أن هذا العدد ظهر بمناسبة حلول أعياد الميلاد . وبلغت زرايته بالدين حداً فظيعاً جعل السلطات تقدم المتهمين فوت ورامزى إلى المحاكمة للمرة الثانية فى أوائل عام (١٨٨٣) وكذلك قدم معهم المطبعجى هنرى .أ . كمب إلى المحاكمة فى محكمة الأولدبايلى فى أول مارس (١٨٨٣) أمام قاض متدين اسمه فورد نورث كان قسيساً كاثوليكياً فيما مضى . وفى دعوى منفصلة تم تقديم بائع كُتب فى فليت ستريت اسمه هـ . س . كارتل بتهمة بيع هذا العدد الفظيع من مجلة «المفكر الحر» .

قلنا إن فوت لم يرعو بل استمر فى تكريس كل صفحات مجلته للدعاية لنفسه بالحديث المفصل عن سير القضية . ورغم إنكاره لوجود المسيح من الناحية التاريخية فإنه كان يحلو له أن يشبه نفسه بالمسيح وأن يقارن بينه وبين اضطهاد المجتمع اليهودى للمسيح . وعندما مثل فوت أمام محكمة الأولدبايلى فى لندن يوم ٢٩ يناير (١٨٨٣) أخذ يجأر بالشكوى من المؤامرات التى تحاك ضده وضد معاونيه ومن الزج به فى السجن مع اللصوص والقتلة شأن يسوع المسيح الذى صلب بين لصين . بدأ فوت دفاعه عن نفسه بالسعى إلى تفنيد الاتهامات الموجهة ضده وهى أنه أثار بتجديفه غضب الله وشكوى المجتمع المسيحى ضده وتعكير صفو السلام فى هذا المجتمع . قال فوت إن المحكمة لا تستطيع أن تثبت غضب الله منه وأنه ليس هناك ما يدل على أن تجديفه يعكر صفو السلام كما أن المجتمع المسيحى لم يتقدم بأية شكوى ضده .

واستخدم فوت فى دحضه للتهم الموجهة ضده محاجة مفادها أن السلطة تغض الطرف عن الإلحاد الذى يجىء فى الكتب الغالية الثمن فى حين أنها تبادر بقمعه إذا ورد فى مطبوعات شعبية زهيدة السعر . وأضاف فوت أنه لم يفعل أكثر من أنه عبر فى أسلوب خشن عن الأفكار نفسها التى سبق لغيره من كبار الكتاب أن عبروا عنها بأسلوب رقيق ومهذب . وللتدليل على ذلك قرأ فوت فقرات من «سيرة حياة جون ستيوارت ميل» التى توضح أن أباه قال له إن الله هو «أكمل صورة للشر أمكن للعقل البشرى أن يخترعها» . ثم انتقل إلى ذكر الآراء المتحررة التى أوردها كل من توماس هكسلى وماثيو أرنولد وسوينبرن فى مؤلفاتهم الغالية الثمن دون أن تتعرض كتابات أى منهم

للمصادرة أو تتهم بالتجديف . ولما قال القاضى نورث إن القانون لا يحاسب المرء على رأيه ولكن يحاسبه على خشونة تعبيره عن هذا الرأى ، رد فوت بقوله إن هذا القانون يطبق فقط على الملحدين الذين يسيئون إلى مشاعر المتدينين دون أن يأخذ فى الاعتبار مشاعر الملحدين الذين تسيئهم آراء المتدينين ، ولكن القاضى نورث دأب على مقاطعته ومنعه من الاسترسال . وذهب إلى أنه بصدد التحقيق فيما كتبه فوت وليس في ما كتبه الآخرون . وفى ثنايا الدفاع عن نفسه تلا فوت قائمة من الشتائم القاذعة التى لم يجد رجال الأكليروس المسيحى غضاضة فى استخدامها ضد الوثنيين والملحدين وحتى ضد المسيحيين الذين ينتمون إلى طوائف مختلفة . وبالرغم من أن هيئة المحلفين تشاورت لمدة ساعتين فقد خرج ممثلهم ليعلن أنها منقسمة على نفسها . ولم يرق هذا فى عين القاضى نورث الذى كان مصمما على الحكم بالإدانة على المتهمين . ومن ثم بادر هذا القاضى بإلغاء هيئة المحلفين واستبدل بها هيئة محلفين أخرى . وقد بلغ تعنته مع المتهمين حدا جعله يرفض الإفراج عن أى متهم بكفالة . ولم تمض أيام حتى تشكلت هيئة المحلفين الجديدة لتجتمع فى قاعة المحكمة التى غصت بالحاضرين . وعند مثوله أمام المحكمة للمرة الثانية ذهب فوت إلى أنه ليس صحيحاً أن المسيحية هى دين الدولة البريطانية فقد تغيرت الظروف وأصبح من حق اليهود وغير المؤمنين الآن أن يمثلوا الشعب فى مجلس العموم . فضلاً عن أنه استشهد برأى مسئول بريطانى هو السير وليم هاركورت الذى وجد فى تقديم المجدفين إلى المحاكمة ضرراً أكثر مما فيه من نفع . ورغم أن فوت ظل يدافع عن نفسه لمدة ثلاث ساعات وسط تصفيق الحاضرين له فإن القاضى رفض أن يصغى إليه . وفى هذه المرة لم تتجشم هيئة المحلفين عناء الانسحاب للتشاور والمداولة بل قررت على الفور وبإجماع الأصوات أن المتهمين مذنبون وأثلج هذا الحكم صدر فوت الساعى للاستشهاد والدعاية لنفسه بالطرق كافة . وكان الأمل يراوده فى أن يحكم عليه القاضى نورث بالسجن لبضعة شهور قليلة تؤهله فى مجال التضحية والفداء لأن يخلف برادلاف فى رئاسة الجمعية العلمانية وقيادة دفتها ولكن هذا القاضى شدد النكير عليه وعلى أعوانه فحكم عليه بالحبس مدة عام كامل وبتسعة أشهر على رامزى وستة أشهر على كمب .

وأثار عنت القاضى نورث مع فوت وصحبه سخطاً كثيراً بين الصحف والمجلات ذات السمعة الحميدة فانتقدت مجلة الاسبكتاتور اللندنية قانون التجديف لغموضه فهو يسمح للمجدف أن يرى ما يرى ولكنه يحرم عليه التعبير عما يرى بلغة خشنة فى حين أن خشونة اللغة هى مسألة طبقية بحتة . فالطبقات الفقيرة وحدها هى التى تستخدم اللغة الخشنة أما الطبقات الموسرة فتستخدم لغة راقية ومهذبة فهى تعبر عن رأيها الذى قد يكون مسموماً بلغة ناعمة مثل ورق السوليفان ، وليس معنى نعومتها أنها أقل خطراً أو ضرراً من اللغة الخشنة . وذكرت مجلة التايمز القانونية أن الوقت قد حان لزوال هذه القوانين البالية .

وأدى هجوم الصحافة على القاضى نورث إلى إعادة محاكمة المتهمين فى إبريل (١٨٨٣) أمام قاض اشتهر بالاعتدال ورحابة الفكر هو اللورد جون كولريدج الذى وافق على محاكمة منفصلة لبرادلاف . واستطاع برادلاف - الذى لم ينكر أنه مجدف - أن يثبت أنه قطع صلته بمجلة «المفكر

الحر» منذ عام (١٨٨١) وبالتالى فهو غير مسئول عما نشر فيها . أما فوت فقد أقر القاضى بتجديفه ولكنه برأ ساحته من سوء القصد والتهتك والانحلال . وشجع اعتدال القاضى الجديد نفرا من دعاة العلمانية على تنظيم اجتماع طالبوا فيه بالإفراج الفورى عن فوت وأعوانه ووقع عدد من كبار المفكرين والأدباء الإنجليز من المتشككين فى الدين أمثال هربرت سبنسر وتوماس هكسلى وفردريك هاريسون وليسلى ستيفن على عريضة قدموها إلى وزير الداخلية السير وليام هاركورت يلتمسون فيها الإفراج عن فوت . ولكن وزير الداخلية اعتذر عن عدم تمكنه من الاستجابة لمطلبهم بحجة أن التهمة الموجهة ضده تندرج من الناحية القانونية تحت بند البذاءة ، ولكن القاضى كوليردج أظهر اعتدالاً واضحاً عندما قرر التنازل عن الدعوى المرفوعة ضد فوت . واتضح من سير الأحداث أن اتباع القاضى كولريدج لهذه السياسة المعتدلة كان أنجع من سياسة سلفه نورث القاسية التى سلطت على فوت أضواء الشهرة ، وأدى اعتدال كولريدج فى معاملة فوت إلى انصراف معظم الناس عن كتاباته الساخرة من الكتاب المقدس التى لم يتوقف عن نشرها .

وفى نهاية الأمر تسبب كل هذا اللغط فى أن يتحول فوت من رجل مجهول إلى رجل طبقت شهرته الآفاق . وبحلول عام ١٨٩٠ تمكن فوت من أن يحقق حلم حياته فى أن يخلف برادلاف فى رئاسة الجمعية العلمانية وساعده على ذلك انفصال أبرز المنافسين وهما إدوارد افنج ومسز بيسانت عن صفوف الحركة العلمانية البريطانية . وهكذا استطاع الرجل أن يحقق ما يرنو إليه فقد غدا بفضل سعيه الدائب والملح لدخول السجن بأية طريقة زعيماً للحركة العلمانية فى إنجلترا رغم افتقاره إلى الخيال والموهبة اللذين يؤهلانه لقيادة هذه الحركة .

هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) ـــ ١٣

يرتبط اسما توماس هكسلى وهربرت سبنسر ارتباطاً وثيقاً بنظرية التطور عند تشارلس داروين . وقبل الحديث عن الدور الذى اضطلع به هربرت سبنسر فى نشر أفكار داروين يجدر بنا أن نشير إلى أن داروين يعد امتداداً لمدرسة الفلاسفة الراديكاليين السابقة الذكر وإلى أن نظريته فى التطور تعتبر تطبيقاً عملياً فى مجال علم الأحياء لمذهب النفعية الذى استحدثه جيرمى بنثام وسار توماس مالثوس على دربه . ولكن هذا التطبيق لا يعنى التطابق . فهناك بعض الخلافات بين الداروينية من ناحية والبنثامية والمالثوسية من ناحية أخرى . وهناك حقيقة تستحق التنويه بها ومفادها أن داروين استوحى فكرته عن الصراع البيولوجى من أجل البقاء والبقاء للأصلح من أبحاث مالثوس فى زيادة السكان ثم طبقها على عالم الحيوان .

درس تشارلس داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) الطب فى جامعة إدنبرة باسكتلندا واللاهوت فى جامعة كامبريدج . ولكنه كرس وقت فراغه لدراسة الجيولوجيا وعلم الحشرات . وفى عام (١٨٣١) اشترك كباحث فى علم الأحياء فى رحلة استغرقت خمسة أعوام على ظهر الباخرة «بيجل» وقد تمكن فى أثناء هذه الرحلة الطويلة من التوصل إلى نظريته فى أصل الأنواع ومفادها أن ما نراه فى الخليقة من تنوع ينحدر من أصل واحد . ولم تكن هذه النظرة جديدة بحال من الأحوال فقد توصل

إليها جده إيرازموس داروين كما توصل إليها العالم الفرنسى لامارك والعالم البريطانى الفريد راسل والاس . فضلاً عن أن أناكسماندر الإغريقى سبق أن توصل إليها منذ القدم ، ولكن الحظ شاء لهذه النظرية أن ترتبط باسم داروين بسبب الدور النشط الذى لعبه فى نشرها بين عامة الناس .

وفى عام (١٨٥٩) ألف داروين كتاباً بالغ الأهمية فى هذا الموضوع بعنوان «أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعى» أثار ملاحاة عنيفة ومعارضة شديدة وخاصة فى صفوف المتدينين والمحافظين ، وذلك لأن نتائجه تعارضت مع ما ورد فى سفر التكوين فى الكتاب المقدس . واشتد سعير هذه الملاحاة عندما نشر داروين عام (١٨٧١) مبحثاً آخر بعنوان «أصل الأنواع» . وكانت نظرية داروين متمشية مع أفكار الفلاسفة الراديكاليين أمثال بنثام ومالثوس من حيث إنها نقلت فكرة التنافس الاقتصادى من المجتمعات الإنسانية إلى مجال علم الأحياء . فقد ذهب مالثوس إلى القول بأن الزيادة فى عدد السكان أكبر بكثير من الزيادة فى الزرع والضرع على الأرض ، الأمر الذى يفضى بالضرورة إلى احتدام الصراع بين البشر للحصول على الطعام وإلى قدرة بعضهم على البقاء وتعرض البعض الآخر للفناء . وعلى هذا النحو ذهب داروين إلى أن الكائنات الحية تتصارع من أجل البقاء وأن قدرة البعض منها على التأقلم مع البيئة المحيطة بها هى التى تؤهلها لاستمرار الحياة فى حين أن عدم قدرتها على هذا التأقلم يفضى بها إلى الاندثار . والجدير بالذكر أن نظرية داروين وجدت فى توماس هكسلى فى إنجلترا وهيكيل فى ألمانيا مدافعين شديدى التحمس لها . وبوجه عام رحب الليبراليون والتقدميون بهذه النظرية لما فيها من تعارض مع الأفكار الدينية التقليدية المحافظة . ولكن إساءة تفسير بعضهم للنظرية الداروينية وخاصة إيمانها بأهمية الوراثة ، انتهى بعامة الناس إلى بعض الأفكار المناهضة لليبرالية والمعادية للتقدم مثل الزهو القومى والعنجهية العنصرية . ويتضح لنا هذا بجلاء عندما نقارن بين ثقة جيمس ميل المطلقة فى قدرة التعليم على صياغة تشكيل حياة الإنسان وإيمانه العميق بمساواة كل البشر فى قدراتهم الذهنية وإمكانياتهم العقلية وبين قول نيتشه وأمثاله أن بعض الشعوب أكثر تفوقا من الناحية الوراثية من شعوب أخرى ؛ وهذه الفكرة الأخيرة تتعارض مع الأفكار البنثامية المنادية بتساوى البشر من حيث قدراتهم العقلية وقدرة الظروف البيئية على تغييرهم تغييراً كاملاً . ولا مناص هنا من الإشارة إلى توماس هكسلى الذى نذر حياته للدفاع عن نظرية التطور . فضلاً عن أنه أول من استحدث كلمة «لا أدرى» عام ١٨٦٩ للتعبير عن عدم تأكده من وجود الله .

ولد الفيلسوف الإنجليزى الشهير هربرت سبنسر من والدين من أتباع المنشق الدينى المعروف وسلى فلا غرو إذا رأينا الانشقاق جزءاً من طبيعته . كان أبوه الذى عاش فى مدينة «داربى» يعمل بالتدريس بالمدارس الخاصة ويبدو شكاكاً فى الدين . فهو يرفض تفسير أية ظاهرة على أساس غيبى لدرجة أن أحد معارفه وصفه بأنه لا يؤمن بأى دين . نشأ ابنه هربرت كسولاً يزور عن العلم والتعليم ، وظل على هذا الحال حتى بلغ الأربعين من عمره . وفى حداثته أرسله أبوه إلى هنتون ليتعلم هناك تحت إشراف عمه ومراقبته . ولكنه لم يطق صرامة عمه وتشدده معه فعاد إلى «داربى» مسقط رأسه سيراً على الأقدام فقطع فى اليوم الأول ثمانية وأربعين ميلاً وفى اليوم الثانى سبعة

وأربعين ميلاً وفى اليوم الثالث عشرين ميلاً لا يجد غير الخبز يقتات به . ويقول ويل ديورانت فى كتابه «قصة الفلسفة» إنه كان يزهو بجهله بأصول اللغة الإنجليزية ؛ حاول أن يقرأ الإلياذة وهو فى سن الأربعين فوجد فى قراءتها مشقة بالغة صرفته عن إتمامها . ويقول كولييه أحد معاونيه إنه لم يكمل قراءة كتاب واحد فى العلم الأمر الذي يؤكد أن تعليمه لم يكن منتظماً بأى حال من الأحوال . وفى الفترة بين (١٨٣٧) و(١٨٤٦) عين مهندساً فى سكك حديد لندن وبرمنجهام ثم مساعداً لتحرير مجلة «الإكنومست» وذلك فى الفترة بين (١٨٤٨) و(١٨٥٣) . بدأ هربرت بكتابة عدد كبير من المقالات فى مجلة «وستمنستر ريفيو» معتمداً على ملاحظاته الثاقبة فى الحياة أكثر من اعتماده على المطالعة . وفيما بعد أصدر عملين هما «الاستاتيكا الاجتماعية» (١٨٥٠) و«مبادىء علم النفس» (١٨٥٥) وفى عام (١٨٦٠) وضع لبنة مشروعه الكبير الذى يحمل عنوان «الفلسفة التركيبية» ويقع فى عشرة أجزاء . واستغرق منه هذا المشروع نحو عشرين عاماً فانتهى منه عام (١٨٩٦) رغم تدهور حالته الصحية . ويعتبر كتابه «مبادىء علم الاجتماع» (١٨٧٦) من أبرز أعماله الكثيرة التى تعد بالعشرات . وفى إحدى فترات حياته فكر فى الهجرة إلى نيوزيلنده ولكنه أحجم عن تنفيذ فكرته .

أراد هربرت سبنسر نشر مؤلفاته التى بدأت تروج عن طريق اشتراكات القراء . ولكن فكرته لم تلق النجاح رغم إقبال القراء على دفع قيمة الاشتراكات المطلوبة . فلم يكد ينشر كتابه «المبادىء الأولى» عام (١٨٦٢) حتى استشاط الناس غضباً منه واسترد معظم المشتركين اشتراكاتهم لأنهم استاؤوا من هجومه على رجال الدين والعلم على حد سواء . كما رفضوا أسلوبه المتهجم والمستفز فى محاولة التوفيق بين العلم والدين واعتبره كثيرون زنديقاً بسبب إيمانه بنظرية التطور ودفاعه المستميت عنها . وعندما رأى الفيلسوف جون ستيوارت ميل ازورار الناس عنه وسحب المشتركين لاشتراكاتهم تقدم على الفور بعرض على هربرت سبنسر أن يتكفل بدفع أية خسائر مادية قد تنجم عن نشر السلسلة التى يزمع نشرها . ولكن سبنسر رفض هذا العرض حتى وصله خطاب من أستاذ أمريكى معجب به مبلغ من المال باعتباره اشتراكاً فى المشروع ، فتقبله مؤلفنا بنفس راضية وأقبل على استكمال مشروعه يغمره الإحساس بالكرامة وبأن أحداً لم يتصدق عليه .

لم يكن هربرت فيلسوفاً أو عالماً متخصصاً ومن ثم جاءت فلسفته قائمة على التعميمات . ولكن هذا لا يقلل من شأنه بأى حال ، فقد كان فيلسوف نظرية التطور دون منازع ليس فى إنجلترا وحدها ولكن فى سائر الأقطار الأوروبية . ويعترف تشارلس داروين نفسه له بالفضل فى أنه سبقه إلى الوصول إلى نظرية التطور فلا غرو إذا رأيناه يحظى باحترام داروين وتوماس هكسلى .

كان سبنسر تجسيداً لروح العصر الذى يعيش فيه وبالتحديد للروح التى شاعت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وهى روح التفاؤل القائم على الاعتقاد بحتمية التطور وسعى سبنسر إلى صياغة فكرة التطور ، فى قانون عام ينطبق على كل شىء فى الحياة . وفى عام (١٨٥٨) اهتدى إلى إمكانية تطبيق نظرية التطور ليس على علم الأحياء فحسب بل على شتى أجزاء الكون وفروع

المعرفة . وتزامنت مجهوداته مع اكتشافات داروين العظيمة فى مجال علم الأحياء . وبسبب انتشار الأفكار الداروينية الخاصة بالتطور البيولوجى فقد كان الفكر الأوروبى على أتم استعداد للإيمان بنظرية متكاملة عن التطور ليس فى مجال البيولوجيا وحدها بل فى شتى مجالات الخليقة . وليس من المستغرب أن يعجز سبنسر عن تمثيل المعارف الإنسانية كافة التى ازدهرت فى عصره . ويعيد صياغتها فى قانون عام يفسر به كل شىء فى الحياة والكون . ولكن هذا لا يقلل من قيمة مجهوداته وأثرها الهائل فى عصره قال سبنسر إن التطور لا ينطبق على تعليل الأنواع والأجناس بل يمكن أن يفسر كل شىء ؛ الكواكب والتاريخ والأخلاق والجمال . أى أن التطور مرتبط بنشأة الكون وبالنظرة السديمية التى تذهب إلى أن الكون والكواكب والأفلاك والحياة خرجت من سدم تعيث فيها الفوضى . أى أن السديم الذى أنتج الوحش الضارى تطور حتى بلغ قمة الارتقاء فى شكسبير . فسر داروين التنوع والتغيرات التى تطرأ على أشكال الحياة كافة بما أسماه الانتخاب الطبيعى الذى يعتمد على قدرة الكائن الحى أو عدم قدرته على التأقلم مع البيئة . وعندما أذاع داروين نظريته فى التطور فى كتابه المعروف «أصل الأنواع» رحب بها سبنسر أعظم ترحيب ولكنه أضاف إليها تعبير «البقاء للأصلح» دون أن ينبذ فى الوقت نفسه إيمانه بنظرية لامارك التى تذهب إلى انتقال التغيرات فى الكائنات الحية عن طريق الوراثة .

قلنا إن سبنسر نفّر منه المؤمنين بالدين والملاحدة على حدٍّ سواء لأنه سوى بين الإيمان والإلحاد ووجد أنهما وجهان لعملة واحدة . ويشرح موقفه هذا فى كتابه «المبادىء الأولى» بمبدأين أساسيين : أولهما عجز المعارف الإنسانية عن تفسير وجود هذا الكون ، وثانيهما تفسير التطور بأنه ذلك التآلف أو التجانس أو الوحدة التى يعقبها التنافر والتنوع فى شتى مجالات الحياة من الدين والعلم إلى الفن والأخلاق . نبدأ بالمبدأ الأول فنقول إن المتدينين غضبوا منه لأنه أكد عجز الدين عن تقديم تفسير مقبول للمجهول فى هذا الوجود ولكنه أقر فى الوقت نفسه بأن الإلحاد لا يقدم تفسيراً معقولاً كذلك . ومن ثم سعيه بطريقته إلى التوفيق بين العلم والدين . أما مذهبه المنادى بتعاقب الوحدة والتنافر فيرى أنه ينطبق أول ما ينطبق على السديم الذى تميز بالوحدة ولكنها وحدة تحمل فى طياتها التنافر والتنوع بدليل ما تطور إليه السديم من أقمار وكواكب وزرع وضرع وإنسان وفن . يقول سبنسر فى هذا الشأن «التطور هو تجمع لأجزاء المادة يلازمه تشتيت للقوة والحركة وفى خلال ذلك تنتقل المادة من حالة التجانس المطلق إلى حالة التباين المحدود .» ويشرح ويل ديورانت معنى هذه المقولة فيقول إن الأسرة تطورت إلى قبيلة ثم تطورت إلى دولة ثم إلى تحالف بين دول الأرض قاطبة . ولكن هذا التآلف لا يلبث أن يتحول إلى تنافر فتآلف الدولة يحد من حرية الأفراد وتحالف الدول يحد من حرية كل دولة على حدة ، حتى الدين نفسه يخضع لتعاقب التآلف والتنافر . يقول زكى نجيب محمود وأحمد أمين فى شرح هذه النقطة : «لقد كان الدين أول الأمر عبارة عن طائفة من الآلهة والأرواح فأخذت هذه تتجمع وتأتلف حتى تركزت فى إله واحد . ثم عاد التوحيد يتفرع إلى جملة من الأديان وطائفة من العقائد» . ويقول يوسف كرم فى كتابه «تاريخ الفلسفة الحديثة» إن سبنسر الذى آمن بنسبية الحقيقة رأى : «إن للعاطفة الدينية أصلاً عميقاً فى الإنسان فهى من ثمة مشروعة :

إنها عاطفة الاحترام بل الحب الذى تحسه النفس نحو ما يعلو عليها . .» . وما سائر الأديان المعروفة عن الشعوب المتوحشة والمتحضرة إلا ترجمات مختلفة عن القوة العظمى التى هى علة الظواهر الطبيعية والتى كان الإنسان البدائى يحس شيئاً منها فى فعله الإرادى» . ولكن يجدر أن ننوه بأن قبول سبنسر للدين ومحاولته التوفيق بينه وبين العلم لا يعنى قبوله لأية تفسيرات ميتافيزيقية أو غيبية للظواهر الكونية أو الإنسانية . والجدير بالذكر كذلك أن فلسفة هربرت سبنسر التركيبية والمؤمنة بنسبية الحقيقة تسعى إلى رد ظواهر الكون والعالم إلى قانون واحد هو قانون التطور من البسيط إلى المعقد ثم الأكثر تعقيداً وهلم جرا . كما أن هذه الفلسفة اعتبرت علم الاجتماع جماع العلوم قاطبة .

توماس هكسلى (١٨٢٥ - ١٨٩٥) ١٤

ولد توماس هنرى هكسلى عالم البيولوجيا الشهير فى ٤ مايو (١٨٢٥) فى بلدة إيلنج فى إنجلترا من أب يعمل بالتدريس فى مدرسة ذات سمعة طيبة اسمها مدرسة نيكولاس . وإنها لمفارقة أن يتلقى العلم فى هذه المدرسة نقيضان أحدهما موغل فى الإيمان بالدين هو الكاردينال نيومان والآخر وهو توماس هكسلى موغل فى التشكك فيه . فهو الذى استحدث باللغة الإنجليزية لفظ «لا أدرى» agnostic وعلمه لهربرت سبنسر .

ورث توماس هكسلى عن أمه ميله للفنون والسرعة الفائقة فى التفكير . قرأ هكسلى وهو فى الثانية عشرة كتابات هتون التى جعلته ينصرف إلى دراسة علوم الميكانيكا . وفى سن الخامسة عشرة انكب على قراءة كتاب «المنطق» لوليم هاملتون فغرس فيه حب التفكير فيما وراء الطبيعة . وفى السابعة عشرة قرأ هكسلى كتابات توماس كارليل الذى يقول إنه تعلم منه منذ نعومة أظفاره عدم الخوض فى أى لغو فارغ . حصل هكسلى فى شبابه على منحة دراسية مكنته من دراسة الطب فى مستشفى تشارنج كروس بلندن . وفى سن العشرين حصل على بكالوريوس الطب من جامعة لندن التى منحته ميدالية ذهبية لتفوقه فى علمى التشريح ووظائف الأعضاء . وقد شجعه أستاذه النابه فى كلية الطب وارتون جونز على أول بحث علمى له عن شعر الرأس . وأراد هكسلى أن يبحث عن عمل يرتزق منه فتقدم بطلب لتعيينه فى البحرية البريطانية واجتاز الامتحانات التى تؤهله لهذا العمل كما حصل على المؤهل الخاص بالكلية الملكية للجراحين . وتوسم فيه المكتشف والعالم الطبيعى السير جون ريتشاردسون النبوغ فألحقه بالعمل على ظهر سفينة تابعة للبحرية البريطانية اسمها «راتل سنيك» كانت فى طريقها لمسح الحياة المائية فى مضيق توريز . وأبحرت هذه السفينة فى (٣ ديسمبر ١٨٤٦) غير أنها اضطرت إلى القفول راجعة من «سيدنى» بأستراليا بسبب وفاة ستانلى قبطانها . وأثناء الرحلة انكب هكسلى بكل طاقته على دراسة الحياة المائية التى تعيش فى المناطق الاستوائية الأمر الذى يعتبر نوعاً من الإسهام فى الثورة البيولوجية التى حدثت على يد تشارلس داروين .

وبعد عودته من رحلته البحرية تم اختياره زميلاً فى الجمعية الملكية عام (١٨٥٠) وفى العام الذى يليه منحته هذه الجمعية الميدالية الخاصة بها . وفى الفترة من (١٨٧١) حتى (١٨٨٠) تم تعيينه

سكرتيراً ثم رئيساً لها فى الفترة بين عامى (١٨٨١) و(١٨٨٥) . ورغم أنه لم يكن متبحراً فى علم البيولوجيا مثل داروين فإن الفضل يرجع إليه فى تحرير هذا العلم من أغلال التفكير المثالى والاستنباطى . ويختلف هكسلى عن أسلافه الدارسين لعلم الأحياء فى حرصه على اتباع المنهج الاستقرائى فى حين تورط كثير من أسلافه فى اتباع المنهج الاستنباطى (الذى يبدأ بالعام وينتهى بالخاص ، على خلاف الاستقراء الذى يبدأ بالخاص وينتهى بالعام) . وفى البداية لم يكن هكسلى مقتنعاً بنظرية التطور ولكنه غير موقفه عندما نشر داروين كتابه الشهير «أصل الأنواع» . ورغم اقتناعه بوجه عام بسلامة النظرية فإنه كان يجهل التفاصيل البيولوجية الدقيقة التى تستند إليها هذه النظرية . ولا غرو فقد كان هكسلى طبيباً ودارساً لعلم التشريح وليس عالماً بيولوجياً بالمعنى الدقيق ، وفى أخريات أيامه تدهورت صحته بسبب المجهود المضنى الذى بذله فى البحث العلمى وفى خدمة المجتمع الإنجليزى الأمر الذى اضطره إلى قضاء إجازة طويلة فى مصر ، والغريب فى أمر هذا الرجل أنه رغم تشككه فى الدين فقد أصر على ضرورة تعليم الكتاب المقدس فى المدارس للارتقاء بذوق التلاميذ وحسهم الأدبى فضلاً عن أنه عبر فى الجزء الثالث من مقالاته عن شديد حيرته فهو لا يعرف بديلاً عن المشاعر الدينية يمكن للسلوك الإنسانى أن يركن إليه فى عالم تتلاطم فيه الآراء وتتضارب فيه الأفكار . يقول هكسلى عن موقفه المتشكك فى الدين : إن درجة تشككى تجعلنى لا أستبعد حدوث أى شىء مشيراً بذلك إلى إمكانية حدوث المعجزات وهو يقول أيضاً فى مقالاته : «الشك شيطان مفيد» ورغم تشككه فى كل شىء فإن الشىء الوحيد الذى لم يتشكك فيه هو النظام الموجود فى الطبيعة وهو يقول فى هذا الصدد : «إن فكرة دوام نظام الطبيعة هى الفكرة التى تسيطر على الفكر الحديث . ولكن مهما كان المذهب الفكرى الذى يتبعه المرء فإنه من المؤكد أن كل إنسان ذكى يهتدى فى حياته ويرسم خططه فيها على أساس الإيمان بأن نظام الطبيعة يتسم بالدوام وأن سلسلة السببية الطبيعية لا يعتريها أى خلل» ولهذا رماه معارضوه باعتناق المذهب المادى وهى تهمة سعى ما وسعه السعى إلى إنكارها . يقول هيوم إن المعجزة انتهاك لقوانين الطبيعة . ورغم إيمان هكسلى بأن نسيج حياة الإنسان العملية يعتمد على الإيمان بدوام نظام الطبيعة فإنه يرى أن لا أحد يستطيع أن يحدد ماهية هذا النظام الأمر الذى قد يتنافى مع إنكار المعجزات ومع جدوى الصلوات ، ومن الواضح أنه ظل حتى عام (١٨٦٠) يؤمن بالمسيحية وبوجود الله . فقد كتب آنذاك يقول : «يبدو لى أن العلم يعلم بأعلى وأقوى لغة تلك الحقيقة العظيمة المتجسدة فى المفهوم المسيحى الخاص بالاستسلام التام لمشيئة الله» ونحن نراه فى عام (١٨٨٥) يكتب تحت عنوان «المثل الأعلى للدين» يقول : «فى القرن الثامن قبل الميلاد وفى قلب العالم الذى يعبد الأوثان قدم أنبياء اليهود مفهوماً للدين يبدو وحيه العبقرى فى روعة فن فيدياس وعلم أرسطو» . ولم يمض على ذلك أكثر من عامين حتى غير رأيه وكتب يقول : «إنه لحقيقة عدم توفر دليل على وجود كائن كالله تتفق صورته مع الصورة التى رسمها اللاهوتيون له .» ورغم هذا فقد رفض هكسلى الإلحاد مؤكداً على عدم وجود أساس فلسفى ينهض عليه . ولكن الإله الذى آمن به كان يختلف عن الإله الذى رسمه الدين المسيحى . فهذا الإيمان لا يعدو أن يكون اعترافاً بارداً من جانبه بوجود قوة مجهولة أو لا سبيل إلى سبر غورها تقبع وراء غلالة رقيقة يكشف العلم عن وجودها فى كل مكان . ونحن نراه أيضاً يعترف

فى عام (١٨٦٢) بتفوق رجال الدين واللاهوتيين على معارضيهم من الليبراليين وأصحاب الفكر الحر . ويكمن سر تفوقهم فى رأيه فى أنهم توصلوا - رغم غرابة الصور والأشكال التى يستخدمونها - إلى حقائق الحياة الجوهرية مثل الإيمان بالمقدر والمكتوب والخطيئة الأولى والشر الكامن فى النفس الإنسانية والمصير البائس الذى ينتظر السواد الأعظم من البشر وأهمية الدور الذى يلعبه الشيطان فى هذا العالم والشر الكامن فى المادة . ويعتقد هكسلى أنه رغم كل ما يشوب أسلوب اللاهوتيين ورجال الدين فى التعبير عن آرائهم فإنهم أقرب إلى إدراك حقائق الحياة من هؤلاء الليبراليين المتفائلين الذين يؤمنون بأن الإنسان خير بطبعه وأن السبب فى فساده يرجع إلى فساد المجتمع وأننا إذا هيأنا للإنسان البيئة المناسبة والظروف الحسنة فسوف يفعل الخير والصلاح . وليس أدل على هذا من اهتمام هكسلى بالمشاكل اللاهوتية .

ويمكن القول إنه ابتداء من عام (١٨٨٠) حتى نهاية عمره كرس هكسلى كل وقته وجهده للدفاع عن نظرية التطور ومحاربة الأفكار الدينية . وإليه يرجع الفضل فى ترسيخ قيم التسامح وحرية التعبير عن الشك طالما أنه شك مخلص وصادق ولائق فى أسلوبه فى التعبير عن نفسه . وفى تلك الفترة كتب متشككاً فى وجود المسيح من الناحية التاريخية وسلامة تعاليمه قائلاً إن الذى نتصور أنه دين مسيحى لا يعدو أن يكون نسخة من الدين اليهودى مصطبغة بصبغة هيلينية كما أن بعضا من أكثر العناصر سوءاً فى اليهودية الوثنية تسللت إلى الدين المسيحى ، وذهب هكسلى إلى حتمية انهيار الدين المسيحى ولكنه رأى أن انهياره لن يكون مفاجئاً أو سريعاً . ورغم هذا الهجوم الشرس على المسيحية فقد عبر عن إعجابه ببعض النقاط المضيئة فيه مثل حياة القديسة الآتية من سيينا (١٣٣٣ - ١٣٤٧) .

وفى أواخر حياته انصرف إلى معالجة المشاكل الأخلاقية ففى عام (١٨٨٢) كتب يقول إن الحس الأخلاقى لدى الإنسان مسألة شديدة التعقيد تعتمد على الإحساس باللذة والألم ومجموعة الأوامر والنواهى التى تغرس فى المجتمع عن طريق التربية والتعليم فى نفوس الناشئة ، ولكنه يذهب إلى وجود نوع من الحدس الأخلاقى والجمال فى فطرة الإنسان اللذين يتوفران فى بعض الناس دون بعضهم الآخر . وفى عام (١٨٩٤) ألقى هكسلى محاضرة تعرف باسم محاضرة رومانيز حيث قدم فيها تعريفاً للقانون والأخلاق باعتبار أنهما قيد يحد من الصراع من أجل البقاء الدائر بين الفرد والمجتمع . ويخلص هكسلى إلى رأى مفاده أن العملية الأخلاقية (التى يختص بها الإنسان) تتعارض مع العملية الكونية التى لا تعرف غير الصراع من أجل البقاء . ويعتقد هكسلى أن بزوغ الأخلاق يتواكب مع بزوغ المجتمع . وأن العملية الأخلاقية ما هى إلا التقوية البطيئة للتماسك والترابط الاجتماعى فى حين أن العملية الكونية ليس لها أدنى علاقة بالغاية الأخلاقية لأن الغاية الأخلاقية كما أسلفنا خصيصة من خصائص الإنسان ولا شأن للكون بها . فليس فى الطبيعة أى أثر لوجود هذه الغاية الأخلاقية . ولهذا رأى هكسلى الشر ماثلا فى العملية الكونية والخير ماثلاً فى العملية الأخلاقية . وهما عمليتان متضادتان ومتناقضتان . ويختم هكسلى آراءه الأخلاقية بنظرة متشائمة مفادها أن السيادة والغلبة سوف تكتب فى نهاية المطاف للعملية الكونية التى تقوم على الصراع من

أجل الحياة واندحار الحاسة الأخلاقية عند الإنسان ، وتنبأ هكسلى بحدوث هذا بعد أن يبلغ التطور ذروته ثم يبدأ فى الضعف والأفول . وهى نظرة إلى الطبيعة واضحة التشاؤم تركت أثرها الواضح فى أدب الشاعر والروائى الكبير توماس هاردى وإن كان تشارلس داروين نفسه رفضها فقد كان يؤثر النظر إلى جوانب الطبيعة البهيجة وليس إلى جوانبها القميئة .

توماس هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٨) ——— ١٥

ولد الشاعر والروائى الكبير توماس هاردى فى ٢ يونيو (١٨٤٠) فى عائلة شديدة التواضع فى نجع من نجوع دور ستشير بجنوب إنجلترا وورث عن أمه حب الكتب والقراءة وعن أبيه حب الموسيقى والاهتمام بالبناء والتشييد . فقد كان أبوه عاملاً من عمال البناء . وتدرب هاردى فى حداثته فى مكتب هندسى يملكه المهندس جون هيكس فى مقاطعة دور ستشير وهى منطقة حباها الله جمالاً طبيعياً قل أن نجد له نظيراً . وبعد تدريبه غادر مسقط رأسه فى بوكهامبتون إلى لندن عام (١٨٦٢) حيث عمل لدى مهندس معمارى يدعى أرثر بلوفيد لمساعدته فى تصميم الكنائس وترميمها . وفى فترة عمله فى لندن انصرف فى وقت فراغه إلى قرض الشعر الذى أحبه من شغاف قلبه . ودأب على إرسال قصائده إلى الصحف والمجلات التى رفضت نشرها . وفى عام (١٨٩٨) تمكن هاردى من نشر أول ديوان شعر له بعنوان «قصائد وسكس» ولاحظ هاردى أن صحته تتدهور فى لندن فقرر العودة إلى دور ستشير حيث التحق بالعمل فى مكتب جون هيكس الذى تدرب فيه . وفى الوقت نفسه قرر الانصراف موقتاً عما يحب وهو قرض الشعر إلى مالا يروق له كثيراً وهو كتابة الروايات التى كانت شائعة فى زمانه ، فقد رأى فى كتابة الروايات أقصر طريق إلى كسب العيش وإلى الشهرة والمجد الأدبى . ونحو عام (١٨٦٧ - ١٨٦٨) أنتج هاردى أول عمل روائى له بعنوان «الرجل الفقير والسيدة» ولكن هذا العمل لم ير طريقه إلى النشر وضاع مخطوط روايته وبعد ذلك عرض هاردى بعضاً من كتاباته الروائية على شيخ من شيوخ الأدب آنذاك هو جورج ميرديث (١٨٢٨ - ١٩٠٩) فشجعه على الاستمرار فى كتابة الروايات وألف أولى رواياته على الإطلاق «علاجات يائسة» التى نشرها فى أوائل عام (١٨٧١) على نفقته الخاصة دون أن يذكر اسمه كمؤلف لها . وفى العام التالى (١٨٧٢) نشر كوميديا رعوية بعنوان «تحت الشجرة ذات الخشب الأخضر» استقبلها النقاد بالمدح والثناء . وتتضمن هذه الرواية كثيراً من الخصائص التى تميز بها أدبه الروائى بوجه عام وهى خصائص توسع فى تطويرها فى أعماله الروائية اللاحقة . وعندما توفر له المال بنى لنفسه بيتاً جميلاً فى مكان هادىء ومنعزل وبديع أسماه «ماكس جيت» نعم فيه بالسكينة والهدوء ولكنه لم ينعم فيه بهدوء البال بسبب تعاسته فى حياته الزوجية . وبلغ حياؤه وعزوفه عن الاختلاط بالناس وزهده فى حياة الحضر مبلغاً جعله لا يزور لندن إلا لماما ليلتقى بمشاهير الأدباء الذين ربطتهم به وشائج قوية أمثال ماثيو أرنولد وروبرت براوننج وهنرى چيمس وجورج ميرديث ووالتر باتر واللورد تنسون وأوسكار وايلد ، فضلا عن أن الأديب المعروف روبرت لويس ستفنسون كثيراً ما نزل ضيفاً عليه فى بيته الريفى «ماكس جيت» . وتعتبر روايته «بعيداً عن الجمهور الذى يبعث على الجنون» أول نجاح أدبى حقيقى له . فقد كانت هذه الرواية بمثابة اللبنة فى بناء صرح

مجده الأدبى كما تعتبر رواياته التراجيدية الأربع «عودة ابن البلد» (١٨٧٨) و«عمدة كاستربريدج» (١٨٨٦) و«تس سليلة آل دربرفيل» (١٨٩١) و«جود المجهول» (١٨٩٤) أهم ما سطره يراعه من روايات ، فضلاً عن أن ملحمته الشعرية الرائعة «الأسر الحاكمة» (١٩٠٨) أهم ما سطره من شعر على الإطلاق . والجدير بالذكر أن هذه الملحمة تدور حول الحروب النابوليونية والجدير بالذكر أيضاً أن تعاسته الزوجية مع زوجته الأولى «إما لافينتيا جيفورد» التى زفت إليه عام (١٨٧٤) زادت من إحساسه بالقتامة والتشاؤم وانعكست على إنتاجه الروائى الذى يهاجم فيما يهاجم شقاء الزيجات والقيود القانونية والأخلاقية التى يفرضها نظام الزواج على البشر . وبعد عامين من وفاة زوجته الأولى عام (١٩١٢) تزوج هاردى للمرة الثانية من فلورانس داجدال التى أذاقته طعم الهناء وعوضته عن أيام الشقاء مع زوجته الأولى . وعندما مات مؤلفنا بعد فترة قصيرة من المرض أحرقت جثته التى ووريت الثرى فى ضريح العظماء فى «وستمنستر» ولكنه أوصى بدفن قلبه فى أغلى مكان أثير إلى فؤاده هو «دور ستشير» .

وقد شاء حظ توماس هاردى غير المجدود أن يعيش فى فترة تمور فيها إنجلترا بالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية الهائلة ، فالنظام الرأسمالى اكتمل والثورة الصناعية بلغت ذروتها الأمر الذى جعل إنجلترا تنبذ طابعها الريفى الجميل وتندفع فى تحويل الريف إلى حضر . ورغم عدم إيمانه بالدين فلا مناص من الاعتراف بشدة محافظة توماس هاردى وسعيه المستميت لمقاومة التصنيع والحفاظ على طابع البلاد الريفى دون جدوى بطبيعة الحال . ومما زاد من إحساسه بالشؤم والقتامة المتأصلة فيه أنه قرأ مبحث توماس مالثوس المعروف «مقال عن الزيادة السكانية» (١٧٩٨) الذى تنبأ فيه بمصير الإنسانية البائس لأن زيادة النسل فى العالم تفوق قدرة الأرض على إنتاج الطعام ، والأهم من هذا كله أن نظرية التطور التى استحدثها داروين ونفر من علماء البيولوجيا هزت الفكر البريطانى هزاً عنيفاً فقد شككت الكثيرين فى قصة الخلق كما وردت فى الكتاب المقدس . وزاد الطين بلة أن مجموعة من الباحثين الألمان توفروا على دراسة مفصلة للكتاب المقدس لتبيان ما فيه من متناقضات . حتى الطبيعة فقدت بريقها الرومانسى بسبب نظرية التطور التى تؤمن بالصراع من أجل البقاء وتحولت فى يد المؤمنين بهذه النظرية إلى أداة لممارسة الشر وتعذيب البشر بتقلباتها المفاجئة التى تودى أحياناً بحياة الألوف كما يحدث فى حالات الزلازل والبراكين . تأثر هاردى بكل هذا فصوّر الطبيعة على أنها تجسيد للقدر الظالم الباطش الذى ينكل بالإنسان الضعيف البرىء ويسومه الذل ومر العذاب وأصبحنا نراه ينظر إلى الله على أنه قوة شريرة تتحكم فى العالم وهكذا أصبحنا نرى هاردى فى نظرته إلى القوة الشريرة يردد القول الشكسبيرى المعروف الذى جاء على لسان جلوستر فى مسرحية الملك لير : «إن مثلنا بالنسبة للآلهة مثل الذباب بالنسبة للأطفال الأشقياء فهذه الآلهة تقتلنا كى تتسلى بقتلنا مثلما يتسلى هؤلاء الأطفال بقتل الذباب» . وهو قول واضح الإلحاد ولا شىء يخفف من وطأة إلحاده سوى استبداله كلمة الآلهة بكلمة الله .

وتسجل زوجته الثانية فلورانس إميلى هاردى رأى هاردى فى الدين فى كتابها الثقة «حياة توماس هاردى» فقد كتب عام (١٩٠٧) يقول «إن زمن الأديان ولى بغير رجعة» . ورغم أن العقلانية

حفزته إلى نبذ الدين فإنه لا يجد فى العقلانية وحدها ما يشفى غليله . ومن ثم نراه ينبذ الدين والمذهب العقلانى معاً ، ويضيف توماس هاردى أن الدين فى العصر الحديث قد تغير تغيراً تاماً فهو يعنى تلك المشاعر النبيلة التى يجيش بها صدر الإنسان نحو أخيه الإنسان . أما معناه القديم الذى يتمثل فى المراسم والطقوس فقد اندثر أو هو فى سبيله إلى الاندثار . الرأى عنده أنه لا ينبغى علينا أن ندخل الكنيسة كى نصلى قائلين لقد ضللنا وابتعدنا عن طريقك مثل الخراف الضالة . بل ينبغى علينا أن نصلى قائلين لله : «ليت روحى تجد ما تعظمه وإلى ذلك الحين فلنكتف بتمجيد الأعمال الطيبة ودعنا نطور كل السبل التى تمهد الطريق أمام تقدم البشر فى عالم سيىء وشرير غير جدير بهم» . ويقول هاردى أيضاً : «إن الإنسان الحديث يختلف عن الأجداد والأسلاف فالأجداد كانوا صادقين صدقا كاملاً فى إيمانهم بمبادىء الدين ، أمّا نحن فنحتفظ به لمجرد أهميته التاريخية» . ويذهب هاردى فى موضع آخر إلى أن المسيحية فى يومنا الراهن لا تعدو أن تكون دعوة تنهض على الأخلاق والإيثار ومن الخطل أن نظن أن الأخلاق والإيثار قاصران على المسيحية فنحن نجدهما فى أديان أخرى لم تسمع باسم يسوع المسيح . لقد درج النقاد على الحديث عن قسوة القدر على الإنسان فى الأعمال الأدبية وتصوير هذا القدر على أنه قوة شريرة تحكم العالم وتناصب الإنسان الكراهية والعداء . ولكن فلورانس إميلى هاردى تصحح هذا المفهوم الشائع الخاطىء فتقول إن زوجها لم يؤمن قط بأن الله أو القدر قوة غاشمة وشريرة بل قوة عمياء غير واعية تمضى فى طريقها كالآلة الصماء دون أدنى اكتراث بمشاعر الناس وآلامهم ، أى أن رأيه عن الله أشبه ما يكون برأى سبينوزا فيه .

والرأى عنده أن هذا الكون لا تحكمه الصدفة أو الغاية بل تحكمه الضرورة والحتم . والجدير بالذكر أن هذه الآراء الملحدة صدرت عن رجل تربى فى طفولته تربية دينية خالصة . ومن الأقوال التى اشتهر بها قوله إنه ظل يبحث عن الله لمدة ثلاثين عاماً دون أن يجده ؛ ويرى المحللون أن هذا القول لا يدل على إلحاده بقدر ما يدل على إيمانه بدليل حرصه الكامل والأكيد على البحث عن الله طوال هذه الفترة المديدة . والواقع أن نفسه كانت تتوق أبداً إلى الإيمان ولكن عقله رفض هذا الإيمان ومن ثم تمزقه الداخلى .

جورج إليوت (١٨١٩ - ١٨٨٠) ______ ١٦

ولدت جورج إليوت واسمها الحقيقى - مارى آن إيفانز - فى (٢٢ نوفمبر ١٨١٩) فى ضاحية واروبكشير التى ترك جمالها الريفى أثراً عميقاً فى أدبها الروائى . وهى تنحدر من عائلة متدينة فقد كان والدها روبرت إيفانز - الذى يعمل بالتعدين وسمسرة الأراضى وتعبيد الطرق - حريصاً على ذهابه إلى الكنيسة ، وعندما راودتها الشكوك فى الدين وامتنعت عن مرافقته فى الذهاب إلى الكنيسة غضب منها وقاطعها ورفض العيش معها تحت سقف واحد حتى اضطرت إلى العيش بعيداً عنه مع أخيها . ولم تعد المياه إلى مجاريها بين الابنة وأبيها إلا بعد أن تعهدت بالذهاب إلى الكنيسة وبأن تفكر فى الدين بينها وبين نفسها كما يحلو لها . وفى حياتها الباكرة نجحت بعض مدرساتها

المتدينات فى تحويلها إلى المذهب الكالفينى وهو مذهب يتسم بالتطرف والتشدد الأخلاقى وليس أدل على ذلك من أنها تزعمت تلميذات مدرستها فى الصلاة وممارسة نشاط البر والإحسان بين فقراء المدينة . تزوج أبوها مرتين وأنجب ثلاثة أطفال من زوجته الأولى كانت مارى واحدة منهم . وبعد وفاة زوجته الأولى تزوج للمرة الثانية فأنجب ثلاثة أطفال آخرين وكما قلنا إن إليوت تحولت إلى الملة الإيفانجيلية المتشددة فجرفها الحماس الدينى إلى حد أنها تعمدت أن تضع على رأسها غطاء رأس رثاً وقذراً زاد من قبح منظرها . ولكن دمامتها كانت دمامة لذيذة على حد وصف هنرى جيمس . والجدير بالذكر أن نشأتها فى أحضان الريف الذى أحبته حباً عميقاً وجارفاً أثرت فى رواياتها أوضح الأثر . وفى فترة انشغالها بالدين واهتمامها بالمشكلات اللاهوتية قامت بترجمة كتاب حياة المسيح تأليف دافيد فردريك ستراوس . تعلمت جورج إليوت فى حداثتها عدة لغات هى الإغريقية واللاتينية والفرنسية والألمانية والإيطالية كما أنها نشرت فى بدء حياتها مجموعة من أبيات الشعر التى تتناول العقيدة المسيحية فى مجلة «الأويزرفر المسيحى» تحت توقيع مستعار .

وفى نحو العشرين من عمرها أخذت مجالات جورج إليوت فى القراءة تتسع لتشمل أعمال الرومانسيين وتأثرت على وجه الخصوص بشعر وردزورث ، وقد ظل هذا الأثر باقياً حتى نهاية عمرها . وإلى جانب ذلك توفرت على دراسة العلوم التى أثرت فى انتقائها للصور والأخيلة ، وقد أمدتها دراسة العلم بأداة تفاهم مشترك بينها وبين عشيقها دارس العلوم جورج هنرى لويس . وقد أفضت دراستها للعلم إلى نبذ الدين . وكانت علاقتها المحرمة بعشيقها المتزوج لويس سبباً فى مقاطعة أهلها وذويها لها وازورار الناس عنها ، غير أنها تزوجت فيما بعد زواجاً شرعياً من صديقها جون كروس بعد أن توفى عشيقها ، ولا شك أن فضائحها الجنسية كانت واحداً من أهم الأسباب التى جعلتها تخفى اسمها الحقيقى وتنشر أعمالها تحت اسم جورج إليوت المستعار . فضلاً عن أنها أرادت أن تتجنب نظرة المجتمع المستخفة آنذاك بكل نشاط أدبى نسائى .

وفى عام (١٨٤١) انتقلت عائلة جورج إليوت إلى مسكنها الجديد فى كوفنترى حيث تعرفت بمجموعة جديدة من الأصدقاء لعبت دوراً عظيماً فى تشكيكها فى الدين وخاصة تشارلس براى وأخته كارولين براى التى اعتنقت المذهب اليونيتارى المؤمن بأن الله أقنوم واحد . والجدير بالذكر أن تشارلس هنيل ألف كتاباً بعنوان «مبحث فى جذور المسيحية» طرح فيه بعض التساؤلات الجريئة حول نشأة المسيحية قرأته كاتبتنا فترك فى نفسها أعمق الأثر .

وفى عام (١٨٤٩) توفى والدها بعد عدة شهور من المرض كانت فيها نعم الابنة فقد سهرت على الرعاية به طوال هذه الفترة الأمر الذى أضناها وأنهك أعصابها فنصحها المقربون إليها بقضاء إجازة فى فرنسا وإيطاليا . وفى عام (١٨٥١) وقعت جورج إليوت فى غرام جون تشابمان الناشر الذى نشر لها كتابها المترجم عن المسيح وشجعها على الإسهام بمقالاتها فى المجلة التى كان يصدرها بعنوان «وستمنستر ريفيو» وكان تشابمان يخون زوجته مع جورج إليوت وغيرها من النساء . واكتشفت جورج إليوت أنه يتلاعب بمشاعرها فأصابتها صدمة هائلة وأجهشت بالبكاء . ثم قررت الابتعاد بعواطفها عنه ولكنها استمرت فى التعامل معه فى مجال النشر .

ونلقى الضوء على موقف جورج إليوت من الدين فنقول إنها أرسلت إلى والدها بتاريخ (٢٨ فبراير ١٨٤٢) رسالة أكدت فيها أنها لا تربطها بالعقيدة اليونيتارية ولا بأى شكل من أشكال الدينين اليهودى والمسيحى أية صلة . تقول هذه الكاتبة فى رسالتها عن التوراة والإنجيل إننى أعتبر هذه الكتابات تاريخاً تختلط فيه الحقيقة بالخيال . ورغم إعجابى بما أعتقد أنه تعاليم المسيح الأخلاقية فإنى أعتبر أن المذهب الذى تنبنى عليه حقائق حياة المسيح ومادتها المستمدة من الأفكار اليهودية أكبر إساءة إلى الله وأكثرها ضرراً فى أثرها على سعادة الفرد والمجتمع وأجدنى فى هذه النقطة المهمة متفقة مع أبدع العقول التى أنتجها العالم المسيحى فى العصور الماضية ومتفقة أيضاً مع معظم هذه العقول البديعة فى الوقت الحاضر (وإنى أورد على سبيل المثال اسماً مألوفا لديك أكثر من الأسماء الأخرى التى قد أذكرها هو الدكتور بنيامين فرانكلين .) وتستطرد جورج إليوت فى خطابها إلى والدها أنها لا تبغى إقناعه أو إقناع أى فرد آخر فى عائلتها بسلامة وجهة نظرها مؤكدة أنها لن تتزحزح قيد أنملة عن موقفها الرافض للدين إلا إذا اقتنعت بخطئها . هكذا فكرت الفتاة التى كانت تستمسك بالدين فى حداثتها على نحو بالغ التشدد لدرجة أنها حرمت على أخيها زيارة المسارح فى لندن باعتبارها رجساً من عمل الشيطان ناهيك بنشاطها الكنسى الملحوظ فى إعداد خريطة دينية تتضمن تاريخ الأباطرة الرومان وأساقفة الكنيسة العظام والهرطقات التى واجهت الكنيسة والتى أدت إلى عقد المجامع الكنسية . وعبثا حاول قسيس الكنيسة المحلى أن يردها إلى حظيرة الإيمان فقد ركبت رأسها وقارعته الحجة بالحجة لدرجة أن أصابه الإنهاك واقتنع أن بها مسا من الجنون وأن شيطاناً قد تملكها وأسقط فى يده حين ثبت له أنه ما من كتاب يدافع عن المسيحية اقترحه عليها إلا كانت قد قرأته .

وعلى أية حال فإن تاريخ الأدب الإنجليزى سوف يذكرها دوماً بسبب ما خطه يراعها من روايات باقية مثل «آدم بيد» (١٨٥٩) و«رامولا» (١٨٦٣) و«ميدلمارش» (١٨٧١) و«دانييل ديروندا» (١٨٧٦) .

ماثيو أرنولد (١٨٢٢ - ١٨٨٨) ———— ١٧

لعب ماثيو أرنولد (وهو ابن توماس أرنولد أحد أهم نظار المدارس فى تاريخ إنجلترا) دوراً بارزاً فى توجيه التربية والتعليم فى بلاده . ولا غرو فقد كان يعمل بالتفتيش على مدارس الدولة العلمانية حيث إن المدارس الدينية كانت مستقلة فى الإشراف عليها . وظل ماثيو أرنولد فى وظيفة التفتيش حتى قبيل وفاته بعامين . وكثيراً ما أرسلته بلاده إلى عدد من البلاد الأوروبية مثل فرنسا وألمانيا وهولندا للوقوف على حالة ونظام التعليم فيها . كانت حكومته تكلفه بكتابة التقارير حول نظم التعليم وكانت لهذه التقارير أهمية فجمعها أصدقاؤه ونشروها فى مجلدات . وفى وقت فراغه انصرف أرنولد إلى قرض الشعر وممارسة النقد الأدبى فسطع نجمه وذاعت شهرته بسبب إعجاب الناس بكتاباته . تلقى أرنولد تعليمه الثانوى فى مدرسة راجبى ثم التحق بكلية باليول بأكسفورد . وبالرغم من أنه نتاج الثقافة البورجوازية (أى ثقافة الطبقة الوسطى) فقد تمرد على هذه الثقافة وهاجمها هجوماً ضارياً فى كتاباته .

ظهرت مواهب أرنولد الأدبية منذ حداثته فى أيام الطلب فى المدرسة والجامعة ونشر مجموعة من القصائد والدواوين فى حياته اللاحقة نذكر منها «المهياص الضال» (١٨٥١) و«إمبودكليس على جبل إتنا» وقصائد أخرى (١٨٥٢) وقصيدته الكلاسيكية المأساوية «ميروب» (١٨٥٨) فضلاً عن قصيدته الشهيرة «العالم الغجرى» . وفى عام ١٨٦١ نشر ثلاث محاضرات ألقيت فى أكسفورد بعنوان «حول ترجمة هوميروس» ومن أهم أعماله النقدية على الإطلاق «مقالات فى النقد» .وبسبب درايته بالخلافات العقائدية الموجودة بين مدارس الملل والنحل المسيحية المختلفة نراه يتهكم فى كتاباته عليها ويعبر عن زرايته بها . وإنها لمفارقة أن يوصى أرنولد المسئولين عن التعليم بتدريس الكتاب المقدس للتلاميذ ليس بوصفه كتاباً مقدساً بل من أجل جمال لغته . وليس هناك أى دارس للأدب الإنجليزى لم يسمع بكتابه الشهير «الثقافة والفوضى» (١٨٦٩) .

وإلى جانب شهرته التى طبقت الآفاق فى مجال الشعر والنقد نراه يعنى بتأليف طائفة من الكتب فى غير تخصصه وهو اللاهوت مثل كتاب «القديس بولس والبروتستانتية مع مقدمة عن البيوريتانية وكنيسة إنجلترا» (١٨٧٠) و«الأدب والأفكار المتزمتة والجامدة : مقال نحو فهم أفضل للإنجيل» (١٨٧٣) و«الله والكتاب المقدس : عرض للاعتراضات على الأداب والفكر الجامد المتزمت» . وقد أثارت هذه الكتب اللاهوتية اهتماماً كبيراً بها فى زمانها . وخلاصة القول إن أرنولد عاش فى مرحلة انتقال بين القديم والجديد ففى زمانه خطا العلم خطى واسعة الأمر الذى قلب الكثير من الأفكار التقليدية رأساً على عقب . وفى حيرته لم يقبل ماثيو أرنولد المذهب العقلانى ووجده لا يكفى لحل المشاكل الميتافيزيقية كما أن وحدانية الوجود التى دعا إليها سلفه الشاعر وردزورث لم ترق له . وكذلك لم ترق له الفلسفة المثالية الألمانية التى تبناها كولريدج . ولا غرو فقد عاش نهبا مقسماً بين القديم والجديد . ونظر إلى الطبيعة فوجد أنها تنذر بالشر المستطير بما تنطوى عليه من قسوة وعدم مبالاة بمشاعر البشر . ومن ثم كان أرنولد البائس المحزون مرآة صادقة لعصر يمور بالشك وبالقلق الناجم عن انتفاء اليقين . وليس أدل على تمزقه من أنه فى الوقت الذى عبر فيه عن تشككه فى الدين المنزل نراه يعلى من شأن عظمة التقاليد المسيحية ويبرز الأثر العميق الذى تركته شخصية المسيح التاريخية فى حياة الإنسانية .

من الواضح أن ماثيو أرنولد أقام فكره الدينى على أربعة مبادىء هى :

١ - أن الكون يسرى فيه اتجاه عام نحو الفضيلة .

٢ - أن المسيح أعلى مقاماً من كل حوارييه والذين نقلوا إلينا أخباره .

٣ - أنه ليس للمعجزات وجود .

٤ - أن سلوك الإنسان يشكل ثلاثة أرباع حياته وأن الإحسان والطهارة الجنسية هى أهم ركائز السلوك وأبرز مبادئه .

وتثير الحيرة والبلبلة الدارسين الذين يتقصون موقف ماثيو أرنولد من النظام الأخلاقى الذى اهتدى إليه وأمن به فى الوقت نفسه الذى ينكر فيه المعجزات فى الدين المسيحى ويهاجم العقائد

الدينية لجمودها . والرأى عنده أن تجارب الحياة خير شاهد على أن الطهارة الجنسية هى أهم ركن فى النظام الأخلاقى . ولهذا السبب فإنه يذهب إلى أن المسيح لم يستوح فكره من الغيب أو من لدن الله كما يعتقد المسيحيون بل من اكتشافه لبعض الحقائق الكامنة والأكيدة فى الحياة وطبيعة الإنسان والواقع المعاش . ومعنى ذلك أن أرنولد أمن بالأخلاق المسيحية فى الوقت الذى أنكر فيه العقيدة المسيحية . وهذا موقف ينم عن التناقض ليس له من تفسير ، غير أن طبيعته المتمردة على الدين كانت فى جوهرها طبيعة دينية تميل إلى المحافظة الأمر الذى ينطوى على المفارقة . وليس أدل على محافظته من إيمانه القوى ببعث النفس البشرية بعد الموت وإيمانه أيضاً أن روح كل إنسان بحاجة إلى «المعمودية فى موت المسيح» فلا غرو إذا رأينا أرنولد يقترب من الإيمان بالمسيحية ويبتعد عن الإيمان بالله . ولعل ميله نحو الدين يتجلى بوضوح فى موقفه من صلب المسيح فهو يعتبر هذا الصلب الاختبار النهائى والدقيق الذى يدل على صحة المذهب الأخلاقى الذى يدعو إلى ضرورة بذل النفس والتضحية بالذات إلى أقصى حد ممكن ، لأن التضحية بالذات هى سبيل الإنسان إلى بعثه وتجدده وتحقيق اكتماله وسعادته . وهذا فكر يبدو غريباً إذ أنه لا يتسق مع إنكاره للمعجزات بوجه عام وإنكاره حادثة قيامة المسيح التى اعتبرها نوعاً من الزيف والخداع . وأرنولد يفهم البعث بطريقة خاصة فهو يكمن فى نظره فى حادثة الصلب أو بعبارة أدق قبول المسيحيين له وابتهاجهم بحدوثه . كما أنه يكمن فى تحقيق المسيح لأكبر انتصار أخلاقى عندما طلب من الله أن يغفر للذين صلبوه . فقد قال المسيح وهو على الصليب : «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون .» هذه الحادثة فى نظر أرنولد ليست مجرد رمز شعرى جميل بل واحدة من أهم حقائق هذا الكون . وأرنولد يقتنع كل الاقتناع أن التاريخ نفسه يبين لنا أنه لا وجود للسعادة التى ينشدها جميع البشر إلا عن طريق ممارسة الفضيلة . والمحير فى أمره إصراره وتشبثه بالمسيحية والإنجيل فى الوقت الذى اعتبر معظم ما جاء به لغواً فارغا وحكايات من نسج الخيال .

إن أرنولد الذى تمرد على المسيحية كما تمرد عليها المتشككون فيها فى القرن التاسع عشر كان مشدوداً إلى الماضى المسيحى بأوثق العرى والوشائج . ولهذا نراه يهاجم من يتطرفون فى الهجوم على الدين المسيحى بغية هدمه رغم شدة قربه منهم ورغم أنه هو نفسه شن هجوماً على المسيحيين الذين يؤمنون بما تنطوى عليه المسيحية من خزعبلات . ويتجلى لنا استعداده لمهادنة المسيحية والتصالح معها رغم كل ما أظهره من أنكار لها من الهجوم العنيف الذى شنه على واو .ك . كليفورد (١٨٤٥ - ١٨٧٩) عالم الرياضيات النابغة بسبب ما أظهره كليفورد من شراسة وضراوة ضد الدين المسيحى . والذى أغاظ أرنولد وهيج مشاعره ضد كليفورد أن كليفورد سعى إلى تحطيم الدين تحطيماً كاملاً واعتبر الماضى عبثا سخيفاً وثقيلاً ينوء به كاهل الإنسانية . نادى كليفورد بأن العلم وحده هو السبيل إلى تقدم الإنسانية كما نادى بضرورة التخلص بغير رجعة من عبء التقاليد والماضى الذى يكبل حرية الإنسان . وأرنولد لا يستطيع أن يستغنى لا عن الماضى ولا عن التقاليد الأمر الذى يؤكد أن عواطفه كانت واضحة المحافظة .

ويرد بعض الدارسين مهادنة أرنولد لكنيسته الإنجليكانية بوجه خاص إلى الجانب البراجماتى

فى شخصيته فقد جعله هذا الجانب يدرك أن الشعب الإنجليزى المحافظ لن يستسيغ أفكاره الثائرة والمتمردة إلا إذا قدمت إليه فى قالب محافظ وبلغة الكتاب المقدس . ويحتفظ ماثيو أرنولد للعهد القديم بمكانة خاصة فى قلبه تفوق بقية أجزاء الكتاب المقدس فهو يتمثل فى العهد القديم الحرص والإصرار على الدعوة إلى الفضيلة . وأيضاً احتفظ أرنولد فى قلبه بمكانة خاصة واحترام عميق لكتاب الصلوات ونسخة الملك جيمس المعتمدة من الكتاب المقدس . وقد عبر أرنولد فى الفصل المسمى «الممارسون الليبراليون عندنا» الذى تضمنه كتابه الشهير «الثقافة والفوضى» عن رأيه فى هذا الصدد قائلاً : «إنه لا يساعدنى على التفكير بوضوح أكبر أن أرى آلاف الناس يفكرون مثلما أفكر أنا . ولكنه يساعدنى أن أتعبد بعاطفة أكبر أن أرى آلاف الناس يعبدون ما أعبد . إن ما يتفق عليه الرأى العام والايغال فى القدم والمؤسسات العامة والطقوس الراسخة والصروح القومية من تقديس وتكريس تعنى كل شىء بالنسبة للعبادة الدينية .» وهذا ما حدا ماثيو أرنولد إلى التطلع من آن لآخر إلى نظام للعبادة أقدم وأكثر شمولاً ورسوخاً من الكنيسة الإنجليكانية . فقد كان يأمل أن يجدد الكاثوليك أنفسهم فيدركوا أن الطقوس والعبادة أهم من العقائد الجامدة وأكثر شمولاً منها . وهذا ما تنبه إليه الفيلسوف الدينى الكبير باسكال فقد نصح الكافرين بالمداومة على الاستماع إلى القداس فهذه الطقوس تروق عامة المتعبدين أكثر من أى شىء آخر . إن حب ماثيو أرنولد لعراقة التقاليد جعله يزور عن بعض المذاهب البروتستانتية المستحدثة وأغراه على الاتجاه إلى المذهب الانجليكانى الأكثر عراقة . ولعلنا نذكر أن حبه للتقاليد هو الذى جعله يضيق ذرعاً بثورة كليفورد الجامحة التى تهدف إلى الإطاحة بالدين لصالح العلم . وهكذا نجد أن أرنولد الذى لا يؤمن بوجود إله مسيحى أو بالدين المسيحى أحب فى المسيحية طقوسها الراسخة وما خلفه العالم المسيحى من تراكمات أخلاقية .

١٨ ـ آرثر هيو كلاف (١٨١٩ - ١٨٦١)

ولد الشاعر الإنجليزى كلاف فى ليفربول فى أول سبتمبر ١٨١٩ . وهو ينحدر من عائلة من مقاطعة ويلز . هاجر والده التاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٨٢٢ حيث عاش الطفل فى جنوب كارولينا . وفى عام ١٨٢٨ قامت العائلة بزيارة إنجلترا وهناك ألحقت نجلها بمدرسة سيستر ثم انتقل عام ١٨٢٩ إلى مدرسة رجبى التى كان توماس أرنولد أبو ماثيو أرنولد ناظراً لها . عاش كلاف طفولة وحيدة ولكن هذا لم يمنعه من الاشتراك فى الأنشطة المدرسية وفى مجلة المدرسة . وفى عام ١٨٣٦ عاد والده إلى مدينة ليفربول . وفى عام ١٨٣٧ حصل على منحة دراسية أهلته للالتحاق بكلية باليول بأكسفورد . كانت أكسفورد آنذاك تمور بنفوذ المصلح الدينى الكبير نيومان . ويبدو أن حماسه لنيومان أضاع وقته الأمر الذى ضيع عليه فرصة الالتحاق بوظيفة زميل فى كلية باليول . ولكنه تمكن من الحصول فيما بعد على وظيفة مدرس بكلية أوريل بجامعة أكسفورد . وشيئاً فشيئاً أخذ الشك فى الدين المسيحى يراوده حتى استولى عليه فتخلى عام ١٨٤٨ عن وظيفة التدريس بجامعة أكسفورد لأن الاعتراف بالدين كان شرطاً من شروط الاحتفاظ بها . وأحس بعد استقالته بكابوس ينزاح عن صدره فبدأ يتجه إلى ممارسة القريض والتأليف الأدبى . غير أنه خلف وراءه عدداً

محدوداً من القصائد والدواوين . ثم سافر إلى باريس فى العام نفسه (١٨٤٨) . وهو وقت كانت هذه المدينة تمور فيه بالثورة .

وفى خريف عام ١٨٤٩ بدأ عمله كمدير للمدينة الجامعية حيث يعيش طلبة جامعة لندن . وفى مدينة لندن توثقت علاقته بعائلة كارليل . ولكنه ما لبث أن اكتشف شدة كراهيته لمدينة لندن التى سادها آنذاك المذهب اليونيتارى المنكر للثالوث والمؤمن بأن الله أقنوم واحد . وفي عام ١٨٥٢ شجعه الأديب الأمريكى إميرسون على الهجرة إلى ولاية ماساشوستس حيث أمضى بضعة شهور فى إلقاء المحاضرات وترجمة بلوتارك . ثم عاد إلى لندن فى العام التالى (١٨٥٣) حيث قبل وظيفة فى إدارة الامتحانات . وتزوج كلاف وعاش عيشة مستقرة وفى عام ١٨٥٦ عين فى لجنة لدراسة بعض جوانب التعليم العسكرى خارج إنجلترا . وبحلول عام ١٨٦٠ أخذت صحته فى الاعتلال فاضطر إلى السفر من أجل الاستشفاء فزار بعض بلاد الشرق والغرب مثل فرنسا وسويسرا وإيطاليا وفى فلورنسا بإيطاليا أصيب بمرض الملاريا كما أصيب بالشلل وقضى نحبه فى ١٣ نوفمبر ١٨٦١ وهو فى الثامنة والأربعين فنعاه ماثيو أرنولد فيما كتبه بعنوان «تايرسيس .» ورغم قلة إنتاجه الشعرى وافتقاره إلى الجانب الحرفى من القريض فإنه حاول التجديد فى البحور والأوزان .

تميز كلاف بهدوء الطبع ورجاحة العقل وبالحس الأخلاقى الرفيع واتسم ببرود الفكر وعدم السماح للأفكار الهوجاء بالتغلب عليه . وهو يختلف فى إلحاده عن سائر أقرانه فى العصر الفيكتورى . ففى حين استطاعوا التوصل إلى بدائل تحل محل الدين آمنوا بها بكل ثقة ويقين احتفظ كلاف بموقفه الشكاك فى كل شىء . ولهذا كان شكه يختلف عن شك غيره من المفكرين والأدباء فى العصر الفيكتورى . ولا غرو فقد درج على النظر إلى أى شىء من أكثر من جانب وزاوية . ويبدو أن موقفه المتشكك فى كل شىء دعاه إلى إتخاذ مواقف سلبية حتى فى حياته الخاصة الأمر الذى انتهى به إلى العجز عن اتخاذ أى قرار على الصعيد الشخصى . ويتضح لنا هذا من علاقته بفتاته وحبيبته بلانش سميث فقد ترك لها أن تحدد إذا كانت ترى الزواج منه أم لا . وقد بلغ شكه فى كل شىء حداً جعل واحداً من أقرب الناس إليه يعترف بأنه ليس متأكداً من كفر كلاف بالدين . وفى ٣ مارس ١٨٤٩ أرسل كلاف خطاباً إلى البروفست هوكنز عميد كلية أوريل يعبر فيه عن عزمه على الاستقالة من زمالته بالكلية لأنه لم يعد يؤمن بالدين . والغريب فى أمر هذا الخطاب أن صاحبه يقول إنه يستحيل على أى إنسان أن ينبذ المسيحية نبذاً كاملاً . يقول كلاف فى خطابه «لست أعتقد أن الشباب على استعداد لنبذ المسيحية نبذاً مطلقاً» .

ويختلف كلاف عن سائر المتشككين فى العقيدة المسيحية من ناحية أخرى فقد تشكك فى سلامة القيم الأخلاقية التى تتضمنها هذه العقيدة فى حين أن تشكك الآخرين فيها لم يمنعهم من الاقتناع بصحتها مثلما رأينا فى حالة ماثيو أرنولد . ولعل هذا نفر منه عدداً كبيراً من القراء فى عصره . أضف إلى ذلك أن شعره كان يخلو من الإيقاع المألوف لدرجة أنه اقترب أحياناً من شعر شكسبير الحر . ويرى بعض الدارسين أن شك كلاف أثر فى نوعية الشعر الذى قرضه بما يتضمنه من

تذبذب وتردد وتكرار العبارات تكراراً ينم عن الشك الذى يؤمن به .

ويصف هربرت سبنسر شخصية كلاف بالتحفظ والامتناع عن الاشتراك فى الأحاديث العامة . وأضاف أن وجهه يبدو عليه الإرهاق فلا تعرف إذا كان هذا دلالة على إنهاك قوته أو كآبة عقله . ولكن هذا لايمنع بعض قصائد مثل «الرجل ذو العقل المزدوج» من مزج الجد بالهزل والدعابة بالهجاء . وهو يقلد الوصايا العشر الواردة فى التوراة كما يحاكى تعاليم المسيح الخاصة بمحبة الله والجار . ويفضح كلاف فى شعره نفاق المجتمع الفكتورى إزاء الجنس فهذا المجتمع الذى يصر على طهارة المرأة لا يجد غضاضة فى السماح لبعض النسوة بممارسة الدعارة . لقد تمتع كلاف بالقدرة على التفكير الواضح وعبر عن شكه بجلاء بالرغم من أن ذاته كانت منقسمة على نفسها . ومعنى هذا أنه استطاع إخفاء كل تناقضاته النفسية ليقدم إلينا ما يعنّ له من أفكار فى ثوب ناصع الوضوح . وهو يمحص مشاعره المهتاجة المضطربة على نحو هادىء فلا يسمح لها أن تستبد به أو تطغى عليه . ويعيب عليه بعض النقاد عجزه عن صياغة شكوكه وعواطفه المتنوعة فى كل واحد يرضى عنه القارىء وأيضاً عجز كتاباته عن التأثير فى الناس .

ونحن نراه ينبذ المسيحية فى قصيدته «يوم عيد القيامة» بجلاء لا نجد له نظيراً فى أية قصيدة فكتورية أخرى . ففيها نشاهد رفضه القاطع والصريح للدين المسيحى . يقول كلاف فى لهجة لا تعرف المداراة أو المواربة إن المسيح لم يقم من الأموات . غير أنه ما لبث بعد ذلك أن تخلى عن أسلوبه الجازم فى التعبير عن كفره ليعود إلى سالف شكه فى كل ما يعرض له من إنكار . ولعل أكثر ابياته مدعاة للقتامة والتشاؤم تلك التى تقول :

ليس هنا جحيم سوى جحيم الدنيا
فهى تؤدى هذا الغرض المزدوج على نحو متقن
إذ أنها تنزل الشرور بالتساوى
على رؤوس الظالمين والعادلين على حد سواء

والتشاؤم هنا لا يخترمه بصيص واحد من النور والأمل وتتضاءل أمامه ضروب التشاؤم الفكتورى كافة .

١٩ ـ صامويل بطلر (١٨٣٥ - ١٩٠٢)

كان صامويل بطلر المولود فى منطقة نوتنجهام شير فى ٤ ديسمبر ١٨٣٥ ابن قسيس . وتعلم الابن فى مدرسة شروزبرى ثم فى كلية سانت جون بجامعة كامبردج . وفى عام ١٨٥٨ أظهر تفوقاً فى دراسة الأدب الكلاسيكى القديم . وكان يستعد للانخراط مثل والده فى سلك الكهنوت . ولكنه لم يفعل هذا بسبب نبذه للدين المسيحى . وفى خريف عام ١٨٥٩ هاجر إلى نيوزيلندا حيث صار مالكاً لقطيع كبير من الأغنام فى مقاطعة كانتربرى هناك . واستطاع أن يجمع من رعى الغنم ثروة متواضعة ما لبث أن بددها بعد عودته إلى إنجلترا فى استثمارات فاشلة . وقد استمد من معرفته

بمنطقة رانجيتاتا بنيوزيلندا الخلفية التى تدور عليها أحداث روايته «ايرهون» (١٨٧٢) التى تهاجم نظرية التطور لداروين كما تهاجم الدين التقليدى . وفى عام ١٩٠١ كتب بطلر تكملة لهذه الرواية بعنوان «العودة لزيارة ايرهون» . وفى عام ١٨٧٣ نشر كتاباً ذا اتجاهات مماثلة بعنوان «الملاذ الجميل» .

وصامويل بطلر رجل متعدد المواهب توفر على دراسة الآداب الكلاسيكية القديمة والنقد الشكسبيرى والبيولوجيا والفن . وبعد عودته من نيوزيلندا إلى إنجلترا درس الرسم وقام بعرض لوحاته بانتظام فى الفترة بين ١٨٦٨ و١٨٧٦ . ولكنه فى عام ١٨٧٧ استهواه النشاط الأدبى وممارسة الكتابة فألف كتاب «الحياة والعادة» وأعقبه بكتب تهاجم مذهب داروين وهى «التطور فى الماضى والحاضر أو نظريات بيفون .» و«الدكتور إيرازموس داروين ولامارك بالمقارنة بتشارلس داروين» (١٨٧٩) ثم «الذاكرة اللاواعية» (١٨٨٠) وفى كتابه «الحظ أو المكر» (١٨٨٦) نراه يهاجم الشهرة الكاسحة التى حظى بها عالم البيولوجيا المعروف تشارلس داروين مؤلف «أصل الأنواع» . يقول بطلر فى الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب عن تشارلس داروين : «بوجه عام ينبغى على أن أتشكك فى أنه يتفوق على تسعة أعشار الناس الذين يرقبون الطبيعة ويرصدونها ممن لديهم الميل إلى استقصاء التاريخ الطبيعى» . وبفضل معرفته الوثيقة بفن الرسم فى إيطاليا عرف بطلر بنى جلدته ببعض روائع الفن الإيطالى . وكان يحفظ معظم «الإلياذة» و«الاوديسا» عن ظهر قلب وقام بترجمتها إلى النثر الإنجليزى الدارج فى الفترة بين ١٨٩٨ و١٩٠٠ . وذهب بطلر فى أحد مباحثه إلى أن الأوديسا من تأليف امرأة . وفى عام ١٨٩٩ ألف بطلر كتاباً بعنوان «سوناتات شكسبير» هاجم فيه شروح النقاد التقليديين لها . وإلى جانب ذلك حذق بطلر الموسيقى زاعماً أنه يقتفى أثر الموسيقار هاندل .

وقد اشتهر صامويل بطلر فى الأدب الإنجليزى بثلاث روايات أشرنا إلى اثنتين منها هما «ايرهون» و«العودة لزيارة ايرهون» . أما الثالثة وهى أشهرها جميعاً فتعرف بعنوان «طريق كل البشر» . وتصور رواية «العودة لزيارة إيرهون» ابن بطل رواية «ايرهون» وقد عاد إلى البلد التى كان أبوه قد تركها منذ ثلاثين عاماً واختفى عن الأنظار فى منطاد أو بالون ارتفع بهذا الأب إلى عنان السماء . واعتقد الناس أن الرجل صعد بمعجزة إلى السماء وبدأوا يعتبرونه مؤسساً لدين جديد يعرف بأبناء الشمس . وذاع هذا الدين وانتشر بين الناس حتى أصبح دين الدولة الرسمى . وبعد صعود الأب فى المنطاد إلى السماء أخذ الناس يسمونه «ابن الشمس» كما أنهم كانوا فى سبيلهم إلى إقامة معبد عظيم تكريماً له . ولكن الحقيقة أبعد ما تكون عن ذلك فهذا الدين لا يعدو أن يكون خدعة ومؤسس هذا الدين هو والد لابن غير شرعى . فضلاً عن أن كهنة هذا الدين الجديد يستخدمونه لتضليل الجماهير والضحك على ذقونهم . وتتضمن هذه الرواية التى تسخر من الدين الجديد ايماءات مفادها أن القديس بولس وبقية الرسل كانوا يدعون الناس إلى اعتناق دين يعرفون أنه زائف رغبة منهم فى التكسب والتربح من ورائه . لقد كان ابن الشمس يدعو إلى الأخلاق التى يحض عليها الدين المسيحى . ولكن أتباعه شاءوا بعد رحيله أن يشوهوا ألفاظه ويغيروا معانى هذه الألفاظ

وذلك بإضافة بعض المعانى الجديدة إلى السجلات المقدسة التى خلفها وراءه بعد وفاته مثل تحويل الصلاة «اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا» إلى «اغفر لنا ذنوبنا ولكن لا تغفر للمذنبين إلينا» . لأن هذا التغيير أقرب إلى الواقع ويتمشى مع أنانية الإنسان أكثر مما تتمشى منعها الصلاة الأولى الموغلة فى المثالية . ويوحى هذا التغيير بأن بطلر يريد بذلك أن يقول إنه يحق للمسيحيين أن يدخلوا التحسينات على عقيدتهم المسيحية حتى تتمشى مع الواقع .

ويتضمن كتاب «الملاذ الجميل» (١٨٧٣) لبطلر الشواهد الدالة على صحة قيامة المسيح وكذبها فى آن . يقول بطلر فى هذا الكتاب :

«إن التناقضات الموجودة فى الأناجيل الأربعة لا ينبغى أن تشككنا فى صحة الدين المسيحى لو أمكننا إثبات أن قيامة المسيح وصعوده أحداث وقعت بالفعل» . إن بطلر لم يؤمن قط بصعود المسيح ومن ثم فإنه لا يهدف بحال من الأحوال إلى الدفاع عن المسيحية . ويبدو أن بطلر تظاهر بالدفاع عنها هنا بهدف الزراية بها والسخرية منها .

إن بطلر يهاجم الدين المسيحى بصراحة ودون مواربة فى رواية «العودة لزيارة ايرهون» وبطريقة مقنعة بعض الشىء فى روايته «طريق كل البشر» وتظاهر بالدفاع عنه فى «الملاذ الجميل» وتروى رواية «طريق كل البشر» قصة شاب ينخرط فى سلك الكهنوت ويشتعل لفترة وجيزة من حياته بالحماس الدينى التبشيرى والرغبة العارمة فى دعوة الناس إلى العقيدة المسيحية . ولكن هذا الشاب سرعان ما تراوده الشكوك فى صعود المسيح إلى السماء الأمر الذى أفقده إيمانه وجعله ينحرف مع امرأة يتخذها عشيقة له .

وقد نشر بطلر كتاباً محدود القيمة للغاية عن العلم بعنوان «الحياة والعادة» الذى سبق الإشارة إليه . وفيه يذهب إلى أن الرضيع يذكر ما فعله الرضعاء من أسلافه الأمر الذى يجعله لا يخطىء عندما يرضع من ثديى أمه . وهى نظرية واضحة الغثاثة وتدل على أن بطلر ليس عالماً بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة .

لقد تفرد بطلر بإنكاره لكل شىء يؤمن به الآخرون واعتاد على البصق على كل ما اعتادوا الإعجاب به ، فهو لا يرى شيئاً مقدسا إلا وأحس بالرغبة فى ركله وتحطيمه . بل إنه يسعى ما وسعه السعى إلى تحطيم مظاهر الحياة الفكتورية كافة مثل الإيمان بالمسيحية . هذا إلى جانب هجومه على نغمة اليقين التى استخدمها كثير من اللاأدريين الفكتوريين عند التعبير عن آرائهم . ولم تنج جدية المجتمع الفكتورى وإيمانه باطراد التقدم العلمى وقيمه الأسرية من سخريته اللاذعة . والأهم من هذا أنه يسخر من المفكرين الفكتوريين أمثال جون ستيورات ميل الذين سمحوا لأنفسهم أن يتأثروا بتعاليم المسيحية رغم إنكارهم لها .

كتب وأبحاث أخرى للمؤلف

١ - كتب باللغة العربية :

(١) برتراند راسل الإنسان ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦١ .

(٢) برتراند راسل المفكر السياسى ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٣) دراسات تمهيدية فى الرواية الإنجليزية المعاصرة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦ .

(٤) توفيق الحكيم الذى لا نعرفه ، مطبعة وهدان ، ١٩٧٤ .

(٥) اتجاهات سياسية فى المسرح قبل ثورة ١٩١٩ ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩ .

(٦) برتراند راسل تأليف آلان وود (ترجمة) ، الأندلس ، بيروت ١٩٨١ .

(٧) س . ب . سنو والثورة العلمية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨١ .

(٨) موسوعة المسرح المصرى الببليوجرافية (١٩٠٠ - ١٩٣٠) ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢ .

(٩) موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٨٤ .

(١٠) شكسبير فى مصر ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦ .

(١١) ماذا قالوا عن أهل الكهف ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦ .

(١٢) جورج أورويل (حياته وأدبه) ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ .

(١٣) الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها ، الألف كتاب الثانى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩ .

(١٤) وول سوينكا (ترجمة) ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩ .

(١٥) أدباء روس منشقون فى عهد جوزيف ستالين ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩١ .

(١٦) الأدب الروسى والبريسترويكا ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٩١ .

(١٧) الأدب والجنس ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ١٩٩٣ .

(١٨) الثالوث المحرم ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٩٤ .

(١٩) الشذوذ والإبداع ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٩٥ .

(٢٠) دراسات فى الأدبين الإنجليزى والأمريكى ، كلية الألسن - جامعة عين شمس ، ١٩٩٥ .

(٢١) الالحاد في الغرب سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربي القاهرة وبيروت ١٩٩٧.

(٢٢) الهرطقة في المسيحية سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربي القاهرة وبيروت ١٩٩٧.

(٢٣) من ستالين إلى جورباتشوف ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٩٦ .

(٢٤) سيرة برتراند راسل ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٩٦ .

(٢٥) ملحدون محدثون ومعاصرون (تحت الطبع) .

٢ - مقالات باللغة العربية :

١ - **فى مدح الكسل** (ترجمة عن برتراند راسل) ، الكاتب ، أكتوبر ١٩٦١ .

٢ - **إطار المذهب الإنسانى** (ترجمة عن جوليان هكسلى) الآداب البيروتية أعداد ديسمبر ١٩٦٢ ويناير وفبراير ١٩٦٣ .

٣ - **تحديد النسل** (ترجمة عن جوليان هكسلى) ، الأهرام ٢٠ أغسطس ١٩٦٣ (ثلاث حلقات) .

٤ - نقد رواية العنقاء تأليف لويس عوض ، المجلة ، القاهرة فبراير ١٩٧٠ .

٥ - صورة دوريان جراى ، تراث الإنسانية ، القاهرة مجلد ٥ عدد ٤ .

٣ - كتب باللغة الإنجليزية :

1 - Naguib Mahfouz. **The Beginning and the End** (translation), The American Univ. in Cairo, 1975.
2 - **Geore Orwell as an Ambivalent Writer.** National Bookshop, Cairo, 1978.
3 - **Animal Farm,** National Bookshop, Cairo, 1978.
4 - **Nineteen Eighty Four** National Bookshop, Cairo, 1978.
5 - **Hardy's Tragic and Ironic Vision in Tess,** National Bookshop, Cairo, 1978.
6 - **Shakespeare in Egypt,** Rapack, Cairo, 1980.
7 - **English Literary Criticism,** Univ. Books, Tanta, 1985.
8 - **Macbeth,** Anglo - Egyptian, Cairo, 1988.
9- **The Mayor of Caster bridge,** Anglo - Egyptian, Cairo.
10 - **Sons and Lovers,** Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
11 - **Joseph Andrews,** Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
12 - **King Lear,** Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
13 - **Merchant of Venice,** Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
14 - **Jane Eyre,** Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
15 - **A Passage to India,** Anglo - Egyptian, Cairo, 1994.
16 - **Robinson Crusoe,** Anglo - Egyptian, Cairo, 1994.
17 - **Animal Farm,** Anglo - Egyptian, Cairo, 1995.
18 - Forthcoming : **Egypt in the Modern British Novel** : A Collection of Articles on Newby, Ghali, Enright, Forster, Liddell and Olivia Manning, Published in Al **Ahram Weekly** in the following issucs, 4 July, 5 September, 10, 24 October (1991) and 23 , 30 January, 1, 23 Abril (1992).

٤ - مقالات باللغة الإنجليزية

1 - John Wain's **"Young Visitors,"** Faculty of Alsun Journal, 1975.
2 - **"King Lear as a Religious Play,"** Faculty of Alsun Journal, 1976.
3 - **"Orwell as a Literary Critic,"** Faculty of Alsun Journal, 1976.
4 - **"The Development of Liberal Culture in Modern Egypt"** : a series of articles published in the **Egyptian Gazette** in the following issues, 23 . 30 March, 6. 13. 20. 27. 28 April, 4. 11 May, 1983.